الكسي تولستوي

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الثالث

صباح غائم



دار التقدم

موسكو

الكسي تولستوي

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الثالث

صباح غائم



دار التقدم

موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان

А. Толстой

ХОЖДЕНИЕ ПО МУКАМ

Трилогия

Книга третья

ХМУРОЕ УТРО

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

T $\frac{70302-694}{014(01)-76}$ 594—75

«لنعش منتصرين او لنمت امجادا»

سفياتوسلاف *

١

كان شخصان – رجل وامراة – جالسين عند نار موقدة. وريح باردة تهب على ظهريهما من منخفض فى السهب ، صافرة فى سيقان القمح التى تساقطت حبات سنابلها منذ زمن بعيد . كانت المراة تضع قدميها تحت تنورتها ، حاشرة كفيها فى كمى معطفها من القماش السميك . وكان لا يرى من تحت منديلها الصوفى النازل على عينيها غير أنفها المستقيم وشفتيها المزمومتين بعناد .

لم تكن النار كبيرة ، مجرد اقراص مجففة من الروث جمعها الرجل مؤخرا من حول ابقار جاءت تشرب الماء من المنخفض . وكان اشتداد الريح يضايقهما .

– من الاروح جدا الاستمتاع بجمال الطبيعة تحت فرقعة الحطب فى موقد ، وانت تنظرين فى النافذة ساهمة . . . يا الهى ، ما اوحش السهب ! . .

قال الرجل ذلك بصوت خافض وبارتياح خبيث . ادارت المرأة نحوه حنكها ، الا أن شفتيها لم تنفرجا ، ولم تجبه . كانت متعبة من السفر الطويل ومن الجوع ، ومن افاضة هذا الرجل فى الحديث ، ونفاذه يتباه الى اعمق بواطن افكارها . دفعت راسها الى الوراء قليلا ، ونظرت ، من تحت منديلها المنزل ، الى الغروب الخريفى الكابى من وراء التلال التى لاتكاد تلحظ . ويمتد خطا نحيلا لا يضئ السهب الخالى المقفر .

---

* امير دولة كييف عرف بشجاعته الفائقة . **(الناشر)** .

ترجمة غائب طعمة فرمان

А. Толстой

ХОЖДЕНИЕ ПО МУКАМ

Трилогия

Книга третья

ХМУРОЕ УТРО

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

$T\frac{70302-694}{014(01)-76}$ 594—75

«لنعش منتصرين او لنمت امجادا»

سفياتوسلاف *

١

كان شخصان – رجل وامراة – جالسين عند نار موقدة . وريح باردة تهب على ظهريهما من منخفض فى السهب ، صافرة فى سيقان القمح التى تساقطت حبات سنابلها منذ زمن بعيد . كانت المراة تضع قدميها تحت تنورتها ، حاشرة كفيها فى كمى معطفها من القماش السميك . وكان لا يرى من تحت منديلها الصوفى النازل على عينيها غير أنفها المستقيم وشفتيها المزمومتين بعناد .

لم تكن النار كبيرة ، مجرد اقراص مجففة من الروث جمعها الرجل مؤخرا من حول ابقار جاءت تشرب الماء من المنخفض . وكان اشتداد الريح يضايقهما .

– من الاروح جدا الاستمتاع بجمال الطبيعة تحت فرقعة الحطب فى موقد ، وانت تنظرين فى النافذة ساهمة . . . يا الهى ، ما اوحش السهب ! . .

قال الرجل ذلك بصوت خافض وبارتياح خبيث . ادارت المراة نحوه حنكها ، الا ان شفتيها لم تنفرجا ، ولم تجبه . كانت متعبة من السفر الطويل ومن الجوع ، ومن افاضة هذا الرجل فى الحديث ، ونفاذه بتنباه الى اعمق بواطن افكارها . دفعت راسها الى الوراء قليلا ، ونظرت ، من تحت منديلها المنزل ، الى الغروب الخريفى الكابى من وراء التلال التى لاتكاد تلحظ . ويمتد خطا نحيلا لا يضى* السهب الخالى المقفر .

* امير دولة كييف عرف بشجاعته الفائقة . (الناشر) .

– سنشوى البطاطس الآن ، يا داريا دميتروفنا ، فرحة للقلب والجسد . . يا ربى ، ماذا كنت تفعلين لو لم اكن معك !

وانحنى ، وشرع يختار أمتن اقراص الروث ، ويقلبها بين يديه ، ويضعها بعناية على النار . . جوّف جزءا من الجمر ، وشرع يدفن البطاطس فيه ، مخرجا اياها من جيوب معطفه العميقة . كان له وجه محمر يرتسم عليه مكر شديد – بل وخبث – ذو أنف لحيم مفلطح فى ارنبته ، ولحية هزيلة ، وشاربين نحيلين ، وشفتين متمطقتين .

– انا افكر فيك ، يا داريا دميتروفنا . تنقصك الوحشية وروح التشبث ، بينما حضارتك سطحية ، يا عزيزتى . . . انت تفاحة محمرة حلوة ، ولكن غير ناضجة .

كان يقول ذلك ، وهو منشغل بالبطاطس التى سرقها من حديقة خضروات ، اثناء مرورهما بعزبة فى السهب . وكان منخرا أنفه اللحيم اللامع من الحرارة يرتعشان بنباهة ومكر . كان هذا الرجل يدعى كوزما كوزميتش نيفيدوف . وقد اضجر داشا ضجرا شديدا بثرثرته وحدسه للافكار .

وكانا قد تعرفا قبل بضعة ايام فى قطار كان يسير بجدول مواعيد غريب ، وخط سير عجيب ، ثم اخرجه القوزاق البيض عن الخط .

وقد بقيت العربة الاخيرة ، التى كانت داشا تسافر فيها ، على السكة ، الا أنها تعرضت لنار رشاشة فهرب كل من كان فيها هائما فى السهب ، فقد كان لامحالة من نهب المسافرين والتنكيل بهم ، كما جرت العادة فى ذلك الوقت .

وكان كوزما كوزميتش قد وضع بصره على داشا وهما فى العربة ، فقد اعجبته بشىء ما ، رغم أنها لم تنجذب الى الاحاديث الصريحة . والآن ، وهما فى السهب المقفر عند الفجر تشبثت هى به . كان الوضع حرجا . فقد كانت الطلقات والصيحات تسمع من المكان الذى انقلبت فيه العربات على المنحدر ثم شب لهب طرد ظلالا داكنة من مجاميع الارقطيون القديمة واجمات الافسنتين اليابسة التى مسها الجمد . فكيف كانت تجد طريقها فى هذا السهب الشاسع ؟

وبينما كان كوزما كوزميتش يسير الى جنبها فى الفجر المخضوضر ، حيث كانت تتسرب رائحة دخان موقد كان يناقش على هذا النحو : «فضلا عن أنك فزعة فانت ، ايتها الحسناء ، تعيسة ، كما يبدو لى . وانا رغم التقلبات العديدة ، لم اعرف التعاسة قط بل ولا حتى الضجر . . . كنت كاهنا ، ولكننى جردت من لباس الكهنة لحبى للتفكير الحر ، واودعت الدير . وها أنا اضرب «فى الارض» كما يقول التعبير القديم . فاذا كان الانسان بحاجة ، لكى يسعد نفسه ، الى فراش دافئ لا محالة ، والى مصباح هادئ ، ورف من الكتب وراء ظهره فانه لن يعرف ما تعنى السعادة . فانها لمثل هؤلاء الناس الغد دائما ، ولكنهم فى يوم ما لن يجدوا غدا ولا سريرا . فلن يبقى لديهم سوى حسرة ابدية . . . ها أنا اضرب فى السهب ، وانفى يشم رائحة خبز طازج . ومعنى ذلك ان فى تلك الناحية ضيعة . ثم سرعان ما نسمع نباح الكلاب . يا الهى ، ما اروع الفجر ! والى جانبى رفيق سفر فى هيئة ملاك يئن ويثير شفقة قلبى ، والرغبة فى الانطلاق . فمن انا اذن ؟ أنا اسعد انسان . فى جيبى كيس ملح دائما ، وفى حدائق الخضروات توجد بطاطس دائما . ثم ماذا ؟ عالم زاه تتصادم فيه العواطف . . . لقد فكرت كثيرا جدا ، يا داريا دميتروفنا بمصير مثقفينا وينبغى ان اقول لك ان هذا كله ليس شيئا روسيا . . . ولهذا ذرته الريح ، فاصبح يبابا ، مع الاسف . . . اما أنا ، الكاهن المخلوع ، فانال مبتغاى من الصبوات ، وانوى أن استمر فى ذلك زمنا طويلا . . .»

ولو لا هو لهكلت داشا . فلم يكن يخيب فى حال من الاحوال . عندما وصلا عند مطلع الشمس الى عزبة تقف فى السهب الأجرد الخالى ، اسطبل خيولها فارغ ، وسقف فنائها الطينى محروق ، لقيهما عند البئر قوزاقى اشيب حانق يحمل بندقية . صاح وقد لمعت عيناه الوضاءتان المجنونتان من تحت حاجبين معقودين : «انصرفا !» استطاع كوزما كوزميتش ان يضلل هذا العجوز بخفة قائلا «وجدت من تصيح عليه ، يا جد . آه ، آه ، يا ارضى العزيزة ! نحن نجرى ليلا ونهارا هاربين من الثورة ، وقد تقرحت اقدامنا ، وتشقق لساننا من العطش . فاعمل معروفا ، واقتلنا ، فطريقنا مسدود ، على اية حال» . وظهر ان العجوز لم يكن فظا ، بل دامع العينين . وقد

جند ابناءه في فيلق مامونتوف ، وتركت كنتاه العزبة الى القرية . ولم يفلح الارض في تلك السنة . ومرّ الحمر ، واخذوا الحصان لقصد التعبئة . ومرّ البيض وفعلوا الشيء نفسه مع الدواجن . فبقي وحده في عزبته ، وليس لديه غير قطعة من الخبز المخضوضر ، وبعض التبغ المتبقي من السنة الماضية . . .

استراحا في بيته ، وفي الليل واصلا السير متجهين صوب تساريتسين التي كانت اسهل طريق للنفاذ الى الجنوب . كانا يسيران ليلا ، وينامان نهارا وغالبا في اكوام الدريس المتخلفة من العام الماضي . وكان كوزما كوزميتش يتحاشى الاماكن الآهلة . ذات مرة اطل من تل على قرية قوزاقية تمتد بيوتها البيضاء على جانبي بركة طويلة ، فقال :

— ان تجمع من الناس في هذه الايام قد يكون خطرا ، لاسيما للذين لا يعرفون ماذا يريدون . ان ذلك غير مفهوم ومثير للريبة الا يعرف الفرد ماذا يريد . ان الانسان الروسي حار ، يا داريا دميتريوفنا ، ومغرور ، ولا يحسن تقدير قواه . اعطيه مهمة — تبدو اكبر من طاقته ، ولكنها مهمة عظيمة — فستريه ينحني لك اجلالا . . . ولكن حاول ان تنزلي الى قرية فستريهم يمطرونك باسئلة . فبماذا ستجيبينهم ، ايتها المشققة ؟ بانك لم تستقري على راي في موضوع واحد ؟ . .

قالت داشا بخفوت :

— اسمع ، اتركني وشأني .

ورغم ممانعتها اعتزازا وكراهة فقد استطاع كوزما كوزميتش ان يستقصي منها كل شيء : عن ابيها الدكتور بولافين ، عن زوجها الآمر الاحمر ايفان ايليتش تليغين ، عن شقيقتها كاتيا «الفاتنة الوديعة النبيلة» . وذات مرة استيقظت داشا في غسق صاف من نوم مريح على القش ، وذهبت الى الجدول ، واغتسلت ، ومشطت شعرها ، الذي تبعثر تحت المنديل الصوفي ، ثم اكلت ، وانشرحت وقالت فجأة ومن تلقاء نفسها وبدون ان تسال :

— . . . ساقول لك كيف حدث ذلك . . . لم استطع ان اعيش في بيت ابي اكثر من ذلك . . . انت تعتبرني طفيلية . ولكن دعني اقول لك ان رايي في نفسي اسوأ من رأيك بكثير . . . ولكنني

لا استطيع احتمال الشعور بانني مهانة وبانني اسوأ من الجميع . . .

تمطق كوزما كوزميتش ، وقال :

— مفهوم .

قلصت داشا عينيها على النار ، وقالت :

— لا ، لم تفهم شيئا . . . ان زوجي جازف بحياته ليراني لحظة واحدة . انه انسان قوي الشكيمة شجاع شديد العزيمة . . . اما انا . . . فهل تستحق مخلوقة مثلي ان يجازف امرؤ بحياته من اجلها ؟ وبعد هذا الحادث ضربت راسي في افريز النافذة . وكرهت ابي . . . لانه المذنب في كل شيء . . . فاي رجل حقير تافه هو ! وعزمت على السفر الى يكاترينوسلاف ، والبحث عن اختي كاتيا . فقد كان في وسعها ان تفهمني وتساعدني ، ان كاتياي هذه ذكية مرهفة كالوتر . لا تضحك ، ارجوك . فانا اريد ان افعل شيئا اعتياديا شريفا ضروريا . . . ولكن لا اعرف بم ابدا . انما ارجوك الا تثرثر الآن عن الثورة . . .

— لست عازما على الثرثرة ، يا روحي . بل اصغي بانتباه واشعر بعطف .

— اترك هذا العطف . . . في ذلك الوقت كان الجيش الاحمر قد اقترب من سامارا . وهربت الحكومة — كان شيئا مقرفا . . . وطلب ابي بان اسافر معه . وجرى بيننا نقاش . واظهر كل واحد منا ما في قرارة نفسه . وارسل ابي في طلب الحراس : «ستشنقين ، يا عزيزتي !» وبالطبع ، لم يأت احد . فقد هرب الجميع . وخرج ابي الى الشارع وليس معه غير محفظته للاوراق . اما انا فهتفت له من النافذة بآخر كلماتي . . . لا يكره الانسان احدا كرهه لوالده ! وبعد ذلك لففت راسي بالمنديل ، وارتميت على الاريكة انتحب ! وبذلك انقطعت كل حياتي الماضية . . .

وهكذا سارا في السهب مارين بالقرى التي اثارتها الحرب الاهلية . لا يكادان يلتقيان بالناس ، ولا يعرفان ان احداثا دموية كانت تجري في تلك الاماكن : كان جيش الدون القوزاقي العظيم المؤلف من خمسة وسبعين الف نفر قد عاد لمحاصرة تساريتسين بعد اخفاقات آب .

قال كوزما كوزميتش ، وهو يحفر في الرماد ليخرج البطاطس :

– اذا كنت منهوكة ، يا داريا دميتروفنا يمكننا ان نستريح فى هذه الليلة ، فليس بنا حاجة الى الاستعجال . لكننا اخترنا ماوى سيئا . فان الريح الهابة من المنخفض لن تدعنا ننام . من الافضل أن نسير بهدوء تحت النجوم – ما ابدع العالم ! – ورفع وجهه الأحمر الماكر ، وكأنه يتأكد من ان كل شىء على ما يرام فى مملكة السماء – اليست تلك معجزة من المعجزات ، يا حلوة ، أن يسير مخلوقان فى الكون ، يتابعان بذهن مدقق ، تعاقب الظواهر ، وكل ظاهرة ادهش من الاخرى ، يصلان الى استنتاجات لا تلزمهما بشىء ، يشبعان جوعهما وعطشهما ، ولا يكرهان ضميرهما على شىء . . . لا ، لا تستعجلى ان تنتهى الرحلة بسرعة .

واخرج كيس الملح من جيبه ، ووضع بطاطسة على كفه وقلبها نافخا على اصابعه ، وشطرها وناول داشا شطرا .

– طالعت كمية هائلة من الكتب ، وثقلت على ذهنى بلا نظام . حررتنى الثورة من سجن الدير ، وقذفتنى الى الحياة بشكل خال من الرقة تماما . واعطانى رئيس ميلشيا منطقة ساراتوف ، وهو رجل ذكى جدا بقيت محبوسا عنده اسبوعين ، بطاقة هوية كتبها بخط يده : المهنة : طفيلى . التعليم :علم زائف . العقيدة :بلا مبدا . وهكذا ، يا داريا دميتروفنا ، عندما وجدت نفسى بلا شىء غير كيس ملح فى الجيب ، حرا تماما ، ادركت معجزة الحياة . وبدأت المعارف غير المجدية التى تربك ذاكرتى تتبدد ،والكثير منها بدا مفيدا ، حتى من حيث القيمة التبادلية . . مثلا دراسة كف الانسان أو قراءة الكف . فانا مدين كليا لهذا العلم فى الحصول على احتياطى الدائم من الملح .

لم تستمع داشا اليه . ان شيئا ما ، ربما هو صفير الريح الخفيف فى اعواد القمح ، كالحنين الشريد ، جعلها تود كثيرا لو تبكى ، فكانت تلوى عنقها دائما لتنظر الى الغروب الموحش . استولى عليها اليأس من تلك الرحابة اللامتناهية التى كان عليها ان تقطعها بحثا عن ايفان ايليتش ، بحثا عن كاتيا ، بحثا عن نفسها هى . ولعلها كانت ستجد فى الزمن القديم لذة فى اشفاقها على نفسها فى عجزها هذا ، فى ضئالتها ، فى ضياعها فى السهب البارد . . .

لا ، لا ! تناولت داشا قطعة البطاطس من كوزما كوزميتش ومضغتها

بالعة اياها مع دموعها . . . وتذكرت كلمات من رسالة كاتيا التى تسلمتها فى بتروغراد «الماضى مات ، انقضى الى الأبد ، يا داشا» .

– والى جانب الانقطاع التام عن الحياة ، فان الاستعجال العديم النفع ، الانشغال بالتوافه احدى نواقص مثقفينا ، ياداريا دميتروفنا . . . الم تلاحظى مرة كيف يمشى ذوو المهنة الحرة ؟ كيف يطأ ليبرالى الأرض بساقيه الرفيعتين فى نفاد صبر ، وكأنه يسير على نار . . . الى اين ، ولماذا ؟

ان هذا الرجل المزعج كان لا يكف عن الكلام مظهرا نفسه .

– لا ، يجب ان نواصل السير بالطبع . لنذهب .

قالت داشا وشدت منديلها الصوفى على رقبتها بكل قوتها . نظر كوزما كوزميتش اليها متقصيا . وفى ذلك الحين لمعت ومضات فى ظل المنخفض الدامس ، وترددت طلقات .

ما كادت الرصاصات الاولى تطلق حتى ردت الحياة للسهب المقفر الذى تلاشى فوقه خط من الغروب فى السحب البعيدة . لم تلحق داشا أن تقفز ، وهى تمسك بطرفى منديلها . واسرع كوزما كوزميتش الى اطفاء النار بقدميه ، الا أن الريح اشتدت ، فتطايرت الشرر . فاضاء فرسانا منطلقين . كانوا منحنين على رقاب افراسهم يسيطونها مبتعدين عن الطلقات من المنخفض .

ومر كل شىء مندفعا ، وهدأ . ولم يبق الا قلب داشا يخفق بجنون . اخذ صراخ يتقاطر من المنخفض ، وفى اللحظة التالية انثال من هناك رجال مسلحون . كانوا يتحركون بحذر ، منبسطين فى السهب . التفت اقربهم نحو النار ، وصاح بصوت فتى متكسر «اى ، من انتما ؟» رفع كوزما كوزميتش يديه فوق راسه ناشرا اصابعه طيعا . تقدم شاب فى معطف جندى . «ماذا تفعلان هنا ؟» وادار بوجهه ذى الحاجبين الداكنين ، المتهيىء لكل طارئ نحو الجالسين عند النار «جاسوسان ؟ من البيض ؟» ودفع كوزما كوزميتش باخمص بندقيته دون ان ينتظر جوابا : «هيا ، حدثنى ونحن سائرون . . .»

– لسنا الا . . .

– ما هذه «الا» ! الا ترى أننا فى معركة !

لم يحتج كوزما كوزميتش ، وتابع سيره مع داشا تحت

كان ايفان غورا منطرحا على وجهه كبيرا طويلا وقع حالما خرقت الرصاصة قلبه ، باسطا ذراعيه ، وكأنه يحتضن الارض كلها ، لا يريد ان يعطيها للعدو حتى فى موته .

اجتمع الرجال القدامى من فوج كاتشالين من الذين عرفوا ايفان غورا منذ ان كان جنديا احمر ، ثم آمر سرية ، اجتمعوا ليلا فى العراء ، وتشاوروا فى دفن المفوض فى مكان بارز مشهود ، على رابية عالية تطل على شاطىء مانيتش .

كانت الروابى فى ذلك المكان كثيرة متناثرة ، ولكن هذه الرابية مرتفعة كالتل . ولعلها فى الزمن القديم قد رفعت لخيمة الخان لترى من الاعلى الى مسافة بعيدة ارعال الخيل الغفيرة العديدة فى السهب . ولربما فى زمن اوغل فى القدم دفن السكيثيون تحتها زعيمهم مع جواده وزوجته المحبوبة ، ووضعوا فى الاعلى اغصان الصفصاف صفوفا وغرزوا سيفا برنزيا ضخما موجها حده الى السماء . كانوا يعبدونه كآله الخصب والسعادة .

عبّروا المفوض ايفان غورا النهر حاملين اياه بايديهـــم ، ووضعوه فوق الرابية على العشب الربيعى ، ومشطوا شعره ، وغطوا جثمانه الطويل براية الفوج .

كان الليل ساجيا ومنيرا بضوء القمر . ووقف ايفان ايليتش عند قدمى المفوض وسيفه مجرد ووقف عند رأسه بابوشكين مفوض السرية الاولى ، والشيوعى من بتروغراد . ومر المقاتلون الحمر به فردا فردا مودعين ، وكل واحد يحييه ببندقيته .

– وداعا ، يا رفيق . . .

وحين ودعه الجميع ، وحان وقت انزال المفوض فى قبره ، صعد لاتوغين الى الرابية ثانية وصاح :

– اليوم قتل اعداؤنا الالداء افضل رفاقنا . . . لقد علمنا ، لاى شىء اعطيت لى هذه البندقية . . . لنقاتل فى سبيل الحق ! من اجل هذا هى فى يدى . . . وقد كان هو نفسه رجل حق ، رجلنـــا حتى الجذر . . . لقد علمنا : اذا كانت امك قد ولدتك ، فقد صرخت فى الدنيـــا ، وليس لك من قضيـــة غير الكفـــاح من اجـــل الحق . . . وانا ارجو من آمر الفوج والمفوض بابوشكين ان يقبلا منى

طلب انتمائى الى الحزب . . . وانا اقول ذلك باخلاص ، امام هذا الجثمان ، امام الراية . . . .

. . . .

دفن المفوض ، وفى ساعة متأخرة من الليل دعت داشا ايفان ايليتش من المخبأ ، وقالت وهى تفرقع باصابعها :

– اذهب اليها ، ارجوك ، وخذها .

وقادت ايفان ايليتش الى الرابية . وكان الليل قد احلولك قبيل الفجر ، اختفى القمر : والريح السهبية تصفر قرب الاذن .

– تعذبنا انا وانيسيا ، ولكنها لا تصغى لشىء . . . .

كانت اغريبينا جالسة على تلة قبر ايفان غورا على الرابية وقد خفضت رأسها بعبوس ، وقبعتها وبندقيتها بالقرب منها . وكانت انيسيا تجلس على مبعدة منها .

همست داشا :

– انها كالمتحجرة ، والشىء الاهـــم انتزاعهـــا من هناك وجلبها – واقتربت داشا من اغريبينا – انظرى ، ان آمر الفوج ايضا يطلب منك .

لم ترفع اغريبينا رأسها . كانت كلمات الناس تمر بها كالريح المتطايرة فوق القبر . انزلت انيسيا وجهها على ركبتيها وهى ما تزال جالسة على مبعدة . سعل ايفان ايليتش وقال :

– هذا لا يجوز ، يا اغريبينا ، قريبا سيطلع الفجر ، وسننتقل جميعا الى الضفة الاخرى ، فهل تبقين وحدك . . ليس ذلك صحيحا . . .

تمتمت اغريبينا بصوت باهت ، دون ان ترفع رأسها :

– قبلئذ لم اتركه ، والآن ايضا . . . الى اين اذهب ؟

همست داشا ثانية مشيرة الى جبينها :

– اتفهم ؟ . . رأسها مضطرب . . .

– لنفكر ، يا اغريبينا – وجلس ايفان ايليتش مقرفصـــا بالقرب منها – انت لا تريدين تركه . . . أحقا هذا كل ما تبقى من ايفان ستيبانوفيتش ؟ سيعيش فى ذاكرتنا ، ويلهمنا الشجاعة . . . فافهمى ذلك . . انت زوجته ، يا اغريبينا . . . وفى رحمك بذرته ما تزال تنمو . . .

رفعت اغريبينا يديها وضمتهما بالقرب من وجهها وانزلتهما .

انفرجت شفتا داشا . وتدنت منه بحركة اندفاع ، كما يحدث ذلك معها دائما ، وقبلته من خده الحار الخشن . فوجىء الجندى بذلك ، فنظر الى داشا رامشا . . . ونهض ، وامسك بالبندقية ، وابتعد ملقيا حزام البندقية على كتفه . وقال مهددا :

– اتركى ذلك ، فانه لن يساعدك ، ايتها المواطنة .

سالت داشا بلهفة :

– ما الذى يساعدنى اذن ؟ انت وجدت ما تفعله . اما أنا فلم أجد . . لقد هربت من تلك الحياة كالمجنونة . هربت لأجد سعادتى . وانا احسدك . . ليتنى اشد الحزام على معطف عسكرى مثلك !

وقد استبد بها الاضطراب حتى أنها القت المنديل من رأسها ، وعصرت نهايتيه بقبضتيها بكل قوتها .

– كل شىء عندك واضح وبسيط . . . من اجل اى شىء تحارب ؟ لكى تستطيع المرأة ان تنظر الى هذه النجوم دون ان تبكى . . . وانا ايضا اريد مثل هذه السعادة .

كانت تتحدث ، وهو يصغى دون ان يحاول ايقافها ، وقد اربكته هذه العاطفة غير المفهومة . وفى تلك اللحظة خرج من الكوخ آمر الفصيلة ، ونادى بصوت عميق :

– هاى ، اغريبينا ، اجلبى الوغدين هنا .

كان قائد الفوج وآمر الفصيلة ، وكلاهما فى معطف عسكرى وقبعة ذات حافة ناتئة ، يجلسان عند طاولة فى الكوخ واضعين مرفقيهما امام سراج نفطى . وكان قائد الفوج ذو العينين اللامعتين المتباعدتين يضع غليونا بين اسنانه ، وكان وجه الثانى قد لفحته الريح فاضحى كقشرة شجرة . طلب آمر الفصيلة من داشا وكوزما كوزميتش الواقفين عند الباب ان يقتربا قليلا .

– لماذا كنتما فى السهب فى مواقع القوات ؟

وكانت عيناه تحدقان فى عيونهما . ومن تلك النظرة احست داشا بوهن مفاجىء ، وتمتمت بشفتيها الجافتين :

– سيتحدث هو . فهل يمكن ان اجلس ؟

وجلست ماسكة بحافة المسطبة ، ناظرة الى السراج يرف فى قحف من فخار . وبدأ كوزما كوزميتش يتحدث متمطقا وهو

يحرك قدميه بعصبية ، كيف وجد داريا دميتروفنا فى السهب ، وكيف سارا نحو الدون مفكرين فى الغالب بمواضيع سامية . وتحدث بتفصيل عن هذا الجانب من رحلتهما لاهثا مستعجلا حتى لا يقاطع . الا أن الآمرين ظلا جالسين وراء المنضدة مثل عملاقين .

– انه لشىء عظيم ، ايها المواطنان الآمران ، ان يفكر الانسان بامور عظيمة . ماذا اريد ان اقول بذلك ؟ شكرا للثورة على أنها صرفتنا عن الاشياء التافهة الكئيبة ان الانسان ، المخلوق المساوى للاله ، المعد لتحقيق المهمات الرفيعة يحرك مثل اورفيوس الحياة فى الصخر باوتار مزهره ، ويطوع جنون الطبيعة الوحشية – كان هذا الانسان يلطخ اوراق النقد وفكره بضوء فتيلة داخنة بحثا عن سبل احذق لخدع جاره . . . شكرا لكم لتحطيمكم معيشتنا التعيسة ، ويا للعنة على ذكراها ! . . لم يبق شىء يلطخ ، وعليك ، اردت أم لم ترد أن تدير فكرك الى المواضيع الرفيعة . . . وهذا هو اثبات لا خلاصى هذا (واخرج كيس الملح) . . . هذا هو الشىء الوحيد الذى املكه فى الدنيا ، ولا احتاج الى شىء آخر . البقية اما أن اطلبها أو اسرقها . ولكن اريد أن اناقشكما ، ايها المواطنان الآمران . . . انتم تحاربون فى سبيل سعادة الانسان ، ولكن الانسان غالبا ما تنسونه ، وهو عندكم يسقط بين السطور . . . لا تفصلوا الثورة عن الانسان ، لا تجعلوا منها فلسفة تجريدية ، لان الفلسفة دخان يختفى بعد ان يتخذ شكلا غريبا . . ان ما يفسر اهتمامى فى مصير هذه المرأة هو أننى تصفحت فيها رواية شاعرية جذابة، وهى ، بالمناسبة ، ما اجده فى كل انسان اذا نظرت اليه بحب استطلاع ، وبتعطش . . . لأنه الكون نفسه يظهر امامكم فى معطف مهلهل وحذاء مستهلك .

قال قائد الفوج نافذا الدخان :

– حديث ماكر .

وقال آمر الفصيلة بعده :

– ارنى اوراقكم .

تناول الهويتين من كوزما كوزميتش وداشا ، وقدم السراج ، وانحنى كثيرا ، وبلل اصبعه وورق الهويتين بعناية . وكان قائد

يريد فقط ان يصور الشيء الكبير المحسوس الذى حصل لها فى السهوب ، ولكنها لم تستطع التعبير عنه) وحين وصلنا الى هنا بدا وكأننا عائدون من مهرجان . واليوم اعلنت انني خطيبتك ، وقد اعلنت ذلك عن قصد . . فانتهى كل شيء . . . فماذا بعد ؟ انجاب الاطفال . . . ستبنى بيتا ، وعن قريب ستكون ميسور الحال ، ثم ثريا . . . انا عرفت كل ذلك ، وقد خلفته فى الجانب الآخر . . . كان ذلك فى بطرسبورغ ، وكان ذلك فى موسكو ، وكان فى باريس ، والآن يبدأ من جديد فى قرية فلاديميرسكويه .

وكان مثل هذا الضيق فى يديها المطروحتين على ركبتيها ، وفى راسها المنكس بمفرقه الواضح وشعره الكستنائى الدافئ كالرماد . حتى قلص الكسى عينيه بشدة . . . طار طائر النار هذا ، وافلت من يديه . . . قال خافت الصوت :

– انت حمقاء جدا ، يكاترينا ديميتريفنا . مبلبلة الفكر . . . اتريدين ان تخوضى فى الدم مثل اخى سيميون ؟ أستغربت من احاديثك هذه . . . لا ، مع ذلك ، لن اتركك تذهبين . . .

١٣

سافر ايفان ايليتش وداشا الى الفوج ونزلا فى بيت مطلى بالطين فى مزرعة . وكانت غرفة استقبال تليغين المزودة بتلفونات وصندوق للنقود وراية موضوعة فى قرابها على مقربة فى الجانب الآخر من الرواق . ولكن هنا توجد مملكة داشا وحدها : موقد دافئ لم يستخدم للطهى ، الا ان داشا كانت تغتسل فيه متمددة على القش داخله ، كما علمتها القوزاقيات ، وسرير عليه وسادتان قاسيتان وبطانية خفيفة (كان ايفان ايليتش يتغطى بمعطفه) ، ومائدة مغطاة بقماش نظيف كانا يتناولان الطعام عليها ، ومرآة صغيرة معلقة على الحائط ، ومكنسة عند عتبة الباب ، وعلى كوة فى تجويف الموقد المجصص تقف القطة والكلب من الخزف الصينى .

قبل عامين كانت داشا وايفان ايليتش وهما فى غمرة الحب والانطلاق قد اقاما فى وضع كهذا ايضا . ولم يغب عن ذاكرة داشا قط المساء الاول الذى قضياه فى شقتهما الجديدة بنوافذها

المفتوحة على شارع كامينو اوستروفسكى المضمخ بطراوة المطر . وكانت تحس بصفاء وهدوء طهريين . وكان ايفان ايليتش يجلس عند النافذة فى الغسق ، وقد احست انه مرتبك الى حد العذاب ، فقررت ان تأخذ المبادرة بنفسها عارفة ان ذلك سيدخل سرورا عظيما الى قلبه ، فقالت : «نذهب ايفان» . ودخلا غرفة النوم حيث كانت باقة كبيرة من الميموزا فواحة برائحة عذبة موضوعة فى علبة على الارض . فتحت داشا باب الدولاب ، وخلعت ثيابها وراءه ، وعبرت الغرفة حافية ، واندست تحت البطانية ، وسالت بلهجة سريعة «ايفان ، هل تحبنى ؟»

كانت داشا لا تعرف شؤون الحب ، ولو انها انشغلت فيها اكثر من اللازم . وما حدث فى ذلك المساء بينها وبين ايفان ايليتش خيب ظنها . انه لم يكن ذلك الشيء الذى كتب من اجله هذا العدد الضخم من القصائد والقصص الغرامية والموسيقى ، تلك القوة السحرية التى تثير النشوة والدموع ، تلك القوة التى كانت تحس بها وهى جالسة وحيدة فى شقة كاتيا الفارغة تعزف على البيانو «لستين‌وى» الاسود ، فاذا بها تقطع الموسيقى فجأة ، وتنهض ، وتشبك اصابعها ، ولو لم يكن جسدها كله فى تلك اللحظة باردا شفافا كالزجاج لخنقها ، فى اغلب الظن ، ذلك الذى يعتمل فى نفسها ويفور .

وبعد ذلك بقليل من الوقت حملت داشا . وقد احبت ايفان ايليتش كثيرا ، ولكنها اخذت تبعده عنها . ثم بدأت الاشهر الرهيبة – المجاعة وظلام خريف بتروغراد ، والحادث الوحشى عند قناة لبياجى الذى انتهى بولادة قبل الاوان ، وموت الطفل ، والرغبة الوحيدة فى ان تفارق الحياة . ثم الفراق .

والآن بدأ كل شيء من جديد . كان شعورهما اكثر تعقيدا واعمق من ذلك العشق القديم الاثيرى الذى بدا معه كل شيء الغازا واحاجى ، كما فى صندوق سحرى شديد التزويق فيه هبات غير معروفة . لقد عانى الاثنان اشياء كثيرة ، ولم تتح لهما الفرصة بعد لان يعطى احدهما للآخر تجربته . كان حبهما الآن – ولا سيما بالنسبة لداشا – ممتلئا ومحسوسا كالهواء فى اوائل الشتاء ، حين تكون عواصف تشرين الثانى قد ولت وبواكير الثلج تحمل فى

غدا . يمكنك ان تستقرى هنا . اخرجى الى الرواق وستجدى مطبخا . ونامى هناك بهدوء .

سارت داشا ووراءها كوزما كوزميتش – الذى بدا أن الآمرين لم يعودا يهتمان به – عبر الرواق ودخلا مطبخا فارغا دافئ . نصح كوزما كوزميتش داشا بان تصعد وترقد على سطح الموقد : «دفئى عظامك ، ونامى فى ليلة مقدار ما نمته فى اسبوع . دعينى ، اساعدك ، يا عزيزتى . . .»

صعدت داشا الى سطح الموقد بصعوبة ، وفكت منديلها ، ووسدته خدها ، وغطت جسمها بالمعطف ، ساحبة رجليها . كان المكان مريحا وفيه رائحة آجر دافئ ودخان خبز . صرصر جدجد . . . ساكن المواقد الدائم . ولم يدع داشا تنام راسا . غشاها النوم بسنة رقيقة ، والجدجد يصرصر مطرزا نومها بخيط رمادى . . .

وتخيلت أن بندول الايقاع يدق ، وانها تجلس الى البيانو ، وقد ارخت يديها خدرا . وقلبها يخفق مذعورا من الانتظار ، ولكن لم تسمع خطوات المحبوب ، المعبود – لا شىء غير صرصرة الجدجد – يطرز نومها خيطا وراء خيط . . .

وتردد صوت فى داخلها «يا للهدوء ، يا للهدوء . عادت الى وطنها ، داشا المسكينة . . . ولكنك لم تعرف وطنك قط داشا ، داشا . . . آه ! لا تعيقنى . . . ولكن هذا قائد الفرقة ، بالطبع ، يضرب بعصاه ، والآن ستصدح الموسيقى . . .» والصرير من جديد . . .

استلقى كوزما كوزميتش على مسطبة تحت الموقد . انه هو ايضا لم ياته النوم راسا . تمتم متمطقا :

– صدقوا ، صدقوا . . . قلوب بسيطة . . . لو كنت فى مكانهم لما صدقت بهذه السرعة . لماذا ؟ لانك لا تعرف نفسك . . . الانسان جاهل . . . صدقوا ، لأن الاقوياء من الناس بسطاء دائما . . . وفى ذلك قوتهم . الآن اعطونا هويتنا . صدقوا . ولكن هل انتم بحاجة الى انسان مفكر ؟ هل الثورة بحاجة اليه ؟ نعم ! ها انا ذا . . . داريا دميتروفنا . . .انااسال : هل الثورة بحاجة الى انسان مفكر ؟

٢

كان ايفان ايليتش تليغين قد تلقى مهمة جديدة بعد عملية سامارا .

كان الجيش الاحمر العاشر قد استنزف ذخيرته القليلة فى معارك آب قرب تساريتسين . وكان المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية يرد بتاخير بالغ وبلا رغبة على الطلبات فى امداد تساريتسين بما هو ضرورى للوقوف امام الهجوم الحتمى الجديد لجيش الدون . الا انه كان فى موسكو رفيق سلاح لقائد الجيش فوروشيلوف ارسل الى هناك لمهمة خاصة هى التغلب على التاخير غير المفهوم والبيروقراطية المكتبية لمؤسسات التموين التابعة للمجلس العسكرى الأعلى . وقد استطاع هذا الرجل ان يرسل كمية معينة من التموينات الى جبهة تساريتسين .

وقد عهد الى ايفان ايليتش بتحميل صناديق الذخيرة ومدفعين فى سفينة شحن فى مدينة نيجنى ، وايصالها الى تساريتسين . وها قد وجد نفسه مرة اخرى ، كما كان فى هذا الصيف وكما كان منذ سنوات ، يعوم على الفولغا الكسول الواسع الجبار . كانت السفينة البنية الواطئة تضرب بدواليبها الماء الراكد . وكانت الضفاف ترى دائما فى الامام ، وكان النهر ينتهى عندها ، بينما كان اتساع جديد للنهر ينفتح بعد عطفة عريضة عميقا رقراقا تحت شمس الخريف . فى تلك الشهور كانت الفولغا قد طهرت من البيض ، ومع ذلك فقد كانت السفينة تسير بعيدة عن الضفاف ، كلما ظهرت قرية كبيرة ببيوتها المعتمة فوق الضفة العالية ، أو لاح من خلال اوراق شجرة مصفرة برج جرس على رابية جرداء ، حيث كان من السهل الاطلاق من رشاشة .

كان عشرة من بحارة البلطيق يتحدثون ويضحكون بالقرب من مدفع عند مؤخرة السفينة . وهناك كان ايفان ايليتش غالبا ما يستلقى على جنبه متأوها متهافتا ضاحكا على حكاياتهم حتى تدمع عيناه . وكان مصغيا بسيطا سريع التصديق ، وهو النوع الذى يحتاج اليه البحار الذى يحب من يصغى اليه .

كان شاريغين الكومسومولى الطويل المهيب وهو احدث البحارة سنا ، يتقدم من جرس السفينة كل يوم ، ويدقه ليدعوا الجميع الى فوق . وكان البحارة يجلسون فى دائرة ، ويخرج من باب العنبر الميكانيكى العجوز الذى ، قيل ، انه فقد نقودا غير قليلة فى الثورة ، ويطلع الوقاد جسمه حتى الوسط من الباب نفسه ، وهو رجل غير ودى متبرم . وتخرج الطباخة من المطبخ وهى تمسح يديها . وكان شاريغين يجلس على لفة من الحبال ، ويبدأ حديثا تثقيفيا بصوت واثق مغرور . لم يستطع لصغر سنه ان يقرأ كثيرا ، ولكنه قدر ان يفهم الشىء الرئيسى . وكان تحت طاقيته البحارية شعر مجعد داكن ، وله عينان جميلتان وضاءتان ، الا ان لأنفه عيبا ، فهو قصير مرفوع كان يبدو غريبا على وجهه .

لم تكن مهمته سهلة . كان البحارة يفهمون الثورة فهم رجال انفصلوا منذ زمن بعيد من مزارعهم ومن المحراث المبدائى ، عن قارب الصيد فى الساحل . وقد ادوا خدمة الاسطول الثقيلة ، وحين دقت الساعة القوا ضباطهم فى البحر ، ورفعوا علم الثورة العالمية . وكانوا قد رأوا العالم ، وطافوا فيه . وكان شيئا عريضا مفهوما لهم كرجال البحر . فى الماضى كان كل ما يملكه البحار فى صندوقه الصغير . اما الآن فلا يوجد حتى هذا الصندوق ، الآن كل ممتلكات البحار هى بندقية وشريط عتاد للرشاشة والعالم كله . . . فلو كان هذا عهد ستيبان رازين لأمال كل واحد منهم طاقيته ذات السطح الأحمر على أذنه ، وسار على مشيئته يجوب رحاب العالم ، تاركا وراءه وهجا يتصاعد الى عنان السماء . . . «اى ، يا عبيد القيصر ، يا ارقاء الارض ، ايها التعساء ، يا رعاع الحانات ، اقتسموا الارض ، واقتسموا الذهب ، ان كل شىء لكم ، فانعموا ! . .» ولكن الثورة البروليتارية طالبتهم ببرنامج اكثر تعقيدا وطالبتهم بضبط المشاعر .

كان شاريغين يقول لهم بصوته الواثق :

– الثورة ، ايها الرفاق ، هى علم . والمرء لن يبزها ولو كان سليمان الحكيم ، ولا بد من ان يخطأ . ولكن ما هو الخطأ ؟ من الافضل ان تقتل اباك وامك من ان تقع فى الخطأ . فانه يقودك الى وجهة النظر البرجوازية ، كما يغرى الطعم الفارة الى المصيدة . واذا

ما وقعت فيها فاجلس حيث انت ، واقضم ذنبك . فان كل خدماتك قد شطب عليها ، فاصبحت عدوا . . .

ولم يكن البحارة قادرين على الاعتراض على ذلك بشىء فانت بدون علم لن تستطيع ان تقود حتى سفينة فكيف ان تقضى على الثورة المضادة . واحيانا كان أحدهم يحتضن ركبته بيديه الضخمتين الموشمتين ، ويسأل : – حسنا ، قل لى اذا : بدون موهبة لن تستطيع ان تركب موقدا فى حمام ، وبدون موهبة لا تستطيع المرأة أن تصنع عجينا . فهل الموهبة ضرورية ام لا ؟

– انظروا ، ايها الرفاق ، الى أين يسوقنا لاتوغين ؟ الموهبة؟ ان الموهبة شىء متأصل فينا ، انها شىء خطير . وقد تقود الشخص الى الفوضوية البورجوازية ، الى الفردية . . .

فلوح لاتوغين بيده مبديا يأسه :

– هراء ! عليك اولا ان تمضغ هذه الكلمات ، وتبتلعها وتتبرزها ثم استخدمها . . .

قال الوقاد غاضيا من باب العنبر بصوت اجش :

– الموهبة ، الموهبة ! يصبغ اظافره ، ويلبس بنطلونا عريضا ، ويضع سلسلة فى رقبته . . . هذا هو صاحبنا . . . الموهبة !

عندئذ ارتفع لغط بين البحارة . وقال الوقاد بصوته الاجش «انتم بحاجة الى عشرة اعوام تقضونها بالقرب من الموقد» واختفى فى قسم المكائن تلافيا للعواقب . وكان شاريغين يهدئ دائما الضجة المهددة ويقول : «بالفعل ، يوجد بيننا رفاق يصبغون اظافرهم ، ولكنهم نفاية ، ولن ينتهوا الى نهاية حسنة . كما ان هناك من افسدهم الاشتراكيون الثوريون . ولكن غالبية البحارة قد وهبت نفسها للثورة كلية . ويجب ان ننسى ما يخص الموهبة ، ويجب ان نخضعها . وسنمرح فيما بعد ، من يبقى على قيد الحياة . اما أنا شخصيا فلا احسب حسابا لذلك . . .»

وهز شاريغين خصلات شعره الاجعد . ولبعض الوقت كان لا يسمع هناك سوى خرير الماء تحت رأس السفينة . لقد اثرت صرامة الكلمات فى المستمعين تأثرا قويا . فان الانسان الروسى ضعيف ازاء كل ما هو احتفالى : فاذا شرب يتمادى حتى يفقد

قبعته ، واذا حارب يحارب بجنون فلا تستطيع ان توقفه . والموت رهيب فى الايام الاعتيادية ، فى المطر الشديد ، اما فى المعركة الحامية ، من اجل قضية عظيمة فان الموت يصلب النفس فلا يحس الانسان الروسى بخوف ، وعوه فقط ان يحس الحياة بحرارتها كما هى فى العيد . فاذا اصيب برصاصة عدو او طعن بنصلة اللامع ، فمعنى ذلك انه تعثر ووقع باسطا رجليه ويديه فى سهب واسع ، وقد ثمل راسه باقوى خمرة فى العالم .

واعجب البحارة قول شاريغين بانه لا يحسب ان يبقى حيا . كما غفروا له الخطبة المنبرية وثقته الصبيانية بنفسه ، بل حتى أنفه المرفوع بدا مقبولا . وبدأ يحدثهم عن احتكار الدولة لتجارة الحبوب ، عن الصراع الطبقى فى الريف ، عن الثورة العالمية . واغمض الميكانيكى الاشيب الشاربين عينيه نصف اغماض ، وشبك اصابعه على بطنه ، وهز راسه مؤكدا لا سيما فى المواضع التى يتعثر فيها ذهن شاريغين ، ويبدأ بالتعبير بشكل مبهم . وكانت الطباخة انيسيا نازاروفنا التى اتخذوها فى السفينة من استراخان فى الرحلة السابقة لا تجلس قط مع الرجال ، فكانت واقفة على جانب تنظر الى الشواطئ المتباعدة . كانت السكينة والرصانة تنعكسان على وجهها الفتى الذى انحلته الالام ، وكان جبينها بارزا وشعرها رماديا جميلا قد ضفر بضفيرة حول راسها ، الا ان غصة كانت تصعد الى حلقومها احيانا فتبتلعها بصعوبة .

وكان تليغين يشترك فى هذه الاحاديث ايضا ، متحدثا عن الشؤون العسكرية ، وكان يرسم بالطباشير على سطح السفينة مواقع الجبهات :

– ان الثورة المضادة ، كما ترون ، ايها الرفاق ، تسير على خطة واحدة : تطويق روسيا الوسطى ، وقطعها عن التموين بالحبوب والوقود ، ثم تحطيمها . والثورة المضادة تقوم فى المناطق البعيدة عن المركز ، وفى الاراضى الغنية . ففى كوبان ، مثلا ، مليون ونصف مليون قوزاقى ومثلهم من الفلاحين المؤجرين للارض ، والعداوة بينهم مستميتة . وقد ادرك دنيكين ذلك جيدا ، فاندفع الى النار بجراءة مع حفنة من الضباط المتطوعين ، وحطم جيشا قوامه مائة الف رجل ، كان يقوده الوغد سوروكين

الذى كان يجب ان يرمى بالرصاص منذ البداية على فوضويته وتعطشه للخيانة ، والآن يبنى دنيكين لنفسه مؤخرة قوية مساعدا القوزاق على ذبح الحمر فى كوبان . ان دنيكين عدو ذكى وخطير .

وكان البحارة ينظرون الى تليغين وانوفهم منتفخة ، والعروق الزرق تبرز من تحت البشرة السمراء . بينما كان الميكانيكى يهز راسه دائما مؤكدا كلام تيليغين «بالضبط ، بالضبط . . .» .

– ومهمة الزعيم كراسنوف اضيق بكثير . لأن من الصعب اثارة القوزاق خارج حدود الدون . انتم تعرفون المثل القائل : يبدو القوزاقى مرتاحا لأنه ياكل مريا وينام مراحا . القوزاقى جرىء حين يدافع عن بيته . ومع ذلك فان ثورة كراسنوف المضادة هى الآن بالنسبة لنا اكثر خطرا من كل شىء . واذ تراجعنا عن الفولغا ، وفقدنا تساريتسين فان كراسنوف ودنيكين سيلتقيان بكل الثورة المضادة فى سيبيريا . ومن حسن حظنا انه لا يوجد تفاهم كامل بين كراسنوف ودنيكين . وقوزاق الدون يسمون المتطوعين بـ«الموسيقيين الجوالين» بينما يسمى المتطوعون قوزاق الدون بـ«البغايا الالمانيات» . . . ومع ذلك علينا ان نكون يقظين ، وان نعارض خطة الثورة المضادة بخطتنا الكبيرة ، وهى ، بالدرجة الأولى ، تنظيم الجيش الأحمر تنظيما صحيحا ، لكى لا يكون مجرد انصار يتنقلون فى عربات .

نظر شاريغين الى تليغين فى حسد ، واعلن :

– هذا صحيح . . . وهكذا ، يا رفاق ، نعود الى النقطة التى بدأت منها . . . ما هو الضبط الثورى ؟ . .

وفى احدى هذه المحادثات مدت انيسيا نازاروفنا يدها الى الامام فجأة ، كالعمياء ، وقالت بصوت متساوق ذى نبرة خطيرة حتى ان الجميع التفتوا نحوها ، وصاروا يسمعون اليها :

– اعذرونى ، يا رفاق . . . احب ان اقول لكم . . . احدثكم بهذه الشؤون . . . .

فى الصباح الباكر ، عند الفجر ذهبت انيسيا نازاروفنا لتحلب البقرة . ولكن ما كادت تفتح زريبة الابقار – وجاءها من الظلام خوار البقرة تطالب بالحلب – حتى سمعت طلقات من السهب . فوضعت انيسيا الجردل ، وعدلت المنديل على راسها . وكان قلبها يخفق ، وحين اقتربت من باب الحديقة ارتخت رجلاها ، ولكنها فتحت الباب .

كان جمع من الناس يركضون فى شارع القرية وراء عربة رشاشة يركبون فيها اثناء سيرها . واخذت الطلقات تسمع فى مكان اقرب واكثر ترددا ، من ناحية السهب ، ومن ناحية البركة ، ومن طرف الشارع العريض ، ومن الطرف الآخر . ولم تلحق العربة التى كانت تقل رفاقا من سوفيت القرية أن تختفى ، فقد حاصرتها الخيالة . وداروا حولها كالكلاب حين تهاجم كلبا ، واطلقوا النار ، وطعنوا بالسيوف .

سدت انيسيا باب الحديقة ، ورسمت علامة الصليب ، وذهبت لتجلب الجردل ، الا انها استدركت فجاة ، واندفعت الى البيت ، حيث كان ينام طفلاها بيتروشا وانيوتا . ايقظتهما وهى تمسد على رأسيهما ، وتهمس فى اذنيهما ، والبستهما ملابسهما ، واخرجتهما الى الفناء وراء زريبة الابقار ، حيث كان يوجد تل من اقراص الروث المجفف قد صف كبيت النمل ، ومن الداخل فارغ . رفعت انيسيا بعض اقراص الروث ، وطلبت من الطفلين أن يدخلا الى داخل التل ، ويجلسا هناك دون ان يصدرا صوتا .

والآن صار الشارع كله يغلى بكركبة حوافر الخيل ، وصيحات الناس ، وقرقعة السلاح . واخيرا اخذوا يضربون باب انيسيا باخامص البنادق قائلين : «افتح !» وحين فتحت انيسيا الباب امسكها قوزاقيان احمتهما الخمرة المنزلية . «اين سينكا نازاروف ، اين زوجك ، تحدثى ، او نذبحك فى مكانك» . ولم يكن زوج انيسيا قوزاقيا ، بل من الاغراب ، وقد انضم الى الجيش الاحمر ، كانت لاتعرف أهو حى الآن ام لا . وهكذا قالت انها لا تعرف اين زوجها. فقد أخذه بعض الناس فى الصيف . كف القوزاقيان عن هز انيسيا واندفعا الى البيت ، وقلبا كل شىء فيه وحطماه ، وحين خرجا امسكا مرة اخرى بانيسيا ، وجراها فى الشارع الى سوفيت القرية ، حيث كان الزعيم يعيش فى السابق .

وكانت الشمس قد ارتفعت عاليا بينما اغلقت القرية بواباتها ونوافذها ، وكانها ما تزال نائمة . وامام السوفيت فقط كان القوزاق يروحون ويجيئون خيالة ومشاة يسوقون فلاحين وقوزاقا بعضهم مشدود الوثاق ، والبعض الآخر مدمى . وفيما بعد عرف ان قائمة قد وضعت باسماء جميع الذين صوتوا فى الربيع الى جانب السلطة السوفييتية ، فاخذوهم جميعا .

كان يجلس فى بيت الزعيم ضابط ناعس خيطت على كمه جمجمة وعظمان . والى جانبه الضابط القوزاقى زمييف المعروف جيدا لدى الجميع ، والذى كان قد هرب من القرية قبل ستة اشهر . وكان الجميع قد نسوا حتى ذكره ، وها هو الآن بشاربيه المتدليين ممتلئا ضخما احمر كالنحاس . وحين دفعوا انيسيا الى البيت كان زمييف يصيح على المعتقلين . وكان عددهم اكثر من خمسين شخصا تحت الحراسة :

– هل ساعدتكم السلطة السوفييتية ، أيها الاوغاد الحمر البطون ؟ حدثونا الآن ماذا علمكم مفوضو موسكو ؟ . .

وكان الضابط ينظر فى القائمة ، ويقول بهدوء لكل من كانوا يدفعوه نحو المنضدة :

– هل تعترف باسمك واسم عائلتك ؟ حسنا ، هل انت متعاطف مع البلاشفة ؟ لا ؟ هل صوت فى شهر أيار ؟ لا ؟ اذن ، انت تكذب . اجلدوه . التالى ، القوزاقى روديوف – وكان يرفع عينيه الشاحبتين كعينى خروف ، ويقول – قف باستعداد ، وانظر الىّ ! هل كنت مندوبا فى المؤتمر الفلاحى ؟ لا ؟ وحرضت داعيا الى السوفيتات ؟ لا ، مرة اخرى ؟ اذن ، انت تكذب على المحكمة العسكرية . الى اليسار ! التالى . . .

وكان القوزاق يمسكون بالناس ويدفعونهم من على مقدمة البيت ، ويلقونهم ارضا ، ويسحبون سراويلهم ، ويعرونهم . ويجلس احدهم على الرجلين المرتجفتين ، والآخر يضغط على الرأس بين ركبتيه ، ثم يخرج اثنان آخران قضيبى التنظيف من بندقيتيهما ، وينزلان بالضرب على المطروح محدثين صفيرا فى الهواء .

ولم يعد الضابط يستطيع ان يتكلم بصوت هادئ ، فقد كان الذين خارج النوافذ يولولون ويصيحون . وكان يحيط بمكان التأديب جمهور من القوزاق خيالة ومشاة من الفصيلة المغيرة ، ومن القوزاق المحليين الذين خرجوا من بيوتهم للقاء الفصيلة صائحين : «المسيح قام ! . . » كما كانوا يزعقون ويشتمون : «اجلدوهم حتى العظام ! اضربوهم الى آخر قطرة من الدم . حتى يتذكروا سلطتهم السوفييتية ! » .

واخيرا لم يبق فى بيت الزعيم غير انيسيا ومعلمة شابة . وقد

جاءت الى القرية برغبتها ، وحاولت جاهدة ان تنور اهل القرية . فقد كانت تجمع النساء ، وتقرأ لهن بوشكين وليف تولستوى ، وتصطاد الخنافس مع الاطفال – تصطاد الخنافس فى مثل تلك الاوقات !

صرخ الضابط زمييف بها :

– انهضى ! ايتها السحنة اليهودية !

نهضت المعلمة ، وظلت تحرك شفتيها لبعض الوقت دون ان تنطق بشىء :

– انا لست يهودية ، وانت تعرف ذلك جيدا ، يا زمييف . . . وحتى لو كنت يهودية ، فاننى لن اجد فى ذلك جريمة . . .

وسأل الضابط :

– هل انت فى الحزب الشيوعى منذ زمان ؟

– لست شيوعيــــة . انا احب الاطفال ، واجد من واجبى تعليمهم القراءة والكتابة . . . تسعون بالمائة من سكان القرية لا يعرفون القراءة والكتابة ، فتصور . . .

قال الضابط :

– اتصور . . وسنجلدك الآن .

شحبت وتراجعت . وصرخ زمييف بها : «اخلعى ! » واختلج وجهها الحلو ، واخذت تفك ازرار معطفها ذى المربعات ، وخلعته ، وكأنها نائمة . .

– اسمع ، اسمع – ولوحت بذراعها على الضابط – ما هذا منك !

ومن وراء النافذة ارتفع صوت نحيل بشكل لا يطاق . بينما كان زمييف ماضيا فى اوامره «اخلعى سروالك ، ايتها الفاجرة ! »

وصاحت به المعلمة «ايها الوغد !» وتأججت عيناها ، واحمر وجهها بحمرة الحنق :

– اقتلونى ، يا وحوش ، يا اغوال . . . لن يمر هذا بسلام .

عند ذاك امسكها زمييف ، ورفعها قليلا والقاها ارضا . ورفع قوزاقيان تنورتها ، وضغطا على رأسها وقدميها ، وخرج الضابط من وراء الطاولة على مهل ، وتناول السوط من قوزاقى ، واطلت بسمة ساخرة على وجهه الرمادى . ثم رفع السوط ، وانزله بقـــوة على مكان الحرمة منها . ومال زمييف من كرسيه الى الامام وصاح بصوت

عالى : «واحد ! » واخذ الضابط يسوط ، والفتاة صامتــة . . . . «خمسة وعشرون . كفى ذلــك – قال الضابط والقى السوط – اذهبى الآن ، اشتكينى لزعيم المنطقة !» وكانت راقدة كالميتة .

رفعها القوزاق ، وحملوها الى الرواق . وحان دور انيسيا . شد الضابط حزامه القفقاسى ، واشار برأسه اشارة خفيفــة الى الباب . وجن جنون انيسيا حقدا وحاولت أن تتخلص ، حين جروها امسكت بشعر بعضهم ، وتشبثت ، وعضت ايديهم ، وركلتهــم بركبتيها . واطلقت نفسها حاسرة الرأس ممزقة الثياب ، وهاجمت القوزاق ، وفقدت الوعى حين ضربوها على رأسها . مزقوا الجلد على ظهرها بقضبان تنظيف البنادق ، والقوها عند مقدمة البيت ، ظانين ان هذه المرأة الخبيثة قد ماتت .

واعادت فصيلة النقيب نميشايف التأديبية النظام فى القرية ، واقامت زعيما ، وحملــت عدة عربات من الخبز وشحم الخنزيـر المقدد وبعض الاشياء الاخرى المنهوبة ورحلت . وبقيت القرية طوال النهار ساكنة لم يوقد فيها موقد ، ولم تخرج ماشية . وفى الليــل اندلعت النار فى عدة بيوت للاغراب ، ومنها بيت انيسيا .

وخاف الجيران اطفاء الحريق ، لأنه عندما اندلعت النار الاولى فى طرف القرية هرع بعض القوزاق بافراسهم الى هناك ، وسمعت طلقات . وقد احترق بيت انيسيا كليا . وفى الصباح فقط استدرك الجيران : اين ولداها ؟ ان ولدى انيسيا ، بيتروشا وانيوتا ، اللذين ظلا الى الليل جالسين فى تل اقراص الروث قد احترقا مع البقرة والاغنام والدواجن .

والتقط الطيبون انيسيا التى كانت تئن مغميا عليها عند بيت الزعيم ، واخذوها الى بيتهم ، وارقدوها هناك ، واعتنوا بها . وبعد عدة اسابيع اخذت تفهم ، فقد حدثوها عن ولديها . ولم يعد لانيسيا شىء تفعله فى القرية . وهذا ما قالته للناس الطيبين . وكان الفصل خريفا ، ولا اخبار من زوجها . وقد زهدت فى العيش . فتنقلت من قرية الى اخرى ، متسولة تحت النوافذ . وبلغت الخط الحديدى ، ووصلت اخيرا الى استراخان ، حيث اخذت طباخة على السفينة ، لأن الطباخ قد نزل الى الشاطىء فى المرة السابقة ، ولم يعد .

. . . .

روت انيسيا نازاروفا هذا الحديث من حياتها ، ثم قالت :
– شكرا لكم ، يا رفاق . انتم تعرفون مصيبتى الآن ، فشكرا لكم .

ومسحت عينيها بالمئزر ، ونزلت الى مطبخ السفينة . وظل البحارة طويلا جالسين فى صمت جاهم يحتضنون ركبهم بايديهم المعروقة . انصرف ايفان ايليتش عنهم ، واستلقى فى ناحية . وفكر كاتما حسرته «وهكذا تلتقى بانسان ، وتمر به ساهيا ، بينما هو امامك مملكة كاملة من خرائب داخنة . . .» .

وبالتدريج تحول من قصة هذه المراة الشجية الى همومه هو . وكان يخفيها عميقا فى طيات نفسه عن الجميع ، وعن نفسه بالدرجة الاولى . وكان قليل الامل فى ان يلتقى مرة اخرى بداشا . حقا ان الانسان الحى يتحمل من الجراح والمصائب ما لا يتحملها اى حيوان . ولكن ما ارحب الارض ! واين يبحث عن داشا فى سيل الملايين النازحين الى الشرق . ثم ان الاحمق العجوز ، الدكتور بولافين ، قد يذهب معها الى الخارج .

وتذكر ، وهو يهز راسه ويتحسر رثاء ، ميول داشا نحو الراحة النفسية ، نحو الاناقة ، وتوقد عاطفتها الباردة قليلا ، مثل فوران نبيذ مثلج . «لم تكن تقوى على ذلك . لقد نمت فى دفيئة ، فاذا بها تصادف تيارا قويا يهز العالم . . . مسكينة ، مسكينة . . . رفضت أن تعيش بعد وفاة ابنها فى بطرسبورغ وكانت تنطفئ فى الظلمة الباردة . . .» .

وكان ايفان ايليتش لا يعرف ما حصل لها بعد بطرسبورغ الا من قراءته لرسالتها على عجالة . لا شك فى ان داشا قد قاست كثيرا بعد بطرسبورغ ، وفهمت الكثير . . . باية عاطفة جذبته فى ذلك اليوم الى النافذة ، وهى تنقذه من الملاحقين : «سابقى وفية لك مدى الحياة ، اهرب ، اهرب . . .» وقد التصقت به رائحة شعرها الكتانى الدقيق . . . انه لم ينس ذلك ولن ينساه . يا لها من امراة عجيبة معبودة . . . «أوه كفاك ذكريات . . .» .

وبدأ الجو يسيئ . وعتمت الفولغا ، ونهضت من الشمال كالحواجز سحب باردة موحشة ، وصفرت الريح فى الصوارى

القصيرة . ومرت كاميشين ، وهى بلدة خشبية مهملة بحدائقها العارية على التل . وبعد كاميشين تماما بدات جبهة تساريتسين .

٣

كانت السحب المترعة بالبرد تعوم فوق تساريتسين . وكانت الريح تصعد الغبار ، وكالدوامات تفرش به البيوت الخشبية المتلاصقة التى كان بعضها يواجه النهر وبعض الآخر يدير له ظهره ، ناهضة فوق المنحدرات الوعثاء بين المراحيض والمصانع . كان ايفان ايليتش يصعد شارعا مرتفعا قلعت الامطار حجارته . وكان الكورنيش ، والارصفة الصارفة ، وشوارع المدينة ايضا خالية من الناس . وفى الساحة فقط ، حيث كانت الكاتدرائية الرمادية الضخمة تلوح خلف نقاب من الغبار ، تقابلت معه فصيلة مسلحة . كان افرادها من الكهول والشبان المرتدين كيفما اتفق يسيرون مديرين ظهورهم للريح فى مقاومة جامحة .

وكانت تسير فى المقدمة عجوز نحيلة بادية الغضب فى قبعة من قبعات الجيش الأحمر ، وقد القت بندقيتها على كتفها ، مثل الجميع . وحين حاذت ايفان ايليتش سألها عن مقر القيادة . القت العجوز نظرة شزراء عليه ، ولم تجب ، ومرت الفصيلة كلها فى عجلة تثير الغبار .

كان على ايفان ايليتش أن يذهب الى قيادة الجيش ، ويبلغ بوصول السفينة بحمولتها من الذخيرة ، ويقدم ورقة الشحن . ولكن اين يجد هذه القيادة ! لا شيء حوله غير حوانيت مغلقة بالالواح ، ونوافذ خالية من الحياة ، ولافتات تقرقع بحديدها ويخيل اليك أنها ستسقط فى اللحظة التالية . وفجأة اعترض سبيله عسكرى مضمد اليد زفر بالم من خلال اسنانه ، وشتم همسا . اعتذر ايفان ايليتش ، والقى عليه نفس السؤال عن القيادة . فاذا به يتبين ان الرجل الذى امامه هو سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف ، قائد فوجه السابق . وقال سابوجكوف :

– ما لك مندفع كالمجنون . سلّم .

هم ايفان ايليتش بان يعانقه ، الا ان سابوجكوف تنحى قائلا :

– دعك عن هذا ، حقا . تمسك بالهدوء . من اين جئت ؟

– جلبت سفينة الى هنا .

– يا للعجائب ! انت حى ترزق ؟ خذاك يتفتقان من العافية ! هذا هو الصنف الروسى ! تريد مقر القيادة ؟ انه هنا . اين نزلت ؟ بالطبع ، لم تنزل فى مكان ما . حسنا ، سانتظرك .

ودخل مع تليغين فى مدخل بيت آجرى يبدو من بيوت التجار ، واشار الى حجرات القيادة فى الطابق الثانى :

– اسمع ، يا ايفان . أنا منتظرك . . .

كان ايفان ايليتش قد شاهد مقر قيادة سوروكين وجيوش الجبهة الجنوبية ، حيث لا يستطيع المرء ان يعثر على الحجرة التى يريدها ، فقد كان الجميع يكذبون وكانهم على اتفاق ، وفى كل مكان دخان التبغ ، وكاتبات الآلات الطابعة يضربن على آلاتهن بذعر ، والمرافقون يتنقلون من باب الى باب مهيبين ببناطيل ركوب الخيل . اما هنا فكان الهدوء . وقد وجد الباب المطلوب حالا . كان ضابط الخفر يجلس عند نافذة متربة لا يكاد النور ينفذ من خلالها . وقد رفع وجهه العظمى العليل وثبت بصره فى تليغين دون أن يحرك جفنيه المحمرين . واجاب :

– لا يوجد أحد . القيادة فى الجبهة .

– اسمح لى ان اتصل بالقائد . يجب تسليم الحمولة بسرعة .

رفع الضابط الخفير جسمه برخاوة رجل اذبله الأرق ، ونظر فى النافذة . فرأى سيارة قد وصلت من توها .

– انتظر .

قال ذلك بهدوء ، وتابع تصنيف المراسلات والتقارير فى عدة اضبارات ، وكان بعضها مكتوبا بالقلم الرصاص لا يتبين الانسان من محتوياتها سوى عظمة نفس كاتبيها الشهمة البسيطة .

دخل اثنان يرتدى احدهما معطفا استراخانيا ، ويتدلى منظار من رقبته ، وعلى جنبه سيف خيالة ثقيل فى محمل من الجلد الخشن . والثانى فى معطف من معاطف الجنود الطويلة ، وقبعة من تلك التى يرتديها عمال بطرسبورغ فى ايام الشتاء ، وكان لا يحمل سلاحا . كان وجها الرجلين داكنين من الغبار . قال الخفير :

– صلح الخط المباشر مع موسكو .

توقف الرجل ذو المعطف الاستراخانى فى الحال ، وكان فتيا له عينان بنيتان مستديرتان مرحتان «شىء ممتاز !» امـــا الاخر ذو المعطف الذى لطخه الوحل فقد اخرج منديلا ، ومسح به وجهــه النحيل ، محاولا ان يزيل اكبر قدر من الغبار من شاربيه الاسودين . واحس تليغين بان عينيه اللامعتين بجفنيهمـــا المرتفعين الرقيقين تثبتان عليه بصرهما .

قال الخفير :

– الرفيق جاء ببلاغ لكم .

وكان ايفان ايليتش يرى هذين الرجلين لأول مرة فلـــم يعرف من هما ، فتردد قليلا . ومال الضابط الخفير نحوه وقال :

– تحدث ، يا رفيق ، هذا هو المجلس العسكرى للجبهة .

اخرج تليغين اوراقه ، وابلغ . تبادل الرجلان النظرات بعـد ان سمعا بان سفينة محملة بالذخيرة قد وصلت من توها . تناول الرجل فى معطف الجندى ورقة الشحن ، بينما راح الثانى يمرر عينيه على سطورها من وراء كتفه متلهفا ، بل أن شفتى فمه الصغير تحركت تردد ارقام كمية العتاد والقذائف واشرطة الرشاشات . . .

سأل الرجل فى المعطف العسكرى :

– كم عددكم فى السفينة ؟

– عشرة بحارة من بحارة البلطيق ، ومدفعان للميدان .

وتبادلا النظرات ثانية . وعاد نفس الرجل يقول :

– املأ الاستمارة . فى الساعة الخامسة بعد الظهر عليك ان تكون مع طاقم السفينة أمام قائد الجبهة – وادار بحركة متمهلة يد جهاز التلفون الذى صرف صريفا جافا ، واتصل بشخص ما ، وهمس له ببعض الكلمات ، ووضع السماعة ، وقال : – ايها الرفيـــق الخفير ، جهز على الفور اكبر عدد ممكن من العربات . وللتفريـــغ استعن بعمال مصنع المدافع . تاكد من التنفيذ ، وابلغنى .

وذهب كلا الرجلين الى الغرفة المجاورة . وأخذ الخفير يدير يد التلفون ، وراح يكرر بصوت مكتوم : «قسم النقل . . . الرفيـــق ايفانوف . لا يوجد ؟ قتل ؟ اعطنى خفيرا آخر . مقر قيادة الجبهـــة يتكلم . . .» جلس ايفان ايليتش ليملأ الاستمارة . وكان الأمـــر واضحا : الحضور امام القائد . يعنى الذهاب الى الخنادق رأسا .

استرخى ايفان ايليتش على السفينة ، واذا به يشعر الآن ، وهو يخربش بالقلم الذى يتعثر على الورق ، بحركة الارادة المألوفة التى تكررت كثيرا خلال هذه السنوات ، حين كان يتراجع الى الخلف كل ما هو ساكن دافئ شخصى فى الانسان ويتضاءل حرصه على حياته ، وسعادته ، ليحل فى محله بقوة غير منظورة ايفان ايليتش آخر انسان بدائى قاس عازم .

كان ما يزال ثمة وقت كثير حتى تحل الساعة الخامسة . سلم تليغين استمارته وخرج الى الممر . نهض سابوجكوف بسرعة من الاريكة الخشبية .

— هل فرغت ؟ لنذهب الى مكان ما .

ونظر بابتسامة ساخرة الى تليغين الذاهل . وكان سابوجكوف على حاله عصبيا متوترا ، وكأنه يعرف ما لا يعرفه الاخرون ، الا ان مظهره الخارجى قد تغير كثيرا . فقد اضحى وجهه الوردى صغيرا مثل وجه عجوز . اوضح له تليغين بان عليه ان يهرع الى رصيف النهر ، ويجمع طاقم السفينة ، ويفرغ الصناديق .

— مؤسف . ولكن ما العمل ؟ لنذهب الى الرصيف . صمت ثلاثة اشهر ، يا ايفان ، وبلغ بى الأمر فى المستشفى الى حد أننى كدت اكتب «يوميات مثقف سابق» . ولم اعد اشرب ، يا اخ ، نسيت . . .

كان سابوجكوف متأثرا جدا فى لقائه بايفان ايليتش . خرجا من البناية . ودفعتهما الريح فى الشارع نحو الفولغا المعتم المتنفس بامواج مزبدة طويلة .

— اين الفوج ، يا سيرغى سيرغيفيتش ؟ لماذا انفصلت عنه ؟

— لم يبق من فوجنا شىء فى الواقع . لا وجود الآن لهذا الفوج فى الجيش الحادى عشر .

نظر تليغين اليه صامتا ، وفى نظرته ذعر . بدأ سابوجكوف يروى حاجبا عينيه عن الغبار بيده .

— انتهينا فى ضيعة بيسبكوينى . هل لك علم بمأساة الجيش الحادى عشر ؟ ان القائد العام سوروكين فعل من الأمور ما يستحق عليه اكثر من ثلاثة اعدامات ، ابن الكلب ذاك . فقد اخفى عن الجيش أمر المجلس العسكرى الثورى لتساريتسين القاضى

بقطع الجبهة والالتقاء بالجيش العاشر . ولم ينفذ هذا الأمر الا من قبل فرقة شيلست وحدها ، واتجهت نحو تساريتسين ، وهذا فقط لأن سوروكين اعتبر شيلست خائنا وامر باعدامه رميا بالرصاص . وتصور الأمر : انقطعنا عن مينيرالنيه فودى ، وانقطعنا عن ستافروبول ، حيث هلك جيش تامان . وفى حالة ذعر ترك سوروكين احتياطات الذخيرة فى تيخوريتسكيا . وكانت خيالة الجنرال شكوره تضغط علينا من الجهة اليمنى وخيالة فرانغيل من الجهة اليسرى . فتراجعنا شرقا فى سهب بلا ماء . . . ولم يبق من فوجى غير سرية واحدة . وكنا ننام اثناء سيرنا ، لنتخلص من العدو ، وشققنا طريقنا عبر منخفضات ، ولم يكن لنا طعام نأكله ، ولا ماء نشربه . . . لا شىء فى ذلك السهب اللعين غير الرياح القارصة ! احيانا كان يسقط انسان وفرسه متجمدين وتغطيهم الرمال . . . ووصلنا الى ضيعة بيسبوكوينى ، فلم نجد فيها انسانا ولا دجاجة ، وحتى الكلاب اخذها القوزاق . أما البيوت فكانت ابوابها مفتوحة . . ووجد الفتيان حليبا فشربوه بكل قوة عطشهم . فهمت ؟ واذا بهم يتلوون على الأرض ، ولم يبق احياء منهم غير حوالى ثلاثين شخصا . . . وفى الفجر طوقونا طبعا بالرشاشات ، وقضوا علينا . . .

وبينما كان ايفان ايليتش يصغى كان يسرع خطاه حتى تعثر .

— وانت ، كيف ؟

— الشيطان يعلم . لقد اسعفنى الحظ . . . جرحت منذ البداية ، فى يدى ، واصيبت اعصابى او شىء من هذا القبيل ، وفقدت الوعى . . . ومنذ تلك الساعة بدأت اعيد النظر فى الكثير من الاشياء . وبينما كنت منبطحا ضمد الجنود ذراعى ، وحملونى الى كومة قش ، وغطونى بالقش . . يعنى اهتموا بى فى مثل هذا الوقت . — اؤكد لك اننا لا نعرف شعبنا ولم نعرفه قط . . . يقول ايفان بونين انه وحش همجى ، بينما يقول ميريجكوفسكى انه رعاع ورعاع المستقبل ايضا . . . هل تذكر حديثنا فى عربة القطار ليلا ؟ كنت سكران ولكننى لم انس شيئا . اين كان يكمن الخطأ ؟ الفلسفة والمنطق فى حاجة الى هدف يصححهما ، مثلما يحتاج التصويب الى هدف منظور ، وهذا الهدف هو معرفة عميقة لتجارب الحياة . . . ان الثورة شىء ، وعمانوئيل كانت شىء آخر !

– سيرغى سيرغيفيتش ، وماذا حدث بعد ذلك ؟ . .

– بعد ذلك . . . خرجت من القش ليلا . في الضيعة كانوا يغنون الاغاني . يعني ان المنتصرين قد سكروا . اصطدمت بجثة مقطوعة القوائم ، وباخرى . وفهمت كل شيء . . . واخذت حصانا ، وانطلقت في السهوب ، حيث قضيت عدة ايام مؤلمة . . . والتقطتني فصيلة من خيالة بودوني ، وهو فارس في سهوب سالسك . . . واوصلوني الى محطة كوبرلي ، ومن هناك الى هنا . وهنا بقيت طويـــــلا في المستشفى . . . وبقي دفتر الخدمة والوثائــــق في معطفي ، في القش . . . اتذكر معطفي ؟ انك لن تحصل على مثله الآن . . .

– اسمع ، وهل قتل غيمزا ايضا ؟

– فقدنا غيمزا منذ زمان مع صف من العربات . وقد اصيب بحمى تيفوس شديدة . . .

– يؤسفني أمر غيمزا .

– الجميع ماسوف عليهم ، يا ايفان . لا ، انا اكذب ، ليس ذلك اسفا . . . لقد تعودت على الفوج ، وليس من اللائق ان ابقى وحدى حيا . . انا لا اجد مكانا لي ، يا ايفان . ذهبت الى مقر القيادة ، وطلبت سرية على الاقل . . . انا افهمهم جيدا . فانا رجل غير معروف لهم . وليس لدي غير البطاقة العسكرية . . . تكلم عني في القيادة ، ارجوك . . .

– بالطبع ، يا سيرغي سيرغيفيتش . . .

– ان احسن شيء هو ان تضمني الى الفصيلة ، كلمـــة شرف . . مساعد على الاقـــل ، جندي الاتصـــال . . . انظر ما فعـــل القـــدر بنا . . . هــــل تذكـــر كيف كتبنـــا الاشعار في شقتك ، واخفنا البرجوازيين ؟ كل شيء لا يذهب سدى ، وكل شيء يخلف اثرا . عبثت ونسيت . . . واذا بك تجد نفسك امام لوحـة جبارة يقف لها شعر راسك . اسمع ، هل تذكر كيف عثرت عليك في زريبة عند الالمان ؟ كانت غارة عظيمة ! ثم حين كسرت سيفي . . . لطيف جدا اننا نلتقي من جديد . . . انت تبدو في صحة ممتازة ، يا ايفان . لقد تعلقت بك ، او شيء من هذا القبيل . . . اسمع ، واين زوجتك ؟

وانقطع حديثهما ، فقد لحقت بهما العربات التي انطلقت مسرعة نحو الرصيف .

. . . .

هبط غروب هائل كئيب وراء سطوح المدينة ، مـــن خلال دوامة الغبار ناشرا حمرته الدموية في السحب المتحركة . وتحرك ثلج قليل دائرا فوق الفولغا . وكانت العربات المحملة التي يحرسها العمال المسلحون قد اقلعت منذ وقت بعيد . واقفر الشـــاطئ . ابتعدت السفينة عن المرسى ، وسارت مع التيار ثم ارست دون ان تشعل الاضواء .

وجلس البحارة بسترهم المحزمة وراء حاجز المرسى محجوبين عن الريح صامتين لا يدخنون ، ومعهم القنابل اليدويـــة واكياس الامتعة والبنادق . وقد عرفوا من احاديث العمال ماذا كان يجري في هذه المدينة الخالية المضاءة بغروب دام كدر . وكانت الأمور لا تبعث على الفرح .

كان ايفان ايليتش ينتظر الخيول لتفريغ المدفعين ، وينظر في ساعته قلقا ، وقد تلفن عدة مرات الى مقر القيادة ، واتضح ان الخيول قد ارسلت ، وامروا الفصيلة بان تاتي مع المدفعين الى المحلة . خرج ايفان ايليتش الى سطح المرسى متغلبا على قوة الريح المطبقة على الباب . فوجد انيسيا نازاروفا امامه .

– لماذا انت هنا ؟

صمتت مطبقة شفتيها ، وخفضت راسها ازاء نظرته . كان شال مهلهل مرقع ، يبدو حاميها الوحيد من البرد ، مشدودا على كتفيها ، ووراء ظهرها كيس من الجنفاص . قال ايفان ايليتش :

– لا ، لا ، لا . انزلى الى السفينة ، يا انيسيا . لســـت بحاجة لك في فصيلتي .

بينما كان الرجـــال يسحبون المدفعين عبر المعبر الخشبي الى رمل الساحل ويشدونهما الى الخيول . انطفأ الغروب في السحب واندمج النهر بالضفاف الداكنة . سارت الفصيلة نحو المدينـــة وهي تحت الخيول المشـــدودة الى المدفعين . اقبل شاريغين نحو ايفان ايليتش ، وقال بصوت خفيض :

– ماذا سنفعل مع انيسيا ؟ الرفاق يطلبون ان تبقى مع الفصيلة . . .

وفى اللحظة التالية ابتعد لاتوغين عن عجلة المدفع ، وتقدم نحو ايفان ايليتش من الجهة الاخرى :

– ايها الرفيق القائد ، انها بمثابة أم لنـــا . انت تعرف ما الجبهة . . . يمكن ان تأتى بشىء وتساعد وتغسل قميصا . . . انها امراة قوية الشكيمة ، ولو كانت هادئة المظهر . ظلت متعلقة بنا تعلق الكلبة ، ما العمل . . .

وكانت انيسيا وراء ايفان ايليتش ، كانت تسير مع الفصيلة مطرقة الراس ايضا . قال شاريغين :

– لنقل انها ممرضة غير متدربة . . . شىء رقيق . . .

وهز ايفان ايليتش راسه : «صحيح ، انا ايضا اردت ان ابقيها» . عاد لاتوغين ثانية الى عجلة المدفع ، وامسك بها ، وصاح بالخيول التى كانت تجاهد بكل قوتها لتصعد المرتفع «هيا ، يا لطاف ، اصعدى !» وكان الرمل المتطاير من المرتفع يتناثر على الفصيلة ، ويدور مجنونا . واخيرا سارت العجلات على ارض الشارع . كانت البيوت التى لا تكاد تبين مظلمة وما من نافذة مضاءة فيها . وكانت الاسلاك على الاعمدة تطن طنينا شديدا ، وتطقطق اللافتات . وكان ايفان ايليتش يسير مبتسما . «ها انت قد تلقيت درسا ، وضربت على انفك ، اى ، ياقائد ، لا اراك مراعيا شعور الناس . صحيح . ولا اعتراض عليه ... استلقيت على جنبك من نيجنى حتى تساريتسين ، مصغيا الى الثرثرة ، ولم تعرف اى اناس هؤلاء الفتيان... انظر اليهم يمشون مشية البحارة المتمايلة ، والريح تعبث بالاشرطة على قبعاتهم... لماذا ربطوا مصيبة انيسيا ومصيرها البائس بمصيرهم بدون مناقشة ، وفى ســاعـــة كهذه ، حين امروا بترك الحياة السهلة على السفينة ، والزحف خلال الزوابــــع الرمليـــة الباردة ، فى هذا الظلام ليحاربوا ويموتوا ؟ هل هم بواسل الى هذه الدرجة ؟ لا ، كلا ، انهم يبدون اناسا اعتياديين للغاية . نعم ، لست بالقائد ذى الشان ، يا ايفان ايليتش ... الجاهل ... القائد الجيد هو الذى يحفظ فى اصعب الاحوال نفسية كل مقاتل مهما كانت معقدة . . .» .

واستبد به قلق شديد من حديثه الاخير مع سابوجكوف ، ومن حادثة انيسيا التى قد تبدو غير ذات اهمية . ووجه اللـــوم

لنفسه ، قبل كل شىء ، واتهم نفسه بالانانيـــــة ، واللامبالاة ، والارتخاء وكمد الذهن . . . فى مثل هذا الوقت جعل خديه يمتلئان ، وحتى سيرغى سيرغيفيتش لاحظ ذلك . . . وبينما هو يفكر وقع على فكرة اخرى ، واحس فجاة بالدفء ، وبان قلبه يهنأ بلحظـــة مضيئة ، فقد كان وراء كل هذا التدقيق مع النفس فكرة خفية ، هى ارجاع حب داشا السابق لنفسه . . . ثم نخر فى هبـــة غبار هاجمته من وراء منعطف ، فطرد من ذهنه هذه الافكار غير المناسبة كليا .

فى المحطة تلقى ايفان ايليتش امرا بتحميل المدفعين فورا ، واتخاذ مواقع المدفعية فى منطقة محطة فروبونوفو . وقد سلم له الملاحظ الأمر ، وهـــو شـــاب فاره ذو عينين رهيبتين سوداويين كليلة من آذار ، وشعر نام على خديه . ارتبك ايفـــان ايليتش بعض الشىء ، واخذ يشرح له بانه ليس مدفعيا ، بل من المشاة ، ولا يستطيع ان ياخذ على عاتقه مسؤولية قيادة بطاريـــة . قال الملاحظ بخفوت وتهديد :

– هل مفهوم لك الأمر ، يا رفيق ؟

– مفهوم ، ولكننى اوضح لك ، يا رفيق . . .

– فى اللحظة الراهنة ليست القيادة بحاجة الى توضيحات . هل تنوى تنفيذ الأمر ؟ . .

«أوه ، يا للشيطان ، كيف يتحدثون هنا» فكر ايفان ايليتش مع نفسه ، ووجد نفسه يؤدى التحية العسكريـــــة : «حاضر !» واستدار ، وسار الى السكة .

كانت الامور فى هذه المدينة لا تشبه الامور فى اية مدينـــة اخرى . ففى محطات المدن الاخرى مثلا ، اذا كنت تريد الذهاب الى اى مكان كان عليك أن تسيـــر خلال جمـــوع من البرجوازيين المتنكرين المستلقين جنبـــا الى جنب والجنود الهاربين والفلاحين والنساء مع اكياس يخرج منها ذيل ديك او يقبع فيها خنوص . اما هنا فلا يوجد أحد ، بل تبدو الارض مكنوسة رغم أن الغبار الذى تطلقه الريح خلال النوافذ المحطمة كان يغطى بطبقة كثيفة الملصقات على الحيطان ، وحانوت المرطبات الذى تركه صاحبـــه منذ زمان . وحتى الاحاديث كانت تدور هنا بطريقـــة خاصـــة –

باختصار وتحذير ، كما يتحدث الانسان واصبعه على الزناد .

تسلم ايفان ايليتش قاطرة وأمرا بالشحن بسرعة دون جهد زائد ودون صياح . تلفن الى مقر القيادة وسالهم عن سابوجكوف فاجابوا : «حسنا ، خذه على مسؤوليتك . . .» وكان الطاقم قد بدأ بشحن المدفعين على عربتى شحن على ضوء المصابيح المتارجحة . وقف ايفان ايليتش يتمعن فى وجوه البحارة . هذا هو غاغين من مدينة نوفغورد بوجهه القاسى ذى التجاعيد العميقة ، والشعر الأسود الساقط من تحت طاقيته على جبينه حتى جفنيه ، وهذا بايكوف الهزلى السكير ذو اللحية العريضة المغبرة التى تبدو معلقة فى وجهه الصغير ، والرأس المستدير القوى كالجوزة ، وهو من الشمال ، وكان رفاقه التسعة قد امسكوا بعجلتى المدفع دافعين اياها على اللوحتين المنحدرتين ، بينما كان بايكوف يجلس مقرفصا تارة ، وناظرا من الجانب الآخر تارة أخرى مرددا : «يتحرك ، يتحرك ، يا اولاد ، اضغطوا ، هيا . . .» بل ان احدهم لكزه بركبته : «اضغط انت ، يا رجل ! . .»

وهذا لاتوغين من نيشنى نوفغورد بوجهه العريض المنم عن جسارة ، والانف المبعوج الذى لا بد أنه انكسر فى عراك ، الرجل الشديد البأس المتوسط القامة ، الذكى ، الخطر عند الشجار و«الشرس» مع النساء . . . وهذا زادويفيتر . . .

وتقدم منه شاريغين :

– ايفان ايليتش ، اتعرف اين تقع فوروبونوفو ؟

– لا اعرف شيئا هنا .

– انها قريبة . عند تساريتسين تماما . وهناك تقع الجبهة . . يقولون ان البيض يضغطون . . . بالمدافع والدبابات يتبعونها على عربات .

والطائرات . . . كما ان وراء القوات حوالى مائة الف من القوزاق

كان شاريغين يتحدث بخفوت وانفعال ، لمعت عيناه الزرقاوان ، وارتعشت شفتاه الجميلتان وهو يبتسم . تجهم تيليغين .

– الم تجابه بكل هذا فى المعارك الجدية ، يا شاريغين ؟

فتوهج وجه شاريغين ، وصعد الدم الى انفه الصغير ، واحمر تماما . فتابع تليغين قوله :

– نصيحتى ان تقلل من سماع الاقوال . . . كل ذلك لاثارة الذعر . . . هل اهتممت بطعام الفصيلة ؟

– حاضر !

ورفع شاريغين كفه الى طاقيته بالتحية ، وهو ما لا يفعله عادة . وتالق وجهه . وكان فتى طيبا سريع الانفعال ، ولكن لا باس ، سيجتاز الامتحان . ذهب ايفان ايليتش الى عربة البضاعة التى كانوا يربطونها وراء العربات المكشوفة الحاملة للمدفعين . فراى سابوجكوف يركض على رصيف المحطة منفعلا ، وقد تأبط كيسه وسيفه .

– ايفان ، تحدثت عنى ؟

– كل شىء على ما يرام ، يا سيرغى سيرغيفيتش . . . اركب .

صعد سابوجكوف الى عربة البضاعة . وكانت انيسيا تجلس فى ركن منها على كومة من امتعة البحارة .

انزل المدفعان قبل الفجر على مسافة قريبة من فوروبونوفو ، وهم محطة على الخط الحديدى الغربى ، ونصبا تحت تصرف احدى كتائب المدفعية . وهناك عرف تليغين وفصيلته ان الاوضاع فى الجبهة صعبة جدا . وكان خط الاستحكامات يبنى بالقرب من فوروبونوفو بشكل قوس يمتد حوالى عشرة فراسخ عن تساريتسين ابتداء من عند محطة غومراك شمالا ، وانتهاء عند ساريبتا جنوب تساريتسين . وكان قوس الاستحكامات هذا يمثل خط الدفاع الاخير . وفى المؤخرة وراءه تمتد سلسلة واطئة من التلال ، وابعد منها ينحدر سهل حتى المدينة نفسها . وكان التراجع يعنى النزول الى امواج الفولغا الثلجية .

كانت الريح بالامس قد بددت السحب ، وجمعتها عند حافة السهب فى دجنة حالكة . طلعت الشمس خالية من الدفء . وكان السهل البنى المسطح يمور بعدد جم من الناس ؛ بعضهم يحفر

الارض ، والآخر يدق الاوتاد ، ويمد الاسلاك الشائكة ، ويضع اكياس الرمل . ومن تساريتسين كانت تاتى قطارات البضاعة محملة بالناس ، فينزلون منها ، ويتفرقون ، ويختفون فى الارض . وكان آخرون يخرجون من تحت الأرض ويتجهون نحو المحطة متعبين . وكان يبدو وكأن كل سكان المدينة القادرين على حمل رفش قد سيقوا الى هنا للعمل ، ارادوا ام لم يريدوا . . .

جاء فريق من هؤلاء ، حوالى خمسة عشر شخصا من مختلف الفئات من كلا الجنسين ، الى موقع بطارية تليغين يتراسهم مهندس عسكرى عجوز ضئيل البنيان .

وقد هتف بصوت اجش مطلعا شاربيه الاشيبين من لفاح وبرى سميك ملفوف عليه :

– ايها المواطنون ! ان مهمتكم بسيطة . اريد أن تقيموا متراسا ارتفاعه نحو ١٤ ذراع . خذوا التراب من هنا ، والقوه هناك حتى يصل الى هذه العلامة على الوتد . . . تفرقوا خطوة ، وانكبوا على العمل بهمة !

وصفق بيديه الصغيرتين الموردتين من البرد ليشجعهم ، وخرج من الحفرة بسرعة . شيعه الناس بنظرات مشبعة بالحنق . هزّت امراة وجهها المستدير فى اثره :

– اخجل ، يا غريغورى غريغوريفيتش ، اخجل !

وبقى الاخرون واقفين ، حاملين الارفاش بشكل يوحى بأن هذه الارفاش بالذات هى الادوات الفظيعة للدكتاتورية البروليتارية. ولم يشرع يحفر الارض غير فتى غليظ الشفة بارز الحنجرة كان مسرورا جدا فى ان يكون فى المواقع الحربية ، الا انهم هسوا به فى الحال :

– اخجل ، يا بيتيا ، اترك العمل حالا . . .

وشرعوا يتحدثون جميعا مخاطبين شخصا ذا وجه اصفر عصبى كان حتى ذلك الحين يقف مغمض العينين ، مترنحا بعض الشىء . وكان معطفه الرسمى لموظف وزارة المعارف قد شد بحبل فى تحد .

– لماذا صمت ، يا ستيبان الكسييفيتش ؟ . . انتخبناك . . . وننتظر منك . . .

رفع جفنيه باستشهاد ، واختلج خداه .

– ساتكلم ، يا سادة ، ولكن ليس مع غريغورى غريغوريفيتش . . يجب ان نلبس الحداد جميعا على غريغورى غريغوريفيتش . . .

وفى تلك اللحظة انقذفت حجارة من المتراس ، وظهر فوق الحفر بوز حصان يعض الشكيمة باسنانه ، ومن الاعلى انحنى من السرج فارس عريض المنكبين ، محمر الخدين ، ملتح يضع على راسه قبعة كوبانية . قلص عينيه ، وسأل ساخرا :

– الا تستطيعون ، ايها المواطنون ، أن تقرروا اتعملون ام لا ؟

عندئذ تقدم ستيبان الكسييفيتش قليلا الى الامام بمعطفه المشدود بحبل ، ورفع راسه الى الفارس ، واجاب برقة مقنعة ، كتلك التى تستعمل مع الاطفال فى الدرس :

– يا رفيق ، انت الرئيس الكبير هنا ، على قدر معرفتى . . . (هزّ الفارس راسه مرحا ، وربّت بيده المقفزة على حصانه الواقف بحذر على حافة الحفرة) . يا رفيق ، باسم فريقنا الذى جند الليلة بالقوة على اساس قوائم لا يعرف احد عنها شيئا ، اعلن عن احتجاجنا القاطع . . .

فقال الفارس الملتحى ، ولكن بلهجة مهددة هذه المرة :

– اما !

– نعم ، نحن نحتج ! – وتقطع صوت ستيبان الكسييفيتش – انتم تضطرون ناسا غير قادرين على العمل العضلى ، على ان يحفروا لكم الخنادق . . ان ذلك اسوأ اوقات التحكم . . انتم تمارسون العنف ! . .

واختلج خداه كلاهما ، واغمض عينيه ، لأنه تكلم كثيرا جدا ، وتأرجح وجهه الاصفر المرفوع . . . نظر الفارس اليه وقد تقلصت عيناه ، وارتعش منخراه الكبيران ، وانطبق فمه بقوة ، فلاح كالجرح . نزل من الفرس ، وهبط الى الحفرة ، وضرب بنطلون الركوب ضربة واحدة ، وقال :

– بالضبط . نحن نضطركم للدفاع عن تساريتسين ، اذا كنتم لا تستطيعون ذلك اختيارا . فلماذا يضايقكم هذا ؟ . . هيا ليعطنى احدكم رفشا .

ودون ان ينظر مدّ يده الكبيرة بقفازها البني ، فاسرعت تلك المرأة الممتلئة المستديرة الوجه لتقدم رفشها اليه ، وكانت طوال الوقت لا تصرف عنه عينيها الذاهلتين .

— لا حاجة لأن نتشاجر . ان ذلك سوء تفاهم محض — وغرس الرفش ، وقلع التراب ، والقاه بقوة على المتراس في الاعلى — نحن نحارب ، وانتم تساعدوننا . وعدونا واحد ... فالقوزاق لا يرحمون احدا . سيسلخون جلدي . وسيجلدونكم واحدا واحدا ، ويقتلون بعضكم بالسيوف ..

كان يضطرم بالعافية والقوة كما يضطرم الموقد . القى بعض الارفاش من التراب ، والقى نظرة سريعة على الواقفين . «هيا» وربت على كتف الفتى ذى الحنجرة البارزة ، وعلى آخر لطيف المظهر ابله قليلا له رموش بلون القش . «هيا ، لنريهم كيف يكون العمل» . ابتسم الشابان بارتباك ، وشرعا يحفران ويلقيان التراب . وهز الاخرون اكتافهم ، ثم اخذوا الارفاش وبدأوا العمل . وقالت السيدة ذات الوجه المستدير : «وانا ايضا ، اسمحوا لى» وتعثرت برفشها . فامسكها الآمر الملتحى ولا بد ان قبضته كانت قوية ، فقد احمرت وبدا عليها المرح . وخشى ستيبان الكسييفيتش ان يظل وحيدا ، فقال بصوت عال :

— ولكن كيف ذلك يا رفاق . الثورة ، والعنف ؟ الثورة قبل كل شىء هى ضد العنف .

اجاب الملتحى بصوت رنان :

— الثورة تطبق العنف ضد اعداء الشغيلة ، وتتحقق هى نفسها عن طريق هذا العنف . مفهوم ؟

— ... ولكن هذا ضد الاخلاق ...

— ... تطبق البروليتاريا العنف عليكم ليتحرر العالم كله من العنف .

— اسمح ، اسمح ...

— لا ، — قال الرئيس بقوة — لا اسمح لك . لقد اخذت تشاكس ، وذلك تخريب . خذ الرفش ... يا رفاق ، يعني

استطيع ان آمل بان المتراس سيكون جاهزا فى الساعة الحادية عشرة . الى اللقاء ...

كان البحارة يستمعون الى هذا الحديث من بعيد ، ويغالبون الضحك . وعندما غادر رئيس مدفعية الجيش العاشر اقبلوا على المثقفين للمساعدة ولكيلا تتراخى همتهم .

٤

كان فوج بيتر نيقولايفيتش ملشين يتراجع مع الفرقة كلها على طول الجهة اليسرى من الدون صادا ليل نهار الوحدات الامامية للطابور الثانى التابع لجيش الدون المجهز بشكل جيد ، والمؤلف على الطريقة النظامية . كان رجال فوج ملشين قد اضنتهم المعارك والمسيرات الليلية ، بلا طعام ساخن ، ولا نوم ولا راحة . وكان قوزاق كراسنوف يعرفون جيدا كل وهدة ، وكل منخفض مائل فى تلك السهوب ، ويحصرون الخصم فى الاماكن الملائمة لهجومه . فى الفجر بدت وحدات مشاتهم فى اطلاق النار لصرف الانظار ، بينما كانت خيالتهم تشق طريقها خلال الوهاد والمنخفضات من الجناحين ، وتهاجم بشكل مباغت وبضراوة وصفير وصياح .

وكان ملشين يقول للمقاتلين «الصمود ، يا رفاق ، هو اهم شىء . قوتنا فى التلاحم . ونحن لا نهاب هؤلاء البراغيث ، فنحن نعرف الغاية التى نقاتل من اجلها ، والموت هين لنا . القوزاقى جرىء ولكنه طماع ، وهو يريد غنيمة ، ولا يريد ان يفارق حياته ، ويحرص على فرسه اكثر من اى شىء آخر» .

سارت سرية ايفان غورا كحراسة للمؤخرة مغطية طابور العربات ، حيث كان الجرحى فى كل عربة فيه . وكان من غير الممكن تركهم ، وما من مكان يتركون فيه . فقد كان القوزاق لا يأخذون اسرى . خيالة كانوا اومشاة ، وكانوا يجردون كل من نجا من المعركة من ذوى النجوم الحمر من ملابسهم ويذبحونهم بالسيوف . وبعد ان ينتشوا من ذلك ينصرفون ناظرين الى الجثث المقطعة بفظاعة ، ماسحين سيوفهم باعراف خيولهم .

لم يكن فى الدون قط مثيل لتلك البغضاء الضارية التى ظهرت

فى القرى الغنية . . . فقد جاء اليها محرضون من نوفوتشيركاسك ، وطاف الزعيم كراسنوف بنفسه فى بعضها . وبقرع الجرس جمعوا «حلقة انقاذ الدون» وحسب العادة القديمة خلعوا القبعات وانحنوا ودعوا القوزاق الى شحذ السيوف وامتطاء الخيول : «حانت ساعتك ، ايها الدون الحر ، فانهض . . . سنزحف على تساريتسين كالسحابة القوزاقية الرهيبة ، ونقضى على وكر الشيوعيين اللعين ، ونطهر الدون من الجرثومة الحمراء . . . انهم لا يريدون ان يعيش الدون غنيا مرحا ! انهم يريدون ان ينتزعوا خيولنا وماشيتنا ، ويعطوا ارضنا الى الفلاحين القادمين من تولا واريول ، ويأخذوا زوجاتنا الى فرشهم ، ويرسلونا نحن ، القوزاق العمالقة ، ملح ارض الدون ، الى المناجم الى الأبد . . . لا تدعوهم يلوثون معابد الله ، ونافحوا عن محراب وطننا . لا تضنوا بالحياة . . . وسيقدم زعيم جيش الدون العظيم تساريتسين لكم لمدة ثلاثة ايام بلياليها» .

كان امر السرية ايفان غورا المديد القامة المكور الكتفين ذو الوجه المسود من السهر ، قد تعود فى تلك الايام على رؤية خيالة القوزاق يلوحون من بعيد فى الافق ، وعرف عاداتهم ، فلم يكن يامر رجاله بالانبطاح دون فائدة ، بل كان يطلب اليهم ان يسيروا دون ان يلتفتوا الى الوراء .

سار طابور العربات فى المقدمة فى صف متراص عربة وراء عربة ، يعقبه الجنود فى مشية ثقيلة مهلهلى الثيـــاب ، نحيلين ، مطاطىء الرؤوس . وكان ايفان غورا نفســـــه يسير فى المؤخرة كالثمل . قبل نصف عام كان رجلا قويا ، الا انه اصيب فى هذا الصيف بجرح فى راسه اثر ضربة بالفاس فى زريبة حين كان يصادر الحبوب ، ثم اصيب بارتجاج الدماغ فى معركة قرب محطة ليخايا . كان يسير نشيطا تارة ، ويغفو فى السير تارة اخرى . وامام عينيه الغائمتين تتراءى ذكرى لطيفة ما : الناس يجلســـون على جذوع الاشجار فى غسق الصيف ، وخطاف يطير محوما فوق رؤوسهم . . . او اعشاب خضراء وعليها وسادة عليها اغريبينا ضاحكـــة . . . وكان يطرد من ذهنه هذه الاحلام ، ويتوقف ، ويعدل وضـــع

البندقية على كتفه ، ويفتح جفنيه الثقيلين ، وينظر الى السائرين ، والى العربات بجرحاها المتقلبين ، والى السهب المنبسط المحروق الداخل فى روحه ، ينداح على امتداد البصر ، بنى الاديم موحشـــا متماوجا لا شجرة فيه ولا عمود تلغراف . وتعثر ، وهزّ رأسه . . . آه ، لطيف ان يسير الآن بجوار عربة ، ويضع يدا على حافتها ، ويغفو لحظة فى السير !

وها هم ثانية الفرسان الصغار فى طرف السهب ، وطلقات من هناك . ويصفر الرصاص ببراءة .

— انتباه ، يا رفاق ! يا مَن فى العربات ، لا تناموا ! . .

كانت فى العربة زوجته اغريبينا جريحة فى ذراعها . ووراء هذه العربة سارت داشا وكوزما كوزميتش .

ارتفعت فى الظلام صيحات ممطوطة . وتوقف طابور العربات. ومالت داشا على حافة العربة فى الحال ، ووضعت رأسها على يدها . ومن خلال تهويمتها سمعت ايفان غورا يقترب ، ويتكلم بصـــوت خافت مع اغريبينا الجالسة فى تلك العربة . . .

— اتمنى لو أدخن . . اننى اكاد اسقط .

— لماذا توقفنا ؟

— استراحة حتى الساعة الخامسة .

— من قال لك ؟

— جاء مراسل .

— الق راسك علىّ ، يا ايفان ، واغف .

— وهل هناك فرصة ؟ . . انظرى الى فتياننـــــا . . . كيف هدّهم التعب . . . وانت لماذا لا تنامين ، هل تؤلمك يدك ؟

— تؤلمنى .

صرفت العربة صريفا خفيفا . جذب نحوه اغريبينا . وزفر بعمق مثل حصان متعب .

— يقول المراسل : ان العدو يعبر الدون ومعه قوة هائلة ! ووراء الافواج يسير الرهبان مع الرايات ، والعربات تحمل براميل الفودكا . والقوزاق يهجمون وهم سكارى ، جزارين تماما . . .

— كُلْ شيئا من الخبز ، يا ايفان .

اخذ يمضغ ببطء ، ويبتلع بعسر . ثم تمتم :

– نحن على مقربة من الدون تماما . وعلى مسافة قريبة يوجد معبر ، وقد اخذه القوزاق الى الضفة الأخرى . ولهذا السبب توقفنا ، على ما اظن .

اهتزت العربة مرة اخرى . وانفصل ايفان غورا عنها ، وانصرف بخطوات ثقيلة . وهدأ كل شيء : الناس والخيول . وكانت داشا تنفخ فى كمها . . . ستتخلى عن كل شيء من اجل لحظة مثل هذه من التحابب المكظوم مع من تحبه . اوه ، يا للقلب الحاسد الغيور ! عم كنت تفكرين من قبل ؟ وماذا كنت تنتظرين ؟ كان جيبك العزيز على مقربة منك ، ولكنك لم تهتمى به وفقدته الى الأبد . . . ادعيه الآن ، واصرخى : ايفان ايليتش ، ايفان ، فانيا . . .

. . . ايقظها كوزما كوزميتش . كانت ترقد منطوية تحت العربة . كانت طلقات تتردد من بعيد ، وكان فجر اخضر ينتشر فى الرحاب . وكان البرد شديدا جعل اسنان داشا تصطك ، واخذت تنفخ فى اصابعها .

– داريا دميتروفنا ، خذى حقيبتك بسرعة ولنذهب . . . هناك جرحى . . .

ترددت الطلقات فى الاسفل عند النهر حادة فى سكون الصباح . نهضت داشا بصعوبة ، وقد تخدرت تماما من النوم القصير على الارض الباردة . عدّل كوزما كوزميتش عليها شارة الاسعاف ، وركض فى المقدمة ، ثم عاد :

– اسرعى ، يا عزيزتى ، اسرعى . . . جماعتنا على مسافة قريبة . الا تسمعين انينا ؟ لا ؟

ركض ثم توقف مادا رقبته ، وتفحص ما حوله . لم تلق داشا بالا لذهابه ومجيئه ، ولكنها كانت تشمئز من جبنه هذا .

– عزيزتى ، انحنى . الا تسمعين صفير الرصاص ؟

وكان كل ذلك توهما منه . فلم يئن جرحى ، ولم يصفر رصاص . وتوهج ضوء الفجر . والى الامام لاح نقاب ابيض ، وكأن النهر قد فاض على الضفاف . كان ذلك الضباب الخريفى الواطئ ينفرش فوق النهر ، وعلى شجيرات الصفصاف العارية عند الشاطئ . وكان ايفان غورا يغوص فيه الى الوسط ، وكأنه يغوص

فى حليب . وعلى مسافة ابعد جندى آخر فى قبعة عالية وثان وثالث يلوحون حتى الحزام . كانوا يمدون ابصارهم الى ضفة الدون اليمنى العالية التى لم يصل اليها الضباب . وهناك ، وراء النباتات السوداء تصاعدت غيوما كثيرة من الدخان فى الهواء الراكد .

وقد رآها كوزما كوزميتش ايضا ، فبدا وكان الغبطة قد خنقته . واتسعت عيناه وقال :

– انظرى ، يا داريا دميتروفنا ، انظرى ماذا يجرى ! انهم جاءوا مع الجيش لينهبوا . مائة الف عربة . . . هؤلاء كقبائل الرحل القديمة ! انظرى : خيول غير مشدودة ، وعربات ! وعند النيران يضطجع رجال ملتحون وسكاكينهم وراء جزماتهم . . انظرى ، يا داريا دميتروفنا . . منظر يرى مرة واحدة فى العمر . . .

ولم تر داشا عربات ولا خيولا ولا قوزاقا يضطجعون عند النيران . . ومع ذلك فقد احست برهبة . استدار غورا واشار لهم بيده ان يجلسوا فى الضباب ، وتمتم كوزما كوزميتش وكأنه مستغرق فى قراءة رواية شيقة :

– حبذا لو نري ذلك لمثقفينا . ها ؟ حلم لا يروى . . . ارادوا دستورا ، وهذا هو ! ارادوا ان يحكموا الشعب الروسى . . . اى ، اى ، اى . . . اختلقوا الروايات عنه ، صبور وكسول وخاشع . . . اى ، اى ، اى . . وهذا هو . . . يقف الى حزامه فى الضباب رهيبا ذكيا ، يفهم كل مصيره ، وعيناه نافذتان فى جحافل العدو . .. اى ، انظرى الى هذه الجموع . . . لقد شدت احزمتها ، ولبست قفازها . . . لن تجدى ذلك فى اى كتاب تاريخى . . .

وفجأة توقفت طلقات بنادق ورشاشات . وتوقف كوزما كوزميتش فى نصف جملته . كان ايفان غورا واقفا فى المقدمة فادار راسه . وانهبد انفجاران كامدان عند النهر فى الاسفل ، وفى الحال اصطبغ الضباب بوهج ارجوانى ، وتناهت صيحات بعيدة وتتابعت الطلقات من جديد .

– يبدو ان اصحابنا احرقوا المعدية على الضفة الاخرى – قال كوزما كوزميتش ذلك واطلع راسه من الضباب – مذبحة ، هناك ، مذبحة . . .

ركض ايفان غورا وصف من جنوده نحو الشاطئ منحنين ، واختفوا فى الاجمة . انتشر الشروق عريضا على السهب . وشف الضباب واهتز وتمزق بين اغصان الصفصاف العارية . وارتفعت فجاة صيحات رهيبة فوق الشاطئ ، فوق نقاب الضباب عند النهر حتى ان داشا ضغطت قبضتيها على اذنيها . وانبطح كوزما كوزميتش على الارض .

ضربات ، وصلصلة ، وطلقات ، وعويل ، وطرطشة مياه ، وانفجارات قنابل يدوية .

ثم ظهر ايفان غورا من الاجمة . سار مبتلعا الهواء ، زافرا بقوة . وكان راسه خاليا من الطاقية ولكنه كان يحمل قبعتين قوزاقيتين عليهما شارتان حمراوان . تقدم من داشا وقال :

— سارسل نقالة ، فاركضى سريعا الى النهر . هناك رفيقان يحتاجان الى تضميد . . .

ونظر الى القبعتين ، ورمى واحدة منهما ، ووضع الاخرى على راسه بحركة عصبية .

— اراد الاوغاد تطويقنا على القوارب . . . اذهبى ، لا تخافى . قضينا على الجميع هناك . . .

٥

كانت شواطئ الدون تضج بين قريتى نيشنى – تشيرسكايا وكالاتش . فقد كانت افواج جيش الدون العظيم بخيالتها ومشاتها تعبر النهر على ثلاثة جسور عائمة وفى المعديات والزوارق . كانت الخيالة تسير بتشكيلة الزحف ، وهى فى بزات جديدة ، وقبعات مائلة وخصلاتها التقليدية بارزة منها على الجبين ، حسب العادة . والاعلام الصغيرة الملوّنة على رؤوس الرماح . والماء يتناثر من بين الواح الجسور من تحت حوافر الخيول الفتية التى كانت تحدج الدون الرمادى المياه بعيون زائغة .

كان المشاة من الشباب الغض يجتازون النهر بزوارق طويلة ، وقد فغروا افواههم ، وهم ينظرون الى التجمع الضخم للقوزاق والخيول والعجلات ، ويقفزون من الزوارق الى الماء ، ويتسلقون

الشاطئ العالى ، ويصطفون وبنادقهم عند اقدامهم ، ويخلعون قبعاتهم . وكان الشمامسة بخصلاتهم المتطايرة يصرخون كالوحوش ويقرقعون بمباخرهم ، بينما كان القساوسة الذين يبدون كالاجراس الذهبية بحللهم المزهرة يباركون القوات .

كان الجنرال مامونتوف يراقب العبور وهو واقف تحت راية القائد العام على رابية امام ضباط القيادة والحراس . وكان منظورا جيدا من قبل الجميع فى بزته العسكرية القوزاقية السوداء ، على صهوة جواد فضى كان يضرب الارض بحافره . كانت القوات تسير منشدة الاناشيد على قرع الطبول ، وخصل شعر الخيول على الصوالجانات القوزاقية تتطاير فى الهواء . وكان هدير المدافع يسمع فى شرق السهب المغلف بغبار القوات السائرة .

رفع القائد يده التى يتدلى منها السوط ، محتجبا عن الشمس ، ونظر الى الطائرات وهى تطير واجنحتها مائلة قليلا الى الوراء ، وعدها ، وراقبها حتى اختفت هابطة نحو الافق . مرت بالرابية المدافع الثقيلة التى انزلت لتوها من السفينة ، وقد رسموا على دروعها ومواسيرها خطوطا للتمويه . ومرت عربات تجرها خيول صغيرة مختلفة الالوان قصيرة القوائم شعث الاعراف وسواقها الملتحون يسوطونها بجنون . وقبل أن يهدأ الغبار جاءت الدبابات الضخمة من الواح التدريع المبرشمة وقد ارتفعت انوف جنازيرها المسننة . وعدها القائد . عشرة من الاغوال الفولاذية ستسحق الاوغاد الحمر فى شوارع تساريتسين . نزل من الرابية وعدا بفرسه بمحاذاة الشاطئ ورايته الزرقاء السوداء تخفق وراءه مرفوعة بذراع حاملها .

وحملت القوارب قوات جديدة ، وسارت المعديات تحمل عربات العلف ومختلف الامتعة . وبالقرب من المعبر وقفت عربات مختلفة الاشكال منها عربات كبيرة تستخدم فى حمل الحزم من الحقل . والقوزاق الموقرون واقفون بينها بهدوء ينتظرون المعدية ، او سائرون او جالسون عند النار يمضغون . كان هؤلاء هم التجار الذين ارسلتهم القرى القوزاقية الى قواتها . وكانوا يقومون بالشئون المعيشية ويأخذون المغانم من النقود والماشية والحبوب والعلف أو الاشياء الاخرى الضرورية من الملابس والبطانيات

والحشايا ونضُد الريش والمرايا والسلاح . ومن هذه المغانم كانوا يزودون قواتهم بالعلف والاغذية وبالملابس والسلاح اذا اقتضت الحاجة ، ويسجلون الاشياء الباقية فى قوائم ويضعونها على العربات ، ويرسلونها الى القرى بمعية الاولاد والنساء .

مرّ مامونتوف بضيعة ريتشكوف ، حيث احرق نصف البيوت ، والاهراء قد اسودت من الرماد ، واستدار بمحاذاة الخط الحديدى ، وانتظر قدوم القطار المصفح من الجبهة اليمنى .

كان جيش الدون المؤلف من اثنى عشر فرقة خيالة وثمانى فرق مشاة يهاجم بخمسة طوابير .

سارت الطوابير الخمسة كلها بزحف سريع نحو آخر خط لاستحكامات الدفاع عن تساريتسين . وكان الجيش العاشر الذى فقد الاتصال مع الوحدات الشمالية والجنوبية يتراجع متراصا فى جبهة تزداد ضيقا . واستنفدت فرقه الخمس بتعدادها القليل آخر الذخيرة وآخر القوى .

كان المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية الذى كان عليه ان يقدم مساعدة حاسمة للجيش العاشر مشلولا فى تلك الايام بالذات بفعل خيانة سرية حسنة الحبكة انعكست فى التاخير الشديد لجميع التحركات ، وفى الاصرار على أن الكفاح فى سبيل تساريتسين امر ثانوى ليس له اهمية وعلى ذعر مجلس تساريتسين العسكرى .

وتركت تساريتسين لتدافع عن نفسها ضد القوزاق بقواها الخاصة .

فى تلك الايام اصدر المجلس العسكرى للجيش العاشر امرين : اولهما بتسيير جميع السفن والصنادل والقوارب والمعديات من تساريتسين الى شمالها منعا حتى للتفكير فى تراجع القوات الى الضفة اليسرى من الفولغا . اما الثانى فكان يخص الجيش ، ويقضى بعدم التخلى عن المواقع المحتلة حتى صدور الاوامر . والتراجع عقابه الاعدام رميا بالرصاص .

مرّ النصف الأول من النهار هادئا فى بطارية تليغين . وترامى هدير المدافع وراء الافق ، الا ان السهل كان مقفرا . وكان

البحارة يحفرون ملجأ . ذهبت انيسيا الى المحطة ، دون استئذان ، وعادت بعد حوالى ثلاث ساعات تحمل كيسين تنوء بهما : فى احدهما خبز وفى الآخر بطيخ . افرغت الكيسين وفرشتهما على الأرض بين المدفعين ، وقطعت الخبز ، وقطعت كل بطيخة الى اربع قطع ، وقالت : «كلوا ! . .» وانتحت هى جانبا بسيطة راضية تنظر الى البحارة الجياع يلتهمون البطيخ . كان البحارة ياكلون دون ان يمسحوا خدودهم ، وهم يغدقون فى الثناء :

– عظيمة انت ، يا انيسيا . . .

– من العسير ايجاد امرأة مثلك .

– . . . امرأة نادرة حقا . . .

وقال شاريغين الرصين الذى يدلى بدلوه فى كل حديث :

– انها صاحبة المبادرة ، وذلك المهم فى الموضوع .

رفع البحارة رؤوسهم من قطع البطيخ ، واطلقوا ضحكة صاخبة . تعبس شاريغين ، ونهض ، وتناول الرفش قائلا :

– اقترح ، ايها الرفاق ، ان نحفر لانيسيا ملجأ منفصلا . فان من الضرورى الحرص على مثل هؤلاء الناس ، يا رفاق . . .

ضحك البحارة ، وراحوا يحفرون خندقا صغيرا لانيسيا فى منخفض وراء البطارية لتختبئ به عند اطلاق النار . ولم يكن هناك من عمل آخر . افرغت القنابل من السفينة ، وصفت صفوفا بالقرب من المدفعين . ونظفت البنادق . واقام سابوجكوف الاتصال مع نقطة قيادة الكتيبة . استلقى البحارة فى الاخدود يتدفأون فى الشمس . ولسان حالهم يقول : نحن على استعداد لاستقبالك ، يا جنرال مامونتوف .

جلس ايفان ايليتش على عربة المدفع ، ولوى نصلا جافا وكسره . ولم يكن يدخل فى مناقشات كبيرة ، فقد كان يعتز بهذا العالم الصغير من الناس الذين جاءوا من مختلف الانحاء ، والذين يختلف بعضهم عن الآخر ولكنهم ربطوا مصائرهم مع بعض . فهذا سيرغى سيرغيفيتش الذى يبدو وكأنه لا ينسجم مع أحد ويفيض دائما بافكار حادة اصبح فى الحال ضروريا للجميع ، وقد وجد مكانه فورا ، واستقر عند عجلة المدفع يتنفس بعمق . وشاريغين –

الشاب الطموح الذى لا يتميز بالذكاء ، ولكنه صلب ذو روح صافية بلا ظلال – ينام على جنبه هادئا ، وقد وضع قبضته تحت خده . وتمدد زادوفيتر على الرمل بعظمة محولا الى الشمس وجهه الجميل الخشن التقاطيـــع . انه فلاح ماكر جسور مدبر اذا كتبت له الحياة فسيعود الى بيته ليدير شؤونه . ولاتوغين مارد آخر من غابات سيبيريا يشخر شخيرا جبارا وقد غطى وجهه بطاقيته . انه اكثر تعقدا بكثير وبلا مكر – فهو ليس بحاجة اليه – وهو نفسه لا يعرف بعد اى سماء سيتسلق ومعه مسدس وقنبلة يدوية .

أوكل اثنـــا عشر رجلا حياتهـــم الى ايفان ايليتش . وسلمه المجلس العسكرى البطارية فى مثل هذه اللحظــة الحرجة . . . صحيح انه كان يعرف شيئا فى الرياضيات ، ومع ذلك فقـد كان عليه ان يعلن لهم بثبات انـه لا يصلح لقيادة البطارية . . .

– اسمع ، يا غاغين ، هل يعرف احد منكم حساب زوايا التسديد ؟ اذ ليس عندنا مقياس المسافة . . .

كان غاغين واقفا على سلمة الخندق يتطلع الى السهوب من فوق المتراس ، فالتفت وسأل كتيبا مثبتـا نظرة سوداء فى تليغين :

– مقياس المسافــة ؟ وما حاجتك الى مقياس المسافة ؟ سيبلغوننا بالتلفون من نقطة القيادة عن الزاوية والتسديد .

– صحيح .

– كلنا نعرف الزوايـا والتسديدات والمسافات . ولكن ليس هذا هو الأمر ، يا رفيق تليغين . . . ستكون المعركـة رهيبة دون مقاييس المسافات ، بل بالحقد . اعمل المستحيل ، واضرب حتى آخر قذيفة . هذا ما ينبغي ان تفكر فيه . . . تعال هنا ، ساريك شيئا .

صعد تليغين اليه على السلمة . اشتد هدير المدافع ، وكأنه قد اقترب . وكان الافق فى الغرب والجنوب ملفعا بعتمة داخنة . نظر تليغين الى الاتجـــاه الذى يشير اليه اصبع غاغين ولاحظ فى السهل مجموعة من الرجال تزحف من الشمال ، وصفا مــن العربات .

قال غاغين وهو يشير برأسه الى دخان هائل يرتفع بشكل مظلة فى الجنوب صوب ساريتا :

– رجالنا يتراجعون . منذ مدة طويلة وانا ارى الافا والافا يركضون فى هذا الاتجاه . . . هل ترى الانفجارات ؟ انها لم تكن من قبل . انهم يضربون بالمدافــــع الثقيلة . توقع ظهور الجنرال هنا فى صباح الغد .

تفقد ايفان ايليتش مرة اخرى اجهزة البطاريـــة . واحصى القذائف والخراطيش . لم يكن هناك غير مشطين لكل بندقية . وقد اقلقه بشكل خاص موقع البطاريــــة المكشوف . كانت الخنادق المحفورة حديثا تلوح من الموقع على مسافة ما يقرب من اربعمئة متر ، ولكن لم تكن تبدو فيها اية حركة ، بينمـا كانت وحدات القوات الحمراء تمر الى مسافة ابعد بكثير . جلس تليغين بالقرب من سابوجكوف . كان وجه سابوجكوف متغضنـــا ، وكان النوم لم يعد سهلا عليه .

– اعذرنى ، يا سيرغى سيرغييفيتش ، على ازعاجك . صلنى بآمر الكتيبة . . .

فتح سابوجكوف عينيه الغائمتين :

– ولماذا ؟ لقد اعطيت الاوامر بعـــدم اطلاق النار . وسيبلغوننا اذا اقتضى الأمر . . . ما الذى يقلقك ؟ – وتحرك نحو العجلة وتثاءب بتصنع واضح : احسن ما تفعله ان ترقد وتشبع نوما .

عاد ايفان ايليتش الى السلمة ، ووقف طويلا بلا حراك واضعا يديه على المتراس . كانت شمس برتقالية داكنة هائلة تغوص فى العتمة التى اثارتها حوافر الافواج القزاقية التى لا عد لها فى مكان ما وراء الافق . تحرك ظل الليل على الوادى ، ولم يعد من الممكن تبين حركة القوات فيه . وصارت السماء فى الشفق تحت نجمـة المساء الصافية كبلاد خيالية عند بحر اخضر ، وقد اصطفت هناك ابراج صينية ، ثم انفصل واحد منها ، وعام ، وتحول الى حصان ذى رأسين ، ثم الى امرأة تلوى ذراعيها . . .

وبدا وكأن المرء ما ان يخرج من الحفرة ، ويحرك قدميه ، مثلما يحدث فى الاحلام ، حتى يجد نفسه قد طار الى تلك البلاد

الرائعة . والا فما معنى ظهورهـا لك فى ساعة المعركة المميتة .

قال سيرغى سيرغيفيتش ، وقد وضع يده على ظهره :

– دعك عن هذا . فانه مثالية محض ، يا ايفان ، أن تحدق فى الاشباح . هل تلف سيكارة ؟ لقد سرقت فى المستشفى علبة التبغ . فانا احرص عليه لأدخنه قبيل الموت . . .

وكان على عهده يتحدث بلهجة ساخرة ، رغم ان حزنا يختفى فى الغضون القاسية عند فمه ، وفى عينيه الغائمتين . لفا سيكارتين ، وشرعا يدخنان . دخن تليغين دون ان يمص الدخان ، بينما راح سابوجكوف يعبه شاهقا .

سال تليغين بخفوت :

– لماذا تضرب على وتر الموت ؟

– اصبحت اخاف الموت . . . اخاف أن تصيبنى رصاصة فى الراس ، فانها لن تقتل فى مكان آخر ، أما فى الرأس فاخافها . الرأس ليس هدفا ، فقد صنع لشىء آخر . اننى اشفق على افكارى . . .

– كلنا نخاف ، يا سيرغى سيرغيفيتش ، فقط لا يحسن التفكير فى ذلك . . .

– وانت هل اهتممت بافكارى مرة واحدة ؟ انت لا تعرف الا أن سابوجكوف فوضوى ، وسابوجكوف يعب الفودكا . . . بينما ارى انا من خلالك ، وكانما من زجاج ، حتى آخر تلافيف دماغك . واستطيع ان انقل رسالتك الى الاحياء ، بينما انت لا تستطيع ان تنقل شيئا عنى . . . وهذا شىء مؤسف جدا . انا احسدك ، يا ايفان .

– على اى شىء تحسدنى بالذات ؟

– انت انسان مكشوف : الواجب ، والحب المخلص ، والنقد الذاتى ، خادم فى منتهى الوفاء ، وفتى طيب . وستعبدك زوجتك حين تستقر . وحياتك بسيطة ، لأنك انسان من طراز قديم .

– شكرا على الشهادة .

– أما أنا فآسف لأن غيمزا لم يرمنى بالرصاص فى ذاك الصيف . لقد انتظرنا الثورة ونحن نرتعش من اللهفة . وقذفنا

فى العالم بحزمة من الافكار : ذلك هو العصر الذهبى للفلسفة والحرية المنشودة . فاذا بها كارثة ، افظع كارثة . . .

وضرب بكفه فوق عينيه ضربة ازاحت طاقيته على علبائه .

– كنت اود بهذا الخصوص ان ادلى ببيان الى البشرية . – لا اكثر ولا اقل – بيان خبيث للغاية وليس للخير – فليذهب الخير الى الشيطان – بل للشر . ولكن لا توجد نسخة مكتوبة ، لم اكتبها بعد . . . ارجو المعذرة .

وكان الظلام قد خيم . وعلى الافق اشتعل حريق وتصاعدت التوهجات الحمراء الداخنة واتسعت ولاسيما الى الجنوب فى ناحية ساريبتا . فقد كانت المزارع تحترق مضيئة الطريق للعدو المهاجم بسرعة . كان تليغين الآن يسمع باذن واحدة : هناك بعيدا فى الغرب كانت الصواريخ الخضراء تنطلق ثلاث دفعة واحدة ، وكانها افاع تطل برؤوسها البراقة من وراء الافق .

الا ان سيرغى سيرغيفيتش واصل كلامه بعناد وبصوت مرتعش دون أن يعير التفاتا الى هذه الاضاءات ، مما جعل جلد ايفان ايليتش يقشعر بين لحظة واخرى .

– ام اننا نعيش لكى ناكل ؟ فى هذه الحال لتحطم الرصاصة جمجمتى ودماغى الذى كنت اعتبره ، وانا فى تمام الخطا ، يعادل الكون كله ، لينفجر مثل فقاعة صابون . الحياة ، ولعلك تدرى ، هى حلقة من الكاربون زائدا حلقة من الازوت ، زائدا مادة اخرى تافهة . ومن الجزئيات البسيطة تنشا اشياء اكثر تعقدا ، ثم معقدة جدا ، ومن ثم معقدة بشكل رهيب . . . وبعدها انفجار ! ويبدا الكاربون والازوت والتفاهة الاخرى بالتحلل الى ابسط حالة . وهذا كل شىء ، كل شىء يا ايفان . . فما علاقة الثورة هنا ؟

– اى هراء تقول ، يا سيرغى سيرغيفيتش ؟ الثورة هى التى ترفع الانسان فوق الابتذال .

– اتركنى وشأنى ! ثم اننى لا اتحدث معك ، فانت لا تفقه فى الثورة كثيرا . الثورة انتهت ، حطمت . فانظر ابعد من انفك . . . ان روسيا السوفييتية الآن فى حدود ما قبل ايفان

الرهيب . وقريبا ستكون جميع الطرق بيضاء من العظام . وستنتصر حلقات الكاربون والازوت ، واعنى بذلك اولئك الذين سياتون فى الصباح على خيول .

صمت تليغين منتصبا فى وقفته ، ويداه وراء ظهره ، وفى الظلام كان من الصعب تبين تقاطيع وجهه الحمراء من الوهج .

– ايفان ، لا تستاهل الحياة ان تعاش الا من اجل مستقبل خيالى ، وحرية عظيمة كاملة ، حين لا يعاق الفرد باى شخص او باى شىء من ان يشعر بانه معادل للكون كله . وكم من امسيات تحدثت فيها عن هذا مع رجالى ! كانت النجوم التى فوقنا هى نفس النجوم فى زمن هوميروس العظيم . والنيران التى كانت تحترق هى نفس النيران التى اضاءت الطريق خلال الوف الاعوام . واصغى الفتيان الى حديثى عن المستقبل وصدقوا بى ، وفى عيونهم التمعت النجوم ، وانعكس ضوء النيران على حراب القتال . . . وهم جميعا يرقدون الآن فى السهوب . . لم اقد رجالى الى النصر . . . يعنى ، خدعتهم !

على بعد حوالى مائة وخمسين خطوة الى اليمين ترددت صيحة حارس تبعها حديث خافت . التفت تليغين متفحصا . لا بد ان احدا من الجماعة تقدم من غاغين الواقف فى الحراسة فى الجانب الآخر .

– وماذا لو كان هذا المستقبل ، يا ايفان ، مجرد حكاية اسطورية رويت فى سهوب روسيا النائية ؟ وانه لا شىء ؟ واذا كان الأمر كذلك فان الرعب يجتاح العالم . – وتقدم سابوجكوف من تليغين تماما ، وقال همسا – وقد جاء الرعب وحتى الآن لم يصدق احد بذلك عن حق . والرعب اخذ من توه يمتحن قوة المقاومة . ان اربع سنوات من ابادة البشر ليست شيئا اذا قيست بما هو آت . ان تدمير الثورة عندنا وفى العالم اجمع هو الشىء الاساسى . . . وبعد ذلك التعبئة الشاملة العامة للفردية . رؤوس حليقة وغل فى اليد . . . وفوق رفات العالم الرمادية يسيطر الرعب المنتصر المنتفخ . . . من الافضل لى ان اقتل فى الحال بضربة حارة من سيف قوزاقى . . .

قال تليغين :

– انت بحاجة الى راحة وعلاج ، يا سيرغى سيرغيفيتش .

– لم اكن اتوقع جوابا آخر منك ! .

نزل غاغين الى الحفرة بصحبة عسكرى طويل مكور الكتفين . فرح تليغين فرحا غامرا بانتهاء حديث ثقيل لا يطاق . كان القادم ملطخا بالوحل وذيل معطفه ممزق ، ومن الغريب انه كان يرتدى قبعة قوزاقية . وقد تكلم بصوت كثيف ، وكأنه ظل اسبوعا غاطسا الى رقبته فى مستنقع :

– مرحبا ، ايها الرفيق الآمر . كيف الحال عندكم ، هل لديكم قذائف ؟

اجاب تليغين :

– مرحبا . ولكن من انت ؟

– انا من سرية فى فوج كاتشالين . وقد أمرنا باتخاذ موقعنا امامكم . انا آمر السرية .

– لطيف جدا . لقد بدات اقلق : الخنادق حفرت ، ولكن لا توجد لدينا نقاط حراسة .

– وها قد جئنا واتخذناها . كما جلبنا جرحى . وسنضعهم فى قطار . اردت أن اطلب خبزا من الملاحظ فقال : نفد وسيكون غدا . بينما السرية لم تتناول شيئا منذ ثلاثة ايام . . . الا يوجد لديكم ؟ على الاقل قطعة لكل فرد ، ليشموا رائحته . . . سنرده لكم غدا . وقد نهدى لكم بقرة .

سمع تليغين من يناديه ، فالتفت . كانت انيسيا قد اقتربت كالظل وسمعت الحديث ، فقالت :

– ادخرت خبزا يكفى لثلاثة ايام . يمكن ان تعطى لهم . . . فى الغد سأحصل على كمية اخرى .

ضحك تليغين ضحكة قصيرة :

– حسنا اعطى للرفيق آمر السرية اربعة ارغفة .

لم يكن آمر السرية يتوقع أن يقدموا له الخبز بهذه السهولة . فتساءل «حقا ؟» وشكر . وتناول الخبز الذى جلبته انيسيا ، ووضعه تحت ابطه ، الا ان الخجل منعه من الانصراف حالا . وجاء البحارة يتمطون بعد النوم ووقفوا يحدقون فى هذا الرجل الموحل المهلهل الثياب . فاخذ يحدثهم عن مآثر الفوج الذى ظل

عشرة ايام يخترق الحصار دون ان يفقد مدفعا واحدا ، ولا عربة جرحى ، الا انه كان يتكلم بتشوش وغموض حتى أن بعض البحارة اشاح بيده وانصرف .

قال لاتوغين ، وهو ينظر اليه ببرود :

– خذ قسطك من النوم اولا ، ثم حدثنا . . . ولكن الا تعرف لم هذا الضوء الساطع هناك ؟ – واشار بيده ناحية ساريبتا .

اجاب ايفان غورا :

– انا اعرف . لقد التقيت فى المحطة برجل من هناك . . . ان الجنرال دينسوف يقتحم ساريبتا . يقولون : فى الحرب مع المانيا لم تكن النيران بمثل هذه الشدة . المدفعية تمحو كل شىء . والقوزاق يتدفقون من المنخفضات . . . يا للهول . والزبد يسيل على لحاهم . . . يا للهول . . . انها مذبحة . انهم لا يأخذون اسرى . لم يبق من فرقة مروزوف الا نصفها . والعدو يندفع نحو الفولغا حتى يطلع اليها ما بين ساريبتا وتشابورنكى . عندئذ سينتهى الأمر !

وهز راسه للبحارة ، وخرج من الحفرة . ساله تليغين :

– من هو قائد فوجكم ؟

اجاب غورا وقد اختفى فى الظلام :

– ميلشين بيتر نيقولايفيتش . . .

٦

ظلت فرقة مروزوف تتقهقر ببطء تحت ضغط الطابور الخامس طوال الليل واليوم التالى نحو ساريبتا ، وقرية تشابورنكى الواقعة على بحيرة . كانت مئات الجثث تتناثر فى السهل . لم يترك الجنرال دينسوف الحمر يلتقطون انفاسهم . وكان كل هجوم يصد يعقبه هجوم جديد فى الحال . وكانت قنابل الشرابنيل تعول وتنفجر فوق الخنادق . والانفجارات تهز الارض ، وزوابع التراب تنهال على المقاتلين . وعندما تصمت مدافع القوزاق . كان المقاتلون يخرجون من الخندق وجوههم التى شوهها الحنق والالم ولطخها الدم .

ظهرت مجموعات عديدة من الخيالة من وراء التلال والوهاد وانتشرت فى عدوها كالطفح البركانى ، وتصاعد الغبار من تحت حوافر الخيل . . . لوحوا بسيوفهم ، وولولوا على العادة التترية القديمة . فلو جبن مقاتل وركض مذعورا أمام الانثيال العاصف للخيول الصهباء العريضة الصدور والفرسان السود المطبقين على اعراف خيولهم فى اندفاع لارواء سيوفهم بالدم الحار فان صف المقاتلين سيتحطم ويطعن بالسيوف ويداس بحوافر الخيل . . .

ثبت جناحا فرقة مروزوف بعزم وقد دفعا الى حدائق ساريبتا واهراء قرية تشابورنكى الا ان الوسط التوى نحو الفولغا دون ان ينكسر ، تماما مثلما تنوء اليد تحت ثقل ضاغط . وهنا بالذات ، فى الوسط ، على الخطوط الامامية كان يوجد قائد الفرقة والمفوض السياسى والمرافق والمراسلون المقرفصون وراء اجسام خيولهم المبطوحة . وكان القائد يستعيض عن القتلى والجرحى بالامتدادات المتضائلة بالتدريج والتى كان يسحبها من الجناحين . الا انه لم يطلب احتياطات من قائد الجيش حيث لم يعد هناك شىء يأخذه فى تساريتسين .

واليوم صباحا حصل حادث مؤسف فى الخط الرئيسى للدفاع . فان افراد الفوجين الاول والثانى من الفلاحين الذين عبئوا من المزارع والقرى القريبة قد خرجوا من الخنادق فجأة ، ورفعوا بنادقهم فوق رؤوسهم ، وذهبوا للاستسلام للبيض . وفى قيادة الفوج الأول احاط بعض امراء الوحدات فى مطبخ الميدان بقوميسار الفوج والشيوعيين ورموهم بالرصاص . وفى نفس الوقت حدث الشىء ذاته فى الفوج الثانى حيث رمى بالرصاص قائد الفوج والقوميسار وبعض الشيوعيين . وبقيت سريتان فقط على الوفاء ، ولم تستجب للاستفزاز ، وفتحت النار على الخونة الذين كانوا يركضون رافعين رايات بيضاء نحو مواقع البيض للاستسلام . ولما راى جنود مامنتوف هذه الجموع من بعيد ظنوا أنهم مهاجمون ففتحوا نارا حامية عليهم . وارتبكت فلول الافواج الفلاحية والقت السلاح وارتدت الى الوراء . وحوصروا ، واقتيدوا . وصارت الجبهة مكشوفة لخمسة فراسخ تقريبا .

وفى تساريتسين صدرت صفارات الانذار فى مصنع السلاح والمصنع الميكانيكى وجميع مصانع نشر الاخشاب . وكان الشيوعيون الذين ارسلهم المجلس العسكرى يطوفون الورش ويقولون :

– اتركوا العمل ، ايها الرفاق ، واحملوا السلاح ، وانقذوا الجبهة .

ولم يكن فى المصانع من العمال غير الشيوخ والعجزة والاولاد القاصرين . فتركوا العمل ، وخبأوا المعدات ، واوقفوا الالات ، واطفأوا الافران ، وهرعوا الى المستودعات حيث كان يحفظ ما لديهم من اسلحة . واصطفوا وراء البوابة ، واتجهوا نحو محطة القطار .

هرولت الزوجات والامهات من البيوت الصغيرة فى الضاحية ، ودسسن فى ايديهم صرر الطعام الصغيرة ، وسارت نساء كثيرات الى المحطة وراء الفصائل التى كانت تسير فى صفوف متخلخلة وكثيرات منهن صاحبنهم ابعد من ذلك ، الى المواقع نفسها . وهناك ظلت الامهات والزوجات واقفات طويلا على التلال حتى جاء قائد الجيش وتوسل اليهن ، وهو يضع يده على قلبه ، بان يعدن الى بيوتهن ، لأنه لا حاجة اليهن هنا ، بل هن مصدر اعاقة ، لأنهن يجعلن من انفسهن وهن واقفات على مكان مرتفع هدفا واضحا لمدفعية مامنتوف .

وقبل ان ينتهى النهار سدّ ثلاثة الاف عامل من عمال تساريتسين الثغرة على الجبهة ، حيث بدأ البيض ينفذون منها ، وقذفوا بهم الى الوراء متكبدين خسائر فادحة .

كان ذلك حين كانت فرقة مروزوف تتحمل ضغطا لا مثيل لاستماتته من الخيالة والمشاة . وقد دفع بوسط الفرقة الى الفولغا تقريبا . وكانت القذائف تتفجر فى شوارع ساريبتا . واحترقت قرية تشابورنكى ، وانتشر اللهيب فى سطوح القش ، واحترق القصب على ضفاف البحيرة فى السهب .

كان قائد الفرقة يتفحص السهل بالمنظار . كانت الشمس تغوص فى الافق . راى الخيالة القوزاق يتجمعون ويتفرقون ببطء دون محاولة للاخفاء . وقد عرفت عينه المجربة من تحفز الخيول بأن

هذه وحدات جديدة متهيئة لآخر هجوم . واذن فبحلول المغيب ستكون فرقة مروزوف كلها وعلى راسها قائدها قد بدأت مسيرتها الاخيرة عبر صفحات التاريخ .

انزل المنظار ، واخرج غليونا مسودا ، ووضع فيه معيدين تشكيلتهم قبصة من تبغ ساراتوف ، واخذ يبحث عن علبة الكبريت متلمسا جيوب معطفه . ولم يجدها . تلفت يمنة ويسرة . كان المقاتلون يستلقون على بعد خطوات الى الأمام امام اكوام من التراب . كانت بقعة سوداء تنتشر على قميص احدهم ، وكان الآخر يشخر كابله حاكا خده على مقبض البندقية .

القى قائد الفرقة الغليون على الارض بحذر فتدحرج فى الافسنتين ، وتناول المنظار ثانية . فارتجفت يداه بشكل لا ارادى .

كانت تحشدات جديدة ضخمة من الخيالة ترى الى الجنوب الغربى . . فقد ظهرت من مكان ما بينما كان يملأ غليونه . طلعت عدة الاف من الخيالة من وراء التلال مثيرة الغبار الذى اضاءته الشمس المائلة . قال القائد لنفسه : ان قوة كهذه يمكن ان تحطمنا وتدوسنا بعصفة واحدة ! ابعد قائد الفرقة عينيه عن المنظار لحظة . سكن كل شىء فى الخنادق ، وتوتر . ونهض المقاتلون ، ضاغطين على البنادق . وقبل أن يفتح قائد الفرقة فمه ليقول لهم كلمة حادة ترامى هدير المدفعية من بعيد فعاد الى منظاره مرة اخرى . اى شيطان هذا ! ارتفع زهاء عشرين انفجارا فى السهل قرب خيالة القوزاق المتحشدة . واسرع القوزاق يعدون متحولين الى جبهة عريضة للهجوم ، ولمعت راية الزعيم فى الوسط . واستدار القوزاق ليواجهوا هذه الكتل المندفعة من الخيالة . تراجعت العصبة الكثيفة من القوزاق وقد مدت حرابها ، ثم اصطفت ، واطلقت خيولها الى الامام . واندفعت كلتا الكتلتين من التلال ، وتقاربتا واختلطتا . وارتفعت سحابة هائلة من الغبار فوق ذلك المكان .

قرب قائد الفرقة عدسة منظاره ، ورأى مشاة العدو ينهضون بذعر من الارض التى كانوا ينبطحون عليها .

وقال قائد الفرقة لنفسه : «اها ! لهذا السبب اذن الحّ رئيس المجلس العسكرى فى التلفون على الصمود لآخر قطرة من

دم . . . يعني وصلت فرقة دميترى شيلست الفولاذية . . .» .

وفي اثر الخيالة التي هاجمت القوزاق نهضت من وراء التلال صفوف كثيفة من مشاة الفرقة الفولاذية . وابعد من ذلك ، عند الافق لاحت من خلال الغبار جمال وعربات وجموع من الناس . انها قوافل الفرقة التي كانت تجر وراءها ، كما اتضح بعد قليل ، كميات هائلة من القمح ، وبراميل الكحول مع مئات النازحين وقطعان المواشي .

وسقط قوزاق كثيرون في المعركة . وتراجعت الخيالة البيضاء المحطمة نحو الغرب ، واختلط مشاة العدو بين صفوف الفرقة الفولاذية وفرقة مروزوف وتحطم قسم منهم . واستسلم القسم الاخر . ولما انتهى كل شيء – وقد استمرت المعركة نحو ساعة – ركب قائد الفرقة جواده ، وسار به في السهل المزروع بجثث القتلى من الرجال والخيول . وكان الدخان لا يزال يتصاعد هنا وهناك ويتردد انين الجرحى الذين لم يلتقطوا . التقى قائد الفرقة بجماعة من الخيالة . كان يتقدمهم رجل يرتدي ملابس كوبانية ويضع صفوفا من الرصاص على صدره ، وخنجرا كبيرا عند خصره بينما تدلت نهاية منديله الصوفي على كتفيه . وقد حث حصانه الاسود وتقدم من قائد الفرقة واوقف حصانه فجأة ، وقال بصوت حاد آمر :

– مرحبا ، يا رفيق ، مع من اتحدث ؟

– مع قائد فرقة مروزوف الدونية . مرحبا ، يا رفيق . ومن انت ؟

اجاب الفارس بضحكة مقتضبة :

– من انا ؟ تمعن فيّ . انا ذلك الرجل الذي اعتبره قائد الجيش الحادي عشر خارجا على القانون ، واراد ان يرميه بالرصاص في نيفينوميسكيا ، ولكنني جئت الى تساريتسين ، وفي الوقت المناسب ، كما يبدو .

لم يعجب قائد الفرقة كثيرا بهذا الكلام المتباهي الطويل ، فتعبس ، وقال :

– اذن ، انت دميترى شيلست . . .

– اعتقد ان هذا هو اسمي منذ الطفولة . والآن ارني اين يمكن ان اتحدث بالتلفون هنا مع المجلس العسكري .

– لقد تحدثت اليه . والمجلس العسكري على علم بكل شيء .

اجاب دميترى شيلست بعجرفة :

– لا يهمني ما تحدثت به . دعهم يسمعون صوتي .

ولكز حصانه الاسود لكزة جعلته ينطلق كالمجنون .

٧

في ساعة متأخرة من المساء ارسل ايفان ايليتش مذكرة الى العقيد ميلشين : «يا بيتر نيقولايفيتش ، انا هنا ، واود كثيرا ان اراك . . .» فرد ميلشين مع نفس المراسل : «سعيد جدا . ساتي حالما ادبر امري . عندي اشياء كثيرة احدثك بها . بالمناسبة هل تعرف من عندي الآن ؟»

ولكن القلم انكسر ، او انه كان يكتب في الظلام فلم يتبين ايفان ايليتش الكلمات الاخيرة ، رغم انه اشعل بضعة اعواد من الثقاب . . .

ولكن ميلشين لم يات . وبعد منتصف الليل اخذت الصواريخ تضيء السهب . وتلقت البطارية امرا بالاستعداد .

قال ايفان ايليتش لرجاله :

– والآن ، يا رفاق ، يجب اعتبار المعركة قد بدأت . يعني كونوا حريصين حتى لا تنفجر قذيفة واحدة عبثا . . . ثم انكم على علم بامر قائد الجيش القاضي بعدم التراجع خطوة واحدة دون امر خاص بذلك . يعني كل شيء يحدث في المعركة . . . (وفكر مع نفسه . . اللعنة كيف لصقت بي «يعني» هذه) في عام ١٩١٥ وضعوا خلفنا رشاشات ، لان الجنرالات لم يكونوا يثقون بان الفلاح سيريق دماءه في سبيل مولانا القيصر . . . وعلى الرغم من انهم كانوا يلعنون نيقولا في الخنادق ، ولكن روسيا ، على اية حال ، هي بلادهم . . . ولم يكن في تلك الحرب ارهب من هجوم الحراب الروسية . . .

وفجأة سال لاتوغين ببحة :

– يا آمر ، ما معنى هذا الهراء ؟ . . ها ؟

الا ان ايفان ايليتش تابع كلامه وكأنه لم يسمع شيئا .

— والآن لا توجد رشاشات وراء ظهورنا . وخيانة الثورة هي افظع من الموت بالنسبة لكل واحد منا ، يعني لكي تنجو بجلدك . . . يجب ان نفهم أمر قائد الجيش على النحو التالي : الا تضعف في الساعة الحاسمة حين تشتعل الارض تحت اقدامك . يقولون هناك اناس لا يعرفون الخوف . ان ذلك كلام فارغ . . . فان الخوف موجود ، وهو يرفع راسه . وعلينا ان نحطم راسه . . . فالعار اقوى من الخوف . . . وانا اقول ذلك ، يا رفيق لاتوغين ، لأن هناك رفاقا لم يتمرسوا بعد في معارك خطيرة . . . وهناك رفاق ذوو اعصاب ضعيفة . وقد يصاب احد الناس بالارتباك . ولهذا فلو اصبت ، انا الآمر ، بالضعف وخرجت من البطارية ، مثلا ، آمركم برمي بالرصاص في الحال . وانا من ناحيتي ارمي بالرصاص مثل هذا الرجل . يعني هذا كل شيء . . . امنع التدخين حتى يحل الصباح . . .

سعل مرة اخرى ، تمشى وراء المدفعين بعض الوقت . وكان يريد ان يقول اشياء كثيرة ، ولكنه لم يستطع . . .

— لا مانع من الاحاديث ، يا رفاق .

ناداه لاتوغين مرة اخرى :

— يا رفيق تليغين — واقترب تيليغين منه واضعا يديه خلف ظهره — قبل انخراطي في الجيش طوفت في الدنيا . . . عاريا حافيا مشاكسا . وعملت حمالا في الموانئ ، وكسرت الحطب للتجار ، ونظفت المراحيض ، واشتغلت سائسا في اسطبل الاسقف ، وتشاتمت مع نيافته بسبب سوء الطعام . واشتبكت مع اللصوص في وقت ما . . . رايت كل شيء ! اوه ، كنت احمق ، شقيا ، وكانوا يضربونني . . . احيانا حتى اكاد اموت . . .

قال بايكوف :

— من اجل النساء ، في الغالب ؟

وانفجر صاروخ بعيد فلمعت في ضوئه الشاحب اسنانه الصغيرة وسط لحية كثيفة .

— ومن اجل النساء ايضا . . . ولكن ليست هذه هي المسالة . المسالة انك ، يا رفيق تليغين ، لم تقل لنا الشيء

الاهم . حمت حول الموضوع ولم تصب لبه . . . الواجب الثوري ، هذا صحيح . ولكن لماذا اخذنا هذا الواجب على عاتقنا طواعية ؟ هلا اجبت على ذلك ؟ لا تستطيع ؟ طبعا ، لقد اكلت طعاما آخر . اما نحن فقد ذقنا الويل ، وسلبت ارواحنا . ويبدو ان ما من حيوان يستطيع ان يتحمل ما تحملناه . لو كنت في مكاننا لدليت عنقك منذ زمان ، وجررت الحمل . انتظر ، لا تتكدر ، فنحن نتحدث انسانا لانسان . لماذا قضت امي حياتها كلها تخدم الناس ؟ ما الذي يجعلها اسوا من ملكة اليونان ؟

قاطعه بايكوف ثانية :

— يا لها من شطحة ! رأينا ملكة اليونان في عام ١٩١٣ في اثينا . ما الذي ذكرك بها ؟

— ولماذا عاش ابي عيشة الخنزير ، حتى ضربه الجندرمة في الحقل حتى الموت ، وبصقوا عليه ؟ لماذا يسمونني ابن الكلب ؟

قال شاريغين ، وقد نهض من ركبتيه وكان جالسا في مكانه عند القذائف :

— هذا لا يصح . انت تتحدث حديثا غير منظم ، يا لاتوغين . ما شان ابن الكلب هنا ، وما علاقة ملكة الاغريق ؟ . كل ذلك بناء فوقي . ولكن الجوهر في الصراع الطبقي . عليك ان تعرف مكانك : من انت ؟ بروليتاري ام عنصر لا طبقي . . .

صاح به لاتوغين :

— اذهب الى الشيطان ! انا ملك الطبيعة . هل هذا مفهوم لك ام ما زلت غرا ؟ كنت قد طالعت كتابا جاء فيه ان الانسان ملك الطبيعة . ولهذا السبب اقف عند هذا المدفع . ان ملك الطبيعة يعيش فينا . الواجب ، الواجب ، الخوف الخوف ! انا اليوم ساضرب بمدفعي الرب نفسه لا الجنرال ماموتتوف . ذلك هو بناؤك الفوقي ! ساقضم عظامه باسناني . . .

صاح سيرغي سيرغيفيتش من مكمنه عند تلفون الميدان :

— سكوتا ، يا رفاق ! ابلغكم ان نجاحا كبيرا قد حققناه قرب ساريبتا . حطمنا فوجين من الخيالة ، وفوجا من مشاة القوزاق . وقد قتل الف وخمسمائة وأسر ثمانمائة .

وسرى نبأ النجاح قرب ساريبتا فى الجبهة . وفى هذه الاثناء كانت وحدة من وحدات الجيش العاشر – فرقة بودونى للخيالة – تشق طريقها من سهوب سالسك الى تساريتسين ، وكان قد قطعها هجوم الطابور الخامس . كانت المسيرة قاسية ، وقد اصاب الاعياء الناس والخيول . ثم استطاع احدهم فى محطة صغيرة ان يتصل بالمصادفة تليفونيا بمقر قيادة مروزوف وسمع صوتا مرحا يهتف بالسماعة مطعما كلامه بعبارات لاذعة : «هل انتم نائمون ؟ ولا تعرفون اننا قطعنا فرقتين من خيالة الاوغاد طعاما للكلاب ؟ تعالوا لتحصوا الاسرى» ولدى سماع هذا النبأ العظيم ، وان كان مبالغا فيه كثيرا اوقفت الفرقة قوافلها تحت الحراسة ، وقامت بمسيرة مائة فرسخ صوب الشمال لملاقاة اوغاد الجنرال دنيسوف .

الا أن النجاح قرب ساريبتا كان محليا على اية حال ، ولم يخفف الوطأة فى مواقع تساريتسين الرئيسية ، بل جعلها اصعب . واستفاد مامونتوف بسرعة من الحادث السار بخصوص فوجى الفلاحين الهاربين ويعيد فى الليل تنظيم طوابير للهجوم ، ومنذ الفجر حوّل كل ثقل الهجوم الى هذا القطاع من الجبهة الاقل حصانة والممتد خمسة فراسخ الذى كانت تحميه حفنة ضئيلة من فصائل العمال .

كان السهل الذى دخلته نخبة قوات الدون مقطوعا بمنخفضين عميقين ضخمين يقطعان الجبهة من الغرب الى الشرق ويمتدان حتى المدينة نفسها . واخذت الخيالة القوزاقية تسير فيها مقتربة من خنادق الحمر . وكان السهل كله يبدو مغطى بكتل من التراب تبدو مثل بيوت النمل . ذلك زحف المشاة . وامامهم تزحف دبابات هائلة بجنازيرها العمياء . وكانت الطائرات تحوم حول البطاريات وعربات المؤونة الممتدة عبر السهب من تساريتسين والى تساريتسين ، وتلقى قنابل صغيرة كالكمثرى تفجر بقوة رهيبة .

كان قطار مامنتوف المصفح يرسل دخانا فى الافق . وكان السهب كله الى يساره ويمينه مملوءا بعربات الريفيين التى كانت تتحرك فى اعقاب القوات فى كتل متلاصقة . وكان تجار القوزاق يرون المدينة بقبابها ومداخن معاملها وادخنة الحرائق فى الضواحى .

4—2924

آه ، كم كانت العيون تلمع تحت الحواجب الكثيفة لهؤلاء الناس الفواحين برائحة الدخان وشحم الخنزير والقطران !

وفوق السهب كانت القذائف تنطلق مخترقة الهواء هادرة مطوقة مواقع الحمر بنوافير من التراب . وقفز الخيالة من المنخفضين العميقين زاعقين واندفعوا الى الخنادق خلال الاسلاك الشائكة لا يلوون على شيء بضراوة عارمة بحيث ان رصاصة لو اصابت قوزاقيا ولاح فى عينيه ظل الموت فانه سيمضى فى عدوه شاقا الهواء بسيفه حتى ينهار على السرج ، ويبسط ذراعيه وكأنه يقهقه بجنون ويتدحرج من حصانه المذعور .

زحفت صفوف المشاة ثم اندفعت الى الامام . واشتبكت الخيالة والمشاة فى عراك عند خنادق الحمر . وقد أمر مامونتوف جميع القوزاق فى ذلك اليوم بشد شريط ابيض حول قبات طاقياتهم خوفا من أن يخطىء رجاله فيطعن بعضهم بعضا فى معمعان المعركة . وازداد القتال فظاعة واستماتة لأن المتحاربين فى كلا الجانبين كانوا من الروس . بعضهم فى سبيل حياة جديدة غير مشهودة والبعض الآخر فى سبيل ان يبقى القديم على حاله .

وفى كل مرة كانت موجات الهجوم تتراجع مصطدمة بقطارات الحمر الصغيرة المدرعة . وكانت هذه القطارات المصنوعة على عجل فى مصانع تساريتسين – اما من صهريجين للبنزين او من عربتين للبضاعة مكشوفتين بينهما قاطرة – تسير على طرق خلف الجبهة . وكانت احيانا تنفذ برشاشاتها ومدافعها الى قلب المعركة . وكانت تعتصر من قاطراتها القديمة الصغيرة آخر ما تبقى لديها من قوة ، وتنطلق وسط الانفجارات وسحب البخار المنبعثة من جوانب القاطرات التى اخترقها الرصاص ، وتجوب الطرق المحطمة حاملة الماء والخبز والذخيرة الى الخنادق .

– استلق !

وعلى مقربة حدث انفجار شديد جعل الضوء يشحب ، والجسم ينضغط ، وتساقطت على الفور كتل التراب على الظهور والرؤوس والايدى التى ارتفعت لتقيها .

– الى المدفع . . الى الاماكن !

صاح تليغين ، ووثب ، ولمع بشكل مبهم ومن خلال الغبار مدفعا محطما برزت احدى عجلتيه الى الاعلى ، والرجـــال يقفزون نحوه غضابا . . . «كلهم سالمون . لاتوغين ، بايكوف ، غاغين ، زادوفيتر . . اين شاريغين ؟ . . هنا . . . سليم . . . المدفـــع الثاني سليم . بيتشيكين ، فلاسوف ، ايفانـــــوف . . . يهز رأسه . . .»

وصرخ سابوجكوف بصوت مبحوح طالعا من الخندق المتهدم وفي يده سماعة تلفون :

– ابعد الى اليسار ، ستة وثمانون ، التسديد ستـــــة صفر ، البطارية ، نار !

ويكرر تليغين الأمر ساعلا غبارا . ويلقى شاريغين القذائف الى بايكوف ، الذي يعاين فتيلة الانفجار ، ويقذفهـــا الى غاغين المعبئ* . ويفتح زادوفيتر المغلاق ، ويقوم لاتوغين بالتسديد ، ثم يرفع يده :

– نار !

تهتز ماسورتا المدفعين ، وتنطلق القذائف . . . جمدت حركات الرجال السريعة ، مثل شريط سينمائي قد اوقف . . . وهذا ما حصل . انقذف ظل ضار ، ومض بريق ، على مقربة !

– استلق !

وتكرر كل شيء . الهدير ، وزوبعة التراب ، والاختناق . وكان الغيظ قويا حتى ان العروق تبدو وكأنها ستنفجر . ولكن ما العمل اذا كان الجانب الآخر لا يبخل بالقذائف ، اما هنا فلم يبق منها الا القليل ، بينمـــا يجلس في نقطة المراقبة للكتيبة غبي لا يستطيـــع ان يحدد بالضبط موقع مدفعيـــة العدو الثقيلة .

جرح لاتوغين في هذه المرة . وقد جلس يصر بأسنانه ، بينما كانت انيسيا تتحرك الى جانبه رقيقة خفيفة – لا يعرف احد اين تروح ومن اين تجيء – وخلعت سترته وقميصه التحتاني بسرعة ، وضمدت كتفه ، وقالت وقد قرفصت امامه «تعال ، يا عزيزي ،

سآخذك الى نقطة الاسعاف» . ولكنه دفعها عنه وهرع الى المدفع وهو عار الى النصف مدمى يصر باسنانه ، وكأنه يقضم عظمـــة بالغل .

واخيرا تفجر الحنق الذي لا يطاق والذي اعيا الجميع ساعات طويلة منذ بداية هذه المعركة غير المتكافئة . وكان سابوجكوف قد اجاب من توه على سؤال آمر الكتيبة حول عدد القذائف المتبقية وكان ينتظر الرد . كانت دموع قذرة تنحدر على وجهه من عينيه الملتهبتين ، وكان بين الحين والآخر يرفع السماعة من اذنه ، وينفخ فيها . وقد حدث شيء مفاجيء في الهواء نفسه ، فقد خيم سكون ، وامتلأت الآذان بالطنين . زحف تليغين على بطنـــه الى المتراس قلقا . وكان ذلك في اللحظة المناسبة . . . لقد بدأ الهجـــوم الحاسم . وكانت العين تميز الكتل الداكنة للخيالة القوزاق والمشاة تلمع بينها هنا وهناك رايات مذهبة . انهم القساوسة الذيـــن نقلوا في السيارات لمباركة القوات في الميدان المكشوف ، على مرأى من بطاريات الحمر .

طلع البحارة على المتراس زاحفين على بطونهـــم ، وكانت انفاسهم ثقيلة . وقال بايكوف ليثير ضحكهم :

– لنضرب الملائكة ضربا مباشرا .

ولم يضحك احد . وقال لاتوغين بحدة وبلهجة آمرة :

– يا آمر . دعنا نخرج المدفعين الى الارض المكشوفة . لماذا نحن كالفئران في حفرة . . .

– لن نستطيع ذلك دون خيول ، يا لاتوغين .

– نستطيع . . .

وصاح شاريغين :

– لا تجادل الآمر اثناء المعركة . هذه فوضوية !

ودوّت صرخته المبالغة هذه صبيانية غريبة حتى ان البحارة التفتوا اليه متجهمين فغرف الرمل بكلتا يديه ، واخذ يفرك به وجهه بكل قوته . وعاد الى مكانه ووقف بلا حراك سوى ان رموشه الطويلة كانت ترف فوق خديه المفروكين .

نزل تليغين من المتراس ، واقترب من المدفع ، وامسك عجلته .

–لاتوغين على حق ، يا رفاق . . على العموم تعالوا نحفر هنا .

هرع البحارة الذين كانوا يتابعون حركته صامتين الى الارفاش واخذوا يحفرون منحدرا فى الحفرة فى اسهل موضع لاخراج المدفع الى مكان مكشوف .

صاح سابوجكوف بصوت متوتر مبحوح :

– يا تليغين . الأمر يسال هل يمكن برجالنـــا ان نخرج المدفعين الى مكان مكشوف ؟

– ممكن !

قال تليغين ذلك بهدوء وثقة . كان لاتوغين يعمل برفشه ، رغم ان كتفه الجريحة كانت تسبب له ألما محرقا والدم يسيل منها خلال الضمادة . ثم لكز بايكوف فقال :

– احب المثقفين . ها ؟

واجاب بايكوف :

– سيتعلمون حمل الماء بالمنخال . سيتعلمون شيئا من الفلاحين .

وفجاة تمزق السكون بهدير عاصفة نارية . اندفع تليغين الى المتراس . وامتلأ السهل كله بالقوات المتحركة . ولقطـــع طريقها انطلقت من اليمين وعلى خط غير عال القطارات المصفحة التابعـــــة للآمر اليابيف الذى اشتهر فى ذلك اليوم وهى تعوى وتلهث وتنفث دخانا صدئا . وكان ايفان ايليتش يركز انتباهه على اقرب استحكام لسرية من فوج كاجالين كانت تتخـــذ موقعها وراء الاسلاك الشائكـــــة ، لا فى خنادق ، بـــــل فى حفر . وكانوا قـــد جلبوا اليهم المـــاء توا فى برميل ، الا ان الحصان فزع ، واستدار وقلب البرميل ، وانطلق مع العربة . وشاهـــد تليغين ايفان غورا ، ذلك الرجل الطويل الغريب الاطوار الذى زاره يوم امس . كان يركض خلال الخنادق مقرفصا ، يبدو أنه يوزع آخر ما تبقى من ذخيرة .

والى يسار موقع السرية (ويسار بطارية تليغين) وعلى بعد اقل من نصف فرسخ كان يمتد المنخفض الذى يشق الجبهة حتى المدينة نفسها . وكان المنخفض طوال النهـــار تحت القصف ، وكانت موجات القوزاق تتدفق منه بعيدا من هذا الموقع . والآن

فهم ايفان ايليتش وهو يراقب القلق الظاهر بين مقاتلى ايفان غورا أن القوزاق لا بد أن يتوغلوا فى المنخفض ، ويهاجمـــوا الخنادق من المؤخرة ، والبطارية من الجناح ، فيثيرون المتاعب . وهذا ما وقع بالفعل . . .

لقد طلع الخيالة من المنخفض قرب الاستحكامات مباشرة وانتشروا ، واخذ جزء منهم يلتف على مؤخرة ايفان غورا ، وانطلق اخرون نحو البطارية . فاندفع تليغين نحو المدفعين . كان البحارة يدفعون المدفع من الحفرة الى الاكمة لاهثين شاتمين : لقد غطست عجلتاه فى الرمل .

قال تليغين باهدأ ما يمكن :

– انهم القوزاق ! ادفعوا !

وامسك بالعجلة بقوة جعلت ظهره يقرقع :

– قنبلة شظايا ! بسرعة !

وتردد زعيق القوزاق الوحشى وكأن جلودهم تسلخ وهم احياء . استلقى غاغين تحت عربة المدفع ورفعها على كتفيه : «يالله يا شباب !» واخرجوا المدفع من الرمـــــل ، ووضعوه على الأكمة ، فانتصب مائلا منكس الماسورة . تناول غاغين قذيفة فى يديه الكبيرتين ، ووضعها فى المدفع ، وكانه فى غير عجلة مـــن امره . . . كان حوالى ثلاثين فارسا ينطلقون نحو البطارية ، منحنين على اعراف خيولهم ، هازين سيوفهم . وحين قابلهم لهيب طويل ، وانفجرت قنبلة شظايا ، شبت بعض الخيول ، واستدارت اخرى ، الآن عشرة من الفرسان صعدوا الأكمة غير قادرين على كبح جماحها .

وفى تلك اللحظة تفجر الحنق المحتدم . فقد ارسل لاتوغين العارى حتى الوسط صيحة مبحوحة ، وبادر فى الهجوم بخنجر معقوف ، وغرسه فى سترة قوزاقية سوداء تحت حزامهـــا المزين . . . ووقع زادوفيتر تحت حصان فشق بطنه بغيظ ، وما كاد فارسه يقع على الأرض حتى عاجلـــه بطعنة خنجر . وتفادى غاغين ضربة سيف ، وامسك بتلابيب ضابط ضخم – وجره الى الأرض ، وطرحه ، وشد قبضته عليه . امـــا الاخرون فكانوا يطلقون النار من بنادقهم ، واقفين وراء المدفـــع . وراح تليغين يضغط على زناد مسدسه ببطء وهدوء ، كمـــا كان يحدث له دائمـــا فى مثل هذه الاحوال

(فان الانفعالات تاتي فيما بعد) . كان الاشتباك قصيرا ، وبقى اربعة من القوزاق مطروحين على الاكمة ،وهرب اثنان ثم وقعا تحت النيران .

وصد الهجوم الأخير كما صدت الهجمات السابقة فى ذلك اليوم . ولم يتمكن العدو من خرق جبهة الحمر ، سوى ان مشاته توغلوا عميقا فى اضعف مكان بين فرقتين للحمر . وحل المساء . وكانت ماسورات المدافع حامية ، والخيول متعبة ، وكلت حدة الخيالة ، وصار من الصعب دفع المشاة الى الهجـــوم . وانتهت المعركة ، وسكنت الطلقات فى السهل الذى خلا الا من رجـــال الاسعاف الذين كانوا يزحفون لالتقاط الجرحى .

واتجهت نحو البطاريات والخنادق براميل المـــاء وعربات الخبز والبطيخ ، وعادت محملة بالجرحى . وكانت الخسائر فادحة فى جميـــع وحدات الجيش العاشر . ولكن الافدح من ذلك كان استنفاد جميع الاحتياط فى ذلك اليوم ، بينما لم تعد المدينة قادرة على مد الجبهة بشىء .

وعاد قائد الجيش الى عربة ركاب كانت واقفة وراء محطة فروبونوفو . وترجل ببطء ونظر الى الرجلين القادمين اليه ، وهما رئيس مدفعية الجيش – ذلك الرجل الضخم الملتحى المورد الخدين الذى كان قد جاء وتحدث الى المثقفين فى بطاريـــة تليغين – واليابيف قائد القطارات المصفحة الذى كان يبدو كطالب منفعل عائد من المتاريس . وقد ابتسما للقائد ، سعيدين بعودته من الخطوط الامامية ، حيث كان قد اشترك عدة مرات فى ذلك اليوم فى المعارك بالسلاح الابيض . وكان معطفه مثقبا ، ومسنـــد قربينته المعلقة على كتفه مهشما .

دخل قائد الجيش فى العربة ، وطلب ماء . وشرب عـــدة اقداح ، ثم طلب سيكارة . اشعلها وغامت عيناه الجافتان فوضع السيكارة على حافة المنضدة ، وقرب منه مجموعة من البلاغات ، واتكب عليها . . . اجل ، ان الخسائر لفادحة ، فادحة للغاية ، ولم يبق ليوم الغد سوى القليل من الذخيرة ، بل النزر اليسير .

نشر خريطة ، وانحنى الثلاثة عليها . ورسم قائد الجيش بالقلم خطا – كان قد خرق خلال ذلك اليوم فى بعض المواقع فقط – ولكن ليس بالقدر الكبير ، بل وقد التوى عند ساريبتا نحو البيض ، الا ان خط الجبهة فى القطاع الذى وقع فيه يوم امس الحادث المؤسف لفوجى الفلاحين ، قد مال بشكل حاد نحو تساريتسين فتباطأ القلم فى يد قائد الجيش . وقال القائـــد : «والآن دعونا نتاكـــد مرة اخرى . . » كانت التقارير مضبوطة . وتوقف القلم على بعـــد سبعة فراسخ من تساريتسين ، فى قاع المنخفض تمامـــــا ، ثم استدار بشكل حاد عائدا نحو الغرب واسما اسفينا . فالقى قائد الجيش القلم ، وضرب بكفه على هذا الاسفين :

– هذا يقرر كل شىء .

وعبس رئيس المدفعية ، وحول عينيه ، وقال بعناد :

– آخذ على عاتقى تقطيع هذا الاسفين اذا حصلت فى الليل على مزيد من الذخائر .

وقال رئيس القطارات المصفحة :

– المعنويات فى الوحدات عالية . سيصمدون اذا اكلـــوا وناموا ساعة او ساعتين .

واجاب قائد الجيش :

– الصمود لا يكفى . بل يجب تحطيم العدو ، بينما خط الجبهة غير ملائم لذلك . قل لى هل القطار جاهز ؟ اذن فانـــا ذاهب .

وجلس دقيقة اخرى مشلولا بالاعياء ، ثم نهض ، وطوق كتفى رفيقيه وقال :

– اتمنى لكما التوفيق .

عاد رئيس المدفعيـــة ورئيس القطارات المصفحة الى نقطة المراقبـــة اى الى برج الماء لخط السكة الحديدية البارز لوحده ، والذى كان طوال اليوم عرضة لضرب مركز من الارض والجو . صعدا الى حيث تقع التلفونات فى الاعلى ، ووجدا العشاء فى انتظارهما وهو عبارة عن قطعتين من الخبز الجاف ونصف بطيخة غير ناضجة .

كان رئيس المدفعية رجلا موفور الصحة بشوشا ، وقد غمته هذه الحصة الشحيحة من الطعام .

قال وهو واقف عند فتحة فى جدار آجرى :

— بطيخ سييء . اذا كان البطيخ يقطع بالسكين فهو ليس بطيخا . يجب كسر البطيخ بضربة من قبضة اليد .

وبصق الحب ، وقلص عينيه ونظر الى السهل المكشوف المسطح تحت الشمس الغاربة وقال :

— لو ان طاسة من الفطائر الحارة لشبعت . ما رأيك يا فاسيلي ؟ يبدو ان امرا سيصدر فى هذه الليلة بالانسحاب .

— كيف الانسحاب ؟ تسليم الطريق الدائرى ؟ هل جننت ؟

— واين كنت انت ، حين سمحت للعدو بفتح ثغره ؟ اين كانت قطاراتك المصفحة ؟

كان رئيس المدفعية وهو يتكلم يرفع الى عينيه بين الحين والآخر اصبعين منفرجتين ، او يخرج من جيبه علبة كبريت ويمسكها بيده الممدودة ويحدد الزوايا والمسافات بدقة تصل الى خمسين خطوة .

وولكن جنودهم من سلاح الهندسة ساروا خصيصا وراء صفوف المهاجمين ، فاستطاعوا ان ينسفوا الخط فى عشرات الاماكن .

فكرر رئيس المدفعية بعناد :

— ومع ذلك كان لا يجوز السماح بدق اسفين . . . اسمع ، الا تلاحظ شيئا ؟

كانت العين الحادة المجربة وحدها قادرة على ان تلاحظ ان السهل البنى الممتد نحو الغرب لم يكن هادئا خاليا من الناس ، بل ان فيه حركة حذرة . فقد كانت تجاعيد الارض كلها ، وكل الاكمات الشبيهة بالاف من كتل النمل تلقى ظلالا طويلة ، وكانت بعض هذه الظلال الطويلة تغير مواقعها ببطء .

قال رئيس المدفعية :

— انهم يغيرون القوات . يزحفون . . . خذ المنظار . . . اتلاحظ وكان اشرطة صغيرة تلمع ؟ . . .

— ارى بوضوح . . . وانها كتافيات ضباط . . .

— مفهوم ان كتافيات الضباط هى التى تلمع . . . انظر كيف يزحفون . . انظر ، كالعناكب ! . . وما اكثر كتافيات الضباط . . لا ترى العين غيرها . . .

— غريب !

— منذ ثلاثة ايام نبهنا ستالين على ان نتوقع ذلك . وهذا ما حصل ، بالفعل . . .

نظر الباييف اليه . وخلع قبعته ، ومرر اظافره على راسه ، ومشط الشعر المتلبد من العرق ، فانطفا البريق فى عينيه الرماديتين ، ونكس راسه ، وقال :

— مفهوم لماذا هدأوا اليوم فى ساعة مبكرة . . . كان يجب ان نتوقع ذلك . . . سيكون يوما شاقا .

وتقدم الى التلفون بسرعة ، واخذ يتلفن . ثم أمال قبعته على جبهته ، واندفع على السلم الحلزونى .

وظل رئيس المدفعية يراقب السهل حتى غابت الشمس . وبعد ذلك اتصل بالمجلس العسكرى ، وقال فى السماعة بخفوت ووضوح :

— يا رفيق ستالين ، فى الجبهة لواء ضباط يحل محل القوزاق .

فجاء الرد :

— اعرف . سيصلك قريبا مظروف .

وبالفعل بعد مدة قصيرة سمع فرقعة موتوسيكل . وتردد صرير على السلم ثم انسل فى الفتحة بصعوبة رجل ثيابه من الجلد الاسود . ولم يكن رئيس المدفعية قصير القامة ، اما سائق الموتوسيكل هذا فقد كان اطول منه :

— من رئيس مدفعية الجيش هنا ؟

ولما سمع «انا» طلب منه الهوية ، واشعل عود الثقاب وقرأ حتى احترق العود كله ولسع اظافره . عند ذاك فقط قدم له المظروف بشك بالغ ، ونزل عائدا الى الاسفل .

كان فى الظرف قصاصة ورقة صفراء ، كتب فيها رئيس المجلس العسكرى بيده :

«آمركم ان تحشدوا فى الليل وقبل حلول الفجر ، كل المدفعية (وهناك خط تحت «كل») والذخيرة المتوفرة فى القطاع الممتد خمسة فراسخ بين فروبونوفو وسادوفايا على ان يجرى التحرك بكل سرية ممكنة» .

ظل رئيس المدفعية يقرأ ويعيد قراءة هذا الأمر المفاجىء والمخيف . كان يحمل فى طياته اكثر من المجازفة ، وتنفيذه صعب بشكل لا يصدق . فقد كان يعنى حشد كل البطاريات السبع والعشرين (٢٠٠ مدفع) فى قطاع صغير جدا هو قطاع الثغرة . فماذا لو ان العدو لن يزحف على هذا المكان بالذات ، بل يوجه ضربته يسارا او يمينا ، او ربما ضرب – وذلك اخطر – على الجناحين ، فى ساريبتا وغومراك ؟ عندئذ سيكون التطويق ، الهزيمة !

جلس رئيس المدفعية الى التلفون فى حالة من الارتباك النفسى العميق ، واخذ يتلفن الى امراء الكتائب مشيرا عليهم بالطرق التى يسلكونها ، والاماكن التى ينقلون فيها جميع قواتهم الهائلة الضخمة : آلاف الناس والخيول وعجلات الجيش والعربات والخيام . وكل ذلك يجب أن يُحمل ويرسل وينقل ، ويفرغ ، ويوزع بين المواقع . ثم يجب حفر الخنادق للمدافع . ومد الاسلاك الشائكة وكل ذلك خلال بضع ساعات قبل الفجر .

ودون ان يتحول عن التلفون صاح على الرجال فى الاسفل بان يجلبوا الفانوس ، ويبلغوا جميع المراسلين باعداد الخيول . فك ياقة قميصه السميك ، وراح وهو يمسد على رأسه الحليق ، ويملى اوامر قصيرة يتسلمها المراسلون ، فيهرولون من برج الماء ، ويمتطون الخيول ، وينطلقون فى جنح الليل . كان رئيس المدفعية ذا دهاء ، فقد امر بان تشعل نيران فى مواقع البطاريات بعد ان ترفع هذه البطاريات من أماكنها ، وان تكن هذه النيران غير كبيرة لتبدو طبيعية حتى يظن العدو بان الحمر فى الليلة الباردة يدفئون اقدامهم الحافية على النار .

ثم قرأ الأمر مرة اخرى ، وفكر بان من غير الصحيح تماما تعرية الجناحين ، وقرر ابقاء ثلاثين مدفعا قرب ساريبتا وغومراك . وحين اجابه امراء الكتائب بان الخيول جاهزة ، وان القذائف والمعدات الطبية قد شحنت ، واشعلت النيران هنا وهناك حسب

الاوامر جلس رئيس المدفعية فى سيارة قديمة تسير على خليط من الكحول والكيروسين ، وتقرقع بجسمها مثل عربة غجر ، واتجه بها الى مقر القيادة فى تساريتسين .

سار مقرقعا فى المدينة المظلمة الخالية ، وتوقف عند دار تاجر ، وركض على السلم غير المضاء الى الطابق الثانى ، ودخل غرفة كبيرة ذات نوافذ قوطية وسقف بلوطى لا يضيؤها غير شمعتين تقف واحدة على منضدة طويلة تناثرت عليها الاوراق . اما الثانية فيرفعها قائد الجيش فى يده عاليا ، حيث كان واقفا عند الحائط امام الخريطة . والى جانبه رئيس المجلس العسكرى يعلم بالقلم الأحمر على مواقع القوات للمعركة فى الغد .

ورغم ان الغرفة لم يكن فيها غير هذين الشخصين – الصديقين القديمين – فان رئيس المدفعية قد تقدم حسب الاصول العسكرية ، وابلغ عن سير تنفيذ الامر . انزل قائد الجيش الشمعة ، والتفت اليه . وابتعد رئيس المجلس العسكرى عن الخريطة وجلس الى المنضدة . قال له رئيس المدفعية :

– سيتم نقل عشرين بطارية قبل الفجر الى القطاع الاوسط كما وضعت سبعة بطاريات على الجناحين قرب ساريبتا وغومراك .

واشعل رئيس المجلس العسكرى غليونه ، وطرد الدخان من وجهه ، وسأل بخفوت وصرامة :

– اى جناحين ؟ ما شأن ساريبتا وغومراك هنا ؟ الأمر لم يتحدث بكلمة واحدة عن الجناحين . انت لم تفهم الأمر .

– لا ، ابدا . فهمت الأمر .

– جاء فى الأمر (وارتعش جفناه السفليان وتقلصت عيناه) جاء فى الامر بوضوح : تركيز جميع المدفعية ، كلها حتى آخر مدفع فى القطاع الاوسط .

نظر رئيس المدفعية الى قائد الجيش ، الا أن هذا رد على نظرته بنظرة جادة محذرة .

قال رئيس المدفعية بحرارة :

– لكن هذا الأمر ، ايها الرفاق ، رهان على الحياة والموت .

واكد رئيس المجلس العسكرى :

– بالضبط !

ووافقه قائد الجيش .

– ولكن ماذا سيحدث لو اننا نجمع قبضة قوية فى القطاع الاوسط ، ونكشف الجناحين تماما ؟ اين الضمان فى أن البيض سيزحفون على القطاع الاوسط فقط ؟ وماذا لو شنوا المعركة فى مكان آخر ؟ المشاة وحدهم لن يصمدوا للهجوم . فقد انهكوا خلال اليوم . وسيكون الوقت متأخرا لاعادة تنظيم البطاريات من جديد . . . وهذا ما اخشاه . . القطارات المصفحة لا يعتمد عليها بعد الآن ، وسيضطر المشاة على اية حال الى التراجع هذه الليلة عن الطريق الدائرى . . . وهذا ما اخشاه .

نقر رئيس المجلس العسكرى باصبعه على المنضدة مرة ثم اخرى وقال :

– لا تخش ! لا تخش ! لا تتردد ! اليس من الواضح لك أن البيض لا بد سيلقون بكل قواهم غدا فى القطاع الاوسط بالذات ؟ . . ان ذلك تمليه بالضرورة نتائج العمليات الحربية يوم امس . ان اكبر فشل لهم كان بالقرب من ساريبتا ، ولن يرغبوا فى ان يدسوا بانفهم هناك مرة أخرى ، فهم يعرفون حركة لواء بوديونى فى مؤخرتهم . ونجاحهم بالامس فى القطاع الاوسط تتلخص فى انهم تمكنوا من التوغل فى خطوطنا الامامية . واخيرا فقطاع فروبونوفو – سادوفايا هو انسب مكان لهم اذكله منخفضات ، كما أنه اقصر طريق الى تساريتسين . وانت نفسك ابلغتنى عن وضع لواء الضباط فى محل القوزاق . فاستخلص استنتاجا من ذلك . ان لواء الضباط هو اثنا عشر الفا من المتطوعين الضباط النظاميين المتمرسين بالقتال . والجنرال مامونتوف لا يرمى هذه القوات للفرجة . . . ان لدينا جميع الاسس للاعتقاد بأن الهجوم سيكون فى القطاع الاوسط بالذات .

وقال قائد الجيش :

– التقارير المسائية تؤكد ذلك ايضا . البيض سحبوا من القطاعين الجنوبى والشمالى اربعة عشر او خمسة عشر فوجا ، وهم يسيرونها الآن عبر السهب . . . هذا بالاضافة الى لواء الضباط . . .

قال رئيس المجلس العسكرى :

– وبهذا الشكل ، يقدم العدو بنفسه الظرف المواتى لنا لدحر قواه الرئيسية اذا ما كنا حازمين وجريئين غير مترددين . ومهمتنا غدا لن تكون رد الهجوم بل القضاء على نواة جيش الدون . . .

ابتسم رئيس المدفعية ابتسامة عريضة ، وجلس وضرب ركبته بقبضته ، وقال :

– يا للجراة ، يا للجراة ! لا مجال للاعتراض . سأصليه نارا حامية تجعله يركض مذهولا حتى الدون .

حرك رئيس المجلس العسكرى الشمعة نحو الخريطة التكتيكية ، واخذ رئيس المدفعية يوضح نيته فى وضع البطاريات واحدة لصق الاخرى فى عدة صفوف .

قال له قائد الجيش :

– لا تتخندقوا . ضعوا المدافع على اكمات مكشوفة . وقدموا المشاة لصق المدافع تماما . اذهب لتتلفن الى امراء الوحدات .

وبعد عدة دقائق بدأت حركة صامتة عجلى على طول خط الجبهة الممتدة اربعين فرسخا . وفى السهل المظلم ، تحت السماء المرصعة بالنجوم ،حيث كانت المجرة تلمع ذلك اللمعان الذى لا يحدث الا فى ليال نادرة من الخريف انطلقت الخيول بالمدافع ، ومدافع الهاون ، وسارت المدافع الثقيلة تجرها ثمانية ازواج من الخيول ، واندفعت العربات ذوات العجلتين . وتحركت وحدات المشاة من اماكنها دون ان يلاحظها العدو وتراجعت فى شبه دائرة دفاعية متماسكة .

ونفخ البواقون نوبة استيقاظ فى السهب الاشيب المغطى بقشرة من الجليد مستنفرين الافواج القوزاقية الى المعركة . ونهضت الشمس من وراء سهوب الفولغا . وهدرت المدافع من بعيد . وطقطقت الرشاشات . وكانت جبهة الحمر صامتة وكلها فى الظل ، والشمس قبالتها . وكان الامر قد صدر لجميع البطاريات بانتظار الاشارة ، وهى اربعة انفجارات عالية لقنابل الشرابنيل .

بدأ هجوم البيض بزوبعة من النيران من خط الافق . والتصق كل ما هو حى بالارض منكمشا مترقبا وقد اصبح كل نتوء ، وكل حفرة غطاء وملجأ . ومن خلال الهدير كانت فى بعض الاحيان

تتردد صيحة وحشية ، وتتطاير كتل الارض سوية مع عجلة من عربة او معطف عسكرى داخن . واستغرق القصف التمهيدى خمسا واربعين دقيقة . وحين استطاع الناس ان يرفعوا رؤوسهم كان السهل كله يموج بالقوات المتحركة . كان الضباط يسيرون فى عدة خطوط شاهرين حرابهم بلا عجلة او توقف . ووراءهم سار اثنا عشر طابورا من كتائب الضباط وبين كل طابور وآخر فاصلة ، وكانهم فى استعراض . ورفرفت عاليا رايتان لفوجين . وكانت الطبول تقرع قرعا صاخبا ، وتعول النايات . والى الخلف من المشاة ماجت كتل سوداء لعدد لا يحصى من القوزاق .

– انظر يا ايفان ايليتش ، ها هم الاعداء الطبقيون ! . . ها هم المحاربون ! يا سلام !

– انظر الى ملابسهم . . واحذيتهم . . . مشبعون باللحم . . .

– من المؤسف ان تمزق هذه الملابس . . .

– يا رفاق ، كفوا عن المزاح ، وانتبهوا .

– نحن نمزح لنبعد الخوف عنا ، يا رفيق تليغين . . .

. . . حثت الصفوف المتقدمة خطاها . وكانت على بعد خمسمئة خطوة . . . وكان من الممكن تبين وجوههم . . . يالها من وجوه بشعة بعيونها الغائرة الشاحبة من الحقد ، بوجناتها الناتئة متحفزة لتفتح اشداقها بصيحة الحرب «هورا !» .

اطل رئيس المدفعية بجسمه من فتحة الجدار الاجرى لبرج الماء ، ومدّ ذراعه الى الخلف ليعطى جندى الاتصال اشارة قنابل الشرابنيل الاربع ! وانتظر دقيقة اخرى ، فقد كان يجب أن تعبر الصفوف والطوابير السائرة باتزان على وقع الطبول والنايات خط الطريق الدائرى لسكة الحديد . . . ومرت دقيقة اخرى . . . المهم الا يتحول هؤلاء الشياطين من الخطو الى الركض . . .

– . . . يا رفيق آمر السرية لا استطيع اكثر . . . بالشرف . . .

– عد الى الخندق ، يا ابن . . .

– احس بالغثيان . . . دعنى ابتعد فقط . .

– ساقتلك ، يا ابن . . .

– ارجوك . . يا رفيق ايفان غورا !

– امسك البندقية !

. . . قرر رئيس المدفعية فى نفسه بأن يدع هذه الصفوف المتقدمة تصل الى العمود . . . لقد اصبحت الصفوف الامامية تلتوى وتتموج ، ورجالها يتعثرون فى خطاهم . . . زر عينيه وراى بوضوح ذلك العمود المائل بقطعة من الاسلاك الشائكة . . . ذلك العمود الذى كان عليه ان يقرر مصير الهجوم كله ، مصير هذا اليوم ، مصير تساريتسين بل ومصير الثورة . . . عليه اللعنة ! . . ثم ان رجلا – فى حذاء اصفر – كان اول من تخطى وراء العمود . وفتح رئيس المدفعية قبضته وراء ظهره ، وافرج اصابعه ، وتراجع عبر الفتحة ، وهتف لجندى الاتصال «اشارة ! . .»

انفجرت اربع قنابل شرابنيل عاليا كسحابات قطنية فى السماء الصافية فوق الطوابير الزاحفة . وهز الهواء هدير هائل لم يسمع مثله أحد . واهتز برج الماء الاجرى . والقى جندى الاتصال بالسماعة ، وسد اذنيه . ودبدب رئيس المدفعية بقدميه وكانه يرقص ولوح بذراعيه ، وكانه يدير فرقة موسيقية . . .

صار السهل الذى كانت تزحف فيه منذ لحظة الكتائب الرمادية الخضراء فى خطاها الموزونة والمنذرة اشبه بفوهة بركان ضخم متاجج . وكان من الممكن ان تتبين العين من خلال الغبار والدخان ، الصفوف المهاجمة ترقد كالمصعوقة والصفوف الخلفية يختلط بعضها ببعض . ومن الشمال انطلقت القطارات المصفحة فى مؤخرتهم على الطريق الدائرى . ونهضت سرايا الحمر من الخنادق ، وانطلقت فى هجوم معاكس . اختطف رئيس المدفعية السماعة من جندى الاتصال وصاح : «انقلوا النار الى العمق ! . .» وحين قطعت العاصفة النارية خط التراجع على البيض شقت صفوفهم سيارات اللورى وعليها الرشاشات ، وبدأ السحق .

٨

كانت داشا جالسة فى فناء صغير على صندوق كتب عليه «ادوية» . ويداها على ركبتيها وقد غسلتهما من توها فكانتا حمراوين من الماء المتثلج . اغمضت داشا عينيها ، واشرعت وجهها لشمس

تشرين الاول . كانت العصافير المتخمة الحواصل تنفش ريشها وتزقزق ويتباهى بعضها على بعض ، على اغصان عارية ، حيث كان ينتهى ظل السطح . وكانت منذ حين فى الشارع تلتقط الشعير وروث الخيول الذى يتناثر كثيرا امام المنزل الابيض ذى الطابق الواحد . وقد افزعها قدوم العربات فطارت الى شجرة بتولا . كانت زغردة العصافير تبدو لداشا موسيقى مريحة للغاية وكانها تقول : مهما يكن فما زلنا نعيش .

كانت داشا فى معطف ابيض مبقع بالدم وقد شدت منديلا بقوة حتى حاجبيها . فى المدينة لم يعد قصف المدافع يهز زجاج النوافذ ، ولم تسمع الانفجارات المدوية لقنابل الطائرات . فقد انتهى فزع اليومين السابقين بزغردة العصافير . ولو امعن المرء التفكير فى الأمر لشعر بالكدر من مدى ازدراء هذا المخلوق الحقير المتخم الحواصل للانسان . . . يزغرد العصفور : انى صغير ولكنى حكيم ، انقر الروث ، واقفز من غصن الى آخر وراء عصفـــورة ، وازغرد للشمس الآفلة ، ثم انام حتى الفجر ، وتلك هى كـل حكمة الحياة . . .

سمعت داشا صوت عربات تتوقف خلف البوابة . . . لقد جلبوا جرحى جددا ، وادخلوهم الى المنزل . كانت متعبة بحيث لم تستطع حتى فتح جفنيها اللذين ينسل ضوء وردى من خلالهما . سيدعوها الطبيب اذا اقتضت الحاجة اليها . . . ان هذا الطبيب رجل لطيف فى صوته غلظة وفى نظراته رقة . قال لها «اخرجى الى الفناء حالا ، يا داريا دميتريفنا ، فان حالتك صعبة ، واجلسى فى مكان ما . وسأوقظك عند الضرورة . . .» كم من اناس طيبين فى هذه الدنيا ! وفكرت داشا مع نفسها : لو انه يخرج الآن للتدخين لتقص عليه ما لاحظته على العصافير ، فقد بدت لها ملاحظاتهـــا عميقة المغزى . . . وما العيب اذا كان الطبيب قد اعجب بها ؟ وارسلت داشا زفرة ثم اخرى اعمق . . . كل شىء يمكن تحمله حتى الذى لا يطاق اذا قابلتك نظرة حنون . . . ولتكن عرضية ، فان التقاءك بها ترفع روحك المعنوية ، وثقتك بنفسك فيعود الانسان حيا من جديد . . . وذلك ، ايتها العصافير ، لا تفهمينه ! . .

وبدلا من ان يخرج الطبيب طلع من السرداب الذى يقع المطبخ

فيه رجل ذو وجه مصفر عصبى وعينين مأساويتين . كان يرتدى معطف بزة مصلحة التعليم الشعبى ، ولكنه فى هذه المرة لم يكن محزمـا بحبل . صعد بضع درجات من السلم الآجرى ، ومد عنقه النحيل متسمعا . فلم يسمع غير زغردة العصافير وقال :

– فظاعة . كابوس ! هذيان !

وضغط كفيه على اذنيه ، ثم رفعهما فى الحال . كانت الشمس الواطئة تضئ جانب وجهه بانفه الدقيق الغضروفى وشفتيـــــــه المكتنزتين .

– لا تبدو نهاية لذلك ، يا الهى ! . – ثم سال داشـــا فجاة – هل اصبت بهلوسة صوتية فى وقت ما ؟ اعذرينى ، نحن لم نتعرف على بعض ، ولكننى اعرفك . . . كنت قد التقيت بك قبل الحرب ، فى بطرسبورغ ، فى «الأمسيات الفلسفية» . كنت آنذاك اكثر شبابا ، ولكنك الآن اجمل واكثر جاذبية . . . الهلوسة الصوتية تبدأ من بعيد ، وتكون حينذاك بلا صوت ، ولكنها تقترب بسرعة مريعة . وينمو طنين متنوع الاصوات لا وجود لمثله فى الطبيعة ، ويملأ الدماغ والاذنين . وانت تعين ان لا شىء هناك ، الا طنين فى الواقع ، ولكن هذا الطنين فى داخلك انت . . . النفس كلهـــا متوترة ، ويبدو لك انك لن تعودى بعد قليل قادرة على تحمل هذه الابواق الجهنمية . عندئذ تفقدين الوعى ، فينقذك ذلك . . . وانا اتساءل : متى النهاية ؟

كان يقف أمام داشا قبالة الشمس مطقطقا باصابعه الرقيقة واحدة بعد الاخرى .

– على ان احفر الطين فى مكان ما ، وامزجه واصلح الموقد ، لأنهم انزلونا الى السرداب باعتبارنا عناصر طفيلية . . . ان ابى اشتغل طوال حياتـــه مديرا لمدرســـة ، وبنى هذا البيت من ادخاراتـــه . . . تقولين ذلك لهـــم ! وفى السرداب يتكـــدس آجر محروق ، وهناك نافذتان تقعان على الرصيف ، وهما متربتان جدا بحيث لا يتسرب النور منهما . وكتبى مكدسة فى ركن . . وأمى مصابة بمرض قلب ، وهى فى الخامسة والخمسين من العمر ، واختى مشلولة الرجلين من الملاريا . والشتـــاء على الابواب . . . آه ، يا الهى !

وفكرت داشا مع نفسها بانه مثل روح «سكر» فى مسرحية «الطائر الازرق» على المسرح الفنى ، وانه سيكسر كل اصابعه العشر .

– من لا يعمل لا ياكل ! . . . لقد تخرجت من كلية التاريخ والاداب وكدت احصل على الدكتوراه ... ودرّست ثلاثة اعوام فى مدرسة للبنات فى هذه المدينة المنحوسة ، فى هذا الجب المغضوب عليه ، حيث انا مكبل من يدى ورجلى بمرض امى واختى . . . ثم هذا هو حصاد الحياة كلها : من لا يعمل لا ياكل ! انهم يضعون فى يدى رفشا ، ويجبروننى بالقوة على حفر الخنادق ، ويهددوننى حتى اخضع للثورة ، لهذا الاستهتار بحرية الانسان ! لسيطرة القوة البدائية ! . . . وانتهاك الفكر ! . . . انا لست من الاعيان ولا برجوازيا ، ولست من «المائة السود» * . . وجسمى يحمل ندبة من ضربة حجارة فى مظاهرة للطلاب . . . ولكننى لا اريد ان اخضع للثورة التى دفعتنى الى سرداب . . ولم اكن اصقل عقلى لكى انظر عبر نافذة صغيرة متربة فى سرداب الى اقدام المنتصرين السائرين على الرصيف . . . انا لا املك الحق لأقضى على حياتى بالقوة ، فان لى أما واختا . . وحتى فى الحلم لا اجد مكانا الجأ اليه ، واختفى فيه . . . «لنحمل المشاعل المتوقدة !» ولكن الى اين نحملها ، ولم تبق فى الدنيا كهوف معزولة . . .

وكان يتحدث بكل ذلك بسرعة غير اعتيادية ، وعيناه تائهتان . اصغت داشا اليه بلا دهشة ولا عطف ، وكان هذا الرجل العصبى الذى طلع من مطبخ فى شبه سرداب تتمة ضرورية لرعب تلك الايام من الدوى والحرائق وانات الجرحى .

وسأل مباغتة بصوت اعتيادى مدمدم :

– ما الذى جاء بك اليهم ؟ التهور ؟ الخوف ؟ الجوع ؟ اود ان اقول لك اننى راقبتك خلال هذين اليومين وتذكرت كيف كنت انظر اليك بعين الاعجاب الصامت فى «الامسيات الفلسفية» فى بطرسبورغ ، وانا لا اجرؤ على ان اتقدم منك واعرفك بنفسى . . . انت تقريبا

* عصابات ملكية رجعية معادية للثورة . (المترجم) .

«السيدة المجهولة» * لاليكساندر بلوك . . . (وفكرت داشا على الفور : لماذا «تقريبا» ؟) الاميرة التى يجب أن تطرز بالذهب تلبس مبذلا قذرا ويداها حمراوان ، وتنقل الجرحى . . فظاعة ، فظاعة ! . . هذا هو وجه الثورة . . .

واعتمل الغضب فى قلب داشا فجأة حتى أنها زمت شفتيها ، ولم ترد بكلمة واحدة على هذا العصابى الاصفر الشاحب ، ودخلت البيت فصدمتها ، بعد الهواء الطلق فى الفناء ، رائحة اليودوفورم والجسد الانسانى المعذب .

كان الجرحى يرقدون فى كل حجرة على اسرة متلاصقة مصنوعة من الواح خشنة . ورات داشا الطبيب فى غرفة العمليات ، نفس الغرفة التى كان معلم مدرسة البنات يكتب رسالته فيها قبل اخراجه منها . كان الطبيب يمسح بالفوطة ذراعيه المشعرتين المشمرتين الى ما فوق المرفق . وحين رأى داشا غمز لها بعينيه البنيتين .

– هل غفوت قليلا ؟ اما انا فقد اجريت هنا عملية طريفة : قطعت لشاب حوالى خمس اذرع من امعائه الدقيقة ، وبعد شهر ساشرب معه الفودكا . ثم أنهم جلبوا آمرا آخر مصابا بصدمة حادة . . . حقنته بالكافور ، والقلب يعمل ولكنه ما يزال فاقد الوعى . . . راقبى نبضه ، فاذا بدأ ينخفض احقنيه مرة اخرى . .

القى الفوطة على كتفه ، وقاد داشا الى سرير خشبى . كان ايفان ايليتش تليغين ممددا على ظهره . كانت عيناه متقلصتين بشدة ، كأن ضوءا قويا مسلط عليهما . وكانت شفتاه المشرودتان مضمومتين . امسك الطبيب بيده اليسرى الموضوعة على صدره ، ومس النبض ، وهز اليد هزة خفيفة :

– اترين ؟ لقد كانت متجمدة وكأنها متشنجة . . . الصدمة تكون احيانا بصورة غريبة . . . انها لم تدرس الدراسة الكافية . . . ومظاهرها تشبه مرض الصرع لدى الصغار الرضع . . . الجهاز العصبى المركزى لا يتمكن من الصمود امام هجوم مباغت . .

وقطع الطبيب كلامه ، لأنه هونفسه اصيب بصدمة مباغتة

* «السيدة المجهولة» هى قصيدة رمزية كتبها الشاعر الروسى الكبير ا . بلوك (١٨٨٠ – ١٩٢١) . (المترجم) .

ولو كانت خفيفة . اذ ركعت داريا ديميتريفنا على ركبتيها برقـــة امام السرير ، وضغطت وجهها كله على ذراع الآمر ، حين تركهـــا الطبيب .

٩

استيقظ فاديم بتروفيتش روتشين فى ساعة متاخرة فى غرفة الفندق الوضيعة بشباكها القذر المغطى بجريدة مصفرة ، وكان يلتحف بطانية خفيفة فى سرير قصير . سيغادر القطار فى ساعة متاخرة من الليل ، وكان امامه نهار طويل خاو . ولم تبق فى علبة السكائر غير سيكارة واحدة . دعكها ، واشعلها ، واخذ ينظر الى يده النحيلة المعروقة ببشرتها المنكمشة من البرد . لم يؤد بحثه عن كاتيا الى نتيجة . انه لم يجدها . والاجازة قد انتهت ، وكان يجب ان يعود الى فوجه فى كوبان .

بعد يومين سينزل من عربة القطار ، ويستقل عربة ، ويسافر فى السهب دون ان يتحدث الى ضابط الصف الجالس على مقعد السائق . وفى الشارع العريض فى القرية ستغطس عجلات العربة فى البرك المملوءة بماء المطر الخريفى الذى لا جدوى منه . وسينزل من العربة الى الوحل ، ويأمر بان تحمل حقيبته الى الكوخ ، ويذهب هو الى ادارة القرية حيث مقر القيادة ليقابل آمر الفوج اللـــواء شفيدى .

وسيجد هذا الاحمق المنعم يطالع مقطوعات شعرية للرمزيين : «الدائرة الملتهبة» لسولوغوب أو «اللآلى» لغوميليف . وبعد تقديم التقرير سيتسلم فاديم بيتروفيتش مفرزة . وقد يتسلم سرية . وتبدأ الاعمال الرتيبة : التدريب العسكرى ، وزيارة نادى الضباط حيث سيسالونه عن الفتيات ، والسكر والعربدة ويتفكهـــون على نحوله وشعره الشائب وهيئته المتجهمة . وفى الامسيات يذرع حجرته من ركن الى ركن . وفى الساعة العاشرة سيخلع له الجندى المرافق حذاءه فى صمت . وهذا احتمال واحد ، اما الثانى فقد يكون الفوج فى الجبهة ، فى القتال . . .

وتتراءى له نفس السهب المقفر تظله طبقات مـــن سحب الشمال ، وفيه مداخن المواقد المتبقية بعد الحرائق ، والعربـات

المغروزة فى الوحل وعليها الجرحى ، والخيول النافقة ، وفى الطرف الاقصى من هذا السهب خندق فيـــه ناس ، راقدون بين الغائط والخرق المدماة . وتخيل نفسه متفائلا دائما ، ثم قدريا ذائع الصيت ومثالا للكراهية البازدة التى ليست فى نفسه ، والتى لم يعد يشعر بها منذ زمان . فليس فى نفسه غير النفور والغثيان لدى التفكير فى الناس .

قعد على السرير محاولا ان يزرر قميصه ، ومد يده يبحث عن تبغ فى بنطلونه الذى سقط على الارض واستلقى ثانية شابكا يديه وراء راسه .

«لا يمكن البقاء فى هذا المزاج على اية حال» قال لنفســـه بخفوت ، ولم يكن ذلك صوته ، ولم يعجبه ، واقرفته الطريقة التى قاله بها . . . «لماذا لا يمكن ؟ وما هذه «على اية حال» لا يمكن ؟ كل شىء ممكن ! حتى شد طرف الحزام على قبضة الباب والطرف الآخر حول الرقبة . . . هيا ، يا روتشين ، كن نزيها . . . يالك من طاهر . . . انت وغد مثل الآخرين» .

واخـــذ يتذكر بغيظ وانتقـــام آلاف اللقاءات هنـــا فى يكاترينوسلاف . . . نساء على وجوههن آثار التعب بسبب الاجلاء وبقايا بائسة من العفة ، يتجولن من فندق الى آخر يعرضن مختلف الاشياء «العزيزة كالذكريات» ، وجنرالات يطبطبـــون على ظهرك بكلمات تحبب ، حليقى الوجوه جدا ، مفعمين بالصحة ، ومضاربين وقحين متخصصين فى بيع وشراء فواتير شحنات البضائع الحكومية على السكة الحديد ، واقطاعيين صاخبين هاربين من عزبهم ، فكانوا يزدحمون فى غرف الفنادق مع زوجاتهم الحمقاوات وبناتهم الطويلات المنمشات التعيسات يستدينون ويــاكلون فى المطعم بتــرف ، ويعلمون الطباخين طهى أكلات خرافية ويسمون الثورة شغبــا ، وبشكل عام ، يقضون الوقت وسط ابهج الآمال التى لم تـــزايل الاعيان الروس حتى فى احلك الاوقات . وتذكر خليط النـــاس فى بهو الفندق ، الذين فقدوا الوضع الاجتماعى بسرعة بالغة ، فلم يكن من الممكن تمييزهم الا من ازرارهم المعلمة واغطية رؤوسهم ، فهذا مدع عام امســـك بشبـــاب وقح ومضــــارب محظوظ ،

يحاول ان يقنعه بشراء ساعة عاطلة . اما هذا الرجل الاشيب الساعل ذو العصا فرئيس دائرة المالية ، والظاهر أنه قد بدد اشياءه الثمينة ، فهو ينظر بحسد الى الصفقات الكبيرة ، والى الايدى السريعة التى تتعامل بالنقود .

والمضاربون الشطار فى بدلاتهم الفاخرة يدخلون راكضين من الابواب الامامية ، ويتجمعون جماعات ، ويتهامسون بعصبية واصابعهم وعيونهم لا تستقر ، ثم يندفعون ثانية الى الشارع وكانهم آلهة التجارة والنجاح . وفى البهو يمكن ان تعرف عن حركة الشحنات الحكومية ، وعن صهريج زيت صناعى قد فقد ، وعن سعر الدولار الذى يصعد ويهبط عدة مرات فى اليوم فى تبعية مباشرة لهجمات الفرنسيين والالمان المضادة فى الجبهة الغربية . ولكن هذه امور جدية ... والمضاربون الصغار فى البهو يتنحون جانبا ، وتتركز عيونهم المتراقصة من الانفعال على رجل «كبير الشان» .

وكان مثل هذا الرجل يدخل وقورا متماهلا يرتدى معطفا طويلا جدا وسدارة مخملية تنحدر على يافوخه ، وفى يده مظلة ، ولحيته تنسدل على رقبته . فتبدو مصونة لا تمس ولا يمكن لصاحبها أن ينزع منها شعرة واحدة ويلويها الا فى حالة التركيز الفكرى فقط . وتعكس عيناه صورة لحياة فكرية مجهدة منزهة من الاشياء التافهة ، لرجل مفكر يوازن ويبحث ويجد تلك العناصر التى تسبب هبوط أو ارتفاع خلاصات الطاقة العالمية ، اى العملة الصعبة .

وفى البهو وفى الشوارع القريبة من الفندق تجرى اللعبة . وهى محرمة رسميا من قبل سلطات الهيتمان وقيادة الاحتلال الالمانى . واللاعبون فى حركة دائبة على الرصيف من باب الفندق حتى اقرب مفترق طرق . وهم يشترون ويبيعون مستعينين بالنظرات المتفرسة ، وحركة الاصابع ، وبعض الكلمات . ولا يملك احد منهم عملة صعبة ، فهى مخفية وكميتها فى المدينة غير معروفة بشكل عام . وهم يلعبون على فرق السعر ، وتسوى الحسابات بالعملة الهيتمانية . وفى دقيقة واحدة تتكون ثروات ، وفى دقيقة اخرى يصبح الغنى مفلسا . ويذهب المحظوظ مع بطانته الى المقهى حيث ياكلون الكعك مع قهوة بذور البلوط ، اما الخائب فيتسكع على الرصيف يائسا ، وريح تشرين الثانى التى تكنس قصاصات

الورق والاوراق الساقطة تعصف باذيال معطفه الطويل المتربة .

ان نزلاء هذا الفندق المزدحمين على الارصفة وفى حوانيت التبغ والمقاهى والمطاعم ، والمتاجرين فيما بينهم حيث يغش أحدهم الآخر كانوا جزءا من القطيع الصاخب الجشع الذى كان يجأر ويثغو فى كل المدن المنتزعة من الثورة ، حيث يجد الحرية فى ان يزدرد ويشرب ويتسافد ويغش ويدخل فى مضاربات .. وكان ينبغى ان يحمى هذا القطيع بالحراب والمدافع ، وتنتزع له مدن جديدة ، وتقام له روسيا عظيمة موحدة غير قابلة للتقسيم مطهرة من الآفة البلشفية .

ردد فاديم بتروفيتش بصوت مسموع مرة أخرى : «وضاعة . وضاعة وكذب ... حسنا وماذا لو هربت من الجيش ؟» .

واخذ يفكر فى ذلك مرخيا لأول مرة فى حياته الأعنة الخلقية ، كاشفا فى نفسه باستمتاع حاد مكامن الدناءة والخسة ... بل وضحك واسنانه مصكوكة ... لقد كانت افكاره كابداع فجائى ، كالاثم الأول ...

«من اجل أى قدسيات ، يا صاحبى ، جريت فى دروب الحياة ممسكا عنان نفسك ؟ واعتبرت نفسك رجلا لائقا ، عضوا فى مجتمع لائق ، بل وغادرت الفوج الى الجامعة لتوسع افقك الفكرى . . . فى صباك كان يخيل اليك أنك شبيه باندريه بولكونسكى . واعطاك الدافع الخلقى الرضا ، وكان ذلك كافيا تماما : فقد شعرت بانك طاهر . كنت تدير وجهك باشمئزاز عن كل ما هو مشكوك فيه وغير نظيف كما تديره من حفرة قاذورات . وكانت لك ثلاث علاقات فقط مع نساء متزوجات ، قطعتها عندما كانت هذه العلاقات فى ذروة الصفاء ، حين اخلى الفضول المضطرب مكانه للقبل الرطبة المعتادة . . . وهذه هى الحصيلة العامة : الى اين قادتك الحياة اللائقة وراسك المرفوع بعزة ؟ الى رفات نار ! الى هيكل محترق لانسان !»

ولما وصل فاديم بتروفيتش الى هذه النتيجة بدأ بتقليب منهجى لامكانيات الهروب من الجيش . الفرار الى خارج البلاد ؟ ان

الحرب تجتاح العالم باسره . وفى كل مكان يبحث المخبرون عن الاجانب المشتبه بهم ، ويسوقونهم الى السجون ويشنقونهم هناك . . . وفى جميع العالم تحمل البواخر الشبان المتحمسين . . . وهؤلاء يزعقون «عن قريب سنقضى على الالمان الخنازير ، ونعود الى فتياتنا المرحات . . .» وفى المحيط يصيبهم طوربيد ، ويتخبط الشبان المرحون فى الماء المتثلج حول رقعة من الزيت . . . فى اوربا طوابير الشبان فى البسة الكاكى المخاطة كما تخاط الاكفان على الاموات يندفعون مطيعين بصفوف متراصة وفى يأس قانط للقاء الرشاشات وقاذفات القنابل ومدافع الهاون وقاذفات النار . النار من امامهم ، والنار من خلفهم . فالسفر الى الخارج يسقط من الحساب . . . من الممكن التسلل الى اوديسا ، والحصول على جواز مزور ، والعمل نادلا فى مطعم كباب . . . ولكن احدا من الناس سيكتشفه ويقول مندهشا : «أى ، أى ، اى . روتشين ، ا هذا انت يا صاحبى ؟» ام لعله يضارب بمقادير صغيرة ، او حتى يسرق ؟ ان ذلك يحتاج الى رصيد كبير من الحيوية . ام يعيش على مصاحبة النساء ؟ ولكنه ليس شابا . . . «حسنا ، ولنفرض اننى عشت بطريقة ما حتى النصر النهائى : الاشتراكيون قد شنقوا جميعا ، والفلاحون يجلدون ، والانجليز قد صفحوا عنا ، ونبدأ بشعور من التقصير فى جمع جيش وراء الفولغا لسحق الالمان . ثم نوزع السلاح ، وفى يوم من الايام ينقلب الجنود على الاسياد الضباط ، ابطال «الحملة الجليدية» . وتبدأ الحكاية من جديد . وكاتياى المسكينة التى لم اجدها حتى الآن ستنادى لاخرة مرة فى مكان ما فى محطة قطار محطمة النوافذ ، وسط النائمين والهاذين والموتى : «فاديم ، يا فاديم . . .» ثم ان هناك امكانية اخرى : ان اشنق نفسى . . . فى الحال . . . أذلك شىء رهيب ؟ ابدا . . . ولكن من المقرف ان اقوم بهذا الجهد على نفسى . . .»

كانت يداه باردتين كالثلج ، وقد احس ببرودتهما بقفاه . ولم يستطع ان يستقر على قرار . وكان اشخاصا صغارا يدبون فى نفسه كالذباب ويتناهبون ارادته وروحه ... وحين يأخذ الظلام بالهبوط سينهض ، ويلبس بنطلونه ، ويذهب ماشيا الى محطة القطار ، ولربما يشترى سيكائر احتياطا للطريق . . وسيمضى فى

العيش ، فان سيفا لن يمس مثل هذا الرجل ، ولا تصيبه رصاصة ، ولا تلسعه قملة تيفوس . . .

كان صوتان رجوليان غاضبان يتجادلان بعجالة منذ وقت بعيد وراء الجدار ، فيترددان اليه من خلال باب وضعت أمامه خزانة . وكان صاحب احدهما يبدأ كلامه دائما بعبارة «اسمع ، يا سيد بابريكاكى ، لو كنت الرب . . .» ولكن الآخر لم يدعه يكمل فكان يقول : «اسمع يا غابل انت ، لست ربا بل حمارا ! يجب ان يكون المرء مخبولا ليشترى اسهم «كروب شتالفيركه» قبل نصف ساعة من صدور الجريدة . . .» — «اسمع ، انا لست ربا ! . .» «اسمع يا غابل ، لو جمعت كل ما عندك لما استطعت تغطية خسائرى . أنت جيفة . . .»

كانت هذه العبارات تقتحم اذنى فاديم بتروفيتش بالقوة . فكر مع نفسه «اللعنة ، ليتنى ارمى الباب بالرصاص . . .» ثم بدأ جرى واصوات منفعلة وراء الباب الآخر المؤدى الى ممر الفندق : «يجب استدعاء طبيب . . .» — «ما الحاجة الى طبيب ، انه بارد . . .» — «ما هذا وكيف حصل ؟» — «حصل كما حصل ، هذا لا يعنيك . . .»

حفتت الاصوات ، وتردد رنين مهمازين .

— اعذرنى ، يا حضرة رئيس الشرطة ، ارجوك . هل صحيح انه ابن اخ امبراطور النمسا ؟

— صحيح ، كل شىء صحيح . هيا ، يا سادة ، افرغوا الممر .

وبعد ذلك تحدث شخصان بصوت خفيض عند الباب تماما :

— ليس هذا انتحارا على الاطلاق . مرافقه اطلق عليه النار . انه بلشفى .

— كيف يمكن ان يكون ضابطا نمساويا وبلشفيا ؟

— لا يهم . انهم فى كل مكان . ليست فقط فينا ، بل برلين نفسها فى ايديهم منذ الأمس . . .

— يا الهى ، يا الهى . انا لا استطيع ان استوعب ذلك .

– نعم ، يجب الفرار . . .
– الى اين ؟
– الشيطان يعلم . ربما الى جزيرة ما . . .
– صحيح . . . بالأمس سمعت ان فى اندونيسيا الهولندية جزرا تنبت فيها اشجار الخبز . ولا حاجة هناك الى ملابس . ولكن كيف الوصول الى هناك ؟

وبعد ذلك دخل صبى الغرفة بسرعة دون ان يطرق الباب . انه منظف الاحذية فى الفندق ذو الانف الافطس ، والفم الباسم من الاذن الى الاذن . . .

– طبعة استثنائية ، الثورة فى المانيا . . . يا مسافر ، ادفع ثلاثة روبلات . . .

والقى الجريدة على صدر روتشين دون ان يلحظ عينى هذا المسافر المفتوحتين المفزعتين ، ولا وجهه الشاحب كوجه الاموات .

– سآخذ الفلوس من افريز الشباك . اقرأ الجريدة ، يا مسافر .

وخرج من الغرفة وثبا . اخذ قلب فاديم بتروفيتش يدق بعنف ، الا ان ورقة الجريدة الصغيرة المطبوعة بصورة غير واضحة ظلت مطوية على صدره وقتا طويلا . . . ثورة فى المانيـــا ! . . الجنود على سطوح العربات ، المحطات المحطمة ، الجماهير المنشدة باصوات وحشية ، الخطباء الهاتفون من على قواعد النصب التذكارية قارعين الهواء بقبضاتهم : الحرية ، الحرية ! وكان الحرية تعوض عن خبزهم ، عن الوطن ، عن الشعور بالواجب والهدوء الموزون للدولـــة التى تكونت عبر قرون ! الثورة – المـــدن المملوءة بالقاذورات ، القتيات الشعثاوات فى البولفارات . . . والشوق ، شوق الانسان الذى ينظر من النافذة الى السطوح الناحلة للمدينة ، حيث لم تعد سرا . . . وحتى الشمس ارتفعت الى علو شاهق لا يطال . . . شوق الانسان الساعى بجهود جهيدة الى أن يحمل نفسه عبر الحياة وان يحمى استقلاله وعزته وشجاه .

وفطن فاديم بتروفيتش اخيرا الى انه يتكلم بصوت مسموع . لقد كان ذلك يشبه هذيانا والعينان مفتوحتان . نشر صفحـــة الجريدة . كان نبأ اندلاع الثورة فى المانيا مطبوعـــا على عرض

الصفحة كلها بحروف كبيرة . لقد بدأت اثناء المفاوضات على الهدنة فى غابة كومبيان ، حين جاء المفوضون الالمان الى قطار الجنرال فيغان الواقف على خط مسدود للمدافع .

وقد سألوا : ما هى اقتراحات الفرنسيين ؟ ولم يدعهـــم الجنرال الى الجلوس ، ولم يمد لهم يده ، واجاب بشراسة باردة : «ليست لدى اية اقتراحات . يجب حمل المانيا على الركوع» .

وفى ذلك اليوم اطيح بالحكام الذين جلبوا العار لالمانيا . وتشكل فى برلين سوفييت نواب العمـــــال والجنود . وغادر الامبراطور غليوم مقر القيادة فى سبا سرا ، وهرب الى هولنده ، وعلى الحدود قدّم سيفه الى ضابط فى الجيش الهولندى .

بعد بضع دقائق كان فاديم بتروفيتش مرتديا معطفـــه المشدود بحزام شدا محكما ، وقبعته ، واعاد قراءة الجريدة مرة اخرى واقفا عند النافذة . ثم دس فى جيبه اوراق النقد المجعدة ، وخرج الى الشارع .

راى رجلا ركينا يسير امام الفندق وكانه قد خرج لتوه من بدلة الغوص من عمق سحيق . كان وجهه الاحمر منتفخا ، وعيناه بارزتين من محجريهما . وكان يكرر وهو يحرك شفتيه الغليظتين المسفوعتين : «ابيـــع سندات كروب شتالفيركـــه ، ابيـــع ، ابيع . . .» وكان يقلب عينيه على السابلة بامل مجنون فى أن يجد من هو اكثر حماقة منه . . .

اخذ الجنود النمساويون يدفعونه ويضغطونه نحو الحائط . وكانوا قد جاءوا جماعات لا نظامية ، وقـــد القوا بنادقهم وراء ظهورهم وسبطاناتها الى الاسفل . . . وكان ذلك احد مظاهـــر الثورة : الامتناع عن قتل الانسان منذ يومها الأول . . . وعلى الرصيف الى جنب هذا الجمع سار ضابط نحيل ذو شاربين حريريين فتيين ، ووجهه الرقيق الذى توتـــرت قسماتـــه يشمـــخ بترفع ، وعلى كتافيته اليسرى شريط أحمر . ان هذا الفتى الذى ارسل الى الفوج فى زمن الحرب لم تتح له الفرصة ، على ما يبدو ، لأن يزهو فى بزته العسكرية الجديدة ساحبا قراب سيفه المعدنى

على ارصفة فينا المرحة بنسائها اللعوبات الفاتنات . وقد كُتِب له وهو فى ريعان الصبا وبشاشته ان ينتخب الى لجنة الجنود ، وها هو يقود سريته الى محطة القطار للجلاء تحت نار النظرات الشامتة الهازئة المتقاطرة عليه من الجانبين . . . بينما تجتاح فينا الفوضى والمجاعة ، ويقيم العمال المتاريس .

تابع روتشين ببصره طويلا هؤلاء الاوربيين المتشامخين . وقد خامره ايضا شعور الشماتة محدثا نفسه : «لم تمكثوا طويلا فى اوكرانيا ، تاكلون الوز وشحم الخنزير . . . يبدو ان اتفاقية بريست انقلبت عليهم فى منقلب وعر . .» الا أنه تعبس فى الحال : «ولكن ما شانك بذلك ؟ انهم يخلدون الى الدعة فى موسكو ، أما انت ، فاذهب الى خندق عفن ، مع اصحابك المعادين للثورة . . .» وازداد عبوسه لأنه نطق بهذا التعبير الأخير لأول مرة وبهدوء وسخرية . . . ففى هذا التعبير بالذات كان يكمن سبب تمزقه الروحى . لقد كانت كاتيا ابعد بصرا منه حين قالت عند تشاجرهما العنيف فى روستوف «لو كنت مؤمنا من كل قلبك بعدالة قضيتك فاذهب واقتل . . .» ولكن كلمة المعادى للثورة تعنى الوغد السافل وفق كل المفاهيم التقليدية للمثقف النزيه الذى يحترم نفسه . . . فحاول أن تعيش مع ذلك . . .

حشر يديه فى جيبى معطفه وسار مصعدا فى بولفار يكاترينينسكى العريض . وكانت مشيته ايضا مشية وغد سافل ، مشية شاحطة متثاقلة . مرّ بصالون حلاقة فوجد نفسه ينظر دون ارادته الى هيئته فى مرآة ضيقة معلقة الى جانب الباب . واطلت ابتسامة خبيثة معوجة على وجهه الشاحب شحوب الموتى . دخل ، وجلس على مقعد الحلاقة دون أن يخلع معطفه ، وطلب ان يحلق ذقنه . وهنا، فى هذا الصالون ايضا ، كان كل شىء يدفعه الى الغثيان : المكان الواطئ الدافئ الذى لصقت عليه باهمال اوراق جدران رخيصة ، والحلاق نفسه وقد وضع المشط فى شعره المملوء بالقشرة ، ويداه القذرتان الرقيقتان الفواحتان برائحة حلوة كريهة .

تحدث الحلاق وهو يطرق زبد الصابونة متباطئا فى بدء دعك ذقن فاديم بتروفيتش :

– وكان الحياة كانت بلا متاعب لتغرق فى متاعب اخرى . . . حاربوا اربع سنوات ، والآن عندهم ثورة . . . فيم كانوا يفكرون ؟ لماذا لم يسالونى ؟ – وفتح الموسى ، واخذ يشحذها بعنف – هناك سياسة كبرى ، وهناك شغلنا الصغير الهادئ ، فارجو لك ان تعرف الفرق بينهما – واخذ يفرك خدى فاديم بتروفيتش بالزبد الحار – انت اليوم اول زبون لى . ان الناس يفقدون عقولهم . فاذا كان الامبراطور غليوم قد فرّ الى هولنده فان احدا فى بلدتنا لا يريد ان يحلق ذقنه ! دعنى اقول لك السبب . انهم جميعا يخافون البلاشفة ، ويخافون فصائل ماخنو ، فهم يريدون ان يرسلوا ذقونهم ، ليشبهوا البروليتاريين – وسحب الموسى على ذقن زبونه بشحيط – اعذرنى ربما لا تحب ان يمسك الحلاق بارنبة انفك ؟ هناك من الزبائن من يطلب ذلك . لقد تدربت فى كورسك ، وكان استاذنا يعمل حسب الموضة القديمة ، فكان يدخل اصبعه فى فم الزبون ، اما بالنسبة للاعيان فكان يستخدم الخيارة . فكان يتقاضى على الحلاقة بالاصبع عشرة وبالخيارة اثنى عشر . وكان ذلك ثمنا طيبا . ساحلق لك مرة اخرى ، عندنا متسع من الوقت . قبل ان تاتى بلحظات مر علىّ رجل مجنون . هل تعرف بابريكاكى ؟ انه مالينا الكبير . عنده اضطراب اعصاب ومن المستحيل ان تحلق له ، فان على خديه بثورا ، وحتى لمسها بالفرشاة يسبب ألما فظيعا له . واليوم ، والحمد لله ، قد انتشرت فى جسمه كله . اراد ان يدخل السلوان الى قلبى بقوله : ان الالمان مزمعون على الخروج من اوكرانيا ، وان البلاشفة بداوا الهجوم بالقرب من بيلغورود ، بينما اعلنت حكومة اوكرانية جديدة فى بيليا تسيركف : حكومة مديرين . فى الماضى كان عندنا «مجلس رادا» وكانت سوفييتات ، وهيتمان . ولكن لم تكن لدينا بعد حكومة مديرين . وعلى راسه بيتلورا وفينيتشينكو . وكلاهما كان من زبائنى فى كييف عام ١٩١٦ . وبيتلورا كان يشتغل محاسبا فى اتحاد الزيمستفو . وفينيتشينكو كاتب وقد شاهدنا مسرحياته . ليس فيها شىء مميز . . . تصور ان امراة تخدع رساما ، فيتكلم معها كلمات ضخمة . وفى تلك اللحظة ياتى اليها عشيقها ، فتستقبله فى غرفة مجاورة . وتصور

ان الرسام لا يقدر ان يدخل عليهما الحجرة ، كما أنه لا يريد ان يطرد هذه الساقطة ، فيعمد الى عض يده ليقطع وترها ، ويصير مشوها نكاية بهذه المراة . كنت احلق لفينيتشينكو وكان وجهه رخوا مثقبا . . . يقول بابريكاكى ان حكومة المديرين اصدرت نداء تدعو فيه الفلاحين الى الاطاحة بالهيتمان سكوروبادسكى . . . وكان الهيتمان هذا بلا متاعب ! – وحلق الحلاق وجه فاديم بيتروفيتش للمرة الثانية ، وقلص عينيه ناظرا نظرة غير راضية الى شعره الأشيب غير المشذب ، وقال : اسمح لى بان احلق لك شعرك على طريقة à la boxe ثم لعلك ترغب فى صبغة شعر ؟ بقى عندى شىء من صبغة شعر اجنبية من صنف «جناح الغراب» . فما حاجة الانسان الى هذه الليفة الشيباء ؟ (فقال روتشين من خلال اسنانه : «احلقه كله») ، سمعا – وطقطق الحلاق بمقصه بالقرب من اذنه ، وكانه يسترسل فى منطلق جديد – اتعرف ، ياحضرة الضابط ما هو احد احلامى ؟ ان أجد فى الدنيا بلدة صغيرة هادئة ، ولو كانت نائية تنيرها مصابيح الكيروسين . . . وهل ترانى بحاجة الى زبائن كثيرين ؟ عشرة زبائن . وعندما افرغ من العمل اشعل غليونى واجلس عند الباب . هدوء وسكينة وعجائز مسالمون يمرون بك فتنهض وتنحنى لهم بالتحية فيردون عليك بمثلها . لا أحد يفكر بالناس الصغار ، يا حضرة الضابط ، فقد شطبوا من الحساب . نحن لا نُحسب فى الوجود ، حتى تنمو لك هذه الليفة . انظر باية هيئة جئت ، وماذا صنعت منك : صورة بهية !

نظر روتشين الى نفسه فى المرآة . كانت جمجمته اللامعة حسنة الشكل رحيبة للافكار النبيلة السامية ، والوجه ضيقا بانحدار لطيف من عظمى الوجنتين البارزين بالكاد الى الذقن غير المفرط فى بروزه ، وغير المستكين ايضا . كان حاجباه الداكنان معقودين على قصبة الانف فتباعدا نحو الصدغين بنزوة ملطفين من صرامة العينين الذكيتين الصغيرتين اللتين تبدوان داكنتين من حدقتيهما المتسعتين . لا شىء فى هذا الوجه يخجل صاحبه منه . الا أن الفم ، على ما يبدو ، قد افسد الأمر كله . فى الامكان ان تكذب العينان ، فانهما كاذبتان كاتمتان ، الا ان الفم لا يتقبل التموية . انظر اليه

دائم الحركة ، بلا شكل ، كاليرقانة . . . الشيطان يعرف ما هذا ! لست فاوست ، يا فاديم بتروفيتش . . . نهض ، والقى على راسه قبعته الميدانية القذرة المثقوبة برصاصة ممالة قليلا الى جانب ، ودفع اجرة سخية وخرج . . . ما زال لم يستقر على قرار . . . الا أنه لم يعد يشعر بارتخاء فى رجليه ، ولم يعد يعثر بطرفى حذائه على بلاط الشارع . تلك حصيلة الذهاب الى صالون حلاقة ! ان قطرة صغيرة من الحب قد تسربت فى يأس نفسه الكدر .

اضيئت الاضواء فى النوافذ . وكانت الريح تعصف فى اشجار الحور الجرداء الضائعة ذراها فى الظلام . وشعّ مصباح نير بوقاحة فوق باب مطلى لمطعم كابريه «بى – با – بو» بين جذوع الاشجار فى الجانب الآخر من الشارع . وكان هذا المقصف مشهورا بالشواء على الطريقة الجورجية . واحس فاديم بتروفيتش بعصرة فى معدته ، وهو يفكر فى الطعام ، فانه لم يتناول طعاما منذ يوم امس . كان ذلك احساسا بالجوع قويا قاهرا استولى عليه ، وازاح من طريقه جميع التعقيدات السايكولوجية . استدار روتشين نحو الباب المضاء بعزم . طلعت مخلوقة فى تنورة بيضاء من وراء شجرة ، وحاولت ان تسد عليه طريقه ، وتابعته بهسيس متوسل : «يا عزيزى الضابط ، دعنى اوفر لك متعة . . .»

كان مكانا واطئ السقف طويلا زينه منذ وقت ليس بالبعيد جدا الرسام اليسارى المشهور فاليت الهارب من بتروغراد . وكان سقف «بى – با – بو» أسود مرصعا بنجوم كبيرة من الورق الابيض . وعلى الجدران السوداء طيوف آجرية اللون وصفراء وبرتقالية منشورة الاطراف تبدو وكان عاصفة قد اكتسحتها – هى تخاطيط مستطيلة لرجال ونساء . وكانت هذه الصورة الجدارية جدية جدا بالنسبة للكابريه . فقد كان الرعب ، لا الحساسية ، هو الذى يسوق هذا القطيع العارى فوق الجدران . وقد قال الراسمالى الذى مول هذا المشروع – وهو بابريكاكى نفسه – قال ذات مرة «اقطعوا اطرافى عن جسدى لو كنت أفهم هذا التصبيغ ، فهو يقرفنى ، بينما يجد اعجابا من الجمهور . . .» .

تناول روتشين غداءه ، وشرب نبيذا . وكان القطار يغادر فى الساعة الرابعة ، فعزم ان يمكث فى المطعم حتى الثالثة ، وسيرى كيف تسير الأمور . . . كان يشعر بالدفء ، وبشىء من الطنين فى راسه .

وكان النادل - وهو تترى من مطعم «يار» الراحل فى موسكو ، وصاحب قديم - غالبا ما يقبل عليه ويرفع الزجاجات من جردل الثلج ، ويقول وهو ينحنى ليصب الشراب :

- اعذرنى ، يا فاديم بتروفيتش ، فانا اجىء اليك باستمرار . . . هل تذكر موسكو . . . آه ، انت ترى كيف نعيش هنا . . . ان هؤلاء الاوباش يتراءون لى حتى فى النوم . . .

كان المطعم غاصا بالناس ، رغم جو القلق فى المدينة ، حيث كانت طلقات منفردة تتردد فى الاطراف وفى ظلام الشوارع الخلفية ، فيحاول الخيالة الهيتمانيون من الحرس ان يصموا اذانهم عنها ، اثناء مرورهم مصعدين الى قصر الحاكم ، ورغم الذعر فى السوق السوداء اليوم . لم يكن برنامج الترفيه قد بدأ بعد . وقد جلس الى البيانو على المسرح الصغير شاب طويل ذو رقبة ممدودة بسمك الساعد ، وشعر زنجى منتصب ، مائل الى قفاه . وكان يعزف لحنا من اوبريت .

كان يحيط بمائدة روتشين جو من الضجيج والسكر . كان بعض اصحاب العقارات من ضاقوا من السأم فى حجرات فندقهم بين بناتهم الخائبات ينفسون عن همومهم وراء اباريق الخمرة .

صرخ رجل له خدان ناعمان :

- اؤكد لكم ان نهاية الالمان قد حانت الآن ! وفى عشية العام الجديد سيكون فيلق الحملة الانجليزى فى موسكو . وسنشرب الويسكى الاسكوتلندى . لا يخلو شر من نفع ! - وقهقه الرجل الطيب فاغرا فمه مظهرا اسنانا جيدة - اذن ، فالنصر للثورة الالمانية !

ورفع شخص آخر يده طالبا الانتباه ، وكان شديد الهزال ذا عينين تلمعان بسخرية من داخل محجريهما الرماديين :

- اللورد مستشار الخزانة يجلس فى مجلس اللوردات على نضد من الصوف ، كما هو معروف . . . الا ان نبلاء سيمبيرسك

كانوا يفخرون بالعمود المرمرى فى فناء جمعيتهم للتاكيد على ان ما من شىء مزعج يستطيع ان ينال من السادة اعمدة النبالة حتى آخر الدهر . . . ولهذا كانوا يهومون مرتاحين تحت ظلة الارقطيون . . . لقد انتهى تاريخ النبلاء الروس . . . وليس لنا ما يكفينا من نُضُد الصوف . . . تماما كما انتهى تاريخ أمنا روسيا ، ايها السادة . . . قرِئت آخر صفحة من قصة مدينة غلوبوف ، وقذف الكتاب فى زاوية . ولم يحدث هذا خلال الزوبعة والعاصفة ، كما قال احد الاذكياء الكبار ، وفى يوم اثنين اعتيادى . بصق الرب واطفأ القنديل . . . لقد بعت ارضى الصغيرة فى عام ١٩١٤ ، ومنذ ذلك الحين وانا مواطن عالمى . . . ذلك اضمن شىء . . .

- ذلك جيد بالنسبة لك ، يا سيد ، فقد انهيت جامعة اكسفورد . أما أنا فاين اولى ببناتى الثلاث ؟ اين ؟

تساءل الرجل الطيب المورد الخدين ، ونخر ، ومد يده الى ابريق الخمرة واضاف قائلا :

- اما بشأن نهاية روسيا ، فانا لا اوافق ايضا . ذلك من اثر تعليمك الانجليزى . . استطيع أنا ان أعمل مساعد مأمور ، أو رقيب عمال ، واستطيع ان احرث بنفسى ثلاثة افدنة ، ولكن سأومن بروسيا .

وصب شيئا من الخمرة ، والتفت فى الحال بثقله الى الرجل الثالث الجالس الى المائدة ، وسأل :

- اين اذهب بهن ؟ نشأن فارعات مسطحات منمشات سريعات التأثر كأنهن من السيدات بطلات قصص تورجينف ، وذلك كله فى زماننا ! وأمهن مسؤولة عن كل ذلك ، ولكن الذنب يقع علىّ ايضا ، وانا اعترف بذلك نادما . كانت الكبرى تريد الالتحاق بدورات النساء العليا ، ولكننا اقنعناها بالعدول ، وهى فضلا عن ذلك كسول . . . وانجذبت الصغرى الى المسارح ، وكان من الممكن ان تكون ممثلة من الدرجة الأولى ، واؤكد لك ذلك . . . وصرفناها عن ذلك بجهد كبير ، بل واستخدمنا التهديد . . . وباختصار كنت الأب المستبد ، وذلك فى زماننا هذا ! وكل ذلك بسبب من قلة التروى . . . والانجليزى ينظر ثلاثة اعوام الى الامام وهو جالس على نضده الصوفى ، ان هذا صحيح . . . أما نحن فكنا نفكر من

فصل الى فصل ، كما يقولون – وشرب من قدحه محركا خديه ، واضاف بشكل مفاجىء – ولكن بشكل عام لن نضيع . . .

وكان ثالث الجالسين شديد السكر بحيث لم يكن يستطيع الا ان يصرف باسنانه ، ويأكل الزهور – زهور الاسطر الصغير – يقتطعها من مزهرية على المائدة . ولم يكن يصغى الى شىء ، مثبتا عينيه الكدرتين فى المائدة المجاورة حيث جلست عليها فتاة على قدر كبير من الجمال لها عقصة كبيرة بريئة من شعر شاحب الشقرة ، وشاب ضخم فى لباس شبه عسكرى . كان يبكى بصمت واضعا ذقنه على راحة يده ، لا يعير التفاتا الى احد ، وكأن كل الموجودين هنا طيوف حقا . غضنت الفتاة وجهها المستدير الازرق العينين فى ضيق ، ومسدت على يده ، وامسكتها ، وراحت تقبلها . واحنت راسها على مقربة من الشاب ، وهمست له بعجالة وهلع . هزّ الشاب وجهه الضخم هزا بطيئا ، وسمع روتشين صوته الكامد الهامد الشبيه بصوت دمدمة النيام :

– اتركينى ، زينا ، اتركينى . . لم اعد أريد شيئا ، لا اياك ولا اياى . .

وكان فى امكانه ان لا يقول شيئا آخر ، فقد كان مفهوما بدون ذلك بم ستنتهى الليلة بالنسبة لهذا الشاب . . . كانت الفتاة تشبه كاتيا بشىء ما ، لا بوجهها ، بل بعذوبة حركتها الهادئة . . . ستنتهى حياتها ايضا فى مكان ما بين مرضى التيفوس فى محطة قطار على مفترق طرق . . . جاء فتيان ، وجلسا على عجل الى مائدة شاغرة ، وحجباهما . كان لكليهما خصلة شعر مشذبة نازلة حتى حاجبيه ، واسنان مسوسة ، وخواتم من الالماس فى اصابعه القذرة . قال احدهما للآخر مباهيا «ضربت ماشكا بقضيب حديدى ضربا موجعا ، ودست عليها حتى قرقعت عظامها ، الساقطة . . . » .

– هل تسمح لى بالجلوس الى مائدتك ، ايها الضابط ؟

هز روتشين رأسه دون ان ينطق بكلمة . فجلس الى مائدته رجل فى نظارة من النيكل دافعا قدمين ضخمتين تحت المائدة . كان يرتدى بزة عسكرية خضراء رمادية ضيقة عند الصدر لضابط

المانى من فصائل «لاندشتورم» المتطوعة . قال للنادل وهو ينطق الكلمات الروسية بعسر :

– ارجوك أن تطعمنى . منذ وقت طويل وانا لم آكل . ثم بيرة ، بيرة !

ونفخ خديه النحيلين مظهرا كيف سيشرب البيرة ، وضحك ، ثم نظر بشىء من الدهشة الى روتشين العبوس مصوبا اليه عينين هادئتين زرقاوين كعينى غراب الزرع :

– هل يتكلم حضرة الضابط الالمانية ؟

– نعم .

– اذا كنت اضايقك بحثت عن مائدة أخرى بكل سرور .

– انت لا تضايقنى .

وكان جواب روتشين فى هذه المرة اكثر لطفا . كان للضابط الالمانى وجه من تلك الوجوه الالمانية التى تمتاز بالضيق وصغر الفم مع انبعاج خفيف فيه ، وتظل تحتفظ بمسحة الطفولة والتورد الرقيق حتى الشيخوخة . كان انفه مرفوعا ، وكأنه بدافع من التطلع الحسن النية الى كل انسان . قال :

– من قبل كانوا لا يسمحون لنا ، نحن الجنود ، بارتياد المطاعم ومنذ يوم أمس اصبح الانضباط الالمانى اكثر معقولية .

ابتسم روتشين ابتسامة معوجة ، فاسرع الضابط الالمانى بتحديد فكرته على وجه الدقة رافعا كالاستاذ اصبعا قوية الاظفر :

– الانضباط لا بد ان يكون معقولا واذ ذاك يكون على شاكلة النظام الاجتماعى ، وشرطا ضروريا للتطور . ومثل هذا الانضباط المعقول يولد من الحركات الاجتماعية العميقة . ولكن اذا لم يكن كذلك ، وكان من وسائل الاكراه فاننا لن نسميه انضباطا .

وهز رأسه مرحا ، منهيا فكرته الغامضة قليلا هذه .

سأل روتشين :

– اتجلون الى المانيا ؟

– نعم . ان وحدتنا انتخبت لجنة فأصدرت هذه اللجنة قرارا مبدئيا تماما من حسن الحظ رغم انه لم يتخذ دون مقاومة .

– انت تعرف ما تعنى العبارة الروسية : لا أحد يمسكك من رجليك .

– معرفتي بالروسية ليست قليلة . اعرف انهم حين يقولون لك ذلك فمعنى ذلك «اذهب الى جهنم وبئس المصير» . . .

– وليكن ذلـك . . . يبدو أنك ذكي فمـا حاجتنـا الى التظاهر ؟ كنا اعداء . وافترقنا اعداء .

– اها ، حسنا – وفكر الالماني وهز رأسه وقال :

– من ناحيتي سيكون نكران ذلك من العبث بل وعدم اللياقة .

وانفرجت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة مرة أخرى منهيا هذا الموضوع . أحضر له الطعام والبيرة . ابدى اعتذاره لأنه سينقطع عن الحديث بعض الوقـت . واقبل على الشواء غير متعجل ، بل ماضغا قطـع اللحم والخبز والطماطم المشويـة بنوع مـن التبجيل .

– لذيذ .

قال ذلك شاعرا بان روتشين لا يصرف عنه عينيه الداكنتين الحاقدتين ، واتى على كل ما في الصحن ، ومسحه بقطعة صغيرة من الخبز ، ووضعها في فمه . وشرب القدح الكبير من البيرة الباردة مسبلا جفنيه نصف اسبالة .

– الألمان يهتمـون بالطعام اهتمـاما جديا جدا . جاعوا كثيرا ، وسيجوعون طويلا حتى تحل مشكلة الطعام حلا نهائيا .

وارتفعت اصبعه الطويلة الى الاعلى مرة أخرى .

– في فجر التاريخ ، حين انتقلت البشرية من الجمع البدائي لهبات الطبيعة الى التدخل القسري في الطبيعة اصبح الطعام حصيلة العملية الصعبة الخطيرة للحصول عليه . وصار الطعام عملا مقدسا . الأكل يعني امتلاك حياة اخرى ، قوة اخرى . ومن هنا تأتي فكرة امكانية رقي الطبيعة ، اى السحر . . . وطقوس الطعام السحرية هي في اساس كل العبادات الباطنية . انهم يأكلون جسد الله . . . وقد سجلت حوارا طريفا مع عالم روسى عن اصل قرص الفطائر . وايام المرفع هي عيد اكل الشمس . وقد طلسموها برقصات دائرية ، ثم اكلوا صورتها ، وهي قرص الفطيرة . وهكذا ترى أن السلاف في معتقداتهم كانوا دائما يطمحون الى ذرى عالية جدا .

وضحك ، وفك الزر المعدنى لسترته العسكرية ، واخرج دفتر ملاحظات سميكا ذا كعب جلدى متهرئ . نفس ذلك الدفتر الذى اخرجه فى عربة القطار قبل شهرين ليقرا لكاتيا روتشينا فقرة من اميان مارتسلين . وضع الدفتـر على المائدة ، وقلب بحذر اوراقـه المملوءة بملاحظات ومقتطفات وعناوين مكتوبـة بخط دقيق .

قال وقد وضع اصبعه على صفحة :

– انظر .

الا ان روتشين لم ينظر الى تلك السطور الصغيرة ، بل الى ما خطته يد كاتيـا فى الاعلى : «يكاترينا ديميتريفنـا روتشينـا ، يكاترينوسلاف ، شباك البريد» .

فسأله بصوت اجش :

– من اين لك هذا ؟

وتدفق الدم الى وجهه . فرفع يده الى ياقة قميصه العسكرى . وخيل للالمانى أن الضابط الروسى سيخرج مسدسه باليد الاخرى حالا ، على عادة سنى الحرب . . . الا أن عينى الضابط المخيفتين لم تعبرا الا عن المعاناة والتوسل . . . قال لـه الالمانى باكثر ما يكون من اللطف :

– يبدو انك تعرف هذه المراة معرفة جيدة جدا . استطيع ان احدثك شيئا عنها .

– معروفة لى .

– اوه ، تلك قصة من القصص المحزنة .

– ولماذا محزنة ؟ هل قتلت هذه السيدة ؟

– لا استطيع ان اقول ذلك عن ثقة . واود أن آمل بمصير افضل . . . خلال سنى الحرب ادركت أن الانسان هو مخلوق يملك قوة بقاء خارقة ، رغم ان من السهل جرحه ، وانه سريع التأثر بكـل الم . . . وهذا يحدث . . .

ورفع اصبعه من جديد ، الا ان روتشين قال وقد تلوى وجهه :

– قل لى اين رأيتها ، وماذا حصل لها ؟

– تعارفنا فى عربة قطار . . . وكانت يكاترينا ديميتريفنا قد فقدت لتوها زوجها الذى تحبه بحرارة . . .

– كان ذلك افتراء مقصودا ! . . فانا حى ، كما ترى . . .

القى الضابط الالمانى ظهره على كرسيه ، وتكور فمه الصغير ، وصارت عيناه الشبيهتان بعينى غراب الزرع مستديرتين ، وضرب كفيه على المائدة :

– انا ادخل هذا المطعم لأول مرة ، واجلس الى هذه المائدة ، واخرج دفترا . . . واذا بالاموات يستيقظون ! انت زوج تلك السيدة ؟ لقد حدثتنى عنك ، وكنت انا ايضا اتصورك آنذاك فى الصورة التى انت فيها . . . لا ، يارفيق روتشين ، يجب الا ، الا . . .

وتلعثم ، واطبق شفتيه الرقيقتين ، ونظر من فوق نظارته نظرة صارمة متفحصة فى عينى فاديم بتروفيتش المغرورقتين بالدمع . وظهرت قطرات العرق على انفه المرفوع بحسن نوية :

– نزلت من القطار قبل يكاترينوسلاف ، فكتبت عقيلتك عنوانها لى . وقد اصررت انا على ذلك ، اذ لم ارد ان افقدها كطائر عابر . وخلال الطريق استطعت أن اشعرها ببعض البشاشة . انها ذكية جدا . وعقلها الصافى والقليل التطور متعطش للافكار الطيبة الرفيعة . وقد قلت لها : «ان الحزن هو نصيب ملايين النساء فى وقتنا هذا . ويجب أن يحول الحزن والشقاء الى قوة اجتماعية . . . ليلهمك الحزن الصمود» ، سألتنى «وما حاجتى الى هذا الصمود ؟ وهل ترانى اريد أن اعيش اكثر ؟» قلت لها : «نعم ، انت تريدين ان تعيشى . ليس هناك اهم من الرغبة فى الحياة . واذا كنا لا نرى من حولنا غير الموت والشقاء والحزن فاننا يجب ان نفهم باننا نحن انفسنا ملومون لأننا لم نزل حتى الآن سبب ذلك ، ولم نحول الأرض الى مسكن وادع سعيد للانسان ، تلك الظاهرة الرائعة . خلفنا صمت ابدى ، وامامنا صمت ابدى . وليس لنا غير فترة قصيرة من الزمن علينا ان نعيشها **لتملأ سعادة هذه اللحظة كل فراغ الصمت اللانهائى . . .**» لقد قلت لها ذلك لأدخل السلوان الى نفسها . . . وعلى هذا النحو نزلت من القطار ، وانضممت الى وحدتى . وفى الليل تلقينا اخبارا تقول ان القطار التى كانت زوجتك تقله قد اوقف من قبل شرذمة من الماخنويين ، ونهب ، واقتيد جميع المسافرين الى جهة غير معلومة . هذا كل ما اعرفه ، يارفيق روتشين . . .

بدأ برنامج الترفيه على المسرح الصغير . دفع البيانو والموسيقى ذو الشعر الناتئ الى ما وراء الكواليس . وظهر دون ليماندو عريف الحفلات الموسكوفى الذائع الصيت ، وهو رجل حسن المظهر لا يحزر عمره ذو عينين مصبوغتين يرتدى سترة «سموكين» وقبعة قش قاسية انزلها على حاجبيه .

– اهنئكم ، ايها السادة ، بالثورة الالمانية – وصافح نفسه بنفسه بشدة – كنت قبل برهة فى محطة القطار . وقد قلت لضابط المانى : مرحبا ، كيف الحال ؟» فقال لى : «حسن جدا وانت كيف حالك ؟» قلت : «كذلك حسن جدا . ها هو شهر تشرين الثانى ، وقبعة القش باردة فيه ، بينما تركت قبعتى الشتائية فى موسكو ، والآن لا اعرف متى ساحصل عليها» فيقول لى : «اشتر لك قبعة شتائية» قلت : «ادخرت الف مارك للقبعة ، أما اليوم فقد اعطونى مقابلها خمسة روبلات» فيقول متعجبا : «آى ، آى ، آى» . قلت له : «آى ، آى ، آى ،» . وهكذا تحدثنا عن هذا وذاك ، بينما كان جنوده يصعدون على سطوح العربات . قلت له «هل انتم راحلون ؟» قال «راحلون» . قلت «نهائيا ؟» قال «نهائيا» . قلت : «مع الأسف الشديد» . قال «ما فى اليد حيلة» . قلت : «باى معنى : ما فى اليد حيلة ؟» قال «بمعنى الخلو من كل معنى» . قلت «آى ، آى ، آى . بينما كنا نامل ان ذلك لن يحصل عندكم» . وهنا غنى الجنود الجالسون على سطوح القطار اغنية «التفاحة» الروسية فانصرفت . . . وكان الظلام من حولى ، والريح تصفر ، وفى الشوارع الجانبية طلقات نارية . وكان على ان ابدأ البرنامج ، فقد تاخرت عن موعدى ، وقلبى يرتعش . فاخذت اغنى .

ودق البيانو وراء الكواليس ، فقفز العريف محركا رجليه :

آه ، ياتفاحة
الليل مظلم
فالى اين اتوجه ؟
معقول ان اعرف . . .

وادار روتشين ظهره الى المسرح ، ونظر فى عينى هذا الالمانى العجيب ، وسأل :

– هل تستطيع ان تبلغنى فى اى منطقة يعمل ماخنو الآن ؟

– تقول تقاريرنا الاخيرة ان ماخنو بدأ يضغط بشكل خطير على الوحدات النمساوية المتراجعة وعلى الوحدات الالمانية فى بعض الاماكن . ومقر قيادة ماخنو عاد من جديد الآن الى غولاي-بوله . . .

١٠

فى بداية تشرين الثانى كان فوج كوتشالين فى الاحتياط للتعزيز والاستراحة . ولم يبق منه بعد انتهاء المعارك غير ما بين مائتين وثلاثمائة مقاتل . وكان بيتر نيقولايفيتش ميلشين الذى عهد اليه اللواء كمفاجأة له نفسه قد تحدث فى المجلس العسكرى ، وباقتراح منه عين تليغين آمرا لفوج كوتشالين ، وكان تليغين يرقد فى المستشفى ، كما عين سابوجكوف مساعدا له ، وايفان غورا مفوضا للفوج . وضمت بطارية تليغين الى مدفعية الفوج .

كانت اياما رطبة تفوح برائحة دخان المواقد ورائحة الكلاب المبللة . وكانت الرطوبة تقطر من السطوح المعتمة ، والأرض تتحول الى وحل ، وكان المقاتلون ، وهم يعودون من التدريب يجلبون باحذيتهم كتلا ضخمة من الوحل . وكانت معنويات الجميع عالية . وكان الموسم الرهيب فى نهايته ، فقد دفع جيش الدون بعيدا وراء شاطئ الدون الأيمن . وترددت الشائعات عن ان الاتمان كراسنوف فى نوفوتشيركاسك ضرب راسه فى الحائط يأسا بعد ان علم بهزيمته الماحقة الثانية هذه قرب تساريتسين .

كان المقاتلون ، بعد انتهاء يوم من التدريب العسكرى والدراسة السياسية ومحو الأمية ، يتفرقون عند هبوط الظلام فى القرية منكمشين من البرد ، بعضهم الى معارفهم ، والبعض الآخر الى «الصديقة الجديدة» . اما الذين لم يكن لديهم معارف ولا صديقة فقد كانوا يقضون اوقاتهم فى السير منشدين الاغانى ، او فى اغواء الفتيات بالالاعيب الهازلة جالسين فى مكان جاف . وما كان يبتدئ بالنكات والضحك غالبا ما ينتهى بالنقاشات الحادة فى بعض الاحيان لأن اعصاب الجميع كانت متوترة .

كان اثنان من بحارة بطارية تليغين العشرة قد جرحا جرحا خطيرا وقتل ثلاثة . وبقى خمسة . ونزل البحارة فى بيت قوزاقى جيد كان قد تركه صاحبه الهارب . وكانت انيسيا تعيش معهم وقد سجلت فى الفوج اسميا كجندى غير محارب . وكانت تصطف اسوة بالمقاتلين الآخرين وتتمرن على الرمى وتحضر التثقيف السياسى . وصارت ترتدى بزة نظيفة لجندى احمر ، سوى انها لم ترد ان تحلق شعرها المجعد الجميل . وقد رات الكثير من الفظائع والموت ، وفى عهد تشرين الاول المضنى خوّضت فى مصيبتها التى لا تعوض ، كما يخوض الناس الى اذقانهم فى مخاضة نهر . ولم تظهر تجاعيد جديدة على وجهها الذى عاد اليه الشباب وتقسى ، واترع خديها غذاء الجنود فى المؤخرة ، وانتصبت قامتها ، وصارت مشيتها خفيفة ، وتجددت بكليتها . وفى الليالى حين كان البحارة يشخرون بقوة فى المسكن غير المدفأ كانت هى تغسل ملابسهم خفية ، وترفوها وتصلحها ، وفى بعض الاحيان كان عملها يمتد حتى يصدع بوق الاستيقاظ ممدودا فى الفجر الرمادى .

كما بقى فى الفوج كوزما كوزميتش نيفيدوف فى منصب غير رسمى هو كاتب الفوج . وفى اصعب الأيام ، اليوم السادس عشر والسابع عشر ، ابدى شجاعة بل واستماتة خاصة حين كان يخرج الجرحى من النار . وقد لاحظ الجميع ذلك . ولم يتقاعس فيما بعد ، حين انتقلت بقايا فوج كوتشالين الى الهجوم المضاد ، كما لم يتاخر وراء الدون ، حين بُدل الفوج ، وحول الى المؤخرة .

ذات مرة التقى به ايفان غورا عند مطبخ الميدان مبللا قذرا نحيلا منفعلا فدعاه باصبعه : – ماذا عسانى افعل معك ، يا نيفيدوف ؟ لا استطيع ان افهم اى شخص انت ؟ قس مجرد من مسوحه ، وفى سن محترمة . . فما الذى يجعلك تتعلق بنا ؟

تنشق كوزما كوزميتش لأن قطرة من المطر سقطت من على انفه المقشر ، وتطلع الى المفوض بعينيه الصهباوين المرحتين :

– هذه طبيعتى ، يا ايفان ستيبانوفيتش . اتعلق بالناس . . . الى اين اذهب ، وعن اى مجتمع انسانى آخر ابحث ؟ فانا رجل مفكر .

– ولكن ليس هذا هو الموضوع . اسمع . . .

– اما بخصوص مؤنة الفوج (واشار كوزما كوزميتش الى القصعة المملوءة التى كان يحملها) فان هذه الشوربة من شحم الخنزير قد اكتسبتها بنزاهة . ولا ترانى قد حرصت على سلامة جلدى . . . أما البنطال والحذاء فقد حصلت عليهما بنفسى من العدو فى ساحة المعركة . . . وانا لا اطلب شيئا ، ولا اثقل على احد . وفى المستقبل ايضا آمل ان اكون نافعا . اليست الثورة بحاجة الى انسان ذكى ؟ بلى . . وليس فى فوجكم كاتب متعلم . . . وانا فضلا عن ذلك اكتب باللاتينية والاغريقية ، وقد انفع فى مواضع اخرى . . .

فكر ايفان غورا مع نفسه : «حقا لماذا لا نستفيد من انسان ، اذا كان ذكيا ويريد العمل ؟ . .»

قال :

– الموضوع ان اصلك يقلقنى . نخشى ان تبث الافكار الضبابية . . .

قال كوزما كوزميتش :

– نعم ، مر وقت كنت فيه اركض وراء السراب ، ولا حاجة الى ان اخفى شيئا . . . كنت تائها فيه . لا ، لا تخشوا شيئا من تحريضى ، فانا مع الله فى نزاع . . .

سأل ايفان غورا :

– فى نزاع ؟ ها ؟ حسنا ، تعال الى منزلى فى المساء لنتحادث . .

وعند هبوط الظلام ظهر كوزما كوزميتش فى منزل المفوض الذى كان جالسا عند النافذة وهو فى معطفه وقبعته ، يقرأ جريدة محركا شفتيه . طوى ايفان غورا الجريدة ، ونهض واغلق الباب :

– اجلس . . . هناك شىء غير جميل قد حصل . هل انت قادر على أن تضم لسانك وراء اسنانك ؟ بالمناسبة ، سيكون وضعك اسوأ اذا بدأت بالكلام الزائد : فانا اعرف كل شىء ، حتى ما يحلم به المقاتلون اثناء نومهم . . .

واخذ يقطع شريطا ضيقا من حاشية الجريدة البيضاء ، ونخر ، وهو يحاول لف الشريط باصابعه التى لم تكن تطاوعه فى تثنيها .

– حصد الناس ، وخزن القمح . أما درسه فقد تأخر بعض الشىء بسبب الاوضاع العسكرية . . الا ان الناس يثقون بنا ، وهذا الشىء الرئيسى – انهم يريدون الاعتقاد بأن السلطة السوفييتية اصبحت متينة . . . حسنا . . .ولكن عن قريب سيحل عيد الحجاب المقدس . . .

ورفع ايفان غورا بصره الى كوزما كوزميتش قليلا ، واختلج منخر انفه الكبير فى ارتباك . . .

– عن قريب عيد الحجاب المقدس . . . والخرافات ما زالت حية فى الناس . . . ولا تستطيع محوها بمرسوم فى يوم واحد . . . انها تقتضى وقتا طويلا ، كما يمكن ان يقال . . . بينما الفتيات غير راضيات ، وهن ينتظرن العيد ، ولا احد يرسل لهن الخطابات . بالامس كنت فى قرية سباسكويه . اوقفت النساء عربتى ، وصرن يبكين ويشتمن ويضحكن . . . التعاطف مع السوفييتات كلى ، ولكن هذا العيد يصعب عليهن . . . القرية غنية ، والحبوب كثيرة ، ولم تطبق عليهم حتى الآن ضريبة فائض الحبوب . . . ويجب التعامل معهم بذكاء ليقدموا الحبوب عن وعى بالأمر . ولكن كيف يمكنك ان تقوم بالدعاية بينهم ، اذا كانت النساء قد امسكن بعنان العربة وهن يصرخن : هيئ لنا قسا . . . وقد اخجلتهن قائلا لهن : كفاكم من قساوستكم وقد رايتهم يلوحون بمباخرهم امام الجنرال مامنتوف . فيقولن لى : «اولئك كانوا قساوسة بيضا ، وقد طردناهم بانفسنا من القرية . . ولكن اعطنا قسا أحمر . . نحن بحاجة الى عقد حفلات زفاف ، وفتياتنا تعبن من الانتظار ، وعندنا مائة وخمسون طفلا يصرخون فى المهود ، وهم لم يعمدوا بعد . . . » تفو . . لقد ظل رأسى يوجعنى فى اليوم التالى . . . الى هذا الحد ازعجتنى النساء . هل استطيع ان ارسل لهن قسا ؟ ولكن يجب حل المسألة . انهن بعد التفكير الطويل قد يرسلن فى طلب القس القديم من نوفوتشيركاسك . . . وسيكون ذلك تصادما . . . انت ، يا كوزما كوزميتش ملم فى هذه الامور ، فانقذنى . خذ عربة ، واذهب الى القرية وتكلم مع النساء . . ولكن وكاننى لا اعرف شيئا . انا

رايت اولئك الفتيات ، فقطاعة : انهن ناضجات – واشار ايفان غورا الى صدره – ان القضية انسانية . . فهل تذهب ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

– بكل سرور .

وهز راسه مكورا شفتيه .

– انت رفيق مضجر فى الحديث ، يا شاريغين . دماغ ناشف يجعل المرء يفقد عقله .

واخذ لاتوغين قبعته ، وارتداها مائلة ، وحافتها الناتئة على اذنه ، وتحرك على المصطبة ، الا انه لم ينهض منها ، وحرك مقلتيه ، ونظر الى انيسيا .

كانت تجلس مقطبة الجبين من جهد الانتباه ، مثبتة بصرها كما هى الحال دائما فى ساعات الدراسة فى اى شىء كان ، وليكن مسمارا فى الحائط . فان عقلها غير المتعلم كان يجد عسرا فى تقبل الافكار المجردة ، فقد كانت مثل كلمات من لغة غريبة ، لم تكن تنفذ الى احاسيسها الحية الا اجزاء وومضات متقطعة . كانت كلمة «الاشتراكية» تثير فيها تصور شىء جاف مهسهس ، مثل شريط احمر تلامس زغبه ايد خشنة . وقد حلمت بهذا الشريط . وكانت «الامبريالية» عندها مثل الملك بنو خذنصر الذى راته فى صورة شعبية رخيصة التصق بها فضلات الذباب وقد وضع التاج على راسه ولبس رداءا صبغ بلون قرمزى زاه . وكان الملك قد القى صولجانه وكرته الملوكية عند مرأى يد تكتب على الجدار كلمات تنبىء بهلاكه .

الا ان انيسيا كانت محبة للعمل ، وقد بذلت جهدها للتغلب على هذه التصورات الناقصة .

وكانت تحس بنظرة لاتوغين عليها ، الا انها لم تصرف بصرها عن المسمار فى الجدار ، ولكنها اطبقت ببطء ركبتيها المتباعدتين .

سأل شاريغين :

– لماذا انا مضجر فى حديثى ، يا لاتوغين ؟ المقالة التى نتدارسها منشورة فى «ازفستيا» ، افلا تعجبك ؟ اذا كنت مقاتلا فى

سبيل الثورة وجب عليك أن تتمثل بدقة ، وانت تحشو بندقيتك ، الوضع الراهن والمهمات العامة ايضا .

وحين قال شاريغين ذلك نقل نظرة داكنة من عينيه الزرقاوين الجميلتين الى انيسيا . فتابعت هى النظر الى المسمار . وقال بايكوف بصوت رفيع ، دون ان يضحك :

– ولكن ما نفع الصدار لذئب ، فانه سيمزقه فى الاجمات ، على اية حال . والعلم خال من المتعة بالنسبة لرجل شاطر .

ردّ لاتوغين فورا بدون نبرة هزء ايضا :

– كلام لبق ! ولكن ليس صحيحا تماما . لا ، ليس العلم خاليا من المتعة بالنسبة لرجل شاطر . أنا احترم العلم ، اذا كان الاطفال يخرجون منه . ولكن الأمر الخالى من المتعة الا يعرف الانسان أين يبدا الفيل من رجليه واين راسه . . . ولكن كفاك اغاضة لى . ان كلمة حقيقية ، كالمرأة ، تعانقك وتحرقك ، وتجعلك تركض حافيا على الجمر . بهذه الكلمات تحدث معى ، يا شاريغين . . . بينما اراك تعزف على نغمة واحدة : «البروليتاريا العالمية والاشتراكية . .» لقد تقحمت الموت فى سبيلها . وانا اريد ان يحدثونى عنها ، ولكن بالطريقة التى اصغى اليها واصدق بها : اية شجرة ابدا بتكسيرها لأصنع بيتا ، وفى اى مرجة اتنزه فى قميصى الحريرى . . . آه ، لو تضرب على رأسك بكرة ارضية لتعرف كيف تتحدث عن الثورة العالمية .

نظرت انيسيا الى وجهه القوى العريض بعينيه المتباعدتين مثل عينى ثور أصيل . نظرت وقالت لنفسها بوحشة ان فقدها لعينيها خير من النظر بهذه الصورة .

لم يكن غاغين ، ولا زادويفيتر ، ولا بايكوف يوافق على سلوك لاتوغين . كانوا يتحادثون بلطف وهدوء تحت شرشرة المطر الهادئة على السطح القشى . حقا ان شاريغين كان فى بعض الاحيان ، بسبب من حداثة سنه وعدم استيعابه العلم بعد ، يعبر عن افكاره بطريقة ثقيلة خائفا من استعمال الكلمات البسيطة ، وكانه يخشى ان توقعه فى مازق . وكان يشعر بحرية اكثر مع الكلمات الاجنبية المجربة ، ومع ذلك فلم يكن يحسن بلاتوغين أن يهزأ برفيق مخلص ، فضلا عن أن الجميع كانوا يدركون أن احتدامه وتبجحه

يرجعان الى سبب آخر بالطبع ، ولم يكونوا يوافقون على هذا السبب ايضا .

قال غاغين له :

– المفوض يهيء فصيلة تموين ، فاذهب اليه واسأله ان يضمك اليها . فانت ضجر لانك لا تفعل شيئا . لا أحد ينتظر منك خيرا . فقد طال وقوفك ، يا فتى . . .

هز بايكوف لحيته ، واخذ يضحك . كما أن زادويفيتر حدس ما يلمح اليه غاغين ، ففتح فمه باسنانه القوية وقهقه . وتدفق الدم الى وجه انيسيا ، حتى انفجرت الدموع من عينيها . تناولت معطفها ، واستدارت ولبسته ، وتحزمت عليه بقوة ، وخرجت من الكوخ . وشعر الجميع بالحرج تماما . طوى شاريغين الجريدة ببطء ، وهو يبتسم ابتسامة هازئة . وقال للاتوغين :

– لنذهب ، ونتحدث .

فقلص هذا عينيه ، وقال :

– لنتحدث .

وخرج الاثنان الى الفناء فى الظلام ، تحت رذاذ دقيق يدغدغ الوجه . واحس شاريغين ان لاتوغين ينتظر بداية الحديث وعلى فمه ابتسامة هازئة ليرد عليه ردا لاذعا لئيما . . كان شاريغين يريد ان يطرح بهدوء تام مسالة خرق الانضباط الرفاقى وضرورة التحرر من التركة البرجوازية الفاسدة . . . ولكنه قال بدلا من ذلك ، وبعد أن استنشق بمنخريه نفسا عميقا من رطوبة الليل .

– اترك انيسيا وشأنها . . . ليس هذا لطيفا . . . بل قذارة ، ومشاكسة . . .

قال ذلك وصمت . اما لاتوغين الذى لم يتوقع مثل هذا المنقلب فقد وقف امامه بلا حراك . ولم يستطع أن يجد ما يصلح ان يرد به . لا «من طلب منك أن ترعانى ، أيها الغر ، ايها البكر ، ايها العفيف ؟ » ولا «كثيرون سالونى عن هذه الامور ، ولكن القليلين خرجوا منى سالمين . . . »فقد تبين تماما انه ، اى لاتوغين ، انسان قذر . . . انبعث فى نفسه احساس حارق بالمهانة . . . ولو حدث ذلك فى الماضى لأخرجه عن اطواره . . . . قلص عينيه ، وصك على اسنانه . . . . مستحيل !

قال :

– نعم ، نعم . تقريعك هذا يعنى أننى ارقت دمى عبثا ، يعنى ما زلت كما كنت صعلوكا ، قاطع طريق ، ابن كلبة ؟ حسنا ، شكرا لك ، يا كوستيا . . .

واتجه نحو المخرج ، وضرب بشدة باب السياج بقبضته .

عادت الحياة الى ايفان ايليتش تليغين ببطء . (كان الى جانب اهتزاز الاعصاب مصابا فى عدة اماكن بشظايا الفولاذ الصغيرة من انفجار قنبلة) .

فى اول الأمر كان فى غيبوبة مستديمة . ثم حل محلها نوم مع فترات متقطعة من اليقظة حين كانوا يقدمون له الطعام . وبعد ذلك اخذ يحس بحالة هنيئة من السكينة . كانت عيناه معصوبتين بضمادة . وكان يرقد فى غرفة منفردة سدت نافذتها باحكام . واحيانا كان يسمع خطوات خفيفة ، وهمسا – ليس اعلى من خشخشة الاوراق – ورنين معلقة ، وحفيف ثوب . وكانت بالقرب من رأسه ساعة صغيرة تدق بلا انقطاع تارة اكثر وضوحا ، وتارة اكثر خفوتا . وكانت الاحاسيس الآتية اليه من العالم الخارجى محدودة بهذه فقط ، وبحضور غير مرئى لمخلوق حذر . ما ان يزفر زفرة حتى تسرى حركة خفيفة فى الهواء ، فينحنى «هذا» المخلوق فوقه ، بل ويحس رائحة رقيقة طرية .

وبين الحين والآخر كان يتدخل مخلوق غليظ تفوح منه رائحة عرق قوية ، وتبغ بشكل رئيسى :

«ما هو نبضه ؟ » .

ويهمس المخلوق الرقيق بالجواب همسا لا يكاد يسمع . فيقول الغليظ بانشراح :

«رائع . الرجل قوى . . . يجب ان تراعى بشكل اساسى : الهدوء الكامل ، دون أى مهيجات خارجية . . .»

غمغم تليغين فى ذهنه ببطء : «انت نفسك مهيج خارجى . . . . اخرج ، ولا تطنطن . . . اما أنت ، ايتها الحنون ، فانحنى وعدلى شيئا ما ، ولكن الاحسن أن تمسدى على يدى . . ما ان فكرت بذلك فى سرى حتى فهمت ومسدت على يدى . من هذه الممرضة ، ومن أين وجدتم مثل هذه المحبوبة ؟ »

وكان الكلام ممنوعا عليه . ولكن لا يمكن أن يمنعوه من التفكير . منذ سنين عديدة لم يحدث له ان خلا لنفسه بدون ملامات ولا هموم . وكان ذلك مكافأة كبيرة على كل السنوات الصعبة من الخدمة النزيهة . لم يفعل شيئا تنقصه النزاهة ، وضميره ينام هادئا مثل قط داخن اللون فى يوم مطير . وكانت افكاره تهيم فى عالم نصف واقعى . واكثر الاحيان يتذكر شمس الشمال الصيفية ، كتلك التى كانت فى بطرسبورغ فى يوم بارد ، تسكب الضوء على اسفلت الرصيف الضارب الى الزرقة ، حيث تجرجر الريح اذيالها . . . . ما اكثر ما مرت به من افكار وما اكثر ما شهد فى بطرسبورغ . . . . والآن تمر امام جفنيه المطبقين نافذة بيت خشبى ، والشمس تضرب باهتة على الزجاج المحبب ، ووراء الزجاج شىء يتراءى له . . . الا ان الذكرى انطفأت واختفت ، ولم تبق الا كآبة الهوى من تماس الذكرى به .

وكانت تتردد فى ذاكرته باستمرار كلمات طال عليها النسيان من اغنية لا يعرف اين سمعها بالضبط ،ربما فى نوفيا دريفنيا ، فى بيت ريفى وراء نهر كرستوفكا . كانت غجرية مكسال نحيلة تغنى بصوت خفيض فى ازرقاق الغسق الليلى ، وهى تعزف على الاوتار : «لك ان تذهب يمينا وشمالا ، ثم تجوب البيت كله عبر دهاليزه المظلمة ، فتجد بابا الى اليمين ، ووراء الباب علية ، وكلما كنت تبحث عنه لن تجده ابدا . . .» .

غنت لهم – للرجال الذين جلسوا امامها صامتين – عن الشوق الابدى الذى لا تكون الحياة بدونه . . . ابحث ، ابحث ، وانظر الى العلية ، فلعله هناك ؟ آه ، انتم ، يا حمقى ، يامن يلوح عليكم خمار البارحة ! عمن تبحثون ؟ تسيرون فى الشارع الطويل عند غروب شمس الشمال ، والريح الخفيفة تسوق الغبار تحت ارجلكم ، وتبحثون . أين تلك النافذة ذات الزجاج المحبب ؟ وهل على افريزها تجلس احلى فتاة على الارض ، فى ثوب قطنى ، وقد طوقت ركبتيها ، وراحت تقرأ كتابا ، والكتاب يتحدث عنك ، يا من تبحث . كل ذلك هراء ، فانتم تبحثون عن انفسكم . . .

فى السكون والظلام ، وتحت تكتكة الساعة كان ايفان تليغين يهوم ويحلم : مع عودة الحياة اليه استيقظ فى نفسه حب النفس

المختفى فى اعماقه ، والذى ينكره مبدئيا . وفى هذا العالم نصف الخيالى كان يبدو وكانه يجمع ذكرياته ، اطيبها وابراها واحبها – تلك التى يفقدها الانسان فى طريق حياته ، وبلا عودة فى الغالب . وقد اقبل حب النفس عليه ، مع اقبال العافية . فكان يأكل بشهية ، ويتمدد بقوة خفية عن الممرضة .

ذات مرة ، بعد أن نام نومة مريحة ، واكل عصيدة القمح اراح راسه جيدا على الوسادة ، وقال فجأة بصوت عال :

– يامرضة ، هل من الممكن أن نتحادث قليلا عن اشياء صغيرة ؟

انحنت الممرضة عليه بسرعة ، وهمست مذعورة ، وضمت شفتيه براحتها :

– شش ! شش !

وحين رفعت يدها عاد يقول بوقاحة هذه المرة :

– اذن ، قصى علىّ شيئا ما . . . . ان لك يدا لطيفة صغيرة . كم عمرك ؟ ما اسمك ؟

ارسلت بضع زفرات قصيرة ما بين النشيج والغصة . . . يالغرابتها . . . وكان هو يريد ان يقول لها : «استيقظت . . . وفجاة عنّ لى . . . اذا كان الانسان لا يحب نفسه ، فانه لا يقدر ان يحب احدا . . . فما نفعه بعد ذلك ؟ فمثلا ان السفهاء والاوغاد لا يحبون انفسهم . . . انهم ينامون نوما سيئا ، وكل جسمهم يهرشهم ، مرة يختنقون بالغيظ ، ومرة يلتهبون من الرعب . . . يجب ان يحب الانسان نفسه ، وأن يحب فى نفسه ما يمكن ان يحبه الآخر فيه . . . لاسيما المراة ، امرأته . . .» .

الا ان ايفان ايليتش لم يقل شيئا من هذا . وخرجت الممرضة من الغرفة ، وبعد قليل عادت مع الطبيب عدو المهيجات الخارجية ، الذى صار يطنطن بأوقح طريقة :

– اراك تبدى وقاحة ، ايها الرجل ؟ لا يجوز . . . اسمح لك بقليل من الكلمات الضرورية للغاية . . . يجب ان ارسلك الى الفوج فى احسن شكل . . . وواجبك ، يا حلو ، أن تصبح انسانا صحيحا فى اسرع وقت ممكن . . اعطيه منوما ، يا ممرضة . . .

قال كوزما كوزميتش :

– قف ، يا صاحبي ، ودعني انزل هنا . وسادخل الى القرية ماشيا .

– ولماذا ماشيا ؟

– لا تعلمني . سادخل اليها كالحاج . هل فهمت ؟

– انت وشانك ...

واوقف لاتوغين حصان المدفعية المخصي الممتلىء ، على الطريق المتآكلة بالقرب من سدة عليهـــا اشجار صفصاف معوجة بدأت اوراقها تتساقط . كانت قرية سباسكويه على الجانب الآخر من بركة مسطحة . وكانت مستودعاتها باكوام الدريس الطرى تقترب من الشاطئ . وكان الدخان يتصاعد من المداخن متلويا فوق سطوح القصب التى تكلل على البيوت الصلصالية واطئة باعثة للدفء .

قال لاتوغين :

– القرية كلها تقطر الخمر .

وارسل زفرة عميقة ، واخذ ينظر الى الوزات التى كانت تسير على السدة ممتلئة بيضاء مهيبة . لاحظ ذكر الوز فى المقدمة عربة واقفة وفيها رجلان فتوقف ممتعضا ، وتوقفت وراءه زهاء خمسين وزة . وزوزت الوزات فيما بينها تتشاور ، وتهادت منحدرة على بطونها على منحدر السدة الى الماء ، وعامت فيه ، وكأنما تدفعها نسمة خفيفة على الماء المضبب الى السبخة .

قال لاتوغين :

– كل وزة تزن خمسة عشر رطلا ، البهيمة ما اشهى ان تسلق ، يا امى العزيزة !

قال كوزما كوزميتش :

– اذهب ، يا صاحبي – ومد له يده على عجل – وقل للمفوض يجب ان ابقى فى القرية لألقى نظرة ولأرى ما يجرى هنا . وبعد اسبوع تعالوا مع فصيلة التموين . ستكون كل الامور على ما يرام .

– ستغرق فى الخمرة هنا ، يا كوزما .

– انا ، يا اخ ، لا ارفعهـــا الى فمى . والآن ، استدر ، استدر . والا فسيرانا الناس ...

ادار لاتوغين العربة ، وضرب الحصان العريض الكفل بعسلوج غاضبا ، فركضت العربة به دون ان يلتفت . اما كوزما كوزميتش فقد سار على السدة الى القرية . كان يرتدى معطفا مخضرا من القدم ، قص فى وقتها من مسوح قس وقد تحزم عليها بمنديل من القطن ، وحمل وراء ظهره كيسا من الخيش من النوع الذى يحمله الجنود الحمر ، ووضع على راسه قبعة جندى عالية يعود تاريخهـــا الى زمن الحرب الامبريالية المنحوسة . وباختصار ، كان مظهره مناسبا .

الريف موحش فى اواخر الخريف . فان اشجار الكرز والتفاح قد القت اوراقها ، فهى الآن مطروحة مبللة من جمد الليل على رقع الارض التى اقتلعت منها الخضروات . اما عباد الشمس الذى يغرى الشمس لتنعكس على نوافذ البيوت الصغيرة فلم تبق منه غير سيقان متعفنة . والوحل منتشر فى كل مكان حتى عتبات البيوت . وصفاقات النوافذ الناصلة الالوان تصرف وتصطفق من الريح المثلجة ، ولا احد يريد ان ينظر من النافذة ، فان كل ما يستطيع ان يراه هو غراب يحط على السياج منتظرا بوعى ان تقذف ربة البيت فى الفناء شيئا يؤكل .

«يعيشون فى سبـــات ، يدمدمون ويهرشون . والعواطف نائمة ، والرغبات خارج الخيال ... ولكن كل انسان مخلوق على صورة وشبه ارسططاليس او بوشكين . ان لكم عيونا ايضا يمكن ان تروا بها عجائب الارض التى لا يمل منها ... ولكل واحد منكم راس بين كتفيه وهو اعجب العجائب ... (وهنا هز كوزمـــا كوزميتش قبعته العالية على راسه) اذا قارنته بالكون ، فان هذا الراس لا شىء بالنسبة له اطلاقا . الا ان الكون كله ، من الناحية الاخرى ، موجود فى هذا الراس . فانه ، اى الراس ، ينفذ الى الاسرار الغريبة عن رب الانجيل .. ولهذا فما الحاجة الى ان ينظر الانسان من الشباك الى غراب ؟» .

سار كوزما كوزميتش يفكر بمثل هذه الافكار متمطقا من التلذذ ، مارا بالاسيجة الواطئة والبيوت التى تثقل عليها سطوح القصب حتى التقته فتاة ترتدى حذاء طويلا ومعطفا قصيرا من فراء الاغنام ، وتحمـــل دلويين مملوءتين وازنتهمـــا على كتفهـــا

بمرفاع من الخشب . كانت عريضة الاكتاف رصينة غير ودود .

– اسمك ناديجدا ؟ ام انا مخطئ ؟ مرحبا .

توقفت الفتاة ، وادارت اليه ببطء وجهها العريض .

– نعم ، ناديجدا . ولكن من أين تعرف ؟

– اقرأ ما فى القلب .

– لا تقرأ مثل هذه الاشياء عندنا . سر فى طريقك .

قال كوزما كوزميتش :

– مادمت قد طردتنى فانا عائد الى السهب أعد حدبات القبور . ياله من طريق طويل لاسيما حين يسير المرء وحيدا . اوه ، يا الهى ، ما اطوله ! . .

ارتجفت شفتا الفتاة . ومشت منصرفة ، الا أنها توقفت ثانية ونظرت بريبة الى وجه هذا الرجل الباسم الماكر جدا . وبسط كوزما كوزميتش ذراعيه امامها :

– اذا رغبت فى النوم نمت على كومة قش ، واذا جعت سرقت شيئا ما . . . وليس هذا ما اريده ، يا فتاتى الحلوة . . . الانبياء ساروا حفاة على الاحجار الحادة ، وظلوا يبشرون برسالاتهم . . . والقديسون وقفوا على الاعمدة ، واقتاتوا على الجراد . . وهل تعرفين ما هو الجراد ؟ جنادب . . . ولأى شىء تعذبوا ؟ اجيبينى . . . اراك تفكرين . . . (تقدم منها ، ومط شفتيه) لقد احبوا الانسان . . . كل انسان هو معجزة . أما أنت ، يا ناديجدا ، فمعجزة مزدوجة . . . أنا ارى انكم قد درستم القمح ، وقطرتم الخمرة ، وافنية بيوتكم تفوح منها رائحة لحم الخنزير المشوى . . . عندكم من كل شىء ما يكفى . . . ولكن لا فرح عندكم . . . لا ضوء عندكم . . .

سألت الفتاة ناظرة حولها وقد تراخت :

– ألعلك تبيع الكيروسين ؟

– أنا لا ابيع شيئا ، ولا اطلب صدقة . جئت لأمرح عندكم واجعلكم تمرحون .

صمتت الفتاة برهة ، وعادت تنظر اليه بعينيها الطويلتين الرماديتين كالسحابة . انحنت لتضع الدلوين على الأرض ، ووضعت المرفاع عليهما .

– الغم قائم عندنا فى القرية ، ولا احد يستطيع ان يدخل المرح عليها . . باى شىء تريد ان تدخل المرح ؟

– حين اقول فمعني ذلك ان لى وسيلة . . انا قس مجرد من مسوحه . . .

فغرت الفتاة فمها ، وكان فما غضا له اسنان بيضاء منتظمة ، حتى ان كوزما كوزميتش راوح فى مكانه بهجة . وانجلى الجفاء من على وجهها وكانما اطارته هبة ريح .

ندت منها آه التعجب ، ووضعت يديها تحت نهديها اللذين انفرج عنهما المعطف الفرائى . ثم أهت ثانية ، واهتز ردفاها :

– اذن ، تعال الى البيت . . . سيتحدث ابى معك قليلا .

قال كوزما كوزميتش :

– لا ، لا اذهب . . . تعالوا انتم الىّ . . . هكذا ، يا سوداء الحاجبين . . .

وغمز ، وهزّ كتفيه بمرح ، وسار فى الشارع باحثا بعينيه عن أفقر بيت .

حل اليوم الذى رفعت فيه الضمادة عن عينى ايفان ايليتش . وقد جرى ذلك عند هبوط الظلام . وكانت الممرضة تهمس للدكتور مذعورة وراء الباب . . . فكرر الطبيب : «سخافة . . الرجل ليس نباتا ضعيفا . افعلى ما قلت لك . . .» واستدارت الممرضة نحو السرير ، وانحنت حتى ان شعرها الناعم مس انف ايفان ايليتش ، ورفعت الضمادة ، ولأول مرة سمع بدلا من الخشخشة والهمس صوتها ضعيفا متقطعا .

– استلق هادئا ، ارجوك ، وتعود على الضوء .

وفتح عينيه بشىء من الخوف بعد فترة طويلة قضاها فى ظلام . كان كل شىء مغبشا . وكان ضوء شاحب ينفذ الى الغرفة . وكانت البطانية التى تغطى النافذة قد سحبت من احد طرفيها . وكانت الممرضة تجلس الى طاولة صغيرة عند نهاية السرير – لم يستطع ان يتبين وجهها – فقد كانت تنحنى بانخفاض ، وتفعل شيئا بضمادة من الشاش .

ظل ايفان ايليتش على استلقاءته يبتسم . فوق راسه سقف منحدر ، ولا بد ان يكون هناك سلم مؤد الى العلية ، اما هذا فهو شباك ذو زجاج محبب . ولا افضل من هذا المكان . . . وفى الحال طافت فى ذهنه ذكرى مكان آخر ، وكان احدا أزال جلدة غضة عن جرح ، مكانا داخنا راعدا متفجرا ، حيث وقع امامه انفجار خاطف مصفر اللون . . . وأبعد ايفان ايليتش هذه الذكرى عنه قائلا لنفسه : «لا حاجة اليها ، لا اريد» وقد كادت تسحق دماغه . . . وعاد يسمع تكتكة الساعة من جديد مقطعة فترات متساوية من الحياة بلطف وبلا الم . . .

نادى ايفان ايليتش :

— ايتها الممرضة . . انا لا اراك بشكل جيد .

هزت راسها ، وتدحرجت اللفافة من على ركبتيها ، وانفلتت ، فعادت تلفها من جديد . كانت حركاتها خفيفة ، فلا بد أنها ما تزال فى ريعان الشباب . . . ومحنكة ايضا ! ومهما جاهد ايفان ايليتش ان يتفرس فيها تكاثفت طبقـات الظلام ، والآن لا يتميز وبشكل مبهم غير مريولها من القماش الخشن ، ومنديلها الذى يغطى كتفيها مثل منديل ابى الهول .

وفكر ايفان ايليتش مع نفسه :

«مفهوم ، مفهوم . . . لا بد ان المسكينـــة مجدرة الوجه او قبيحة بشكل كبير . . انها بالطبع تشعر باننى ممتن لها — وتنهد ايفان ايليتش — ما اكثر اولاء من الرقيقات والوفيات ، الصديقات فى الحياة والموت . . . وهى ذكية ايضا ، على مـــا يبدو . . فان جميع غير الجميلات ذكيات . . . واياهن يجب ان يتزوج الرجال واياهن يحبون . . . بينما الرجل يبذل كل شىء فى سبيل ان يكون على وسادته وجه وسيم لامراة لها رموش الدمى تهمس له بكل صنوف السخافة والوضاعة . . . اما داشا فشىء آخر ، لم احبها من اجل جمالها . . . — واغمض ايفان ايليتش عينيه ، ووضع قبضته تحت خده — هذا كذب . لقد احببتها ، يا رجل ، من اجل جمالهـا الاخاذ . . . وهذا ما لم ترده هى . . .» .

نهضت الممرضة دون أن تحدث حركة ، وهى تظن انه نائم ، وخرجت وظلت غائبة وقتا طويلا . ثم صرف الباب صريفا لا يكاد

يسمع . ولاح ضوء اصفر كامد . فتح ايفان ايليتش جفنيه قليلا دون ان يبدى حركة . ورأى داشـــــا تدخل فى مريول ابيض وبمنديلها . كانت تحمل مصباحا صغيرا من التنك ، حاجبة ناره بكفها الوردية الشفافة . ولم يندهش ايفان ايليتش من رؤيـــة داشا . سوى انه لم يصدق بأن هذه هى داشا .

وضعت داشا المصباح على الطاولـــة ، وخفضت الذبالة . وجلست واخذت تنظر الى ايفان ايليتش . كان وجهها نحيلا مثل وجه فتاة اصيبت بالتيفوئيد . ولاحت غضنـــة فى طرف فمها المنتفخ قليلا . كان ضوء المصباح لا يظهر غير خدها وعين واحدة وادعة وسيعة انعكست نقطة ضوء المصباح على حدقتها . كانت تبدو وكانها قد عزمت على ان تجلس طويلا ، وقد اسندت مرفقها على ركبتها ، وانزلت حنكها على جمع يدها الصغيرة المضمومة . ان داشا وحدها كانت تستطيع ان تجلس هذه الجلسة .

. . . فى ذلك المساء فى بطرسبورغ ، عندمـــا جاءت الى «المجمع المركزى لمكافحة العرف» الذى كانت شقــة تليغين مقرا له ، يوم أن رآها لأول مرة بدت له رائعة كالربيع . كانت وجنتاها تتوهجان ، وكان الدفء يشع منها وهى فى ثوبها مـــن القماش الاسود السميك . وقد ملأ عطر رقيق الغرفة التى كان الشعراء المشتركون فى «التدنيسات العظيمة» يجلسون فيها على الالواح التى مدت على كتل خشبية . انزلت داشا حنكها على جمع يدهـــا متسمعة الى قصائد متحذلقة ، ماسة بطرف خنصرها شفتيهـــا النزقتين المنتفختين قليلا . . . وفيما بعد نقل ايفان ايليتش الى غرفته المقعد التى جلست عليه . . .

كل ذلك شعّ فى ذاكرته بين خفقتين من قلبه . وكان يدق فى صدره دقات متعالية مثل حارس يطرق الباب فى منتصف الليل : استيقظ ! الا ان هذه المرأة الجالسة على مقعد عند قدمى السرير لا يمكن ان تكون داشا . وكان يرمقها بنهم من خلال شقى جفنيه دون ان يتحرك . . . لا بد أنها لاحظت ذلك فقد دفعت جسمها كله الى الامام . . .

ناداها : يا ممرضة ، يا ممرضة !

ورفع جسمه فاتحا عينيه على سعهما . . . اندفعت داشـــا نحوه بصيحة مذعورة خافتة سعيدة . . . امسكها من كتفيها ، ومن ظهرها ، وكانما يخشى أن يغيب الطيف عنه . . . انها داشـــا حقا : نحيلة هشة حية ! ضغط وجهها عليه ، واحس بارتجاف شفتيها ، واهتزاز جسدها كله . . . امسك رأسها ، وابعده عنه لينظر فى وجهها الحبيب الجديد ابدا ، الجميل ابدا بشكل غير متوقع . وراحت هى تكرر وعيناها مغمضتان :

— أنا معك ، كل شيء بخير ، كل شيء بخير . . .

اخذ يقبلها من فمها ، ومن طرفى فمها حيث رسمت عليه المعاناة خطين صغيرين ، ومن عينيها . همست له :

— والآن اهدأ ، اهدأ ، يا عزيزى ايفان . لن افترق عنك . معك الى الابد ، الى الابد . . .

ما ان حل المساء حتى كانت القرية كلها تعرف أن فى بيت الارملة الفقيرة انا تريخجيلنيا يجلس الرجل الذى لحق ناديجدا فلاسوفا فى الشارع ، وقال لها : «جئت لأجعلكم تمرحون . أنا قس من جانب الحمر . . .» وصدقت بذلك جميع النساء ، المسنات ان فى بيت الارملة الفقيرة انا تريخجيلنيا يجلس الرجل الذى لحق ناديجدا فلاسوفا فى الشارع ، وقال لها : «جئت لأجعلكم تمرحون . أنا قس من جانب الحمر . . .» وصدقت بذلك جميـــع النساء ، المسنات منهن والشابات . وقد شعرت ناديجدا بوجع فى لسانهـا من كثر ما رددت كيف انها كانت تحمل ولوين ، وأن قلبها اعلمها ، واذا به يناديها باسمها : «ناديجدا !» (كانت المصغيات يقاطعنها قائلات : «ياالهـى ، من اين عرف اسمك ؟») «هذا مـــا يسمى بقراءة ما فى القلب . . .» كما ان وجهه روسى ، احمر وكان كـــل جلده قد سلخ ، وشعره يصل الى كتفيه ، وعليه ملابس رثة ، ولكنه لم يكن يبدو جائعا ، بل مرحا كل كلامه احازير . . .

وضحك الرجال ، وهم يسمعون ثرثرة النساء : «دعونا نامـل بالا يحرق هذا العارف بقراءة ما فى القلب القرية من جهاتها الاربع . . . لو كان قسا من صحيح لأتجـه الى اغنى بيت فى القرية . . . والا

فحتى الصراصير لا تجد مـــا تاكله عند تريخجيلنيا . . . لا ، يـــا نسوة ، يجب ان يؤخذ الى سوفييت القريـــة ، وليظهر هوياتـــه هناك . . . فقد يكون جاسوسا من قطاع الطرق ؟ هكذا . . .»

عندئذ قالت زوجة لزوجها «كفاك تحريك لســـان ، الناس يضحكون منك» فايدتها النســـاء الاخريات بالاجماع . وصاحت الزوجة وعيناها تلمعان جسارة «قبل الثورة كنا نطيعكم ، ولم نـر خيرا كثيرا من اوامركم . ان عقولنا ليست اقل ذكاء من عقولكم ، — ونفهم اكثر منكم . . . ثم خاطبت النساء قائلة : يـا عزيزاتى ، انظرن الى ابنتى ناديكا ، ان صدرها يكاد يشق بلوزتها . . . وهى تنظر فى المرآة ، وتقول لى : لماذا يضيع عمرى هدرا ؟ فهـل اقول لها : انتظرى الى عيد الحجاب المقدس المقبل ؟ فاقول لزوجى مجددا : لماذا لا يريد ان ياتى الى بيتك لياكل لحم الخنزير ؟ وهل كان المسيح ياتى الاغنياء فقط ؟ انه ذهب الى بيت آنا الفقيرة ، لأنه قس احمر ، ولا حاجة به الى لحم خنزيرك ، وهو يفكر بحظنا التعيس» .

اكتفى الرجل بهز ذراعه ، وانصرف . وفى المساء احتشدت النساء قرب بيت آنا ، واوفدن اليه موفدات . وقبل أن تدخـل الموفدات الى البيت عرفن من فتاة صغيرة ، هى جارة آنا ، أن آنا تريخجيلنيا سخنت اليوم حمامها منذ الصباح (وهو مبنى صغير متداع وراء البيوت على ساحل البحيرة) وأن القس استحم هناك ، وانها اعطت له قميصا نظيفا كان لزوجها المتوفى ، وأن القس الآن يستعد ، بعد الحمام ، لشرب «القصعين» مع آنا (وكان اهـل القرية يشربون هذا الشراب بدلا من الشاى) .

كـــان القس يجلس على المصطبة مرتديـــا قميصـا ازرق ناحلا ، وقد وضع يديه على الطاولة . ولم تكذب ناديجدا ، فقـد كان وجهه احمر يمكن ان يثير الخوف ، وقد اطبق شفتيـــه بطلاوة ، كالدب . وكانت الارملة تغلى البيض على نار من اعواد ، وكان لهب ازرق يطن خارجا من مدخنة سماور بالية مثقبة .

دخلت الموفدات الثلاث البيت ، وسلمـــن بانحناءة ، وجلسن على المصطبة اقرب الى الباب . ولم يقلن شيئا ، الا ان عيونهن لاحظت كل شيء .

وفجأة سأل كوزما كوزميتش بصوت عال :

– قلن : ماذا وراءكن ؟

وتقلبت عيـــون الموفدات . واجابت احداهن ، وهى ام ناديجدا ، بصوت معسول :

– يقولون ان العادات قد الغيت ؟ بينما نحن معها ، يا ابانا . الزفاف يحدث مرة واحدة ، بينما الحياة طويلة . اليس كذلك ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

– كلما طالت الحياة كثر خيرها خيرا . فماذا خبركن ؟

– ولكن لا تخف عنا . فنحن سوفييتيات . انتخبنا سوفييت القرية ، وصوتنا الى جانب السلطة السوفييتية . واغلقنا الكنيسة بالختم ، وقدمنا القس الى «اللجنة الاستثنائية» المحلية لحيازته رشاشة .

قال كوزما كوزميتش :

– اها ! ان ذلك القس كان ذا خطر .

– ولو تعرف كيف كان يهددنا ، فيقـــول : «يا اعداء المسيح ، سارمى اجتماعكم برصاصة رشاشة «مكسيم» مـــن النافذة . . .» على هذا النحو كان يخيفنا . كانت فتياتنا العرائس يصوتن ، بالطبع ، مع الجميع ، ولكن حين اقترب عيـــد الحجاب المقدس أردن ان يعقد قرانهن فى الكنيسة . وقد عاندن ، واجمعن امرهن . وانت تعرف ان الفتيات اذا اجتمعن على أمر فلن تستطيع ان تنتزع واحدة منهن . . فقل لنا الآن : «ما العمل ؟ سمعنا أنهم نزعوا مسوحك ، اهذا صحيح ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

– مؤكد .

– وما السبب ؟

– بسبب من حرية رايى . فانا فى نزاع مع الرب .

وتبادلت الموفدات نظرات هلعة . وهمست ام ناديجدا فى اذن واحدة ثم الاخرى ، فهمست هاتان لها ايضا . فقالت بصوت اكثر جسارة :

– اذن ، سيكون القران باطلا ؟

– ولماذا ، اذا كانت الفتيات راغبـــات . . . ساعقـــد قرانهن واسجلهن فى سجل الزواج . عنـــد ذاك حتى المجلس

المسكونى لن يستطيع فسخ القران . وساضع التاج فوق راس العروس ، وكانها ملكـــة الدينارى ، واطوف بالعروسين حول المقرا ، واسالهما الاسئلة المطلوبة ، واقول الاشياء التى تقال فى مثل هذه المناسبة ، وسنعقد الفرح بلا معصية ولا نقيصة . . فماذا تردن بعد ؟

قالت احدى الموفدات :

– وصغارنا ايضا لم يتعمدوا حتى الآن ، وليس لهم يوم قديس يتبركون به .

– كم عددهم ؟

– كثير . يمكن ان نعدهم .

– وهل هم لا يرضعون جيدا ، لأنهم بلا تعميد ؟

وتبادلت الموفدات النظرات ثانية ، وهززن اكتافهـــن . وضعت الارملة المقلاة على الطاولة ، ولدى عودتها الى الموقد نظرت بحزن الى كوزما كوزميتش ، وهو يغرف البيض بالملعقة ، وياكل بتلذذ مغمضا عينيه باستمتاع .

سالت موفدة اخرى :

– وهل سيكون التعميد معترفا به ؟

– تمام الاعتراف ، كما فى عهد الامير فلاديمير .

– وكيف ستعمل وانت بلا شماس ولا مرتلين ؟

– وما حاجتى اليهم ؟ ساقوم بالأمر وحدى باصوات مختلفة .

عندئذ تقدمت منه ام ناديجدا ، وجلست بالقرب منـــه ، وسالت وهى تدق الطاولة بحد كفها :

– وهل ستاخذ فلوسا كثيرة ؟

وتاخر كوزما كوزميتش فى الجواب . حتى ان المراة تثاقلت انفاسها ، واخذت يداها ترتعشان . ومدت الموفدتان الاخريـــان عنقيهما ، وهما جالستان عند الباب .

– لن آخذ منكن فلسا واحدا . انا لم آت الى هنا مـــن اجل ذلك . ادفعـــوا فقط لكاتب سوفييت القرية لقـــاء كتابـــة الوثائق .

وبدا اقتراح هذا الرجل مغريا من جميع النواحى . ولكن الشىء الرهيب ايضا أنه قد يكون زائفا . . . قبل شهر ونصف ،

عندما كانت القرية ما تزال تحت حكم الاتمان ماموتتوف حدث ايضا أن جاء رجل يتنقل خفيف على قدمين حافيتين ، وقد نمت لحيته حتى عينيه . واتجه الى بيت كان يستريح بالقرب منه الناس عند الغسق ، ووقف حتى الفه الناس ، ثم جلس بالقرب من العم العجوز اكيم . وظن انهم سيقدمون له لفافة تبغ ، الا ان احدا لم يفعل ذلك . عندئذ وضع رجلا على رجل وسر فى اذن اكيم : «الا تعرفنى ، ايها الجندى القديم ؟» فاجابه «لا ، ابدا» فهمس له بصوت اخفت «اعلم اذن ، اننى الامبراطور نيقولا الثانى ، ولست انا الذى اعدموه فى يكاترينبورغ ، بل شخصا آخر . وها انا اسير فى الارض خفية حتى يحين الوقت الذى اكشف فيه عن نفسى . . .» وكان العم اكيم ثقيل السمع ، فلم يسمع كل شىء ، فكان عليه أن يرفع صوته . والناس ليسوا بلها . فقد جروا هذا الامبراطور فى الحال الى السدة ليغرقوه فى البحيرة . الا ان الذى انقذ حياته هو انه راح يصرخ : «ما هذا ، يا اخوان ؟ كنت امزح . . .»

قالت ام ناديجدا :

— لا يبدو انك من المهوسين بالرب . ثم انهم ، ليسوا موجودين الآن — وفكت معطفها لأنها شعرت بالحرارة — فلماذا لا تاخذ فلوسا ؟ ماذا فى فكرك ؟ وكيف يصدق الانسان بك ؟

— انا احب الملح . اعطونى قبضة فى كل بيت اعقد قرانا له او اعمد له طفلا — ووضع كوزما كوزميتش الملعقة ، والتفت الى الارملة قائلا — قدمى السماور ! ها انتن ترين — واشار للموفدات الى آنا النحيلة بوجهها الداكن المرتخى وصدرها المسطح وتنورتها المرقعة المعكوفة — انها صدقت بى ، وستذهب معى الى اى مكان . اما انتن ، الشبعات ، الناعمات ، فدائما تبحثن عن موضع السفالة فى الانسان ، وترين فيه محتالا . انتن كولاك ، وانا اشعر بالضيق معكن . واذا تملكنى الغضب ، فسارحل عند الفجر بحثا عن الحظ فى مكان آخر . . .

ووضعت آنا السماور على الطاولة ، ورات الموفدات انها تبتسم ، وكانت السعادة تغمر وجهها المجدر المنهوك من الغم والدميم . القت ام ناديجدا نظرة خاطفة عليها كنظرة الصقر ، ومدت يدها الخشنة الى كوزما كوزميتش :

— مقبول ! لا تغضب ، ولا حاجة بك الى الذهاب بعيدا . فانت ستجد كل شىء هنا .

فى الصباح صعد كوزما كوزميتش الى برج الجرس وقرع الجرس الكبير ، فاندلع الرنين النحاسى فى القرية وهرع الشيوخ والعجائز الى النوافذ للتطلع . ثم قرع قرعة ثانية وثالثة ، وامسك الحبال المشدودة بالاجراس النحاسية الصغيرة ، واخذ يدق دقات صغيرة متسارعة ، ثم قرعة عالية من الجرس الكبير . وقبل ان تستطيع اطراف الاصابع ان تصل الى الجبهة لترسم علامة الصليب كان الناس يسمعون دقة أخرى ، وكان القس المجرد من مسوحه يعزف لحنا راقصا .

خرج بعض اهالى القرية المحترمين الى خارج بيوتهم ينظرون الى برج الجرس بدون رضا . . .

— القس يعبث . . .

— يجدر ان يجر من هناك من شعره ، ويُصرف . . .

— يصرف ! . . انه هو الذى سيصرفك . . .

— ومع ذلك فان قرعه كان موزونا . . . دعوه يدخل المسرة الى الناس لخاطر الفتيات ، لخاطر النساء . . .

وتهيا اهل القرية كلها — المدعون منهم وغير المدعوين — الى اقامة الافراح . كان النهار مضببا ، والجمد على الارض ، وفى الجو رائحة خبز طازج ولحم خنزير مشوى . وبدات فى فناء احد البيوت حركة غير اعتيادية ، واصوات طيور داجنة ، وتطاير الدجاج والوز من خلال الابواب الخارجية . . . فى بيت كان العريس حليقا مرتديا حلته منزويا على المصطبة فى ركن الايقونة لم ياكل ولم يدخن . وفى بيت آخر كانت العروس تزين . وكانت العجائز اللواتى شعرن بانهن ضروريات فى مثل هذه الامور قد علمنها ان تنتحب بطريقة مستحبة :

ليس هذا صوت وزة توز على الشاطىء ،
بل نحيب فتاة حسناء فى حجرتها .

وكانت الجدة تندب بصوت شائخ فتنضم اليهاالاخرى ملقية خدها المتغضن على راحتها بتفجع :

وداعا ، وداعا ، ياشمس الحسناء .
ان ابى الذى اعانى
ووالدتى التى انجبتنى
زوجاتى ، وباعاتى .
باعاتى ، باعاتى
الى طرف ناء غريب . . .

ولكن لم ترد اية عروسة ان تنتحب ، بل كان ذلك يحزنها .

— فى زمانكم ، ياجدتى ، كانوا يرسلونكم الى طرف غريب ، أما نحن فطرف واحد : سوفييتى .

وكانت روائح الطهى وخبز الفطائر تنبعث من كل مكان . وكانت النساء يتراكضن حاملات الدلاء والمكانس . وكان الخطابون يتنقلون من بيت الى بيت ، ورائحة الخمر تفوح منهم قوية واجتمعت الشبيبة فى فناء الكنيسة ، وعزف عازفان على اكورديون . . .

فى ذلك الحين جاء رئيس سوفييت القرية ستيبان بيتروفيتش نديوشكاشى قادما من البريد ، وهو من عجزة الحرب وحائز على وسام صليب القديس غيورغى اربع مرات . لم يعر التفاتا الى رنين الاجراس ، وكأنه لا يسمعها ، وفتح باب سوفييت القرية ، ودخل ، وبعد قليل من الوقت خرج الى مقدمة البيت يحمل مطرقة وورقة ودق الورقة على الباب باربعة مسامير ، واخرج من جيبه ختما ملفوفا فى قصاصة جريدة ، وزفر فيه ، ودمغ به على امضائه . وكان مكتوبا فى الورقة :

«يا مواطنى قرية سباسكويه ، بمناسبة قيام الثورة فى المانيا تقرر عقد اجتماع عام فى الساعة الحادية عشرة من هذا اليوم» .

وتوافد الناس على سوفييت القرية . ولما رأى كوزما كوزميتش من فوق برج الجرس ان ساحة الكنيسة قد خلت كف عن قرع اجراسه ، ونزل من البرج . وقال شيخ الكنيسة ، وهو والد ناديجدا ، وكان فى قفطان ازرق ذى شرائب ، قال صفق غطاء صندوق الشموع فى اسى :

— ان ابن الكلبة ستيبان نديوشكاشى هذا ظل يلاحقنى

اسبوعا كاملا فى العام الماضى يطلب منى مائتى روبل ليسقف بيته بالالواح . وها هو الشيطان ذو الرجل الواحدة ينتقم ! خرب الزفاف .

— ماذا جرى ؟

— حدثت ثورة اخرى فى مكان ما ، فى المانيا كما يبدو . وقد حشد الناس لاجتماع عام . انه لا يستطيع ان يصبر بلا سياسة ! اى احمق هو ، يا آلهى !

كان ستيبان بتروفيتش يخطب فى الناس من على مقدمة سوفييت القرية ، وهو يهز الهواء بقبضتيه ويدق الواح الارضية بقدمه الخشبية . كان وجهه مشدودا ، وفمه فاغرا ، وشارباه خشنين . قال عندما شق كوزما كوزميتش طريقه فى الزحام ليكون اقرب الى الخطيب :

— ان الوضع الدولى يتطور لصالح السلطة السوفييتية . والالمان يمدون لنا يدهم البروليتارية . وذلك عون كبير لثورتنا ، ايها الرفاق . لقد التقيت بالمان ، وكنت فى المانيا . واستطيع ان اقول لكم شيئا واحدا ، هو ان الالمان يعيشون فى تقتير ، ولكل قطعة خبز حسابها . ولكنهم يعيشون احسن منا . ويجب التفكير فى هذه الحقيقة ، يا رفاق . ان قرية المانية مثل قريتنا مزودة بانابيب لمياه الشرب ، واقنية لنقل السماد الى حدائق الخضروات ، وتلفون ، وانابيب غاز تصل الى كل شقة ، وصالون حلاقة ، ومشرب للبيرة فيه منضدة بليارد . اما المدارس فلا حاجة الى الحديث عنها ، كما لا حاجة الى الحديث عن انعدام الامية . . . وتوجد فى كل بيت دراجة ، وغرامفون . . .

سرى طنين فى الحشد ، وصفق احد ، فتبعه الجميع مصفقين .

— ان ساقى قد قطعتها قنبلة المانية فى بروسيا الشرقية . الا أننى ، فى اللحظة الراهنة ، ارتفع فوق اعتباراتى الشخصية . . .

صرخ صوت عال فتى :

— تكلم اوضح !

— أنا لا الوم الشعب الالمانى على فقدى لساقى ، بل الوم الامبريالية العالمية . . . وهى التى يجب ان تقطع رقبتها بكل

تصميم ... ونحن ، الروس ، قد عرفنا ذلك من قبل ، ولكن الالمان قد فهموه اخيرا . اننا فى هذا الاجتماع ، ايها الرفاق ، نهتف لكلا الشعبين : عاشت الثورة العالمية . . .

هتف صوت شاب : هورا !

وصفق المجتمعون مجددا .

– لأنتقل الى الشؤون المحلية ... فى مدرستنا يتسرب الماء من السقف كما يتسرب من منخل . وقد اتخذ قرار بشأن ذلك . وانا اتساءل : هل جمعت الفلوس ، واشتريت الالواح ؟ لا . بينما لديكم الفلوس لتنفقوها على الافراح ، ولديكم فلوس للقس . ورنين الاجراس يزعج الناس فى دائرة سعتها عشرة فراسخ . . . الأجل هذه الوقائع يمد الالمان لنا يدهم البروليتارية ؟ اقترح اتخاذ قرار تمنع بموجبه اقامة الافراح ودق الاجراس الا بعد ان تجمع النقود لاصلاح المدرسة ، واجرة عمل المدرسة ، واثمان الدفاتر والاقلام ، وتغطية مبلغ اجمالى هو اربعة آلاف وتسعمائة وسبعة روبلات وسبعة كوبيكات .

وترك خطاب الرئيس أثره ، واخجل الناس ، وهذا هو الاهم . وخطب بعده عدة خطباء كرر جميعهم كلماته ، ولم يضيفوا اليها سوى أنه ما دامت الاستعدادات للافراح قد بدأت فلا داعى لتضييع الوقت ، ويجب جمع النقود على الفور ، ولكن ليس على اساس اسهام الجميع ، بل على ان تدفعها تلك العوائل الست عشرة الغنية التى تقيم الافراح . واتخذ الاجتماع العام قرارا بذلك .

ولما علمت العرائس بالقرار أثرن صراخا شديدا ، ووجهن الى آبائهن وامهاتن كلمات حادة جعلت الآباء يعدون الفلوس ويحملونها الى سوفييت القرية . قدمِ ستيبان بيتروفيتش وصولات بها ، ولم يقل الا «سيروا فى طريقكم» .

وكاد المساء يحل حين ساروا بالعرائس الى الكنيسة . وتعجب الناس مما طلعن به من فاخر الثياب : معاطف لها ياقات فرائية ، وبراقع مؤطرة بالفضة والذهب ، واحذية عالية الكعوب بدت فيها العرائس وكانهن يسرن على اطراف اصابعهن . وحين

خلعن عنهن معاطفهن عند مدخل الكنيسة كشفن عن حلل نفيسة واثواب نادرة المنال مختلفة الالوان ، ضيقة من الخلف حتى لتكاد تنشق ، وعريضة فى الاسفل كالباقة ، والاعناق عارية . أما ناديجدا فلاسوفا فقد كانت يداها ايضا عاريتين حتى الابطين .

«انظروا ، انظروا ، أمن المعقول أنها اولغا غولوخفاستوفا ؟» «انظروا الى ستشكا ، كيف هى !» ، «من اين لهم هذا ؟» ، «معروف . ذهبت هى وابوها الى نوفوتشركاسك خمس مرات فى عربة يجرها ثور ناقلة معها الطحين ودهن الخنزير .. وبادلتها مع سيدات نوفوتشركاسك ...» .

وقال بعض العارفين :

«لقد شاهدت حفلات راقصة عند حاكم الولاية . . ولكن اين هذه من تلك ! . .»

«حفلات راقصة . . . فى نوفوتشيركاسك احتفل بمرور ثلثمائة سنة على آل رومانوف ، وأجتمعت سيدات المجتمع فى الكاتدرائية . نزلن من العربات ، وسرن على الابسطة ، ولكن لا تقارنهن بهؤلاء . . . .» .

خرج كوزما كوزميتش برداء القس الاعتيادى لا برداء القداس ، وعلى راسه طاقية قس متسخة تغطى صلعته . (لأن القس القديم لم يكتف بالهروب من الاعتقال ، بل استطاع ايضا ان ينهب خزانة اردية الكنيسة) . نقل كوزما كوزميتش بصره بين العرائس . كلهن جميلات ناهدات موردات الخدود ! وبدا العرسان بوجوههم الهلعة اصغر منهن . تنحنح كوزما كوزميتش راضيا ،وفرك يديه المتثلجتين ، وأتم مراسيم القران سريعا مرحا تارة يتمتم فى بربرة عجلى ، وتارة يقلد صوت الشماس العالى ، وتارة يترنم ، ولكن كل شىء كما يجب حسب الأصول كلمة بكلمة ، وحرفا بحرف .

وبعد ان انتهى من مراسيم القران طلب من العرائس والعرسان ان يتبادلوا القبل ، والقى فيهم كلمة :

– فى الايام الماضية كانوا يحدثونكم حكايات واعظة . ولكننى سأروى انا لكم قصة من الحياة . قبل الثورة بخمسة عشر عاما كانت لى ابرشية فى قرية نائية . وكنت آنذاك اعيش فى قلق

كبير ، يا مواطنى الاعزاء . وأنا رجل روسى غير هادئ ، وكل شىء لا يوافق مزاجى ، وليس كما ينبغى ، واتأذى منه . بينما اجد نفسى معنيا بكل شىء . فانا ابحث عن العـــدل . وحدثت حادثة انهت شكوكى . جاءنى شيخ طاعن فى السن ضرير يقوده صبى . اخرج من تحت لفافة نعله ورقة من فئة ثلاثة روبلات هرمة ايضـا ، ودعكها وتلمسها ، ووضعهـا امامى وقال «هذى لك لتصلى جناز الاربعين على روح امراتى العجوز» قلت له : «ايهـا الجد ، خذ الروبلات الثلاثة ، وساصلى على عجوزك بدون مقابل . . . هل جئت من مكان بعيد ؟» «نعم ، سرت عشرة ايام» «كم لك من العمر ؟» «ضيعت الحساب . ولكن اظننى تجاوزت المائة» «وهل لك اولاد ؟» – «لا احد ، كلهـم ماتوا . وكانت العجوز حية ، وقد عشنـا سوية ستين عاما ، وتعود احدنا على الآخر . وقــد اشفقت على ، واحببتهـا . ثم ماتت . . .» – «وهل تعيش على التسول ؟» – «نعم . . . اصنع معروفـا . خـذ الروبلات الثلاث ، واقرأ جناز الاربعين . . .» قلت «حسنـا ، قل لى الاسـم» – «اى اسم ؟» – «اسم العجوز» تفرس فى بعينيه الضررتين : «ما اسمها ؟ نسيت . غاب عن بالى . . . عندما كانت شابة كنا نسميها الشابة ، ثم سميناها ربة البيت ، وفيما بعد صرنا نسميها العجوز ، وظلت على ذلك . . .» «وكيف اصلى عليها بدون اســم ؟» وقف العجوز طويلا متكئا على عصاه . وقال : «نعم ، نسيت . ذلك من الضنك ، كنا نعيش فى عسر . حسنا ، انا ذاهب ، وسابحث ، فقد يكون هناك اناس ما يزالون يذكرون . . .» وقد عاد هذا الشيـخ فى الخريف ، واخرج من لفافة نعله نفس الروبلات الثلاثـة وقال : «عرفت . فى القرية تذكرها شخص : انها ابنة بيتر» .

كانت العرائس الست عشرة جميعا واقفات منكسات الرؤوس مطبقات الشفاه . وكان الازواج الشبان الحمر الوجوه توترا بسبب ضيق ياقات القمصان يقفون الى جانب زوجاتهم بلا حراك . بينمـا سكن الناس مصغين .

– ان الروسى قد نشـأ جاهلا لا يتذكر اسمـه . كان السادة يعيشون حياة الاسيـاد ، والتجـار يغرفون الفلوس ، ونحن القساوسة نطوف بالمباخر . أما أنتم وانتن يا

اهل الصبا والجمال فما كان من الممكن فى تلك الازمنة الملعونة ان تشعروا بالدم الحار يجرى فى عروقكم ، بل تذوون كالزهور وسط الحماض قبل ان تتفتحوا .

وقطع كوزما كوزميتش خطبته ، وكأنه يفكر ، وخلـع طاقيته ، وحك صلعته . سالت ناديجدا فلاسوفا بصوت خافض :

– والآن هل يمكن الانصراف ؟

– لا ، انتظرى . . . وها أنا فى منحدر حياتى وفقت فى ان ارى العدل . . انه ليس كالعدل الذى وصفه نيكراسوف . هـل قراتموه ؟ لا . . . . وليس كالعدل الذى كنت احلم به ، وأنا عند النهر فى ساعة المساء اصطاد السمك وحيدا جالسا قرب النار ، ضاربا البعوض على رقبتى . العدل كفاحى ، متوعد ، متصلب . . . واقول لكم بصراحـة اننى كثيرا ما خفتـه . . . فحين تلعلـع الرشاشات ، ويهجم عليكـم الفرسان بالسيوف ينتهـى وقت التفلسف (سرى بين الحاضرين ضحك مكتوم) . انكـم لن تجدوا العدل هناك – واشار الى قبة الكنيسة – ولا حولكم . ان العدل هو انت نفسك ، ايها الانسان الشجاع . فلتكن لديك الرغبة والجراة . . . لماذا تنظرون الىّ ؟ ام لعل حديثى غير مفهوم ؟ جئتكم لأعلمكـم كيف تفرحون . سترقصين اليـوم ياأولغـا وناديا وستيشـا وكاترينا – وكان لدى كل اسم يشير بيده الى صاحبتـه – حتى تئن الواح الارضية ، وحتى تتوهج عيون نيقولاى وفيدور وايفان توهج عيون المسعورين . . وهذا كل شىء . . . انتهت الموعظة . . .

وادار كوزما كوزميتش ظهره للناس ، ودخل حجرة الخزانة .

عاد مفوض الفوج ايفان غورا من تساريتسين وقد قالوا له هناك ان فصائل التموين التى ارسلت من بتروغراد وموسكو لـم تكن دائما على مستوى المهمة الموكلة اليها . وبين رجالها اناس غير مجربين احنقهم الجوع ، واخرجتهم عن توازنهم رؤيتهم الناس ياكلون الوز فى القرى . وقد اختفت احدى هذه الفصائل دون أثر ، ووجدت فصيلة اخرى فى محطة فورونيج فى عربة بضاعة مختومة عثر فيها على جثث ثلاثة من عمـال بتروغراد شقت بطونهم ،

وحشيت بالحبوب ، والصقت على جبهة احدهم رقعة كتب فيها «كلوا حتى الشبع» .

وعد المفوض الرفاق فى تساريتسين بالمساعدة . ولدى عودته الى الفوج انشأ يختار الرجال للفصائل مجريا احاديث اولية معهم . وعين لاتوغين وبايكوف وزادويفيتر للسفر الى قرية سباسكويه ، ودعاهم للحضور الى كوخه الذى كان من قبل خاويا غير مدفأ ، ولكن الآن ، وبعد عودة اغريبينا من المستشفى ، كانت ارضه مكنوسة ، وعند العتبة فرشت حصيرة ، ووضعت فوطة مطرزة على الطاولة ، ولم يكن يفوح بالتبغ الرخيص الحامض بل برائحة خبز طازج . طلب من الرفاق ان يمسحوا احذيتهم جيدا لدى الدخول وقال :

– اجلسوا . ماذا عندكم من اخبار سارة ؟

اجاب لاتوغين :

– وانت ماذا عندك ؟

– اسمعوا اذن . يبدو ان فتياننا لا يذهبون لجمع الحبوب عن رغبة .

– وما دخل الرغبة هنا او عدم الرغبة ؟ اذا وجب ان يذهبوا فسيذهبون . وانت تتطلب الرغبة !

– ولكن القضية دقيقة جدا .

كان ايفان غورا يجلس وظهره الى النافذة ، فخاطب زادويفيتر الذى كان يدق الطاولة باظافره جهما :

– انت ، ياحارث الارض ، ما رايك فى هذه الامور ؟

– كم تريد ان ناخذ من الحبوب من سباسكويه ؟

– كمية كبيرة نوعا ما . اربعة آلاف وخمسمائة بود * من مائة واثنين وستين بيتا ، مع التفريق بين الغنى والفقير بالطبع . . .

– اشك فى انهم سيعطون مثل هذه الكمية .

– ولهذا السبب ارسلكم ، لكى تجعلوهم يعطون . ارسلكم بلا سلاح ، ايها الرفاق .

* البود يساوى ١٦,٣ كيلوغراما . **المترجم** .

غمغم لاتوغين :

– لا حاجة له .

غمز بايكوف وقال :

– بدونه سنبرهن بصورة اقوى . نحن ذاهبون الى اصحابنا لا الى اعداء .

قال ايفان غورا عابسا :

– الى اصحابنا والى الاعداء .

قال زادويفيتر :

– اسمع ، يا مفوض . انا لست اتراجع ، ولكن ليس من عملنا أن ننسل الى اهراء الآخرين . فان ذلك مقرف .

– وانت ، ما رأيك ، يالاتوغين ؟

– لا تحاول ان تنفذ الى سريرتى ، يا ايفان . . . سنجلب لك الحبوب ، وكفى .

– وانت ، يا بايكوف ؟

– انا من البحر الابيض ، واحترم الجماعة .

– يارفاق ، لهذا السبب دعوتكم – ووضع ايفان غورا يديه الكبيرتين على الطاولة ، واخذ يتحدث بصوت هادئ ، كما يتحدث الاب مع ابنائه – ان احتكار الحبوب هو شريان الثورة الحيوى . اذا الغى الاحتكار الآن فسيصبح الكولاك سيدا مهما بذلنا من عرق ودم . وهو ليس صاحب الحانوت السابق ذا السماور المنتفخ ، بل كولاكا متمكنا واسع الحيلة متمرسا .

صاح زادويفيتر :

– كولاك . . . كولاك ؟ قل لى ان فى استثمارتى بقرتين ، فمن انا ؟

– ليست مسألة ابقار ، ولكن لمن ستكون السلطة ؟ ان كولاك القرية يفكر فى ذلك ليل نهار . فقد سرح شغيله ، وذبح بقرته ، ولم يحرث الارض فى الخريف ، وهو يهتف فى الاجتماعات العامة ، ويصوت للسلطة السوفييتية . انه سريع الحركة كالبرغوث .

– حسنا ، يا ايفان . . . لو اعود الى البيت ، واشترى بقرة اخرى او ثورين فماذا اكون ؟

– هل دخلت الى الجيش الاحمر عن رغبة أم كراهية ؟
– عن رغبة ، بالطبع .
وافقه زادويفيتر فقال ايفان :
– اذن ، فلن تشترى ثيرانا .
– ولماذا ؟ لا اعرف لماذا ينبغى الا اشترى ثيرانا .
– يجب أن تكون اهتماماتك اوسع . فانت لم تحمل البندقية من اجل هذين الثورين . . .
قال لاتوغين :
– ولكن سيشترى الثيران . فلماذا تعذبه ؟ تابع حديثك .
هز ايفان غورا راسه مبتسما :
– لا اريد ان ادخل فى جدال ولكننى اؤمن بالانسان . . . ولكن ، حسنا . . . ما هى مهمة هذه الطبقة ؟ مهمة الكولاك هى الاستيلاء على تجارة الحبوب . ان الثورة فتحت عينى الكولاك وهو الآن لايحلم بدكان فى القرية ، او بحانوت بل بسيلوات حبوب وسفن . . . ولو استطاع أن يمتطى الثورة فانك ستعمل له ، يا زادويفيتر ، حتى تنضح عرقا ودما ، وستكون ثيرانك له . انه يفكر ايضا بتحويل الاحتكار لصالحه . ذات مرة دخلت قرية مع فصيلة تموين . وبذلنا قصارانا فلم يجد ذلك نفعا . العداء فيما حولنا وكل كلمة نقولها لا تترك اثرا . كان بابولين مصاص دمائهم فى معطف رث من فراء الاغنام ، وحذاء لبادى مرقع يبدو ناعما رقيقا لا يفتأ يعض شعر لحيته . . . فكرت مع نفسى : اى شىء هذا ؟ . . ذهبنا الى اهرائه فلم نجد حبوبا . وحفرنا هنا وهناك بالطبع ، ولكن لم نعثر على شىء . وفى زريبة الحيوانات لم نجد غير حصان هزيل ، وجلدين من جلود الابقار معلقين من السقف . فما الذى فعل ؟ ان ابن الكلب هذا عرف بمجيئنا فطاف على الفلاحين قائلا : «آه ، آه . . . الجندرمة القيصريون لم يعذبوكم مثلما تعذبكم السلطة السوفييتية . انا لا يهمنى شىء . استطيع ان انتقل الى ابنتى فى المدينة ، فقد تزوجت رئيس اللجنة التنفيذية هناك . أما انتم فلا اعرف كيف ستقضون هذا العام . ان البلاشفة ياخذون كل شىء ، وحتى القش الذى على سطوح بيوتكم سياخذونه للجيش الأحمر . . . والله يحب

المحسنين ، فاذهبوا ، يا اخوان ، الى اهرائى ، وخذوا ما فيها من حبوب ولا تبقوا على حبة ، سنعيش ، وسنتحاسب فيما بعد . . .» ومع ذلك فقد اخذ منهم وصولات ، ولكنه ظل محسنا . . . ولم يعطنا شيئا ، بينما ستعود حبوبه من الفلاحين مضاعفة . قد يكون صغيرا ، ولكن امثاله كثيرون فى كل مكان . وليس القضاء عليه سهلا . وهو منذ الف عام يتحكم بما يدخل فى فم الفلاح من طعام ، ويعرف اى خيط يمد ولأى انسان . نعم ، يا اصحاب ، ان احتكار الحبوب قضية رئيسية بعيدة النظر . حقا انها صعبة . ولكن ما هو السهل ؟ ان حراثة الارض البكر صعبة دائما . والسهل فقط هو العزف على البلالايكا . واذا كان الفلاح لا يفهم هذه السياسة الكبيرة فانت الملوم فى ذلك بالدرجة الأولى . اذهب الى بيت مزرعة الثرى وقل له : «افتح اهراءك» . ان كل حبة فيها عزيزة كالدمع . ولكن كل حبة فيه مقدسة لقضية مقدسة .

– اين مفاتيح سوفييت القرية ؟
– عند الرئيس . . .
– واين الرئيس ؟
– ما يزال هناك يمرح . . .
نزل لاتوغين وبايكوف وزادويفيتر من العربة ولم يعرفوا ماذا يفعلون . وانصرف الذى سالوه . راقبوه طويلا وهو يتوغل فى الشارع ، وكان الارض نفسها قد علته ، وانفغرت عن هاوية . جلسوا على مقدمة سوفييت القرية ، ولفوا اللفائف ، ودخنوا . كانت تهب على وجوههم ريح باردة تسوق السحب . ونزلت حبات لاذعة من الثلج وكان منخلا ينخلها ، وسرعان ما امتلأت بالثلج اخاديد الطريق الأسود ، واستحال الجو اكثر اقفارا .
قال زادويفيتر :
– حين اسمع المفوض يتحدث احس بيدى تريد ان تمسك سيفا . ولكن الواقع ان هذه القرية مثل كل القرى . اين اولئك الاعداء ؟ اسمع عزف الموسيقى الصاخب !

على بعد عشرة بيوت منهم ظهر جمع صغير من الناس لا بد انهم كانوا من غير المدعوين الى العرس ، او الذين ضاق بهـم المكان . وترامت من هناك اصوات اكورديون تمده الى اقصاه أيد ثملة ، وطبطبة اقدام .

قال لاتوغين :

– انت تريد ان تبلل اصابع قدميـك فقط ، بينما يجب الغطس الى القاع ، ايها الرفيق العزيز . ان الثورة تتطلب التعميق ، وقد تحدث المفوض عن ذلك .

– التعميق ، التعميق ! والى اى حد ؟ اننا نقلب كل شيء ، ولكن يجب ان يعيش الناس ، ويبذروا الحب ، وينجبوا الاولاد . فمتى سيكون ذلك ؟

– الشيطان يعرف ، متى . لا توجه السؤال اليّ .

كان لاتوغين حانقا يقضم القش . غضن زادوفيتر جبينه . وفكر فى كلمات المفوض يوم أمس مستغرقا فيها غير منقطع عنها على طريقة اهل الريف . قال بايكوف :

– اذا بقينا فان قضيتنا تظل جامدة لا تتحرك ، يا اولاد . فهل نذهب للبحث عن رئيس السوفييت ؟

ورفع جسمه ، فقال له لاتوغين :

– لا تذهب .

– يعني كيف ؟ ولماذا ؟

– ليس من المستحب ان اشرح لك السبب .

عندئذ قال زادوفيتر بتصميم :

– اذا كان لا بد من الذهاب ، فلنذهب سوية . هيّا الى الرئيس .

– لا اذهب .

– يجب ان تخضع .

– كفاك ، يا لاتوغين – قال بايكوف بمصالحة – لن نقترب من المائدة ، ولن نشرب قطرة واحدة . سننادى على الرئيس مـن الرواق .

وذهبوا للبحث عـــن الرئيس . وكان ستيبان بيتروفيتش نديوشكاشي قد امسك نفسه يومين وفى اليوم الثالث اخذ يفكـر

بان القرية قد تفلت منه . نظف الوحل من رجله الخشبية ، ولبس بنطالا اسود دون ان يحشره فى رأس حذائه ، وفتل شاربيـــه ، وسار مهيبا فى جولة فى القرية .

«الحمد لله . . . تفضل ، ياستيبـــان بيتروفيتش . . . »

فكان بين معانقة من رب بيت ومصافحة ودية من رب بيت آخر : «للرئيس مكان الصدارة !» وكانوا يجلسونـــــه فى الركن تحت الايقونة ، وكانت الخطابة تجلب له العصيدة الكثيفة المالحـة على طبق صغير ليدفع فدية ، فكان يدفع روبلا واحدا (لا اكثر) ، ويقبل قدحا مملوءا بالفودكا ، ويتمزز بقطعة من السمك الجاف .

كان على خطأ فى ظنه بان الاحتفالات ستنتهى فى اليوم الثالث ، فان اليوم الثالث لم يكن الا بداية للاحتفال الكبير ، والرقص والغناء والعناق والاحاديث القلبية ، والمشاجرات ، والمصالحات .

ثم ما اقوى هؤلاء الناس ! وكم تحملوا خلال هذه الاعوام : التعبئات فى عهد القيصرية ، حين بداوا يستدعون فى اخر المطاف من كانوا فى سن الاربعة والخمسين ، ولم يبق الا النساء يحرثن الأرض . وفى مكان ما فى الشمال كانت المرأة تسوق محراثا يجره حصان واحد ، اما فى هذه الاماكن فقد كن يحرثن بمحراث ثقيل يجره زوجان او ثلاثة ازواج من الثيران ، وما تزال النسوة يتذكرن ذلك الخريف حتى الآن . ومـــات الكثيرون من الناس من الانفلونـزا الخطيـرة ، واحترقت القرية مرتين . وما كاد الرجـــال يرجعون من الحرب العالمية حتى بدات التعبئة لجيش كراسنوف والابتزازات الثقيلة ، وايواء القوزاق ، والقوزاق ، كما هو معروف ، خفاف الايـــدى . يبدو القوزاقى لك فى ساعة وكأنه صاحبك الودود ، ولكن ما ان يمتطى سرجه حتى ينقلب الى قوزاقى اصيـــل لا يتورع عن طعن خنزيرك بمزراق اذا رآه فى الشارع . وكل ذلك اصبح فى الماضى . وصارت السلطة لنا الآن ، والضرائب والاتاوات الغيت ، واضيفت قطع اراض جديدة ، وكان الناس يريدون ان يمرحوا بلا قيد .

وكان ستيبان بيتروفيتش يجلس فى كل بيت وقتا كافيـــا لارضاء رب البيت ، ثم ينتقل الى بيت آخر فيه وليمـــة . وكان يتحدث فى ركن الايقونة احاديث رصينة مع ابوى الزوجين واميهما عن الحرب الاهلية المندلعة الآن فى شمال الدون قرب فورونيج

وكاميشين حيث كان كراسنوف يمزق الجيش الثامن والتاسع . «. . . ولهذا ، ايها الحمو العزيز ، والحماة العزيزة والخطابون الاعزاء ، لا يجوز لنا أن نغفو ، حتى لا نؤخذ على غرة ! بل يجب ان نساعد السلطة السوفييتية . . . .» وكان يتحدث عن الشؤون المحلية ، وعن هذا وذاك ، فكان اصحاب البيت يدهشون من سعة اطلاع ستيبان بتروفيتش . انه يعرف ما يوجد فى هُرى هذا ، وما تضم زريبة ذاك ، وما يخفى ثالث من اشياء .

وصعب عليه اكثر فاكثر الانتقال من بيت الى بيت على رجله الخشبية ، وان يبدأ من جديد الشىء نفسه : تبادل التحيات والجلوس . وفى احد البيوت تناول فجاة صحن العصيدة من يد الخطابة وأكلها كلها ، وكانت ملحا فقط ، واخرج من جيب معطفه العسكرى اوراقا نقدية مدعوكة ، هى كل ما تبقى له ، وحشرها فى يد الخطابة ، وجرع قدحا كبيرا من الخمرة البيتية ، وصاح بالعروس التى ظلت ترقص لليوم الثالث فى الوغرة الحارة وضيق المكان رقصة الكادريل لعشرة ازواج من الراقصين :

«ستيبانيدا ، ارقصى اقوى !»

وفى ذلك الوقت اخبروه بان ثلاثة من الجنود الحمر يسالون عنه . فقال : «ادعوهم الى هنا» اجابوه : «دعوناهم ، فلم يقبلوا . . .»

اسند ستيبان بيتروفيتش يديه على المائدة ، واحنى رأسه ، ووقف برهة ، وطلع شاقا طريقه بين الناس ، وخرج الى الرواق حيث وجد بالفعل ثلاثة رجال يبدو عليهم الجد .

سال بصوت ثابت :

– من انتم ؟

– فصيلة التموين ! . .

اجاب لاتوغين بلهجة تهديد متوقعا أن يجفل رئيس السوفييت على اقل تقدير . الا أن ستيبان بتروفيتش – الذى كانت تفوح منه رائحة قوية لطيفة جعلت بايكوف يقترب – لم يجفل البتة – جئتم فى اللحظة المناسبة ! انا انتظركم منذ زمان . . ياناس ! – صاح ستيبان بتروفيتش فى الباب الموارب الذى كان ينبعث منه الضجيج ورنين الاوانى وطبطبة الاقدام – اوقفوا الموسيقى

مؤقتا ! – وفى هذه المرة ترنح بشدة حتى ان بايكوف اسنده بمسكة من يده – يارفاق ، جئتم انتم الى سوفييت قرية سباسكويه ،لا الى اى مكان آخر !

وامسك بعضادة الباب ، وصاح فى داخل البيت بتصميم اشد :

– ايها المواطنون ، الى الاجتماع جميعا !

وخرج من الرواق الى الفناء ، حيث كان ثلاثة فلاحين كهول متكئين على عربة محلولة من خيولها يغنون اغنية قوزاقية باصوات متنافرة ، واثنان متعانقان يبرهن احدهما للآخر على شىء ما ، بينما كان شخص آخر يدور محاولا ان يجد باب الخروج ليذهب الى بيته . وهنا ايضا ، وخارج البوابة حيث كان الناس يرقصون على الاكورديون كرر ستيبان بيتروفيتش طلبه فى الذهاب الى سوفييت القرية دون تلكؤ .

وكان يقول وهو يسير ضاربا رجله الخشبية على الارض المتجمدة بحدة :

– الافراح افراح ، والعمل عمل . القوائم جاهزة . والاحتياطات قد عرفت وسجلت . . . ارسلوا برقية الى تساريتسين اذكروا فيها ان الحبوب سلمت كاملة – وعندما حاول بايكوف وزادويفيتر ان يقنعه بتأجيل الاجتماع ولو الى الغد حتى يصحو الناس من سكرهم على الأقل راح ستيبان بتروفيتش يكرر – من يكون ذكيا وهو سكران ، فان نفعه مزدوج . لا حاجة لكم لتعليمى . غدا سيكون الأمر اصعب . يجب الا ندع احدا يفكر فى الامر مرتين .

وبينما كان الناس يتوافدون الى سوفييت القرية وضع ستيبان بتروفيتش أمام الرفاق من فرقة التموين السجلات والقوائم ، واخذ يهمس بحماس :

– لدينا ثلاثة بيوت من الكولاك : كريفوسوتشكا وهو لص ، فى عام ١٩٠٧ نهب البريد ، وقتل الساعى ، واخفى الفلوس عشرة اعوام ، وبعد مرور فترة طويلة على الجناية بنى لنفسه هريا من الآجر ، ومخزنا ، واثناء الحرب جمع المال من صفقات الجلود . وفى قرية سباسكويه وحدها نحر نصف الماشية . والآن يسعى الى

تكوين جمعية تعاونية ، وينقل اليها مخزنه ، وسأكتشف هذه الحيلة سريعا . . . انه يقول عن نفسه انه مسلول ، وانه يرى النور فى الليالى . . . انه رجل خطير . اما البيت الكولاكى الآخر فهو بيت ميليفودوف ، وكان هذا متعهد مناجم عاد الى القرية قبيل الحرب ، وصار يدير حانة سرية مع محل للرهون . . . انه عنكبوت مراب وغد امتص القرية كلها قطعة قطعة . وقد عرفنا انه هو الذى ارسل الى القرية الشخص الذى زعم انه الامبراطور نيقولا الثانى وذلك ليعرف مزاج الناس . . . والكولاكى الثالث هو ميكيتنكو تاجر المواشى ابا عن جد . وكانت له صنادله على الدون . وبالاضافة الى هذه البيوت الثلاثة يوجد حوالى عشرة بيوت من ذوى قرباهم والانساب والاصدقاء المقربين . كما ان هناك فلاحين حذرين يقولون : «من يدرى بم ينتهى هذا كله ، ولمن ستكون السلطة ، والذى لا يدخل فى خصومة مع احد هو اذكى من غيره» . اولئك من جبهة الاعداء . . . اما هؤلاء فهم جميعا من جماعتنا – ومرر اصبعه السميكة على القوائم قائلا : – الوضع فى القرية حرج . اما ان يقتلونى ، واما ان اقص جناح بعضهم .

تجمهر الناس على سوفييت القرية صاخين وسكارى . وتزاحم الجمهور وتماوج وهدر . كان بايكوف يتطلع من النافذة فترنم مع نفسه باغنية بحرية :

طيور النورس تحوم على الرمل ،
امارة على منين البحار ،
وما دامت لم تقع على سطح الماء
فالبحر عاصف الجو . . .

وقال بصوت عال لرفاقه :

– هيا الى واجهة البيت سريعا ، والا فسيحصل اضطراب . . .

اندفعت الى بيت آنا فتاة من الجيران صغيرة منمشة زرقاء العينين عارفة بكل شيء ، وقالت سريعة الكلام تعب الهواء مع كلماتها :

– آه ، لو تعرفين ماذا يحصل فى سوفييت القرية ! الفلاحون يقلعون اوتاد السياج . . .

وبنظرة واحدة من عينين لا ترمشان ألمت بكل شيء . رأت آنا فى فستان قرمزى كانت قد ارتدته مرة واحدة فى حياتها حين كان زوجها حيا ، وحذاء له حاشية ، وجوربين ابيضين ، وكانت تجلس حاسرة الراس على حافة السرير حيث استلقى القس المجرد من مسوحه عاكفا ركبتيه ، وقد لبس قميصا نظيفا اعطته له آنا مرقطا بنقاط سود . وكان يمسك بيد آنا . . .

صاحت آنا بها خجلة :

– ما لك تندفعين الى ابواب الناس !

فوثبت الفتاة خارجة من البيت ، ولم تقل كلمة واحدة من الخوف . الا انها جعلت كوزما كوزميتش يستيقظ . وكان قد تعب خلال الايام الاخيرة ، فقد شرب واكل كثيرا ، وتحدث اكثر . ولم يفوت الفلاحون كلمة واحدة من موعظته ولم يكونوا قد فهموا بعض الاقسام منها ، الا ان ذلك لم يزدها الا قيمة . وكان فى كل بيت يضطر الى ان يتحدث عن الشيء الذى اثر فيهم اكثر من غيره : عن العدل . وحين كانت المائدة تخلو الا من الشيوخ والاجلاء كان احدهم ممن ارخت الخمرة افكاره يدفع العظام والفتات بكمه ، ويبتدره قائلا :

– ازعلتنا ، يا كوزما كوزميتش . . . كيف تقول لا يوجد عدل ؟ . . عند ذاك سيكون العالم غابة وحشية .

وكان شخص آخر يقاطعه : – شباننا – ويشير براسه الى الطرف الآخر من البيت ، حيث كانت التنورات والضفائر والشرائط والوجوه المنفعلة تدور – لا تمكن السيطرة عليهم . انهم يقولون الآن ان كل شيء ممكن : لا وجود لله ولا للقيصر ، وآباؤنا وامهاتنا حمقى . لطيف هذا . . . فاى شيء يمسك اولادنا الآن ؟ اين الرابط الذى يشدهم ؟ وعلاوة على ذلك تقول : لا يوجد عدل . . .

فيتدخل شخص آخر ذو لحية فى الحديث :

– حين ياتى من انسان اقوى ، فان هذا سيكون فى الأعلى ،

وسيكون عادلا ايضا . وسنكون نحن مرة اخرى مثل اجمة مشذبة . . .

سال كوزما كوزميتش :

– هل انت قوى ؟

– انا قوى . . . ولكن الروبل اقوى منى . . تلقيت منه الضربات طوال حياتى .

– وهل شكوت الى أحد ؟

– والى من اشكو ؟

– وهل ذهبت للاضرحة المقدسة فى ديركييفو – بيشورسكيا ؟

– لا ، لم اذهب .

– اذن ، لا يوجد عدل ؟

– كيف لا يوجد ؟ كنت اغلى من الغيظ . وقد عدت من الحرب ومعى بندقية ، ووقفت على الحد الذى يفصل ارضى ، وقلت : هل اعتبرتمونى مقتولا ؟ اعيدوا لى افدنتى الثلاثة ! . .

– وهل اعادوها ؟

– بالطبع . . .

– اذن ، يوجد عدل ؟

– اى عدل هذا بتخويف الناس بالبندقية ؟ لا ، يا اخ انا لا اريد ان اوذى احدا ، ولا اريد ان يؤذينى احد . هذا هو الجد اكيم . وحيد فريد...لم يعد قادرا على العمل ، ويعيش على عطايا الناس ، يقدمون له قطعة خبز مرة . اين ذهب كل ما عمله ؟ كان له كوخ صغير ، فاستولى عليه ميلوفيدوف لقاء ديونه . . . . واعمالى اين تذهب ؟ كدحت خلال خمسين عاما ما يكفى لبناء اربعة بيوت آجرية ، بينما هذه ثيابى ممزقة عند الكوعين ... اعمالى كالحمام تطير منى ، وتحط على سقف شخص آخر ، لا على سقفى . . . جميل قولك : «ان العدل هو انت نفسك ، ايها الانسان الشجاع» . انا ، يا كوزما كوزميتش لا اخاف الموت ، وما ازال قادرا على حمل عشرين بودا على ظهرى ، ولكننى لا استطيع ان انال العدل . لو كان هناك عدل لقدر الانسان حسب عمله لا

حسب ما يملك من الفلوس . . . كيف يمكن تحقيق ذلك ؟ شكرا للسلطة السوفييتية عند ذاك . . .

– ذلك بالذات قانون السلطة السوفييتية ، يا عجيب . . .

– يعنى ، ما زال فى الطريق الينا .

واحزن كوزما كوزميتش انه على الرغم من كل دهائه لم يستطع أن يجيب هذا الرجل بشىء . فقد كان تجاذب الحديث مع المثقفين اسهل بكثير من تجاذبه مع الفلاحين . وفى جميع الاحاديث حول الموائد التقط ما يشبه الرضا مشوبا بعدم الارتياح والامتعاض والترقب . وبدا وكان هؤلاء الناس ينتظرون على نحو غامض شيئا جذريا تاتى به الثورة ، ويستعجلون مجيئه سريعا .

وفى ليلة اليوم الثانى جرجر نفسه الى بيت آنا وهو فى حال سيئة تماما . وجلس على الارض الى جانب المصطبة ، وطبطب على وجهه بكفيه ، وغطى وجهه بيديه ، وضحك وهو يردد : «احس بضعف ، يا آنا . صرت عجوزا ، يا آنوشكا» .

قادته آنا الى الحمام على شاطئ البحيرة دون ان تتفوه بكلمة . وغسلته بنفسها وسخنت جسمه بالبخار . وكان الهرم لا يبدو الا على وجه كوزما كوزميتش ، اما جسمه فابيض املس . واستولى الحنان على آنا حين رأته يقفز على الرف كالسمكة ويقول «علىّ بالليفة . . .»

وبعد الحمام هدأ ونام حتى الضحى منتظم الانفاس . ولما استيقظ شرب حليبا وقال «اعذرينى ، يا آنوشكا ، ولا تعتبى على ، رأسى يوجعنى . . .» وغفا ثانية . وحين ايقظته الفتاة الجارة كان مرحه المالوف قد عاد اليه .

– ما الذى جاء بالفتاة الصغيرة ؟

– اجتماع عام ، كما يبدو . جاء جنود من الجيش الأحمر لجمع الحبوب ، وعلا الهرج .

– انهم جماعتنا ، يارب !

اخذ كوزما كوزميتش يلبس ثيابه على عجل . نظرت آنا اليه من تحت حاجبيها صامتة . وفى تلك البرهة انفتح الباب مرة اخرى ، وادخلت تلك الفتاة الصغيرة راسها فقط :

– انهم يتعاركون . المصابون كثيرون ! عادت فلاسوفا

بزوجها الى البيت مضرجا بالدم . . . ملأت الشارع صراخا ، وهي تشتمك . . . واخذ ميترونان كريفوسوتشكا يشد حصانه ، فمنعوه . جروه وراء البوابة ، واخذوا يضربونه بقسوة . . يا ويلي !

واختفت مرة اخرى . وسار كوزما كوزميتش في اثرها الى الباب ، فصرخت آنا بصوت مرعب :

— لن اتركك !

وقفت عند الموقد طويلة نحيلة رافعة كتفين شبيهتين باكتاف الرجل ، ودفعت رأسها الى الخلف وكأنما قصم ظهرها . ضغط كوزما كوزميتش على يدها بكل قوته :

— آنا ، لا تكوني حمقاء ! والا سامسك بقضيب النار . . . اهدئي . ساعود بعد قليل . لنتغد مع الرفاق . فاعدي لنا فطائر ، اسمعي . . . كفي عن هذا ، اقول لك !

قالت بجهد من خلال اسنان مصكوكة :

— طيب ، يا ابانا . . .

كانت الجارة الصغيرة تريد شيئا ارهب بكثير مما شاهدت ، وهي تركض نحو سوفييت القرية وتعود ناشرة الخبر في البيوت . الا ان الاجتماع كان صاخبا حقا . لم تثر مسالة اعطاء الحبوب نقاشات كبيرة : «فالالزم لازم» . واصغى الناس بهدوء الى الرئيس وهو يقرا قائمة الحصص العادلة ، وجعلوه يكررها . وبدات في الجمع احاديث قصيرة وحركة ، واخذ بعض الناس يتزاحمون ليقتربوا من واجهة البيت ، وآخرون يتدافعون الى الشمال نحو حديقة الخضروات المجاورة ، المحاطة بسياج من الاغصان المضفورة .

صاح ميكيتنكو بصوته الطاغي المعروف للجميع : «ليس هذا صحيحا !» فرددت عليه اصوات كثيرة «صحيح ، صحيح !» واندفع الى واجهة البيت رجل ملتح ممزق الكم ، والقى قبعته تحت رجليه ، واخذ يلقي مظالم قديمة :

— اين ذهبت كل اتعابي ؟ الى هؤلاء ، وهل عليّ ان اركع على الاقدام امامهم لقاء كسرة خبز ؟ وهل هذه هي السلطة السوفييتية ؟

دفعه شخص آخر ممتقع الوجه من الغيظ ، واخذ يتفوه بكلمات افظع . عند ذاك اندفع قسم من الذين كانوا واقفين على بعد مقتربين من السياج ، وانتزع الاعواد ، وهاجم المجتمعين من الخلف . نزل لاتوغين وزادوفيتير وبابكوف من واجهة البيت ، ودخلوا بين الناس مفرقين اياهم ، منتزعين الاعواد من ايديهم ، صائحين : «بلا فزع ، كل شيء على ما يرام . واللعنة على الشيطان . . . الاجتماع مستمر . . .»

وكانت المشاجرة قصيرة ، فقد كان المهاجمون قليلين . بعضهم اختفى ، والبعض الآخر لوحق في الشارع . وبقي بعض الناس منطرحين على الارض المغطاة بالثلج . . .

سار كوزما كوزميتش عبر اسيجة حدائق الخضروات تقصيرا للطريق ، واضاع طريقه ، ووجد نفسه في بيت لا يعرفه . ووراى نسوة كانت احداهن تنتحب ، والاخريات يستمعن اليها . وحين وقع بصرهن على كوزما كوزميتش اخذت يتحدثن . وتقدمت فارفارا فلاسوفنا ام ناديجدا نحوه طاويه كمي معطفها الجنفاصي الطويلين وقد بدا عليها الغيظ ، وتحركت الاخريات وراءها . قالت فارفارا :

— لهذا السبب لم تاخذ فلوسنا منا ، ايها القس المجرد من مسوحه ! . . بينما نحن ، الحمقاوات ، صدقنا به . . . جعل القرية كلها تسكر . . . انتزع كل شيء منا . . . شوش عقول جميع الحمقى ، هذا المشوش . . . باعنا للشيوعيين . . لا تبحلقن فيه ، بل اضربنه حتى الموت .

رد كوزما كوزميتش متراجعا :

— لا يجوز لكنّ ضربي . . . ستاسفن ، يا نسوان . . لا تمسسنني !

— وهل اسفت انت علينا ؟

خلعت النسوة المناديل من رؤوسهن هائجات واخذن يتكلمن دفعة واحدة ، متهمات القس المجرد من المسوح بالاجحاف في تعيين الحصص ، وبسفك الدماء في سوفييت القرية ، وبانه هو

الذى جعل رب البيت المقتدر لا يجد مكانا له الآن فى القرية ، كما انه المسؤول فى ان يُنحر ويُؤكل هذا العدد الكبير من الوز والخنانيص فى هذه الايام ، لقد كان المذنب فى كل شىء . وحصرته النساء على السياج . وذهبت جهود كوزما كوزميتش عبثا فى سحرهن من جديد ، مكرها نفسه على الابتسام ، متمتما : «هيه ، اعلنتن عن غطبكن ، وكفى . . . لنتكلم بهدوء . . .» كانت فارفارا فلاسوفا اول من جذبت شعره من جانبى اذنيه ، وتتابعت ضربات النساء على ظهره المحنى . وفكر ان افضل طريقة هى ان ينطرح ، ويغطى وجهه بيديه . كانت اضلاعه تطقطق . وتمنى فى سره : «فقط ان لا يضربنني بشىء صلب . . .» واذا به يسمع صوتا قويا : «اضربنه بالعود ، هذا المسخ !» حاول كوزما كوزميتش ان يقفز ، الا ان غشاوة غطت على بصره . وفجأة رفعوا ايديهن عنه . عندذاك سمع توجعه واجبر نفسه على ان يمنع نفسه عنه . رفعته ايد واسندته الى السياج . مسح كوزما كوزميتش الثلج والقش من عينيه ورأى آنا ووراء تنورتها وجه الفتاة الصغيرة المنمش يبدو عليه التحمس . كما راى لاتوغين وزادويفيتر وبايكوف .

سأل لاتوغين :

— هل انت حى ؟ ليجلب له بعض الناس قدحا من الخمرة البيتية الآن . انك ، يا كوزما ، فعلت الكثير هنا . . . واتخذ الاجتماع قرارا بشكرك على الدعوة ضد الكنيسة . . .

*

— لا يمكنك ان تتصورى ، يا داشا ، الى اى حد كنت غبيا ، انسانا كئيبا طوال المدة التى اعقبت افتراقنا فى بتروغراد . . نعم ، كنت ذلك الرجل . . . ان لنا حياة لا شعورية . انها كالعلة تعذبك وتضعك على نار بطيئة . . . وتفسير ذلك سهل بالطبع . . . انت كففت عن حبى ، وانا . . .

ادارت داشا رأسها اليه بحركة سريعة ، فقرأ فى عينيها الرماديتين النديتين الرهيبتين دائما انه على خطأ ، فانها لم تكف عن حبه . وخدرته تلك النظرة لحظة ، ثم انفرج فمه عن ابتسامة لا تنم عن ذكاء كثير ولكنها فرحة على اية حال . واصلت داشا

وضع الاشياء فى سلة صغيرة ، وهى اشياء حصل عليها ايفان ايليتش صباح اليوم كجرايات من الالبسة بعد ان طاف على عدد من المؤسسات .

كانت اشياء ضرورية ومفيدة : جوارب ، وبعض القطع الصغيرة من القماش يمكن ان يفصل منها فستان ، وملابس داخلية جميلة جدا من البسته لا تصلح الا لصبية ، مع الاسف ، الا ان داشا كانت من الهزال والنحافة بحيث كانت تبدو صبية . وكانت من بين الاشياء احذية طويلة . وكان ايفان ايليتش معتزا بها اعتزازا لا يقل عن اعتزازه لو انه استولى على بطارية للعدو . وكانت هناك اشياء تدعو الى التفكير فيما اذا ستكون نافعة فى حياة التنقل التى تنتظرهما . وقد اعطيت لايفان لايليتش بدلا من المفارش واخذها من احد المستودعات . انها قطة وكلب من الصينى ، وبعض عاقصات الشعر من الجلد ، دوزينة من بطاقات البريد عليها مناظر من القرم ، وكورسيه من قماش جيد للغاية له اذنيات من عظم الحوت ، كبير جدا حتى ان داشا استطاعت ان تلفه على نفسها مرتين .

— داشنكا ، انا اتكلم عن وداعنا فى محطة القطار . . . لقد قلت لى شيئا مثل : «وداعا الى الابد . . .» ربما اخطأت فى سمعى . . كنت ايضا مغموما جدا . . . وكنت انت هشة شاحبة بعيدة المنال ، عازفة عن الحب . . . .

— اية فظاعة !

قالت داشا ذلك دون ان تلتفت . وكانت تلف القطة فى جورب سميك لكيلا تنكسر فى الطريق . وكانت داشا دائما غير مكترثة بالاشياء ، ولكنها اعجبت بسبب ما بهاتين الدميتين من الفخار الصينى : القطة الحلوة ، والكلب النائم باذنيه الكبيرتين ، وكانهما قد سعيا اليها سعيا ليقيما لها عالما صغيرا من البسمات البريئة فى هذه الحياة الكبيرة الرهيبة المتهدمة التى كانت تخيم عليها سحب منذرة من الافكار والاهواء . . . .

— وعلى اية حال غادرت بتروغراد بهذه الصورة عنك . . . حملتها وعشت معها . . كنت تصاحبينني كقلبى . وعزمت على ان اعيش وحيدا عازبا . . . .

وحاول ان يسير فى الغرفة بحيث تكون داشا مركز دورانه . وكانت قد خلعت منديل رأسها . وكان شعرها المتلوى ذو الشقرة الشاحبة مضفورا فى قفاها بشريط من الستان الاحمر (اعطوه لها من مستودع ادارة المدفعية) . كانت داشا تارة تنحنى على السلة الموضوعة على مقعد ، وتارة تنزل ذراعيها على جنبيها ، وتفكر فى شيء ما . كانت ترتدى مريول ممرضة ابيض افتن من اى فستان تفننوا فى تفصيله ، وقد شدته من خصرها (عن غرض ، شأنه شأن الشريط) . . .

– غريب ، يا داشنكا . كان الخطر والموت من قبل يبدوان امرين غير مهمين . فليقتلوا ، ذلك لا يهم . فى الحرب لا يدل ذلك على الشجاعة مطلقا ، بل مجرد سوداوية . . . اما الآن فحين افكر فى الماضى اشعر احيانا بالرهبة . . . اريد ان اعيش الف عام لكى اتلمسك ، وانظر اليك . . .

– حلوة ساكون بعد الف عام . . . اسمع ، يا ايفان ، ماذا سافعل به على اية حال – وبسطت الكورسيه مرة اخرى ، ووضعته على صدرها – يمكن ان تدخل فيه ثلاث نساء . ربما لا تأخذه ؟

– وما اذا لو سمنت ؟ سينفعك .

– انا لا البس كورسيهات ابدا ، انت فقدت عقلك . اسمع ، لو رفعنا منه العظام ، وشققناه فمن الممكن ان يصنع منه صدار لطيف . .

استغل ايفان ايليتش انشغال كلتا يديها فتقدم من ظهرها ، وجذب داشا اليه بلطف :

– أصحيح ما تقولينه ؟ قوليه مرة اخرى .

– صحيح ، بالطبع . . . انت رجلى الوحيد على هذه الارض ، وانا بدونك لا شيء . . . جئت للبحث عنك . . ايفان ، فكر ، على اية حال – وصررت كتفيها ، وتنحت قليلا – يجب ان يكون هناك تناسب فى القوى . انك ستحطمنى يوما ما . . . اسمع ، ماذا نسينا ؟ فات الوقت الآن على كل حال . . . .

– قولى وساطير حالا . .

– لطيف لو نحصل على اسفنجة . .

– توجد اسفنجة .

وهرع ايفان ايليتش الى معطفه ، واخرج من جيبه اسفنجة وبعض الاشياء غير اللازمة .

– هذه هى اشياء ، يا داشا . لم يستطع احد ان يشرح لى لاى غرض هى ، ولكننى اخذتها على اية حال .

– انها شيء نفيس يا ايفان . هذه قطعة من المطاط لتدليك الوجه ، يا لروعتك ! ان هذه ضرورية جدا لى .

اعدت داشا السلة ، وتقدمت من ايفان ايليتش الذى كان جالسا على طرف التخت ، متهيئا فى كل لحظة الى الوثوب . رفعت داشا وجهه ، وحدقت فى عينيه باهتمام :

– لقد قطعت على نفسى عهدا . لن انتظر شيئا فى حياتى الجديدة . فانا لست سولفيج * ، ولا اريد ان احدق بعد الآن فى ضباب البحر . بل ان احب فقط ، واعمل . . . . خذنى كما انا سيئة او حسنة ، ولكننى زوجة وفية لك . . . لنبدأ بداية جديدة فى كل شيء . . .

دخل الدكتور دون ان يطرق الباب على عادته ، ومعه آخر عدد من جريدة واخذ يعلن الانباء العسكرية بصوت راعد :

– ان الادميرال كولتشاك ، ذلك الرجل الذى طرد الادارة من اومسك ، واقام للعمال حمام دم قد نصب نفسه الحاكم الاعلى لروسيا بدون تواضع ! . . . واعترف به الفرنسيون والانجليز . . . ما رايك فى هذا ؟ ان له جيشا قوامه ستمائة الف رجل وسيتنازل على ما يبدو عن الشرق الاقصى لليابانيين بلطف ! ثم اسمع الشيء التالى : ان الاسطول الانجليزى والفرنسى المتحد قد ظهر فى ممرات سيباستوبول ونوفورسيسك المائية . . . حلفاء ! انظر ايا ساعدنا ليربح الحرب بدمائنا ! – ومط الدكتور شفتيه بحنق ، وتابع قوله – تدخل ، تدخل على المكشوف تماما ! يا داريا ديميتريفنا لا تنظرى الىّ بهاتين العينين الرهيبتين . . . خذى

* سولفيج – شخصية نسائية من دراما ابسن الشاعرية «بيرغونت» . **المترجم** .

زوجك ، وتعالا الى غرفتى لتناول حساء البورش . . . انت تذكرين الرجل الذى كان يرقد عندنا مصابا بجراح حراب . لقد ارسل لى كيسا من الكرنب ووزة ولحم خنزير . . . مع الاسف ، يا ايفان ايليتش ، مع الاسف انك تأخذ منى مثل هذه الممرضة الرائعة على مرأى منى . . . بالمناسبة سنشرب اليوم الفودكا ، وليذهب جميع المتدخلين الى الجحيم . . .

١١

احتاج فاديم بيتروفيتش الى شيء قليل ليتغلب على تردده . وكان هذا الشيء القليل هو وقوعه على اثر لكاتيا . فان اثر قدم امرأة حافية على رمل شاطئ يجعل رجلا يؤلف فى مخيلته قصة كاملة عن تلك – الرائعة – التى مرت من هنا على ضجيج امواج البحر الكبير . شبت فيه عاطفة الغيرة المعذبة ، متغلبة على افكاره اليائسة ، وجزعه القاهر ، وصار كل شيء يبدو له بسيطا واضحا .

غادر يكاترينوسلاف فى تلك الليلة ذاتها (بعد الحديث مع الضابط الالمانى) . ترك الحقيبة فى الفندق ، ولم يأخذ معه غير تبديلة من الملابس الداخلية ، وحقيبته الظهرية . وفى الطريق خلع كتافيتيه كضابط ، وعقدة شريط القبعة ، وخلع الشارة من كمه الايسر ، والقاها من النافذة ، ومع هذه القاذورات ذهب نهب الريح كل ما كان يبدو له حتى تلك الليلة فى «بى – با – بو» ضروريا لاحترام النفس . افرج ساقيه ، وحشر كفيه وراء حزامه وجلس على التخت فى العربة المظلمة الفارغة تقريبا ، وقد افعم قلبه فرح وحشى . انها الحرية ! كان القطار ينطلق به الى كاتيا . ومهما حدث لها ، فانه سيجد طريقه اليها ، ولو تقطع جسده اربا اربا .

فى يكاترينوسلاف حذر ناظر المحطة من ان قطاع الطرق عادوا الى طغيانهم فى منتصف الطريق الى روستوف ، وهذا هو آخر قطار يتجه شرقا ، وليس من المؤكد حتى ما اذا كان سيسير على الخط الاسفل عبر غولاى – بوله ، او على الخط الاعلى عبر يوزوفكا . وفى المحطة نفسها تحدث الجابى الاقدم الى المسافرين الذين احاطوا به عن قطاع الطرق الذين ينطلقون فى السهب على العربات بحثا عن

الغنائم ، ويضرمون النار فى ضياع اصحاب الارض الذين ما يزالون لحماقتهم قابعين فيها ، ويهاجمون بجرأة المستودعات العسكرية ومصانع التقطير ، ويحومون حول المدن .

وقال الجابى الاقدم بصوت جهورى :

– لا بأس لو ان الاتمانات بلا رئيس . ولكن لهم رئيسا . وماخنو اتمان على جميع الاتمانات . رجل له شعبية – وله دولة كاملة وعاصمة هى غولاى – بوله . وهو لا يضيع وقته فى الصغائر . انه يدع القطارات تمر دون عراقيل ، ولكن يفتشها بالطبع ، ينزل من يشاء ، ويطلق النار عليه فى البقعة امام ملوحة الخط الحديدى . فى السفرة الاخيرة ، ونحن نقترب من الرصيف رأيت ماخنو يقف تحت الجرس وهو يدخن سيغارا . قفزت من العربة ، واقتربت منه ، واديت له التحية . ومع ذلك فقد قال لى بغلظة : «انزل يدك . فانا لست قيصرا او ربا لك . . . هل معك شيوعيون ؟» اجبته «لا ، على الاطلاق» – «او حراس بيض ؟» ، – «لا ، مجرد مسافرين محليين» – «وهل تنقل تحاويل نقدية ؟» وشعرت بان صدرى يتمزق . قلت له : «تعال ، وتأكد بنفسك . عربتا الامتعة والبريد فارغتان» – «حسنا ، اذن ، سر بالقطار» .

وكانت التوقفات فى المحطات الصغيرة مؤلمة ، سكون دمدمة العجلات ، الركود ، الانتظار المرهق . وكان فاديم بتروفيتش يخرج الى فسحة العربة ، فلا يرى احدا على الرصيف المظلم ، ولا على الخطوط . لا شيء غير ضوء شاحب لفتيلة مغروزة فى زيت يتراءى اصفر من نافذة المحطة ، وشخصين يُريان جالسين هما الجابى والمختص بالبرقيات مستعدين للجلوس هكذا طوال الليل ، وقد دفنا انفيهما فى ياقتيهما . والذهاب اليهما ، والاستفسار بلا فائدة . فان القطار يتحرك حين يعطى الطريق له من المحطة المجاورة ، وقد تكون تلك المحطة خالية من كل شخص حى .

استنشق فاديم بتروفيتش الهواء البارد ، وقد توتر كل جسده ، وتصلب . . . لم يكن فى هذا الظلام الخريفى ، فى روسيا المقفرة المترامية الاطراف غير نقطة واحدة حية – قطعة من اللحم الحار يشعر بحب عارم نحوها . . . كيف كان من الممكن ان يتملكه ذلك الاحساس المعتم فى لحظة من لحظات الرغبة العاتية فى الانتقام

والتنكيل ليدفعه الى ان يلقى عنه يدى كاتيا المتشبثتين به فى اعلى درجات القنوط ، ويتركها بفظاظة وحيدة ، فى مدينة غريبة . ومن اين ستاتيه تلك الثقة التى تجعله ، بعد ان يجدها ، وبدون ان ينطق بكلمة واحدة (تلك هى الطريقة الوحيدة المقبولة) يرمى نفسه نحوها ليقبل قدميها بجوربيها المرفوئين للغاية ، على الاكثر ، ويحصل مع ذلك على الغفران منها ؟ ان مثل تلك الخيانات لا تغتفر بسهولة !

وبينما كان فاديم بيتروفيتش مسترسلا وحده فى افكاره فى فسحة العربة ، متمتما فى غضب ، محركا حاجبيه ، خرج الجابى من المحطة ، ووقف عند العربة غير مكترث بما قد يقطع القطار من مسافة . . . سأل فاديم بيتروفيتش هل سيطول الانتظار ؟ لم يجد الجابى الرغبة حتى فى هز كتفيه . كانت الريح تهز الفانوس المسود الذى كان يمسكه فى يده فيكشف عن اطراف معطفه الاسود المتطايرة . وفجأة انطفأ الضوء الشاحب فى نافذة المحطة ، وصُفق باب . وتقدم المختص بالبرقيات وظل الاثنان يطيلان النظر فى ملوّحة الخط الحديدى .

همس المختص بالبرقيات :

– اطفئه !

رفع الجابى الفانوس الى وجهه المشوورب المنتفخ ، ونفخ على الذبالة الساخمة وصعد فى الحال مع المختص بالبرقيات الى فسحة العربة ، وفتح الباب فى الجانب الآخر من العربة .

– اخرج – قال الجابى لفاديم ونزل على عجل وهرول .

قفز روتشين فى اثره . تعثر بالخط ، ووقف على كومة من العوارض ، وصعد الى حقل كانت الظلمة اشف قليلا فيه ، فلاح شخصان سائران . لحق بهما . قال المختص بالبرقيات :

– فى هذا المكان حفر . اللعنة على الظلام ! كانوا يرفعون الرمل . وانا دائما اختفى هنا .

وتبين ان الحفر كانت تقع الى اليسار قليلا . نزل روتشين فيما يشبه الخندق مقتفيا اثر صاحبيه . وبعد قليل جاء شخصان آخران هما سائق القطار والوقاد ، وارسلا الشتائم ، ثم نزلا الى الحفرة ايضا . زفر الجابى زفرة ثقيلة :

– ساترك هذه الخدمة . لقد ضجــــرت . اية مواصلات هذه !

قال المختص بالبرقيات :

– صتما . الشياطين آتون .

الآن كانت كركبة حوافر الخيول تسمع من السهب ، ومعها قعقعة عجلات العربات .

سأل الجابى المختص بالبرقيات :

– من الذى يعبث فى هذه الانحاء ؟ جاكى الموت ؟

– لا . ان هذا فى غابة ديبريفسكى الآن . بل اظنها ماروسيا ، لا وليست هى ايضا . فمن عادتها ان تجرى بالمشاعل . . . لا بد انه اتمان صغير من هذه النواحى .

قال سائق القطار بصوت مبحوح :

– لا ، ابدا . انه ماكسيوتا من اعوان ماخنو . . . اللعنــة عليه . . .

زفر سائق القطار ثانية :

– عندى يهودى فى العربة الثالثــة ومعه حقائب . . . لم اخبره ، مؤسف . . .

كانت كركبة الخيول تقترب ، وكأنها الريح قبيل العاصفــة الرعدية . اخذت العجلات تدمدم على البلاط قرب المحطة . وارتفعت صيحات : «هيا ، هيا !» . وسمع صوت تحطم زجاج ، وطلقة ، وزعيق قصير ، وضربــات على الحديد . . . اخذ الجابى ينفخ فى يديه المكورتين :

– لا بد ان يفعلوا ذلك . ان يكسروا زجاج النوافذ ، على عادة السكارى . . .

لم يستمر كل هذا الشغب طويلا . وصــدر صوت يائس «اركبوا» . وصرفت العربــات ، وحمحمت الخيــول ، وقرقعت العجلات ، وانطلقت عصابة الاتمان مبتعدة فى السهب . عند ذاك خرج الجالسون فى الحفر ، وعادوا على مهل نحو القطار المظلم ، وصعدوا الى اماكنهم . اشعل المختص بالبرقيات قنديل الزيت ، واخذ يتصل بالمحطة المجاورة ، وتفقد السائق والوقاد القاطرة ليتاكدا من ان قطاع الطرق لم ينتزعوا شيئا مهما منها . وصعد

روتشين الى العربة . وتمتم الجابى وهو يسحق بقدميه هشيم الزجاج المحطم على الرصيف :

– وهذا ما حصل . قتلوا المسكين . . . فلو اخذوا الحقائب وحدها . ولكنهم يريدون دائما ازهاق روح انسان .

ومضت فترة اخرى من الوقت طويلة وغير معلومة ، وصفر الجابى اخيرا صفرة قصيرة ، واعولت القاطرة كالساخطة فى السهب الخاوى ، واتجه القطار نحو غولاى – بوله .

وضع فاديم بيتروفيتش مرفقه على الطاولة المطوية ودفن وجهه فى يديه ، وراح يركز ذهنه كله فى حل المشكلة : ان كاتيا غادرت روستوف فى اليوم التالى مباشرة ، بعد ان ابلغها اونولى النذل عن موته . ومعنى ذلك فان لقاءها مع الضباط الالمانى فى القطار جرى بعد يومين . . . ولنفرض ان هذا الالمانى سرّى عنها بدون اى محاولة للطمع فيما ياتى . . . لنفرض انها كانت فى ذلك اليوم فى حاجة ماسة الى من يبعث فى نفسها السلوان . ولكنها بعد يوم واحد من فقدها لمن تحبه كتبت فى دفتر رجل غريب ، وبشكل متقن جدا ، عنوانها ، واسمها ، واسم ابيها دون ان تنسى ان تضع الفواصل بين العبارات . ان ذلك للغز ! السماء قد اطبقت عليها . وزوجها المحبوب مطروح فى مكان ما ، كالجيفة . ان من الطبيعى ، على ما يبدو ، ان تصاب بياس قانط فى الايام الاولى من ذلك . يظهر انها اعطت عنوانها على «شباك البريد» . ومعنى ذلك انها كانت تجد بصيصا من الامل . . . فاى لغز !

– ايها المواطن ، ارنى اوراقك – وجلس الجابى مقابل روتشين ، ووضع الفانوس المسخم بالقرب منه – حين نتجاوز غولاى – بوله يمكنك ان تنام باطمئنان .

– سانزل فى غولاى-بوله .

– اها . . ذلك يزيد الامر ضرورة . . . انا الذى سيسالوننى : من احمل من الركاب . .

– ليست لدى اية اوراق . . .

– وكيف يكون ذاك ؟

– قطعتها ورميتها .

– عندئذ يجب ان ابلغ عنك . . .

– بلغ ، عليك اللعنة . . .

– ولم هذه اللعنة فى مثل هذا الوقت ؟ . . هل انت ضابط ؟

كانت افكار روتشين مشدودة متوترة ، فاجاب من خلال اسنانه :

– فوضوى .

– نعم ، مفهوم . . . نقلت الكثيرين من اخوانك من يكاترينوسلاف . – وتناول الجابى الفانوس ، وامسكه بين رجليه ، واطال النظر ، حيث كانت الشرارات التى ترسلها القاطرة تتطاير وراء النافذة المظلمة . وقال بخفوت : – انت رجل مثقف . فعلمنى كيف اتصرف ؟ فى السفرة الماضية تكلمت ايضا مع فوضوى ، وهو رجل رصين اشيب وعق . قال لى : «نحن لسنا بحاجة الى السكك الحديدية ، سنندمرها كلها بحيث تكون نسيا منسيا . فان السكك الحديدية تولد العبودية والراسمالية . سنقسم كل شىء على الناس بالتساوى ، والانسان يجب ان يعيش على الطبيعة ، وبلا سلطة ، كالحيوان . . .» شكرا على ذلك ! . . . انا اشتغل على القطارات منذ ثلاثين عاما ، وقد بنيت من ذلك بيتا صغيرا ، فى تاغانروغ ، حيث توجد زوجتى العجوز مع معزة وشجرتى خوخ فى الحديقة . وذلك كل ما املك . فما حاجتى الى هذه الطبيعة ؟ ان ارعى المعزى على المنحدر ؟ قل لى هل كان هناك نظام فى الحكم السابق ؟ كان هناك استغلال ، وانا لا انكر ذلك . لناخذ عربة من الدرجة الاولى نجد الهدوء والاحتشام . بعضهم يدخن سيغارا ، وبعضهم يهوم بمهابة ووقار . فتحس ان هؤلاء مستغلون ، ولكن لا تسمع سبابا صريحا . اعوذ بالله . . . فترفع يدك بالتحية ، وتمر فى العربة بهدوء . . . اما فى الدرجة الثالثة فالفلاحون ، بالطبع ، متكومون واحدا فوق الآخر ، ولا مجال للخجل . . . كل ذلك كان موجودا ، بالتاكيد . . . ولكن كان لديك ايضا دجاجة محمصة ، ولحم خنزير مقدد ، وبيض ، اما الخبز فانت تذكر الارغفة ، يا صاحبى ؟ – وصمت ناظرا الى الشرر وراء النافذة – هذا محور يحترق فى عربة الامتعة . بسبب انعدام الزيت ، يعنى ان النقليات فى طريقها الى النهاية بدون تدخل الفوضويين . . . والآن قل لى ماذا سيحصل الآن ؟ استبدلوا القيصر برادا ، والرادا

بالهيتمان ، والهيتمان بمن سيستبدلونه ؟ بماخنو ؟ اراد احد الحمقى ان يصب سكين محراث ، فوضع الحديد على النار حتى ذوب نصفه واتلفه ، فقال لنفسه : لاصنع فاسا ، فاذاب نصف الباقى ايضا ، ولم يبق الا ما يمكن ان يصنع منه مثقبا ، فاخذ يطرقه بمطرقته طرقا شديدا حتى لم يبق شيء . . . وهكذا . . . لا نظام ، ولا خوف ، ولا سلطان . . . ستصل الى غولاى - بوله وترى كيف يعيش الناس فى ظل «النظام الفوضوى الحر» . شيء واحد يمكن ان اقوله : انهم يعيشون فى سكر ومتعة لم يسمع احد بمثلها منذ قديم الزمان . وقد اعلنت المنطقة كلها «بستان عنب» . وما اكثر المومسات اللواتى نقلتهن الى هناك ! . نعم ، كلامى بلغة الشيوخ ، فاعذرنى ، ايها الرفيق الفوضوى : ان روسيا ضاعت . .

اخذ الكثيرون من الفلاحين الميسورين الذين انضموا فى الصيف الى فصائل الاتمان يفكرون الآن فى العودة الى قراهم . حملوا العربة بكل ما وقع من نصيبهم بالعدل من الغنائم ، وحولوا العملات المحلية المختلفة الى العملة القيصرية ، وشدوا المشمع بقوة على اشيائهم ، وربطوا سخانا فى المحور الخلفى . وخرج بعضهم سرا ، وآخرون ذهبوا علانية الى الاتمان : «وداعا ، يا سيد ، لست جنديا عندك بعد الآن» - و«لم ذاك ؟» «مشتاق الى بيتى . لا اجد لى رغبة فى طعام او شراب او نوم . وحين تقتضى الحاجة مرة اخرى ، ادعنا وسنأتى» ، وشدوا الخيول الجيدة ، وخرجوا الى الضياع ، والقرى والنواحى التى تخلصت من ايواء الجنود الالمان .

وفكر الكسى كراسيلنيكوف ايضا فى ذلك . تشاور مع ماترينا زوجة اخيه ، بل ومع كاتيا روتشينا ايضا فيما اذا كان من المبكر العودة الى البيت ؟ العلهم سيجدون فى انتظارهم منغصات . . فان من المتعذر التسلل الى قرية فلاديميرسكويه سرا ، وقد تلقى عليهم مسؤولية قتل العريف الالمانى . والالمان قوم جادون . ومن ناحية اخرى فانهم حين يجدون النار قد اتت على كل شيء سيضطرون الى بناء البيت ، وتنظيم المرافق . وكل ذلك يجب ان يجرى الآن ، فى الخريف .

كان نصيب الكسى كراسيلنيكوف من غنائم جيش ماخنو خمسة خيول فتية قوية ، وثلاث عربات من الاشياء والاقمشة

ومختلف المتاع . وكل هذه الاشياء جمعتها ماترينا اكثر مما جمعها الكسى . فقد كانت تحضر الاجتماعات غير هيابة ، حيث كانت فصيلة الاتمان او ماخنو نفسه يقسم الغنيمة . وكانت دائما مهندمة جميلة مهتاجة فكانت تاخذ ما تريد . وحين كان احد الفلاحين يتهيأ للجدال معها كان هدير الضحك ينفجر فى كل مكان حين كانت تنتزع منه الشيء المتنازع عليه سواء أكان شالا او معطفا فرائيا او قطعة من القماش الجيد . وكانت تقول : «انا امراة ، وانا احوج الى ذلك . فانك ستبيعه لتشرب بثمنه ، ايها اللص . ستاتى به الىّ ليلا . . .» كما كانت تبادل وتقايض ، وكانت تحتفظ فى العربة ببرميل من الخمرة لهذه الغاية .

قلب الكسى الافكار فى راسه ، ولم يستقر على راى ، حتى وصل نبأ سار ، وهو ان سكوروبادسكى الذى تخلى عنه الالمان وقواته نفسها قد تنازل عن الهيتمانية ، وان رجال بيتلورا دخلوا كييف ، واعلنوا فيها «الجمهورية الاوكرانية الديموقراطية» . وفى نفس الوقت تحرك الجيش الاحمر الاوكرانى من الحدود السوفييتية . وكان الامر الاخير يوحى بالثقة التامة .

فى الليل ، ودون علم احد جلب الكسى الخيول من السهب ، وايقظ ماترينا وكاتيا ، وطلب ان يعد الفطور بينما هو يشد الخيول الى العربات . واكلوا حتى الشبع قبل ان يخرجوا فى السفر الطويل . وقبل انفلاق الفجر ساروا خلال طريق وعر فى الضباب قاصدين بيتهم فى فلاديميرسكويه .

كان من الصعب ان يرى المرء فى كاتيا روتشينا المسافرة على عربة فى سترة من فراء الغنم ، وحذاء طويل ملطخ ، والريح قد اسفعت خديها ، وتركتهما كالخوخ ، ان يرى فيها تلك السيدة الناعمة المتهيئة عند اقل صدمة تصيبها فى الحياة ، الى ان تلملم اطرافها مثل قطيطة مسكينة . كانت ، وهى نصف مستلقية على القش ، تسوط الحصان حتى لا يتاخر عن الخيول الثلاثة التى كان الكسى يسوقها على عربته فتتدفع بين الحين والآخر فى عدو . اما العربة الاخيرة فكانت تسوقها ماترينا التى لم تكن تثق حد ماشيا كان او راكبا .

كان السهب مقفرا . وكان الثلج يلوح فى ثنايا الوهاد وقد حملته رياح كانون الاول من الهضاب الطباشيرية . وفى الافق كانت ترتفع اهرامات بلون الصدأ هى ما تخرجه المناجم . والحياة لم تبدأ بعد فى المنطقة التى هجرها المحتلون . وقد انضم الكثيرون من عمال المناجم والمصانع الى فصائل الحمر ، وهم الآن يحاربون قرب تساريتسين . وهرب كثيرون الى الشمال ، حيث كانت وحدات الجيش الاحمر الاوكرانى تتشكل عند الحدود السوفييتية . وقد نما العشب فى الطرقات ، والاعشاب فى حقول الذرة المهملة ، حيث كانت اضلاع صفراء لفرس ميت تبرز من خلالها هنا وهناك . ولم يكن فى تلك المنطقة غير النادر من البيوت .

كانت ماترينا تردد قائلة لاخى زوجها : «ابتعد عن الناس ، ولا تنتظر منهم خيرا» . فكان الكسى يكتفى بالضحك «آوه ، ثعلبة . . . كنت امراة عذبة . . . والآن اصبحت مفترسة ، يا عزيزتى ماترينا . . .»

وكان لكاتيا وقت وافر للتفكير ، وهى تهتز فى العربة ، وتقضم القش . كانت تدرك حق الادراك انهما يحملانها الى قرية فلاديميرسكويه كغنيمة لالكسى ايفانوفيتش ، ولربما هى اغلى كل ما كان له محملا على العربات الثلاث . ومن هى غير اسيرة من العالم المحطم ؟ سيقيم الكسى ايفانوفيتش على ركام بيته بيتا جيدا ، ويفصله عن الناس الآخرين بسياج قوى ، ويخبئ فى السرداب كل نفائسه ، ويقول بحزم : «كاترينا ديميترييفنا ، لم يبق الآن الا شىء واحد – الاخير – وانت صاحبة الكلمة . . .»

كانت الحياة بكليتها تبدو لها كمدينة احرقتها الحرب : اكواما من الرماد ، ومداخن مواقد محروقة . مات الاحباء ، ولا خبر عن الاعزاء . قبل فترة تلقت ماترينا رسالة من زوجها سيميون مرسلة من سامارا ، كتب فيها ، فيما كتب ، انه ذهب الى العنوان المذكور فى الشارع الذى كان يسمى دفوريانسكيا سابقا ، ولم يجد هناك دكتورا يدعى بوليافين ، ولا احد يعرف الى اين ذهب مع ابنته . ولم يبق لكاتيا غير شخصين يشفقان عليها ويحبانها مثل قطيطة اليفة هما الكسى وماترينا . فهل من المعقول انها كانت قادرة على ان ترفض لهما امرا ؟

كان لا بد لها ومنذ زمن طويل ان تصير عجوزا محت الدموع بريق عينيها بعد ان عانت تلك السنين الطويلة الغاصة بالاحداث كقرن من الزمن . الا ان خديها كانا يتوردان اذا مستهما الريح الباردة فقط ، وكانت تحس بدفء كدفء الشباب ، وهى فى فروتها . وكان هذا الاحساس بالشباب الذى لا يزايلها يفعمها بالاسى ، فهل شاخ قلبها ؟ ام هو ايضا ليس كذلك ؟

وقد قالت لها ماترينا غير مرة : «ان الرب قد ربطها بهما ، والرب وحده سيحل هذا الرباط» . ولم يفرض عليها الكسى مثل هذه الاحاديث قط . ولكنه فى بعض المناسبات جازف بشدة لينقذ كاتيا من اذى مباشر متصرفا كرجل ازاء امراة يحرص عليها لنفسه . وما كان فى وسع كاتيا ان ترفضه ، فما كان لها ان تجد الكلمات لتبرر جحودها . ولكنها كانت تود الا يحدث ذلك اطول فترة ممكنة . كان الكسى ايفانوفيتش رجلا جذابا – كان الشمس تشع دائما فى وجهه المفتوح الغليظ قليلا – وكان قويا رابط الجاش ، مستقيم الظهر ، عريض الصدر ، شعره الغزير كالطرة ، وكان جريئا متعقلا فى ساعة الخطر ، يعامل كاتيا بطيبة ورقة مشوبة بالدعابة . ولكن كاتيا ، حين تفكر فى اليوم الذى لا بد ان تصبح فيه قريبة منه ، كانت تغمض عينيها وينكمش جسمها كله ، وكانها تود ان تدفن نفسها فى القش على العربة .

ذات مرة ، فى وقت الغداء ، انعطفوا عن الطريق الى جدول كوّن فى تلك البقعة مجمع ماء صغيرا عليه اطلال طاحونة مائية وقصب مداس . ذهبت ماترينا لتجمع حطبا للنار ، وسارت كاتيا الى الجدول لتغسل القدر . وبعد قليل من الوقت جاء الكسى والقى قبعته وقفازيه على العشب ، وجلس عند الماء قرب كاتيا ، وبلل وجهه بالماء ، ومسحه فى طرف فروته . . .

– ستجمدين يديك . . .

وضعت كاتيا القدر على العشب ، ورفعت جسمها من على ركبتيها ، وقد احست بيديها تجمدان حتى العظام ، نفضت عنهما قطرات الماء واخذت تمسحهما ايضا بفروتها .

قال الكسى متوترا خشنا متحفزا :

– اظن ان الناس كانوا يقبلون يديك هاتين فى العهد القديم .

حدجته بنظرة صافية وكانها تساله : ماذا حصل ؟ لم تكن كاتيا تعرف قط قوة جمالها ، وتعتبر نفسها ببساطة قلب حلوة ، واحيانا حلوة جدا ، وتحب ان تكون موضع اعجاب ، مثل طائر صغير ينفش ريشه (حين تبدأ الشمس الوردية تشع على الندى الشاحب ناهضة بين جذوع الاشجار) . ولكنها لم تكن عارفة بجمالها الذى جعل الكسى ايفانوفيتش الآن يصرف عنها عينيه بعد ان لمعتا لمعانا جافا .

– اريد ان اقول : عندى قنينة زيت عباد الشمس فى العربة ، فادهنى به يديك ، والا فستتشقق البشرة . .

وبدت ابتسامته الهازئة المعتادة تطل على شفتيه الطريتين تحت شاربيه الاجعدين الخشنين . زفرت كاتيا مستروحة ، ولو انها لم تفهم تماما كم كان قريبا فى هذه المرة ذلك الشىء الذى لم تكن تريده . كان الكسى ، بعد ان ذهبت ماترينا لجمع الحطب ، يحدق فى كاتيا الجالسة قرب الماء ، اما بتأثير النعاس وهو مستلق على القش فى العربة المتارجحة ، واما من سكون السهب الجاثم . وقد جاء اليها مثل صبى سمع فجأة صوت العصا تهبط على الواح الغسيل عند النهر ، فحدس ان الجارة بروسكا تغسل الغسيل رافعة تنورتها وربلتا ساقيها تبدوان بيضاوين شهيتين ، فاذا به ينسل اليها خفية خلال نبات الارقطيون والقراص مستنشقا بنهم جميع الروائح التى استحالت فجأة روائح مثملة . ولكن فى هذه الحال لم يكن الخوف هو الذى اوقف الكسى ايفانوفيتش ، فان تخويفه لم يكن من السهل . بل ان كاتيا بنظرة عينيها الجميلتين الهادئتين قالت له : ليس هذا جميلا ، ولا لائقا .

وكان يسيطر على نفسه فى مواقف اصعب من هذه المواقف التافهة ، ومع ذلك فقد كانت يداه ترتجفان وكانما بعد جهد بذله فى رفع حجر طاحونة . تناول القدر من على العشب .

– هيا اذن ، لنطبخ عصيدة – واتجها نحو العربات – يكاترينا ديميتريفنا ، لقد تزوجت مرتين فلماذا لم ترزقى بطفل ؟

– هى الظروف ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . زوجى الاول لم يرغب فى ذلك ، وانا كنت حمقاء .

– والمرحوم فاديم بيتروفيتش لم يرد ايضا ؟

قطبت كاتيا حاجبيها ، واشاحت بوجهها ، ولم تجب .

– كنت اريد ان اسالك منذ زمان . . . ان تجربتك كبيرة . . . كيف بدات هذه الاشياء الحلوة ؟ هل قبل زوجاك ، اقصد خطيبيك ، يديك ؟ تطرقا وحاما حول الامر ؟ كيف يجرى هذا الامر عند السادة ؟

وصلا الى العربات . القى الكسى على الارض عدة الفرس التى كانت على العربة ، القاها بكل قوته ، وتناول قوس العريش من تحت العربة ، واسنده الى العريش ، واخذ يشد القدر الى نهايته . . .

– انت من الطبقة الراقية ، وانا من بيت فلاحى . . . وقد التقينا فى طريق ضيق . وليس لك من عودة الى الوراء . . انتهى الامر . والشىء الذى لم نقلبه راسا على عقب بعد ، سنقلبه حتى النهاية قريبا . . . وليس لك من مخرج غير ان تجدى سيدا جديدا . . .

– هل اسئت اليك فى شىء ، يا الكسى ايفانوفيتش ؟

– لا ، ابدا . . . انا الذى اريد ان اسىء اليك ، ولكن كلماتى لا تكفى . . . فلاح . . . احمق . . . كم انا احمق . . . انا اعرف ، اعرف . . ان كل ما تفعلينه هو ان تنتهزى فرصة لتهربى الى الخارج . . . احسن مكان ملائم لك . . .

– كيف لا تخجل من ذلك ، يا الكسى ايفانوفيتش ! هل فعلت شيئا استحق عليه هذا الاتهام ؟ . . . انا مدينة لك بكل حياتى ، ولن انسى ذلك ابدا . . .

– ستنسين . . . ارايت كيف تخاف ماترينا الناس ؟ وانا ايضا لا اثق بالناس . . . منذ عام ١٩١٤ وانا اسبح بالدم . اصبح الانسان اليوم حيوانا . ولعله كان من قبل ايضا ، ولكن لم نكن نعرف . كل واحد ينتظر ان يلقى الآخر من على سرجه . وانا ايضا حيوان ، ام لعلك لا ترين ، ايتها الحمامة الوديعة . . انا اريد ان يعيش اطفالى فى بيت آجرى ، وان يتكلموا بالفرنسية احسن منك . . باردون ، ميرسى . . .

جاءت ماترينا تحمل بين ذراعيها عساليج وجذامات ، والقتها تحت القدر المتدلى من طرف العريش ، وامعنت النظـــر فى الكسى وكاتيا .

– لا يحق لك ان تكدرها ، يا الكسى – قالت بصوت خافت – هل رويت الخيول ؟

استدار الكسى ، واتجه نحو الخيول . واخذت ماترينا تضع الحطب تحت القدر :

– انه يحبك . كم خطبت له من الفتيات ، وهو لا يريد . . . وانا لا ادرى ماذا يحصل لكما . صعب عليكما كليكما . . .

انتظرت ماترينا ان تقول كاتيا شيئا . اخرجت كاتيا الحبوب المدقوقة وشحم الخنزير صامتة ، وبسطت قماشة على الارض ، واخذت تقطع الخبز .

– لماذا تصمتين ؟

زادت كاتيا من اطراقة رأسها ، وهى تقطع الخبز . وتحدرت الدموع على خديها .

كانت سهوب يكاترينوسلاف الخصيبة الممتدة نحو البحـــر الاسود وبحر آزوف منطقة جديدة . لقد كانت من قبل تدعـــى بالسهب الوحشى ، حيث كان السكيثيون القصار البدنـــاء الطوال الشعور ينطلقون على خيولهم الشعثاء خلال اعشاب تصـــل الى اكتافهم ، والتجار الاغريق المعتمدون على حراسة موثوقة يتنقلون من الفيوبول الى تانياس ، والقوط الرحل بعرباتهم الضخمة مـــا بين البحرين يسوقون قطعانهم من الماشية . والى هذه المنطقة ايضا اندفعت من حدود الصين الشمالية جحافل هون المتعددة اللغات مثل سحب الجراد ناشرة الرعب الشديد حتى ظلت هذه السهوب مقفرة قرونا عديدة ، ونصب الخزر خيامهم المخططة فى طريقهم من دربند ليحاربوا روسيا الدنيبريـــة ، وطافت قبائل البولوفتريين بقطعانهم الهائلة من الخيول والجمال ، وهم فى قفاطينهم الحريرية الخوارزمية حتى وصلوا الى استحكامات سفياتسلاف ، وبعد ذلك

بزمن وطأتها جحافل التتر بخيولهم الخفيفة متجمعين لشن الغارات على موسكو .

ومضت موجات الاقوام ، ولم تبق الا حدبات القبور ، وعلى بعضها اصنام حجرية ذات وجوه مسطحة وايد صغيرة مطويـــة على البطن . واخذت سهوب يكاترينوسلاف تستوطن بزراع الحبـــوب الاوكرانيين والروس والقوزاق النازحين مـــن الدون وكوبان والمستعمرين الالمان . وكانت جديدة عليها القـــرى الكبيرة ، والضياع التى لا تعد وهى بلا عادات متوارثة ، ولا اغان قديمة ، ولا بساتين زاهرة ، ولا مروج مروية . لقد كانت منطقة قمح واصحاب اراضى اغمار حسنى الاطلاع على اسعار القمح فى الخارج . كما كانت غولاى – بوله جديدة ايضا . بلدة صغيرة كئيبة ممتدة على طول نهير غايتشور المستنقعى والناضب الميـــاه بين الحين والآخر .

كانت المسافة بين محطة القطار وغولاى – بوله سبعة فراسخ عبر السهب . استأجر روتشين عربة «حنطور» اوصلته الى السوق الكبيرة الممتدة فى مرجة . وفى السوق اخـــذ فاديم بيتروفيتش يماكس على دجاجة محمصة مع امراة وقحة تجلس منفرجة الساقين على عربة بين الحوائج التى جلبتها من القرية للبيع . وكانت هذه المراة التى لم تكن تجيد عملها تحتد فتدفـــع بضاعتها الى انف المشترى تارة ، وتنتزعها من يده تارة اخرى ، وتشتمه بصوت زاعق متلفتة فى كثير من الحركة مخافة ان ينشل شىء من عربتها . طلبت خمسة روبلات ثمنا للدجاجة المحمصة ، ثم عدلت عن طلبها فى اللحظة التالية فلم ترد ان تبيعها بالفلوس ، بل بلفـــة من الخيوط . قال روتشين لها :

– خذى الفلوس منى ، يا حمقـــاء . يمكنك ان تشترى الخيوط . هناك يبيعونها .

– لا استطيع ان اترك العربـــة ، اعد فلوسك الى جيبك وابتعد عن البضاعة . . .

وبعد ذلك شق طريقه الى رجل فى زى عسكرى غزيـــر الناصية ، مدجج بالسلاح كان يسير فى السوق ويهز على كفه

لفتين من الخيوط . القى نظرة كدرة على روتشين ، وحرك شفتيه المتورمتين قائلا :

— لا اقايض الا بالكحول .

وعلى هذا النحو لم يستطع روتشين شراء الدجاجة . كان اكثر ما يجرى فى السوق هو تجارة المقايضة ، والابتزاز الخالص ، حيث السعر يتحدد بالحاجة ، فكانت الابرتان تقايض بخنوص وبشيء آخر زيادة ،اما البنطلون الخالى من الرقع فكان يخوّل البائع مص دم المشترى . كان مئات من الناس يتاجرون ، ويصرخون ويشتمون آخذين طريقهم بين مجموعة كبيرة من العربات ، وفى نفس المكان كان الحلاقون يقتعدون مقعدا او حتى عجلة وقد نشروا ادواتهم امامهم ، وكان المصورون المتجولون ومعهم آلات تصوير وتحميض آنية تقف على ثلاثة ارجل يقدمون للزبون بعد خمس دقائق صورته الفوتوغرافية مبللة ، وكان عازفو الكمان العميان محاطين بالمستمعين غير متورعين من مد ايديهم فى جيب احمق يتثاءب . . . وكان جميع هؤلاء الناس مستعدين ان يقلعوا من اماكنهم فى اقصر وقت ، ويتفرقوا ويختبئوا اذا ما بدأ تراشق جدى بالنار وهو امر لم تكن اية سوق فى غولاى – بوله تسلم منه .

اخذ فاديم بيتروفيتش طريقه بين العربات ، فوجد نفسه فى جمع متهلل قرب دوارة . اناس ذوو شوارب فى بزة الفرسان ، وفى سترة البحارة ، وفى معاطف الخيالة القصيرة مسلحون بالقنابل اليدوية ومختلف الاسلحة الباردة والحارة . كانوا يجلسون فى اعتبار ويدورون على احصنة خشبية لها اعناق ممدودة بصورة خيالية واقدام طائرة . وكان احدهم يردد بصوت عالى النبرة متعجرف : «اسرع ، اسرع» . وكان شخصان فى ثياب رثة يديران الدوارة بكل ما لهما من قوة ، وعازفان على الاكورديون يعزفان لحن «التفاح» محركين المنفاخ بضراوة ، وكانما ليستوعبا كل ما فى نفوس احرار ماخنو من سعة وجراة . صاح الذين كانوا ينتظرون دورهم : «كفاية ، انزلوا !» فزار الدائرون على الاحصنة «اسرع !» . وهنا طارت قبعة احدهم من على راسه ، وفى نشوة الانشراح جرد شخص سيفه ، وضرب به الهواء وكانه يقطع به راس عدو موهوم . وعندئذ اندفع الواقفون فجاة وجذبوا الجالسين على الاحصنة والدوارة

دائرة . وحدث هرج ، ودمدمت قبضات مع صفير صافرة ، ثم دارت الدوارة من جديد ، وتخوصر الفرسان الجدد على الاحصنة بمناخيرها المتسعة المحمرة .

ابتعد فاديم بيتروفيتش اذ لم يجد هنا احدا متعقلا كان من الممكن ان يتحدث معه . اشترى من بائع متجول قطعة فطيرة فيها جبنة هشة ، وسار ، وهو يمضغها فى شارع عريض مصفوف بالبلاط . لم تبق لديه الا فلوس قليلة ، واذا قيس الامر على ما دفعه ثمنا للفطيرة فانها لن تكفيه اسبوعا واحدا . كان ينظر بسهوم الى البيوت الآجرية ذات الطابقين من تلك التى يبنيها التجار ، والى حوانيت الحنطة ، والدكاكين ، والى اللافتات الزاهية . كان يمضغ ويفكر بسهوم ايضا : ان توافه الحياة لم ترهبه كثيرا بعد ان وثب الى الحرية الفالتة .

قابله رجل يركب دراجة عجلتها الامامية متخلخلة . ثم عسكريان يركبان فرسين يرتديان سترتين جركسيتين بلا اكمام وقبعتين مائلتين من فراء الاغنام . وكان راكب الدراجة الصغير النحيل يرتدى بنطالا رماديا وسترة مدرسية وكان شعره السبط يكاد يصل الى كتفيه من تحت قبعة مدرسية زرقاء ذات ظليلة مؤطرة بالابيض زرقاء . وحين حاذى فاديم بيتروفيتش رأى بدهشة وجهه الناحل المعدوم الحاجبين . حدج روتشين بنظرة نافذة ومالت العجلة فى تلك اللحظة ، وتماسك راكبها بصعوبة مغضنا وجهه الاصفر المتيبس ، ومر به .

بعد دقيقة ادار احد الفارسين فرسه ، وخب به نحو روتشين ، وانحنى على سرجه متمعنا فيه بحدقتين متحركتين . سأل روتشين :

— ما الخبر ؟

— من انت ؟ ومن اين ؟

— من انا ؟ — واشاح روتشين وجهه من رائحة البصل والخمرة البيتية القوية — انا رجل مستقل قادم من يكاترينوسلاف .

سأل الفارس بلهجة تهديد :

— من يكاترينوسلاف ؟ ولاى غرض انت هنا ؟

— جئت لابحث عن زوجتى .

— تبحث عن زوجتك ؟ ولماذا خلعت كتافيتيك ؟

اجاب روتشين باكبر قدر مستطاع من الهدوء وهو يكظم غيظه :

– اردت ذلك ففعلت . لم استاذن منك .

– انت ترد بجراة .

– وانت ايضا لا تخوفنى ، فانا لست من الخائفين .

طوف الفارس ببصره فى وجه روتشين باحثا عن جواب . ورفع قامته فجاة ، ولاحت ابتسامة وقحة على وجهه المستطيل المشوه باختلال التناسق ، ولكز حصانه بمهمازيه ، وعدا نحو راكب الدراجة . استمر روتشين فى سيره متعثرا من الانفعال .

ولكن اولئك الثلاثة لحقوا به فى الحال . صاح راكب الدراجة ذو السترة المدرسية بصوت عال يوخز الاذن :

– لا يريد ان يتكلم معنا ، ولكن سيتكلم مع لوفكا .

ضحك الفارسان ضحكا صاخبا ، واطبقا على روتشين بفرسيهما من الجانبين . ومر راكب الدراجة متقدما الى الامام مديرا الدواستين بكل ما لرجل سكران من حول ، وردد الفارسان «امش ، امش» مجبرين روتشين على ان يهرول تقريبا بين الحصانين . وكان من العبث التخلص او الاحتجاج . توقفوا فى نفس الشارع عند بيت آجرى ذى حديقة صغيرة وطأتها الاقدام . كانت نوافذ البيت مطلية بالطباشير ، وفوق الباب يتدلى علم اسود تحته قطعة من الخشب الابلكاش كتب عليها : «المركز الثقافى التعليمى للجيش الثورى الشعبى للاتمان ماخنو» .

كان الغيظ قد غشى على ذاكرة روتشين حتى انه لم يتذكر كيف دفع الى البيت ، واقتيد عبر ممرات مظلمة الى حجرة تتناثر فيها البصاق والقذارة لها رائحة شديدة الحموضة تكتم الانفاس . ودخل فى الحال رجل مبتسم لامع الوجه يترنح قليلا لبدانته يرتدى سترة قصيرة من تلك التى كان يرتديها فى الاقاليم المعروفون من الموسيقيين والمغنيين الكوميديين .

– اذن ، ما الامر ؟

سأل الرجل وجلس عند طاولة مهزوزة بعد ان ازاح اعقاب السيكائر من عليها .

قال له ذو الوجه المعوج الذى صحب روتشين :

– امرنا الاتمان ان نعرف هل هو وغد ام شىء آخر .

– اخرج الآن ، يا رفيق كاريتنيك (وبعد ان خرج هذا) اجلس الآن .

قال روتشين منفعلا للرجل المبتسم البدين ذى السترة القصيرة :

– اسمعنى . انا اعرف اننى وقعت فى ايدى الاستخبارات . وانا اوضح لك من انا ولماذا انا هنا ، فليس لى ما اخفيه . . . . جئت لكى . . .

– انظر الىّ – قال الرجل ذو السترة دون ان يصغى اليه – انا ليفا زادوف ، ولا داعى للكذب علىّ ، سأستجوبك وسترد على استجوابى .

وكان اسم ليفا زادوف معروفا فى الجنوب بما لا يقل عن الاتمان ماخنو نفسه . فقد كان ليفا (لوفكا) جزارا ، ورجلا شديد البطش بشكل مذهل حتى زُعم ان ماخنو حاول غير مرة ان يقتله ، ولكنه كان يعفو عنه لولائه . وكان روتشين قد سمع عنه ايضا واحس لاول مرة بالدم يجمد فى عروقه . كان يقف امام الطاولة . لوفكا زادوف يجلس اجعد الشعر غزيره ، مورد الخدين ، متلذذا بسلطانه على رجل بث فيه الرعب .

– اذن ، تكلم ، هل انت من ضباط دينيكين ؟

– نعم ، سابقا . . .

– سابقا ؟ اى ، اى ، اى . . . من اين انت قادم ؟

– من يكاترينوسلاف الى غولاى – بوله . ها انا اقول لك. . .

– اى ، اى ، اى . . . . لماذا تقول لليفا انك قادم من يكاترينوسلاف ، بينما جئت من روستوف .

– لا ، جئت من يكاترينوسلاف .

واخذ روتشين يبحث عن تذكرة السفر بعجالة ، وسرت البرودة فى جسمه ثانية ، فقد يكون قد رماها . وتبين ان التذكرة فى جيب القميص مع صورة فوتوغرافية باهتة مدعوكة لكاتيا . قدم التذكرة الى لوفكا ، فقلبها هذا وقتا طويلا ، ودققها فى الضوء . لقد كانت التذكرة صحيحة على اية حال ، وهذا ما حير لوفكا قليلا ، وكان قد توصل ، على ما يبدو ، الى اعتقاد ، بل وحدد الحكم .

وغيرت التذكرة الامر كله . وكف لوفكا عن تكشيرة السخرية ، وارتعشت شفتاه الغليظتان بزراية :

– ما الذى جعلك تتوقف فى غولاى – بوله اذا كنت تحمل معلومات استخبارية الى قيادة دينيكين ؟

– انا لا احمل معلومات استخبارية . غادرت الجيش منذ شهرين ، وتركت الخدمة ، ومزقت الهوية العسكرية . وقد جئت الى هنا كرجل غير مرتبط . . .

لم يصرف لوفكا عنه عينيه السوداوين . وبذل روتشين كل جهده ليكبح انفعاله ، ويجيب اجابة مروى بها ، وهو تحت هـذه النظرة الخالية من اى شىء معقول وانسانى ، فانشأ يتحـدث (بتبسيط وسهولة ادراك) عن الاسباب التى دعته الى الهروب من الجيش . . .

قاطعه لوفكا بصوت هادئ :

– لو تكذب علىّ ايها الوغد ، مرة اخرى لفعلت بك ما لم يفعله احد . . . .

وبحركة سريعة لصوصية انتشل من روتشين صورة كاتيا ، وتمعن فيها مبتسما مثل رجل عليم بالنساء ، ونقر عليها باظفره وقال :

– من هذه الكلبية ؟

– زوجتى . . . جئت من اجلها . . . اعطنى الصورة . .

– ستوضع فوق جثتك الداميـة – وغطى لوفكا الصورة بيده البدينة – والآن ، هيا حدثنى عن معلومات استخبارية . . .

صاح روتشين :

– لن اقول كلمة اخرى لك بعد !

– ستقول لى ، فالناس ينطقون عندى .

ورفع لوفكا جسمه قليلا ، وضرب فاديم بيتروفيتش على وجهه مثلما يضرب القط بمخلبه . واخطأ التسديد فوقعت الضربة على الصدغ . ووقع روتشين مغشيا عليه .

كان اعداء الجمهورية السوفييتية يتصورون انها محكـوم عليها بالسقوط فى اقصر وقت تحت ضرباتهـم . الا ان هـذه

الجمهورية نظمت كل رهافة العقل والعلم ، وجميع قوى الشعـب الروحية والمادية لتتحول هى نفسها الى الهجوم . وكانت خطـة البلاشفة العسكرية هى اخضاع كل شىء لمهمات الدفـاع ، دون التراخى ساعة واحدة فى القيام بالتغيرات الاجتماعية العميقة ، مطبقة بشجاعة المبادئ التى كان تحقيقها خارج نطاق عمل اليوم . ومن ثم : انشاء جيش احمر قوامه ثلاثة ملايين رجل ، وتنظيم حماية فى الشمال ، والقيام بهجوم فى سيبيريا وجنوب الاورال ، وتشديد العمليات الهجومية بشكل رئيسى ضـد قوزاق كراسنوف على الدون ، وضد دينيكين فى شمال القفقاس .

واقامت جمهورية روسيـا السوفييتية الواقعة تحت ضغط الجيوش البيضاء من كل الجهات جبهة طولها اكثر من خمسة عشر الف كيلومتر ، اضيفت اليها بعد ذلك جبهة معقدة ومشربكة هى الجبهة الاوكرانية .

واشتد اوار الحرب الاهلية بشكل خاص فى اوكرانيا الغنية التى احدث الاحتلال القريب العهد والحكم الهيتمانى وعودة اصحاب الاراضى الانتقامية تصدعا عميقا بين الفئات المختلفة من سكانها . فانجذب العمال وعمال المناجم فى الدونباس والفلاحون ذوو الاراضى الصغيرة والعمال الزراعيون الى السلطة السوفييتية ، بينما انحاز الفلاحون الاغنياء والبرجوازية الى المديرية المستقلة ورئيسهـا الاتمان بيتلـورا خائفين من اللجان الثورية ، ولجان فقـراء الفلاحين ، واللجان التنفيذيـة ، والمفوضين ، ومصادرة فائض الحبوب . وكان بيتلورا موضع تأييد ايضا من المثقفين الذيـن كانوا يردون على موضوع الثورة السوفييتيـة بكل ضخامته : «اخرجوا ، ايها الموسكوفيون الملاعين !» وغطت الرومانطيقيـة القديمة للسراويل الفضفاضة بعرض البحر الاسود ، والعباءات القوزاقية ، والسيوف المعقوفة ونواصى الشعور الطويلـة على الحقائق التاريخية الحزينة حول التضحيات الدموية للشعب الاوكرانى الذى ناضل خلال ثلاثة قرون فى سبيل استقلاله .

طرد بيتلورا الهيتمان ، وتبوأ المديرية فى كييف ، واعلن جمهورية مستقلة ، وبدأ يخوض نضالا ميئوسا منه ضـد الثورة البروليتارية . وكانت له بعض الفرق المؤلفة من جنود الهيتمان

الذين انحازوا الى جانبه ، ومن الغاليسيين الثابتين المنضبطين الذين كانوا يؤمنون بتحقيق الحلم القديم فى اتحادهم مع اوكرانيا الحرة ، ومن مختلف اصناف المغامرين الذين كانوا يطعمون انفسهم من النهب الحربى . ولكن لم يكن لبيتلورا القدر الكافى من الذكاء والدهاء يجعله يقترح لاوكرانيا الفلاحية المجزاة الى فئات ، والهائجة شيئا ملموسا غير المراسيم الفخفاخة . كما لم تكن له احتياطات .

فى كانون الاول الفت حكومة اوكرانيا السوفييتية السرية فى بلدة سودجا من مقاطعة بولتافا . وقد ارسل رئيس المجلس العسكرى لتساريتسين فوروشيلوف قائد الجيش العاشر الى سودجا لينضم الى الحكومة . وشكل مجلس عسكرى ثورى فى البلدة .

وفى ذلك الوقت بدأ الجيش الاحمر الاوكرانى النظامى الهجوم فى الغرب باتجاه كييف ، وفى الجنوب نحو خاركوف ويكاترينوسلاف . وكان هذا الجيش قد تشكل عند كورسك قبل هذه الاحداث بوقت طويل ، وغالبية رجاله من الفلاحين الاوكرانيين الهاربين الى هناك من المحكمة والاعدام ، وكان يتالف من فرقتين . ولما كانت الفرقتان ليستا بالقوة الكافية تماما فقد عُول على تأييد فصائل الانصار . وكان جيش الاتمان ماخنو اكثرها قوة .

كان ماخنو يلهو . كان يجوب المدينة كلها على دراجة عارضا نفسه فى بزة مدرسية حصل عليها بعد الغارة على بردیانسك ، او يغنى الاغانى على الاكورديون مترنحا فى الشارع مع مرافقه كاريتنيك ، او ياتى الى السوق غضوبا ممتقعا باحثا عن المشاحنات ، الا ان الجميع كانوا يتحاشونه عارفين البساطة التى يخرج فيها مسدسه من جيب بنطاله . وكالعادة حين رآه رجاله الجسورون الذين لا يخافون الله ولا الشيطان على مقربة من الدوّارة نزلوا من احصنتهم الخشبية ، وانسلوا متوارين . فتسنى للاتمان ان يركب وحده الدوراة بصحبة كاريتنيك ويدور بها حتى يصاب بالدوار .

وشاع فى غولاى - بوله كلها ان الاتمان اخذ فى المدة الاخيرة يكثر من الشرب ، حتى ليخشى ان يبيع الجيش ويشرب بثمنه . ولكن القليلين من الناس فقط حدسوا انه يضمر مكيدة .

وكان ماكرا كتوما مراوغا مثل وحش تعرض مرارا لمخاطر الصيادين .

كان ماخنو يكسب الوقت . فى تلك الايام كان عليه ان يتخذ قرارا كبير الاهمية . لقد فرغت يكاترينوسلاف من الالمان والهيتمان ورجاله الذين كان يحاربهم . وولى اصحاب الاراضى هاربين . وكانت المدن الصغيرة قد نهبت . وكان اعداء جدد يزحفون عليه من ثلاث جهات : المتطوعون من القرم وكوبان ، والبلاشفة من الشمال ، ورجال بيتلورا الذين احتلوا يكاترينوسلاف لتوهم ياتونه من الدنيبر . فمن هو الاقوى من هؤلاء ؟ والى اية جهة يحول عربات الرشاشات ؟ كان يجب اتخاذ القرار دون تاخير . كان الجيش يقل افرادا ، وتظهر مظاهر الزعزعة عليه . وكان الجنود من الفلاحين زراع الحبوب يقولون : «من حسن الحظ ان البلاشفة قادمون الى اوكرانيا والآن يمكن ان نتفرق الى بيوتنا ، ومن لم يسأم بعد فليضع النجمة الحمراء على طاقيته» اما نواة الجيش «المائة السوداء المسماة على اسم كروبوتكين» رجال السيف الشجعان الذين انصرفوا عن كل عمل من اجل الحياة الحرة ممتطين ظهور الخيل ، فقد كانت تصيح :

«. . لئن اراد الاتمان بيعنا للبلاشفة لقطعنا راسه امام الجبهة ، وكفى . . . ها هو بيتلورا قد استولى على يكاترينوسلاف ، اما نحن فليس لنا الا الانتظار . . . نفد طعامنا ، واصبحنا حفاة عراة ، وبعد قليل سنعوى فى السهب مع الذئاب . . . يا اخوان ، الى يكاترينوسلاف !»

ظل البحار تشوغاى الموفد من القائد العام للجيش الاحمر الاوكرانى ثلاثة ايام فى غولاى - بوله ينتظر بثبات اعصاب ان يصحو ماخنو الى نفسه ويتحدث معه . وفى هذه الايام قدم من خاركوف الفيلسوف الشهير عضو امانة الاتحاد الفوضوى المسمى «الناقوس» ليتحدث الى الاتمان ايضا . وكان اعضاء المجلس العسكرى السياسى لماخنو ، والفوضويون المحليون ، والمستشارون المقربون يتصيدون الاتمان اينما استطاعوا ، ويحذرونه عن غيرة حتى لا يصغى الى احد ، وان يتمسك بالحرية العليا للشخصية .

كان ماخنو يدرك انه ما لم يتخذ قرارا حازما ملائما للجيش فان قضيته ومجده سينتهيان . والآن كان امامه خياران : اما الميل نحو البلاشفة ، والعمل بما يامر به القائد العام ، ثم الانتظار ، فى آخر المطاف ، الساعة التى سيرمونه فيها عقابا على تصرفه الفردى . واما قتل الموفد تشوغاى ، واثارة انتفاضة فلاحية فى اوكرانيا ضد كل سلطة . ولكن هل الوقت مناسب لذلك ؟ ربما يكون على خطأ . . . .

وكانت هذه الافكار سرية جدا حتى كان من الخطر ان يفضى بها حتى الى الكلبين الوفيين : لوفكا وكاريتنيك . وكان يحس بالضيق من هذه الافكار . كان الجيش ينتظر ، والموفد تشوغاى والفوضوى الشهير الشيخ الجليل القادم من خاركوف ينتظران . وكان ماخنو يشرب الخمرة ، دون ان يفقد توازنه ، ويتحامق ويعبث لغاية مقصودة ، فقد كان بصره حادا وسمعه مرهفا ، فكان يعرف كل شىء ، ويرى كل شىء . وكان الغيظ يغلى فى داخله .

كان ماخنو قد امر باعتقال الرجل الغريب الذى كان يرتدى معطف الضابط ، والذى ادعى بانه قادم من يكاترينوسلاف ، وطلب ارساله الى لوفكا . وبعد ذلك بوقت قصير حضر ماخنو نفسه الى المجلس الثقافى التعليمى ودخل مع دراجته الى الحجرة التى كان يجرى فيها الاستجواب . بعد الضربة الخاطئة التى وجهها لوفكا زادوف الى روتشين جلس لوفكا وراء الطاولة ، ووضع قبضة فوق قبضة ، واسند حنكه عليهما . نظر ماخنو الى الرجل المطروح على الارض ، واسند الدراجة :

– ماذا فعلت معه ؟

– ربتُ عليه فقط – اجاب لوفكا بذلك .

– احمق . . هل قتلته ؟

– لست جراحا ، فكيف لى ان اعرف ؟

– هل استجوبته (هز لوفكا كتفيه) هل هو من يكاترينوسلاف ؟ ماذا يقول ؟ من استخبارات دينيكين ؟

وكان ماخنو يحدق بلوفكا تحديقة شديدة غير محتملة حتى ان عينى لوفكا احتجبتا تحت حاجبيه .

– لا بد ان لديه معلومات ، اين هى ؟ انت تلعب مع الموت . .

– بدات من توى ، يا نستور ايفانوفيتش . . لم اكن اعرف ان الوغد بهذه الدرجة من الضعف .

اخذ روتشين يئن فى تلك اللحظة ، وطوى ركبتيه . قال لوفكا فرحا :

– لا شىء ، اعصاب .

امسك ماخنو الدراجة ، فوقع بصره على صورة كاتيا ملقاة على الطاولة . اختطفها وتمعن فيها :

– اخذتها منه ؟ من هى ؟ ذوجته ؟

كانت لنستور ايفانوفيتش ذاكرة جيدة ، مثل جميع الناس ذوى الارادة القوية والتركيز والتشكك والتجربة الكبيرة فى الحياة . فقد تذكر على الفور رؤيته لكاتيا لاول مرة (حيث جعلها تطلى اظافره) وتدخُل الكسى كراسيلنيكوف وكل المعلومات التى استقاها عن هذه المرأة الجميلة . وضع الصورة فى جيبه ، وقاد الدراجة ، وتوقف . فقد رأى وجه روتشين تعود اليه الحيوية ، وفمه ينفتح قليلا .

– اجلبه الىّ . سأستجوبه بنفسى . . .

فكرة واحدة ترسخت فى ذهن نستور ايفانوفيتش فى ايام اللهو هذه ، وهى ضرورة الخروج بالجيش الى يكاترينوسلاف ، واجتياحها بالقوة ، ورفع راية الفوضوية على دوما المدينة . ان مثل هذه الغنيمة ستقوى عزيمة الجيش وتلاحمه فان يكاترينوسلاف مدينة غنية تكفى منتوجاتها من الانسجة والاشياء الاخرى ولاية كاملة ، بحيث يمكن ان تلقى على القرى والارياف من عربات القطار والعجلات قطع الاقمشة والاجواخ ، وينثر السكر بالارفاش ، ويُغدق على الفتيات بالاشرطة والجدائل والجوارب والاحذية : «هذه لكم ، ايها الفلاحون ، هدايا من الاتمان ماخنو ! هذا هو النظام الحر اللاسلطوى ، بلا اصحاب اطيان ولا برجوازيين ، بلا سوفييتات ولا لجان استثنائية . . .»

اما سائر الاشياء فلم يجد لها حلا بعد . والآن ، وبعد ان القى نظرة على صورة كاتيا وجد الحل فجأة . وقد قفز الى ذهنه مثل عفريت الزنبرك فى علبة من لعب الاطفال . ولكنه لم يبد اى شىء يدل على ان كل شىء فيه كان يرقص طربا . . . ركب الدراجة ، وسار فى الشارع الى بيت طويل ذى نوافذ كبيرة فى مقدمته اشجار حور عارية .

كان هذا البيت مدرسة كانت تستخدم مقرا للقيادة . وكان مرافقوه وهو نفسه يعيشون فى غرفة واحدة .

بعد مضى ساعة جلبوا روتشين اليه . كان لوفكا يسير امامه ، وخلفه رجل من رجال ماخنو يضع على رأسه قبعة فرائية صنعت من ياقة معطف قسيس ، عليها شريط اسود مائل كان يدفع روتشين من ظهره بماسورة مسدسه . كان ماخنو جالسا على اريكة صغيرة غطيت بقماش خشن تشقق حتى برزت اللوالب من تحته . صاح بصوت عال :

– ما هذا ؟كانكما تقومان بدور الجندرمة فى العهد القيصرى ؟ اترك السلاح ! اخرج .

ودفع بوجهه الاصفر الهزيل من اسفل الى فوق يشير الى الرجل بالخروج (فامتثل هذا فى الحـال ، وضرب الارض بحذاءه ، وخرج) نهض ماخنو من الاريكة ، وضم قبضته اليابسة وضرب لوفكـا على وجهه ، وشفتيه وانفه .

زعق :

– جزار ! سكيـر ! مصاب بالسفلس ! تلوث الفكـرة ! وتلوثنى !

لم ينتظر لوفكا زادوف اعتمـال الغضب فى صدر الاتمان ، اذ كان يعرفه جيدا ، بـــل حشر رأســه بين كتفيــه السمينتين وحمى نفسه بيديـه من الضربـات ، ولاذ خلف الباب ، واغلقـه خلفه .

خلع ماخنو قبعته . كان جبينه عرقـا . وجلس ثانية على الاريكة . ولو كانت لديه مسبحة لبدا مترهبنا متزمتا كليا .

– تفضل بالجلوس – واشار بيده الطويلة الى مقعد ليجلس عليه روتشين – لو نضطر الى رميك فان ذلك لا يغير من الامـر شيئا . انه عار ، عار ان تهان الكرامة الانسانية . خذ سيكارة ، ودخن . هل انت من الاستخبارات ؟

– لا . .

قال روتشين بصوت لا رنة فيه وتبسم ابتسامة ساخرة ، وتناول سيكارة .

– من ضباط جيش المتطوعين ؟

– هربت ، وانتهيت منه . على اية حال لن تصدق بما سأقول لك فلا داعى للكلام .

– الناس لا يكذبون علىّ – قال ماخنو بنفس الصوت العالى ذى النبرة المتميزة التى كان من الصعب تسجيله بعلامات النوتة . وخيل لروتشين انه يشبه صوت طائر جارح وكرر ماخنو : «الناس لا يكذبون علىّ» وكانت عيناه الجافتان الجامدتان تعكسان قوة ارادة بالغة حتى كان ليصعب النظر اليهمـــا : وما كان فى مقدور انسان ان يتحمل نظرتهما دون ان ترقرق عيناه بالدموع . ومع ذلك فقد تحملها روتشين . احس برأسه يتصدع بعد حادث الامس . وغالب هذا الالم ، وجمع كل قواه للمناوشة الاخيرة .

– اذا كنت بحاجة الى معلومات عن جيش المتطوعين فلك ان تسأل . ولكن معلوماتى قديمة . خرجت فى اجازة منذ شهرين . وفى هذا الربيع قمت بعمل غير صحيح ، ثمنه حياتى . . . انـت تنوى رمى بالرصاص . سواء بهذه الطريقة او باخرى ، الآن او فيما بعد فاننى لن افلت من رصاصة ستكون من نصيبى بسبـب غلطتى . .

لاحت فى عينى ماخنو واختفت ومضة من السخرية . . . «انه لا يصدق بى . . .» ومص فاديم بتروفيتش نفسا عميقا مـــن سيكارته ، ووضعها على حافة المنضدة ، ودس يديه فى حزامه : «ستصدق بما اقوله لك . . .»

– قبل كل شىء : كيف انضممت الى معسكـــر البيض ؟ تدحرجت مثل تفاحة على منحدر . . . حسنا ، كنا مثقفين روسا ، يعنى : ملح الارض ، وقد قرأنا ميخائيلوفسكى وكانت وكروبوتكين وحتى بيبل الى جانب الكتب الاخرى المهدئة . وانا اتذكر كم ليلة مؤرقة قضيتها فى مثل هذه الاحاديث مع الكسى بوروفوى * (وحدث ما توقعه عند ذكر هذا الاسم ، فقد غامت عينا ماخنو فى الحـال كالحمقاوتين ، ولكن للحظة واحدة لا غير) كنا مفعمين بالتوقعات الحماسية . ثم جاءت ثورة شباط ! وانتهى كل ذلك بشىء حامض

* الكسى بوروفوى : منظر فوضوى فى ذلك الوقت ، معروف بين الفوضويين المحيطين بماخنو .

المذاق : فبدلا من العيد الضخم راينا البولفارات تتناثر فيها قشور بذور عباد الشمس ، والبحارة والجنود والهرج ، ولم نر بلادا عظيمة بل لبخة ، وعصيدة دخن بلا ملح . . . .

تململ ماختو على الاريكة ، وفجأة ودون ان يفطن الى ذلك ، جلس وكأنه فى اجتماع عمال سرى فى عيد اول ايار ، محتضنا ركبتيه الهزيلتين . بل ولاح فى عينيه ما ينم على الانتباه .

— وظهر ان المثقفين خارج الموضوع . اما فى اوكتوبر فقد امسكونا من مخانيقنا كالقطط الصغيرة ، والقونا فى المزبلة . . . وهذا كل شىء على وجه التفصيل وجيش المتطوعين مزبلة عمـــوم روسيا . انه خال من كل شىء انسانى وحتى لا يمكن ان يكون فيه شىء مرمم . ولكنه قادر على ان يدمر ، بل وبشكل خطر . . . ومن المؤسف اننى وعيت كل ذلك فى وقت متأخر . . . ولكننى سعيد فى اننى وعيت . ذلك هو الامــــر ، يا نستور ايفانوفيتش . . . (وقد خرجت تسميته باسمه واسم ابيه بشكل طبيعى) . . . وما كان لى ان اظل على قيد الحياة ، ولم ارد ذلك . ولكن هناك مخلوقا اغلى عندى من كل الفلسفات ، واغلى من ضميرى . . . وهـــو الذى اوقفنى . . .

— اهو هذه ؟

سأل ماختو فجأة مشيرا الى الصورة .

— نعم هى .

— خذها ، فانا لست بحاجة اليها . . .

اخفى روتشين صورة كاتيا فى جيب قميصه . وتناول عقـــب السيكارة ، ودخن . ولم تكن يداه ترتجفان . ولم يفقد سيـــاق الحديث :

— مزقت الهوية العسكرية ، وجئت الى هنا مقتفيا اثرها . وما دمت قد عدت الى الحياة من جديد ، فمرحبا بالعودة الى الفلسفة والايديولوجية . فنحن لسنا من ارباب الحرف . . . والشىء الوحيد الذى اتقبله . . . بشكل مجرد كليا ، بالطبع ، بشكل مجرد . . . هو الحرية المطلقة ، الحرية الفالتـــة . . . ولكن جنونيـــة ، مستحيلة ، ومع ذلك . . . يجب ان يموت الانسان فى سبيل شىء وراء حدود الخيال .

قال ماختو خافت الصوت :

— على اية حال اعطنى الاستخبارات التى لديك ، اين خبأتها ؟

توقف روتشين ، وادار راسه ، وهز ذراعه بوهن ويأس .

ظل ماختو وقتا طويلا على الاريكة لا يريم حراكا . وفجأة وثب ، واخذ ينبش فى كومة من الاشياء فى ركن الحجرة — اسلحة واسرجة وعدة وحقائب ورقية . . . ووجد بعض المعلبات ، وزجاجتين من الكحول ، ووضع كل ذلك على المنضدة ، ثم اخذ يدير المفتاح ليفتح علبة سردين . قال :

— سآخذك الى القيادة . زوجتك فى السرية السادسة عنـــد كراسيلنيكوف فى ضيعة بروخلادنى . وسيأتى موفد من البلاشفة بعد قليل الى هنا . ادخل فى ظنه اننى متواطئ مع جيش المتطوعين . ان مهمتك ان تضلله . مفهوم ؟ هل تلعب الورق ؟

وبهت فاديم بتروفيتش فى هذه المرة عن حق وظل يرمش بعينيه فقط دون ان يحاول حتى ان يفهم كيف انقلبت الامور هذا المنقلب ، ومـــا معنى هذا كلـــه . كسر ماختو مفتاح علبـــة السردين ، واخرج من جيبه مطواة من عــــرق اللؤلـــؤ لها عدة شفرات ، واخذ يستعملها فى فتح علب من الاناناس ، ومعجـــون اللحم الفرنسى ، وسراطين البحر ، ففاحت روائحها القويـــــة فى الحجرة .

— لدى دائما الوقـــت الكافى لرميك ، ولكننى اريد ان استخدمك — قـــال ماختـــو وكأنـــــه يرد على افكار روتشين الشاردة — هـــل انـــت من ضباط الاركان ام مـــن ضباط الجبهة ؟

— فى الحرب العالمية كنت فى اركان الجنرال ايفرت . . .

— والآن ، ستكون فى اركان الاتمان ماختو . . . فى الاشغال الشاقة فى عهد القيصرية رفعونى من راسى ، ومن قدمى ، والقونى على الارض الآجرية . . . بهذا الشكل يُمرَّس زعماء الشعب . . . مفهوم ؟

رن التلفون فى صندوق اصفر كان على الارض بين النفايات . قرفص ماختو ، وصرخ فى السماعة بصوت الطائر الجارح :

— انا فى الانتظار ، فى الانتظار !

كان الموقد تشوغاي رجلا بطيء الحركة قويا جدا في سترة من قماش خشن مستهلكة ولكنها نظيفة ، وطاقية لا طليلة لها منسرحة على علباته . وكان يجلس ممسكا الورق بشكل لا يدع الآخرين يختلسون النظر اليه . وكان يراقب بعينيه اللامعتين الجاحظتين كل حركات نستور ايفانوفيتش . وكان وجهه الساكن العريض عند الوجنتين ذو الشاربين الاسودين خاليا من التعبير ، ولكن الكرسي المقوس كان يرسل تحت ثقله صريفا بين الحين والآخر . فكان هذا الشخص الذي لبس سروال بحارة حشره في نهايتي حذاء عريض قصير لو جلس بين سبع تنانين برنزية ذات اعناق منتفخة لسجدت له .

كانوا يلعبون لعبة «الماعز» وهي لعبة ابتكرت في الجبهات لكي تلهي الرجال بالضحك عن جراحهم ومخاوفهم . وكان نستور ايفانوفيتش قد اقترح على ضيفيه حالما دخلا ، ودون ان ينهض من المنضدة وصافحهما ان يلعبوا لعبة «التسعة» بالنقود (وكانما دعاهما لاجل ذلك) . ووزع الورق بسرعة حتى لتعذر على العيون ان تلاحق حركة يديه ، ووضع على المنضدة ورقة من فئة الف روبل ، وغطاها بعلبة سراطين البحر . الا ان تشوغاي تناول ورقتيه ، ووضعهما تحت نفس العلبة . فسأل ماخنو :

— انت خائف ؟

اجاب تشوغاي :

— لا ، لا يمكن ان تلعب معي بالنقود . تعال نلعب لعبة «الماعز» .

جلس ماخنو باسطا ساقيه ، واضعا الورقة تحت الطاولة ، مديرا ظهره الى الباب تاركا وراءه مكانا فارغا (وهذا ما لاحظه تشوغاي في الحال) ، وكان روتشين يجلس الى يساره ، بينما جلس الى يمينه ليون تشورني — عضو امانة اتحاد «الناقوس» — وهو شخص اشعث الشعر لا يتحدس عمره ، ضئيل الجسم ، جاف جدا ، ناتيء عظم القص حتى لكان صدره بلا رئتين بشكل يخيل اليك انه يعيش بروحه فقط . وكانت قشرة الراس والشعرات الشيب تتناثر على سترته المدعوكة ، ومن انسراح فكره ترك اوراقه كلها مكشوفة للآخرين .

وكان في مجيئه الى هنا قد استعد الى صراع قاس مع تشوغاي الذي كان ينوي اغتصاب ماخنو وجيشه — الظاهرة الحافلة بالامكانيات التي لا تنضب . وكانت افكار ليون تشورني معبأة كالديناميت في علبة من القصدير . وكان مرتبكا بعض الشيء لانه بدلا من ان يدخل في معركة عامة مع البلشفي صار عليه ان يلعب لعبة «الماعز» ، فكان يلقي الاوراق المغلوطة ، او يوقعها تحت الطاولة ، حتى خسر اللعبة اربع مرات متتاليات ، وجعل ماخنو يصيح عليه بنداء الخاسر «الماعز ، الماعز . المنتن» ضاحكا باسفل وجهه فقط .

وكان ماخنو ، بعد كل لعبة ، يمد يده بحركة كحركة القرد الى زجاجة الكحول ويصب في الاقداح والكؤوس متأكدا من ان الجميع يشربون بالتساوي . وكان الحديث حول المنضدة فارغا للغاية ، وكأنهم في الواقع اجتمعوا اصدقاء في مساء سيء الطقس يضرب المطر فيه النوافذ السوداء ، وتهز الريح اشجار الحور العارية امام البيت متغلغلة فيها بصافرة معولة وكأنها روح شريرة .

كان ماخنو يتحين الوقت . وكان تشوغاي ايضا يتحينه بهدوء مستعدا لكل المصادفات ، لا سيما حين ادرك من بعض تلميحات المضيف ان الشخص الرابع الجالس حول المنضدة الصموت البادي الوقار الاشيب وتحت عينيه كدمات زرق هو ضابط في جيش دينيكين . وكانت كل الدلائل تشير الى ان ليون تشورني لا بد ان يكون اول من فرغ صبره ، فقد اخرج منديل جيب قذر ، وكوره في يده بعصبية ، وراح يدفعه الى انفه وعينيه بعد كل كاس من الكحول . وهذا ما حدث فعلا .

— بدانا الجدل مع جماعتكم البلاشفة منذ ان كنا في باريس — بدأ القول مدمدما ، محركا اوراقه باتجاه تشوغاي — ولم ينته الجدل ، ولم يثبت احد حتى الآن ان لينين على حق . انشاء دولة عمال وفلاحين بدلا من من الدولة الاقطاعية-البرجوازية ! . . . ولكن الدولة دولة ! استبدال سلطة بسلطة . خلع قفطان الاعيان وارتداء قميص الفلاحين ! وسيكون عندذاك مجتمع بلا طبقات !

وضحك ضحكة خفيفة ضاغطا منديله على شفتيه الجافتين . ولم يظهر على وجه تشوغاي ما ينم عن الاعتراض ، سوى انه

تفرس فى علبة سراطين البحر ، وقربها منه ، وتناول ما استطاع ان يتناوله بالشوكة :

– ترى ، ماذا تقترح ؟ الفوضوية ، ام النظام ؟

– التهديم – همس ليون تشورنى له وقد سلبت الخمرة صوتـــه . وتصلبت خصلات لحيتـــه الرمادية كسبلة كلب الحراسة – تهديم المجتمع المجرم باسره ! تهديما لا رحمة فيه ، حتى يسوى ارضــا فلا يبقى منه حجر على حجـــر . . . بحيث لا تخرج من البذرة اللعينة دولـــة او سلطة او رأسمال او مدن او مصانع مرة اخرى . . .

– ومن سيعيش عندكم فى هذا المكان المقفر ؟

– الشعب !

– الشعب – صرخ ماخنو مادا عنقه نحو تشوغاى – الشعب الحر !

قال تشوغاى :

– اذا بدأنا بالصراع فلا بد ان ننتهى باطلاق النار – وتناول الزجاجة وصب للجميع (دفع ليون تشورنى كاسه فانسكبت) – فى امكانك ان تهدم ، فذلك لا يحتاج الى دهاء . ولكن كيف تنوون ان تعيشوا بعد ذلك ؟

قال ليون تشورنى متوجسا ان يتصدى نستور ايفانوفيتش للجواب :

– ان مهمتنا هى التهديم المريع التام الذى لا يرحم ، وهى تستنفد كل طاقة وحماس جيلنا . انت اسير ، ايها البحار ، اسير تفكير مقصوص الجناح جبان . كيف للشعب ان يعيش حين تهدم الدولة ؟ هاها ، كيف له ان يعيش ؟

فقال له ماخنو فى الحال :

– اعذرنى ، يا رفيق تشورنى . المشاريع الصغيرة لا انوى ان اهدمها ، كما لا اهدم الفرق الجماعية ، ولا اهدم استثمارات الفلاحين . . . .

– اذن ، فانت جبان كهذا البلشفى .

– اوه عبثا اتهامك ايـــاه بالجبن – قال تشوغاى وغمز لنستور ايفانوفيتش مشجعا (كان وجه هذا احمر كالجمرة) – ان

نستور ايفانوفيتش لم يبخل بدمه ، وهذا شىء معروف . . . لن نتخلى عنه لكم بالسهولة التى تتصورها . . . . سنحارب عليه .

– تحاربون ، ابدأوا ، حاولوا .

قال ليون تشورنى بهدوء غير متوقـــع . وارتخت خصلات لحيته على خديـــه . واخذ يلتهم معجون اللحم بنهم وسرحان الفكر . القى تشوغاى على روتشين نظرة من طرف عينـــه . كان روتشين يدخن بخلوبال رافعا عينيـــه الى السقف . كشف نستور ايفانوفيتش عن اسنانه الكبيرة الصفراء بضحكة صامتة . وفكر تشوغاى مع نفسه : «ان فى الامر تواطؤا ، على ما يبدو» . وصر المقعد تحته . كان على تشوغاى ان ينفذ امر القائد العام باقناع ماخنو فى القيام بعمليات مشتركة ضد يكاترينوسلاف بوجه خاص ، ولكنه الآن ، بالاضافة الى ذلك ، يجد كل مبررات للتخوف مـــن الاستنتاجات التنظيمية الخطيرة فى حالة الدخول فى جدل غير موفق مع هذه الفوضوى الذى التهم ، فى الغالب ، مئات من الكتب السميكة . كما لم يعجبه صمت الضابط الدينيكينى الذى يبدو – من بوزه – انه من المثقفين ايضا . ولكن تشوغاى لم يصدق بانه من ضباط الاركان لدى ماخنو .

ثبت طاقيته على يافوخه بشكل اقوى .

– اريد ان اسألك سؤالا .

قال ليون تشورنى من فم مملوء :

– تفضل .

– قال الرفيق لينين : بعد نصف عام سيكون فى الجيش الاحمر ثلاثة ملايين رجل . فهل تستطيع ، يا ليون تشورنى ، ان تعبئ فى مثل هذه المدة ثلاثة ملايين ؟

– انا واثق .

– يجب ان يفهم من هذا ان لديكم الجهاز لهذا الغرض ؟

– هذا هو جهازى .

قال ليون تشورنى مشيرا بالشوكة الى ماخنو .

– جيـــد جدا . لنتوقف عند هذه الشخصيـــة . يعنى ، تستطيعون ان تجهزوا نستور ايفانوفيتش بما يكفى ثلاثة ملايين مقاتل من الاسلحة والذخائر ، الى جانب المعدات والاطعمة والعلف

بالطبع . ان مثل هذا الجيش يحتاج الى نصف مليون راس من الخيول وحدها . يجب ان يُفهم انكم تملكون كل ذلك ؟

دفع ليون تشورنى عنه العلبة التى افرغها . وانكمش جبينه فى غضون صغيرة :

– اسمع ، يا بحار ، لا تخيفنى بالارقام . ان وراء ارقامكم فراغا ، محاولات بائسة فى لمّ شعث روسيا القديمة الممزقة بتخييطها بخيوط متهرئة . انها قومية متسترة ! ثلاثة ملايين جندى فى الجيش الاحمر ! اوه ، لكم خفت ! عبئوا ثلاثين مليونا . ومع ذلك فان الثورة الحقيقية المقدسة ستمر بملايينكم من الفلاحين – المالكين المزينين بالنجوم الحمر . . . ان جيشنا – وهنا شد قبضته – هو الانسانية ، وذخيرتنا هى حنق الشعوب المقدس ، تلك الشعوب التى لم تعد تطيق اى تنظيم للدولة ، ولا راسمالية ، ولا دكتاتورية البروليتاريا . . . الشمس ، والارض ، والانسان ! ولتُقذف الى نار عظيمة جميع المؤلفات من ارسطاطاليس الى ماركس ! جيش ! خمسمائة الف حصان ! ان خيالكم لا يرتفع اعلى من شارب رقيب اول . خذها هدية . اننا سنسلح مليار ونصف مليار انسان . وما دامت لنا اسنان واظافر واحجار تحت اقدامنا فاننا سندحر جيشكم . وسنحول المدنية وكل ما تتشبثون به مرتعصين الى كومة من خرائب ، ايها البحار . . .

«اها ، شيخ خفيف اللسان» فكر تشوغاى مع نفسه وهو يرى ماخنو الذى ركز كل انتباهه فى البداية ينزل كتفيه ، وينطفئ التورد فى خديه اللذين تغورا . وكف عن الفهم ، فان المعلم حاد عن الادراك السليم .

عندئذ قال تشوغاى :

– عندى سؤال ثان لك ، يا ليون تشورنى . . .

– هات . . . .

– الذى فهمته من كلامك انكم لم تستعدوا للتعبئة العامة . ولكن كل امر يحتاج الى ما يبدأ به : القنبلة تحتاج الى فتيل ، والنار الى عود ثقاب . فعلى اى شىء تعولون انتم ؟ اين ملاكاتكم الاتمان ماخنو ؟ (تقلبت حدقتا ليون تشورنى ، فقد كان يبحث عن

احبولة) جيشه ذو روح قتالية عالية . صحيح ، ولكن نسبة الفوضويين ليست كبيرة . انه ليس جيشكم .

واختلس نظرة جانبية الى ماخنو ليتاكد من انه لا يمد يده فى جيبه ليخرج مسدسه . لا ، لقد رآه جالسا فى هدوء . اخذ ليون تشورنى يبتسم ابتسامة ازدراء :

– يبدو ان حديثنا وصل الى نقطة تقتضينى ان اعلمك الالف باء ، ايها البحار .

– سيكون لطفا منك .

– ان العالم الخارج على القانون هو ما نعتمد عليه ، وهو ملاكاتنا . ان الخروج على القانون هو التعبير الاكثر احتراما عن حياة الشعب . . . ذلك يجب ان يُعرف ! والخارج على القانون العدو اللدود لكل تنظيم للدولة ، بما فى ذلك اشتراكيتكم ، يا عزيزى . وفى الخروج على القانون دليل على قدرة الشعب على الحياة . . . الخارج على القانون لا يتصالح ولا يهاب ، يهدم من اجل التهديم . وتلك هى العفوية الشعبية الاجتماعية الحقيقية . افرك عينيك .

وخلال هذا الدفق الحماسى من الافكار سار ماخنو على اطراف اصابعه الى الباب ، وفتحه قليلا ، والقى نظرة على الممر ، ثم عاد الى المنضدة . صار روتشين الآن ينظر الى العجوز العجيب بحب استطلاع متسائلا مع نفسه : ألعله يتحامق عن قصد ؟

صاح ليون تشورنى :

– اراك ترف برموشك مذهولا ، ايها البحار . ان فضائلك قد ارتبكت ! فاعلم اذن : اننا كسرنا اقلامنا ، وافرغنا الحبر من محابرنا ، فليرق الدم ! لقد آن الاوان ! والكلمة تتحول الى عمل . ومن لا يفهم فى هذه الآونة الضرورة العميقة فى الخروج على القانون كحركة عفوية ، ولا يتجاوب معها يُنبذ الى معسكر اعداء الثورة . . .

اخذ ماخنو يقضم اظافره مقلصا عينيه . وفكر روتشين مع نفسه : «لا ، ان العجوز يعرف ما يقول» . مال تشوغاى نحو المنضدة ، ووضع عليها مرفقه ، ورفع اصبعه ، ليكون لليون تشورنى ما يركز عليه .

– السؤال الثالث : حسنا لنقل انكم عبأتم هذه الملاكات . وعملت هذه عملها . قلبت الاشياء راسا على عقب . . . ولكن الا ترى

ان هذا الشغب لا بد ان يصل الى نهاية ؟ لا بد . والخارجون على القانون – فى راينا هم لصوص – ، اناس فاسدون ، لا يستطيعون العمل . انهم لا يعملون . ولِمَ يعملون ، وهم ياخذون كل مـــا يريدون . وماذا سيكون عندئذ ؟ مرة اخرى لا بد ان يكون هناك من يعمل لهم . لا ترى ذلك ؟ ولكن لم يبق شىء ينهبونه او يحطمونه . يعنى لن يكون امامكم الا ان تسوقوا اللصوص الى تجاويف الارض وتقضون عليهم ؟ اليس كذلك ؟ اجبنى عن هذا السؤال . . .

ساد الصمت فى الغرفة ، وكان المتحادثين ركزوا كل انتباههم على الاصبع التى رفعها تشوغاى ثم عكفها . نهض ليـــون تشورنى ضئيلا (كان يبدو فى جلسته اطول قامة) عنودا كالفكرة الفلسفية . وقال ملتفتا نحو ماخنو مادا ذراعه نحو تشوغاى :

–ارمه ! ارمه . . . انه مخبر عميل . . .

وثب ماخنو فى الحال الى المكان الفارغ من الغرفة نحو الباب . وحك تشوغاى باظافره فى حركة سريعة سطح المسدس المتدلى من حزامه تحت سترته . وتراجع روتشين عن المنضـــــدة ، وتعثر ، وجلس على الاريكة . ولكن سلاحا لم يشهر : فقد كان كل واحد يعرف انه لو اخرج سلاحه فلا بد له ان يرمى . برقت عينا ماخنو من التوتر . وتكلم تشوغاى بلهجة ارشادية :

– عبثا ، يا جـــد . . . اللجوء الى طريقـــة رخيصة ليس بالجدل . . . وانت تستحق هذه على اتهامك لى بالعمالة (ولوح بقبضة كبيرة جعلت وجه ليون تشورنى يرتعش فى الم) . ولكن لن ارد عليك رفقا بصدرك الضعيف . . . يا جد ، يجب ان تستخدم الالفاظ بعناية اكبر . . .

وفى هذه المرة ايضا لم يقف ماخنو فى صف المعلم . . غض ليون تشورنى بصره ، وكانه يريد ان يختفى فى خصلات لحيته ، وتناول معطفه بياقته البالية التى كانت من فرو القندس فى يوم ما ، وقبعة مخملية بنفس التهرؤ ، ولبسها وخرج متحملا الخيبة برجولة .

قال ماخنو وهو يعود الى المنضدة ، ويمسك بالزجاجة :

– الا تواصل الشرب ؟ يا رفيق روتشين ، اذهب الى الخفير ليخصص لك سريرا شاغرا .

ادى روتشين التحية ، وخرج . وسمع وهو خارج الباب صوت ماخنو يقول لتشوغاى :

– هؤلاء ينادون : «الاتمان ماخنو» واولئك «الاتمان ماخنو» فماذا تقول انت للاتمان ماخنو ؟

١٢

ما ان وصل الكسى كراسيلنيكوف الى قريته فلاديميرسكويه وسار فى رماد بيته المذرور بالثلج ، وشم رائحة الدخان الآتى من بيت الجيران ، وراى الوزات سمانا ، والبرد مـــا يزال فى اوله ، ناشرات اجنحتها موزوزات ، راكضات مرتفعات قليلا عن الارض ، فى المرجة المكسوة بطبقة رقيقة من الجمد ، حتى ادرك الى اى حد كان ضيقا بحياة قطاع الطرق .

فليس من عمل الفلاح ان ينطلق فى السهب فى عربة رشاشة بين الضياع المحترقة . بل عمله ان يفكـــــر دائما حول الارض ويشتغل . اجتهد وستر امنا الارض تهب نفسها لك . وكان كل شىء يدخل الفرحة الى قلب الكسى ايفانوفيتش : الافكار المتعلقة باقتصاد بيته ، وهى افكار نساها اثناء اقامته عند ماخنو ، والنهار الناعم الرمادى ، ونثار الثلج البطىء المتقطع ، وسكون القرية ، ورائحة الدخان المالوف . وكان الكسى فى سيره يلتقط من حين لآخر صفيحة صدئة من صفائح السطح ، ومسمارا ، وقطعة حديد محترقة فيكومها فى كومة واحدة . لم يكن معتزا بما كسبه محمولا على ثلاث عربات ، بل كان معتزا بانه سيبنى ويقيم استثمارتـــه الفلاحية غير مدقق فى كل روبل . ستكون امامه اعمال لا تحصى ولا تعد منذ اول وتد يدقه على الارض الخربـــة حتى ذلك اليوم التى ستخرج ماترينا فيه خبز قمحه شذى الرائحة من الموقد قائلة : «موقد جديد يخبز بشكل رائع» . وهذا ايضا كان يدخل الفرحة الى قلب الكسى . لا باس فان عرق الفلاح سيعوض . . .

وجد ، وهو ينبش الرماد بطرف حذائـــــه ، فاسا احترق مقبضها . وقلبها بين يديه طويلا ، وهز راسه بابتسامة ساخرة ، فقد عرف انها نفس الفاس ! ومنها بدات كل المصائب . وتذكر

كيف ان اخاه سيميون ، وقد سمع صيحة ماترينا الشاكية وثب مسعورا من البيت . وكان الكسى قد غرس الفاس فى قرمة فى الرواق عند الهاب . ولو لم يقع بصر سيميون عليها لما حدث اى شيء ، فى الغالب . . .

«آه ، سيميون ، سيميون – والقى الكسى الفاس الصدئة على نفس الكومة – لو كنا معا لقمنا بالعمل اسرع واقوى . . . نعم ، يا اخى ، اخذت كفايتى من الضوضاء والضجيج . . .»

والقى نظرة على الارض مفكرا فى رسالة سيميون التى تلقاها وهو فى غولاى-بوله . كتب اخوه هذه الكلمات : «قل لزوجتى ماترينا ان تصون نفسها – رجاء – من كل لهو ، فانها ليست بحاجة الى ذلك ، وليس الوقت وقته . . . وحين أُقتل ستكون حرة . . انه وقت عصيب يجعل المرء يصك على اسنانه . وانا اراكم فى الحلم فقط . لا تنتظرا مجيئى قريبا ، فان الحرب الاهلية تبدو بلا نهاية . . .»

وهز الكسى نفسه . . اللعنة عليها ، ومع ذلك فان المرء لا يستطيع ان يذهب ببصره بعيدا . ومرة اخرى اخذ الكسى ينظر الى الادخنة الهادئة تتصاعد هنا وهناك وراء الاسيجة ووراء الحدائق الجرداء ، وفوق الاكواخ المغطاة بالقصب والقش . كان الفلاحون يتهيئون لقضاء الشتاء فى الدفء . وهم على حق . فان الجيش الاحمر سيأتى الى هنا ان لم يكن بعد اسبوع ، فبعد اسبوعين . كيف ان الحرب الاهلية لا تبدو لها نهاية ؟ لعل سيميون يهذى ! ومن سيأتى الى هنا اذن ؟ «آه ، سيميون ، سيميون . . . انك بالطبع تروح وتجىء على سفينة الغام فى بحر قزوين ، والدم يتصاعد الى عينيك ويغشيهما . . .» .

ومع ذلك فان الكسى كان يستشعر اضطرابا داخل نفسه . اخرج علبة التبغ وفطن . اللعنة . ليس له ورق للفه . . . فى هذا الصيف قال احد المطببين ان جيش ماخنو يضم الكثيرين من ذوى الاعصاب المتوترة . تراه فى مظهره الخارجى رجلا معافى ، يلتهم صحونا من العصيدة . اما اعصابه فهى كامعاء قطة مشدودة على كمان . ودمدم الكسى مع نفسه «آوه ، اعصاب . من قبل حتى لم نسمع بها» . ووصل الى مدخنة موقد بارزة محروقة ، وحاول ان

يهزها ليرى هل هى ثابتة فى مكانها . دفعها بكتفه ، فترنحت . . . «اعصاب . . .»

نزل الكسى مع كاتيا وماترينا فى بيت ارملة من اقاربه . وكان المكان ضيقا وغير مريح . بيضت ماترينا الموقد ، وطلت الارض الترابية بطبقة من الطين الرمادى ، وعلقت ستائر من الدنتلا على النوافذ الصغيرة المغبرة . واشترى الكسى طحينا وبطاطس وكمية كافية من العلف للخيول ، ملء عربة من هذا وملء عربتين من ذاك . ولم يماحك مع احد فى سعر ، ولم يبخل بالفلوس ، وحتى حين كان الناس يلحفون بطلب الملح ، الذى كان اغلى من الذهب ، كان يعطيهم قليلا منه . وكان يعرف ان اهل قريته يعتبرون انه قد حصل على فلوسه بطريقة سهلة ، كما كان يعرف ان العربات الثلاث من الامتعة والخيول الخمسة ستظل طويلا تجلب الموجدة له .

وكان الاصعب من ذلك التغلب على معارضة اهل قريته فى بناء بيت له . وكان قد فكر فى تفكيك جناح فى ضيعة الامير كان يقع فى مجمع للاشجار الجرداء على مرتفع ، وكان مهدما مهملا . وكانت دار الامير قد خويت ، ولم تبق الا النوافذ المحطمة فارغة بين الاعمدة التى تساقطت قشرتها . وكان هذا الجناح الذى كان يقيم فيه القيم سليما . ولم يكن صعبا تفكيكه ونقله الى مكان بيته المحروق .

الا ان الفلاحين كانوا ما يزالون تحت خوف ما . ولم تكن فى القرية اية سلطة . فقد طردوا ادارة الهيتمان ، والبيتلوريون ما يزالون متشبثين بالمدن فقط على نحو ما . والحمر لم يأتوا بعد . ولانهم تعودوا على السلطة فان غيابها كان يبث فيهم شيئا من الخوف . فقد يحاسبهم احد على افعالهم فيما بعد ، ولهذا قرروا انتخاب عمدة . ولكن لم يرد احد ان يصير عمدة . كان الاغنياء والاذكياء يكتفون بهز اذرعهم قائلين : «لا ، لا . وما حاجتنا الى ذلك . . .» ولم يرغب اهل القرية فى ان يضعوا فى هذا المنصب معدما ليس له ما يفقده . وقد سرت شائعة من الجانب السوفييتى عن هؤلاء المعدمين الوادعين الذين ينقلبون ، اذا تسلموا السلطة ، الى معاركين اشداء .

ووجدت النساء الشخص الملائم . اقترحت واحدة للاخرى ، وتهامسن فى القرية كلها بان الرب نفسه امر بان ينتخب الجد افاناسى عمدة للقرية . وكان هذا العجوز يعيش بطمانينة مع كنتيه (فقد قتل ولداه فى الحرب مع الالمان) ولم يكن يشتغل فى الحقل ، فكان يقضى وقته فى رعاية الطيور الداجنة ، وما حول البيت ، ويزعق على كنتيه . وكان يهتم بالصغائر ، متسقطا للعثرات . وكان فى الزمان القديم يخدم عند الجنرال سكوبيليف .

ووافق الجد افاناسى على منصب العمدة فى الحال قائلا : «شكرا على تقديركم ، ولكن لا تتراجعوا ، ساحملكم على اطاعتى» . فكان يتجول فى القرية متفحصا متسقطا العثرات له لحيته الرمادية المشطورة شطرين مثل لحية الجنرال سكوبيليف ، ومعطفه من جلد الاغنام محزم فى اسفله بحزام ، وبعصاه العالية من خشب الجوز .

وكان الكسى يرفع قبعته له كلما التقى به ، وينحنى احتراما . وكان الجد افاناسى يظلل عينيه بحاجبيه المخيفين ويسال :

— طيب . . كيف الحال معك ؟

— لا باس . شكرا ، يا افاناسى افاناسيفيتش ، ما ازال اتعذب فى نفس المكان .

— الا تستطيع ان تسوى امورك مع الفلاحين ؟

— املنا الوحيد فيك ، يا افاناسى افاناسيفيتش . . . وودت لو تزورنا مرة . . .

— الا يكون ذلك شرفا كثيرا عليك ؟

ومع ذلك فقد استمال الكسى العمدة افاناسى . ارسل ماتريشا الى كنتيه لتشترى وزة سمينة قدر الامكان ، وتقول لهما انهم سيحتفلون غدا بيوم ميلاد ، وانهم لن يدعوا احدا ، لان المكان ضيق ولكنهم سيكونون سعداء فى استقبال الطيبين . وكان الجد فضوليا الى جانب صفاته الاخرى . فما كادت ظلمة الشتاء تغمر القرية حتى ذهب الى الحقل ودخل الكوخ المدفأ تدفئة قوية ، وارضيته مفروشة بقطعة من بساط من العتبة حتى المائدة المثقلة بغالى الطعام . وكانت المسارج والفتائل الدهنية الموضوعة

فى علب المعلبات تشتعل فى كل مكان ، اما هنا ، فوق المائدة فاضىء مصباح كيروسين .

دخل الجد افاناسى جهما كما تقتضى السلطة ، وراى وهو يخلع قبعته ماتريشا الجميلة بشفتيها المضمومتين وعينيها السوداوين الخبيثتين ، والمراة الاخرى — صاحبة يوم الميلاد — الجميلة ايضا التى كانت تدور عنها احاديث شتى فى القرية . وكانت كلتاهما — ماتريشا وكاتيا — ترتدى فستانا من فساتين اهل المدن الاولى احمر والثانية اسود . فك الجد افاناسى لفاحه ، وخلع معطفه ، ودفع لحيته على الجانبين بحركة سريعة . وقال فى كبرياء راضية :

— آها ، احترامى للمجمع اللطيف .

وجلس الاربعة الى المائدة . تناول الكسى من تحت المصطبة زجاجة فودكا قديمة . وبدا حديث لطيف .

— افاناسى افاناسيفيتش ، دعنى اعارفكما . صاحبة يوم الميلاد ، خطيبتى . ارجو ان تعجبك وتكون عند مرضاتك .

— هكذا ، اذن ؟ بالتاكيد . النساء يحببن الحنان . من اين هى ؟

اجاب الكسى :

—ارملة ضابط . كنت مرافقا لزوجها المرحوم . . .

— هكذا ، اذن — مضى الجد فى تعجبه . وكان لديه ما يحدث به النساء فيما بعد . ورغب هو نفسه ان يتباهى فقال — عندما حصلت على نيشان غيورغى بالقرب من بلافنا ، جعلنى الجنرال سكوبيليف مرافقا له . . . كان يرسلنى تحت قصف القذائف والرصاص . . . كان يقول : اخرج على حصانك ، افاناسى . . . آه ، كم كان يحبنى . . . يعنى ، خطيبتك من طبقة الاعيان . . . سيصعب عليها عمل الفلاحين بعض الشىء . . .

— لا تقوى على عمل الفلاحين ، يا افاناسى افاناسيفيتش . الحمد لله على ان لدينا الكفاية من الفلوس لاستخدام الايدى العاملة .

— بالطبع . . . اذن ، لنشرب نخب صحة الخطيبة ، المر من اجل الحلو — شرب الجد قدحه وتنحنح ، ونكش بشدة شاربيه الاصفرين بيده — كنتاى تحملان اكياسا زنتها عشرات الكيلوغرامات . وفى

البداية ، عندما خرج الزوجان الى الحرب ، واضطرت الحمقاوتان الى القيام بعمل الرجال كانتا تتشكيان «اوى ، ظهرى انكسر» وتئنان «اوى ، يداى ، رجلاى !» فاكاد انفجر من الضحك – وضحك الجد فجأة ضحكة بلهاء – انا اعرف كيف اداري النساء . كان سكوبيليف يدعونى : ملك النساء . . .

نهضت ماترينا فجاة كاتمة ضحكتها ، وذهبت الى الموقد وراء الستارة لتخرج الوزة المحمصة . وكانت كاتيا تجلس هادئة متواضعة غاضة بصرها . قال الكسى بحرارة وهو يصب الخمرة :

– ليس هذا مصـــدر المرارة والازعـــاج ، يا افاناسى افاناسيفيتش . يمكننى ان اقيم الزفاف ولو يوم غد ، ولكن هل استطيع ان اسكن زوجة شابة فى هذا الخن ؟ انها وماترينا تنامان على تخت واحد ضيق ، وانا على الارض العارية . . . المزعج ان اهل القرية ينظرون الينا وكانهم ينظرون الى غرباء . . . لماذا عائدوا ؟ ان ذلك الجناح يقف بمفرده بلا فائدة . والمصادفة هى التى سلمته من الحرق . ومن بحاجة اليـــه ؟ اينتظرون ان يعود الامير الى هنا ثانية ويشكرهم ؟

– هناك مثل هذا الظن .

قال الجد افاناسى وهو يكسر فخذ الوزة .

– الشيطان سيعود الى هنا قبل ان يعود صاحب الاطيان . . . حسنا ، استطيع ان اشترى هذا الجناح من المجمع ، واكـــون مسؤولا عن كل شىء . . . (حدجت ماترينا الكسى بعينيها ، وضرب الكسى المائدة) اشتريه ! . . . انا رجل قليـــل الصبر . . . . لا باس . . . من اجل هذا اللقاء . اعطينى ، يا ماترينـــا ، الشىء الملفوف فى خرقة تحت المخدة . (عقدت ماترينا حاجبيها ، وهزت راسها) هاتى ، هاتى ، ولا تبخلى . . فليس هناك شىء اغلى من الحياة .

اعطته ماترينا . فك الكسى الخرقة واخرج ساعة منقوشة دقاقة لها سلسلة من الفولاذ . وهزها ، ووضعها على اذنه .

– حصلت عليها مصادفة ، وكانما كنت اعرف لمـــــن ساهديها . احملها موفقا ، يا افاناسى افاناسيفيتش .

– ما هذا ، اتقدم رشوة لى ؟ – سأل الجد افاناسى بصرامة ، الا ان يده ارتجفت حين وضع الكسى الساعة فى كفه .

– لا تزعلنا ، يا افاناسى افاناسيفيتش . انا اهديها لك من صميم قلبى . . . عندى حوالى عشرين من مثل هذه التوافه ، وقد قايضتها ماترينا جميعها بالكحول . وهذه احسنها لانها تدق . وبدلا من سماع الديكة عند الصباح اضغط على هذا الذولب تدق لك ، فلتلبس حذاءك اللبادى ، وتخرج لتفقد الماشية . . .

– اها – قال الجد افاناسى وفتح فمه ذا الاسنان القليلة

– اها ، اذن ستوقظ كنتى ! الآن ، لا تستطيعان ان تناما الى الضحى ، السمينتان . . .

لف الجد رقبته المعروقة بلفاحه ، ولبس معطفه مترنحا ، وخرج . خفضت ماترينا ذبالة المصباح فوق المائدة ، وجمعت وكاتيا الصحون وحملتها الاثنتان وراء الستارة . وظل الكسى جالسا الى المائدة . وقال بصوت لا رنة فيه :

– اهذه الخمرة القديمة قوية ، ام لاننى لم اشرب منـــذ زمان ؟ ماترينا ، لطيف لو تخرجين لتفقد الماشية .

لم تجب ، وكانها لم تسمع . وبعد برهة نظرت الى كاتيا ، وابتسمت ابتسامة هازئة .

قال الكسى مرة اخرى :

– انا لا افهم . . . اما انك تانفين منا ، واما انك ساذجـــة كليا . . .

حدجت ماترينا كاتيا بنظرة نارية تامرها بالا ترد عليه . وتوهج خداها .

– على الاقل ابكى . . . انا لاول مرة ارى من امثالك ، يا ربى . . . اعلنها خطيبة لى ، وهى لا تحرك شعرة فى راسها . تجلس منكسة عينيها . . لا هذا ولا ذاك . . . حورية ماء ، والله . ماترينا ! – هتف الكسى – انها لا تفهم ان الاطفال يشيرون اليها باصابعهم . جلبها الكسى على عربة ، وقد ربحها من ماتخو فى لعب الورق . . . هذا لا يعنيها . . . اما انا – وصاح بجنون – دعوهم يعرفون الآن انها خطيبتى !

شحبت كاتيا ، وذهبت وراء الستارة ومعها فوطة وصحن . جذبت ماترينا كتفها بقوة .

– نحن نعرف الآن من اى طرف نمسك الحياة . . . قتلت اول رجل فى عام ١٩١٤ – وارسل الكسى ضحكة مقتضبة – رايت المانيا يزحف ، ورفع انفه فاطلقت عليه رصاصة اصابته وسقط على جنبه . وانتظرت لارى روحه تطير منه . انا قتلت الكثيرين ، ولكن لم ار روح احد منهم . . . اوه ، كفى ، شكرا على المعرفة . . . سنبنى بيتا على الحطام : الاول خشبى ، والثانى آجرى ، والثالث تحت سقف ذهبى . . . عبثا ، يا يكاترينا ديميتريفنا ، عبثا ان تسلكى هذا السلوك معى . انا لا امسكك بالقوة . اذا كنت لا اروق لك ، اذا كنت هولة يمكنك ان تذهبى الى حيث تشائين . خطيبة ! انا لا اتوقع اية متعة من خطبتى هذه .

مست ماترينا بشفتيها خد كاتيا ، واسرت فى اذنها : «احمق سكران ، فلا تلقى بالا له . . .» علقت كاتيا الفوطة على حبل ممدود ، وخرجت من وراء الستارة . كان الكسى يجلس بانحراف على المائدة وقد وضع ساقا على ساق ، ودلى يده الكبيرة المنتفخة . نظر الى كاتيا بعينين غائرتين . جلست كاتيا على مقعد قبالته . كانت نظرة الكسى صاحية متفرسة ، فغضت كاتيا بصرها .

– الكسى ايفانوفيتش ، كان يجب ان نتحدث منذ وقت طويل . . . انا اعتبرك انسانا طيبا ، يا الكسى ايفانوفيتش . لم اجد منك غير الطيبة الاصيلة طوال حياتنا المتنقلة . وقد تعلقت بك . ولكن ما اعلنته اليوم لا يدهشنى . كنت اتوقع هذا منذ زمان . . . ان شيئا ما حصل لك منذ مجيئنا الى هنا . . . يا الكسى ايفانوفيتش . انت هنا انسان آخر . . . .

تنحنح الكسى منظفا حنجرته ، ثم سأل :

– ما يعنى «انسان آخر» ؟ ثلاثين عاما كنت شخصا واحدا ، والآن صرت شخصا آخر ؟

– ان حياتى ، يا الكسى ايفانوفيتش ، كانت كنوم لا يقظة فيه .. وهذا ما اقوله لك . . كنت حيوانا بيتيا لا نفع فيه .. آه ، نعم ، كنت محبوبة . ولكن ماذا فى ذلك ؟ شىء من الاشمئزاز ، وشىء من القنوط . . . وحين احدقت بنا الحرب ، كان ذلك يقظة

لى : الموت ، والدمار ، والعذابات ، والنازحون ، والمجاعة . . . ولم يبق للحيوان البيتى العديم النفع غير ان يولول ويموت . . . وكان ذلك سيحدث لو لم ينقذنى فاديم . . . كان يقول لى وكنت اصدق بان حبنا هو معنى الحياة كله . . . ولكنه كان لا يبحث الا عن الانتقام والتدمير . . . الا انه كان طيبا ؟ انا لا افهم . . . (ورفعت راسها ، ونظرت الى ذبالة المصباح القصديرى المخفضة فوق المائدة) وقتل فاديم . . . عندئذ التقطتنى .

– التقطتك – قال الكسى بابتسامة هازئة غير صارف عنها بصره – ربما تتصورين نفسك قطة . . .

– كنت اياها ، يا الكسى ايفانوفيتش . ولكننى الآن لا اريد . . . لم اكن طيبة ولا شريرة ، لا روسية ولا اجنبية . . . حورية ماء . . . – وارتفع طرفا شفتيها بمعابثة ، وتجهم وجه الكسى – وظهر انى لست الا امراة روسية . . . وساظل على ذلك الآن . . . لقد رايت معكم الكثير من المصاعب والفظائع . . . وتحملت ولم اقل اف . . . انا اتذكر احد الامسيات . . . كانت عدد العربات محلولة ، وجاء الخيالة . . . واجتمع حول القدر الفائر اناس محتدون صاخبون .

– تتذكر ! ماترينا ، هل تسمعين . . .

– وظلوا يتجمعون حول القدر الفائر . . . وتحدث كل واحد عن ضرباته المجيدة ، كيف بتر راسا ، وهجم ثانية وتشابك فى المعركة . . . يبدو انهم لفقوا الكثير من ذلك . . . ولكن شيئا كبيرا قويا كان فى ذلك .

– ماترينا ، انها تتذكر المعركة مع الالمان قرب ضياع فيرخنى . . . كان قتالا جسورا . . .

– واتذكر كيف وثبت من عربة الرشاشة . . . كنت اخاف ان اتقدم منك – وصمتت كاتيا قليلا وكان حدقتيها المتسعتين كانتا تريان شيئا بعيدا – هذا ما كان . . . وعندما سافرنا الى هنا قلت لنفسى : ان امامى حياة واسعة . . . وليست على قطعة صغيرة من الارض . . . هنا لا يوجد غير الخنانيص والدجاج وحديقة الخضروات ، وراءها سياج اصم وايام رمادية لا ومضة فجر فيها . . . (وغضت كاتيا جبينها ، وكان عقلها البائس

الصمت الزمهريرى الخفيف رائحة بطيخ مقطع . وكان ايفان ايليتش يعرف كل شيء ، ويجيد كل شيء ، ويستطيع ان يجد جوابا لكل شيء ، وحلا لكل ريبة . ومن جديد تراءى الصندوق السحرى المزوق امام عينى داشا ، ولكن لم يكن يحوى احاسيس فالتة مستقلة ، ولا الغازا واحاجى ، بل كانت فيه هبات وافراح حياة قاسية واتراحها .

شيء واحد لم يكن مفهوما لها فى ايفان ايليتش ، وقد اضحى يغمها ، وهو تكتمه . فقد كان ايفان ايليتش كلما اويا الى فراشهما فى المساء يستغرق فى افكاره . كف عن النظر الى داشا . كان يتنحنح وهو يخلع حذاءه على المصطبة . واحيانا كان يقول لها وهو يخلع حذاءه «داشونكا ، عزيزتى ، نامى ، يا حبيبتى» . ويذهب حافى القدمين عبر الرواق البارد الى غرفة المكتب ، ويعود على اصابعه ويضطجع على حافة السرير حذرا من ان يصر تحته ، ويغفو فى الحال متغطيا بمعطفه حتى رأسه .

اما فى النهار فقد كان بادى المرح منشرحا مورد الخدين يروح ويجىء ، ويقبل داشا على خديها وعلى رأسها الاشقر الدافىء الحبيب .

— مرة اخرى ، مرحبا ، يا زوجة الآمر . . . خبرينى ، هل شؤونك آخذة فى الانتظام ؟

وكان يسأل عن ذلك ثلاثين مرة فى اليوم . وكان المفوض ايفان غورا قد اقترح على داشا تنظيم مسرح للفوج من بين المواهب المحلية .

ورفضت داشا فزعة : «يا ربى . . انا لا افهم شيئا من ذلك . . .» ربت ايفان غورا على يدها قائلا :

— ستقدرين على ذلك ، يا عزيزتى ، تعلمى من الاخطاء . لقد نهضت باشياء اصعب . فقط ان نتخلص من هذا الروتين اليومى . اعثرى على شيء ثورى حماسى يجعل عيون المقاتلين تلتهب .

وكان المفوض عجولا على المسرح جدا . وكان فوج كاتشالين تساريتسين للتموين يستعد الى الخروج الى الجبهة قريبا . وكان الذى اعيد تعزيزه وكسوته من الاحتياطات الضئيلة لدى ادارة

المقاتلون رغم التدريبات المتعبة والساعتين من التثقيف السياسى اليومى قد بدأوا ، وقد شبعوا فى المزارع ، يتعابثون من فرط ما جمعوا من قوة . وعقد اجتماع .

وخطب سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف فيه ، وقد وجد الفرصة ، بعد سنوات عديدة من الصمت ، ليقذف الى العالم بمجموعة من الافكار تفجرت فيه . تحدث عن التحول الثورى فى المسرح ، وتحطيم كل الحدود بين خشبة المسرح والمتفرجين ، وعلى مستقبل المسرح تحت السماء المكشوفة او فى حلبات السيرك الضخمة التى تتسع لخمسين الف متفرج ، حيث ستشترك افواج بكاملها ، وتطلق المدافع ، وترتفع البالونات الهوائية ، وتندفع الشلالات الحقيقية ، وتقوم الجماهير لا الممثلون الفرادى بتمثيل الشخصيات البطولية .

— اين انتم ، يا مسرحيى المستقبل ؟ — سأل سابوجكوف رجال الجيش الاحمر باسطا ذراعيه ، وكأنه يهم بالطيران حتى روافد السقف . وكان هؤلاء يستمعون اليه بمرح رغم غموض الكثير من كلماته التى كان ينطقها بعجالة واحدة فى ذيل الاخرى — اين انتم ، يا دراماتى عصرنا العجيب ؟ اين انتم ايها الشكسبيريون الجدد ؟ والسوفكلوسيون الذين نزلوا من قواعدهم المرمرية ليشاركونا مهرجان الفن ، ومهرجان الابداع ؟ أحقا ان الانسان كان فى يوم ما مكشوفا امامكم كما هو مكشوف الآن ؟ أحقا ان التاريخ قذف فى يوم ما مثل هذه الثروات الضخمة من الافكار ؟

وبالطبع كان التهيب يستولى على داشا تماما بعد امثال هذه الخطب . ولكن التراجع كان متعذرا .

سافرت مع سابوجكوف الى تساريتسين لجلب الكتب والجنفاص والاصباغ . واستطاعا الحصول على شيء من ذلك . وقدم سيرغى سيرغيفيتش لها الكثير من النصائح المفيدة وما يزيد عليها من النصائح الحمقاء . وتقرر انتقاء الممثلين دون اى تدقيق ومماحكة ، والبدء فى اجراء التمرينات على تمثيلية «اللصوص» لشيلر .

وكان تليغين فى غبطة عظيمة لا ترجع الى لهفته لتمثيل «اللصوص» المقبل بقدر ما ترجع الى شعوره بان داشا وجدت اخيرا

ما تعمله وتنجذب اليه ، وتروح وتجيء ، وتتحدث الى رجال الجيش الاحمر ، وتغضب ، واحيانا تبكى من الانزعاج ، وهى الآن (كما بدا له فى بساطة قلبه) لا تعود الى التركيز الشديد على همومها الشخصية وحدها .

وبامر من الفوج ضم الى الفرقة الدرامية اغريبينا وانيسيا ولاتوغين (الذى ذهب الى المفوض يطلب ضمه الى هذا العمل) وكوزما كوزميتش وبايكوف وبعض العازفين على الاكورديون والبلالايكا والمغنين من رجال الجيش الاحمر .

وفى المساء قرأت داشا التمثيلية فى السقيفة فى ضوء بقية من شمعة . وكانت وجوه الممثلين فى الضوء الباهب لا تكاد تبين من خلال البخار الطالع مع الانفاس . وكانت الريح المتصاعدة ترسل الثلج من خلال خصاص بوابة السقيفة . قرأت داشا بصوت واضح صاف محاولة ان تتمثل - بمقدار ما تسعفها ذاكرتها - الطريقة التى كان يقرا بها بيسونوف فى عهده : يد واحدة وراء طية سترته السوداء وصوت مفصول عن الحياة ، وكلمات مثل قطع الثلج ، تزدردها بنهم سيدات الادب المتنفسات بعسر وهن جالسات حوله على مقاعد وثيرة . . .

وادركت داشا وهى فى منتصف القراءة ان التمثيلية لا تحظى باعجاب ، رغم الحذف الكثير الذى اجرى عليها . وقرب النهاية استعجلت تماما . وعندما فرغت منها ، وبعد فترة من الصمت الثقيل قالت :

- هذه هى «لصوص» شيلر التى يجب ان نمثلها . . .

اخذ الرجال يدخنون ، وقال احدهم ، وهو لاتوغين ، بصوت خافت :

- تمثيلية ذهنية .

عندئذ اخرج كوزما كوزميتش عقب شمعة من جيبه ، واشعلها ، وجلس الى جانب داشا .

- ايها الرفاق ، اطلعتنا داريا ديميتربيفنا على النص والآن سأقرؤه لكم .

وتناول الكتاب منها ، واخذ يقرأ بصوت عال ملونا صوته ووجهه حسب جميع الشخصيات ، فمرة يصور الاسى الابوى للكونت

العجوز مور ، ومرة يهمس بازيز ، وقد تسطح انفه ، وتقلبت عيناه : «. . . كنت الآن مغفلا يستحق الاشفاق لو لم استطع انتزاع ابنى المحبوب من قلب الوالد ، ولو كان مشدودا اليه بسلاسل من حديد . . آه ، ايها الضمير ! يا فزاعة الطيور الممتازة . . . ليسبح من يقدر على السباحة ، وليغرق من يجد نفسه ثقيلا . . .»

وتراءت للمستمعين فى عين خيالهم ذلك الثعبان ، فرانس مور . وهنا تحشرج صوت كوزما كوزميتش . غرس يده فى شعره دافعا اياه الى صلعته ومط شفتيه بشكل رهيب ، والتمعت عيناه بحقد نبيل : ايه ، ايها الناس ! ايها الناس ! يا ذرية التماسيح الكاذبة الخبيثة ! قبلة على الشفاة ، وخنجر فى اليد ليغرز فى القلب . . الى جهنم وبئس المصير ! التهب كالنار يا صبر الرجل النبيل ، وانقلب ذئبا ايها الحمل الوديع . . .»

اهت انيسيا نازاروفا أهة خافتة ، ومال لاتوغين بكل جسمه نحو الشمعة التى كانت تضىء الكتاب السحرى التى كانت اظافر كوزما كوزميتش تدب على صفحاته . وفى عتمة السقيفة كان يهدر كارل مور نفسه - الرجل المتمرد المفهوم بالنسبة للمستمعين والذى اثار قلقهم . فيا لها من كلمات استطاع ان يعبر بها عن المساءات التى لحقت به . انها لتمثيلية تنفذ الى الاعماق !

وحين وصلت الشمعة الى نهايتها ، ونطق كوزما كوزميتش عبوسا بآخر كلمات كارل الذى كان يتذكر ، وهو يسير الى الاعدام الرهيب ، الكادح المياوم البائس اخذت انيسيا واغريبينا تفركان عيونهما بكمى معطفيهما وقال لاتوغين «قطعة صادقة من الحياة» . واتفق الجميع على ان كارل ما كان ينبغى له ان يقتل عبثا وبتأثير الغضب اماليا التى يحبها ، وكان يجب ان ياخذها الى العصابة ويعيد تقويمها . ولا بد من تعديل شيلر فى هذا الموضع ، والا فان رجال الجيش الاحمر لن يعجبوا بمثل هذه التمثيلية الجيدة بسبب هذه النقطة التافهة ، بل وقد تترك آثارا سيئة على المقاتلين . وتقرر فى نفس الجلسة الا تقتل اماليا ، بل يقول لها كارل «اذهبى الى البيت ، ايتها التعيسة» فتبكى بكاء مرا ، وتخرج .

وعهد بدور اماليا الى انيسيا ، ودور كارل الى لاتوغين . وارادوا اسناد دور فرانتس النذل والوغد الى بايكوف ، ولكنهم خافوا ان لا يضبط نفسه فيكون اضحوكة لدى المتفرجين ، لان الجنود ما ان يروا لحيته حتى ينفجروا ضاحكين . وتقرر ان يمثل كوزما كوزميتش دور فرانتس ، ولكى يبدو اصغر عمرا الزم بحلق وجهه تماما . وعهد الى رجل ذى صوت كثيف من رجال الجيش الاحمر دور العجوز الكونت ماكسيميليان فون مور . وتناهبت اغريبينا والمقاتلون الشبان بقية الادوار . ودخل شخص يحمل فتيلة علبة كيروسين ، واضيئت السقيفة بالفتيلة المشتعلة الداخنة . وبداوا التمرينات قبل ان يتفرقوا .

ولم تعد داشا الى البيت الا قبيل الصباح ، وظلت تحكى طويلا لايفان ايليتش ، فضحك مقهقها وهو جالس على السرير حافيا واضعا معطفه على كتفيه . . .

– لاتوغين يمثل دور كارل مور ؟ (ونخر وجعجع ماسكا بطنه) سأموت من الضحك . . . ولكن اتعرفين لماذا اخذ الملعون دور كارل مور ؟ انه يغازل انيسيا . . بينما انذره شاريغين بان يفرى كبده . . . وكوزما كوزميتش ؟ فرانتس . . . هذا ممكن . . . اى ملابس سيرتدون ؟ يتبخترون فى القمصان العسكرية ؟ سأرسل المسئول عن الميرة ، فى الضيعة انحصر محام من بتروغراد وحده مع حقائبه . . . ربما نحصل على الستر الطويلة والفراك . . .

– انت تجعجع بشكل لا يجعل لى رغبة فى ان احكى لك . اتركنى – وانسلت داشا الى السرير ورقدت لصق الحائط ، وادارت ظهرها لزوجها . وعندئذ حشر البطانية تحتها بحذر ، وغطى قدميها بالمعطف ، لان الموقد قد برد ، والبرد تسرب الى البيت . وقالت داشا ناعسة :

– كل شىء سيكون على ما يرام .

واخذ الفوج لا يتحدث الا عن المسرح . والقى سابوجكوف محاضرة عن الادب الالمانى فى عهد «العاصفة والهجوم» فشبه العباقرة العاصفيين – شيلر وغوته وكلينغر – بالنسور الفتية التى ايقظتها بروق الثورة الفرنسية العظيمة . وأُمطر سابوجكوف بالاسئلة حتى اضطر الى ان يعلن عن سلسلة من المحاضرات عن

تاريخ نهاية القرن الثامن عشر . وقضى ليالى كثيرة مستضيئا بسراج ، محركا قلمه ، عاصرا ذاكرته قانعا بدخان التبغ لانعدام الكتب والمراجع . وكانت الاسئلة تتساقط عليه فى المحاضرات كالانهيار الجبلى ، فقد كان رجال الجيش الاحمر يريدون معرفة كل شىء . فما ان يذكر شيئا حتى يسأل عنه بالتفصيل . وما كاد يتطرق الى الديسمبريين حتى طلب منه ان يقص كل ما يعرفه عنهم .

وكانوا يستمعون اليه لساعات عديدة مغالبين التعب ، وكان بعضهم يهوّم فى غفوة ، ثم يهز راسه نافضا النعاس عنه . وكان يجذبهم الحديث عن الازمنة الغابرة ، والبلاد الاجنبية ، حيث كان اناس مثلهم وضعوا طربوشا احمر على راس رمح ، واندفعوا وحدهم ضد العالم كله . وابتكروا ، وهم الجياع الحفاة ، تكتيكيا حربيا جديدا يحقق لهم النصر . وحين انتصروا أُوثقوا من ايديهم وارجلهم من قبل الذين لم يفطنوا الى ان يقطعوا رؤوسهم فى الوقت المناسب .

وهتف سابوجكوف بصوت متقطع مبحوح :

– آوه ، ماكسميليان روبسبير ، كان فى وسعك ان تنتصر ، وكان فى وسعك ان تنقذ الثورة ! وقد عينت يوم حتفك ، حين انزلت راية الكومونة السوداء من فوق بلدية باريس . . .

وكانت الديكة تصيح فى الافنية حين اقبل المفوض ايفان غورا ، ودمدم :

– يا رفاق ، بعد ثلاث ساعات سينفخ فى بوق الاستيقاظ .

قاطعت داشا وهى تقوم بالتلقين :

– توقف ! يا رفيق فانين ، انت تمثل شخصا ميتا . فلماذا تسعل متعمدا ؟ من اين لك هذه الطبيعية المقرفة ؟ مثل بصورة اكثر حرارة ، ضع نفسك فى الدور . . . كل شىء من جديد . . .

عثرت داشا بين الكتب التى جلبت من تساريتسين على مجلة مسرحية فيها مقالة لكوغل بعنوان : «استخدم كل ما هو تحت يدك» وقد امتلأت بالنقد اللاذع للمسرح الفنى . وقد اشار المؤلف الى تقاليد ممثلى الدراما الروس العظام الذين كانوا يأخذون بالالباب والقلوب بعبقريتهم الوحشية . عند ذاك كان المسرح معبدا وثنيا ، والستارة غطاء سحريا لتانيتا * . واسفاه ، ان نسل

* ربة القمر عند الهون القدامى .

ممثلى الدراما العبقريين قد انقرض ، وآخر ذرية له ، مامونت دالسكى ، بدل جزمة الممثل التراجيدى التقليدية بشدة من الورق . وذهب اولئك العظام الذين كانوا يهزون النفوس ليحل محلهم المخرج ، السيد المتعلم الذى صار يعرض للجمهور المحترم مزاجا ، وستائر مهزوزة ، وابوابا حقيقية ، وطنين البعوض بدلا من نفس انسانية مصلوبة امام قاعة المشاهدين . ويهتف كاتب المقال : «لا ، ان المسرح الحقيقى هو غول العواطف الاشعث !» استقت داشا من هذه المقالة بعض المعلومات العملية التى ساعدتها فى التمرينات .

كان لاتوغين وانيسيا جالسين فى ناحية ينتظران دورهما . كان وجه انيسيا خلال هذه الايام القليلة قد بدا عليه النحول ، فليس من السهول تقمص نفس انسان آخر . وفقدت انيسيا شهيتها ، واضحى الطعام يثير غثيانها . فكرت طويلا ، كيف تجعل اماليا قريبة الى نفسها ، ووجدت المنفذ حين رأت فى الكتاب صورة تلك الآنسة فى فستان عريض (تصور اماليا حزينة وقد وضعت خدها على يدها) . ظلت انيسيا تمعن النظر طويلا فى الصورة مرسلة الزفرات ، وتصورت : عندما كنت واقعة فى مصيبتى التى هى افدح منها بكثير كنت اهيم متعثرة متنقلة من قرية الى اخرى ولا ارى النور من خلال الدموع ، امد يدى من اجل قطعة بائسة من الخبز . . . لا ، ان الصورة غير صحيحة . لو كانت اماليا ، الرافلة بالحرير والمخمل ، قد تحملت مصيبة انيسيا لكانت يداها معوجتين فى كميها القصيرين المدنتلين ، ولكانت الدموع فى عينيها !

وعلى هذا الشكل ، وشيئا فشيئا انقلبت اماليا فون اديلريف محبوبة كارل مور الى انيسيا . بالامس اثناء التمرينات صمت الجميع حين خلعت انيسيا قبعتها العالية بنجمتها من القماش الاحمر ومست بيدها شعرها المتناثر ، وجلست على مقعد ، وتكلمت وكأنها تمس شغاف القلب :

«آه ، بحق الرب ! بحق الرحمة الكاملة ! لم اعد بحاجة الى الحب . . . ولا اطلب منك الا الموت . . . انا مهجورة ، مهجورة ! اتفهم انت رنين هذه الكلمة الرهيب : «مهجورة . . .»

وصباح اليوم ، اثناء التدريب فرض رئيس القسم على انيسيا

مهمة اضافية جزاء على انسراحها التام . واضطر المفوض الى التدخل ، فاستبدل ذلك بتوبيخ شديد . وهى الآن جالسة هادئة الى جانب لاتوغين وفى عينيها الزرقاوين الواسعتين حلم ، وشفتاها تبتسمان تارة ، وترتعشان اخرى ، وهما تلفظان الكلمات بلا صوت .

قال لها لاتوغين بصوت خافت :

– كانت فى قريتنا فتاة ذات عينين صافيتين تدعى ساشا ، وكنت آنذاك فى الرابعة عشرة ، وهى فى السابعة عشرة . لست ادرى هل كانت مشيتها تلفت النظر ام شىء آخر ؟ كانت الفتيات يأتين من الحقل وهى معهن فى شال صغير وبلوزة كنارية اللون تحمل كباشة ، فكانت تبدو وكأنها ستعانقك فى اللحظة التالية . . . وزوجوها شيخا هرما ، وذوت فتاتى ساشا . . . وانت تستغربين لماذا اخواننا متلهفون (تورد خدا انيسيا قليلا وهو يتكلم ، وكأنه يغازلها) نحن نبحث عن حياة جديدة غير معروفة من قبل ولم يجربها احد ، يا عزيزتى انيسيا . نحن جميعا نفكر فى واحدة لا ترى حتى فى الحلم . . .

– لا توجد مثل هذه النساء .

– انت لا تعرفين ! ان مثل هؤلاء النساء يعشن فى جزيرة مرجانية فى المحيط الهادى .

نظرت انيسيا الى وجهه العريض بعينيه المتباعدتين الثور وارتعش شىء فى داخلها مرة اخرى ، وسرت رقة حارة ندية فى جسدها . ولكنه لم يكن فى هذه المرة حنينا انثويا خاشعا – فقد انقضى ذلك بفضل الزمن – بل كانت تحس الآن بمرح . ضحكت ضحكة مقتضبة وقالت :

– وهل كنت هناك ؟

– لا يهم ذلك . . . ذلك مكتوب فى سجل البحر .

– فى اى سجل للبحر ؟

– فى كتاب بحرى عن مختلف العجائب .

– انت تكذب ، يا لاتوغين ، والاستماع اليك لا يريح .

– اسمعى انت ، وانا سأمضى فى كذبى . . ولكن سأقول لك الحقيقة . فكرت ذات مرة ، يا انيسيا ، بان اقدم على عمل سيىء

نحوك ، ولكن احد الاشخاص تحدث معى . مرغوا انفى ، كما يفعلون مع قطة . . آه . . لا بأس . . . الانسان ملك الطبيعة . شكرا على الدرس .

نظرت انيسيا اليه ثانية ، ولكن بدهشة . وكان لاتوغين قد رفع صوته حتى ان داشا نقرت بالقلم : «يا رفاق ، لا تعرقلوا التمارين» .

تابع لاتوغين كلامة همسا :

– فى منطقتنا كرجينتس توجد جماعة من طائفة الطواشية . انهم يخصون انفسهم لانهم لا يستطيعون السيطرة على النفس . وقد حكى لى احدهم قائلا «انا احلم بطائر النار ، احلم ولكن حين افتح عينى لا اجد غير التعاسة الشوهاء . . .» وهم يأتون باعمال منكرة ، ويسوطون زوجاتهم حتى حافة الموت . . . ويذهب احدهم الى بيطاره – الحمامة البيضاء – قائلا : «انقذ روحى . .» فيطفىء هذا روحه كما يطفىء الشمعة . . . «عش ، ايها المخصى ، بخير وسلام ، والله معك . . .» لا ، يا انيسيا ، سنستحم بالدم ، ونسلق بالصودا الكاوية ، ولكن سنصيد طائر اليُمن ، ولو طار الى آخر الدنيا . . .

دقت داشا بالقلم :

– ايها الرفيقان ، كارل ، اماليا ، المشهد الاخير ، غيروا ترتيب المسرح . . . .

حين لاح فجر الصباح القرمزى الزمهريرى وراء ادخنة الضيعة قفز فارس من فرسه قرب البيت الذى اتخذ مقرا لقيادة الفوج ، وترك فرسه المكسو بقشرة من الجمد ، واخذ يطرق الباب بضراوة . فتح ايفان ايليتش بنفسه الباب له ، فسلمه الجندى ظرفا . وفى ذلك اليوم ذاته جمعت كل العربات من الضياع المجاورة ، وبدأ الفوج مسيرته .

بدأ تطويق جيش الدون لتساريتسين للمرة الثالثة على التوالى منذ شهر آب . وفى هذه المرة وضع الجنرال مامونتوف

تساريتسين داخل كماشة من الجناحين . وعلى بعد خمسين فرسخا الى الشمال من المدينة خرقت افواج الخيالة الثلاثة للجنرال تاتاركين الجبهة بضربة مباغتة ، وطلعت على الفولغا قرب حاضرة دوبوفكا .

وبعد يوم بدأ هجوم خيالة الجنرال بوستوفسكى جنوبا بالقرب من ساريبتا . وكانت وحدات من فرقة دميترى شيلست الفولاذية تدافع عن ساريبتا . ولم يكن شيلست نفسه موجودا ، فقد تشاجر مع المجلس العسكرى الذى حظر عليه الاستقلال بالتموين والتفرد بالامر ، ولخشيته من الاعتقال سافر الى موسكو ليقدم الشكوى . كانت الفرقة الفولاذية فى فوران . كان البعض يقول ان الرئيس شيلست سيعود كقائد جيش ، والبعض الآخر ان الرئيس اعتقل ، ويجب الذهاب الى تساريتسين «فى كتلة واحدة» لانقاذه ، ولكن الغالبية صدقت بما راج عن هروب الرئيس الى استراخان ، حيث اخذ يجمع جيشا من المتطوعين . غادر حوالى الف وخمسمائة مقاتل خيال الجبهة وعبروا الفولغا ، وساروا بمحاذاة الضفة اليسرى الى استراخان . وتفككت الفرقة الفولاذية ، واستولى الجنرال بوستوفسكى على ساريبتا ، وصار يهدد تساريتسين من الجنوب .

كان المجلس العسكرى للجيش العاشر ، فى توقعه لهذه الضربات الجانبية ، اخذ قبل اسبوع منها يركز جماعة ضاربة مؤلفة من لوائين للخيالة : لواء الدون – ستافروبول ولواء سيميون بوديونى . الا ان هذين اللوائين لم يجدا الوقت الكافى للالتحام فحصل الاختراق ، وتحمل لواء الدون – ستافروبول الضربة كلها على نفسه . وكان بوديونى يحث الخيول ليل نهار لنجدته .

ووجه فوج كاتشالين الى مكان تمركز الجماعة الضاربة . ظل الفوج يسير طوال بقية النهار ، والليلة التالية – بعد توقف قصير – ميمما نحو وهج كدر كان يلوح فى الظلام القارس . وكان الوهج يحجب ضوء الفجر ، فارتفعت الشمس الى يمينه ، ولم تظهر الا قليلا بين السحب الرقائقية المتوهجة كالنحاس .

كان تليغين وايفان غورا وسابوجكوف يركبون الخيول ، ووراءهم كانت العربات الحاملة للجنود الحمر ، والمدافع وعربات المتاع تمتد صفوفا عديدة فى السهب الثلجى . وكانت خيالة

الاستطلاع تلوح على مسافة بعيدة . سمع الامران والمفوض ، وقد اخذتهم الدهشة ، اصوات القصف المدفعي الغاضبة آتية من مكان ليس بالبعيد كثيرا . اطلقوا فرسانهم وخلفوا الفوج وراءهم ، واقترب احدهم من الآخر وتوقفوا ، واخرجوا الخارطة من الحقيبة ، واخذوا ينظرون فيها . كان المكان الذى امر الفوج بالتوجه اليه ما يزال بعيدا ، ولكن سماع قصف المدافع بهذا الشكل كان يدل على ان الجبهة قد اقتربت . ولم يكن لهم معها اى اتصال ، لا هاتفيا ولا بواسطة السعاة من راكبى الخيول . وكان من الممكن ان ينقلب هذا الغموض الى هلاك .

قال ايفان غورا :

– هذا السهب الملعون . نحن فيه كالذباب الزاحف على مفرش مائدة . ومن حسن الحظ ان القوزاق لم يكتشفونا بعد .

قال تليغين :

– وكيف لم يكتشفونا ؟ ان لهم سعاتهم ، وهم يراقبوننا منذ خروجنا من الضياع .

انزل سابوجكوف قبعته حتى حاجبيه ، وارقل نحو رجال الاستطلاع .

وصلت العربات الامامية تجرها خيول شعثاء الاعراف من العرق ، لاهثة الانفاس . امر ايفان ايليتش الجنود الحمر الذين قفزوا منها بان يهرعوا لينادوا ويلوحوا للذين تاخروا ليتقاربوا ويتراصوا . وشق طريقه بين العربات فرأى كوزما كوزميتش ، وقد شد عنقه حتى اذنيه بالخرق ، يسوق الحصان ، وكانت داشا تجلس على كومة الديكور على العربة ، وهى ترتدى قلنسوة ومعطفا ابيض من جلد الغنم ، ووجهها شديد التورد ناعسا كوجه الطفل . هتفت بشىء له وهى تقلص عينيها من نصاعة الثلج ، الا انه لم يتبين شيئا مما قالته بسبب صريف العربات ، وضجيج الاصوات . ثم رأى اغريبينا جالسة مع ثلاثة جنود حمر ، وهى الاخرى اخذت تهتف بشىء ما مشيرة الى السماء بيدها المقفزة . ماذا كانت تريد من هناك ؟ القى ايفان ايليتش رأسه الى الخلف ، وهو على سرجه فرأى بوضوح طائرة تلوح كالطائر الاسود ،

وتطير اسفل من سحابة رقائقية كانت اشعة الشمس المغبشة تنتشر تحتها .

ثم رآها الجميع . ضرب ايفان ايليتش حصانه وشق طريقه بين العربات صائحا : «تفرقوا !» . صاح ايفان غورا الضخم بصوت كثيف فارجا ساقيه على الركاب : «اطلقوا النار على الطائرة !» انطلقت عربة مارة بايفان ايليتش تحمل داشا وقد لاح الرعب فى عينيها ، وكوزما كوزميتش يسوط الحصان باطراف العنان . وبدأ اطلاق نار مضطرب ، فاخذت الطائرة بجناحيها المعكوفين وهدير محركها الضارى تصعد وراء السحابة ، وتناثرت من بطنها بيضات اندفعت صافرة الى الاسفل ، وانفجرت على الثلج الابيض كالاجمات السوداء .

كان الكثيرون من رجال الجيش الاحمر يلتقون بهذه التجربة الفظيعة لاول مرة . تراكضت بعض العربات بعيدا فى السهب . وارتفع صوت البوق الممطوط ليجمع الصف المشتت . وظل الفتيان ينظرون طويلا الى السحابة فى خوف .

ثم بقى عليهم ان ينتظروا القوزاق انفسهم . سارت العربات متلاصقة فى صفوف متراصة . رفعت الاغطية عن المدافع التى كانت تسير بطيئة فى مربع ممدود . وفى الغروب لاحت معالم القرية الى الامام ملونة بلون ليلقى . اقبل سابوجكوف يعدو من تلك الجهة مع رجلين من رجال الاستطلاع . وتقدم من تليغين وايفان غورا منفعلا مرحا ، وخلع طاقيته ، ومشط شعره المبلل بيده .

– كل شىء على ما يرام . لا يوجد احد فى الضيعة غير النساء والاولاد . وبعدها ، على بعد خمسة فراسخ توجد قرية فيها قوزاق .

قاطعه ايفان غورا غاضبا :

– قوزاق ، قوزاق ، يا لها من اخبار مطمئنة ! ولكن اين قواتنا ؟

– اقول لك لا اعرف . . . تركت قواتنا القرية ، كما انها لم تكن فى الضيعة .

قال ايفان ايليتش :

– يجب احتلال الضيعة . ولكن لن اتقدم بعدها خطوة واحدة حتى اتصل بالجبهة .

احتلوا الضيعة فى الغسق . وكانت تمتد على حافة خندق مغمور بالمياه . اخذ الجنود الحمر يدقون على صفاقات النوافذ صائحين فى ترهيب : «يا اصحاب البيت ، اخرجوا !» ودخلوا البيوت المعتمة الدافئة . ولكنهم لم يجدوا غير امرأة مع طفل وراء الموقد فى احد البيوت ، وعجوز تدمدم من الخوف وراء موقد فى بيت آخر . وكان جميع الرجال قد هربوا الى القرية القوزاقية . امر تليغين بان يتخندقوا . وسُدّ طرفا الشارع بالعربات المتلاصقة . وكان تليغين قد ارسل سابوجكوف قبل زوال ضوء النهار مع جماعة من المتطوعين فى استطلاع فى العمق ليتصل بالجبهة خلال الليل .

مر الليل فى توجس . ورغم ان القوزاق ليسوا عشاق القتال فى الليل ، الا انه كان من الممكن توقع اية حيلة منهم . كان ايفان ايليتش وايفان غورا يقطعان الضيعة من طرف الى آخر ، ويسيران على الجليد الذى ما يزال غير متماسك ليعبرا الى الجانب الآخر من البركة . كانت السماء ملبدة بالغيوم ، وهدأ القصف المدفعى فى الشمال الشرقى . وهبت الريح حاملة الرطوبة ، وخفت شدة القرس ، ولم يعد الثلج يخشخش تحت الاقدام .

دمدم ايفان غورا وعِقا وهو يسير الى جانب تليغين :

– مصيدة ، وقعنا فى مصيدة حقيقية . لم نستطع ان نسير بالفوج الى المكان المعين له . . . عار ! انهم يبحثون عنا ، ونحن نبحث عنهم . يا لها من لبخة ! من الملوم ، من ؟

– دع عنك . لا لوم على احد .

– ايا سيسالون اولا ؟ اياى ! وهذا حق . مفوض ضاع فى السهب مع فوجه ، آه ، لبخة ! . .

انطلقت طلقة منفردة بصوت رنان . توقف ايفان غورا بغتة . وسمع دقات قلبه . وفجأة بدأ اطلاق نار عاصف ، ثم هدأ فجأة كما بدأ . ولم تبق الا وشوشة الناس وهم يتبادلون الحديث وقد خرجوا من بيوتهم والنوم عالق فى اجفانهم . قال ايفان ايليتش :

– الفتيان متوترو الاعصاب . شباب لم يقع تحت النيران . تعال ندخن .

قبيل الفجر دخل البيت برهة متخطيا ارجل النائمين فى حذر ، ووصل الى الموقد بالتلمس . بحثت يد داشا عنه فى الظلام ، ومسدت خده . فالصق كفها الدافئة على شفتيه .

– لماذا لا تنامين ؟

– اتعرف فيم افكر ، يا ايفان ؟ اذا طال مكوثنا فى الضيعة فاننا فى آخر الامر سنمثل «اللصوص» فى العراء ، بل ونحن فى المعاطف ، فليس هذا المهم . . .

– بالطبع ، يا داشونكا . . .

– قمنا بالعمل فى حماس . وسيكون من المؤسف ان يضيع كل شىء هباء . . . .

– صحيح . . . غدا سأتحقق فى الامر ، فقد تكون هناك سقيفة . . . نامى ، يا حبيبتى . . .

وخرج الى الشارع ثانية ، واستنشق نفسا عميقا من الريح الرطبة . لم يستطع ايفان ايليتش حتى الآن ، بعد تلك السنوات العديدة من الاشتياق ، ان يعود ذهنه على انها قريبة منه ، راقدة تحت معطف من فراء الغنم على الموقد ، فى هذا البيت الواطىء .

«انها لا تنام من القلق . . . لم تقل كلمة واحدة . . . ولكنها سرت فمدت يدها لى . . . اية امرأة مدهشة هى ! . .»

وتأثر ايفان ايليتش تأثرا شديدا بتحسسها اياه فى الظلمة ، وانطباق كفها على شفتيه ، حتى احس بان وجهه يلتهب فى الريح . . . أمن المعقول انه مخطىء على اية حال ؟ «لا ، يا عزيزى ، هذه سخافات ، فاتركها . . . . انها صديقتك ، نعم ، نعم ، نعم . . . ووفية . نعم ، نعم ، نعم . . . فكن سعيدا بذلك . . .»

انه لن يستطيع ان ينسى ابدا تلك الامسيات المظلمة فى بطرسبورغ ، حين كان يهرع الى البيت حاملا فطيرة ، او شيئا من الحلوى حصل عليها لداشا ، فلا يوحى لها بغير النفور والذعر . . . يعنى انه كان ينطوى على شىء من هذا ، وما زال كذلك . ولكن ، يا الهى ، كم احب هذه المرأة ، وكم حن اليها !

اقبل ايفان غورا من الظلمة ، وقد حشر يديه عميقا فى جيبى سترته .

– وكيف لو امسكوا بسابوجكوف ؟

– من المحتمل جدا . . سارسل فى الفجر بعثة استطلاعيـــة اخرى .
– كان يجب ان أفعل ذلك فى وقت ابكر من ذلك ، ابكر بكثير – واخرج ايفان غورا يده من جيبه ، وضرب جبهته بقبضته – لم تثبت اهليتك لما اوكل اليك ، ايها الشيوعى ! حتى اذا خرجنا من هذه الحادثة بسلام فاننى لن اغفر ذلك لنفسى . . . لو كان الامر بيدى لقدت مثل هذا المفوض الى ما وراء عنبــــر الغلال ، وودعته الوداع الاخير !
– ايفان ستيبانوفيتش ، انا ملـــوم بنفس القدر اذا كان الامر كذلك .
– دع عنك ! حسنا ، لنذهب ، وندخن . . . .

سار سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف مـــع خمســـة من المستطلعين المتطوعين فى السهب على امل العثور على اية دلائل تشير الى الجبهة . الا ان السهب كان خاويا دامسا لا ينفذ فيه البصر . اشعلوا اعواد الثقاب واستهدوا بالبوصلة . تعبت الخيول تعبا شديدا ، وهى لم تطعم . واخذ الحصان الذى وضعت عليه الرشاشة يعرج ، ويجذب العنان . امر سابوجكوف بان يترجلوا ، ويفكوا اللجام وحزام السرج . اخرجوا القمح من الاكياس المشدودة على السروج ، وسكبوا منها مقادير فى قبعاتهم واخذوا يطعمون الخيول ، مولين ظهورهم وجه الريح .
– ايها الرفيق الآمر ، وجدت تفسيرا لاخفاقنا فى الاتصال بالجبهة – قال شاريغين مختارا كلماته بروية ، كما هـــو دائما – الجبهة متركزة . . . (وتثلج وعسر عليه تحريك شفتيه) نحن مددنا جناحينا فى منطقة العمليات والقوزاق متمركزون . . . ربما هذا ممكن ؟
– آوه ، القوزاق ، القوزاق ، ذرية التماسيح الكاذبـــــة الخبيثة ! الى جهنم وبئس المصير !
قال لاتوغين ذلك بلهجة جادة . انفجر بالضحك الفتيان الشبان الثلاثة الذين جندوا من القرى القوزاقية . اجاب شاريغين راسا :

– ليس الوقت ملائما دائما للمزاح ، يا رفيق لاتوغين . يجب كبح البذاءة فى الامور الجدية .
قال سابوجكوف بصوت خافت :
– كفى ، يا اولاد ، لا تتشاجروا .
صلصلت الخيول بشكائمها ، وهى تمضغ حبات القمـــح بقرقشة . وكانت الريح وراء ظهور المستطلعين تصفر فى مواسير البنادق .
– امضغ ، ولا تعبث يا وباء !
صاح لاتوغين حين اخرج فرسه بوزه من القبعة واخذ يحنى له راسه .
قبل هذا بوقت قصير حين كان المحاربون الحمر مجتمعين عند البئر فى الضيعة نادى سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف على مـــن يريد التطوع فى مهمة استطلاعية ، فكان شاريغين اول من جاء اليه قائلا «انا ذاهب معك» وفى نفس الوقت لم يحجم ليضيف منفعلا : «لا تظن ايها الرفيق الآمر ، اننى قادم لا لاظهار شجاعتى ، بل عن وعى ، كومسومولى . .»
وسمع لاتوغين هذا الكلام وهو يسوق خيول المدفعية الى البئر فضحك مع رجال آخرين من الجيش الاحمر ، وراى وجـــه شاريغين الاحمر المنفعل . . . «آخ ، ايها الشيطان الافطس ، انت تكذب ، لن تتفوق على» وهز كتفيه ، وتقدم من سابوجكوف :
– الا اكون زائدا عليكم ، يا سيرغى سيرغيفيتش ؟ فى وسعى ان اذهب الى البطارية ، واستاذنها بالخروج .
وكان طوال الطريق يتحارش بشاريغين ، ويضحك الجنود الحمر . والآن نعته بالبذاءة ، فوبخه الامر . هكذا ! سكب لاتوغين بقية القمح فى كفه ، والقاها فى فمه .
– يجب ان نمسك اسيرا ، والا فسندور فى السهب بلا فائدة . . . عندئذ سنعرف اين تتمركز الجبهة . . .
قال شاريغين مؤكدا :
– حقا ! اقتراح معقول .
– الى الخيول ، ايها الرفاق !
لبس سابوجكوف قبعته ، والجم حصانه ، وشد حزام السرج

متنحنحا ، وقفز على السرج . وقبيل الفجر اشتد الصقيع ، ولم يكن الليل على حلكته السابقة . وكشف النور المخضوضر المبشر بالصباح عن حواف السحب الكدرة . وانطلق الفتيـــان فى عدو منكبين على سروجهم .

— قفوا ! ها هم ! — قال لاتوغين ، واخرج بندقيته من فوق راسه موقعا قبعته — انهم ستة . . . سبعـــة ! — وفى تلك الكدرة المخضوضرة لم تستطع الا عيناه ، عينا بحار ، ان تتبينا شيئــا ممسوح الملامح كلا — لا ، ليس هنا . اللعنة — همس للمستطلعين الذين اقبلوا عليه — ليس فى هذه الجهة . . . اولئك هم ، يلوحون بالكاد . . .

وبينما كانوا ينزلون الرشاش من على ظهر الحصان على عجل ترددت كركبة خيول ، ولاحت اشباح خيالة متضخمة غير واضحة .

صاح لاتوغين بصوت وحشى :

— القوا اسلحتكم ، واستسلموا ، ايها الفســـاق ! وضرب حصانه بماسورة بندقيته بطريقة غريبـــة على راكبى الخيول ، وانطلق . فاندفع شاريغين فى اثره ليلحق به . زعق سابوجكوف بصوت حاد «عُد ، عُد !» توقف القوزاق برهة — وكانوا من رجال الاستطلاع ايضـــا ، على ما يبدو — ثم ادارو خيولهم ، واخذوا يبتعدون . اطلق لاتوغين عدة طلقات من على سرجه . جنح فرس كان يرقل فى المؤخرة فمال براكبه وسقط (اما الآخرون فكانوا على مسافة بعيدة فلا تكاد العين تراهم) . دار لاتوغين وشاريغين حول الفارس الذى قفز من فرسه . نادى لاتوغين وهو يتصـــارع مع الفارس قرب الفرس الساقط : «تعالوا ، يا رفاق !» وعندما اقبلوا عليه كان راكبا فوق القوزاقى وكانه راكب فرســا ، وقد لوى يديه . «ليس كبيرا ، ولكنه رجل ركين . . .» كان القوزاقى منبطحا على وجهه ، وخده ممرغ فى الثلج ، يشخر مقلصا عينيه فى غضون .

امروه بالنهوض ، ودفعوه ، وقلبوه على ظهره . اخذ القوزاقى يشتم شتائم مقذعة بذيئة وكانه يحرضهم على قتله باسرع وقت . امتقع سابوجكوف ، وضربه بغمد سيفه : «انهض !» رفع القوزاقى راسه قليلا ، ونظر اليه نظرة وحشية ، ونهض مترنحا . كان رجلا

قصير القامة منحدر الكتفين ، ذا لحية عريضة كالهالة ملطخـــة بالثلج .

صاح سابوجكوف به :

— امسك لسانك ، يا بذى اللسان ، يا خانق الدجاج . امامك آمر الفوج ، فاجب عن اسئلتى .

مد القوزاقى ذراعيه المشدودتين فى حزام وراء ظهره ، ونظر الى الواقفين امامه بعينين مستديرتين صفراوين مديرا لحيته . وفجاة لعق شفتيـــه . وقال لواحد من المحاربين الحمر مورد الوجنتين متهيئ للضحك :

— انا اعرفك . انت ابـــن عم كوركين ، الا تستحـــى من نفسك ؟

— يوه . وانا ايضا اعرفك ، ياكوف فاسيليفيتش . . .

— مرحبا ، ياكوف فاسيليفيتش ، على الرحب والسعة — قال لاتوغين ، وضحك المحارب الاحمر ثانية غير ضابط نفسه — يا ذا اللحيـــة العجيب ، نحن نبحث عنك طوال الليل . . . اين فوجك ؟ ومن اى فيلق هو ؟

نحاه سابوجكوف ، واخرج خارطة ، وشرع بالاستجواب . كان القوزاقى يرد كارها ، ثم فكر على ما يبدو بان فى الامكان ان يكسب الوقت فى الحديث ، وان الحمر الملاعين سيبردون قليلا ، وقد يجد مخرجا ، فاخذ يتحدث . ومن كلامـــه عرفوا ان الجنرال تاتاركين قد خرق الجبهة ، وان لواء الدون — ستافروبول اوقف نجاح تاتاركين عند حده ، وان معركة دامية تدور رحاها الآن قرب دوبوفكا حيث تتجمع قوات البيض والحمر على السواء .

وعثروا على راس الخيط اخيرا . وقرروا ارسال القوزاقى الى الفوج مع واحد منهم ، اما الآخرون فيجب ان يتوجهوا الى دوبوفكا غير مشفقين على خيولهم من التعب ليبلغوا القائد بوصـــول فوج كاتشالين . وهنا فقط تساءلوا : اين شاريغين ؟

نادى لاتوغين :

— ميشكا ! هل غفوت مع الخيول ؟

كان حصان لاتوغين يقف وقد وطا العنان ، ومن تحت بطن حصان آخر دلى عنقه النحيل لاحت ساقا شاريغين معكوفتين بشكل

غريب . كان شاريغين يحتضن قربوس سرجه ضاغطا وجهه عليه .

– ميشكا ! – وامسك لاتوغين كتفه بفزع ، وجذبه اليه – يا اخ ، ماذا دهاك ؟

مال شاريغين الى الوراء ، وسقط عليه ثقيلا . كان وجهه بلون التراب ، ومعطفه مشبعا بالدم من صدره حتى حزام الخراطيش . القاه لاتوغين على الارض برفق ، وعرى بطنه الابيض ، وضغط بكفه على جرح دام من اثر طعنة .

– انت الذى طعنته بالسيف ؟ آخ ، ياكوف ، ياكوف . . .

خلع لاتوغين معطفه وسترته ومزق قميصه من ياقته ، ولفه كجديلة ، واخذ يشد بطن شاريغين بحيوية وخفة .

– سيرغى سيرغييفيتش ، يجب نقله الى الضيعة .

– ولكن كيف ؟

– ما هذه «كيف» ! . . . استطيع ان آخذه وحدى ، واسوق الاسير ايضا .

نضح عرق من وجه شاريغين الشبيه بوجوه الموتى ، ودبت الحياة فى عينيه المقلوبتين ، وعاد اليهما الوعى والاستغراب والذعر مما فكر فى نفسه : ماذا حصل له لينهار جسمه الفتى القوى الذى لم يعرف المرض قط . . .

– يا رفاق ، يا احبائى ، ماذا عليّ ان افعل الآن ؟

– عليك بالثلج ، يا عبيط .

وغرف لاتوغين الثلج ، ووضعه على شفتيه .

وخلال انشغالهم بشاريغين ، وانزالهم الرشاشة من فوق الحصان الذى اخذ يعرج تنورت الدنيا تماما ، وساقت الريح السحب الواطئة المهلهلة الناثرة مطرا خفيفا مثلجا . ولشدة انغماسهم لم يلاحظوا حشودا ضخمة من الخيالة آتية من الجنوب مع غمائم من الضباب .

دمدم السهب بوقع الحوافر . مرت طوابير متماوجة من الخيالة تعدو ، وعربات مدافع ورشاشات تجرها الخيول . نظر المستطلعون اليها ماسكين خيولهم من مقاودها . فات الاوان ولم يستطيعوا التراجع .

واكتشف امرهم ، فانفصل حوالى عشرين فارسا من مقدمة الطابور العابر ، وانطلقوا ليلحقوا بهم . التفت سابوجكوف فراى لاتوغين وقد بدا عليه الجد والشحوب يستل سيفه ببطء ، وحرك المحارب الاحمر الضحوك ترباس بندقيته بلا غاية ، وغضن وجهه كله ، وكانما من الم . . .

هتف الفارس الذى كان فى المقدمة بشىء ما ، واشار الى رجال الاستطلاع . كان فى قبعة مائلة من فراء الاغنام ، وعباءة قوزاقية سوداء واسعة عند الكتفين تغطى حصانه الصغير حتى اعلى ذيله . اطلق سابوجكوف النار ، الا ان لاتوغين اسرع فسقط عليه من السرج ، وامسك يده :

– اللعنة ! لا تطلق ! انهم جماعتنا !

واقترب الخيالة . ارتمى الذين جاءوا من الجانبين على خيولهم وهم يطوقون رجال الاستطلاع . اندفع الرجل الطويل ذو العباءة مصطدما بسابوجكوف ، وهزه من صدره بقوة افلتت كلتا قدميه من الركاب .

– اعمى ! من انتم ، ومن اى وحدة ؟

وتقلبت عيناه السوداوان ، ووقف شعر شاربيه ، وما كاد يمسك نفسه من ان يضرب سابوجكوف المرعوب بمقبض سيفه .

– نحن من فوج كاتشالين للمشاة . نحاول ان نتصل بالجبهة .

– لا داعى لمحاولتك والجبهة بالقرب من انفك . – اجاب الرجل ذو الشاربين وقد برد غيظه واعاد سيفه الى غمده فى قرقعة – اركب حصانك وتعال معنا .

– معنا جريح . . .

– آوه ، يا رب . هل فوجكم كله يمثل هذه البلاهة ؟ ضع الجريح على الحصان مع هذا الشاب الركين – واشار الى لاتوغين – وما هذا البطل ؟

– اسير قبضنا عليه .

– اعط الاسير لنا . (تلعثم سابوجكوف ليقول ان الاسير يجب ان يرسل الى الفوج) آه ، يصعب عليّ التكلم معك . سيتحدث

معك رئيس الاركان ، يجب ان يكون لك ادراك – وعدل العباءة بكتفه ، وانطلق بعدو سريع ، وكان الفرس يتخطر مرحا تحته نائرا الثلج بحوافره اللامعة . وخب الجميع وراءه بمن فيهم لاتوغين يسند شاريغين ، والاسير القوزاقى المحلول اليدين الذى دفن عبوسه فى لحيته العريضة خجلا وحزنا .

اندهش الخيالة بشدة من سؤال سابوجكوف : من هؤلاء الفرسان المتطلقون بسرعة فى طوابير زاحفة ، وهم الآن يلوحون اشباحا مبهمة من خلال الضباب والمطر ؟

– الا تعرفهم ؟ انهم لواء سيميون ميخائيلوفيتش بوديونى .

– هل استرحت قليلا ، يا داريا ديميترييفنا ؟ لماذا يبدو القلق على وجهك ؟ منذ الصباح لم تاكلى ؟ أما . . . حلبت ملء جردل من الحليب . صدقينى بودى ان اجلب منه شيئا لك ، ولكن المحاربين الحمر شربوه كله . وفتتنا الخبز ، واكلناه ثلاثتنا . وهكذا ملأنا بطوننا .

كان كوزما كوزميتش يتفجر بعنفوان الحياة . وكانت داشا لا تستطيع النظر الى وجهم الحليق تماما بشكل يبدو خاليا من اللياقة : حنك صغير كثير الحركة وفم مكشوف اجرد ، كأنه نفسه يتوسل ان يُغطى . استيقظت داشا فى وقت متاخر فلم تجد احدا فى البيت ولا فى الفناء . كانت فى الهواء رائحة من الرطوبة المصاحبة لذوبان الثلج ، ورائحة اسطبلات ، وكانت غمائم من الضباب معلقة على السطوح القصبية . رآها كوزما كوزميتش من الفناء المجاور فعبر السياج بحيوية واخذ يرقص حولها ماسحا يديه الصغيرتين القذرتين .

– اولا ، ان كل شىء بخير وعلى ما يرام ، يا داريا ديميترييفنا . . . وزوجك فى الجانب الآخر من البركة ، اما انت فقد كنت تغطين بنوم عميق فلم تسمعى بالتراشق بالنار . اراد القوزاق ان يجسوا نبضنا ، فرددنا عليهم ردا حادا جعلهم يتراجعون الى قريتهم لا يلوون على شىء . ما زلنا نحفر الخنادق . ذهبت الى البطارية فعرفت ان كارل مور لم يعد حتى الآن من الاستطلاع . مرت انيسيا ومعها برميل ، وقد تغير وجهها ، فشفتاها مزمومتان ، وانفها مدبب ، ولم ترغب فى الكلام معى . هذا ملخص الاحداث

الخارجية . اما بخصوصك فخذى جردلا ، واغرفى الماء الدافئ من المرجل ، ولنذهب لنحلب البقرة . فليس هناك مهدئ للروح والجسد احسن من لمس حلمات البقرة لا سيما بالنسبة لمثقفة حالمة .

ضحكت داشا ، الا انه اصر قائلا :

– شيللر هو شيللر ، ولكن اصحاب ضيعتنا رحلوا دون ان يسقوا ماشيتهم او يطعموها ، او يحلبوها . وهذا ليس بالاصول . اذهبى واجلبى الجردل .

– ولكننى لا اقدر على حلب البقرة ، يا كوزما كوزميتش .

– جواب نموذجى . لم تكونى تقدرين على شىء ، يا داريا ديميترييفنا . لم تكونى تقدرين على امساك الابرة ، وكدت تفقدين زوجك الى الابد بسبب عدم مقدرتك هذه . ولكن سنحلب الحليب ، واعلمك كيف تصنعين رقائق الحليب ، وكيف تقلين البيض على شظايا الخشب وسيأتى ايفان ايليتش جائعا كالذئب . فتقدم له زوجته الجميلة المقلاة والشحم المقدد ينش فيها نشيشا مجنونا . فينكب عليها ، واذا بك تقدمين له الرقائق ! ثم تجلسين قبالته وتنظرين اليه بابتسامة هادئة ، فتبدو له ملغزة كابتسامة الجوكنده . هؤلاء هن زوجات قواد الجيش الاحمر !

واصر كوزما كوزميتش على رايه ، فان اية فكرة تخطر له تبدو كشوكة فى راسه ، والافضل ان توافقه عليها . طوت داشا تنورتها فى الزريبة نصف المظلمة ، وقرفصت تحت البقرة فلم تضربها هذه بقرنها ولم تركلها . غسلت داشا الضرع بالماء الدافئ ، واخذت تسحب الحلمات المحرشفة ، كما علمها كوزما كوزميتش المقرفص خلفها . وكانت تخشى ان تنقطع الحلمات ولكنه كان يردد : «اسحبى اقوى ، ولا تخافى» . ادارت البقرة العريضة راسها وغلفت داشا بنشيقها الصاخب ونفسها الحار الطيب . رنت خطوط الحليب الدقيقة وهى تسقط على الجردل وتذكرها بالطفولة . لقد كان ذلك عالما ابكم «واطئا» و«لطيفا» لم تحس داشا بوجوده قبل هذا . وهذا ما قالته لكوزما كوزميتش همسا . فهمس لها ايضا وراء ظهرها :

– فقط الا تقـــولى ذلك لاحد ، فانهم سيضحكون منك قائلين : داريا ديميتريفنا كشفت فى زريبة الابقار عالما مجهولا . هل تعبت اصابعك ؟

– بشكل فظيع .

– اتركى ... (وقرفص فى مكانها) .. بهذه الطريقة ، على هذا النحو ... اى ، اى ، هؤلاء هم المثقفون الروس ! كانوا يبحثون عن الحقائق الازلية فوجدوا بقرة ...

– وانت ؟

– انا ؟ وترك الحلب من شدة الانزعاج .

– تجلس تحت بقرة وتتفلسف .

– يا عزيزتى ، من الافضل الا تحاولى الدخول فى جدل مع قس سابق .

وتناول الجردل وخرج مع داشا من الزريبة الى البيت ، حيث اخذ يقطع قطعة خشب الى شظايا .

– التفلسف هو تجول الافكار . كان يوحان جورج هامان المدعو بالساحر الشمالى يؤكد ان «وجودنا ووجود الاشياء الاخرى خارجنا لا يخضعان للبرهنة ابدا ، ويتطلبان الايمان فقط ...» أيعنى اذا لا يوجد ايمان لا يوجد عالم ايضا ؟ لا انا ولا انت ؟ وان هذه ليست شظيـــة بل لا شىء ؟ أفعلى هذا ال«لا شىء» سنقلى البيض ؟

ووضع شظايا الخشب على افريز الموقد واخرج من الموقد بعض الجمرات ، واخذ ينفخ فيها .

– ولكن فلسفة الحياة شىء آخر ، يا داريا ديميتريفنا . ادرسى الحياة واعرفيها واستوعبيها ... فالحياة بدون تدخل العقل الرفيع تسير فى طريق خبيث . ان وجودى حقيقة ، لا ذرة للشك فيها ، وهى بالنسبة لى مهمة للغاية . ولما كنت محبـــا للعشرة والاستطلاع فاننى اريد ان ارى كل شىء ، وافهم كل شىء . ولن يمضى وقت طويل حتى اعرف كل ما يدور حولنا وفى داخل نفوسنا ، هذا ليس ظاهرة عفوية بل تحت توجيه العقل البشرى . ولكننى لا استطيع التحدث مع مفوضنا عن ذلك . غير انى اود ان اتحدث مع شخص آخر فى لباس مدنى ، واجلس معه ساعة من الزمن ...

داريا ديميتريفنا ، اخرجى الى الفناء ، فهناك صومعة مؤنـــة فى آخره ، لاحظتها قبل حين ، بل وكسرت القفل على بابها . اجلبى من هناك شيئا من الطحين ، حفنتين منه ...

وا'عد الفطور . وبدلا من ايفان ايليتش الذى كانت داشا تنتظره من لحظة الى اخرى دخل البيت جندى احمر يحمل بندقية وكيس خراطيش مملوءا :

– امر الآمر بشد الخيول على العربة وتحميلها ... وجمع المتاع !

واستنشق من انفه ، ودفع طاقيته على علباله ، وتقدم من الموقد ممسكا بندقيته ، واخذ من المقلاة ما استطاع ان يمسكه من الرقائق الحارة ، وتشمم خجلان ، وخرج .

صاحت داشا :

– يا رفيق ، يا رفيق . ماذا حصل ؟

– كيف ماذا حصل ؟ انظرى الى الشارع .

وفى تلك اللحظة حدث انفجار بقوة شديدة فبدا قريبا جدا وكانه فى الفناء المجاور ، حتى ان الزجاج تطاير متهشما فى كلتا النافذتين الصغيرتين .

كانت خطة الهجوم على تساريتسين فى كانون الاول قد وضعها الاخصائيون العسكريون فى مقر قيادة دينيكين . وقد اشار البارون فرانغل وهو من اصغر الجنرالات سنا الى الاهمية الهائلة للسيطرة على تساريتسين . وصادق الاتمان كراسنوف على الخطة . وارسلت لمساعدة جيش الدون فرقـــة تحت امرة ماى-مايفسكى بقيت بلا مهمة بعد هزيمة الحمر فى شمال القفقاس ، وقد عززت باحســـن الوحدات القتالية من جيش كورنيلوف وماركوف ودرزدوف . سار ماى-مايفسكى عبر الدونباس لتغطية مؤخرة جيش الدون الذى كان مكشوفا للضربات من الغرب ، من ناحية اوكرانيا ، ولم يترك على الحدود الشمالية غير قوات دفاع قوية . زحفت خمسون الفا من القوات المنتخبة من جيش الدون نحو تساريتسين .

وفى نفس الوقت كان المقر العام لقيـــادة الجيوش الحمراء للجمهورية يضع خطة لمجابهة الهجوم . فكان على الجيش الثامن الاحمر والجيش التاسع الاحمر المرابطين على الحدود الشماليـــة

لمقاطعة الدون ان يدخلا فيها من كلا جانبى الدون ، ويدفعا قوزاق كراسنوف البيض الى حراب الجيش العاشر ، وبالجهود المشتركة للجيوش الثلاثة يسحق جيش الدون فى سهوب تساريتسين . وبعد ان يدحر تنعطف الجيوش الحمراء فى جهة مقابلة تماما وتتحرك غربا ، نحو الدنيبر ، وتطهر اوكرانيا من البيتليوريين .

فى هذه الخطة اغفل شىء رئيسى ، وهو ان خطوط ودوائر الخارطة الحربية ، وشبكة الاشارات والارقام كانت تطوى تحتها صراعا طبقيا يغلى بقوانينه الخاصة واحتمالاته ، وان هذه الدوائر والخطوط مختلفة فى نوعيتها . فبعضها كان يمكن ان يصب قوى جديدة فى الافواج والالوية والفرق الحمراء ، وبعضها الآخر كان يضعفها .

ولم توجه خطة مقر القيادة العام الجيوش الحمراء فى الاتجاهات التى تقتضيها الاستراتيجية العليا للحرب الاهلية . فان تحركها من الشمال الى الجنوب الشرقى عبر الدون وخوبر ومدفيدتسا وخلال القرى القوزاقية ذات الميول العدائية قد اضعفت قوة الهجوم ، واطالت مدته ، واعطت للعدو امكانية المناورة واعادة التنظيم .

ومثل هذه كانت الخطوات الحذرة التى اتخذتها فيما بعد الخيانة السرية فى داخل المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية الذى صادق على تنفيذ الخطة الفاشلة التى وضعها مقر القيادة العام . فان الخطأ الذى كان يبدو فى الوهلة الاولى خافيا ومن الصعب تلمسه قد كبر خلال ستة اشهر فصار خطرا جديا .

بدأ هجوم كانون الاول المضاد للجيوش الحمراء . وقد جرى فى منطقة ابعد كثيرا فى شرق الدونباس ، حيث كان النـاس فى مناطق المصانع والمناجم ينتظرون الجيش الاحمر بنفـاد صبر ليقوموا بانتفاضة . الا ان فرقـة ماي-مايفسكى قد بدأت تدخل المنطقة من الجنوب ومعها مدكات البنادق والمشانق . ووقع الجناح الايمن للهجوم الاحمر تحت الخطر . وتوقف الهجوم . ومن جديد تحمل الجيش العاشر قوة الضربة كلها للمرة الثالثة منذ شهر آب .

كان العدو اكثر عددا واحسن تسليحا واغنى تموينا . وكان لديه اندفاع عارم نحـو الهجوم . وبدت القوتان غير متكافئتين

بشكل كبير . وارسلت تساريتسين الى الجبهة التعزيزات الاخيرة ، وهى خمسة آلاف عامل ، كل ما كان فى وسعها ان تجمعه . وجاءت النجدة من الابداع الثورى .

فى عام ١٧٩٢ ابتكر الشعب الفرنسى الجائع الحافى المسلح بمزاريق مصنوعة بيتيا نار المدفعية الصاعقـة ليدحر القوات المدربة للائتلاف الاوربى ، وخلافا لكل القواعد الحربية قام بهجوم كاسح للمشاة ضد تشكيلات المربعات الشهيرة للملك فردريك .

وابتكر الشعب الروسى اشكالا جديدة لتنظيم وحدات الخيالة . وكان من بينهـا لواء سيميون بوديونى الذى خرج من سهوب سالسك . ولم تكن قوته تكمن فى البسالـة وحدها . فقد كان القوزاق البيض يجيدون ايضا شق الراكب الى نصفين . لقد كان لواء بوديونى محبوكا بالولاء والانضباط ابتداء من حامل الرايـة ذى الشاربين الطويلين وحتى حارس العربات الملتحى . وقد شكلت كل كتيبة ومفرزة من سكان قرية واحدة . وصار المحاربون الذين كانوا فى يوم ما يصطادون الجنادب سوية فى السهب وهم صغار يمتطون الخيول جنبا الى جنب . الابناء وابناء الاعمام فى الصفوف ، والآباء والاعمام فى عربات الحمولة والرشاشات . ومنذ اليوم الذى خرج فيه سيميون بوديونى من قرية بلاتوفسكايا بفصيلـة من حوالى ثلثمائة فارس وحتى اليوم لم تحدث حالة هروب واحدة . . . ثم اين يذهب مثل هذا المحارب ؟ لا يمكن ان يعود الى قريته او ضيعته . فان ذلك يعنى العار والمثول امام محكمة .

وكان فى اللواء محكمتان حسب عرف لم يدون فى نظامـه الداخلى : محكمة رسمية عسكرية ، ومحكمة رفاقية غير رسمية . كانت المحكمة العسكرية تحاكم المحارب المذنب سواء على جبنه فى المعركة ، او عدم اطاعته للامر ، او وضع يده على مال الآخرين . وبالاضافة الى المحكمة العسكرية كان المحاربون انفسهم يحاكمون المذنبين فى الحالات الخاصـة . كانوا يجتمعون فى مكان بعيد عن الانظار ، ويبدأون محاكمتهم لهذا الشخص . وكان يحدث ان تبرئ المحكمة العسكرية ساحة المتهم آخذة بعين الاعتبار هذا الظرف او ذاك ، بينما كانت المحكمة الرفاقية تحاكمه بصرامة اشد ، وتصدر حكمها عليه ، فلا تستطيع ان تسأل احدا عن مصيره .

وكان نظام القتال هو الآخر قائما على قاعدة جديدة غير مدونة ايضا فى اى من قواعد الميدان . كانت الكتيبـــة تنظم نفسها فى صفين للهجوم باكتساح . فى المقدمة يسير المحنكون من الطاعنين بالسيوف ذوى الايدى الثقيلة وهم فى العادة فرسان لهم تجربـة كبيرة . وكانت ضرباتهم من القوة بحيث ترسل فرس العدو يرقل وعليه الجزء الاسفل من جسم راكبه . ويأتى وراءهم فرســـان ماهرون بالتسديد من المسدسات والبنادق ، وكل واحد يحمى فى القتال الرفيق الذى يتقدمه . ويندفـــع الاولون ، وهـــم تحت حماية نار رفاقهم ، ليغرسوا سيوفهم فى العـــدو بجرأة ودون تلفت الى الوراء ، ولم يحـــدث قط ان استطاعت خيالة للعدو حتى ولو كانت اقوى عددا بمرتين او ثلاث ان تصمـــد لهجـــوم البوديونيين المركز ، المؤلف من حلقات ذكية منفصلة متلاحمـة فيما بينها .

كانت الضيعة تحترق فى عدة اماكن . وتكور الدخـــان بين السقوف المتلاصقـــة ، واندلع اللهيب ناثرا الشرر ونتف القش المحترق تحت السحب العائمة على انخفاض . وكانت الحمائم تحوم وتقع فى النار . وكانت الماشية ترسل الخوار فى الزرائب . حطم ثور اصيل السياج ، وتحرر طليقا مندفعا فى الشارع فى خوار . وخرجت النساء من البيوت المحترقة راكضات يحملن اطفالهن على ايديهن باحثات لهن عن ملجأ . ومن ناحية القرية القوزاقية وراء التلال ظلت المدافع تقصف بلا انقطاع .

وفى منتصف النهار ظهرت من هناك صفوف القوزاق المشاة الاولى كنقاط صغيرة مبثوثة على امتداد واســـع ، وهى تنوى الاحاطة بالضيعة المحترقة ومحاصرتهـــا ، ودفع فوج كاتشالين المتخندق فى خنادق حفرت على عجل والقاءه فى النار . وكانت هذه الخنادق تبدأ من دكان الحدادة فى طرف الضيعة ، وتمتد على حافة البركة ، حيث الجليد الممزق بالقنابل اليدويـــة ، وتلتوى نحو الطاحونة الهوائية على الرابية .

سار تليغين وايفان غورا على فرسيهما بمحاذاة الخنـــادق تتبعهما اغريبينا مرافقة المفوض مرتدية قبعة مائلة من فراء الغنم على غرار ما تعلمتـــــه من القـــوزاق . كانـــا يتوقفـــان

14*

تارة بالقرب من مفرزة متخندقة الى وسطها فى اخدود ضيق ومتجهمة فى مثل هذا الطقس ، او بالقرب من حظيرة للرشاشات . ايفان ايليتش مورد الوجه ذو عينين بشوشتين ، وايفان غورا مســـود الوجه ناحل من متاعب الليل ، الا انه الآن قد هدأ حين اتضـــح الموقف . عدل تليغين جلسته على السرج ، ومرر يده المقفزة على شفتيه ، وكأنما يمسح الابتسامة منهما ، وتكلم مستغلا الصمت بين هدير الانفجارات :

– ايها الرفاق ، لديكم الفرصة لانزال خسائر داميـــة فى العدو . اطلقوا النار بهدوء ودون فزع وبانتقاء : رصاصة لكل رجل . انا والمفوض ننتظر مثل هذا التسديد منكم . انتقلوا الى الهجوم المضاد بالحراب فى تعاون واندفاع . . . آمركم بالا تتراجعوا مهما تكن الظروف .

هز المفوض ايفان غورا رأسه ، وهتف :

– عاش الرفيق لينين ! ولتسقط الراسمالية العالمية !

وبعد هذا الكلام ذهبا الى الجماعة التالية من المحاربين . وبعد ان فرغا من الجولان فى الجبهة كلها ترجلا من فرسيهما عند الطاحونة الهوائية . خلال ذلك الوقت عرف رجال الاستطلاع ان قوات كبيرة من القوزاق قد دخلت القرية اثناء الليل . وكان من الممكن الاستدلال من الطريقة المتهورة التى هجموا فيها ان ظهور فوج كاتشالين فى الضيعة قد فاجأهم بينما هم منهمكون فى تنفيذ مهمة اخرى ، وانهم – على ما يبدو – قد عزموا على تنظيف الطريق من الحمر بضربة واحدة .

كانت الريح تصفر تحت سطح الطاحونة والتروس الخشبية تصر ، وفى الجو رائحة بيتية للطحين والفئران . تنهد ايفان غورا بقوة ، واخذ يطل برأسه من حين لآخر بين الالواح المخلوعة لعله يرى سيرغى سيرغيفيتش يلوح فى السهب البنى الى الشرق . صاح تليغين بالتلفون فى الاسفل ثم صعد السلم الشديد المرتقى ، وقال منفعلا وهو يرفع المنظار :

– نحن نعيد عملية تساريتسين .

– اية عملية لعينة هذه ! نحن محاصرون كالاغنـــام . . . اؤكد لك انه قتل ، فهذه هى الساعة الثانية .

– ليس من السهل قتل سيرغي سيرغيفيتش . . .
– لماذا انت بشوش بهذا الشكل ؟
– يجب ان تحارب بروح بشوش ، يا ايفان ستيبانوفيتش.

انتشر الدخان المنبعث من القش المحترق في اماكن درس الحبوب واطئا فوق الارض باتجاه المهاجمين . والآن صـار من الممكن تبين شخوص متفرقة تتراكض . تراجعت النقاط الامامية للحمر الى الخنادق وهي تطلق النار . واستعدت جبهة فوج كاتشالين كلها ، وكانت تحيط بالضيعة المحترقة مثل حذوة حصان معوجة .

هتف تليغين :
– اها ! اتخذوا وضع الاستلقـــاء . عصبيون لم يتحملوا الموقف ، هؤلاء الاوغاد ! انظر ، انظر الى الصفوف تستلقي . . . ايفان ستيبانوفيتش ، اذهب بحق الرب واخبر الجنود بلهجة اكثر جدية بالا يطلقوا النار . . . لا رصاصة واحدة بدون امر مني .

. . . .

هتف بايكوف بتخوف مقصود :
– يأتي المفوض ! الحظيرة في اماكنها !

ونهض طاقم الحظيرة التابعة للمدفع الاول والمؤلفـة من بايكوف وزادوفيتير وغاغين وانيسيا المساعدة ووقف كل واحد في مكانه . ظهر ايفـان غورا من وراء حائط طيني لكوخ محترق تتبعه اغربيبنا على بعد خطوة وراءه . سارا نحو المفرزة التي كانت تغطي البطارية . اخذ ايفان غورا يتحدث الى الجنود الحمر . بينما وقفت اغربيبنا الى جانبه متوترة كالسوط حاملة مسدسا في يدها المسبلة .

وترامى صوت ايفان غورا الدافق :
– . . . لا تطلقوا رصاصة واحدة بدون امر خاص . ايها الرفاق ، احذركم من ان المخالفة تعني رمي المخالف في مكانه . . .

هز بايكوف لحيته المبيضة من قطرات المطر :
– يا اخوان ، اياكم من هذه الفتاة حاملة المسدس ، فانها ترمي دون ان يرف لها جفن . . .

اجابت انيسيا :
– لماذا تضحك منها ؟ اغربيبنا رفيقة اصيلة . . .

تحول ايفان غورا الى الحظيرة بادي الجد حتى ان طاقمها قد جمد . وسارت اغربيبنا خطوة بخطوة وراء زوجها ، وكانها مربوطة به . كان المدفع الاول يقف فوق تركيب غريب من الواح متصلة بعضها ببعض وعجلات عربات ، وحوله تناثرت مناشير وفؤوس وقطع من الخشب . نظر ايفان غورا الى هذه الغرابة ، ورمشت جفونه وسأل :
– ما هذا ؟

اجاب بايكوف :
– من اختراعنا ، ايها الرفيق المفوض ، شبيه ببرج سفينة دائر .
– وما الغرض من عجلات العربات ؟
– لتدوير المدفع بسرعة . ابتكار حاذق . . .
– هكذا اذن – وواصل ايفان غورا سيره واغربيبنا وراءه .

اشار بايكوف اليها بحاجبه قائلا :
– انا وهي في فرقة مسرحية واحدة ، يا رفاق . انا لا اخاف من المفوض ، ولكن اخاف منها . . . عيناها مستديرتان كعيني الفارة ، وخاليتان من الرافة . . . آه ، يـــا نسوان ، لاى شيء نقاتل ؟

– اوصلتها له ، يا داريا ديميتريفنا . . . لم يسمحوا لي بالدخول الى الطاحونة . . . هز رأسه لي من الاعلى وقال : «أحقا ان داشينكا نفسها قد صنعتها ؟» قلت «بنفسها ، ولكن الفطائر باردة مع الاسف . . .» فقال : «انا احب الفطائر الباردة اكثر . . . انقل لها الف قبلة . . .».
– كل هذا من اختراعك .
– والله ، لا . . . هل سمعت بما حدث ؟ . . . صاحبنا ايفانوف – اقصد الطبيب – استولى عليه الخوف ، كالطفل ، حتى اصيب بقيء واسهال . . . واغتاظ المفوض قائلا «اعصابه تحتاج الى تقوية !» وامر بخلع ملابسه وصب الماء عليه عند البئر . . .

اسمعي زعيقه ، انهم يصبون عليه الدلو الثالث . . . شيء مضحك ! انا ايضا جبان ، يا داريا ديميتريفنا . . .

كانت داشا تذرع الغرفة من النافذة الى الباب وكأنها في قفص . وقد صفت مواد التضميد ، وفاحت في جو الغرفة رائحة الفينول واليودوفورم . وكان كوزما كوزميتش يحوم حولها :

— تعلق بي حلم ما يفتأ يراودني كل ليلة تقريبا . احلم بان في يدي بندقية وقلبي يخفق كالخرقة ، وانا اطلق النار . اضغط على الزناد بكل قوتي ، وكأنني اضع كل نفسي في هذه البندقية الملعونة . . . ولكن البندقية لا تطلق ، والزناد يتحرك ببطء شديد ، ويخرج من فوهة البندقية دخان باهت . والشخص الذي اطلق عليه النار بلا وجه ، او لا استطيع رؤية وجهه ابدا ، وهو يتحرك ويتسع . . فو ! فظاعة ! . . .

— لم هذا السكون ؟

سالت داشا وطقطقت باصابعها ، وتوقفت بالقرب من النافذة . . . بدأت بواكير المساء تهبط ، وخمدت نيران الحرائق . ولم تعد تسمع الانفجارات وصفير القذائف الممزق للاعصاب ، وسكتت طلقات البنادق . تقدمت صفوف القوزاق زاحفة ، واوشكت على محاصرة الضيعة كليا . ابتعدت داشا عن النافذة وعادت تذرع الغرفة قائلة سيكون ثمة جرحى كثيرون ، فكيف سنعالج الامر ؟

— المفوض سيرسل اغريبينا ، وتلك مساعدة كبيرة . وطلبت منه انيسيا ايضا وقلت له «ان مكانها ليس الى جانب المدفع . ورومانسية محض ان تكون الى جانب المدفع . . . .» . . . لنعد الى حديثي . ما رايك في حلمي ؟

— قل الصدق ! هل ايفان ايليتش سالم ؟ وكل شيء بخير ؟

— اخرج راسه لي من ثغرة في السقف ، والابتسامة تملأ وجهه . وهو على ثقة مطلقة في النصر . . .

— اها !

وهزت داشا راسها . كان يجب ان تجبر نفسها على عدم التفكير في هذه الآلاف من الرجال الزاحفين كالوحوش . فانها لا تفهم في ذلك ، على اية حال . . . وبذلت قصارى جهدها لتحول

فكرها ، وكأنها تجر غولا خرافيا مربوطا بحبل ، الى هذه الاشياء هنا ، الموضوعة على المنضدة ، الى الضمادات والقناني والادوات الجراحية . . . اليود قليل ، وذلك شيء مريع ! واطاعها فكرها بسلاسة ، ولكنه سرعان ما انسل الى هناك ، دون ان تلحظه ، وكأنما من خلال كوى غير منظورة ، موسعا عينيه كبحيرتين . . . آه ، ما حاجة هؤلاء الناس الملحة الى ان يقتلوا كل الابرياء ، كل الطيبين ، كل المحبوبين ؟ اي شيء يمكن ان يكون اكثر فظاعة في الانسان من الكراهية ؟ وقد احدقت الكراهية بداشا وضايقتها متحفزة متصلبة لتغرز فيها حربة ستمسكها باصابعها المرتعصة . . . .

— لا ، هذه وقاحة صرف . نعم — قالت داشا ذلك ، وروعت النظرة الوحشية من عينيها المتسعتين كوزما كوزميتش — لماذا تنظر الي ؟ انا اشعر بالغثيان مثل طبيبنا تماما . . . لا استطيع تحمل الكراهية . . . الانني تربيت على الرقة ؟ وليكن ذلك . . .

واخذت تنقل القناني واللفائف من مكان الى آخر بلا هدف :

— ثم انا لا افهم : لماذا بدات تقص علي مثل هذا الحلم ؟ . . .

— اها ، داريا ديميتريفنا ، الحلم تحقق . . . هناك كراهية مطهرة كالحب . . . كراهية كنجمة الصباح على جبين عال . . . وهناك كراهية راسخة في الاحشاء ، وحشية ، متحجرة . . وهي التي يجب ان تخافي منها . . . وانا ايضا قد خفت منها في عام ١٩١٤ . . . يقال ان بعض الروس كانوا في خارج البلاد حين اعلنت التعبئة ، فهرعوا الى آخر قطار . . جباة العربات الالمان يصفقون الابواب على ايدي الاطفال الصغار . . . اما حلمي ، الذي لا اجد في نفسي الرغبة لاقصه على المفوض او على اي شخص آخر غيرك ، وفي مثل هذه اللحظة ، فيعني انني عاجز ، وان رحلتي على الارض قد انتهت — ونشج فجأة — بندقيتي لا تطلق النار ، بل تهس فقط .

— انا اكرههم ! — صرخت داشا فجأة ، واخذت تضرب صدرها باصابعها المضمومة الاطراف — لقد شاهدتهم وانا اعرف

تلك الوجوه : عيون قتلة محترفين ، ووجنات عليها بثور العرامة وذقون غائصة ... اوغاد ! . . متبلدو الاحساس ، جهلاء . . . ومثل هؤلاء لا مكان لهم تحت الشمس ! . .

— اهدئي ، اهدئي ، داريا ديميتريينا . من الافضل ان نرى هل غلى الماء في المرجل ؟

ذهبت داشا الى النافذة مسرعة . في المساء الرمادي كان الجنود الحمر يمرون راكضين منحنين وقد وضعوا بنادقهم في تأهب للهجوم . بل ولمحت وجوههم المتوترة الى حد التفضن . تعثر احدهم وكاد يسقط الا انه شمر ذراعيه ليوازن نفسه ، ومر راكضا ، ثم التفت مكشرا عن اسنانه .

. . . .

ارتفع صاروخ فوق السهب ، ونثر اضواء خضراء ساطعة اضاءت لدى سقوطها البطيء الظهور الرمادية المضغوطة في الخنادق . وشخوص القوزاق الناهضة على مسافة قريبة لا تتجاوز مائتي ذراع . كان شخص يجري بينهم وهو يدير سيفه فوق راسه . انطفأت الاضواء . وفي لحظة الظلام الدامس بدأ هتاف ظل يتعالى كريح الزوبعة : «هورررررا !»

خلع تليغين قبعته ، ومرر كفه على شعره المبتل . لقد تم كل ما كان من الممكن التفكير فيه والتنبؤ به وانجازه . والآن بدأت المعركة النفسية ، كان العدو اقوى باربع مرات ، في اغلب الظن ، اذا ما اخذت بعين الاعتبار تجمعات احتياطياته التي كانت تلوح بالكاد من خلال المنظار .

طلع ايفان ايليتش حتى كتفيه من ثغرة في السطح وهو يراقب الوضع . وفجأة طوقت الضيعة بنيران الطلقات . ودار كل شيء في عيني ايفان ايليتش ... تجمعت زمر من الرجال هنا وهناك في الخنادق . . . اخذ يبحث عن قبعته مفكرا «من الاسف ان تضيع مثل هذه القبعة ! . .» هبط الى الاسفل على الفور ، ونزل من الرابية الى الخنادق .

ارتد هجوم القوزاق الاول في كل مكان تقريبا وبالقرب من دكان الحدادة فقط كانت المعركة مشتدة ، كما توقع ايفان ايليتش . فقد نشب هناك اشتباك ، وتعالت صيحات وحشية ، وتفجرت

قنابل يدوية . وصل راكضا الى حائط السقيفة الطيني ، حيث كان يوجد الاحتياط . ولكنه لم يجد احدا ، فان المحاربين الحمر لم يضبطوا انفسهم ، وتصرفوا من تلقاء انفسهم ، وانطلقوا الى دكان الحداد لتقديم العون . كما هرع الى هناك ايفان غورا في عدو وئيد منحنيا تحت ثقل كيس من القنابل اليدوية . . .

هتف ايفان ايليتش :

— يا مفوض ! ما هذا ؟ فوضى ! لا يجوز ذلك !

لم يلتفت ايفان غورا اليه الا بانفه الصارم الطالع من تحت الكيس . . . وبعد خطوتين راى ايفان ايليتش داشا تدخل البوابة وهي تسند محاربا يقفز على رجل واحدة . توقف ايفان ايليتش ، ورفع يده المنفرجة الاصابع وقال «أها . . . هذا ما جئت من اجله . . .» واستدار وعاد راكضا الى البطارية .

— هل كل شيء على ما يرام في البطارية ؟

— كاحسن ما يكون الحال . مرحبا ، يا ايفان ايليتش .

— ايها الرفاق ، اطلقوا قذائف الشرابنيل على الاحتياطيين !

صعد ايفان ايليتش على سطح قريب ، والصق المنظار على عينيه . كان الاحتياطيون الذين لاحظهم قبل حين من الطاحونة يقتربون بكتل متراصة . صاح من السطح :

— نار سريعة !

اخذت قذائف الشرابنيل تتفجر واحدة تلو الاخرى في عتمة المساء الرصاصية . تماوجت صفوف المهاجمين ، ولكنها واصلت تقدمها . وظلت قذائف الشرابنيل تنفجر فوق الرؤوس اوطأ فاوطأ ، الا ان الصفوف ظلت تتقدم . ارتفع صاروخ ، وتتدلى كالافعى ، كالرؤوس النارية فوق صفوف الجنود الصغار كجنود اللعب القصديرية ليضيء عملهم المأثور وكانه يقول لهم مشجعا «تقدموا الآن ، يا اخوان ، زاحفين على عظام البلاشفة . .» . . . وما كاد الصاروخ ينطفيء حتى ارتفعت الى اليمين في الشرق ثلاثة صواريخ متتالية وهبطت كاضواء حمراء كدرة منحوسة شاملة السماء كلها . وصاح تليغين :

— اجيبوا بثلاثة صواريخ حمراء متتالية !

. . . .

في عتمة المساء سار رجال بوديوني في قاع وهدة مسطحة ، ووثبوا على الجناح الايسر للمهاجمين مباغتة وبقوة شديدة مزقت صفوف القوزاق المشاة واكتسحتها في برهة قصيرة من الزمن ، وبدأ الشيء الرهيب الذي يخشاه المشاة لدى التقائهم بالخيالة ، والذي لا منجى منه ، وهو الطعن في الراكضين . وكانت اضواء الصواريخ المنطلقة من الضيعة تضيء السهب حيث لا مكان يُنجي من الموت بنصل صافر . القى الرجال اسلحتهم وهم يركضون ، وغطوا رؤوسهم بايديهم ، وكان الظل الاسود للفرس وراكبه يلحق بهم ، ويقف الفارس البوديوني على الركاب مرنا ويميل جانبا ، ويطعن بكل سعة كتفه فيتدحرج جسم القوزاقي تحت حوافر حصانه .

ولما راى بوديوني ان قوات القوزاق قد دحرت في كل الميدان وهي تولي هاربة اوقف فرسه ، ورفع سيفه صائحا : «اليّ !» واستدار مع خمسين فارسا اقبلوا عليه ، وانطلق نحو الضيعة . كان حصانه سريع العدو . اندفع سيميون ميخائيلوفيتش بوديوني على فرسه دافعا جذعه الى الوراء على السرج ، مرخيا يده الممسكة بالسيف قرب الركاب لتستريح ، وقد انزل على علباته قبعته الفضية اللون من فراء الاغنام لكي تطرى الريح وجهه العرق ، وتتخلل شاربيه بحرية . وكان الفرسان الذين ينطلقون وراءه مضطرين الى همز خيولهم للحاق به . ساروا على حافة البركة التي كانت نجوم الصواريخ الساقطة تنعكس على البقع المتحررة من الثلج فيها . فر بعض الناس مبتعدين عن الفرسان ، وانبطحوا على الارض . لم يلق سيميون بوديوني بالا اليهم ، واشار بسيفه الى دكان الحدادة ، حيث ما يزال القتال ناشبا بين القوزاق ورجال كاتشالين . فكان هذا الجانب او ذاك يهجم بالسيوف مرة بعد اخرى ، ثم يتراجع ويستلقي على الارض .

انتشر فرسان بوديوني الخمسون كالمروحة واطلقوا العنان لخيولهم ، وعيونهم مصوبة نحو القبعة الفضية اللون القافزة امامهم ، واندفعوا من التلة عند البركة مهاجمين القوزاق المشاة ، وما من صلية رشاشة ، ولا انهمار رصاص ، ولا حراب مصوبة كانت في وسعها ان توقف اندفاع الخيول الناخرة من شدة الجهد .

واعملوا الطعن في كل من وقع في ايديهم ، ولم يوقف سيميون بوديوني فرسه الا في شارع الضيعة .

اسرع تليغين للقائه . لم يجبه سيميون ميخائيلوفيتش بوديوني رأسا . بل مسح نصل سيفه بمنديل ، ورمى المنديل على الارض ، واعاد السيف الكبير ذا المقبض النحاسي الى غمده ، ورفع كفا مستقيمة الى صدغه بالتحية وقال :

– مرحبا ، ايها الرفيق . مع من اتكلم ؟ مع آمر الفوج ؟ انا آمر اللواء بوديوني قائد الجماعة . آمرك بان تبقى سرية واحدة لحماية العربات والجرحى وان تتقدم بالوحدات الاخرى ومع المدفعية الى القرية فورا ، وتحتلها ، وتنظفها من القوزاق البيض .

– سمعا ، وسينفذ الامر .

– لحظة ، يا رفيق . . .

ووثب من على صهوة حصانه ، وحشر كفه تحت حزام السرج ، وضرب باصابعه مشفرى الحصان الذي جاهد ليمسك بكمه ، ومد يده الى ايفان ايليتش :

– هل الخسائر كثيرة ؟

– ليست كبيرة .

– هذا شيء جيد . اذن كان في امكانكم ان تصمدوا بقواكم الخاصة وبدوننا ؟

– نعم ، كان في امكاننا ان نصمد . فان الذخيرة كافية .

– هذا شيء جيد . يمكنك ان تنصرف .

– زالت الآلام في منطقة البطن تماما ، يا انيسيا كونستانتينوفنا ، بل ولا احس ببطني . . . هذا سوء تركيب . . ان عضوا مهما للغاية كالبطن يترك مكشوفا بلا حماية . . . انغرز السيف اقل من بوصة واحدة فاحدث مثل هذا التخريب . . . مثل هذا التخريب . . . . اعطيني شيئا من الماء . . .

كانت انيسيا تجلس بالقرب منه متعبة صامتة . وكان المستشفى الآن يحتل بيتا آجريا من طابقين في القرية . ولم يبق فيه غير الذين اصيبوا بجراح خفيفة والذين كان من الصعب نقلهم

من هنا . اما الآخرون فقد ارسلوا الى تساريتسين قبل عدة ايام . كان شاريغين يحتضر . وكان لا يريد ان يموت ويتأسف كثيرا لمفارقته الحياة ، حتى ان انيسيا تعذبت معه ايضا . وقد كفت عن التسرية عنه ، واكتفت بالجلوس على مقربة من سريره ، والاصغاء اليه .

نهضت انيسيا لتغرف قدح ماء من الجردل وتقدمه له ليشربه . كان وجهه ملتهبا وعيناه الكبيرتان الزرقاوان تتبعان انيسيا ولا تنصرفان عنها . وكانت هى ترتدى كما ترتدى النساء اى مريولا ابيض ، وكان شعرها الذهبى الذى غالبا ما كان يحلم به قد ضفر فى ضفيرة واحدة لفت حول راسها . كان يخاف ان تنصرف فلا يبقى امامه الا ان يدفن راسه تحت المخدة ، ويصك اسنانه ، ويسمع الدم ينبض فى صدغيه بلا انتظام . وكان يتحدث بلا انقطاع . وكانت افكاره تتوهج مثل فتيلة قنديل موشكة على الانطفاء – مرة تلعق الحوافى ، ومرة ترتفع وتضىء بسطوع ، ثم تخفت وترف .

– لم تكونى فى ذلك الوقت جميلة ، يا انيسيا كونستانتينوفنا ، وكنت تبدين اكبر من عمرك بمرتين . . . تسندين خدك على يدك ، وتنظرين دون ان تبصرى شيئا ، فقد كانت غشاوة المصيبة تغطى على بصرك . . . مع ذلك فانا لست من المشفقين ، فقد مسحت الشفقة من نفسى . . . المشفقون من الناس هم اكثرهم تيبسا . يجب ان يشفق الانسان مرة فى حياته . . . وكفى ! وينتهى الامر . . . يجب ان يوضع القلب على السندان ، ويلقى على الجمر المتوهج ، ومرة اخرى تحت المطرقة . . . على هذا النحو يجب ان يكون الكومسموليون . . . عندما كنا على ظهر السفينة دعوت الى اجتماع سرى ، وقلت للرفاق انه لا يليق بالمقاتلين فى سبيل الثورة ان يمسوك . . . عند ذاك بدأ لاتوغين الحديث حول غاسلات الاوانى . . آه ، لاتوغين ، لاتوغين ! . . . لا يليق هذا بك مطلقا ، يا انيسيا كونستانتينوفنا . . . الثورة اوقفتك على قدميك ، فصرت تتفتحين جمالا ، ولكن ليس له . . . ان ذلك طريق مسدود . ويجب ان تطرح هذه المسألة ونناضل فى سبيلها . . .

لعقت ذبالته حوافى الحياة ، وقاست الظلام الدانى ، وخفتت . مرر شاريغين لسانه على شفتيه الجافتين . قربت انيسيا قدح الماء منه . وعاد يتكلم مرة اخرى :

– انا اعرف من اجل اى شىء اموت . ذلك لا يثير اى شك فى نفسى . . . اود ان تذكرينى . . . انا من بتروغراد ، من جزيرة فاسيليفسكى . . . كان ابى نجارا ، وقد تعلمت فى المدرسة المهنية ، وعملت معه . . . كان يسحج فاسحج معه ، ويسحج فاسحج معه ، وكلانا صامت لا يتكلم . . . وذهبت للعمل فى مصنع البلطيق لبناء السفن . . . وهنا تكشف لى الشىء الرئيسى : لاى شىء انا موجود . . . وبدأت حمى الافكار ، وعدم الاصطبار . وجذبنى العلو ، ولم تعد لى القوة على البقاء ساعة واحدة فى الاسفل . . . ثم جاءت الحرب واستدعيت الى الاسطول ، وصككت على اسنانى داخل فمى من الغيظ . كيف لا يمكن ان تفهمى ، يا انيسيا كونستانتينوفنا اننى رأيت انسانا حيا ، ابتدعناه نحن ، واكتسبناه ، وصنعناه . . كيف نتركك تجوبين الارض ثانية منكسة الراس ؟ . . . لِمَ الثورة اذن ؟ لن يكون ذلك صحيحا . . . يجب ان تكونى ممثلة . . . كنت كل مساء احوم حول هذه السقيفة واشاهد واسمع . . . «آه ، بحق الرب ، بحق الرحمة . . . انا مهجورة ، مهجورة . . . » ستهتز الجبهات كلها بتمثيلك . . . ستنتهى الحرب الاهلية وتصيرين ممثلة عالمية . . . عليك ان تسيرى فى هذا الطريق . . . ولا تضعفى . . . انه سيغنى لك ، ولكن لا تصغى اليه ، يا انيسيا كونستانتينوفنا . اود ان ابرهن لك انه لاحق لك فى حياة شخصية . . . عزيزتى . . . لماذا ادرت راسك ؟ سأستريح قليلا ، واجمع افكارى ، فاننى اريد ان اقول شيئا آخر . . . فقد اغفلت دليلا مهما . . .

وتقلب راسه على الوسادة ، ثم هدأ وصمت صمتا طويلا حتى ان انيسيا انحنت قريبا منه ، كانت مقلتاه لا تلوحان من خلال جفنيه نصف المسبلين . لم يهتز قلب انيسيا لاحاديثه ، بل لتقلب عينيه فى جزع . وصار مفهوما لها كل ما جاهد ليعبر لها عنه بكلماته الحارة المشوشة . فى اغلب الظن ان طفليها الصغيرين قد ناداها على هذا النحو آنذاك ، وقد افزعتهما النار التى تلظت فى

كومة الدريس حولهما ، حيث كانا يجلسان متقاربين . ولم تكن انيسيا حتى هذا الحين تسترجع فى ذاكرتها وجهيهما الطفولين خائفة من ذلك . وها هى الآن تراهما يطوفان فى عين خيالها كالاحياء . بتروشكا فى سنه الرابعة ، والصغيـــرة انيوتا . وكلاهما ذو شعر جعد وخدين ممتلئين وفـــم ضاحك ، وانف صغيـــر . . . والآن هذا هو الثالث قد ناداها . وستودعه ، وترافقـــه حتى نهاية حياته .

اخذت انيسيا تمسد بنعومة شعره المتلبـــــد . اختلجت رموشه ، ورات بقعا زرقاء تنتشر على صدغيه .

١٤

كان القائد العام دينيكين يلعب فى مســـاء كل جمعـــة لعبة الورق «الفينت» مع يكاترينا الكسييفنا كفاشنينا قريبته البعيدة من ناحية امه . وكانت لعبة «الفينت» هذه قد بدات منذ العقـــد الاخير من القرن الماضى ، حيث كان انتون ايفانوفيتش يدرس فى الاكاديمية ، ويستأجر غرفة فى شقة يكاترينا الكسييفنا الحسنة الترتيب – على الذوق البطرسبورغى – الواقعة فى الطابق الارضى فى الشارع الخامس فى جزيرة فاسيليفسكى . ولم يبق على قيد الحياة من اللاعبين الاربعة فى ذلك الحين الا هو وهى ، وقد القاهما الزمن العصيب فى يكاترينودار ، حيث اصبح انتون ايفانوفيتش ، بارادة الله ، على راس قوات البيض المسلحة ، بينما كانت يكاترينـــا الكسييفنا التى هربت من بتروغراد فى بداية عام ١٩١٨ تعيش عيشة متواضعة فى هذه البلدة مع ابنتها التى كان اسمها ايضـــا يكاترينا الكسييفنا ، الصغرى .

وقد عرض عليها القائد العام غير مرة تحت هذا العذر او ذاك ان يمدها بالعون ، الا انها كانت ترد قائلة «الافضل الا يكون هذا بيننا ، يا انتون ايفانوفيتش ، فان الفلوس تضيع الصداقة» . وكانت تعيل نفسها بتصحيح مسودات مطبوعات وكالة الاستعلامات فى بيتها ، كما انها كانت تحتفظ هى وابنتها ببعض الاشياء الثمينة الصغيرة لليوم الاسود .

وكان مساء الجمعة مقدســـا ، ولم يكن احد ، حتى الجنرال رومانوفسكى رئيس الاركان ، يجرؤ على انتزاع القائد العام من لعبة «الفينت» التقليدية . ففى الساعة الثامنة مساء كانت عربة يجرها حصان واحد ولها ظليلة جلدية مرفوعة تقف امام بوابة بيت خشبى صغير متواضع فى الجزء السهبى البعيد من البلدة . ويأمر القائد العام الحوذى الملتحى الذى يعلق على صدره نياشين القديس غيورغى ، بان يعود ليأخذه عند منتصف الليل ، ويدخل البوابة بخطوات خافتة ويصعد الى مقدمة البيت الصغيرة ، حيث يبدو الباب وكانه ينفتح له من تلقاء نفسه .

وكان المخبرون الذين يرسلهم رئيس الاستخبارات كـــل جمعة الى هنا يحاولون الا يقع بصر القائد العام عليهم . كان احدهم يجلس على سقف البيت مختفيا وراء مدخنة الموقد ، والثانى وراء شجرة الحور الهرمية فى الجانب الآخر من الشارع ، واثنان آخران وراء القاذورات فى الفناء . وكان دينيكين كرجل عسكرى لا يطيق المخبرين . وذات مرة ، والورق فى يديه ، روى هذه القصة عـــن القيصر الراحل نيقولاى الثانى بخصوص هذه الضرورة المؤسفة . كان هذا القيصر يهوى النزهات المنفردة فى المنتزه فى تسارسكويه سيلو . وكان المخبرون قد بثوا منذ الصباح وراء احواض الزهور والاجمات على طول الدروب التى يمكن ان يسلكها القيصر . وفى فصل الشتاء كان الثلج يتساقط فيحجب الرؤية عنهم . وذات مرة بينما كان القيصر يتمشى سمع وراءه صوتا يهس مكتوما : «الرقم السابع مر» واغتاظ نيقولا غيظا بالغا لان المخبرين سموه «السابع» فطرد رئيس البوليس السرى ، وبعد ذلك صار يسمى «الرقـــم الاول» .

وكان دينيكين يدخل الرواق الصغير المضاء بشمعة وينزع كالوشيه الجلديين بعقبيهما المؤطرين بالبرنز ، ويخلع بنفســـه دائما وبدون معونة احد معطفه العسكرى الجوخ العريض ببطانتـــه القرمزية ، ويصفف شعره الشائب المسرح الى الخلف بلمعتـــه الرصاصية ، ويتقدم لينحنى على يد يكاترينا الكسييفنا . ويأخذ بين يديه يد ابنتها الصغيرة النحيلة الجميلة ، ويربت عليهـــا بلطف ، ويتوجه بتحية مقتضبة ناعمة : «مرحبا ، ايها السادة» الى

اللاعبين الآخرين وهما مرافقه الامير لوبانوف-روستوفسكى ، وفاسيلى فاسيليفيتش ستروبه الرئيس السابق لقسم فى احدى الوزارات ، وهو رجل عجوز لطيف المعشر من بطرسبورغ .

وفى غرفة الاستقبال تكون الطاولة قد اعدت ، ووضعت عليها شمعتان ، وصف الورق بشكل مروحة على الجوخ الاخضر . وحتى قطع الطباشير والمماسح المستديرة كانت تقليدية كتلك التى كانت فى الاعوام المنيرة فى جزيرة فاسيليفسكى .

وكانت يكاترينا الكسييفنا البادية المرح دائما ، القصيرة القامة جدا ، الممتلئة بافراط فى الجزء الاسفل من جذعها تقبل متهادية نحو الطاولة بثوبها الاسود الملبوس كثيرا ، ووجهها المستدير ضاحك ، وفمها الكبير يهمس بلطافة ، وكان الكرسى القديم المعوج يصرف تحتها دائما من جراء تململها ، وكانت تضع تحته مصطبة صغيرة لتضع قدميها عليها . وقبل سحب الورقة التى تحدد شريكها فى اللعب كانت تخمن ، وفى كل مرة كان يصادف ان يكون القائد العام شريكها . وكانت تصفق مرحة امام انفها :

— ها قد حزرت ، كما رايتم ، ايها السادة . . . كاتيا ، شريكى فى اللعب انتون ايفانوفيتش مرة اخرى . . .

فيقول فاسيلى فاسيليفيتش بصوت كئيب :

— ممتاز !

ويجلس مختارا لنفسه طبشورة وممسحة .

وفاسيلى فاسيليفيتش بارد الدم ملم بكل شىء ، شكوكى حاضر البديهة ذو وجه نحيل صارم بدا عليه الهرم المبكر ، وكان منافسا خطرا للغاية فى لعبة «الفينت» يعامل هذه اللعبة بلياقة صارمة مثل جميع البطربورغيين . وعاد يقول :

— ممتاز ، كما قال مستشار حكومى وهو يتخلى عن اوراقه الرابحة .

وتاخذ اصابعه الناعمة باظافرها الصلبة بتمشيط الورق بسرعة .

وكان اللاعب الرابع ، الامير لوبانوف روستوفسكى ، رغم شبابه ، شغوفا بالفينت ايضا . وكانت واجباته كمرافق قائد عام تقتصر على ذلك وعلى بعض المهمات الشخصية . وكان هناك اشخاص

آخرون من نمط حديث يقومون بالاعمال التنفيذية . وكان الامير ، مثل جميع آل لوبانوف روستوفسكى ، قبيحا له جمجمة مستطيلة صلعاء ، وجبهة ضخمة وقسمات وجه لا تلفت النظر . وكان الامير رفيع التهذيب ، اذا اغفلنا نقيصة وحيدة ، وهى دفع رجليه الطويلتين تحت الطاولة كما لو كان متضايقا من امتلاء مثانته . ولم يحدث قط ان اعرب عن رايه ، واذا سئل عن شىء اجاب ببلاهة غير متوقعة ، لانه كان يدرك جيدا انهم لن يتوجهوا اليه بامر جدى . وكان خدوما ، وفى هذا الصيف ، وقبل ان يجرح ويعفى ابدى شجاعة فى المعارك .

كانوا يلعبون وكانهم يادون طقوسا . وكانوا لا يتطرقون الى السياسة او الحرب فى تلك الساعات التى يقضونها فى هذا البيت . فكان لا يسمع غير «دينارى . . . كوبه . . . من غير ورقة رابحة ، اثنتان من غير ورقة رابحة» . فرقعت الشمعة ، وارسلت الدخان سيكارة موضوعة على حافة منفضة زجاجية . واخيرا :

— اذن ، هل نستسلم ، يا يكاترينا الكسييفنا ؟

— مؤسف ، آه ، مؤسف ، يا انتون ايفانوفيتش . . .

وكانت يكاترينا الكسييفنا الابنة جالسة فى الغرفة على اريكة صغيرة مغلفة بقماش البلش ، تحوك وتبتسم دون ان ترفع راسها . . . كان وجهها وعيناها ، وشعرها بلا لون ، وكان فى انحناءة جيدها الرقيق ، وفى يديها الجميلتين ظمأ الى الحنان لا يُبل . كانت يكاترينا الكسييفنا الصغيرة سريعة التعرض للحب ، فى عامها السادس والعشرين ، وكانت كل علاقاتها العاطفية تنتهى نهاية محزنة ، احدهم جاء يودعها على عجل ، ويرحل الى الجبهة ، والثانى بوغتت بان له عشيقة ، وقد اعلن عن ذلك دون شفقة وهى الآن واقعة فى غرام لوبانوف-روستوفسكى الدميم ، واللطيف مع ذلك .

وكان يغازلها مازحا ، وكان ذلك يسر القائد العام الذى كان يعامل يكاترينا الصغيرة معاملة الابنة تقريبا . وكانت تحلم على الطريقة القديمة بان ينسى الامير علبة سيكائره وفى صباح اليوم التالى ، وبغياب يكاترينا الكسييفنا الام ، يظهر امام شباك البيت راكبا فرسه ، ويدخل البيت ، ويحييها صافقا مهمازية (وهى فى فستان

صوفى اسود ذى ياقة بيضاء وكفتين بيضاوتين فى طرفى الكمين) ، ويعتذر ، وتجمد احدى نكاته على شفتيه قبل ان يكملها ، ويتفرس فى وجهها ، ويفهم . ويدخلان غرفة الاستقبال ، والانفعال يعتمل فى نفسيهما . . وفجاة يمسك عضد ذراعها ، ويجذبها اليه ، ويقول بادى الانفعال «لم اعرفك ، لم اعرفك ، انت مختلفة تماما . انت شذية الرائحة . . .»وبهذه الكلمة كان تحليق خيالها ينقطع . كانت يكاترينا الكسييفنا تحوك وتبتسم دون ان ترفع عينيها الى الامير الجالس بين الشمعتين . كان يكفيها ان يكون موجودا فى الغرفة ، وانها تشم رائحة تبغه الطيب . . .

كان ذلك هو العالم الصغير المقتطع من روسيا القديمة ، والذى كان القائد العام يستريح فيه ايام الجمع من المتاعب الثقيلة .

اليوم جاء القائد العام متاخرا خلافا لعادته ، وقد بدا عليه الاستغراق وشىء من الذهول . وبينما كان يخلع كالوشيه وطأ رجل قطة كانت تحوم عند قدميه . وزعقت القطة بصوت كريه . اختطفها لوبانوف-روستوفسكى ، وحملها الى المطبخ . ضحكت يكاترينا الكسييفنا الام ، وقال فاسيلى فاسيليفيتش «توجد قطط لا تطاق» . وانتظر الجميع ان يدخل دينيكين غرفة الاستقبال ، الا انه علق معطفه غارقا فى افكاره ، وظل واقفا ، جاذبا شعر لحيته الشبيهة بالاسفين فى شكلها . عندئذ بدا الجد على جميع الوجوه . واستمر الصمت المقلق حتى جاء الامير واعلن ان القطة فى حالة جيدة . قال دينيكين :

– اها . . . هذا حسن . . . دعونا لا نضيع الوقت .

ولعب اسوأ من المعتاد ، ملقيا الورقات التى لا ينبغى القاؤها ، متلفتا طوال الوقت نحو النوافذ رغم انها كانت مغلقة بالصفاقات . نهضت يكاترينا الكسييفنا الصغيرة بهدوء ، والقت معطفها على كتفيها ، وخرجت الى الفناء لتتاكد من ان الحراس فى اماكنهم . اصطكت اسنان المخبر الذى كان جالسا على السطح وراء المدخنة حيث كانت الريح اللاذعة تصفر ، والى الاعلى كان الهلال الكدر يغوص فى السحب كالمجنون ثم يظهر ، وصاح المخبر :

– ايتها الآنسة ، اجلبى لى شيئا من الفودكا بحق الرب . .

وفى حوالى العاشرة وصلت سيارة . وضع القائد العام اوراقه ، ولمعت عيناه المجهدتان . دخل الجنرال رومانوفسكى طويلا مورد الخدين متشامخا يرتدى معطفا من معاطف الضباط وقد تصالب على صدره طرفا قلنسوته القوزاقية . خلع الجنرال قبعته ، وضرب مهمازيه بطريقة جافة ، وانحنى انحناءة عامة للجميع :

– انتون ايفانوفيتش ، جئت لآخذك .

– اذن ، فقد حصل ؟

– بالضبط ، يا انتون ايفانوفيتش .

اسرع دينيكين يقول :

– ساعود ، يا سادة ، فاعذرونى ، فانها الظروف – وفى الرواق لم يستطع ان يدخل يده فى كم معطفه الا بعد محاولات – ابق ، يا امير ، هنا ، والعب بعض الوقت . . . اذن ، لا اتوادع معك ، يا يكاترينا الكسييفنا . .

عاد اللاعبون الى الطاولة ، ولكن رغبتهم فى اللعب قد زالت . تنهدت يكاترينا الكسييفنا الام تنهيدة مكبوتة . عقد فاسيلى فاسيليفيتش حاجبيه الكثيفين ، ورسم على المفرش الجوخ بالطباشير مشانق صغيرة وعفاريت . وجلس الامير على الاريكة قرب يكاترينا الكسييفنا الابنة ، فتالقت ، وتركت حياكتها . بدا الامير ، وهو يهز ساقه ، يحدثها بانه اكتشف هنا قارئة بخت مدهشة ، ويود ان ياتى بها الى انتون ايفانوفيتش .

– انها تاخذ شعرة من راسك وتحرقها من الشمعة فيظهر الزبد من فمها . . . .

– ماذا تنبات لك ؟

– تنبات بسفر على الحصان ، وبأننى ساجرح ثلاث مرات ، ولكن كل شىء سينتهى بزفاف . .

وحرك رجليه ، وتمايل وكان احدا كان يهزه من وراء كتفه ، واخذ يغص بالضحك . توردت رقبة يكاترينا الرقيقة واذنها . وقالت يكاترينا الكسييفنا الام ، وهى تمسح عينيها :

– كل شىء مقلق حقا ، واعصاب الجميع متوترة . . . يا آلهى ، لم نتصور قط اننا سنكون بهذه الحال . . .

— نعـــــم ، نعم ، كنا نتصـــــــــور القليل — اجاب فاسيلي فاسيليفيتش ، ورسم فاسا ومقصلة — روسيا بلاد عجيبة . .

ووفى القائد العام بوعده ، فحين دقت الساعة الانجليزيـــة الصغيرة بعلبتها دقا خفيفا معلنة الحادية عشرة بربرت السيارة خلف النوافذ ، وعاد انتون ايفانوفيتش دينيكين يخلع كالوشيه ، ويقول :

— كنت اعرف ، يا يكاترينا الكسييفنا انك قد هيأت اليوم ديكا روميا مع الكستناء . . . اذن ، ارجو ايهـــا الامير العزيز ان تخرج من سيارتي زجاجة شمبانيا . .

كان بادي الحيوية ، يفرك يديه ، الا انه رفض اقتراح اكمال اللعبة . «اتركوها ، انا ويكاترينا الكسييفنا نستسلم مقدمـــا ، منقذين شرفنا فقط» . بل وتناول سيكارة من علبة سيكائر فاسيلي فاسيليفيتش الذهبية ، وشرع يدخن . وهذا شيء لم يحدث معه قط . واستعجلوا في اعداد العشاء ، ودخل الجميع غرفة الطعـــام الصغيرة ، حيث كانت شمعتان تضيء بضوء رقيق ، وعلى الطريقة القديمة ، اوراق الحيطان الرخيصة ، وعلى المائـــــدة صفت اوان مثلمة عليها معجون اللحم والمشهيات . وكان الشيء الوحيد المفقود هو سمك الجلكي مع صلصة الخردل ، وهو الطبق المفضل لدى انتون ايفانوفيتش . كما لم تكن ايضا الطمانينة المعتادة ، حين كان اللاعبون بعد انتهاء اللعب يتحلقون حول المائدة متابعين الجدل «اؤكد لك انه كان عليك ان تلقى البستوني . . .» او «يا سيدتي كنت اعرف ان في يديه آسا وملكا وملكة بينما كنت تضربين قدمي من تحت الطاولة . . .» .

احس الامير ببعض التوتر فلفت الانتباه اليه بشهامة اذ اخذ يتكلم عن بواب في بطرسبورغ كان يملك قوة غامضة لمعالجة وجع الاسنان ، والحروق والالتهاب الجلدي ، وبالمناسبة ، انه تنبـــأ بالحرب الالمانية ، وهو ينظر في صحن فيه ترسبات القهوة . ولم يكن ذكر الحرب في محله تماما . فاسرع فاسيلي فاسيليفيتش في تناول القارورة ، وصب الفودكا قائلا :

— يتعين علينا ان نشرب نخب الا تحرم روسيا من البوابين المدهشين . . . .

وفي ذلك الوقت جُلب الديك الرومي . القى القائد العام ظهره على المقعد ، وراقب ببصر حاد دخول هذا الطبق ، ووضعه على المائدة بين الاواني المتزاحمة ، وقد تصاعد البخار منه الى ضوئي الشمعتين فتمايلا تمايلا خفيفا .

قال القائد العام واقتطع لنفسه الجناح :

— في روسيا فقط توجد مثل هذه الديك الرومية .

نهض الامير ، وفتح زجاجة الشمبانيا دون ان يحدث صوتا ، وصبها في اقداح الشاي . خلع انتون ايفانوفيتش فوطة الطعام من وراء ياقته ببطء ، وتناول القدح ، ونهض ممسكا بمقعده ، وقال :

— ايها السادة ، لا استطيع ان امنع نفسي من اخبارکـــم باخبار سارة . . . . بان القوات الفرنسية قد نزلت صباح اليوم في اوديسا ، واحتلت القوات اليونانية خيرســـون ونيكولاييف . ان معونة الحلفاء التي انتظرناها طويلا قد جاءت اخيرا . . .

في يكاترينودار هبطت طائرة انجليزية نزل منها رجل غريب جدا حتى ان الدوائر الحاكمة وذات النفوذ لم تعرف ماذا تعتبره : أهو عميل سري لكليمانصو ، او مجرد مغامر ، او ربما شخصية خطيرة الشأن . وكان اسم عائلته فرنسيا : جيرو ، واسمه بيتر بيتروفيتش ، وكان يتكلم الروسية بلهجة جنوبية ، وبطلاقة ، ويحمل جواز سفر اورغواليا ، رغم ان هذه الحقيقة لم تكن تشير الى قوميته ، بقدر ما تشير الى قدرته على التغلغل بدهاء . وكان قد جاء من باريس على ظهر باخرة افرغت في نوفوروسيسك حمولة من البنادق والذخيرة ومعدات اخرى . وكانت الوثائق التي قدمها لآمر المدينة العسكري في غاية الضبط ، وهي رسائل توصية من نواب في البرلمان ، ورسالة من وزير الشؤون الكنسية ، ورسالة اخرى من كونتيسة فرنسية يصعب تلفظ اسمها ، وبطاقة صحفية من جريدة «لو بيتي باريزان» واخيرا عروض عملية من دوائـــر مختلفة اخذت في ذلك الوقت تطلع كالفطر على الاحتياطات الضخمة من كل اصناف البضائع والحمولات السريعــــة التلف المورّدة الى فرنسا من كل انحاء العالم .

وجد القائمون بالامر انفسهم امام حقيقة واقعة مهما قلبوا الفكر : فهذا رجل قادم من باريس الى يكاترينودار النائية التي ما تزال تحتفظ بآثار معارك آذار والصيف ، وكأنه نازل من السماء ، رجل انيق اللباس ، اوروبي بكامل قيافته ، في سترة قصيرة لها ياقة من فراء الظربان الامريكي ، ولفاح زاهي الالوان يغطي صدره كله ، يحمل حقيبتين جديدتين ، وآلة تصوير معلقة على كتفه . وكان ينتعل حذاء اصفر بديعا ذا نعلين سميكين بارزين لم يستطع حتى الآمر نفسه ان ينتزع بصره عنه ، فكيف بجمهور الناس في الشارع ، حيث سار بيتر بيتروفيتش جيرو وراء قوزاقي يحمل حقيبتيه رافعا رأسه بقبعته الرمادية الفاتحة المماثلة باناقة .

انزلوا هذا الاجنبي في احسن فندق ، وفي غرفة «لوكس» بعد ان افرغوها من المسافر المضارب باكريكاكي وفتاته . وفي اليوم التالي قام جيرو بزيارة الجنرال دينيكين .

اضطرب انتون ايفانوفيتش دينيكين ، وارسل اليه الجنرال رومانوفسكي الى غرفة الاستقبال معتذرا بان القائد العام قد ألمت به وعكة خفيفة ولكنه سعيد من وجود ضيف بارز في بلدته .

فذهب جيرو لزيارة البروفيسور كولوغريغوف احد اساطين دوما الدولة ، والذي يحيط دينيكين هنا بجو الافكار السياسية تحت اسم «المجمع الوطني» . وكان البروفيسور كولوغريغوف يعرف باريس جيدا ، ويحبها فابقى جيرو العزيز عدة ساعات متلذذا بنشوة الغذاءات في المطاعم الصغيرة والترفيهات الليلية في مونمارتر . وتذكر رائحة البولفارات ، وعلى الرغم من بطنه المترهل ولحيته الشمطاء الكثة فقد لاحت على وجهه بشاشة فتية .

— شير آمي * هذا لا يحتاج الى القول . ثم تلك الرائحة الفريدة الخاصة بالنساء الفرنسيات ! . . . انا مستعد ان اقبل الاحجار في شوارع باريس . نعم ، نعم ، وارجو الا يبدو ذلك غريبا لك ، فانك واجد في كل روسي وطنيا متحمسا لفرنسا . . . وهذا ما يجب ان تكتب عنه ! .

* يا صديقي العزيز — كما تنطق بالفرنسية . (المترجم) .

وتقرر جمع حلقة محددة من ممثلي «المجمع الوطني» في بيت احد الافراد ، والاستماع اثناء الفطور الى ما يتحدث به السيد جيرو عن السياسة الدولية .

— شير آمي ! — هتف البروفيسور كولوغريغوف وهو يلوي ازرار سترة الضيف علامة على الالفة — انك ستجد اناس ادركوا قبلكم في اوروبا الخطر المريع لآلة فرم اللحم الحمراء . ان البلشفية هي حقد الطبقات الواطئة المخرب لكل شيء ، وضراوة حثالات البشرية . . . انكم تؤدون انحناءة الاحترام الى الاشتراكية ، ولا يسلم من ذلك حتى احسنكم واكثركم ذكاء . هراء ! وابتذال ! توجد اشتراكية ، ولكن لا يوجد اشتراكيون ، لان الاشتراكية غير قابلة للتحقيق . . . وسنثبت لكم ذلك ! وروسيا مدعوة بارادة التاريخ الى ان تكون حاجزا ستتحطم عليه الموجات الابدية للفوضوية . وبهذا ندفع لكم جلودنا ، ونعطي الامكانية لتطور هادئ للحضارة الاوروبية . . . ومن اجل ذلك ، من اجل انقاذ اوروبا والعالم اجمع من الشبح الاحمر نبسط لكم ايدينا ، فمدوا لنا يد المساعدة . . . نحن مستعدون للقيام باية تنازلات ، فان روسيا تتحمل كل تضحية . . . وهذا ما يجب ان تكتب عنه . . .

واقتضى الفطور كثيرا من المشاغل ، فلم يكن في يكاترينودار شيء من الاطعمة الرهيفة المذاق ، لا شيء غير شحم الخنزير المقدد والرز ولحم الخنزير ، وانت لا تستطيع ان تطعم الباريسي لقم العجين واللحم ! واقترح فون ليزه عضو «المجمع الوطني» والمعروف بذوقه الرهيف قائمة طعام تتألف من حساء اللحم والفطائر ، وطبق متلون من سمك البربوط بالنبيذ الاحمر ، وطبق ثالث ، هو دجاجة مسلوقة في مثانة خنزير بدون اية قطرة من الماء . وحصلوا على نبيذ جيد عن طريق المضارب بابريكاكي . وفي تمام الساعة الواحدة اجتمع ستة اشخاص من ضمنهم بيتر بيتروفيتش جيرو في شقة شولغين عضو دوما الدولة ومحرر وناشر صحيفة «رودنايا زيملا» . وكان الفطور رهيفا حقا ، وحين قدمت القهوة المصنوعة من الشعير المحمص ، اخذ جيرو يدلي ببيانه :

— ساحدثكم ببعض الكلمات عن باريس ، ايها السادة . . . انتم على معرفة جيدة بها . كان الاجانب يتركون فيها كل عام اكثر

من اربعة مليارات فرنك ذهبا . فلا عجب ان تدير الرؤوس الابخرة المتصاعدة من شوارعها ، ومن ذلك رؤوس الحالمين الناظرين الى سيول السيارات اللامعة من علو نوافذ العليات . والآن ، واسفاه ، لا وجود للحالمين فى باريس ، فان جثثهم تتفسخ ملوثة الهواء على نهر سوم ، وفى شمبانيا ، وفى اردين . لم تعد باريس مدينـــة المرح ، حيث يرقص الناس فى الشوارع ، ويقهقهون بكل حناجرهم على لحية الملك ليوبولد ، او على غراميات الغرانـــدوق الروسى الفاشلة . ان باريس وفرنسا قد فقدتا مليونا ونصف مليون رجل صرعوا فى الحرب . وباريس مملؤة بالصبيان الذين يحترفـــون اللواط . وعلى سطيحات المقاهى لا يجلس الا الشيوخ الكئيبون الذين لا يثيرون الاهتمام حتى بين المومسات ممن يتقاضين للخلوة بهن عشرين فرنكا . وتسير سيارات الاجرة التى بعجت فى مارنه مقرقعة على الارصفة المهشمـــــة . وما يزال الجنود الامريكيون العرمون كالخيول المستريحة يقبلون فى المطاعـــم والمقاهـــى الفاخرة . النساء ! اوه ، النساء دائما فى المقدمة . قطعن فساتينهن الى حد الركبة والغين الملابس الداخلية .

اصوات حول المائدة :

— اوضح اكثر ، ارجوك .

— فى المساء تخرج النساء الى المسرح والمطعم متغطيات من الخارج فقط بما لا وزن له ، وبعبارة ادق ان فساتينهن ليست الا قطعتين ضيقتين من القماش ربطت بهما تنورة قصيرة . . وكـــل رشاقتهن فى سيقانهن العارية ، وسيقان الباريسيات فاتنة . فما الحاجة الى الملابس الداخلية ، اذن ؟ اللعنة ! لقد تحملنـــا الحرمانات فى الخنـــادق من اجل شىء مـــا . ولكن كل هـــذه الاشياء توافه . ان باريس اليوم هى المدينة المنتصرة . وهـــى كئيبة ، شوارعها غير مكنوسة جيدا ، الا انهـــا مشحونـــة كلها بالاحاديث المقلقة ذات الوجهين . كسبت باريس الحـــرب العالمية ، وهى تستعد لتكسب الثورة المضـــادة على مستوى العالم .

قال ثلاثة ممن حول المائدة «برافو» بصوت خافت . وامتنع الرابع عن التعليق لانه كان مشغولا بصنع كرة من فتات الخبز .

اما الخامس فهز كتفا واحدة بحركة غامضة اشفعها بابتسامـــة غامضة ايضا .

— باريس اليوم مغارة نمر هائج . وكليمانصـــو متعطش للانتقام . وقبل ان يعقد الصلح — وهذا لا يحدث قريبا — ستعانى المانيا جميع اهوال حصار الجوع . وستقلع انيابها وتقلم اظفارها الى الابد . وقد قال كليمانصو فى حديث شخصى له «ساقتل لدى الالمان حتى الامل فى ان يصبحوا اكثر من بلاد بلا مقام . وكمية البازلاء والبطاطس التى يملكونها لا تقيهم الا من الموت جوعا» . ولكن كليمانصو ، ايها السادة ، كان قبل خمسين عاما يعانى من ذل الرعب امام كومونة باريس الى جانب ذل العـــار فى سيدان . وذات مرة ، فى حفلة فطور للصحفيين استغرق فى الذكريـــات ، وتحدث عن الاثر الذى خلفته فى نفسه رؤيته لقطع عمود الامبراطور العظيم المقلوب فى ساحة فاندوم . وكان الكومونيون قد اطاحوا بهذا العمود بمعونة عدد كبير من الحبال والرافعات . فقال «لم يصعقنى التهديم بل الفكرة التى حمّست العمال الفرنسيين للقيام بذلك . ان خطرا مميتا يزحف على الحضارة ، وفى الامكان ابعاده ، ولكنه سيعود ، وسيعود فى اليوم الذى يوضع فيه السلاح فى يد الشعب . وسيكون ذلك يوم ثارنا لسيدان ، يوما سيتعين علينا فيه ان نحارب فى جبهتين» . ايها السادة ، لقد تبين ان كليمانصو كان على حق . الى باريس يعود المسرحون من الجيش . وقد مروا بفظائع فردن وسوم ، واقامة المتاريس والقتال فى الشوارع بالنسبة لهم مجرد تسلية . انهم فى كل الحانات يجمعـــون حولهم المستمعين ويصرخون بانهم قد خدعوا . فالذين حاربوا تسلموا اشرطة ونياشين وسيقانا اصطناعية ، اما الذين حاربوا من اجلهم فقد كسبـــوا المليارات من النقود الصافية . . . . والبرجوازيون الذين دمرهم التضخم النقدى يقرعون الانخاب مع المتذمرين . وضواحى باريس مضطربة . والمصانع معطلة ، وقوات حامية باريس يشوبهـــا الغموض . وفى المانيا فوضى الثـــورة ولا يكاد الاشتراكيـــون الديموقراطيون يتحملون ضغطها . وهنغاريا ستعلن السوفييتات ، ان لم يكن اليوم فغدا . . . وانجلترا تعانى من شلل الاضرابات ، وحكومة لويد جورج تجاهد فقط لان تسوق المركب بين الصخور

على الجانبين . وانظار الجميع مصوبة نحو كليمانصو . فهو وحده يدرك ان الضربة القاضية على ثورة اوربا كلها يجب ان توجه فى بلادكم ، فى موسكو . ان الصيادين الايطاليين حين يخرجون الاخطبوط من الشبكة يقرضون بالاسنان مثانته الهوائية فترتخى اطرافه بمصاصاتها الفظيعة عاجزة عن الحركة . . .

تشعثت شعور الجالسين حول المائدة ، وعرقت نظاراتهم فخلعوها . وحين توقف جيرو ليقضم نهاية سيغار جديد انهالت الاسئلة عليه :

– كم فرقة فرنسية ارسلت الى اوديسا ؟

– هل ينوى الفرنسيون التوغل فى عمق البلاد ؟

– هل يعرفون فى باريس عن الاخفاقات الاخيرة فى هجوم كراسنوف على تساريتسين ؟ وهل ستقدم المساعدة لكراسنوف ؟

– هل تم تقسيم مناطق النفوذ فى روسيا ؟ وبالمناسبة من ينوى ان يساعد بشكل جدى جيش المتطوعين ؟

اطلق جيرو دخانا ازرق ببطء :

– ايها السادة ، انتم تسألوننى وكاننى كليمانصو نفسه . انا صحفى . وقد ابدت عدة صحف اهتماما بالمسالة الروسية ، فارسلتنى اليكم . ان مسالة المساعدة المباشرة بالقوات تتعقد . ولويد جورج لا يريد ان يثير الاعصاب بلا فائدة . فلو ارسل الى نوفوروسيسك مجرد كتيبتين من المشاة الانجليز فانه سيخسر دوزينتين من الاصوات فى الانتخابات التكميلية الى البرلمان . ومعلوماتى الاخيرة هى كالآتى : اسرع لويد جورج بالسفر الى باريس على طائرة ، مفضلا هذه الطريقة فى التنقل جوا لاحتمال وقوع انفجار فى البحر لان المانش قد امتلأ مرة اخرى بالالغام العائمة بسبب العواصف ، وقبل ايام قليلة اعرب فى مجلس العشرة عن الافكار التالية : ان الامل فى انهيار سريع للحكومة البلشفية لم يتحقق ، وهناك معلومات تقول ان البلاشفة اقوى الآن من اى وقت مضى ، وان نفوذهم بين الشعب قد قوى ، وحتى الفلاحون ينحازون الى جانب البلاشفة . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان روسيا البلشفية قد عادت الى حدودها الطبيعية فى زمن دولة موسكو – سوزدال فى القرن الخامس عشر وانها لا تشكل خطرا

جديا على احد فانه ينبغى ان يقترح على حكومة موسكو ان ترسل من يمثلها الى باريس ، ليمثل امام مجلس العشرة على غرار ما فعلت الامبراطورية الرومانية حين استدعت زعماء المقاطعات البعيدة الخاضعة لروما ليقدم هؤلاء تقارير عن اعمالهم . . . هذا هو ، ايها السادة ، وضعنا فى الغرب . . . هل لديكم اسئلة اخرى ؟ . .

وبعد عدة ايام من هذا الفطور (الذى ادخله البروفيسور كولوغريفوف فى الحوليات) اعلن الآمر العسكرى فى تقريره للقائد العام :

– مقابل فندق «سافوى» تماما ، يا صاحب السيادة ، فتح محل مشتريات لا يقبل الا الذهب والماس ، ويدفع لقاءها اثمانا عالية للغاية من عملة الدون . . . ونوعية النقود مشكوك فيها ، لان الاوراق النقدية جديدة . . .

قال دينيكين غاضبا ، وهو ينظر فى الواح الطبعة التجريبية للنشرات العسكرية :

– انت تشك دائما ، يا فيتالى فيتالييفيتش . ها انت مرة اخرى جلدت يهوديا دون علمى ، بينما ظهر انه لم يكن يهوديا على الاطلاق ، بل صاحب اراض من مقاطعة اورال . . . بين سكان هذه المقاطعة يوجد اناس شعرهم اسود ، بل وحتى من لهم شبه بالغجر . . . آه ، يا لك ! . .

– اعتذر ، يا صاحب السيادة . حصل التباس . . . لنعد الى محل المشتريات هذا – الترخيص مسجل باسم المضارب بابريكاكى من سكان يكاترينوسلاف ، بينما اتضح لنا ان صاحبه الحقيقى الذى وظف فيه راسمالا مشكوكا فى قيمته هو (وهنا انحنى الآمر الانحناءة التى تسمح بها سمنته) الفرنسى بيتر بيتروفيتش جيرو . . .

القى دينيكين الالواح على الطاولة :

اسمع ، ايها العقيد ، لعلك تريد ان تفسد علاقتنا بفرنسا بسبب صغائر ، بسبب سلاسل وخواتم صغيرة ! وماذا فعلت ايضا مع هذا المحل ؟

– ختمت على القاصة . . .

– اسرع على الفور ، وفض الختم ، واعتذر . . . بحيث . . .

— سمعا .

وسار الآمر على اطراف اصابعه ، وغاب بكرشه وراء الباب . وبعد ذلك ظل القائد العام ينقر باصابعه على المنشورات العسكرية وقتا طويلا وشارباه الاشيبان يرتعشان .

— شعب ماكر !

قال ذلك ، ولم يكن واضحا اى شعب يقصد به : شعبه ام الشعب الفرنسى . . .

١٥

فى ضيعة بروخلادنى كانت فى انتظار فاديم بيتروفيتش روتشين خيبة امل جديدة . راى الباب الخارجى للبيت الذى عاشت فيه كاتيا مع عائلة كراسيلنيكوف مفتوحا على مصراعيه ، وقد غطى الثلج النقى على آثار الاقدام كلها ، وتكوم على عتبة البيت المهجور كومة ثقبتها قطرات الذوبان .

ولم يستطع احد ان يقول لفاديم بيتروفيتش روتشين الى اين رحل كراسيلنيكوف مع المراتين . لم ينفوا ان شخصا يدعى كراسيلنيكوف كان يعيش هنا ، ولكن لا احد يعرف من اين هو ، ولا القرية التى جاء منها ، فان ناسا كثيرين من شتى الاوزاع قد جاءوا الى الاتمان ماخنو .

فى البيت رائحة موقد بارد ، وعلى الارض قاذورات ، وقد تسرب الثلج من النافذة المحطمة . وعند الحائط تختان عاريان . ولم يبق من كاتيا الراحلة ولو مجرد ظل على الحيطان المقشرة . وبعد الجهود الكثيرة تقاطع طريقاهما ، ولكنه جاء متاخرا .

جلس فاديم بيتروفيتش على تخت قد صنع من الواح غير مسحوجة . ايا من التختين كان تخت الزوجية ، هذا او ذاك ؟ الكسى رجل جميل وقح . . . «بكيت ،وكفى . امسحى الآن عينيك» قال لها بلهجة غير فظة — فقد كان اذكى من ان يكون غليظا مع سيدة محترمة — قال بمرح وبشكل قاطع . . . وهدات القطيطة ، واستجابت وخضعت . وبشىء من الخجل والاحتشام تركته يفعل بها كل ما يشتهى . . . وفى اغلب الظن لم تنطح الحائط براسها !

التصقت به والتفت حوله مسلوبة الارادة وبلا عاطفة كما يلتف اللبلاب الشاحب ذو الازاهير المرة حول جذع شجرة . . .

دار فاديم بيتروفيتش فى البيت ، واطنا علبا فارغة للمعلبات . تخيل فالت فاسق ، كذب ! — عاد فاديم يقول لنفسه — لا بد ان كاتيا صارت ، ولم تستسلم ، وبقيت وفية طاهرة ! انه لجبان ، ومبتذل ! ايظن انها ستظل نقية وفية اخلاصا لذكراه ؟ من الافضل ان تجيب : هل ستقتل الاثنين لو رايتهما على هذا التخت الصارف ؟ ام ستنظر اليهما من العتبة ، وترى عينى كاتيا ، عالمك المفقود ، وتقول : «اعذرانى ، يبدو اننى زائد هنا . . .» وهذا هو امتحانك فى الالم . . تلك هى المحنة الرهيبة اخيرا . . . والآن لا تقدر ان تتحمل اكثر ؟ لا ، تقدر ، تقدر ! ستظل تبحث عن كاتيا ، تبحث ، وتبحث . . .

كان كاريتنيك ذو الوجه المعوج الذى يصاحب فاديم ينتظره فى العربة . خرج روتشين من باب البيت الخارجى ، وصعد الى العربة ، ورفع ياقة معطفه محتميا من الريح . كان سائق ماخنو الشخصى وحارسه والصادع على الفور باوامره القصيرة ، هو الذى يسوق العربة . كان رجلا طويلا صموتا يكنى بالاخرس العظيم ، له وجه قد استطال جزؤه الاسفل ، وكأنه منعكس على مرآة معكوفة . وقد ساق الخيول الاربعة بعنف شديد حتى ان الراكب لا يكاد يستقر فى جلسته متشبثا بكلا جانبى العربة .

قال كاريتنيك رافعا الكلفة وهو ينط ويتمايل ويتخبط فى العربة :

— كفى تكشيرا ، ايها الراس الاغبر . اذا امر الاتمان وجدنا زوجتك من تحت الارض . آه ، يا ربى ، كان ذلك شىء يقلق ! النساء مصبوغات من الخارج فقط ، ولكنهن من عجينة واحدة . بلاء . . . ابصق عليها ، لن ترحل عنه . ملأ الكسى كراسيلنيكوف ثلاث عربات من الغنائم . . . كان فتى السرية الاول فى النهب والسلب ، ومن حسن حظه انه غادر فى الوقت المناسب . . .

ردد فاديم بيتروفيتش مع نفسه ، وهو يدفن وجهه حتى حاجبيه فى ياقته المرفوعة : «انت تقدر ، تقدر ليست هذه الا بداية لمحنك . . .»

دخلت العربة غولاى – بوله منطلقة فى شارعها المرصوف بالحجارة دون ان تقلل من سرعتها . واوقف الاخرس العظيم الخيول الاربعة العرقة عند مقر القيادة . وكانوا يتوقعون روتشين هناك . وسرعان ما استدعى لمقابلة الاتمان . كان ماخنو يراس اجتماعا للمجلس العسكرى الكبير فى غرفة صف غير مدفأة ، حيث كان امراء الوحدات يجلسون على المقاعد المدرسية الصغيرة باوضاع غير مريحة . وكان نستور ايفانوفيتش ماخنو فى سترة سوداء مشدودة بحزامين اصفرين متصالبين يسير امام المقاعد كالفهد . وكان وجهه وهو صاح ، يبدو اكثر نحولا . وكان يضع يديه وراء ظهره ممسكا باليمنى يده اليسرى المرتخية كالسوط . وبرهة من الوقت اوقف فاديم بيتروفيتش بنظرة حادة . وقال له بصوت نافذ :

– ستسافر الى يكاترينوسلاف . وتقدم التفويض الى اللجنة الثورية . وتراقب خطة الانتفاضة نيابة عن قيادتى . اذهب .

رفع روتشين يده الى قبعته بتحية قصيرة ، واستدار ، وخرج . وكان لوفكا زادوف ينتظره فى الممر .

– كل شيء على ما يرام . التفويض معى – وطوق كتفى فاديم بيتروفيتش ، وقاده فى الممر ، ودفعه بردفه الى احد الابواب – عليك ان تخلع معطفك . وساهدى لك معطفا آخر بطيات عند الخصر – ودون ان يرفع ذراعه عن كتفه فتح الباب بثلاثة مفاتيح – انه عائد لى شخصيا ، ومبطن بالفراء الفاخر . يجب ان تكسب صداقة ليفا . فمن يكن صديقا لليفا يكسب ورقة رابحة .

وادخل روتشين فى غرفة لها نفس الرائحة الحامضة الموجودة فى المركز الثقافى ، واستمر فى المفاخرة بنفسه وباشيائه المتناثرة فى ارجاء الغرفة ، وقدم لفاديم بيتروفيتش معطفا جيدا حقا سوى انه مثقب ببعض ثقوب الرصاص على الصدر والظهر . واندس تحت التخت وهو يلهث لبدنته ، واخرج كومة القبعات واختار واحدة من فراء الحمل لها قمة قرمزية ، والقاها الى روتشين عبر الغرفة واثقا من ان هذا سيتلقفها وهى طائرة . ثم اخذته نوبة البذخ فاختطف من الحائط سيفا قفقاسيا مزينا بالفضة : «وليكن ذلك . تقلده ، انه عائد الى احد الفرسان . . .» ثم اخذ يهندم نفسه . شد على كل من معصميه ساعة ذهبية بسوار – وحزّم

سترته بحزام عليه مسدسان «موزر» وتقلد سيفا له غمد تساقطت قشرته ، بعد ان جرب حده باصبعه مقدما : «هذا . . . لعملى اليومى . .» وادخل رجليه فى كالوشين مطاطيين عاليين : «من يستطيع ان يقول انى لست فارسا ، على حد تعبير الناس فى اوديسا الام . . .» وفوق ذلك كله لبس فروة خروف : «لنذهب ، ايها الهر الصغير ، سارافقك . . .»

واوصلهما الاخرس العظيم بعينه الى محطة القطار وقال لوفكا بحضوره ، وبحيث لا يسمعه هذا :

– انه رجل ذو قوة نادرة ، من المحكومين . هرب الاتمان معه من السجن القيصرى . كن حذرا معه . الوحش لا يحب ان ينظر الناس اليه طويلا . . حتى انا اخافه .

وانطرح لوفكا فى العربة راضيا عن نفسه ، منشرحا متوردا .

– اسعدك الحظ ، يا روتشين . اعجبتنى لسبب لا اعرفه .

. . . انا احب الارستقراطيين . . . قبل ايام تعين على ان اقتل ثلاثة اخوة امراء من آل غوليتسين . . . تصرفوا بروعة . . .

طلب لوفكا ان يجلب الى مقصورة العربة بعض الكحول والاطعمة الخفيفة من بوفيه المحطة ، واستمرت نفس الاحاديث . خلع لوفكا فروته ، وفك حزامه . وقال وهو يقطع شرائح سميكة من شحم الخنزير :

– انا لا افهم ، لا افهم كيف لم تسمع بى من قبل . اوديسا حملتنى على الايدى . فى بحبوحة من الفلوس والنساء . . . كان الامر يقتضى قوة عملاقة كقوتى ، آه ، الشباب ! كل الجرائد كتبت : زادوف شاعر ساخر . آوه ، امن المعقول انك لا تذكر ؟ سيرة حياتى طريفة . انهيت المدرسة المتوسطة حاصلا على الميدالية الذهبية . ابى سائق عربة بسيط من بيريسيب . بينما وصلت انا الى ذروة المجد راسا . هذا شيء مفهوم فانا جميل بشكل الهى – لم يكن هذا الكرش موجودا – وجرىء ، ووقح ، ولى صوت فاخر دو نبرة عالية . وسيل من المثانى الشعرية اللاذعة . ثم انا الذى ادخلت فى الموضة السترة القصيرة ، والاحذية الطويلة المصقولة بالورنيش : الفارس المتجول الروسى ! كانت

الملصقات تملأ جدران اوديسا كلها . . . ولم يبخل زادوف بشيء ، وكان يهب كل شيء بسهولة ! الفوضوية هي الحياة ! وانا منطلق في دوامة من الدم . فلا تعتصم بالصمت ، ايهـــا الهر الصغير ، وكن اكثر رقة مع لوفكا ، ام ما زلت غضبان ؟ احبني . الكثيرون يمتقع لونهم حين اتكلم معهم . . . والذي اكون له صديقا يصير وفيا لي حتى الموت . . . الناس يحبونني حبا جما .

كان فاديم بيتروفيتش يحس بدوار في راسه . فبعد الصدمة التي تلقاها في صباح اليوم لم يكن امامـــه الا ان ينبح كالكلب في برية على ضوء قمر شاحب . وكانت المهمة المفاجئة – الامــــر المقتضب الغامض – امتحانا جديدا لقواه . وكان يدرك ان ايـــة خطوة خاطئة او مشبوهة ستكلفه حياته ، ومن اجل ذلك بعثــــوا لوفكا معه . ما هذه اللجنة العسكرية الثورية التي يجب ان يذهب اليها لمراقبة الخطة ؟ وما هي خطة الانتفاضة هذه ؟ انتفاضة من وضد من ؟ كان لوفكا يعرف ، بالطبع . حاول روتشين عدة مرات ان يوجه اليه اسئلة استدلالية ، ولكن لوفكا اكتفى بان رفع حاجبيه الى الاعلى وجعل عينيه تبدوان كالزجاج ، وتابع ثرثرته ، وكانه لم يسمع شيئا ، واكل وتمطق ، دون ان يمسح شفتيه ، واحمر ، وفك ياقة قميصه المطرز .

احتسى فاديم بيتروفيتش قدحا من الكحول ايضـــا ، وراح يمضغ شحم الخنزير بلا تذوق . وكبت بكل قواه نفوره من هذا الرجل المرعب المضحك البغيض . . . فمثل هؤلاء لم يصادفهم حتى في الروايات التي قراها . وردد مع نفسه : «يا له من متباه ، منطلق في دوامة من الدم . . .» وسرى الكحول في دمه ، وارتخت الكماشات التي كانت تضغط على دماغه ، دخلت لامبالاة واثقة محل الامــــر الآلي تقريبا والعديم المفعول تقريبا «تقدر ، تقدر» .

وقال للوفكا :

– على كل حال ، كف عن التباله معي . لقد اعطاني الاتمان توجيها معينا ، وانا رجل عسكرى ، ولا احب الالغاز فخبرنى : ما القضية ؟

وتجمدت على فم لوفكا ابتسامته . وكانت يده المنتفخـــة بسماناتها الكبيرة تتدلى بالزجاجة فوق القدح :

– انصحك بان تقلل من اسئلتك وتقلل من استفهاماتك . فكل شيء قد تم نظم .

– يعني انا لست موضع ثقة . . اذن ما الغاية ؟

– انا لا اثق باحد . . . وحتى بالاتمان لا اثق . . . هيـــا نشرب . .

وفتح لوفكا فمه حتى مست حافة القدح حد اسنانه السفلى ، وجرع الكحول ببطء . وفاحت من الكحول عفونة حلوة ، كرائحـة لحم نيء مع سكر . . . هز شعره الغزير المشبع بالكهربة ، واخذ يقتطع فخذ الدجاجة .

– لو كنت في مكانك لما قبلت هذه المهمة . ولا يهمك ان يكون الاتمان الآمر . . . فهو يحب ان يستغفل . ستقع في ورطة ، ايها الهر . . .

فرك روتشين وجهه براحتيه بقوة ، وضحك .

– اتنصحني بان اتملص ؟ ربما اذهب الى دورة المياه ، واقفز من القطار ، وهو منطلق ؟ اهذه نصيحتك ، كصديق ؟

– قلت لك ، وعليك ان تستخلص . . . .

– تفاهة . . . اتظنني اخاف الموت ؟

– وما الداعي الى الظن اذا كنت انفذ من خلالك واراك دودة زاحفة . . . اخف اسنانك والا خلعتها . . . هيا ، صب قدحا . . .

زفر روتشين زفرة عميقة بعسر :

– اتعرفني ؟ لا ، يـــا زادوف ، انت لا تعرفني . . . لو وضعت امام الحائط لترمى ، ايها الوغد ، لصرت تقبع قبــــاع الخنزير . . .

كان لوفكا يهم بنهش فخذ الدجاج فاطبـــق فمه بشدة حتى ارتطمت اسنانه السفلى بالعليا وارتخى وجهه العــــرق . وقال بامتعاض :

– العكس هو الذى حصل حتى الآن . آخرون غيرى قبعـــوا قباع الخنازير . . . العلك انت الذى تنوى القضاء عليّ ؟

– لو كنت وقعت في يدي قبل ثلاثة اشهر . . .

– لا تراوغ ، ايها الضابط الابيض ، واكمل جملتك .

– الا تنتظر ، ايها الجزار ؟ . .

– انا فى انتظار ، فاكمل . . .

وتكلما بعجالة . والآن كان كلاهما يتنفس تنفسا ثقيلا . واقدامهما تحت التخت ، واحدهما يتفرس فى حدقتى الآخر متوترا . ترقعت الشمعة ملتصقة على المنضدة الصغيرة المبسوطة ، واخذ الضوء يخفت . ولاحظ روتشين ان وجه لوفكا يربد ثم قال لوفكا له بصوت كامد الرنين :

– لنخرج الى الممر . . . اخرج فى المقدمة .

– لا اخرج . . .

– هيا . .

– لا تامر ، انا لن امتثل . . .

لم يبق الا بصيص ازرق فى نهاية الذبالة مثل نفس تتعسر على الموت . والظاهر ان لوفكا كان يدرك ان التفوق فى المقصورة الضيقة سيكون الى جانب روتشين المعروق الصغير اذا هاجم احدهما الآخر فى الظلام . . . جار بصوت كصوت الثور :

– انهض . . . الى الممر !

سحب باب المقصورة ، ورف بصيص الشمعة ، والتهب . ودخل تشوغاى .

– مرحبا ، اخوان – وانفرج فمه عن ابتسامة ساخرة تحت شاربيه الصغيرين ، وتنقلت عيناه الجاحظتان من لوفكا الى روتشين – انا ابحث عنكما فى القطار كله .

وجلس الى جانب روتشين ومقابل لوفكا . وتناول الزجاجة الفارغة ، وهزّها ، وشمها ، ووضعها .

– ما سبب هذه الجهامة على وجهيكما ؟

– لم نتوافق بطبعينا .

قال لوفكا مشيحا وجهه عن نظرته الساخرة .

– وانت تصحبه على شاكلة مفوض ؟

– لست انا على شاكلة شىء ما ، بل اعلى . . ولكن لماذا تسال ؟

– وهذا على الاكثر يقتضيك ان تفهم اى عمل مسؤول تصحب الرفيق اليه . اما الطبع فيجب ان تسيطر عليه . والآن ،

16*

يا اخ ، اخرج من المقصورة ، فانا اريد ان اتكلم معه بدون حضورك .

كان تشوغاى يجلس متماسكا ، وذراعاه مطويتان على بطنه ، وفخذاه متباعدان ، وكان وجهه يبدو فى ضوء الشمعة ورديا وكانه من فخار ، وكانت قبعته الصغيرة ذات الاشرطة تقف على علبانه باعجوبة . انتظر بهدوء ان يتحمل لوفكا الاهانة ، ويخضع .

نخر لوفكا وعقا محمرا ونظر الى روتشين نظرة متوعدة ، ونهض صاخبا ، ولمع حذاؤه الطويل الصقيل عند الباب ، وخرج . رد تشوغاى الباب :

– ما الذى جعلك فى غير وفاق معه ؟

– شىء تافه – قال روتشين – شربنا نحن الاثنان .

– جوابك صحيح . ولكن اريد ان اقول لك ، يا اخ ، انك قد دخلت تحت تصرفى ، فيجب ان تجيب عن كل سؤال اطرحه .

انتقل تشوغاى ليجلس قبالته ، وبالقرب من الشمعة نشر ربع صفحة من الورق موقع بتوقيع ماخنو ومطبوع على الآلة الكاتبة بحروف متلاصقة وباخطاء نحوية وبلا علامات ترقيم ، وقد ذكر فيه ان روتشين قد وضع تحت تصرف هيئة الاركان العسكرية الثورية لمنطقة يكاترينوسلاف .

– اهذا مقنع لك ؟ (هز روتشين راسه) هذا شىء جيد . خبرنى : ما الذى جاء بك الى هذه الجماعة ؟

– اهذا استجواب تقتضيه الشكليات ؟

– نعم . . حزرت . لا يجوز وضع ثقتك فى شخص لا تعرفه ، ولا سيما فى امر مهم كهذا الامر . هل توافقنى على ذلك ؟ (هز روتشين راسه) قمت ببعض التحريات عنك . . . ليس هناك شىء مطمئن : فانت عدو . عدو لدود ، يا اخ .

تنهد روتشين ، والقى بظهره على التخت . كان ليل دامس كالابدية ينطلق وراء النافذة السوداء ، التى انعكس ضوء الشمع على زجاجها . واحس روتشين بطمأنينة ، وراح جسمه يهتز اهتزازا خفيفا . لقد بدأ استجوابه الثالث ، والاخير على ما يبدو ، والنهائى خلال فترة لا تتجاوز ثلاثة ايام قضاها بلا نوم تقريبا . ومهما يكن من شىء

فاى حقيقة كان فى وسعه ان يقولها عن نفسه ؟ قصة معقدة مشربكة عن انسان قذفه اناس مجهولون خارج بيته القديم الذى ولد فيه ، وخارج شارعه ، ومملكته . ولكن اهذا الذى حصل ؟ أليس هو الذى امسك نفسه من تلابيبها ، وقذفها فى القمامة ؟ ما الذى اخافه على وجه التحديد ؟ وما الذى كرهه على وجه التحديد ؟ وهل كان بيته القديم ومملكته المريحة القديمة ضروريين حقا لسعادته ؟ اوليس هما شبحين من صنع خياله المريض ؟ ولو ينبش ذاكرته لن يجد فى افعاله خلال هذا العام شيئا معقولا ومبررا . فى هذه المقصورة لا توجد محكمة فيها هيئة محلفين ومحام دفاع رائع يهز ناصيـــة شعره الرومانطيقية . فقد كان عليه ان يقوم – وجها لوجه – بشىء مستحيل تقريبا : ان يقول الحقيقة ، لا عن افعاله كانسان صغير ، فان ذلك غير مهـــم ، وليس لهـــا شـــان فى هذا الحديث ، بل عن نفسه كانسان كبير . . . انه هنا المتهم والحاكـــم فى آن واحد . . . كما ليس مهما الاستنتاج العملى من هذا الحديث اذا كان الامر قد مس هذا الانسان الكبير .

قال تشوغاى :

– ما بالك تغمغم . تكلم بصوت مسموع .

– لا ، انا لست عدوا ، فان ذلك زيادة فى التبسيط – قال روتشين ضاغطا علباءه على متكأ التخت – ان للعدو هدفا ، ولؤما وسوء طوية . . اريد ان اسالك . . . .

– هيا .

– هل انا لازم لكم كاخصائى عسكرى ؟

صمت تشوغاى برهة متفحصا وجهه بظلاله العميقة والتجاويف فى خديه .

– ولكن كيف ستجيب انت عن السؤال ؟

– اظن اننى لازم ، وعلى الاخص لكم ، لا للاتمان .

– من الافضل ان تخاطبنى بالمفرد ، فذلك يسهل الكلام .

– حسنا ، سافعل .

– زعم الاتمان انهم جندوك فى صفوف جيش المتطوعين ، ولكنك فوضوى صادق ، وملائم من حيث المنشأ ايضا .

– كل ذلك كذب . . . منشئى غير ملائم مطلقا . كما اننى

انضممت الى جيش المتطوعين بمحض ارادتى ، وغادرته بمحض ارادتى .

– هل صرت تشعر بالعار ؟

– لا . . . ولكن لماذا تلقننى ؟ لا تحسبنى احاول التشبث بقشة ، فانا فى الحضيض منذ زمان . . . حبذا لو يؤمن الانسان بالتفكير عن الخطايا الثقيلة ! . . ولكن حتى هذه السلوى لا املكها . . .

– هل قمت باعمال منكرة كثيرة ؟

– كان ، كان . . . طوال حياتى طالبت نفسى بالصفاء ، ولكن صفائى لم يكن صافيا . . . كل شىء كذلك ، قـــد تقلبت ظهرا على بطن ، وصار من الابيض اسود .

– ارو لى سيرتك ، يا اخ ، حسب الاصول .

– تخرجت فى جامعة بطرسبورغ . . . حقوقيا . . . آه ، انت تريد ان تعرف المنشأ . . . كنت صاحب اطيان ، من اصحاب الاطيان الصغار . . . بعد وفاة والدتى بعت آخر ما تبقى مـــن الميراث : البيت ، والبستان والقبور وراء السياج . وتركـــت الفوج . . . ثم ماذا بعد . . . كنت ليبراليا ، مثل جميع الذين لهم شىء من التعقل (وغض فاديم بيتروفيتش وجهه باشمئزاز) وطبيعى اننى كنت اتعاطف مع الثورة المقبلة ، وحتى فى زمن الاضرابات ، عام ١٩١٣ ، على ما يبدو لى ، فتحت نافذة التهويـــة وصرخت بكوكبة مارة من خيالة البوليس : «جزارون ، جلاوزة . . .» وبهذا او نحوه كان ينحصر نشاطى الثورى ... ولم تكن بى حاجة الى الاستعجال ، فقد كنت احيا حياة لذيذة . . . (وفى هذه المرة اهتز شاربا تشوغاى) لا ، لاتتعجل احتقارى . . . فانا اتحدث بصدق . فانا على الاقل لم ارفع فى الحفلات كاس الشمبانيا لاشرب نخـــب الشعب الروسى المعذب . وفى عام ١٩١٧ كدت اجن فى الجبهة خجلا وعارا . وقد قضيت عامين ونصفا فى الخنادق دون ان اعلن عن نفسى . ولم البس ملابس داخلية حريرية لاتقى القمل .

– جدارة .

– لاتسخر . فلاداعى لذلك . . . (وغض فاديم بيتروفيتش جبينه ، وخددت وجهه النحيل ظلال عميقة) والآن اجبنى : ما هو

الوطن بالنسبة لك ؟ يوم حزيرانى فى الطفولة ، وازيز النحل فى زيزفون ، وانت تحس بالسعادة تنصب فيك كجداول من العسل . . . والسماء الروسية فوق الارض الروسية . . وهل من المعقول اننى لم احب ذاك ؟ امن المعقول اننى لم احب الملايين من ذوى المعاطف العسكرية الرمادية تنزل من القطارات ، وتسير الى خط النار للقاء الموت ؟ . . . لقد عقدت اتفاقا مع الموت ، ولم احسب اننى ساعود من الحرب حيا . . . الوطن كان انا نفسى ، انسانا كبيرا ابيا . . . فظهر انه لم يكن ذلك ، بل شيئا آخر . . . انه الآخرون . اجبنى : ما هو الوطن ؟ ما هو بالنسبة لك ؟ اراك صامتا . . . انا اعرف ماذا ستقول . . ان الناس يسألون عن ذلك مرة واحدة فى الحياة ، وذلك اذا فقدوه . . . آه ، انا لم افقد شنقة فى بطرسبورغ ، ولا مستقبلى كمحام . . . بل فقدت فى نفسى الانسان الكبير ، بينما لا اريد ان اكون انسانا صغيرا . . يمكنك ان تطلق النار علىّ لو رايت ارتباكا ولو فى كلمة واحدة من كلماتى . . . وتصرف ذوو المعاطف الرمادية على طريقتهم الخاصة . . . فماذا تبقى لى ؟ لقد كرهتهم ! . . واطبقت على دماغى كماشة من رصاص . لا ينضم الى جيش المتطوعين غير الانتقاميين والشقاوات المسعورين المتعطشين للدم «من اجل القيصر ، من اجل الوطن ، من اجل العقيدة نرفع اصواتنا هورا . .» فننطلق بعربة غجرية الى مطعم «يار» لناكل فطائر السمك . . .

– انت ، يا اخ ، كعكة متهيئة للدخول الى فرن – قال تشوغاى ، وبدا المرح فى النظرة المجهدة لعينيه الجاحظتين – تحفة ان تتحدث مع مثقفين ! من اين لك هذه الشربكة الدماغية ؟ انتم ، على اية حال ، روس ، اذكياء على ما يبدو . . اذن فهى التربية البرجوازية . انت الذى ضيعت نفسك ! انت لا تعرف حتى هل انت موجود ام لا . . آه ، ايها الدينيكيون ! سليتنى . . . . كيف سنتفق انا وانت ؟ هل تريد ان تعمل لا من اجل ان تبقى فى الحياة ، بل ليرضى ضميرك ؟

– ساعمل ، اذا كنت تضع المسالة بهذا الشكل .

– بدون رغبة ؟

– قلت ساعمل ، اذن ساعمل .

تناول تشوغاى الزجاجة الفارغة ثانية ، ورجها ، ونظر تحت الطاولة المبسوطة ، ورمى ببصره الى الشبكة التى توضع عليها الحقائب .

– لندع صاحبك ابن الكلبة ذاك – وفتح الباب ونادى – يا مفوض ، اين اخفيت الكحول ؟ – وغمز لروتشين غمزة ذات معنى – لا تتساهل معه ، واذا حدث اى شىء صوب المسدس اليه . انه اسوأ رجل لدى الاتمان .

نزل روتشين وتشوغاى ولوفكا الذى انتفخ بالشرب خلال الليل الى المحطة الاخيرة قبل الجسر . كان الضباب الطالع من الدنيبر يغطى يكاتريناسلاف فى الجانب الآخر من النهر . كان الثلاثة منكمشين من البرد الرطب صامتين . واخيرا تحرك القطار ودب عبر الجسر ومصدات عرباته تصطدم احداها بالاخرى . ظهرت على الرصيف المصنوع من الواح مصفوفة امراة ملفوفة بمنديل صوفى لا يبدو منها غير عينيها السريعتى الحركة . مرت بالواقفين ثم عادت ثانية ، ثم ثالثة وهى تباطىء سيرها . قال تشوغاى وهو لا يوجه كلامه اليها ، بل غفلا :

– ترى اين يمكن ان نشرب الشاى ؟

توقفت المراة فى الحال واجابت :

– يمكن ان اجلبه لكم ، ولكن لا يوجد سكر .

– عندنا سكرنا .

عندئذ ازاحت المنديل الصوفى عن وجهها ، وبدا وجهها حلو القسمات بشكل مذهل ، فتيا له غمازة على الخد المدور ، وفم صغير بارز الشفتين .

– من اين انتم ، يا رفاق ؟

اجاب لوفكا بغضب :

– ما هذا السؤال ، من اين انتم ؟ قفى عند حدك ، ولا تتآمرى ! دلينا على الطريق .

رفعت الفتاة حاجبيها دهشة ، الا ان تشوغاى قال لها «انهم نفس الاشخاص الذين تريد ان تستقبلهم» . قفزت من رصيف القطار وقادتهم عبر دروب وقفت على جانبيها عربات محطمة عديدة . ولم يصادفهم كائن حى فى طريقهم عبر منبسطات الغرملة ، وتحت

العربات حتى وصلوا الى عربة بضاعـــة . طرقت الفتـــاة ، ونادت :

— هذا انا ، ماروسيا . اتيت بهم .

سحب شقا باب العربة بحذر ، واطل وجه ناحل صـــارم شاحب ذو عينين سوداوين كفحم الانتراسيت . قال الرجـــل بخفوت :

— ادخلوا بسرعة ، فانتم تدعون البرد ينفذ الى الداخل .

انسل الثلاثة ووراءهم ماروسيا الى العربة . جذب الرجل شقي الباب سوية . كان الدفء يشيع في العربة من موقد حديدي محمى ، وكان الضوء المرفرف في علبة قديمة لطلاء الاحذية يلقي اضاءة باهتة على وجه صارم القسمات هو وجه رئيس اللجنة العسكرية الثورية ، وعلى شخصين غير واضحين في نهاية العربة .

عرض تشونغاي التفويض ، كما ان لوفكا اخرج ورقة صغيرة . جلس الرئيس القرفصاء قرب الضوء ، وظل يقرا وقتا طويلا . ثم قال وهو ينهض :

— حسنا . هذه الليلة الثالثة ونحن في انتظاركم . اجلسوا — ونظر بمؤخر عينه الى حذاء لوفكا الطويل الصقيل — الاتمان ماختو لا يبدو مستعجلا .

بادر لوفكا بالجلوس على المقعد الوحيد عند منضدة مـــن الواح خشبية ، واتخذ تشونغاي مجلسه على كتلة خشبية ، وتراجع روتشين واتكا على جدار العربة . هذا اذن مقر اركان البلاشفة . . . عربة فارغة ، ووجوه صارمة تبدو من سحناتها انها وجوه عمال سكك صموتين متوجسين .

تكلم الرئيس بصوت متوازن :

— نحن مستعدون . والشعب متحفز . ويجب ان نبدا على الفور . . . وهناك معلومات تقـــول ان البتلوريين قد تشمموا شيئا ، فقد انزلوا في المدينة يوم امس مدفعية ثقيلة . وهـــم ينتظرون قوات من كييف . لا يوجد خونة بيننا ، ولهذا يمكن ان تكون المعلومات متسربة من غولاي-بوله فقط .

قال لوفكا بلهجة متوعدة :

— اياك ، اياك . . فكر فيما تقول !

وفي تلك اللحظة تحرك الشخصان خارجين من الظلمة . وتابع الرئيس كلامه بنفس الصوت المتوازن :

— كل شيء عندكم يجري على المكشوف . وهذا لا يجوز ، يا رفاق . . . في يكاترينوسلاف بدات اعتقالات . . . انهم الآن يعتقلون لا على التعيين ، الا انهم اعتقلوا رفيقا لنا بالفعل . . .

— انه ميشكا كريفوماز ، الكومسومولي .

قالت ماروسيا ذلك بصوت رنان فيه شيء من التكسر الانثوي . وكانت تقف بالقرب من فاديم بيترفيتش وقـــد القت منديلها على كتفيها .

— واستجوبه ناريفوروتسيف رئيس استخباراتهم نفسه . ومعنى ذلك انهم في حالة انذار . . . .

— ضربوا ميشكا كريفوماز بقضيب من المطاط على جبينه ، وطلعت عيناه ، المسكين — قالت ماروسيا بسرعة ، ونشجت من انفها فجاة — بتروا اصبعين من اصابعه ، وشقوا بطنـــه ، ولم يشي بشيء .

وضع لوفكا سيفه بين رجليه ، وقال بازدراء :

— عمل رخيص . أتقولين انه ناريفوروتسيف ؟ سنتذكر ذلك . ومن المدعي العام هنا ؟ ومن هو رئيس البوليس ؟

— سنخبركم بالاسماء والعناوين . . . .

اوقف الرئيس ماروسيا :

— لنلتزم بالنظام ، يا رفاق . سيقدم فديوك تقريرا لنا عن قوات العدو (واشار الى رجل ركين حشر في حزامه ردنا فارغا من سترته المتسخة) وساقدم انا تقريرا عن عمل اللجنة الثورية . وساعطي الكلمة لكم عن ماختو . والمسالة الرابعة حول المناقشة والفوضويين والاشتراكيين الثوريين اليساريين . ان هؤلاء الاوغاد يتشممون طعاما طيبا ، وهم كالوباء يتهيئون للعراك من اجل مقاعد في السوفييت والآن ، ابدا ، يا فديوك .

بدا فديوك كلامه بصوت صلب عن احداث الماضي فاشار الى الخطط الدموية للبرجوازية العالمية ، الا ان الرئيس قاطعه في الحال : «لست انت في اجتماع عام . فقدم الحقائق المجردة» وظهر ان الحقائق المجردة خطيرة جـــدا : فقـــد كان للبتليوريين في

يكاترينوسلاف حوالى الفى رجل من المشاة ، وستة عشر مدفعا من بينها اربعة مدافع ثقيلة . وفضلا عن ذلك كانت توجد وحدات لجيش المتطوعين تتالف من العناصر البرجوازية والضباط لديها عدد كبير من الرشاشات . وحتى كيف كانت مستعدة لتقديم التعزيزات .

واتضح من التقرير الثانى ان اللجنة العسكرية الثورية تستطيع ان تعتمد على ثلاثة آلاف وخمسمائة عامل سيقفون الى جانب المنظمة البلشفية دون تردد ، وعلى دفق من الشبيبة الفلاحية من القرى المجاورة ، حيث جرى نشاط تحريضى فيها . الا ان السلاح قليل : «يمكن القول ان عشر العدد مسلح ، والبقية بايد فارغة» .

وحين راى الرئيس تململ تشوغاى ، وتدلى شفة لوفكا السفلى رفع صوته وقد التمعت عيناه بلون فحم الانتراسيت .

– نحن لا نصر ، اذا كان الاتمان ماخنو يخاف ان يهاجم المدينة بنفسه ليبق فى غولاى-بوله ، فقط ان يعطينا السلاح والذخيرة .

احمر لوفكا ، وضرب الارض بسيفه :

– لا تشوش دماغى ، يا رفيق . . . نحن لا نتاجر فى السلاح . . . . الاتمان يستطيع ان يشتت الاوغاد البتليوريين كالذباب بحركة واحدة من ذراعه . . . .

عندئذ قال تشوغاى :

– لا تحتد ، يا رفيق لوفكا . اصمت لحظة . ايها الرفاق ، اننا توصلنا الى اتفاق مع الاتمان ماخنو . انه الآن خاضع للقائد العام للجيش الاوكرانى . وجيشه الشعبى – الذى هو الآن الفرقة الخامسة – سيهاجم يكاترينوسلاف بأمر من القائد العام ، وهذا الامر موجود فى جيبى . فلننتقل الى تنسيق العمليات . . . ان معنا اخصائيا عسكريا . يا رفيق روتشين ، اقترب ، ارجوك .

سافر تشوغاى فى نفس الليلة عائدا الى ماخنو فى غولاى-بوله . وقد اخذ لوفكا معه لكيلا ينظر العمال شزرا الى وجهه

الممتلىء ، وحذائه الصقيل ، وكالوشيه العاليين ، كما لم يرد ان يبقى هذا الاحمق وحيدا مع روتشين .

الحقوا ماروسيا بروتشين للاتصال والمراقبة . لم تكن الخطة العسكرية للجنة الثورية صالحة على الاطلاق ، وقد اعلن روتشين ذلك فى الحال وبكل صراحة . اقترحت اللجنة الثورية ان يقوم هو بتفقد المدينة ، ويضع خطته . فكان فى كل صباح يعبر مع ماروسيا الدنيبر المتبخر على زورق وسط كسر الجليد ، وينزلان على الشاطىء الايمن فى ضاحية مانديروفكا ، ويطلبان من احد الفلاحين الذاهبين الى السوق توصيلهما الى المحطة ، ومن هناك كانا يصلان الى المركز مشيا او فى عربة ترام .

كانت المحطة بجسرها للخط الحديدى تقع فى الجهة الجنوبية ، ومنها كانت جادة يكاترينينسكى العريضة تمتد عبر المدينة كلها محفوفة باشجار الاقاسيا والحور الهرمية . وعلى جانبى الجادة كانت تقف ابنية جديدة ضخمة لامعة النوافذ ، هى ابنية البنوك والفنادق والبريد والبرق ودوما المدينة ، وكانت الجادة تصعد فى مرتقع شديد نحو المدينة القديمة المحيطة بساحة الكاتدرائية . وهناك كانت تقع ثكنات الجنود .

علم فاديم بيتروفيتش ماروسيا ان تعد الخطوات ، وتحدد الزوايا بعينها ، وتحفظ بشكل خاص النقاط المهمة لاطلاق النار . وكان بين الحين والآخر يدخلان مقهى ، ويخططان خطة على ورقة . وتطويها ماروسيا على هيئة ظرف وتدعكها فى كفها ، لتدسها فى فمها وتبتلعها فى حالة اعتراض الشرطة لهما . الا ان احدا لم يختلس نظرة اليهما قط ، رغم ان الخامل وحده يمكن ان تغيب عن لحظه ماروسيا الجميلة بمنديلها الزاهى المشدود على الطريقة الاوكرانية ، وروتشين بقبعته ذات القمة القرمزية . الا ان الناس هنا كانوا فى شغل شاغل عنهما . فان السلطات البتليورية التى اعلنت نفسها جمهورية ديموقراطية شربكت نفسها بين لجان من شتى الاصناف الممكنة : جماعة «النضال» والاشتراكيين ، والصهيونيين ، والفوضويين ، والقوميين ، وانصار الجمعية التأسيسية ، والاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الشعبيين واعضاء الحزب الاشتراكى البولوتى والمعتدلين والمتوسطين ، ولجان لها برامج واخرى بلا برامج .

وكان جميع هؤلاء الطفيليين يطالبون بالعلنية وبالمقرات والمال ، ويهددون بحرمانها من ثقة الجمهور . وزادت الطين بلة دوما المدينة التى كان يرأسها بابريكاكى الصغير (فان بابريكاكى الكبير ، وهو اكثر ذكاء ، قد هرب الى دينيكن) . سارت دوما المدينة على سياسة الحكم المزدوج ، بل واصرت على تاليف فوج خاص يحمل اسم حاييم سولومونوفيتش غيستورى عمدة المدينـــة الراحل . والمفهوم ان السلطات البتليورية لم يبق لها الا مجال واحد للنشاط تطلق فيه يديها ، وهو الاغارة ليلا على العمال الشيوعيين فى شققهم وحتى هذا كان يقتصر على الذين يعيشون على الضفة اليمنى .

وبعد يوم من التطواف كان روتشين وماروسيا يعودان باقصر طريق عبر الجسر الى الضاحية فى الضفة اليسرى ، قاصدين بيتا ابيض صغيرا يقع على راس منحدر على الدنيبر .

كان الفرن فى البيت متوقدا دائما ، ورائحة اقراص الروث المجفف المستعمل للوقود تفوح بنكهتها الخاصة المريحة فى ارجاء البيت . وكانت والدة ماروسيا تدخل ومعها شمعة سميكة من تلك الشموع المستخدمة فى عربات القطار (كان والد ماروسيا يشتغل فى السكك الحديدية) وتمس الفرن بيدها ، وتسأل بصوت خافت :

– هل البيت دافىء ؟

– دافىء ، يا ماما .

– هل تتعشيان ؟

– نحن جائعان كالكلاب ، يا ماما .

وتتنهد وتقول :

– تعشينا ، انا وابوك . فاذهبا لتتعشيا . فالشبان جائعون دائما .

وكانت تمشى ببطء الى ما وراء الحاجز وكان فكرها مشغول بشىء حزين يعز عن الوصف ، وتتناول الملقط وتنحنى من الجهد ، وتغمغم : «بحق المسيح اطلع سليما صحيحا» وتخرج من الفرن قدرا حديديا كبيرا فيه حساء «البورش» . وكان الاب يجلس على السرير فى وضع غير مريح مدخنا غليونه . وكان وزوجته يحاولان ان يصرفا انتباههما عن روتشين (كانا يسميانه فيما بينهمـــا بـ«السرى» ولكن حين كان روتشين يطلب شيئا ما كشىء من الماء

او علبة ثقاب – كان والد ماروسيا يثب من السرير بسرعة ، والام تتهيأ متحفزة لتلبية الطلب) .

كان روتشين وماروسيا يحتسيان «البورش» صابين اياها من القدر فى صحنين مثلمين . وماروسيا لا تكف عن الحديث ، فقد كانت انطباعات اليوم تنطبع بادق تفاصيلها على الغضارة الشفافة لذاكرتها .

كانت امها تقول وهى واقفة عند الموقد :

– بحق المسيح ، كفاك كلاما . فالطعام لا يؤدى فائدته مع الكلام .

– ماما ، طوال النهار كنت صامتة – وتنظر ماروسيـــا الى روتشين بعينيها الصغيرتين الزرقاويين بصفاء والمذهولتين . اريد ان اقول لك اننى كثيرة الكلام بشكل مريع ، حتى انهم لم يريدوا ان يقبلونى فى الكومسومول . فاين التكتم اذا كان الانسان يحب الهذر ؟ واجتزت الامتحان ، حين لزمت الصمت سبعة ايـــام بلياليها .

وكانت ماروسيا ، بعد العشاء تلقى المنديل الصوفى عليها ، وتهرع الى الاجتماع الحزبى . وكان روتشين يشكر على حســـن الضيافة ، ويذهب وراء الحاجز ، الى حجرة ضيقة وواطئة السقف بحيث كان يستطيع اذا رفع ذراعه ان يمس سقفها الخشن . وكان يحشر يديه تحت حزامه ، ويسير جيئة وذهوبا بين النافذة المغلقة بالصفاقة ، وصوان ماروسيا المصنوع من خشب الصنوبر . وكان يحل حزامه ويخلع قميصه ، ويجلس الى النافذة ، ومن خلال الصفاقة يصغى الى كتل الجليد ترسل خرخرتها الناعمة الصماء من بعيد اثناء تحدرها على الدنيبر . واهل البيت وراء الحاجـــز آووا الى مضاجعهم ، وفى صمت البيت الصغير كان لا يسمع غير فرقعـــة التجصيص فى الفرن ، وصرصرة الجدجد ، وهو يحز خشبة صغيرة مثل منشار ضئيل . وكان فاديم بيتروفيتش يحس براحة وطمأنينة على نحو غير متوقع ، ولم تكن تطوف فى راسه غير افكار بسيطة عن الحياة اليومية .

وكان لا يريد ان ينام قبل ان تعود ماروسيا ، فكان لكـــى يطرد النعاس ينهض مرة اخرى ، ويذرع الحجرة . وقد اعجبتـــه

كثيرا هذه الحجرة الصغيرة للغاية ، المطلية جدرانها بالكلس . كانت اشياء ماروسيا فيها قليلة : تنورة معلقة بمسمار ، ومشط ، ومرآة صغيرة على كومودينو ، وبعض الكتب المأخوذة من المكتبة . . . وعند الحائط سرير حديدى قصير تنازلت ماروسيا عنه لروتشين ، وفرشت لنفسها لبادة على الارض .

صفق الباب فى الرواق ، وصر باب المطبخ ، وظهرت ماروسيا موردة الخدين من البرد ، وحلت منديلها وقالت :

– لطيف انك قد انتظرتنى . هل تعرف الاخبار ؟ سيكون ماخنو هنا بعد ثلاثة ايام . وغدا يجب ان نقدم الخطة . . اما هذه الليلة فساحرة ! ساكنة والسماء مزدهرة بالنجوم .

كانت ماروسيا مغمورة جدا بالشؤون المهمة والانطباعات المختلفة ، وبسيطة القلب كثيرا حتى انها كانت تفرش لنفسها على الارض ، وتخلع ملابسها بحضور فاديم بيتروفيتش دون خجل . وكانت تقذف تنورتها وبلوزتها وجوربها حسبما اتفق . وتجلس على اللبادة لحظة محتضنة ركبتيها :

«آه ، متعبة» وتضرب الوسادة بجمع يدها ، وتستلقى ساحبة اللحاف حتى رأسها . ولكنها سرعان ما كانت تخرج وجهها بانفه الصغير والغمازة وهو ما يزال محتفظا بتورده ، وتلقى ذراعيها العاريتين فوق اللحاف :

– حر شديد ! اسمع هل انت نائم ؟

– لا ماروسيا ، لا .

– أصحيح انك كنت ضابطا ابيض ؟

– صحيح ، ماروسيا .

– اليوم تجادلت . . . وبعض الرفاق لا يثقون بك . عندنا مثل هؤلاء ، متعنتون . . . يرتابون حتى بامهاتهم . . . ولكن كيف لا تثق بانسان اذا كنت صادقا مع نفسك ! انا افضل ان اكون مخطئة على ان اسىء الظن بكل شخص . انا اقول لهم مع من ستقومون بالثورة اذا كنتم تسيئون الظن بكل من حولكم ؟ . . نحن نقوم بثورة عالمية . . . والثورة قوة خاصة . هل تفهمون ذلك؟ تصوروا ماذا كان عساى ان افعل بدون الثورة ؟ ان الصق العلب فى مشغل للكارتون لمدة اثنتى عشرة ساعة يوميا . . . والتسلية

الوحيدة ان اقرض بذور عباد الشمس ايام الاحاد فى بولفار يكاترينينسكى . . او ربما اقتر لاحصل على حذاء طويل الرقبة ، فيا له من مكسب ثمين ! واقول لهم : كيف لا تثقون به يا رفاق ؟ هب انه ، وهو المثقف ، قد اخطأ وخدم طبقته ، ولكنه انسان . . . والثورة تجذب اناسا من اصناف اخرى ايضا . هل يستطيع ان يتحول عن طبقته العفنة ؟ يستطيع . . . انه ينحاز الينا عن وعى ، ويقاتل فى سبيل قضيتنا العمالية . . . لا بد ان تكونوا متعنتين اذا كنتم لا تؤمنون بذلك . . . حسنا ، لقد اقنعت الكثيرين .

كان روتشين مستلقيا على السرير القصير منكمشا ينظر الى ماروسيا التى كانت تشمر ذراعيها العاريتين تارة ، وتطويهما بحرارة تارة اخرى . وكانت الحجرة الواطئة تبدو وقد امتلأت بنضارة عذرتها ، وكان غصنا من الزنبق الابيض قد جلب اليها .

– والامر يختلف اذا كان يتعلق بوجوب اعادة تكوين المثقفين الفكرى . . وسنعيد تكوينك انت ايضا . . . لماذا تضحك ؟

– انا لا اضحك ، يا ماروسيا . . . منذ سنين عديدة وانا لم اشعر باننى نافع لقضية خيرة مثل شعورى فى هذا الوقت . . . انا افكر الآن بان اخرج مع الفصيلة الاولى للاستيلاء على الجسر .

– آه ، أحقا ما تقول ؟

وخرجت ماروسيا من تحت اللحاف بخفة ، وجلست قربه على حافة السرير :

– الآن ، أومن بانك معنا عن حق . . . بينما ظللت اجادل واجادل لاننى لا املك دليلا صريحا على اية حال .

فى نهار السادس والعشرين انطلق خمسون فارسا بتليوريا على الجسر الحديدى عبر الدنيبر طارقين صفائحه الحديدية بسنابك خيولهم ، وهجموا على محطة البضائع ، واعملوا سيوفهم فى العمال الذين كانوا يحرسون قطارا من اربع عربات اقيمت عليها متاريس من اكياس الرمل ، وتفرقوا على الخطوط مطلقين النار على العربات.

وقد حصل كل ذلك بعجالة واحتراس . وكان يتوقع ان توجه هذه الغارة الى مقر قيادة اللجنة العسكرية الثورية ، الا ان البتليوريين خافوا من المكائن فى الحيز الضيق بين العربات ، وخرجوا الى مكان مكشوف باسرع ما يستطيعون ، وعادوا من حيث اتوا .

وضعوا رشاشات فى الجانب الآخر من الجسر ، وراحوا يطلبون من كل عابر ابراز هويته . واشتد التوتر . وتواردت معلومات من احياء المدينة عن غارات تفتيشية شاملة . وفى ذلك اليوم لم يات فلاحو الضواحى فرادى ، بل جماعات من عشرة اشخاص حزموا معاطفهم من فراء الاغنام بقوة ، ولم يحملوا شيئا من متاع . وقد شكلت اللجنة العسكرية الثورية فوجا منهم وكانت الشكليات قصيرة . اذ كان كل واحد منهم يسأل :

– لماذا جئت ؟

– جئت . اعطونى سلاحا .

– وما حاجتك الى السلاح ؟

– يجب انشاء سوفييتات ، والا فستبدأ الهرجلة من جديد .

– وهل تعترف بالسلطة السوفييتية بدون تحفظ ؟

– ليس عندى تحفظات . . .

– انضم الى السرية الثانية . . .

ولكن السلاح لم يكن كافيا حتى جاء تشوغاى عند الظهر بصورة مفاجئة فى قاطرة تجر عربة واحدة ، جالبا معه ثلثمائة بندقية نمساوية مع العتاد . وخفف ذلك الوضع قليلا . واخيرا ، وفى ساعة متاخرة من المساء اخذ جيش ماخنو المرتقب طويلا يقترب مدمدما قارعا السهب .

وكان اول من وصل الى الحاضرة «فرسان كروبوتكين» – رجال الاتمان البواسل – وجميعهم متساوون فى الطول . وقد احتلوا المدرسة فى الحال ، وقذفوا منها الكتب والمقاعد الدراسية والمعلمة ، واخذوا يدقون ابواب البيوت بطريقة تسلطية . ودخل بعدهم زهاء مائتى عربة وعربة رشاشة تحمل المشاة . وبعد هؤلاء جميعا توقفت قرب المدرسة مركبة سفر كبيرة ، لعلها كانت تعود الى مطران ، تجرها اربعة خيول ، وقد جلس الاخرس العظيم على مقعد السائق ، ونزل منها ماخنو ولوفكا وكاريتنيك بعظمة .

وسارع الاتمان فطلب ان يجتمع به اعضاء اللجنة العسكرية الثورية فى الحال . وخلال ذلك الوقت كان عدد غير قليل من العمال المنفعلين قد تجمهر قرب عربة اللجنة العسكرية الثورية . وصاحوا برئيسها :

– يا ميرون ايفانوفيتش ، اذهب بنفسك والق نظرة . ليست هذه قوات سوفييتية ، بل قطاع طرق . . . استمع الى العمة غابكا ، فانها ستروى لك ماذا فعلوا بها . . .

قالت العمة غابكا وهى تذرف الدمع :

– ميرون ايفانوفيتش ، انت تعرف احوالى . . . اقتحم اثنان بيتى . . . وصارا يطلبان حليبا ، وشحم خنزير . . . ذئبان جائعان . . . وطلبا ان اخرج الى الفناء ، وادلهما على الخنزير والدواجن والتهم اللعينان كل شىء ، عسى ان يصابا بالزحار . . .

واضطر الرئيس ان يشرح لهم بصوت حاد ان الامر ما دام قد وقع – اذ هم الذين دعوا ماخنو وقواته – فان مجال التراجع قد فات ، ولم يبق امامهم الآن الا مهمة واحدة : الاستيلاء على المدينة اجتياحا ، ونقل السلطة الى السوفييتات . ثم صاح بالعمة غابكا فجاة :

– لا يكفيك خنزيران ؟ سنهديك قطيعا من الخنازير . . . فكفى عن اثارة الناس . . .

فى الاجتماع سلك ماخنو سلوكا غريبا – فقد ابدى وقاحة وجبنا . طلب بان يعين قائدا عاما لجميع القوات ، وفى حالة الرفض هدد بان يعود الجيش نفسه من حيث اتى . وكرر القول بان السلطة السوفييتية لا تملك قوة قتالية اخرى ، وانها يجب ان تحرص على هذه القوة ، والا تبددها بهجمات متهورة . وكان يقرض اظافره ، ويحشر يده تحت سترته بين الآونة والاخرى ويهرش جلده . واتضح ان اكثر ما يخشاه هو مدافع بيتليورا الستة عشر .

عندئذ قال تشوغاى له :

– حسنا ، اذا كنت تخاف من هذه المدافع فاننى ذاهب الليلة الى المدينة لاتحدث مع آمر المدفعية .

– كيف تتحدث معه ؟

– هذا شيء يخصني . . .

– تكذب !

– لا ، لا اكذب . من هو آمر مدفعيتهم ؟ مارتيننكو ، وهو من جماعتنا فى اسطول البلطيق ، كان مدفعيا فى المدمرة «غانكوت» وهو من ابناء منطقتى ، او لعله من اقربائى او ربما عرابى . . . وهو لن يطلق النار علينا . . .

– تكذب ! – كرر ماخنو ناشبا اظافره بكمه . والظاهر انه قد صدق ، فقد هدأ فجأة ، واتخذ وقاره :

– حدثنا عن خطتكم للهجوم .

وعرضت اللجنة العسكرية الثورية هذه الخطة له : تعبر فصيلة من العمال المسلحين بالقنابل اليدوية الى الضفة الاخرى ليلا ، ويتسلل هؤلاء واحدا واحدا الى جسر السكك الحديدية ، وفى الفجر يهاجمون رجال الرشاشات المستحكمين عند رأس الجسر ، ويستولون على الرشاشات ، ويضعون تحت النيران الشوارع المؤدية الى الجسر . وحين تندلع انفجارات القنابل اليدوية يتحرك نحو الجسر القطار المصفح (ذو العربات الاربع) بعماله المسلحين وجزء من فوج الفلاحين المؤلف حديثا ، ويهاجم محطة المدينة . وفى اثناء ذلك يبلغ اعضاء القيادة اللجان البلشفية فى المناطق مستخدمين فى ذلك عناوين وتلفونات معروفة لهم وحدهم ، فتقوم هذه اللجان بالانتفاضة فى المدينة ، وتوزع على المجتمعين عند المحطة الاسلحة التى يجلبها القطار المصفح . وفى ذلك الوقت تنقل القيادة عملياتها الى هناك . ويخترق فرسان ماخنو المدينة من خلال جسر المارة ، ويعبر المشاة الدنيبر بطابورين من يمين الجسر وشماله ، ويلتقون فى اماكن محددة فى جادة يكاترينينسكى ، ومن هناك يقومون بهجوم الى الاعلى للاستيلاء على مؤسسات المدينة والثكنات. ان نجاح الانتفاضة يتوقف على السرعة والمباغتة فى الهجوم ، ولهذا يجب ان تحدد هذه الليلة موعدا للهجوم .

قال ماخنو :

– الرجال تعبوا من المسيرة ، والخيول محطمة الحذوات ، ويجب دق حذوات جديدة لها .

فرده رئيس اللجنة العسكرية الثورية على ذلك :

– يمكن ان يستريح الرجال بعد ان نستولى على المدينة ، اما الخيول فيمكن ان توضع بعد ذلك حذوات سوفييتية لها .

وقال تشوغاى :

– هل عسكرت على مرأى من المدينة كلها لتستريح ، ايها الاتمان ؟ سيغدقون عليك غدا من مدافعهم من عيار الست بوصات . باختصار : اما ان تبدأ اليوم ليلا واما ان ترحل . . .

جمد الدنيبر فى تلك الليلة ، الا ان الجليد لم يكن مأمونا . وخلال الليل كله اخذ العمال يجرون الالواح الى ضفة النهر لاستخدامها فى العبور قالعين اياها من مصاريع البوابات ، واسيجة بكاملها . كما عمل على قدم المساواة معهم جميع اعضاء اللجنة العسكرية الثورية ورئيسها .

وكان رجال الاتمان وحدهم يتجولون على الشاطئ مدججين بالسلاح بأبهة خائفين من تصببهم بالعرق ، وأحدهم يغمز للآخر نحو اضواء المدينة القليلة فى الجانب الآخر من النهر . لقد كانت يكاترينوسلاف كبيرة وغنية .

قبل حوالى ساعتين من بزوغ الفجر نزل اربعة وعشرون رجلا الى الجليد بقيادة روتشين . وكان كل شيء قد اوضح سلفا . وتشقق الجليد فى الالتصاقات بين كتل الجليد ، فاضطروا الى مدّ الالواح التى كانوا يحملونها فى ايديهم . ومرة واحدة فقط شع وميض فى الضفة الاخرى بالقرب من الكتلة السوداء الغامضة للجسر المشبك ، وانطلقت رصاصة منفردة . استلقى الجميع . ومن بعدها اخذوا يزحفون متباعدين بعضهم عن بعض قدر الامكان.

خرج روتشين فى النقطة التى حددها بالضبط بالقرب من مركب غاطس . ومن تلك النقطة كان زقاق صغير يصعد فى التل . وقد صعد فيه ، واستدار نحو الجهة الخلفية للفناء الذى عين مكانا للالتقاء – وهو فناء مستودع للبضائع خال الآن . ارسلت انوار المحطة ضوءا باهتا . كانت المدينة كلها تغط فى نوم عميق . قضى روتشين بعض الوقت يسير بمحاذاة السياج بخطوات خفيفة مكررا عبارة واحدة منغمة وبلا معنى واضح . ونظر باستمتاع الى

السياج العالى عارفا انه يستطيع بلا جهد ان يقذف عبره جسمه العديم الوزن . اخذ الرفاق يتوافدون واحدا واحدا كالاشباح . امر الجميع بان يقفزوا الى الفناء ، ويصلوا الى البوابة . وعاد ثانية يسير بخطو خفيف .

اجتمع ثلاثة وعشرون رجلا من الرجال الاربعة والعشرين ، وضل واحد طريقه او امسكه رجال الدورية . وثب روتشين ، وتعلق بيديه على حافة السياج ، مخربشا ببوزى حذائه على الواحه ، وقفز الى الجهة الاخرى ، ولكن ليس بالسهولة التى تصورها ، ونزل على آجر مهشم .

كان العمال واقفين عند البوابة صامتين يحدقون فى روتشين وهو يتقدم منهم . وكان البعض جالسا على الارض ، واضعا وجهه فى ركبتيه المرتفعتين . لم يبق وقت طويل على بزوغ الفجر . وكانت لحظات الانتظار الاخيرة هذه حاسمة واحفل بالارهاق ، لا سيما بالنسبة للذين يخوضون قتالا لاول مرة . كان روتشين يلمح بغير وضوح الافواه المطبقة بجهد عازم ، واللمعان الجاف فى العيون التى لا ترف . لقد كانوا فتيانا مخلصين يفكرون بثقة وصفاء ، روسا ثقال الايدى . وقد اقدموا بمحض ارادتهم على امر خطر لا تعرف مغبته ، فى سبيل الثورة العالمية ، على حد قول ماروسيا فى تلك الحجرة البيضاء الصغيرة المضاءة بشمعة . وداهمه احساس بنشوة خاطفة ، وعادت اليه نفس الخفة ، وغص بالعاطفة المؤثرة .

وكل شيء يختلف عما كان يحسه من قبل ، كل شيء جديدا عليه . قال وقد قطب حاجبيه :

– يا رفاق ، اذا قمنا بهذه المهمة بهدوء ، فسيحالفنا النجاح فيما بعد ايضا . وعلينا الآن يتوقف نجاح الانتفاضة بكاملها (نهض الذين كانوا جالسين على الارض ، واقتربوا) واكرر مرة اخرى : الامر لا يتطلب دهاء كبيرا . والشيء الرئيسى هو السرعة والهدوء . والعدو يخاف من ذلك اكثر من اى شيء آخر . يخاف من الانسان لا من السلاح . . . اذا كنت تشعر – وصعّد النظر فى شاب ذى رقبة جرداء قوية – اذا كنت ، ايها الرفيق . . . – وراودته رغبة لا تكبح ، فوضع يده على كتف الشاب ، ومس رقبته الدافئة – اذا كنت تشعر ببرودة فى قلبك ، فان العدو يشعر بنفس

البرودة . . . اذن ، فالذى هو احق من الآخر هو صاحب الغَلَبة .

هز الشاب راسه وضحك :

– قولك صحيح . سيغلب من له ذكاء اكثر . . . انهم بلهاء ونحن اذكياء . . . فنحن نعرف من اجل اى شيء . . . – وفجاة ارخى رقبته المنتفخة ، والتوى فمه الجميل – نحن نعرف فى سبيل اى شيء نموت .

وسال شخص آخر ، وهو يشق طريقه :

– خبرنى : اذا القيت قنابلى اليدوية فهل ساصبح بعد ذلك بلا سلاح ؟

اجابه شخص بهمس اجش :

– ويداك ما نفعهما ؟ مغفل !

قال روتشين :

– يا رفاق ، اعيد عليكم العملية كلها مرة اخرى . سننقسم الى جماعتين . . .

وراح ينظر ، وهو يتحدث ، الى فجر الصباح يبزغ اخيرا فى الظلام الحالك وراء الدنيبر . . . كانت سحب كثيفة تحجبه . لا معنى الآن فى ارهاق الرجال اكثر .

عدّل حزامه وقال :

– حان الوقت . لننقسم . افتحوا البوابة .

فتحت البوابة بحذر . وخرجوا واحدا واحدا ، متسللين ووصلوا الى نهاية السياج . ومن تلك النقطة كان الجسر يرى بشكل واضح فى منبسط النهر المتجمد . وامامه كانت تلوح معالم مبهمة لحدبة الخندق فى رأس الجسر مع رشاشاته والطاقم النائم ، على ما يبدو .وكان ثمة خندق ثان مماثل فى الجانب الآخر من السدة .

– تناولوا القنابل اليدوية ، واركضوا . . .

وركض الثلاثة والعشرون دفعة واحدة ، كما يركض لاعبو الكرة . ركضوا صامتين بكل قواهم . اتجه نصفهم نحو الخندق مباشرة ، والثلاثة عشر الآخرون انحرفوا يمينا نحو السدة . جاهد روتشين الا يتاخر وراى كيف تقفز اشباح طويلة فى الستر المحزمة عبر سدة السكة الحديد قفزات عالية .

استدار فى اثرها . وادرك ان خطأ قد وقع ، فانهم لن يلحقوا فى الوصول الى الخندق الثانى ، وان اشارة الانذار ستصدر . صدر انفجار خلفه ، وزعقت اصوات وحشية ، وتفجرت مرة بعد الاخرى قنابل يدوية . . . واحتل الخندق الاول . صعد السدة غير ملتفت يعب الهواء الجارح بفمه المفتوح . كان الرجال الثلاثة عشر امامه ينطلقون بوثبات جبارة . . . واقتربوا . . . واستقبلهم لهب الرشاش مثل فراشة مسعورة . واحس روتشين وكأن خفقة ريح خفقت على رأسه . وفكر فى نفسه «يا رب ، اصنع معجزة . ذلك يحدث . والا سنهلك . . .» ورأى الشاب ذا الرقبة الجرداء يلقى قنبلة يدوية دون ان ينحنى ، ووثب الثلاثة عشر كلهم الى الخندق احياء . ورأى اجسادا تتخبط وتلهث . رفع شخص ملتح فى كتافية ضابط جسمه الى الاعلى منتفضا ، وراح يطعن بسيفه فى غضب كل من يمسك به . اطلق روتشين النار ، وتهاوى الضابط الملتحى ، ولوى رأسه . وفى اللحظة التالية زحف آخر فى معطف من معاطف الضباط رافسا صارخا . امسكه روتشين ، فاطلق الضابط يديه ، واطبقهما على رقبته قائلا «وغد ، وغد !» وفجأة ارتخت اصابعه :

– روتشين ! . . .

اللعنة ، من هذا ؟ يبدو انه من قيادة ايفرت . لم يجب روتشين وضربه بمسدسه على صدغه .

واحتل هذا الخندق ايضا . وادار العمال الرشاشة . صفرت قاطرة وراء الدنيبر . ودب القطار المصفح مدمدما على الجسر ليحتل المحطة .

. . . .

كانت الشمس قد ارتفعت منذ وقت طويل ، وراحت تلهب بحرارتها . عبر القطار المصفح الجسر ثانية نافثا دخانا اسود ، حاملا الناس والسلاح الى المحطة المحتلة . شيعه الرجال من خنادقهم بالصياح . وسارت الامور سيرا حسنا . قبل وقت طويل عبر مشاة ماخنو جليد النهر كالنمل ، وزحفوا على الضفة الشديدة الانحدار ، واجتاحوا نقاط الشرطة ، وانتشروا فى الشوارع . وكانت الطلقات تتردد بلا فتور تارة على بعد وتارة على مقربة دانية .

– ساشكا ، اذهب الى المحطة ، واعثر على القائد العام ، وقل له اننا هنا منذ الخامسة صباحا ، تجمدنا ولم نأكل شيئا ، دعهم يرسلون من يحل محلنا .

قال روتشين ذلك لصاحب الرقبة الجرداء الذى كانت الخدوش الدامية تغطى وجهه الرجولى الفتى الامرد الا من شعيرات زغبية ملتفة . وكانت هذه الخدوش اثارا تركها عليه مسدد الرشاشة القوى ، وهو يفارق الحياة .

اندفع ساشكا خفيفا وهو يرتجف فى سترته الخفيفة طالعا الى مكان مكشوف رغم صفير الرصاص المتكرر فى الهواء . صاحوا به «ستُقتل ، يا احمق . . . ساشكا ، اجلب لنا سيكائر . . .» وعاد سريعا ، وقرفص امام الخندق والقى علبة سيكائر الى رفاقه ، وقدم لروتشين مذكرة عليها ختم ما زال طريا : «انتظروا . سأرسل . ماخنو» .

وقال لروتشين :

– تحية لك من ماروسيا .

فغر فاديم بيتروفيتش فمه من المفاجأة ، ورمق ساشكا المقرفص بنظرة خاطفة من مكانه فى الخندق .

– انها فتاة مليحة ، يا رفيق روتشين . اسعدك الحظ . . .

– اين رأيتها ؟

– انها نشيطة فى المحطة . . . لولاها لما وصلت الى ماخنو . ما اكثر الناس هناك ، يا فتيان ! لا يلحقون فى توزيع الاسلحة . يكاترينوسلاف لنا .

. . . .

اتخذ ماخنو المحطة مقرا لقيادته . جلس الاتمان فى صالة الدرجتين الاولى والثانية وراء منصة المشرب بنخيلها الاصطناعى . وازاحوا كل ما عليها من اوان ، فوقعت على الارض ، واخذ ماخنو يكتب الاوامر . وكان كاريتنيك يدمغها بالختم . وكان من يتسلمها ينطلق بها فى الحال . وكان رجال منفعلون لا يفتأون يدخلون يطلبون العتاد والتعزيزات ومطابخ الميدان والسيكائر والخبز ورجال الاسعاف . . . ذات مرة جاء آمر وحدة استولى عليه الغيظ لانه شق طريقه الى البنك التجارى الصناعى ، ولم يبق بينه وبين

بابه غير خطوتين ، الا ان النقص في العتاد اجبره على القعود بعض الارض من التكدر . تقدم من الاتمان ، وامسك بقنبلتين معلقتين في حزامه ، وخبطهما على المنصة للتخويف ، وقال :

— ماذا تفعل هنا ، تصلي للرب ؟ قدم العتاد لنا ، يا كذا ويا كيت ! . .

وكان ماختو لا يعطي الاوامر الا لمن يطالب بها . ارتجف فكاه ليثير الخوف ، وتظاهر بانه صاحب الامر والنهي . ولكنه في واقع الامر كان مشوش الفكر كليا . تقبّب ورقة ، ورسم صلبانا على خارطة المدينة ، في الاماكن التي هجمت او تراجعت فيها القوات . ليس في هذه المدينة الملعونة مجال للتحرك ، والشوارع كلها ضيقة ، والعدو في الاعلى والاسفل وعلى الجانبين . . . حملق ماختو في الخارطة ولم ير لا هذه الشوارع ولا تلك البيوت . وفقد القابليـة على تعيين الاتجاه . وصارت اللعبة خبط العشواء . فلا عجب في انـه كان يعتبر المدن اشياء ضارة ، آفة جميع الآفات .

وفضلا عن ذلك كان يقلقه الغموض في علاقته بمارتينينكو . اكد تشوغاي ان مارتينينكو لا يريد ان يطلق النار على جماعته . وقد يكون تشوغاي قد التقى به هذه الليلة ، او انهما اتفقا من قبل . حقا ان كل شيء هادئ في مستودع المدفعية ، ونصف طاقم المدفعية قد هرب ومارتينينكو نفسه قد سكر غاية السكر من دقة الموقف دون شـك . لم يكن في المحطـة غير مدفعين من مستودعه وقد تركهما البيتليوريون . وسُرّ ماختو الذي لم يستول على مدافع قط ، وطلب ان يخرجا الى الجادة ، وجذب بنفسه حبل الاطلاق ، وطلعت على وجهه ابتسامة متغضنة حين هدر المدفع — حتى الناس اقعوا على الارض — وانطلقت القذيفة صافرة فوق اشجار الحور .

واتخذت اللجنة العسكرية الثورية مقرا لها في ساحة ملحقة بالمحطة . وكانت النيران قد اوقدت هناك ، وقف حولها العمال الذين جاءوا من مختلف مناطق المدينة . وكان اعضاء اللجنة العسكرية الثورية يعرفون الجميع تقريبا بوجوههم والمنطقة التي جاءوا منها . نادوا العمال باسماء المصانع والورش — عمال التعدين ، والطحانين والدباغين وعمال النسيج — فترك هؤلاء النيران ، واصطفوا كل

خمسين رجلا او نحوهم على حدة . واذا كان بينهم شخص مناسب عينوه آمرا واذا لم يكن تسلم احد اعضاء اللجنة قيادتهم . وزعوا البنادق ، وفي نفس المكان عرضوا على غير العارفين بها كيفيـة استخدامها . كانت تستند للفصيلة مهمة قتالية ويرفع الآمــر البندقية ويهزها :

— الى الامام ، يا رفاق . . .

ويرفع العمال ايضا هذه القطعة الثمينة التي وقعت في ايديهم اخيرا :

— في سبيل سلطة السوفييتات ! . . .

وسارت الفصائل نحو جادة يكاترينينسكي للقتال .

. . . .

شق روتشين طريقه نحو القائد العام وابلغه بالتفصيل عن احتلال التعزيزات عند رأس الجسر ، وعن الخسائر في الرجال : اربعة جرحى وواحد قتل تحت الاقدام . سلط ماختو ، وهو يقضم القلم ، نظرة قاسية الى حد العجرفة وشبه بلهاء على وجه روتشين البني الناحل .

— حسنا ، ستكافأ بساعة فضية — قال ماختو ذلك ، ودفع خارطة المدينة الموضوعة امامه الى حافة المنصة — انظر الى هنا — وخط بالقلم خطا بين الصلبان — الهجوم لا يتقدم . ونحـــن وصلنا الى هنا — شارع ، زقاق ملتو ، بولفار . . وابعد مـن ذلك ، الصلبان تبدأ بالانعطاف . . . اريد ان اعرف لماذا نراوح هكذا ، وكاننا غطسنا في روث ؟ — صرخ بصوت حاد كصوت طائر — اذهب واعرف جلية الامر — وخربش على قطعة من الورق بعض الكلمات ، ونفخ كاريتنيك على الختم ، ومد الختم من تحت مرفقه ، ودمغ به الامضاء — يمكنك ان ترمي الجبنـــاء . اعطيك الحق في ذلك . . .

خرج روتشين الى الساحة حيث فصائل العمال ما تزال تصطف في صفوف غير مستقيمة ، وترتفع الاصوات بالاوامر . وهتافات النصر . دار راسه من الدخان المتصاعد من النيران ، وكان على بعضها قصاع تطبخ فيها العصيدة ، فطاف في ذاكرته قدر الحساء الحديدي الذي كانت ماروسيا تقفز من وراء المائدة وتختطفه من

يدى امها ، واسنان ماروسيا وهى تقضم قطعة الخبز الشذى .

وخرج وراء روتشين ، ساشكا وشخصان آخران يحملون البنادق . كان احد الشخصين مجدر الوجه مرحا ضخما كالقدر الكبير يدعى تشيج ، وكان الثانى فتى جميلا له وجه قاس وعين مخدشة وقد انزل ظليلة طاقيته السوداء على حاجبيه ، وكان يبتسم طوال الوقت . انه عامل سمكرة يسمى نفسه روبرت . واضطروا الى ان ينسلوا انسلالا فى جادة يكاترينينسكى محتمين وراء بروزات البيوت ، منتقلين من مدخل الى مدخل . وكان الرصاص ما يزال يلعلع . وكان البولفار خاليا ، ولكن الوجوه الفضولية كانت تلوح وتختفى وراء الحشايا التى تغطى النوافذ فى كل مكان . وعلى مدخل محل للمصوغات جلس رجل يرتدى فروة خروف ، دفع وجهه الصغير الذى انحله البؤس الى الوراء وكانما رفعه مع لحيته الشائبة نحو السماء القديمة هامسا : ما هذا ، يا ربى ؟

سال تشيج :

– ماذا تفعل هنا ؟

اجاب الرجل مكروبا :

– ماذا افعل ؟ انتظر ان يقتلونى .

– اذهب الى بيتك .

– ولماذا اذهب الى بيتى ؟ سيقول السيد بابريكاكى ايهما اغلى : حياتك التعيسة ام محلى ؟ . . . اذن ، فالافضل ان اموت بالقرب من المحل . . . .

وما كادوا ينصرفون حتى اخرج الحارس لحيته من بروز الباب :

– يا شباب ، ابعد من هنا يقتلون الناس . . .

وحين وصلوا الى المنعطف اصابت صلية رشاشة تجصيص الحائط فوق رؤوسهم . استداروا الى شارع جانبى وظهورهم محنية ، وضغطوا اجسامهم على تجويف بوابة . ونظروا لاهثى الانفاس وراوا على الرصيف عند مفترق الطرق سبع جثث وبنادق مرمية . فلا بد ان فصيلة من العمال قد وقعت هنا تحت النار . ضحك روبرت بمرارة وقال مقطعا الكلمات فى غيظ :

– انهم يطلقون النار من علية فندق «استوريا» . اقترح القضاء على هذه البؤرة .

وبدا الاقتراح معقولا . كان فندق «استوريا» الذى كان روتشين قد نزل فيه شهرين واقعا فى الجانب الآخر من البولفار ، وكان لا بد من الوقوع تحت النار اذا اريد الوصول اليه . ضغط روتشين رفاقه على البوابة بذراعيه المبسوطتين :

– التسلل واحدا بعد واحد . . وعلى فترات وبسرعة ، ولا حاجة للمخاطرة ابدا .

انحنى روتشين حتى كاد يمس الارض ، وركض الى المفرق ، واستلقى وراء جثة . انطلقت طلقتان من علية الفندق . وثب ، واندفع فى خط متعرج كالحية نحو اشجار الحور فى منتصف البولفار . لعلعت النار متلاحقة من العلية ، ولكن بعد فوات الاوان ، بعد ان وصل الىالمنطقة «الميتة» . اتكا على جذع شجرة حور وخلع قبعته ومسح بها وجهه ، وعبّ الهواء وصاح :

– ساشكا ، اركض . . .

واضطروا الى طرق باب الفندق الزجاجى بالقنابل اليدوية حتى ازاح شخص من الداخل الصوان ، وفتح الباب . دفع روبرت البواب الضخم الذى صاح فيه «الى اين ، ايها الشيطان ؟ . . .» وانطلق وفى يده قنبلة يدوية . كان بهو الفندق غاصا بالمقيمين الذين نزلوا من جميع الطوابق . ولكنهم حين راوا الشاب الممشوق الحلو الملامح وفى يده قنبلة يدوية ، ووراءه ثلاثة آخرون مسلحون راحوا يصعدون السلم صامتين لاهثين منضغطين على السلالم . عرف روتشين الكثيرين منهم وهو يصعد الدرج . كما انهم عرفوه ايضا ، ولو كان من الممكن ان تقتل النظرات لكان قد وقع صريعا مائة مرة من نظراتهم . ولكن واحدا منهم فقط ، وهو نفس ذلك الرجل السمح صاحب الاطيان الذى ينوء بثلاث بنات غير متزوجات ، كان خارجا من غرفته متاخرا بعد ان تناول وجبة من الطعام البارد ، فراى روتشين ، فكاد ياخذه بالاحضان نافثا عليه رائحة نبيذ «الماديرا» :

– عزيزى ، فاديم بيتروفيتش . هذا انت ، بينما بناتى يثرثرن زاعمات ان بعض البلاشفة اقتحموا . . .

ولكن الكلمات جمدت على شفتيه حين راى ساشكا الضخم والخدوش الدامية على خديه ، والسمكرى الذى يغطى عينا واحدة بظليلة طاقيته ، وتشيج البادى المرح المتورد ولو كان مظهره لا ينم كثيرا عن تلطف طبقى .

كان السمكرى يعرف جميع مداخل الفندق ومخارجه . وحين صعد الى الطابق الثالث اتجه الى سلم جانبى ارتقاه الى العلية ، كان الباب الحديدى الى هنا مواربا . وهمس السمكرى «هم هنا !» وفتح الباب على سعته ، واندفع بعرامة شديدة حتى كانه كان ينتظر تلك اللحظة طول حياته . وحين وصل روتشين الى نافذة الروشن منحنيا فى الظلام الشاحب تحت روافد السقف ، كان روبرت يغرز حربته برجل فى معطف فرائى منبطحا بالقرب من رشاشة :

— كنت اقول انه صاحب الفندق نفسه !

عندما نزلوا من العلية اضطرب الفتى فجأة ، واصطكت اسنانه ، وجلس على درجة ، وغطى وجهه بطاقيته . اخذ ساشكا بندقيته منه ، وقال بغلظة : «لا تتصور اننا سننتظرك !» وقال تشيج له «آه ، يا لك ، وتسمى نفسك روبرت . . .» . قفز وانتزع بندقيته من ساشكا ، وركض نازلا الى الاسفل قافزا الدرجات . تركه فاديم بيتروفيتش مع تشيج لحراسة الفندق . وارسل تذكرة مع ساشكا الى مقر القيادة ليرسلوا فصيلة الى «استوريا» وعاد وحده الى البولفار .

كان النهار فى اواخره . وقد احتلت فصائل العمال البريد والتلغراف ودوما المدينة والخزانة . وقد طاف روتشين فى كل هذه الاماكن ، وارسل من كل منها مراسلين الى مقر القيادة . وكانت جميع الدلائل تشير الى ان القتال قد طال . واستنفد مشاة ماخنو الدفعة الاولى من الحماس ، وبداوا يضجرون من القتال فى ظروف المدينة . . . فلو كان القتال فى السهب لكانوا الآن قد قسموا الغنائم منذ وقت طويل وطبخوا الطعام فى القدور ، وتحلقوا ، ليتفرجوا على الراقصين المتحمسين يرقصون رقصة «الكوباك» الاوكرانية باحذية جيدة انتزعوها من اقدام القتلى . وكان البيتليوريون ، من جانبهم ، قد افاقوا من حالة الارتباك ، وبعد

ان تراجعوا الى منتصف الجادة تخندقوا ، واخذوا فى بعض الاماكن ينتقلون الى الهجوم المضاد .

لم يعد روتشين الى المحطة الا عند هبوط الظلام . الا انه لم يجد ماخنو هناك ، فقد انتقل مقر قيادته الى فندق «استوريا» . وذهب روتشين الى هناك . وكان روتشين لم يصب طعاما منذ يوم امس ، ولم يشرب غير قدح من الماء . وكانت قدماه متخدرتين من التعب ، والمعطف يثقل على كتفيه كالرصاص .

لم يسمحوا له بالدخول الى الفندق . كان باب الفندق محروسا برشاشتين ، وكان فرسان ماخنو يتجولون على الرصيف هازين بمهاميزهم وشعورهم طويلة مسبلة على جباههم على الموضة الشائعة فى غولاى — بوله . وكان احدهم قد القى معطفا من فراء الظربان فوق سترته الفروسية المبطنة وقاية من الاصابة بالبرد ، ولف آخر على عنقه لفاحا من فراء السمور . طلب الفارسان من روتشين ابراز هويته ، ولكن تبين ان كليهما لا يعرف القراءة ، وهددا بانهما سيقتلانه فى مكانه اذا اصر على الدخول . قال لهما روتشين واهن الصوت «اذهبا الى الشيطان ، انتما واتمانكما» وعاد الى المحطة ثانية .

وفى المحطة دخل روتشين المشرب المحطم نصف المظلم حيث كانت التماعات النيران تسقط من خلال النوافذ العالية ، واستلقى على اريكة من خشب البلوط ، وغفا فى الحال ، رغم الصيحات وصفير القاطرات والطلقات . ولكن نُتفا مشوشة من احداث اليوم ظلت تنفذ اليه من خلال الارهاق الشديد . . . انه قضى يومه بنزاهة . . . لا ، ليس تماما ، على ما يظن . . . لماذا ضرب ذلك الرجل على صدغه ؟ مع انه قد استسلم . . . لكى يغطى على آثار الجريمة ؟ نعم ، نعم ، نعم . . . وتراءت له اوراق اللعب على المنضدة ، واقداح النبيذ المسخن. . . .والوصولى الكابتن فيدنيابن — القتيل — باسنانه المتآكلة ، وفمه المبلل مثل عجيزة دجاجة ، المضموم وكانه متهيى* لقبلة لقائد الجيش الجنرال ايفرت ، الجالس الى لعبة ورق . . . اوه ، اللعنة عليه . . كان محقا فى ضربه . . . .

تصارع النوم ودقات قلبه المرتاعة . فتح روتشين عينيه ، وراى وجها رصينا فاتنا يضيؤه النور الاحمر المتسلل من النافذة .

زفر واستيقظ . كانت ماروسيا تجلس الى جانبه ، وهى تمسك على ركبتيها قدحا من الماء المغلى وقطعة خبز . وقالت :

– خذ ، اشرب وكل .

. . . .

فى تلك الليلة تسلل تشوغاى ورئيس اللجنة العسكرية الثورية الى مستودع المدفعية ، الذى لم يبق فى حراسته الا الرجال المتعاطفون مع السلطة السوفييتية ، وايقظا مارتينينكو ، وقال تشوغاى له ما يلى :

– جئنا لتوبيخك ، يا رفيق ، فانك تتصرف اسوأ تصرف . . . اما ان تنحاز الى بتليورا بشكل صريح ، ولكن لن نتركك حيا ، واما ان تهيىء المدافع للانطلاق . . .

– هذا ممكن . . . فى الصباح سأرسل لكم المدافع . . .

– ليس فى الصباح ، بل الآن . . . آخ ، مارتينينكو ستشبع من النوم فى الآخرة . . .

– حسنا ، فليكن الآن . . .

وفى اليوم التالى كانت جميع نوافذ يكاترينوسلاف تهتز من قصف المدافع . وفى جادة يكاترينينسكى تطايرت فى الهواء البلاطات واغصان الحور ومزق اكشاك البولفار . وهجمت فصائل العمال وفوج الفلاحين ومشاة ماخنو على البيتليوريين وقد حمستهم هذه الموسيقى ، ودفعوهم الى منتصف الطريق الى المرتفع . عندئذ وفى وجه مخاطر كبيرة شق مندوبون عن مختلف المنظمات الحزبية واللاحزبية وكذلك بابريكاكى الصغير طريقهم الى اللجنة العسكرية حاملين الاعلام البيضاء ، وعرضوا الوساطة لاحلال الهدنة فى اسرع وقت ممكن ، وانهاء الحرب الاهلية .

كان ميرون ايفانوفيتش يجلس الى منضدة فى بهو «استوريا» مكور الكتفين فى معطف صغير تقطعت ازراره وكيبيه قذرة ، وقد قال للموفدين ، وهو يمضغ خبزا يابسا وفمه خال من اى قطرة من اللعاب :

– ليس من مصلحتنا نحن ان نهدم المدينة . وانا اقترح انذارا نهائيا : على جميع الوحدات البيتليورية ان تلقى السلاح فى مدة لا تتجاوز الساعة الثالثة نهارا ، وان تكف الشراذم المعادية

للثورة عن اطلاق النار من عليات المبانى . وفى حالة الامتناع ستقوم مدفعيتنا فى الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة بفتح نيرانها على المدينة بخطوط متقاطعة .

وكان الرئيس يتحدث ببطء ، ويمضغ ببطء اشد ، ووجهه مسود من السخام . واصيب الموفدون باليأس . وتشاوروا طويلا هامسين ، وارادوا ان يجادلوا . ولكن فى تلك اللحظة نزل الدرج المرمرى الى البهو اناس صاخبون فى ملابس زاهية ومتنوعة يتقدمهم شخصان يحملان فى ايديهما رشاشتين من طراز لويس ، ووراءهما دوزينة من شبان ارتسمت على وجوههم الوقاحة ، وكل واحد مزود بسلاح ، وفى الوسط رجل طويل الشعر ذو عينين لعينتين .

اختطف الموفدون ورقة الانذار النهائى من يدى الرئيس ، وهرعوا خارجين الى البولفار فى الهواء الطلق تحت الرصاص المتطاير .

رفضت القيادة البتليورية الانذار النهائى . وفى الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة استشاط الاتمان ماخنو غيظا ودق بالمسدس على الطاولة التى كان المجلس العسكرى الثورى يجتمع حولها وطلب ان تقصف المدينة بلا رحمة وبخطوط متقاطعة . واشفق على المدينة اعضاء المجلس العسكرى الثورى والعمال الذين ولدوا وعملوا فيها . ومع ذلك فقد كان من المتعذر اظهار الضعف ، فتقرر تخويف البرجوازيين . وهدرت مدافع مارتينينكو الاربعة عشر بعد تاخير . وتطايرت هنا وهناك قطع الآجر والتجصيص من جدران البيوت الكبيرة المرتفعة كمدرج . وتراكض ممثلو اللجان كالفئران من البتليوريين الى المجلس العسكرى الثورى . ولم تنقطع هجمات فصائل العمال . واخذ البتليوريون يتراجعون فى نهائية البولفار الى التل .

وفى ليلة اليوم الرابع للانتفاضة اعلن المجلس العسكرى الثورى السلطة السوفييتية فى المدينة .

. . . .

قضى المجلس العسكرى الثورى الليلة كلها فى تاليف الحكومة . وكما توقع ميرون ايفانوفيتش فى تلك المرة فى العربة

كون الفوضويون والاشتراكيون الثوريون اليساريون تكتلا مع الاتمان ماخنو ، وتحت حمايته اقتحموا الاجتماع ، وصاروا يتصارعون بضراوة على كل منصب . ولسبب ما كان جميع الاشتراكيين الثوريين قصار القامة ، وان كانوا اقوياء البنيان يبدو عليهم الارتياح بعد نوم جيد . وكان النقاش معهم صعبا جدا .

كان كل واحد منهم يثب وعلى فمه ابتسامة طرية ويبادر بمخاطبة الاتمان قائلا بانه ، اى ماخنو ، زعيم حقيقى واستراتيجى عظيم ، ونار تُطهر كل شىء ، ومكنس من معدن حديدى . . .اما فتيانه فغاية فى الروعة وبواسل متفانون !

وكان ماخنو يزم شفتيه الشاحبتين ويصغى مكتفيا بهز وجهه الذى اضر به السكر . رفع اشتراكى ثورى متصلب صوته بقوة حتى نفذ من خلال الابواب التى تفتح وتغلق الى الرواق حيث ازدحم رجال ماخنو وجمهور من شتى الانواع لا احد يعرف كيف نفذوا الى الفندق .

– ايها الرفاق البلاشفة عم نتجادل معكم ؟ انتم الى جانب السوفييتات ، ونحن الى جانب السوفييتات . . . واختلافنا تكتيكى محض . نحن نرث جهازا برجوازيا لادارة المدينة . وانتم تريدون ان تجعلوه سوفييتيا خلال يوم واحد . ونحن نعلم ان جهاز المدينة لن يعمل مع الشيوعيين . والتخريب واقع لا محالة . والمجاعة والخراب محتومان . بينما هم يرغبون فى العمل معنا . وهناك قرار لدوما المدينة . ولهذا السبب نؤيد ترشيح الرفيق فولين لمنصب مفوض التموين . واقترح غلق باب النقاش ، واجراء التصويت . . .

كان الفوضويون حتى تلك اللحظة يتصرفون بغموض بل وبازدراء فاذا بهم قد تصرفوا تصرفا مفاجئا جعل الاتمان يدير رقبته الهزيلة .

ورشح ممثلهم ، وهو طالب فى طربوش قانى الحمرة ، بابريكاكى الابن لمنصب المفوض .

– سننصر عليه بكل الوسائل التى نملكها . . . ان بابريكاكى الابن هو شريكنا فى المعتقد ، فوضوى متعلم ، وخبير بالمالية ، وسيكون فى ايدينا سلاحا طيعا مفيدا للشعب الثائر

الحر . . . اقترح عدم اجراء النقاش ، والتصويت برفع الايدى فقط .

كانت ماروسيا وفاديم بيتروفيتش يجلسان عند الحائط على مقعد واحد . تهيجت ماروسيا وراحت تعصر يديها فى حنق ، وتنهض لتهتف بصوت متكسر عال : «هذا عار !» او «اين كنتم حينما كنا نحارب ؟» وعادت الى جلستها ووجنتاها متوهجتان . كانت لا تملك غير صوت استشارى .

وكانت قد نحفت وتلوحت بشرتها خلال تلك الايام . وكانت تشعر بالحر وهى فى معطفها المفتوح القصير من فراء الغنم ، وشعرها مسترسل . وفى الفترات بين خطاب وآخر كانت تحدث روتشين بعجالة عن تنقلاتها . . . عملت فى البداية فى لجنة تموين الفصائل بالخبز والماء المغلى . . . ثم نقلت الى فصيلة الاسعاف ، واخيرا عينت مراسلة . . . وكانت تنطلق ضاربة فى عرض المدينة وطولها . . . وتعرضت للرصاص «مائة مرة» وعرضت لروتشين ثقوبا فى حاشية التنورة . . .

– ولو لم اكن خفيفة الحركة لكنت فى عداد الموتى . كنت اسمع من ينادينى ، فالتفت فاذا بقنبلة تنفجر فى البقعة التى كنت واقفة عليها قبل لحظة ، بينما انا مختفية وراء شجرة حور . . . وتملكنى الذعر حتى اننى احس بارتجاف ركبتى حتى الآن .

وكانت حيوية ماروسيا يمكن ان تكفى لعشر انتفاضات وبينما كانت تتحدث ظهر فى الباب وجه ساشكو المخدش . وشق طريقه بصعوبة ، واوما لماروسيا باصبعه . فهرعت واسر هو لها بشىء . فبسطت ماروسيا ذراعيها .

هدر تشوغاى معترضا على المرشحين :

– ايها الرفاق ، نحن لم نجتمع للجدل والنقاش ولم نجتمع لتقديم البراهين ، بل اجتمعنا لنحكم ، والحكم لمن لديه القوة . . .

تعذر على ماروسيا الانتظار ، فهرعت نحو الطاولة ، واعلنت :

– فى المدينة يعم نهب شامل . . . فاستمعوا الى الرفاق . . . هم يمنعونهم من الدخول الى هنا . . . وقد لووا ايديهم . . .

عندئذ ترامى من وراء الباب ضجيج ولغط واصوات زاعقة ،

واقتحم الغرفة ساشكو وبعض العمال ببنادقهم . وتكلموا دفعة واحدة :

– ما هذا الامر ؟ لقد بثت الشرطة فى الفندق . من الخير ان تذهبوا . ان تلقوا نظرة . . . والبولفار كله محاط . وفتيان ماخنو يقتحمون المخازن . . . وينقلون البضائع بالعربات .

مد ماخنو شفتيه ، وكأنه يهم بقضم شيء . . . ونهض من وراء الطاولة ، وخرج . تراجع فتيان ماخنو فى الممر والبهو حين راوا الاتمان يكشر عن اسنانه الصفراء كاسنان كلب هرم . ولم يكن مضطرا الى ان يذهب ابعد من ذلك . فقد راى اشباحا تروح وتجئ فى الجانب الآخر من الجادة عند نوافذ مخزن كبير . وما كاد يغادر باب الفندق حتى ظهر لوفكا على الرصيف .

سال لوفكا وقد ترنح :

– ما المسالة ، ما سبب الهبهبة ؟

صاح ماخنو :

– اين كنت ، ايها الرذيل ؟

– اين كنت . . . اثلمت حد سيفى . . . ستة وثلاثين قتلت بهذه اليد وحدها . . . ستة وثلاثين . . .

– حافظ على النظام فى المدينة – زعق ماخنو ، ودفع لوفكا من صدره بقوة ، وعبر البولفار راكضا نحو المخزن وتبعه لوفكا وبعض الحراس . ولكن الذين كانوا هناك حدسوا ان عليهم ان يتفرقوا ، فاختفت الاشباح عند النوافذ . ولم يبق الا عدة اشخاص كانوا يركضون على مسافة بعيدة ومعهم صرر ضـــاربين الارض بخطى ثقيلة . ومع ذلك فقد باغت الحرس احد فتيان الاتمان فى المخزن ، وهو ذو شاربين كبيرين ، واخرجوه من المخزن . فدمدم متباكيا بانه لم يات الى هنـــا الا ليرى كيف شرب البرجوازيون الملاعين دم الشعب . حدق ماخنو فيه وكيانه يرتجف . وحين جاء فضوليون آخرون متراكضين من ناحية الفندق هز يده فى وجه الرجل .

– هذا عميل معروف للمعادين للثورة . . . لن ندعك تمضى فى عملك القذر بعد الآن . . . اقتلوه واكفونا شره . . .

اعول ذو الشاربين وسلا «لا تفعلو . . .» جـــــرد لوفكا سيفه ، وجار ، ورفع سيفه عاليا وهوى به على عنقه بلهات . . .

18*

وقال متباهيا ، وتراجع :

– سبعة وثلاثين .

اخذ ماخنو يضرب بقدمه فى حنق جنونى الجسد المرتعش المخضب ببركة من الدماء .

– سيكون ذلك عبرة لكل انســــان . . . فوضى النهب قد انتهت . . . – واستدار بحدة نحو الجمهور الذى ارتد عنه ، وقال – يمكنكم ان تعودوا الى منازلكم بهدوء .

. . . .

غفت ماروسيـــا على المقعد فجــأة ، واسترخت على كتف روتشين ، وارتخى راسها بشعره المرسل على صدره شيئا فشيئا . كانت الساعة قد تجاوزت السادسة صباحا . وكان خادم الفندق العجوز الجهم الذى استبدل بدلته الفراك بسترة منزلية مستهلكة ذات جديلتين بمناسبة اقامة السلطة السوفييتية ، يقدم الشاى وقطعا كبيرة من الخبز . وكان قد تم تشكيل الحكومة ، الا ان قضايا ملحة كثيرة بقيت معلقة . فمثلا قدم عمال السكك الحديديـــة منذ يوم امس استفسارا يسالون فيه عمن سيدفع لهم اجورهم وباية مقادير ؟ فاقترح ماخنو الذى ايده الفوضويون هذه الصيغة : ليحدد العمال انفسهم اثمان التذاكر ، ويجمعوا النقود بانفسهم ، ويدفعوا الاجور لانفسهم . . .

ولكن ما كاد النقاش يشتد حتى اهتز فجأة زجاج النوافذ فى القاعة التى تلون هواؤها بلون دخان السيكائر الازرق . وترامى صوت انفجار اصـــم . وبربر مارتينينكو الذى كان نائمـــا على الاريكة . واهتز الزجاج ثانية فاستفاق مارتينينكو : «اللعنــــــة عليهم ، حماقة . . .» واخذ يضرب سدارته على رأســه الحليق . وتناهت هبدة ثالثة ثقيلة . انزل تشوغاى وميرون ايفانوفيتش قطعتى الخبز اللتين كانتا فى يديهما ، وتبادلا النظرات فى قلق . واقتحم الباب لوفكا واحد الفرسان يهز رأســه الحاسر كالدب . وقال الفارس ودفع يده فوق اذنه :

– هلكنا . هلكت كتيبة الفرسان كلها . . .

صاح لوفكا هازا خديه :

– قرب ديبفكا ! وانت تقضى الوقت فى الكلام ، يا اتمان !.. العقيد ساموكيش يزحف بست كتائب ... ويقصف المحطة بالمدفعية الثقيلة ...

. . . .

راقب سكان جادة يكاترينينسكى رحيل جيش ماخنو من جميع النوافذ بتشف وعلى المكشوف ودون حاجة الى الاختفاء وراء الحشايا كما فعلوا من قبل . انطلق الفرسان ضاربين خيولهم بالمقارع يمينا وشمالا . ورفعت الريح فوق اكتافهم معاطفهم وعباءاتهم القوزاقية وستر الفرسان القصيرة والاغطية الحريرية ... وكانت الخيول المثقلة بالعدول تتعثر على الرصيف المغلف بطبقة من الجمد ، ويتدحرج الحصان وفارسه والغنيمة هالكة تحت السنانك . . فكان الواقفون فى النوافذ يصيحون «اها ! . . واحد آخر !» وكانت العجلات تعدو محملة بالاشياء المنهوبة . وعربات الرشاشات ذات الخيول الاربعة تنطلق مكتسحة كل شىء فى طريقها بسرعة تقدح الشرر من تحت العجلات . وكان المشاة الذين لم يستطيعوا الصعود الى العربات يركضون وراءها .

وكان كل ذلك يصعّد منطلقا فى الجادة مصحوبا بعويل وحشى وهدير وقرقعة ، متجها الى منطقة التلال من المدينة ، لان العقيد ساموكيش قد احتل جسر السكة الحديد ومحطة القطار . وقيل ان الاتمان ماخنو الذى كان قد خرج راكضا من المجلس العسكرى الثورى طبطب بقدميه فى غيظ شديد عاجز ، بكى ، والقى نفسه فى عربة الرشاشة التى جلبها لوفكا له الى الفندق ، وغطى رأسه بمعطفه من فراء الغنم خجلا او حتى لا يعرفه احد ، وخرج من المدينة اللعينة الى جهة غير معلومة .

وبينما كان جيش الاتمان هاربا من المدينة دون ان يطلق رصاصة واحدة اصطدم بغتة بنقاط الحراسة الامامية التابعة للبتليوريين ، فاختلطت صفوفه من الذعر ، واستدار بخيوله نحو الدنيبر ، الى هلاك محقق . كان الشاطئ* فى تلك الناحية شديد الانحدار . حطم رجال ماخنو الاجمات والاسيجة دائرين من العربات ، وانزلقوا على جليد النهر . ولكن جليد النهر كان رقيقا ، فاخذ يلتوى ويتصدع واخذ الرجال والخيول والعربات يتخبطون

فى الماء الاسود وسط كتل الجليد . ولم يخرج الى الضفة اليسرى الا جزء صغير من جيش ماخنو ، فلول ضئيلة .

فى تلك الليلة طلب عمال كثيرون من افراد الفصائل العودة الى بيوتهم ليتدفأوا ، ويغيروا احذيتهم ويحتسوا شيئا ساخنا . ولم يبق تحت السلاح غير فصائل الدورية ومحاربى فوج الفلاحين الذين لم يكن لهم مكان يذهبون اليه . فاضطر هذا الفوج ان يتلقى كل الضربة التى وجهتها وحدات العقيد ساموكيش البتليورية فى الظروف غير المتساوية . وحوصر الفوج بالقرب من ساحة محطة القطار ، وابيد بكامله تقريبا فى معركة بالحراب ، ولم يستطع الا نفر قليل ان ينسلوا ويهربوا من خلال الافنية الخلفية ، ويعودوا الى قراهم ، ويحكوا عن الموقعة الرهيبة التى قتل فيها ثلثمائة من الفتيان الطيبين الذين جاءوا الى يكاترينوسلاف ليقيموا السلطة السوفييتية .

واسرع ميرون ايفانوفيتش وتشوغاى عضوا المجلس العسكرى الثورى ليجمعا فصائل العمال والدوريات . ولم يكونا يؤملان الاحتفاظ بالمدينة ، بل كانت مهمتهما اتاحة الفرصة لجميع الذين اشتركوا فى الانتفاضة بالانسلال عبر جسر السابلة الى الضفة اليسرى من النهر . واختفت الفصائل المجموعة وراء زوايا البيوت ، والحجارة المقلوبة والمتاريس تطلق نيران الرشاشات على البتليوريين المهاجمين . ومن كل الانحاء تراكض مئات العمال مع زوجاتهم واطفالهم الى الجسر وعبره ... وكان بعضهم يحمل فى يديه متاعا هزيلا كان من الممكن ان يتخلى عنه دون اسف ... وكانت الطلقات تصوب عليهم من السطوح ومن الاسفل ، من الشاطئ* .

كان آخر من تراجعوا تشوغاى وميرون ايفانوفيتش وروتشين وماروسيا وساشكا وتشيج وعشرة رفاق آخرين . تراكضوا من زاوية الى اخرى ، ومن مكمن الى آخر ساحبين رشاشة . وكانت قبعات رجال ساموكيش الرمادية تظهر بين الحين والآخر غير بعيد عن مداخل البيوت . وبقى اصعب عمل ، وهو النزول الى الجسر حيث لم تكن توجد اية حماية غير الجثث والصرر المتناثرة ... ادار تشوغاى الرشاشة واستلقى وراء درعها مبقيا ساشكو بالقرب

منه ، وصاح بالآخرين «اركضوا خفاقا . . .» وركضوا جميعا تحت لعلعة الرشاشة التي بدت وكان ماسورتها ستذوب من حدة النار .

تعثرت ماروسيا في وسط الجسر ، وسارت بتثاقل وبلا ثقة . . . لحق روتشين بها ، واسندها . نظرت اليه بدهشة تريد ان تقول شيئا ، ولكنها اكتفت بالنظر اليه فقط . تعقد روتشين نصف قعود ، وحملها في يديه كما يحمل الطفل . كانت ماروسيا تضغط جسمه عليه اكثر فاكثر . وها هي نهاية الجسر ، واذا بفاديم بيتروفيتش يحس وكان عصا حديدية تصيب فخذه . جاهد لكي يبقى على قدميه حتى لا يسقط ماروسيا من يديه ولا يصيبها باذى . جاء تشوغاى راكضا من الخلف . فقال له روتشين «ساتركها تسقط . . امسكها . . .» وفي الحال وقعت القبعة من على راسه ، وبدات الدنيا تغيم في عينيه . وكان ما يزال يسمع صوت تشوغاى :

– ساشكو ، لا يجوز تركه . . . .

١٦

لم تمثل مسرحية «اللصوص» الا في شباط ، اثناء فترة استراحة قصيرة نالها فوج كاتشالين . وكانت قد تخلفت في الماضي المسيرات الطويلة في الصقيع والزوابع الثلجية ، حين كانوا لا يرون امامهم ، بدلا من المبيت الدافىء ، غير الشفق الكئيب تحت السحب ، ولا يجدون في السهوب الثلجية جذامات من الحطب يشعلون النار بها ليدفئوا اجسادهم المتجمدة ، كما تخلفت في الماضي المعارك الطاحنة ، والانذارات الصباحية ، والمناوشات القصيرة الضارية مع القوزاق . كان مامونتوف مع فلول افواجه الممزقة بعيدا وراء الدون . فقد تحلل جيشه . ولم يعد موضع ثقة . لقد ضيع عبثا عشرات الالوف – زبدة قوات الدون – في ثلاث هجمات على تساريتسين .

بعد ان احتل رجال كاتشالين قرية قوزاقية كبيرة استسلمت دون قتال شعروا بالفرح ، وشبعوا ونالوا غايتهم من النوم في

دفء . والربيع على الابواب ، ولربما ستنتهي هذه الحرب الطويلة بحلوله .

انهكت داشا مسيرة متعبة استغرقت شهرا ونصف شهر ، ولم يدر بخلدها قط ان تشغل نفسها بهذه التمثيلية من جديد . فقد تبددت اللوازم المسرحية ، وجرح عدة اشخاص من الفرقة ، كما ان كتاب المسرحية نفسه قد ضاع . وكانت داشا تود لو تقضي ولو بعض الامسيات في دفء مع ايفان ايليتش ، وتجلس الى جانبه دون كلمات ولا افكار غارقة في السكينة الهادئة عند الغسق على الاغنية المستديمة للجدجد تحت الموقد .

وكان عليها ان تغسل البياضات وتصلحها ، وترسل حذاء ايفان ايليتش اللبادي ليرقع ، وتصلح من هيئتها ، والا فان زوجها وجميع الخلق ، ومن بينهم هي نفسها ، قد نسوا انها امراة . في المساء الاول خرجت داشا واغريبينيا من الحمام فوق البرك المتجمدة ، وكان الصقيع الخفيف يداعب خدودهما الحارة المبخرة . فيا لها من سعادة ! هيأت داشا اغريبينيا ، واعدت العشاء . كما ان ايفان ايليتش وايفان غورا عادا من الحمام ايضا وجلس الاربعة حول المائدة ، وحمحم الرجلان من السرور ، فقد كان في الجو رائحة حساء الكرنب ، كما ان رائحة طيبة اخرى كانت تنبعث من السماور ! قال ايفان غورا :

– هكذا ، يا ايفان ايليتش ، راحة بعد الاعمال . . .

ولم تحظ داشا بالراحة . ففي اليوم الثاني ، وقبل الساعة التي يعود فيها ايفان ايليتش عادة جاءت انيسيا ومعها كتاب شيللر وعليها سيماء الجد والتحفظ ، وتكلمت رافعة عينيها الحالمتين :

– ضجرة انا ، يا داريا دميترييفنا . . . ام لعلي قد فسدت . . . كل الناس يبدون اعتياديين ، اما انا ففاسدة . . . . وقد ظهر ذلك علي منذ الصغر . . . ثم ، فيما بعد ، بالطبع تزوجت في سن مبكرة ، وانجبت اولادا . . . ثم المت بي محنتي . انا في الرابعة والعشرين يا داريا دميترييفنا . وستنتهي الحرب فالى اين اذهب ؟ اعيش مع فلاح في كوخ ريفي ، واحدق في السهب الخاوي ؟ انا بعد كل ما رايت وسمعت بحاجة الى شيء آخر . . . .

ونهد صدر انيسيا تحت معطفها ، وغمضت عيناها نصف اغماضة .

– لقد قرات هذا الكتاب كله ، ولم افترق عنه فى المعارك ... قد اكون قليلة الوعى جاهلة وغير متعلمة ، ولكن فى الامكان ان يصلح ذلك ، يا داريا دميتريفنا ، فان اصواتا كثيرة تتردد فى داخلى . . . . انا لا اعرف شيئا عن نفسى ، ولكننى اعرف عن الناس . . . عيناى تغرورقان بالدمع حين افكر فى اننى نادرة حتى على ان اروى شيئا عن الكونتيسه اماليا هذه . . . واذذاك ستنهض حية من هذا الكتاب . وقد حدثنى المرحوم شاريغين عن ذاك ... يا داريا دميتريفنا ، اليوم وجدنا مكانا ، فى المدرسة يسع لحوالى ثلثمائة شخص . . . . كما يوجد نجارون عندنا ، ويمكن الحصول على خشب وجنفاص . . . فما الذى يمنعنا عن تمثيل «اللصوص» ؟ نحن نتذكر ادوارنا . . . اليوم تذكرها الاولاد ، ويودون لو تتاح لهم فرصة للضحك . . .

وجاء ايفان ايليتش ، واعجب بالفكرة بالطبع : «فكرة رائعة ! سنمكث هنا اسبوعا . . . وسيكون ذلك عيدا ممتازا للاولاد !..» كان ايفان ايليتش انسانا عجيبا . لا شىء يمكن ان يضعف من استبشاره بالحياة . وما دامت داشا الى جانبه فمعنى ذلك انطلاق تام نحو السعادة . . . مثل تلك الايام الحزيرانية البعيدة الزرقاء النسائمية على السفينة . . .

وهكذا لم يكتب لداشا ان تسمع فى الغبش الى دقات قلب حبيبها ، وتنسل حذرة كانسلال القطة الى افكاره الخفية . . . ولكن هل كان من الممكن ان يكون لديه شىء خفى ؟ ثم ما حاجة داشا الى ذلك ؟ ان ايفان ايليتش رجل بسيط كريم يهب كل ما لديه الى آخره . ووجهه المتيبس من الصقيع والريح بسيط كالشمس . . . آه ان كل شىء سيكون مختلفا لو ان داشا ستحمل حياة جديدة ، لحما من لحمه فى الظلام الغض لجسدها النحيل . . .

بدات فرقة التمثيل تتمرن . واية عذابات كانت ! بكت داشا فى صمت ، وكان الممثلون يخجلون من تبادل النظرات فيما بينهم ، واظهروا غلظة وقساوة ، وبحت اصواتهم من البرد . . . وابدى

سابوجكوف العون بالقائه محاضرة عن نشأة التمثيل بشكل عام حيث اثبت ان التمثيل متاصل حتى بين بعض الطيور والحيوانات ، فالثعلبة – مثلا – حين تصيد فارا ، تقوم معه امام صغارها بعرض حقيقى ، فتقفز ، وتنقلب على ظهرها ، وتسير على قدميها ، وتدير ذيلها . . . وتنشطت الفرقة ، وسار الامر سيرا حسنا بعض الشىء . وضعوا خشبة مسرح فى المدرسة ، وطلوا الجنفاص . واعدوا اضواء مقدمة المسرح من القناديل المشتعلة بالسلاء . وعثروا فجاة بين الامتعة فى العربات على ستر الفراك ومعاطف السهرة ، وهى الاشياء التى صادرها ايفان ايليتش من محام عابر بينما كانوا فى المزرعة .

واخيرا جاء اليوم الموعود : ما ان غربت الشمس حتى طاف فى القرية جندى على حصان رمادى تابع للمدفعية (وهذا ابتكار لايفان ايليتش) ، ونفخ فى البوق النحاسى ، وانشأ يصيح : «ايها المواطنون والرفاق ، بعد قليل سيبدأ عرض «اللصوص» لشيللر . . .» .

وهرعت القرية كلها الى المدرسة ، واقتحم الناس مقدمة المبنى والمدخل الى القاعة حتى دخلوا اليها وعيونهم جاحظة وقد فقدوا فى الزحام قبعاتهم وازرار معاطفهم . . . والذين لم يتسن لهم حضور العرض زايلهم الندم بسرعة . اذ كان يطل على القرية هلال فى اوائله فى السماء الزرقاء قبيل الربيع . وارتفعت اصوات الاكورديون امام المدرسة وادهش رجال الجيش الاحمر بغنائهم المحبوب القوزاقيات اللواتى قبلن بالوضع منذ وقت قصير : «طار الملاك فى سماء منتصف الليل . . .» وجرى تعارف وقيلت نكات و«الغزل للعيون ، والقبل للشفاه . .» او من مثل «يريد العسكرى ان يتزوج ، والزواج ليس بعطسة ، ويمكن ان يؤجل . .» .

فى البداية اخذ الجمهور فى القاعة يهدر ضاحكا حين اكتشف ان العجوز المموه بالمكياج بخصلات شعره من الكتان ، والرداء المصنوع من مسوح راهب هو الجندى الاحمر فانين . . . فصاح المتفرجون : «انه هو ! هيا ، فانين ، ابد شطارتك ، ولا تخف ! . . .» وحينما ظهر من وراء الكواليس رجل فى ملابس فضفاضة وذيلين يرتدى جوارب نسائية – وقد برزت اسنانه كلها وتباعدت عيناه – يدلف بخطى زاحفة ذات نمط خاص ، وفح فحيح الافعى «يا

ابى ، انا هنا ، ابنك الوفى ، فرانتس» عرف الجمهور على الفور ايضا انه كوزما كوزميتش ، فانفجر ضاحكا . . .

كانت داشا وراء الكواليس تمســـك بصدغيهـا وتردد لسابوجكوف :

– هذه النهاية . الفشل المريع ، كنت اتوقع ذلك . . .

الا ان الممثلين تغلبوا على المرح الذى شاع فى القاعـــة . تعرف الجمهور على الجميع ، واخذ يصغى . تقدم لاتوغين مـــن القناديل الساخنة الداخنة ، فاضاءت من الاسفل وجهه الضخم الذى الصقت به لحية من صوف الغنم ، وحاجبيـــه الكثين المعوجين ، وطوى يديه على صدره بقوة جعلت سترة السهـــرة السوداء التى كانت تعود للمحامى فى وقت ما تتفتق ، وقال بصوت قوى :

– «آه ، لو كان فى مستطاعى ان ادعو الى الانتفاضة الطبيعة كلها والهواء والارض والمحيط ، وارمى بالحرب ضد عشيرة بنات اوى هذه كلها . .» .

وهدا الجمهور حالا فاهما الاتجاه التى تتجه اليه المسرحية .

ولم يغير الديكور ، ولم تجر تبديلات تلفت النظر . وقبل بداية كل مشهد كان سيرغى سيرغييفيتش يطل براسه من بين الستارتين وعلى وجهه ابتسامة ، وكانـــه على علم بشىء ما خاص يقول :

– المشهد الثالث . تصوروا القلعة المترفة للكونت مور . ومن النافذة ياتى عبق الحديقة . واماليا الجميلـــــة تجلس فى غرفتها . . . .

ويختفى وجهه الذى اضاءته القناديل . وتنفرج الستارة . وما من احد كان يريد ان يقر بان هذه الجميلة الحانقة بتنورتهـــا العريضة ومنديلها الزاهى اللون المربوط بعقدة على صدرها ، الفتاة المورّدة الجعداء الشعر الواسعة العينين هى انيسيا نازاروفا من السرية الثانية .

تكلمت بصوت واطئ وارتجاف وكانها تصدح ودقت الطاولة بقبضتها لفرانتس «ابتعد عنى ، ايها العاطـــل . . .» وسارت التمثيلية مثل قصة اسطورية ساحرة من تلك التى كان الجـــد

يرويها فى الطفولة ، فى امسية شتائية ، وانت تصغى مطرقـــا براسك من الموقد . . . .

وكان كوزما كوزميتش يخاف اللحظة التى تصفعه فيها اماليا على خده . فقد كانت يدها رغم استغراقها فى الحلم يد محاربة فى الجيش الاحمر ، وقد همس كوزما كوزميتش لها : «اخف . . .» ولكنها صاحت بكل قلبها «آه ، ايها الكاذب المشين !» ورفعت ذراعها وكان كل ثقل الحياة الماضية قد هبط عليها وضربـــت فانقذف كوزما كوزميتش على الكواليس . ولكن احدا لم يضحك . وصاح بعض المتفرجين «يستحق . . .» وصفق الجميع لان كـل واحد منهم ود لو يضرب هذا الوغد تلك الضربة .

ثم قطعت القلادة من رقبتها ، والقتها وسحقتها بحذائها :

– «البسوا انتم الذهب والفضة ، ايها الاغنياء ! واتخموا بطونكم وراء الموائد الفاخرة ، واريحوا اطرافكم على اريكة اللذة الناعمة ! كارل ! احبك . . .» .

ابتسم سيرغى سيرغييفيتش وهـــو يسحب الستارة وراءه وقال بدلالة كبيرة : «فاصل . . .» تقدمت انيسيا وراء الكواليس من داشا ، وانضغطت عليها وضمت وجهها فى صدرها مرتعشة ارتعاشة خفيفة مقشعرة :

– لا تمدحينى ، يا داريا دميترييفنا ، لا حاجة لذلك .

وبعد ذلك سار التمثيل بانسياب . فى الفصل الاول عـــرق الممثلون عرقا شديدا ، وخف التوتر من عضلاتهم المتوترة ، وصارت اصواتهم المشدودة انسانية ، ولم يعودوا يعباون اذا لم يسمعوا همس سيرغى سيرغييفيتش الصافر وهو يلقنهم ، فلم يتورعوا من ان يبتكروا كلاما من عندهم اكثر مضاضة مما لدى شيللر ، او على اية حال اكثر افهاما .

وسر الجمهور سرورا كبيرا بالعرض . كان تليغين يجلس فى الصف الاول جنب المفوض ، وقد دمعت عيناه عدة مرات . وكان ايفان غورا المفروض فيه ان يكون رابط الجاش ينشج من انفه بصوت عال ، وكانه يشترك فى عملية حربية موفقة . وكان الممثلون مسرورين بشكل خاص ، فلم تكن لديهم الرغبة فى خلع ملابسهم وازالة المكياج ، وكانوا يودون لو يقيمون عرضا ثانيا

غير ملتفتين الى صياح الديكة فى القرية كلها معلنة اقتراب الفجر .

وانتهى المهرجان . وهدات الاغانى والاكورديونات ، ولم يسمع غير باب حديقة يصفق هنا وهناك . وحتى الديكة كفت عن صياحها . وهجعت القرية . وسارت انيسيا ببطء فى الشارع والى جانبها لاتوغين وقد القى معطفه على كتف واحدة ، فقد كان ما يزال يشعر بالحر .

– نعم ، يا انيسيا ، نعم ، شىء عجيب . . . تسيرين فى غلافك هذا ، فى معطفك ، ولكننى اراك من خلاله . . . . الكلمات الاعتيادية غير ملائمة ، ولا اريد ان اقولها لك . . . .

ساراً فى نهاية القرية ، الى حيث كان السهب فى المدى البعيد يندمج فى الظلام . وقد تسلق الهلال عاليا فى السماء التى دكن لونها . وما زالت القناديل تتراءى امام عينى انيسيا مشتعلة ، ووراءها فى الظلمة الحارة المكتومة تلقت كل كلمة تفوهتها صدى قويا ، وتصاعدت اليها زفرات عميقة ، وكان فى قوتها هذه شىء نسوى فريد لا قرار له . وقد طاب لها ان تستمع الى لاتوغين : . . .

– عرفت الكثيرات ، يا ملاكى . . . الى الشيطان بهن جميعا . . . انا لم اصادف مثلك . . . لقد اجننى حبك ، فان شئت اسمعى ، وان شئت لا . . .

وتوقف وتوقفت . وعانقها ، وسقط معطفه من كتفه على الثلج . وقبل شفتى انيسيا الباردتين قبلة قوية طويلة . وابعدها عنه ، ونظر فى وجهها الذى بدا غير مكترث بوجنتيه المحمرتين بحمرة البنجر . بينما هى لم تنظر اليه ، كانت عيناها المطليتان تحدقان فى الهلال .

– ذلك هو عذابى . . . آوه ، لا باس . . .

رفع معطفه من الارض ، وتابعا سيرهما من جديد . . .

فى تلك الليلة لم تنم داشا ايضا . اسندت كوعها على الوسادة وراحت تقول :

– انا افهم ان ذلك لا يمكن تحقيقه الآن . . . ولكن اسمع . عندنا انيسيا وعندنا لاتوغين . وكوزما كوزميتش موهبة حقيقية . . . سيكون ياغو . . . سنمثل «عطيل» . . . سنضيف الى الفرقة عناصر

جديدة ، غدا اصدر امرك فى الفوج . . . وسترى . سنمثل امام الفرقة ، امام الفيلق . . ولكن من الضرورى ، اولا : الاحتفاظ بديكورنا . تحدث مع المفوض ليخصص لنا عربات خاصة . . . هل رايت كيف استمعوا ! تكون لدى انطباع بان المتفرج اسفنجة تمتص الفن . . .

– انت على حق .

اجاب ايفان ايليتش . كان يسير واضعا يديه وراء ظهره فى قميص محلول وقد خلع حذاءه الطويل الرقبة وانتعل خفين خفيفين – كانت داشا قد اشترتهما من قوزاقية ، وفى كل مرة كان يحجب ضوء القنديل على الطاولة بجسمه الضخم الاسود ، وكان ذلك لا يريح داشا لسبب ما . وحين اقترب من النافذة الصغيرة استدار ، وانار الضوء وجهه الباسم القوى الاحمر الذى بدا وكانه من البرنز ، ودق قلب داشا بقلق .

– انت على حق . . . الروسى يحب المسرح . . . الروسى يملك ولعا خاصا بالفن . احتياجا غير اعتيادى ، تعطشا . . . انظرى . شهر ونصف من المعارك ، والناس قد انهكوا ، ولم يبق منهم غير الجلد والعظم ، والكلب نفسه يمكن ان يفطس . . . فما حاجتهم الى شيللر ؟ ولكن اليوم اقبلوا على العرض كما يقبل الناس على العرض الاول فى المسرح الفنى فى موسكو . . ثم خذى انيسيا ! . . انا لا افهم . . انها ممثلة بالفطرة . . . اية حركات واية رهافة . . . اية عواطف ! وهى فضلا عن ذلك حسناء .

وحجب الضوء مرة اخرى وهو يهز ذراعيه ، وقالت داشا :

– ايفان ، الا يمكنك ان تكف عن السير فى الغرفة ؟

وكان فى صوتها ضيق لم يسمعه منذ زمن بعيد . كانت وهى ترتفق الوسادة تتفرس بعينين غائمتين . توقف ايفان ايليتش على الفور ، وتقدم من الفراش ، وجلس على حافته . وبان عليه تخوف مكشوف .

– ايفان – وقعدت هى على الفراش – ايفان ، منذ زمان وانا اريد ان اوجه اليك هذا السؤال – ومررت اصبعيها على عينيها بسرعة – ذلك شىء صعب ، ولكن لا استطيع الاصطبار اكثر من ذلك . . .

ورات من وجهه انه فهم اى سؤال سيكون ، ومع ذلك فقد قالته لانها قد رددته مع نفسها الف مرة :

— ايفان ، الم تعد تعتبرنى امرأة كليا ؟

اخذت كتفاه ترتفعان ، وغمغم بشىء غير مفهوم ، وامسك براسه . حدقت داشا فيه تحديقة ثاقبة ، وكان ما يزال لديها امل ما . . . امن الممكن ان يكون ذلك حكما صادرا عليها ؟

— داشا ، داشا الى هذا الحد انت لا تفهمين . . على ايـــة حال يجب ان تكونى شهمة .

— شهمة ؟ (ذلك هو الحكم ! . . .)

— ان حبى لك كبير يا داشا . . . يمكنك ان تكرهينى . . . رغم اننى فى الحقيقة لا اعرف لاى شىء ؟ . . . ربمـــــا هو نفور عضوى . . . وانا افهم ذلك جيدا . . . لقد احببتك لمدى الحياة . . ولا يهم ، واقولها لك بكلمة شرف ، ان يكون ذلك صعبا على او يسيرا . انت معى مثلمــــا قلبى معى . . . فلا تقلقى ، وكونى سعيدة . . .

كانت داشا تصغى ، وهى تهز رأسها . تغضن وجهه ، وقال بجهد :

— لا ادرى لماذا كنت اتخيل دائمــــا قدميك الصغيرتين المسكينتين : كم ضربتا فى الارض بحثا عن السعادة ، وكل ذلك بلا جدوى ، بلا جدوى . . .

اطلعت داشا من تحت البطانية قدميها العاريتين النحيلتين وقفزت على الارض الترابية ، وركضت واطفات القنديـــل على الطاولة .

. . . .

بعد ان عاد ايفان غورا من العرض مع اغريبينا اشعل شمعة محترقة الى النصف واستعرض الاوراق المختلفة التى تراكمت خلال اليوم وكان من عادته ان يهيئ كل شىء قبل ان ينام . جلســت اغريبينا على مصطبة قرب الباب ، فى ناحية دون ان تخلع معطفها ولا قبعتها .

قال ايفان غورا متثائبا حاكا رقبته :

— وانت ايضا لم يكن تمثيلك سيئا . لم اسمع ماذا صايت

على المسرح . كان دورك صغيرا جدا . . . ولكـــــن انيسيـــا ، انيسيا ! — وانزل انفه نحو الشمعة ، وابتسم ابتسامة ذات معنى ، واخذ يتصفح الاوراق — ربما ذلك لانها ادارت تنورتها — على حد تعبيركن — بشكل مفرط . انها تشعر ان هناك رجلا . . . يجب ان تصان ، ان تصان . وماذا تظنين ؟ ما اكثر ما رفعت الثورة من امثالها ! وفى ذلك تكمن المسألة كلها . . . كـــل شىء مخطط على ذلك . . لا ، ليس الشعب جاهلا . . . الشعب غنى بالمواهب . . . ونحن نقاتل ببذخ تام . . . نحن بحاجـــة الى آلات . . . هاك ، اقرئى . . . — ومر بيديـــه على احدى الاوراق — استوليـنـــا على دبابة بايدينـا العزلاء . . . تلك همجية . . . لو كان لى ابن لوشمت على صدره : تذكر ولا تنس من انت مدين اليه بالسعادة ، لا تنس الذين ترقد عظامهم فى اعشاب السهب . . .

استندت اغريبينا على الحائط ، واغمضت عينيها ، واطبقت شفتيها ، وراحت تتذكر امض شىء على نفسها يخطر على بالها . كيف كان ايفان غورا يرقد ليلا فى السهب بلا حراك ولا نفس ، ولم يكن يهمها آنذاك احى هو ام ميت . كان فى بندقيتها آخر مشط من الرصاص . . . ولم تود الرحيل مع الآخرين ، ولم تتركه وحيدا فى هذا السهب ليلا . . . ومن المؤسف ان عظامها منذ ذلك الحين لم ترقد بيضاء هناك . . .

— لماذا لا تاوين الى فراشك ، يا اغريبينا ؟

وحجب ايفان غورا الشمعة عن عينيه براحة يده ، ونظر . كانت الدموع تنزل من عينى اغريبينا المطبقتين ، وغالبا ما تقطر من رموشها الطويلة ، بينما ارتفع حاجباها الاسودان عاليا . . . جمع الاوراق فى حقيبة الميدان ، واقترب من اغريبينا ، وقرفص امامها :

— ما هذا ، يا بلهاء ؟ . . . لعلك متعبة ؟

— اوشم صدره ، علمه ، علمه عن العظام البيض . . .

— ماذا وراءك ، يا اغريبينا ؟

اجابت بصوت بائس لفتاة صغيرة :

— انا فى الشهر الثانى . . . وانت لا ترى شيئـــــا . . . لا تعرف الا شيئا واحدا : انيسيا ، انيسيا . . .

فجلس ايفان غورا عند قدمى اغريبينا . وانفتح فمه من تلقاء نفسه كما ينفتح فم الابله . . .

— الا تكذبين ، يا فتاة ؟ اية سعادة هذه ، احقا انك حامل ؟ يا عزيزتى ، يا حلوة . . .

وعندما قال ذلك قالت بصوت خافض ، صوت امرأة :

— دعك عنى ، اغرب عن وجهى . . .

ومالت نحوه ، وطوقته ، وهبطت بثقلها عليه وهى ما تزال تنشج ، وفى كل مرة يزداد نشيجها تقطعا ووهنا .

اثار اندحار الاتمان كراسنوف للمرة الثالثة قرب تسارتسين حيوية فى الجبهة الجنوبية كلها حيث كانت تتسلط بجيوشهـــا الثلاثة – الثامن والتاسع والثالث عشر – على الدون والدونباس . كان القوزاق المعادون يبدون وكانهم على استعداد لنبذ العداء ، وتعليق سروجهم فى السقيفة – ومحطا لذرق الحمام – ولف البنادق فى الخرق المزيتة ، ودفنها عميقا فى الارض . فاى شيطان ظن ان العيش متعذر فى ظل البلاشفة ؟ فالارض لم تذهب عنهم ، ها هى ترسل البخار على الاكمات الجرداء تحت شمس الربيع ، وايديهم ما تزال معهم ، والخيول تنشد الاطواق ، والثيران تسال عن النير . . . .

كان القائد العام فى سيربوخوف يستعجل الهجوم . وكانت خطة القائد العام الاولية الناقصة قد تغيرت بعض الشىء ، وجرى تعديل فى تشكيلات الجيوش اثناء المسيرة ، فبدلا من الزحف على طول الدون الى الجنوب الشرقى اضطرت الجيوش الحمراء الى ان تستدير الى الجنوب الغربى نحو دونيتس فى الوعورة وفى موسم تسوء فيه الطرق . ولكن الوقت كان قد فات للقيام بذلك ، فان طريق الثورة الرئيسى – الدونباس البروليتارى – قد اغلـــق باحكام . ذلك لان فرقة ماى – مايفسكى قد شقت طريقهـــا الى الدونباس اثناء الشهرين اللذين انقضيا فى المكوث فى البقعة ، وعززت بوحدات قوية من جيش المتطوعين اخذت من شمال القفقاس بعد ان شتت الجيش الاحمر الحادى عشر على رمال استراخان . والآن كان يقف على الضفة اليمنى من الدونيتس خمسون الفا من قوات

البيض المختارة بقيادة ماى – مايفسكى وبكروفسكى وشكورو .

بدأ الربيع دفعة واحدة . فتحت الشمس الشعثاء ذابت الثلوج ، وامتلات منخفضات السهوب بماء ازرق ، وانتفخ نهر دونيتس ، وجرت فيضانات لا مثيل لها . ولما كانت خطوط السكة الحديد فى تلك الانحاء تسير بخطوط طول ، فقد لزم الامر ان تجرى اعادة تشكيل الوحدات فى الارض الترابية ، فى وعورة الطريق . ولصقت العربات العسكرية بالوحل اللزج متخلفة عن وحداتها . وكل هذه المصاعب اوقفت وابطات اعادة تشكيل الوحدات . وكان البيض قد احتلوا المعابر على نهر دونيتس الطافح على مساحة عريضة . وتحول الهجوم الى معارك مطولة . وفى ذلك الوقت بالذات اندلعت فجاة فى المؤخرة فى قرية فيشينسكيا المتصالحة انتفاضة قوزاقية دموية عنيدة دبرها عملاء دينيكين . ونقلت طائرات البيض اليها المحرضين والمال والسلاح .

وبناء على امر القائد العام تابع الجيش العاشر وحده ، وكان يشكل الجناح الايسر ، التحـــرك نحو الجنوب على طول الطريق الحديدى العام دافعا ومحطما فلول وحدات كراسنوف .

وسار الجيش العاشر للقاء حتفه .

فى الظهيرة ، وفى السهب حيث كانت تهب ريح حلوة كان يؤذى العين النظر الى البرك والجداول وبحيرات الربيع ، فقد كـــانت الشمس تلتهب عليها . وفى السماء النيلية الشفافة كانت عصائب الطيور تصفـــق باجنحتها ، وتحلـــق الغرانيق زاعقـــة بصوت الابواق . فكان الـــناس يرفعون رؤوسهم وهم على درجة العربة يشيعونها بابصارهم ! . . . الى اين ، ايها الاحرار ؟ الى اوكرانيا ، بوليسيه ، الى فولين ، وابعد من ذلك ، الى المانيا وراء الرين ، الى الاوكار القديمة . . . ايه ، يا غرانيق ، بلغى التحية للطيبين ، وحدثيهم ، وانت تضعين ساقا حمراء على السقف كيف طرت فوق روسيا السوفييتية ، ورايت الجليد قد تشق فيها ، ومياه الربيع تطفح على الحوافى . ربيع لا مثيل له فى اى صقع بضراوته وعصفه وخصوبته . . . .

كانت داشا واغريبينا وانيسيا غالبا ما يجتمعن الآن على فسحة العربة تعبات من الشمس والريح . وكان القطار يتجه جنوبا ، والربيع مقبل للقياه . وكان المقاتلون قد خلعوا معاطفهم واكتفوا بالقمصان وحدها غير مزررة عند العنق . وبين الحين والآخر كانت تترامى قرقعة وهدير من وراء الافق الى الامام ، حيث كانت الوحدات الامامية للجيش العاشر تطرد من الضياع العصابات الاخيرة من القوزاق . واحتلت فليكوكنياجسكيا دون صعوبة كبيرة . وبعد ان تجاوزها قطار فوج كوتشالين افرغ حمولته على ضفة نهر مانيتش ، واخذ يحتل مواقعه فى الجبهة .

تمتد سهوب سالسكيه منبسطة خالية مثل منبسط اخضر متجمد من البحر ، وفى الربيع يغدق عليها نهر مانيتش مياها كدرة تغطى عيدان القصب . وهنا ، فى الازمنة الغابرة ، كانت السهام تطير على مانيتش من ضفة الى اخرى ، وكان الرُحَل الاسيويون يتقاتلون مع السكيثيين والالانيين والقوط . ومن هنا جعل الهونيون الارض قفراء حتى شمال القفقاس . وهنا كان الكالميكيون يستمعون وهم جالسون عند خيامهم اللبادية الى القصة المأثورة عن بطولات ماناس . وكانت السهوب باذخة فى الربيع ، فقد كانت الارض التى اترعت بالماء تتعجل التدثر بالاعشاب والزهور ، وكانت الغروبات المسائية البليلة تورّد حوافى السماء باتجاه البحر الاسود ، والنجوم الكبيرة تسطع حتى حافة الافق . وكانت الشمس الضارية تخرج من وراء قزوين مثل درع فارسى .

نزلت قيادة فوج كاتشالين فى المبنى الوحيد الصالح للسكنى فى هذا القفر ، فى بيت طينى مغطى بالقصب وراء سياج زريبة خيل مهملة . ولم يكتشف اثر للعدو فى مكان قريب ، وتوغل رجال الاستطلاع بعيدا فى الجنوب باتجاه تيخوريتسكيا ، وفى الغرب نحو روستوف . وكان من الصعب اقناع المقاتلين بانهم لم يأتوا الى هنا لينسفوا السمك بالقنابل اليدوية ، ولا يضيعوا العتاد الغالى بالتسديد على الوز فى الشفق المسائى ، فان امامهم قتالا صعبا ، لان الجيش قد قذف فى مؤخرة العدو ، وهذا العدو ليس بسيطا ، كما انه لم ينهزم بعد .

ذات مرة عاد ايفان غورا من قيادة الفرقة ، واستدعى ايفان ايليتش ، وسار الاثنان صامتين على الشاطئ ، وجلسا عند الماء ، واشعلا سيكارتين ؛ كانت الشمس الحمراء المسطحة تنحدر محجوبة بالابخرة المتصاعدة من الارض ، وكانت الضفادع تنق على مانيتش كله نقيقا عاليا خبيثا .

قال ايفان غورا :

– الخبيثات ، يضعن البيض .

– اها . ماذا عرفت هناك ؟

– الوضع السابق . قلق . الجميع مدركون ، وليس من الممكن عمل اى شىء . ان امر القائد العام القاطع هو الهجوم على تيخوريتسكيا . ما رايك فى هذا ؟

– ليس النقاش عملى ، يا ايفان ستيبانوفيتش ، بل تنفيذ الامر عملى .

– انا اسألك ماذا تفكر فيه بينك وبين نفسك ؟

– ماذا افكر ؟ . . . وانت الا تنوى رمىْ بالرصاص ؟

– تفو ، يا عبيط . . . الجميع يجيبون بهذا الجواب . . . انتم جبناء جميعا . . .

ودفع ايفان غورا طاقيته وحك راسه ، ثم شعر بان جنبه يحكه ؛ انقلعت كتلة من الارض من الشاطئ تحت قدميه ، وسقطت فى الدوامات المائية الكدرة بطرطشة خافتة . نقت الضفادع بضراوة عارمة ، وكأنها نوت ان تُسكن عشيرتها الزلقة رحاب الارض كلها .

– اذن ، فانت تعتبر ايعاز القائد العام صحيحا ؟

– لا ، لا اعتبره .

اجاب ايفان ايليتش بخفوت وثبات .

– اها ! لا ! حسنا . . . . لماذا ؟

– نحن هنا قد انقطعنا تقريبا عن الاحتياطات ، عن قواعد التموين . وسيقطع العدو فى مكان ما الخيط الرقيق الذى يربطنا بتساريتسين . وعندئذ سنقع فى المصيدة . ان الامر كله لا يبدو ركينا .

– اذن ؟ . . .

– ان هجومنا ابعد الى الجنوب ، على تيخوريتسكيا يعنى ان نكون كالقط وهو يضع راسه فى بوز الحذاء . ولن يحصل من ذلك اى خير . يمكن ان افهم المغزى لو ان جيشنا أرسل تظاهرا لاخراج قوات البيض من الدونباس باى ثمن . . . .

– وبعد . . .

– ولكن ذلك متعة غالية الثمن : ان تحطم جيشا لمجرد التظاهر . . . .

– وما هو استنتاجك ؟

نفخ ايفان ايليتش خديه ، والقى فى الماء سيكارته المنطفئة الملفوف تبغها بورق الجرائد :

– لم اضع استنتاجا ، يا ايفان ستيبانوفيتش . . .

– انت تكذب ، يا اخ ، تكذب . . . حسنـــا ، اسكت . كـــل شىء مفهوم من دون ان تقول شيئـــا . . . ذات مرة حكيت لى ، يا ايفان ، عن مفوضـــك غيمزا ، وكيف ارسلك . . . الى القائد العام فى تبليغ سرى عن الخائـــن سوروكين . . . وعلى هذا . . . (وتلفت ايفـــان غورا وخفض صوته) اشعر وكاننى اود الآن لو اسافر بنفسى لا الى القائد العام فى سيربوخوف ، بل الى موسكو مباشرة . . . هناك وغد مندس اما فى القيادة العامة او فى المجلس العسكرى الاعلى . . . نعم ، ولا يمكن غير ذلك ، فانها الحرب . . . ونحن نثق كثيرا . . . فاذا كان لنا ومن لف لفنا افكار سامية ، وقلوب كبيرة فاننا نظن ان العالم كله فاضل اذا استثنينا البرجوازيين ، فلنضرب باخلاص ذات اليمين وذات الشمال . . . لقد تمعنت فى فلاديمير ايليتش فى بتروغراد . انه له عينا روسية متقلصة فاحصة . . .انه متحمس ومفكر ، يضع يديه خلف سترته ، ويسير جيئة وذهابا ، وفجاة يوجه جبينه وعينه نحو الشخص ، ويفهم كل شىء . . . هذا مـــا ينبغى . . انا وراءك اراقب كل حركة ، وكل كلمة تقولها . . . اما انت فلا تراقبنى ، بل تثق بى ثقة عمياء . . . ساقدم لك مهمة مؤذية . ما عليك الا ان تصمت وتنفذ .

– لا ، لا انفذ .

– منذ لحظة قلت : ليس النقاش عملى . حسنـــا ، ماذا ستعمل ؟

– احاول ان اوقظ ، ان اقنع . . .

– تقنع ! مثقف . . . يجب ان ترمى ! . . . آه ، يـــا الهى . . .

وضع ايفان غورا يديه الكبيرتين على طاقيته ، على رأسه مسندا مرفقيه على ركبتيه . انه لم يخبر تليغين بالشىء الاهم ، بالبرقية التى قرئت يوم امس فى الاجتماع الحزبى للفرقة ، برقية رئيس المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية مرسلة من موسكو – ردا على الاستفسار المقلق لقائد الجيش العاشر – برقية متعجرفة مهددة تؤكد بشكل قاطع على التوجيهات التى اعطيت من قبل .

– واليك آخر الاخبار : على جناحنا الايمن تتركز اربع فرق للجنرال بوكروفسكى جلبت من الدونباس ، وفيلـــق الجنرال كوتيبوف يزحف للقائنـــا ، وقد قطع علينـــا الطريق الى تيخوريتسكيا بالفعل . حزر خطة القائد العام . . . وعلى الجناح الايسر تتجمع خيالة الجنرال اولاغاى . . . والى الوراء على بعـد اربعمائة فرسخ يوجد خواء .

قال ايفان ايليتش :

– وهذا ما سيحسم كل شىء . اذا تريد رأيى فهو ان يجلى على الفور جميع المرضى ، وترسل جميع الاشيـــاء الزائدة الى المؤخرة لنكون اخف . لن نستطيع الاحتفاظ بمانيتش . . . .

لم يرد ايفان غورا بشىء . صمت قليـــلا ثم بصق فى النهر بحنق :

– ان مثل هذه الاحاديث كان من الممكن ان ترسلنـــا انا وانت الى محكمـــة عسكرية . . . . كفى ان يقال لك : مت على مانيتش فتموت . . .

– لم ارفض ذلك قط ، ولا ارفض على ما يبدو .

فى اليوم الثانـــى من ايار ظهرت دوريات الجنرال كوتيبوف وراء النهر . فى بادىء الامـــر كانـــت مجموعـــات صغيرة حذرة من

الخيالة . كانوا يستكشفون السهب ، فتارة يتوقفون قليلا ، وتارة ينطلقون باقصى سرعتهم تحت الرصاص على البرك اللامعة . وظلوا يتجمعون اكثر فاكثر ، ويقتربون من الجبهة بجراة اشد ، ويترجلون مرقدين خيولهم ، ثم اخذوا يطلقون النار على النقاط الامامية .

وفي الثالث من ايار اقتربت قوات كوتيبوف الرئيسية وسط هدير قصف المدافع وخلال تركزها في منطقة الخط الحديدي اخذت تهاجم ساحل مانيتش بوثوق وبموجات متعاقبة . وحلقت طائرات استطلاعية ذات جناحين مختلفة عن الطائرات الروسية وعن الالمانية . وتقدمت لوريات تحمل عوامات الجسور نائرة الماء والوحل . وفي نفس اليوم اخترقت النهر الوحدة الضاربة من قوات كوتيبوف في الموقع الذي تحتله فرقة موروزوف . الا انها ابيدت في معركة بالحراب .

ومع هبوط الليل تراجعت الصفوف وتخندقت . ولم تشعل النيران في اي مكان . وهدأ التراشق ، وخيم على السهل ليل هادىء رطب عبق بالزهور . ونقت جوقات الضفادع الوقحة وكان لا شيء مهما قد حصل . وتوهم بعض الرجال النائمين وآذانهم على الارض انهم يسمعون حفيف العشب الخفيف ، والظلام الدامس المتحرك ببراعمه الرقيقة القوية .

استمر الاجتماع طول الليل في مخبأ الاركان عند ايفان ايليتش. كانوا ينتظرون بنفاد صبر امر الفرقة بالهجوم ، فقد كان واضحا للجميع ان عدوا كهذا العدو لا يجوز ان يترك ساعة واحدة للتناور دون عقاب ، وتوجيه الضربات في الاماكن التي يريدها على الجبهة النحيلة للجيش العاشر الممتدة الى ما يقرب من خمسين فرسخا ، والمكشوفة من الجناحين ومن المؤخرة . وتحدث امراء الوحدات عن مزاج وحداتهم . ان رجال الجيش الاحمر متهيجون ولا ينامون ويتهامسون في الخنادق بانه لو كان هذا في عام ١٩١٨ لهرع الفوج كله لاجتماع عام مهددا بانه سيمزق آمره اذا لم يصدر امرا بالزحف الى الامام ! فهناك لحظات من الياس والحنق يبدو وكان في الامكان اكتساح كل شيء في الطريق .

دخل الى المخبأ موشكين وهو آمر سرية ، وكان قد عبر لتوه

نهر مانيتش وغطس فيه حتى رقبته من الضفة التي توجد فيها حظيرة من سريته . كان عاملا من عمال التعدين في تساريتسين ، وقد هوى الفن العسكري هوى الصياد .

– رائحة المخبأ لطيفة ، يا رفاق ، – قال ذلك مقلصا عينيه من دخان التبغ الكثيف بحيث ان الشمعة لم تكد ترف . وخلع حذاءه الطويل قافزا على هذه الرجل ثم على الاخرى ، وسكب الماء من باطن الحذاء ، وتابع قوله : – جرح رجالي واحدا من الكاديت . واردت ان اجلبه معي ، ولكنه مات مع الاسف ... فتى صغير ، غر ، ولكنه مملوء بالضغينة . ظل يصرخ «اوغاد ، اوغاد !» حتى ان فتياننا ذهلوا ... مزود يرتدي الجوخ والحذاء الطويل والاحزمة ... شتان بينه وبين القوزاقي ! القوزاقي احمق ، ريفي ، من اخواننا ، اذا ضربته رد لك الضربة مثلها ، وارتد ... اما هؤلاء ذوو الايدي البيض فلا يرافون باحد ... الحضيرة متكونة من ضباط فقط ، وآمر الحضيرة عقيد .. وكل واحد منهم يشد ساعة في معصمه ... لقد قلت لرجالي : يا صعاليك ! اخرجوا الساعات من ادمغتكم ولا تزحفوا على مواقع البيض من اجل الساعات ، ساكسر اسنانكم ...

وضحك موشكين كاشفا عن اسنان جيدة ، وانارت الطيبة وجهه القبيح المجدور الذكي .

– الوضع كالآتي ، يا رفاق : ترامت من السهب ضجة لا تزال تسمعها منذ زمان منذ هبوط الظلام . فارسلت المستطلع ستيبكا تشافيليف ، وهو ليس انسانا بل روحا قدسيا ... وزحف وجاء وقال ان مدفعيتهم قد اقتربت ، ويبدو ان المشاة محملون على عربات ... استعدوا ، يا رفاق .

احس ايفان ايليتش بالدوار من الدخان ، فخرج من المخبأ الى الهواء الطلق لبرهة من الوقت . كان هلال حاد الطرفين كالمنجل منير بشكل نافذ يطل وسط النجوم الرامضة . وكانت ثلاثة شخوص نسائية تجلس على سياج من ثلاثة الواح . اقبل ايفان ايليتش نحوها .

– طلب الى الجميع ان يناموا في الخنادق فقط . انا لا افهم .

– لا نستطيع النوم .
قالت داشا ذلك من اعلى الحواجز منحنية نحوه .
وبدت ثلاثهن جميعا – داشا وانيسيا واغريبينا – وسيعات العيون نحيلات غير اعتياديات ... ولم يقدر ان يتبين اهن يبتسمن له او يتعبسن بطريقة خاصة .
قالت اغريبينا :
– نحن ننتظر هنا انتهاء اجتماعكم .
وقالت انيسيا :
– اما انا فاسمح لى بالبقاء معهما ، ايها الرفيق آمر الفوج .
– انزلن الى الارض ، لماذا تعدتن قعود الدجـــاج ؟ الرصاص يتطاير ، الا تسمعن ؟ ...
قالت داشا :
– فى الاسفل روث وبراغيث ، اما هنا فالريح رخاء .
وقالت اغريبينا :
– ليس هذا رصاصا ، بل خنافس بيضا ، فلا تخدعنا .
وانحنت داشا ثانية :
– الضفادع خرجت عن اطوارها ، ونحن جالسات نستمع ...
التفت ايفان ايليتش الى النهر ، وفى هذه اللحظة فقط انجذب انتباهه الى الزفرات والانات الايقاعية للهفة والانتظار ، وها هو المنتصر ، المغنى المنفرد الكبير الفم ، بطول ثلاث بوصات ، وذو العينين الزرقاوين الجاحظتين يبدأ غناءه ويغرد بثقـة بان النجوم نفسها تسمع ثناءه على الحياة ...
– لطيف ، برافو – قال ايفان ايليتش وابتسم – حسنا ، اجلسن ، ولكن اذا ما حدث شيء اسرعن بالدخول فى الخندق فورا ...
– وجذب كتف داشا نحوه ، وهمس فى اذنها – بديع ... حقا ؟ انت بديعة جدا ...
وهز زراعه ، وسار نحو المخبأ . وحين عادت النساء الى الانفراد قالت انيسيا بخفوت :
– وددت لو تطول الجلسة العمر كله ...
اغريبينا :
– السعادة تكسب بالدم ... ولهذا فهى غالية ...

داشا :
– يا فتاتيّ ، كم رايت فى حياتى من اشياء ، وكل شيء قد مـــر دون ان مسنى ... كنت طوال الوقت انتظر شيئـــا غير اعتيادى ، شيئا فريدا ... عذبنى قلبى الاحمق وعذب آخرين ... الافضل ان يحب المرء لليلة واحدة ، ولكن بشكل جيد ... ان يفهم كل شيء ، ويمتلـىء بكل شيء ، ان يعيش مليون عام فى ليلـة واحدة ...
ومالت برأسها الى كتف انيسيا ، وفكرت اغريبينا مع نفسها ثم مالت هى ايضا على انيسيا من جانبها الآخر . وظللن جالسات هذه الجلسة طويلا على الحواجز ، وظهورهن الى النجوم .
. . . . .
كانت الطائرات الجديدة تصحح مرمى مدفعية كوتيبوف بتحليقها فوق الانفجارات بعد ان تلقى على الحمر بعض القنابل ، وترتفع فوق السهب كالعقبان باتجاه الافق ، نحو البطاريات التى اخذت عند الفجر تقصف مانيتش بشدة .
ولتخويف العدو طارت من الفرقة طائرة وحيدة مرتفعة فى الجو ، وهى طائرة قديمة بطيئة السرعة كانت قد ادت خدمتهـــا كاملـــة الحرب الامبرياليـــة ، ورممت فى تساريتسين ترميما بدائيا .
وكان من المرعب النظر اليها بهيكلها الخشبى وبجناحيها المرقعين خلافا لكل قوانين علم الطيران ، تقرقع وتكاد تنطفىء مارة فوق الرؤوس . الا انه كان يديرهـــا فالكا تشيرداكوف الشهير فى الجهة الجنوبية كلها والمعروف جيدا عند الطيارين البيض . وفالكا رجل ضئيل الجسم كالقرد اعرج مائل الكتف محطم العظام كانما مشدود بعضا الى بعض بالغراء . كانوا يسالون «فالكا ، احقا ما يشاع عنك من انك فى عام ١٩١٦ اسقطت طيارا المانيا مجربا ، وفى اليوم الثانى طرت الى المانيا لتلقى الورود على قبره ؟ » فكان يرد بصوت موصوص : «وماذا فى ذلك ؟ » وكانت طريقته معروفة : حين ينفد لديه شريط الرشاشة كان يهوى على العدو من فوق ويضربه بجسم طائرته . «فالكـــا ، وكيف لا تسقط انت ؟» – «ماذا لو سقطت ؟ غير مهم ...» .

حين راى الرجال طائرته تحلق فوق السهب على انخفاض سروا جميعا ، رغم انه لم يكن ما يسر به . كانت القذائف العالية الانفجار تتفجر على كلتا ضفتى مانيتش حاصرة رجال الجيش الاحمر فى الخنادق . كان هناك ست بطاريات للعدو على الاقل تهدر بلا انقطاع ضد بطارية واحدة للحمر . وكانت صفوف العدو تقترب بوثبات سريعة وحماس واندفاع لا يكبح .

طار فالكا تشيرداكوف فوق الرؤوس وجناحا طائرته يترنحان ، وهبط على مسافة غير بعيدة ، ونزل من الطائرة ، وسار بالقرب منها يعرج . هرع جنود حمر اليه . كان زيت الطائرات يغطى وجهه كله .

– اعندى فرجة ؟ – قال ذلك غاضبا ، واخرج من الطائرة حقيبة الادوات والقطع الاحتياطية – ابعدوا طائرات العدو عنى . اريد ان اعمل .

وبالفعل كان العدو قد لاحظه ، فراحت ثلاث من طائراته تحوم فوق المكان محلقة بعلو شاهق لان الجنود الحمر اخذو يطلقون النار عليها . تساقطت القنابل تترى ورفعت نوافير من التراب . وكان فالكا يصلح انبوب الزيت وهو لا يلقى التفاتا لما حوله . وانفجرت قنبلة على مسافة قريبة جدا حتى ان طائرته تمايلت ، وتساقطت على جناحيها كتل من الارض . عند ذاك رفع بصره الى السماء ، وهدد باصبعه . وحين فرغ من التصليح صاح بالجنود الحمر :

– هيا ، تعالوا ، وادير‌وا المروحة – وصعد الى الطائرة واستقر فى مكانه . – كيف تديرون ، يا رفاق ؟ ليست هذه ضفيرة امراة ، هيا ، لا تخافوا من العرق !

اخذ المحرك يعطس ، وارسل صوتا مصما ، وهدر وقفز الجنود الحمر مبتعدين ، وتدحرجت الطائرة على السهب متمايلة متوثبة الى مسافة بعيدة حتى بدا وكانها لن تترك الارض ، ثم ارتفعت . حلق فالكا صاعدا فى الجو ، واخذ يتقلب لكى يختلط فى خزان الوقود الخليط الوسخ من البنزين والكحول بشكل جيد . رسم فى الجو انشوطة عريضة ، وهوى بكل سرعته على العدو . الا ان الطائرات الثلاث اخذت تبتعد مسرعة رافضة القتال .

بعد ان طار فالكا تشيرداكوف فوق الجبهة بالقدر الذى اعتبره كافيا هبط على الارض مرة اخرى وارسل مذكرة الى تليغين :

«شاهدت ثمانى سيارات ركوب جديدة فى الجبهة . انه دينيكين مع الاجانب . تلك حقيقة ، فالتفتوا الى ذلك . حطم مدفعان للعدو . اطلقت النار على طابور للمشاة . انا ذاهب الى القاعدة للتزود بالبنزين . . .»

كان دينيكين فى الجبهة . وقد انقضى اكثر من عام بقليل منذ ان كان يهتز فى عربة مصابا بالتهاب القصبات وملتفا ببطانية من فراء النمر فى قافلة من سبعة آلاف من مقاتلى جيش المتطوعين تحت قيادة كورنيلوف . شقوا لهم طريقا دمويا الى يكاترينودار . والآن كان دينيكين دكتاتورا مطلق الصلاحية على الدون الاسفل كله وعلى كوبان الغنية كلها وعلى تيريك وشمال القفقاس .

اخذ دينيكين معه فى هذه الجولة فى الجبهة الى الجنرال كوتيبوف عميلين عسكريين انجليزيا وفرنسيا ليشعرا بالحرج الشديد والخجل على اوديسا وخيرسون ونيقولاييف التى اعطيت للبلاشفة بشكل مشين . لو كان الجيش الاحمر النظامى اخرج من هناك الفرنسيين واليونانيين لهان الامر ! بل ان الفلاحين الانصار قتلوا بالسيوف لواء يونانيا كاملا فى نيقولاييف على مراى من المدمرات الفرنسية . وتراجع المنتصرون فى الحرب العالمية امام الفلاحين الروس ، فزعا على ما يبدو ، وبعد ان سلم الفرنسيون خيرسون جبنا اجلوا فرقتين من اوديسا . . . شىء لا يقبله العقل ! خافوا من شيوعيى موسكو . عزم انتون ايفانوفيتش على ان يُرى الاوربيين الامجاد راى العين كيف يحطم جيشه الشيوعيين حاملا شعارا من اكليل الغار والسيف .

وكان يضمر فى نفسه مساءة اخرى من قرار مجلس العشرة فى باريس عن تعيين الاميرال كولتشاك الحاكم الاعلى لروسيا كلها . راق لهم كولتشاك ! فى عام ١٩١٧ نزع عنه سيفه الذهبى ، والقاه من سلم الاميرالية فى البحر الاسود . وقد ذكرت ذلك الصحف فى جميع العالم تقريبا . وفى ذلك الحين كان الجنرال دينيكين سجينا فى

سجن بيخوفسكيا ، وقد صمتت الصحف عن ذلك . وفى عام ١٩١٨ يهرب كولتشاك الى امريكا الشمالية ، ويدرس فن الالغام فى اسطولهم الحربى ، والصحف تنشر صوره الى جانب نجوم السينما ... ويهرب الجنرال دينيكين من سجن بيخوفسكيا ، ويشترك فى الحملة الجليدية ، ويتسلم عند جثة القتيل كورنيلوف عبء القيادة الثقيل ، ويحتل مساحات اكبر من فرنسا ... فتكتفى صحيفة باريسية هزيلة بنشر ثلاثة اسطر عن ذلك ، مع صورة متخيلة له بسبلتين : «الجنرال دينيكين» ! بينما يعين كولتشاك حاكما لروسيا ، وهو دعى شهير ، مصاب بهستيريا وجنون العظمة مولع بالكوكايين !

لم يكن انتون ايفانوفيتش يؤمن بنجاح سلاح كولتشاك . فى كانون الاول كان بيبلايف وهو احد جنرالات كولتشاك الحديث الرتبة قد استولى على بيرم ، فاذا بكل الصحف الاجنبية تزعق : «قبضة حديدية تطل على موسكو البلشفية» . وحتى انتون ايفانوفيتش نفسه قد صدق بذلك برهة ، وتحمل نجاح بيبلايف على مضض . الا ان موسكو قد ارسلت الى كاما (كما ابلغت الاستخبارات) المفوض ستالين ، نفس الشخص الذى حطم فى الخريف كراسنوف مرتين قرب تساريتسين ، واسرع بتدابير جذريـــة فى تنظيم الدفاع ، وسدد لبيبلايف الشهير ضربة اخرجته من بيرم الى الاورال . وبهذه النتيجة كان لا بد ان ينتهى دون شك هجوم كولتشاك الحالى على الفولغا ، الذى يجرى دون استعداد حازم ، وبطريقة خادعة مصحوبة بهرج عالمى لا يصدق وهدير انتصـــــار من قبل تجار سيبيريـــــا السكارى . – تكتيكنـــــا يختلف قليلا عن التكتيــــــك الذى استخدمتموه واستخدمناه نحن والالمـــان فى الحرب العالميـــة . الصفوف اقل كثافة ، وبفواصل كبيرة جدا . وكل حضيرة تنفذ مهمة مستقلة .

قال دينيكين ذلك واقفا على سيارة جديدة مكشوفة انيقة من نوع «فيات» واشار بيده المقفزة بقفاز ابيض من الشموا الى لواء الفريق تبلوف ، وهو يقوم بحركة انتشار حاذقة وكانما هو فى استعراض .

وكان الى جانب القائد العام يقف الفرنسى فى سترة من الجوخ الناعم السماوى اللون ، وبنطلون عسكرى فاخر مثلها ، وعلى رأسه

كيبيه مخملية صغيرة غاطسة وممالة بشكل حاذق ولها شريط مذهب . ومن تحت المنظار الذى كان يحدق فيه برز شاربان صغيران ناعمان ، وعلى جانبه زمزمية من الالمنيوم للكونياك . الى هذا الحد كان الفرنسى مزودا باسباب الارتياح ! كما كان الانجليزى واقفـــا على موطئ السيارة ينظر فى منظار ايضا ، ولكنه اقل رهافة وابسط ملبسا فى لباس كاكى له جيوب عريضة محشوة بصور فوتوغرافية وتبغ وغلايين وقداحات ، وطاقيته المسطحة كالفطيرة ، المفرطة فى نزولها على الانف كانت موضع نقاش من قبل الحاشية الروسية الواقفة على مسافة تنم عن الاحترام . «مهما تقل فان الانجليز لا يعرفون كيف يلبسون البزة ، انهم من النوع البلدى ! والامر مختلف مع طاقية الفرسان ! ثم كيف كان فرسان جلالتها يرتدون القبعات ؟»

كان كوتيبوف الوعق يمتطى صهوة حصان كالميكى صغير قرب السيارة ، رجل وخط الشيب راسه عريض المنكبين فى فروة خروف محلولة الازرار ، وبمناسبة الاستعراض ارتدى قفازين وشد مهمازين . كانت عيناه الصغيرتان ملتهبتين فقد جاء اليوم الخامس وهو ما يزال يضرب مانيتش اللعين ، وكان يدرك جيدا ان هذه الحركة الاستعراضية التى يقوم بها لواء تبلوف امام هذين المدللين ما هى الا باليـــه ستكلف اللواء غاليا .

شرح دينيكين قائلا :

– ان خاصية هذه الحرب هى قدرتها الكبيرة على المناورة . ومن هنا تنبثق كل الاهمية التى تكتسبها الخيالة عندنا . وهنـــا لدى الافضلية الحاسمة : تيريك وكوبان والدون تقدم لى مائة الف خيال نظامى ...

– او لا – لا – لا – لا ...

ترنم الفرنسى بذلك رخى البال غير تارك المنظار من فوق عينيه .

– والحمر لا يملكون خيالة ، وليس لديهم القوة التى ينشئونها منها باستثناء لواء بوديونى الذى سبب متاعب كثيرة للاتمان السابق كراسنوف المسكين ...

قال الانجليزى من خلال اسنانـــه دون ان يترك المنظار ايضا :

— يجب ان يكون لك مائة الف سرج ولجام .

— نعم ، هنا تكمن المسالة كلها .

قال دينيكين ذلك بصوت جاف ، وامسك نفسه رغم انه كان يود كثيرا ان يقول الحقيقة كلها لهذين الحليفين فى هذه اللحظة بالذات ، وسط قواته ، وتحت هدير المدافع (كانت السيارة تقف على بعد فرسخ واحد فقط من البطاريات) . ان يقول لهم انهم تافهون ، وان سياستهم برمتها قصيرة النظر وجلة وبخيلة فى غاية التقتير ... فقد اثبت لهم مثل عملية حسابية بسيطة ان البلشفية اخطر عليهم من مائتين وخمسين فرقة المانيـــة ... فقدموا السلاح بالقدر الذى احتاجه ، ايها السادة ، اذا كنتم تخشون ارسال جنودكم الى روسيا ... سنتحاسب بعد ذلك ، فى موسكو .

— اذا لم يكف ما عندى من السروج فسادع القوزاق يجلسون على ظهور الخيول عارية .

قال دينيكين ذلك دون ان يضبط نفسه ان لم يكن بحدة فليس بزيادة فى الطيبة . والتفت الى المترجم ، وقال :

— ترجم ما تعنى كلمة عارية ليفهمها كلاهما .

ولكن المترجم ، وكان شابا على النمط الجنوبى مطواعا الى حد القرف عب الهواء بنهم فجاة ، بدلا من الجواب . وفى تلك اللحظة هتف كوتيبوف جاذبا راس حصانه ، وهامزا اياه :

— ايها السادة ، اسرعوا ، تحت السيارة !

مع هدير المعركة لم يلاحظوا كيف طارت فوق السيارة طائرة صفراء مترنحة . بل ولم يسنح الوقت لاى واحد منهم لاطلاق النار عليها ، فقد حلقت فى زاوية حادة طلع منها فالكا تشيرداكوف الضئيل الخشن الشعر ، والقى قنبلتين يدويتين احداهما على غطاء «الفيات» الفاخرة مباشرة ، والثانية على مقربة ... ثم كشف فى تكشيرة على اسنانه البيض ، وحلق عاليا .

ومـــع ذلك استطاع الجنرال دينيكين والانجليزى والفرنسى الانزلاق تحت السيارة ، وقد صعب ذلك على انتون ايفانوفيتش بشكل خاص بسبب كرشه ومعطفه الثقيل . ولم يصبهم الا الذعر . وتطاير افراد الحاشية فى جميع النواحى كالرشاش ، كما استطاع كوتيبوف نفسه ان يتنحى .

هاجم جيش المتطوعين بعنف لا مثيل له . وبقى الكثيرون منهم يرقدون منطرحين على السهب . الا ان صفوفا جديدة متزايدة ظلت تزحف نحو مانيتش . كانوا يظهرون هنا وهناك تحت النار المتوازية المنطلقة من الرشاشات الخفيفة ويركضون منحنين ، ويتجمعون على الضفة الاخرى من النهر . امر تليغين اخراج راية الفوج من المخبأ ، وخلع الغلاف منها .

لقد حلت اللحظة الحاسمة . كانت مدفعية البيض توجه نيرانها على احتياطات كاتشالين ، وتطايرت هناك اسدال كثيفة من التراب . ومن الضفة الاخرى كان ينهمر وابل غزير من الرصاص . واندفعت صفوف المتطوعين الاخيرة دون ان تنبطح على الارض . وتوقفت نار الرشاشات فجاة ، وقفز مئات الرجال فى النهر ، بضراوة غلى بها الماء ، وخوضوا فى الماء الى صدورهم والى رقابهم هازين البنادق ، وسبحوا وقفزوا من الماء مصابين بالرصاص ، وتخبطوا وغرقوا ، بينما انزلق على جثثهم آخرون جدد وجدد ... لم يكن عرض النهر هنا يزيد على ثلاثين ذراعا ... لم يعد فى مستطاع اية نيران من الرشاشات ايقاف هؤلاء الرجال المسعورين الزاعقين الى حد الجنون . ولكن عبثا كان صياح الفريق تبلوف وهو يقف وسط القصب فى الضفة الاخرى ملوحـــا بسيفه : «الى الامام ، الى الامام !» ظانا ان زخم الهجوم المفزع سيترك الحمر فى حالة ذعر فيتقهقرون ، ويفرون .

كان رجال فوج كاتشالين ينتظرون هذه اللحظة طيلة اليوم ، والذين اكل القلق قلوبهم ، وعانوا انفعالهم تقسوا فى توتر حانق . حين بدا الهجوم صاح امراء الوحدات والشيوعيون بالجنود الحمر ممسكين اياهم من قمصانهم او بناطيلهم لئلا يخرجوا قائلين «اطلقوا ، اطلقوا ...» وترددت شتائم مريعة فى الخنادق . اذ لم يكن بالعدد القليل منهم من شارك وهو فتى او فى سن الشباب فى مناوشة بقبضات الايدى فى الشتاء على الجليد ، على الجسر او فى وسط الشارع شادا حزامه بقوة ، مرتديا قفازات جلدية . لقد كانت فى دمائهم الرغبة القديمة فى العراك بالقبضات . «آه ، اوغاد ، آه ، اوغاد» ويملأ الحنق افئدتهم ... «اتركنى ، يا ... ابن !!..» وكان لاتوغين اول من قفز من الخندق شاكا حربته صارخا صرخة وحشية .. وانطلق الجنود الحمر وراءه منحدرين على الساحل الصبب للقاء المهاجمين «هورا ،

هورا ، هورا ! . . .» فيرد الاوغاد بهتاف مثلــه «هورا ، هورا ، هورا ! . . .» . كان هجوم رجال كاتشالين بالحراب لا يكبح فى جماحه . بعد ان صدوا الذين وصلوا الى الشاطئ من الاعداء ، خوضوا فى الماء ، وقاتلوا فى وسط النهر ، ضاربين باخامص البنادق ، ملقين القنابل اليدوية ، متقاتلين مع العدو بالسلاح الابيض . . . وكيف يستطيع الضباط ابناء الاعيان ذوو الاجسام المتأنقة ان يصمدوا ، مهما تكن روح القتال عندهم ، ضد فتيان الريف الاقوياء ، وعمال مناجــم الدونباس ، وعمال التفريغ والشحن على الفولغا ، وقاطعى الاخشاب الذين كانوا يظهرون فجاة من تحت الماء ويقفزون على اكتافهم . وتعالت فوق النهر المضطرم المحمر بالدم اصوات اللغط وقعقعة السلاح وهدير القنابل اليدوية المتفجرة . ودحر البيض ، وارجعوا الى الوراء ، فاخذوا يخرجون على الجانب الآخر من النهر . انزل الفريق تبلوف تعزيزات جديدة . عندئذ تناول المفوض ايفان غورا من حامل الراية راية الفوج المصنوعة من الحرير القرمزى بنجمتها الذهبية ، والمثقبة برصاص المعارك السابقة ، ورفعها عاليا ، وركض بخطوات ثقيلة نحو مانيتش محاطا بالشيوعيين .

والى الاعلى فى مجرى النهر ، حيث اخذ الماء ينزل بمستواه ، وتلوح فيه رؤوس القصب كان تليغين قبــل بدء الهجوم قد وضع الاحتياط تحت قيادة سابوجكوف . وحين تناول ايفان غورا الراية ترك تليغين نقطة القيادة ، ووثب على فرسه ، وعدا به الى مرج مغمور بالماء . وعندما وصل الى القصب صاح بالجنود الحمر الذين ظلوا نصف نهار باركين فى الوحل كالخنازير البرية :

— يا رفاق ، العدو يهرب . لا تدعوه يفيق على نفسه !

عبر مائة وخمسون مقاتلا تحت غطاء القصب الى الجانب الآخر من النهر جارين بايديهم رشاشات ثقيلة ، تاركين احذيتهم فى الفرين اللزج زاحفين تارة وسابحين تارة اخرى ، وخرجوا الى جناح رجال كوتيبوف واخذوا يضربونهم . وتقررت نتيجة المعركة . تراجع البيض من مانيتش ، واخذوا يتراجعون تحت غطاء من النيران ويفرون . وعلى مسافة بعيدة من جناحهم الايمن ، المنتشر فوق السهب كالحمم الخفيفة هبت لمساعدة فوج كاتشالين الخيالة من القطاع المجاور لقطــع الطريق عليهم .

خرجت فلول لواء تبلوف من الحصار . ولم يقع تحت حراب المقاتلين الحمر غير شراذم منفصلة من البيض متخلفة . واضحت الملاحقة ابعد من ذلك خطرة . امر تليغين سابوجكوف بتسوية خط الجبهة والتخندق ، وذهب بفرسه الى حيث كانت راية الفوج تلوح على بعد نصف فرسخ فى السهب . وكان يراقبها منذ زمن كيف عبرت النهر ، وتقدمت الى الامام ، وتوقفت ، وفجأة ارتخت ، وارتفعت من جديد ، ورفرفت وتحركت الى الامام .

غطت سحب سوداء الشمس الآفلة ، ودكن السهب بسرعة ، ولمعت فى الافق مدافــع كوتيبوف ، وصفرت القذائف متجهــة الى مكان ما ، وهدا كل شىء . وغطى الليــل ميدان المعركــة الدامية .

ظل تليغين يبحث عن المفوض ايفان غورا طالما كان فى الامكان رؤية الاشياء . والمقاتلون الحمر الذين التقى بهم اختلفوا فيما قالوا عنه . كان الجميع قد رأوه يعبر النهر حاملا الراية . ولكن الراية بعد ذلك كانت فى يد آمر السرية موشكين . ولكن حتى موشكين هذا قد جرح . واخيرا تبين ان الراية فى يدى شاب متين البنيان . جاء لاتوغين وغاغين الى تليغين . وقد بقيا وحدهما حيين من طاقم المدفع ، بعد ان حطمت القذائف مدفعهم تماما ، وقد اكمل خدمته الوفية .

قال لاتوغين محركا شفتيه بصعوبة :

— كم كان ذلك رهيبا . ان تذكره يبعث الذعر .

وقال غاغين الصموت عادة بصوت خافت ايضا :

— حتى الآن من الخطر الاقتراب من اى واحد من الفتيان . انهم يتنفسون ، كما لو باضلاعهم . . واذا نظرت اليهم يبدو وكأنهــم يطعنونك بحربة . . .

— العلك تبحث عن ايفان ستيبانوفيتش ، يا ايفان ايليتش ؟

— نعم ، نعم ، هل رأيته ؟

— تعال .

ساروا نحو النهر ملتفين حول الجثث . ومن الظلام ترامت هنا وهناك انات وتمتمات . وكان رجال الاسعاف يتنادون فيما بينهم باحثين عن الجرحى . وميز ايفان ايليتش همس كوزما كوزميتش الناشج . كان لاتوغين يمشى فى المقدمة فتوقف فجاة ، وقرفص .

— انت الآن عزيزة علينا عزة مضاعفة ... وسيكون طفلك ابن الفرج .. ففكري بالمهمة التي تحملينها – ومسد على شعرها – تناولي البندقية ، ولنذهب ...

احنت اغربيينا راسها بحداد الى المكان الذي جلست بالقرب منه طوال الليل . ونهضت ، وتناولت بندقيتها وقبعتها ونزلت من الرابية .

استمرت المعارك الداميـــــة على مانيتش الى منتصف ايار ، وهدأت . حنق الجنرال دينيكين لجهود كوتيبوف العقيمة فى خرق جبهة الجيش العاشر ، وللخسائر الفادحة للغاية ، فاستدعـاه الى يكاترينودار . وتكلــم انتون ايفانوفيتش فى مكتبـــه وبحضور رومانوفسكي المتعالى المزدرى ، وكانـــت نبرته مرتفعـــة وفى غير وجـــه حق ملقيا القلم السميك على الاوراق الموضوعة امامه :

— قل لى : هل نحن نقاتل ام نقوم باستعراضات بهلوانيـــة للسادة الحلفاء ؟ لسنا العبيد الذين كانت تلقيهم روما لمصارعة الاسود ، يا صاحب السيادة ! ما الداعي لكل هذا التهور ؟ فضيحة ! عملية غير متحضرة البتة ، حرب عصابات !

كان كوتيبوف يعرف دينيكين جيدا ، وفهم السبب فى فورانه هذا . صمت جهما ، ونظر بطرف عينه الى باقـــة الزهور الصغيرة بالقرب من المحبرة .

— تفضل ، اقرا ، وابتهج – وتناول دينيكين الورقة الاولى من ضمة الاوراق – خرقت جبهـــة الجيش التاسع الاحمر بخسائر تافهة ، وخرقت بشكل ممتاز ... ونحن ندخـــل منطقــة القوزاق المنتفضين . والظاهر اننا سنحتل قرية فيشينسكيا بعد ايام . . . الا انه كان من الممكن ان تتحول العمليات على دونيتس الى هجوم واسع ، لو لم يستخدم ذلك العدد الكبير من قواتنا على مانيتش . انا خجل ، يا سادة ، من استراتيجيتنا ... العالم كله ينظر الينا ... ولدى الناس هناك حساسية مرتفعة جدا ، كونوا على ثقة ... تفضلوا هنا ...

وبحث عن نظارته الانفيـــة بين الاوراق وسار مع كوتيبوف ورومانوفسكي الى طاولة من خشب البلوط حيث بسطت خرائط عسكرية .

كانت الخطة هي ان يقوم الجنرالان بوكروفسكي واولاغاي بعد فراغهما من تركيز قوات خيالـــة كبيرة على جناحي الجيش العاشر باختراق مؤخرته وتحطيم قوة الخيالة البلشفية ، والاستيلاء على محطة فيليكوكنياجيسكيا ، والانتهاء خلال اربعة او خمسة ايام من محاصرة الحمر كليا على مانيتش .

اخرج دينيكين من جيب جانبى منديلا قطنيا نظيفا فواحا بماء الكولونيا ، واخذ يمسح به نظارته الانفية . وارتعشت قليلا اصابعه القصيرة بجلدها الجاف اللامع .

— ان جيش المتطوعين يحل قضايا السياسة العالمية . وقد اخذ الغرب يفهم ذلك بعد سقوط اوديسا وخيرسون ونيقولاييف ... ويجب ان نقوم بضربات خاطفة ماحقة . والثناء فى هذه الحرب يتحول الى ناقلات الاسلحة ... وقــد كنت دائما احذر من المجازفة . وانا لا احب الالعاب المغامرة . ولكنني ايضا لا احب الخسارة ... واذا نجاحاتنا فى الدونباس لا تكتسب نطاق هجوم عام فى عمق البلاد ولا تنتهي بموسكو فساضع رصاصة فى صدغي ، ايها السادة ...

دق رومانوفسكي الوسيم طرف سيكارته على علبة سيكائره الفضية بابتسامة متشامخة . والقى الجنرال كوتيبوف نظرة جانبية من تحت جبينه المغضن الواطي، وحدس من اين لانتون ايفانوفيتش هذا الافق فى الافكار . اذن ، فانهم يلفون له ذيله بقوة ، يوبخونه . ولكن كوتيبوف كان جنرال ميدان لا جنرال اركان . اى ان قضايا الاستراتيجية كانت تبدو له ضبابية جدا ومتعبة ، وكان عمله ان ينحر العدو فى مكانه . قال :

— سنفعل كل ما فى وسعنا ، يا صاحب المقام الرفيع . اذا امرت بان نحتل موسكو هذا الخريف فسنحتلها ...

ظل رجال كاتشاليين خلال ثلاثة ايام يشقون طريقهم نحو الطريق الحديدى دون ان ينالوا جرعة من ماء او قطعة من خبز . لقد صدر فى

الحادى والعشرين من ايار امر بالتراجع . وتراجع الجيش العاشر من مانيتش شمالا الى تساريتسين شاقا الحصار بجهود وضحايا ضخمة . وكانت ريح جافة تهب ، وتسطع الافسنتين على الارض ، وكان السهب رماديا ، والافق البعيد كدرا حيث كان خيالة اولاغاى تقف كقطعان الذئاب .

وكانت خيول العربات تسقط هالكة ، والجرحى والمرضى من الرفاق ينقلون الى عربات كانت مكتظة بدونهم . وكان ذوو الجراح الخفيفة والممرضات يسيرون وراء العربات متعثرين . وكانت الشفاه تتورم وتتشقق من العطش . وكانت العيون الملتهبة المتقلصة اتقاء الريح الشرقية تبحث فى الافق عن معالم مضخة الماء التابعة للسكة الحديد . ومن منخفضات السهب العريضة لم تفح حتى رائحة رطوبة ، بينما كانت المياه هنا تصل الى الوسط قبل مدة قصيرة .فليت هناك بعض القطرات من ذلك الماء ليبل الافواه السوداء !

فى احد هذه المنخفضات حين نزلت العربات على منحدر معشب وقعوا فى كمين ، وارتفعت الطلقات من مكان قريب ، وهجم القوزاق على العربات المضطربة حاثين خيولهم ، طالعين من مخبأ لا يعرفه الا الشيطان ، مؤملين غنيمة سهلة . انحدر زهاء خمسين من النهابين القتلة على المنحدر شارعين لحاهم . الا انهم رجعوا بنفس الخفة ، حين اخذ الرصاص يتصدى لهم من وراء كل عربة ، فقد كان كل جريح مزودا ببندقية ، وحتى داشا اطلقت النار مقلصـــــة عينيها بكل قوتها .

استدار القوزاق بافراسهم ، ولم يقع الا واحد منهم تدحرج مع فرسه . وتراكضوا نحوه آملين ان يأخذوا منه زمزمية الماء . وتبين انه يضع كتافيتين فضيتين . سحبوه من تحت الفرس القتيل فراح يكرر مذعورا : «استسلم . . . استسلم . اعطيكم معلومات قودونى الى الآمر . . .»

انتزعوا منه زمزمية الماء ، كما وجدوا زمزميتين اخريين فى عدل السرج .

– اجلبوه حيا الى هنا !

صاح آمر السرية موشكين الذى كان يجلس فى العربة مكسور الذراع مضمد الرأس .

وقف الضابط الاسير امامه فى هيئة استعداد . كانت له سحنة رذيلة قلّ ما صادف ان رأى مثلها : وجه مترهل ذو فم رخو وعينين ميتتين . وكانت رائحته حريفة ثقيلة .

– هل انت نظامى ام من رجال العصابات ؟

– من وحدة غير نظامية مساعدة .

– أتقومون بالانتفاضات فى مؤخرتنا ؟

– نحن بموجب امر الجنرال اولاغاى نقوم بتعبئة الذين انهوا مدة الخدمة . . .

وسارت العربات من جديد ، وسار الضابط الى جانب العربة . وكان يرد باحر استعداد وطواعية وبدقة . كان يعرف كيف يشترى حياته ، والظاهر انه كان من رجال الاستطلاع ذوى الدراية . سار بعض المقاتلين الحمر بالقرب من العربة ليسمع ما يقوله . واخذ الرجال يتبادلون النظرات حين تحدث عن دونيتس فى رد على سؤال عـــن تراجع الجيش الاحمر التاسع ، وكيف ان فيلق الجنرال سيكريتوف للخيالة قد احدث ثغرة بين الجيشين التاسع والثامن ، وراح يغير على مؤخرات الحمر .

– تكذب ، تكذب . لم يحدث هذا .

قال آمر السرية موشكين ذلك فى غير وثوق ، ودون ان ينظر اليه .

– ابدا . هذا صحيـــــح . ارجو المعذرة : لدى نشرة القيادة العليا . . . .

نزلت انيسيا نازاروفا من العربة ، وسارت ايضا مع جماعة المقاتلين الحمر بالقـــرب من الاسير . قرأ موشكين اوراق النشرة المرفرفة بالريح . وانتظر الجميع ما سيقوله . كانت انيسيا طوال الوقت تبعد الرفاق بيدها الضعيفة لتقترب من الاسير اكثر . فكانوا يقولون لها : «ما هذا ؟ لا يوجد شىء يلفت النظر . . .» كانت قدماها مثقلتين ، ورأسها موجعا ، وعيناها كأنما ذر فيهما رمل جاف . لم تستطع الوصول الى الاسير فلحقت برفاقها ، وتعثرت وامسكت بعنان الفرس ، واوقفت العربة . لم يدرك احد فى الحال ما هى مقبلة عليه . اتلعت رقبتها ، ونظرت الى الاسير بعينيها الشاحبتين الواسعتين على كل وجهها المسود الناحل . وقالت :

– انا اعرف هذا الرجل ! يا رفاق ، ان هذا الرجل هو الذى احرق ولدىّ حيين ، وضربنى ضربا مميتا . . . وجلد فى قريتنا تسعة وعشرين رجلا حتى الموت . . . .

اكتفى الضابط بابتسامة ساخرة ، وهز كتفا . واطبق المقاتلون الحمر فى الحال ، ونقلوا ابصارهم بينه وبين انيسيا . قال موشكين :

– حسنا ، حسنا ، سنتحقق من ذلك . اذهبى ، وانطرحى على العربة ، يا عزيزتى ، اذهبى . .

كررت انيسيا ، وكانها فى اغماءة :

– يا رفاق ، يا رفاق . لا يجوز ان يترك حيا . انا افضل على ذلك ان تقطعوا قلبى . . . فتشوه . . . اسمه نيميشايف ، وهو يتذكرنى . . . انظروا ، لقد عرفنى !

صاحت فرحة مشيرة اليه باصبعها .

امتدت عشرات الايدى ، ومزقت سترة الضابط القوزاقية المشبعة بالعرق ، ومزقت قميصه ، وقلبت جيوبه ، وصدقت انيسيا ، فقد وجدوا هوية عسكرية باسم آمر السرية نيقولاى نيقولايفيتش نيميشايف .

ظل يكرر مدلهم السحنة :

– انا لا اعرف شيئا ، لا افهم . المراة تكذب ، تهذى ، انها مصابة بالتيفوس .

عرف المقاتلون الحمر ماساة انيسيا ، وتراجعوا فى صمت حين تناولت انيسيا البندقية من احدهم ، واقتربت من نيميشايف ومست كتفه بيدها ، وقالت :

– لنذهب .

تلفت بوحشية فى وجوه المقاتلين الحمر الرصينة وزفر واراد ان يقول شيئا لموشكين الذى استدار عنه ماضيا فى قراءة النشرة . وامسك الاسير بجانب العربة ، وكان فى ذلك انقاذا له . الا انهم فصلوه عنه ، ووخزوه فى ظهره :

– اذهب ، اذهب . . .

عندئذ سار فى السهب مذهولا ، غارزا راسه بين كتفيه ، متعثرا كالاعمى . وسارت انيسيا على بعد عشر خطوات وراءه ، ورفعت البندقية الثقيلة ، وضغطت الاخمص على كتفها :

– التفت نحوى .

التفت نيميشايف خفيف الحركة متهيئا للقفز ، واطلقت انيسيا النار فى وجهه ، ولم تلق نظرة اخرى ، وعادت الى رفاقها دون ان تلتفت . وكان هؤلاء ينظرون بلا حراك وبجهامة وهم يشهدون عملية اعدام محققة .

وقالت انيسيا :

– يا صاحب البندقية ، خذها .

وسارت نحو العربة الاخيرة ، وصعدت اليها ، واستلقت ، وتغطت بدثار الفرس .

١٧

كانت كاتيا تصحح الاملاء فى الدفاتر المدرسية . كانت هذه الدفاتر المقطوعة والمخاطة من انواع مختلفة من ورق الجدران (كانوا لا يكتبون الا على الجانب الخلفى منها) انجازا هائلا فى حياتها البائسة . ومن اجلها سافرت بمفردها الى كييف . كان الوصول الى مفوض الشعب لشؤون التعليم سهلا . حين علم المفوض بشخصيتها وبالسبب الذى جاءت من اجله ، امسكها من مرفقيها ، واجلسها فى مقعد ، وسكب شاى الجزر من سخان شاى مسود موضوع على طاولة فاخرة ، وقدمه لها مع نصف قطعة من الملبس . وسار على البساط جيئة وذهابا ملقيا على كتفه معطفا فرائيا مرتديا حذاء لباديا ، وراح يبسط لها برنامجا للتعليم الشعبى يدير الراس .

– خلال عشر او خمس عشرة سنة ستكون بلادا متعلمة . وستيسر كنوز الثقافة العالمية لجماهير الشعب – قال ذلك بابتسامة خيالية ماسا لحيته – امامنا عمل جبار فى محو الامية . ان هذا العار يجب ان يمحى . انها قضية شرف لكل مثقف . . . يجب ان يغمر الجيل الجديد بالتعليم من دور الحضانة ورياض الاطفال حتى الجامعة . . . نحن البلاشفة ، لن يعيقنا احد ولا اى شىء من التحقيق عمليا ما كان احسن ممثلى مثقفينا يحلمون به فقط . . .

ووعد مفوض الشعب كاتيا بعشرة آلاف دفتر وبكتب مدرسية وادبية واقلام والواح كتابة ، ولوحات للصفوف . وخرجت منه عبر درج مرمرى ، وكانها تحلم . ولكن بعد ذلك حصلت مصاعب

وتعقيدات . وكلما اقتربت كاتيا من الدفاتر والكتب المدرسية صارت هذه اكثر بعدا عن الواقع ، واصبح الناس الذين يتوقف عليهم امر تسليمها الدفاتر والكتب المدرسية اكثر مواربة وسخرية او جهامة . وعادت كاتيا يائسة الى غرفتها فى الفندق ، حيث السرير بلا حشية ، والمصباح الكهربائى العالى فى السقف يبدو محترقا ويكاد يلفظ انفاسه ، وجلست فى معطفها على اريكة متخلخلة .

ذات يوم دخل عليها الغرفة دون استئذان رجل ضخم فى قبعة شعثاء وسترة محزمة جيدا ، ودخل الموضوع راسا ، وسالها بصوت اجش :

– ما تزالين هنا ؟ انا اعرف قضيتك . اريني الاستشهادات التى لديك .

وراح يفحص الوثائق وهو واقف تحت المصباح المحمر . نظرت كاتيا بوثوق الى وجهه الفكه القوى الجميل . قال :

– اوغاد . مخربون محتالون . . . غدا تعالى فى ساعة مبكرة لمقابلتى فى لجنة المدينة ، سنفعل شيئا ، نفكر فى شىء . . . الى اللقاء .

وبواسطة هذا الرجل حصلت كاتيا من المستودعات على ورق الجدران ، واقلام وعلى مكتبة كاملة مصادرة من صاحب معمل سكر ذواقة جمال كان نصفها باللغة الفرنسية . ولعل اتعب شىء لها كان طريق العودة بهذه الكنوز فى عربة بضاعة كان يندفع اليها فى كل محطة فلاحون ملتحون مخيفو العيون يحملون اكياسا ، ونساء هائجات منتفخات كالابقار بكل ما يحملن من الماكولات يخفينها تحت السترة والتنورات .

وظهر ان لكاتيا شيئا من القوة . ليست هى قطيطة لا حول لها – ذات ظهر هش وعينين جميلتين – ترسل صوتها الوانى عند اسرة الآخرين .

وجدت فى نفسها شيئا من القوة منذ ذلك المساء الذى اعلن فيه الكسى خطوبته لها فى غير توفيق . نظرت كاتيا فى النعمة المعدة لها كزوجة صاحب حانوت ريفى ، وتراجعت كرجل يرى فى الطريق قبرا محفورا له ، فيتوقف ، ويهتز اشمئزازا . لقد بدت لها عينا الكسى النهمتان المترعتان بالخمرة قبرا ! الكسى رب البيت والزوج !

واضطرب كل شىء فى داخل كاتيا ، وتمرد ، وكان ذلك بالنسبة لها اكثر الاشياء مفاجأة وابهاجا ، مثل الاحساس بالقوة بعد مرض طويل . كما كان مفاجأة قرارها فى الفرار الى موسكو ، حين يكون الجو اكثر دفئا . كما وجدت فى نفسها الحيلة لتخفى كل ذلك . فلم يلاحظ الكسى وماترينا سوى انها ابتهجت ، وانها بدات تعمل وتغنى .

اضحى الكسى الآن يغمز باستمرار سواء عند الغداء او العشاء (وكان لا يرى فى البيت فى غير هذه الاوقات) :«خطيبتنا هذه مرحة . . .» . وكان هو يبدو مبتهجا بحصوله على قرار من اجتماع القرية فك جناح ضيعة الامير ، ونقل خشبه وآجره الى قطعة ارضه .

حين استولى الجيش الاحمر على كييف فى بداية كانون الثانى مرت وحدة عسكرية بقرية فلاديميرسكويه وكان الكسى اول من هتف للسوفييتات فى اجتماع عام . ولكن الامور اتخذت اتجاها آخر بعد وقت قصير .

جاء الرفيق ياكوف الى القرية . فصادر الدار الحسنة البناء التابعة لقس القرية ، ونقل القس وزوجته ليعيشا فى الحمام . ودعا الى اجتماع عام ، وطرح القضية على الشكل التالى : «الدين افيون الشعوب . ومن يعارض غلق الكنيسة يعارض السلطة السوفييتية . . .» وفى ذلك الاجتماع ودون ان يعطى كلمة لاحد اجرى التصويت ، وختمت الكنيسة بالشمع . وبعد ذلك عزل العمال الزراعيين والمعدمين من الفلاحين والفلاحات – وكانوا زهاء اربعين فى القرية – عن سائر الفلاحين الآخرين . ونظم من هؤلاء الاربعين لجنة الفلاحين الفقراء . وتكلم بحنق دافق فى اجتماع لها فى بيت القس :

– الموجيك * الروسى وحش جاهل . عاش الف عام فى الروث ، ليس له ولا يمكن ان يكون له غير الحقد المكلوم والجشع ، ونحن لا نثق بالموجيك ولن نثق به ابدا . سنشفق عليه ، ما دام سائرا معنا ، ولكن بعد قليل سنكف عن ذلك . انتم – بروليتاريو الريف – يجب ان تتسلموا السلطة بقوة ، ويجب ان تساعدونا على قص جناحى الموجيك .

* فضلت استخدام اللفظة الروسية لرفع الالتباس بينها وبين كلمة فلاح التى لها لفظة اخرى مختلفة الدلالة . **(المترجم)** .

واخاف ياكوف القرية كلها ، وحتى اعضاء اللجنة . وكل كلمة تقال فى القرية يعرفها الجميع ، وسرى تهامس فى البيوت :

«لماذا يقول ذلك ؟ لسنا وحوشا ، بل روسا ، ونعيش فى وطننا ، وفجاة لا تجوز الثقة بنا . . ثم كيف تقص اجنحتنا ؟ قصوا جناح الكسى كراسيلنيكوف ، فهو لص . قصوا جناح كوندراتنيكوف ، ونيتشيبوروف . ذلك حق ، لانهما مصاصا دماء معروفان . . . فكيف يكسر جناحى على قميصى المالح ؟ لا ، ليس الامر كذلك ، خطأ . . .» وكان آخرون يقولون : «يا رب ، هذه هى السلطة السوفييتية ! . .»

وعندما كان ياكوف يخرج من الفناء لشأن من شؤونه السيئة قذرا لم يحلق وجهه منذ زمن بعيد ، فى معطف جندى ممزق ، وقبعة مخلوعة الظليلة – ولكنه فى حذاء طويل جيد ، على اية حال ، والمعطف يخفى جيد اللباس – كان الجميع يراقبونه من النوافذ ، وكان الفلاحون يهزون رؤوسهم فى حيرة كبيرة ، وينتظرون ماذا سيحدث بعد ؟

فى آذار حين بدأ نقل الروث من توه الى الحقل دعا ياكوف الى اجتماع عام ، وطالب مهددا مرة اخرى بتهمة معاداة الثورة بتسجيل رؤوس الخيل كلها ، ومصادرة الخيول الزائدة ، واقامة استثمارة جماعيـة على الفور فى ضيعـة الامير . . . وقطع هذا الشيطان القذر ايصال الروث ، والحراثة الربيعية !

وبعد ذلك بوقت قصير وصلت الى القرية فرقة تموين . وعرف فى الحال ان ياكوف قدم لاعضائها قوائم لفائض الحبوب ضخمة بحيث قيل انهم بسطوا ايديهم مندهشين . وطاف ياكوف بنفسه على البيوت ومعه الشهود مؤشرا بالطباشير على الابواب الكمية التى ستؤخذ من هذا البيت او ذاك .

وكان الفلاح يصرخ «فى حياتى كلها لم تقع عينى على مثل هذه الكمية» وهو يحاول ان يمسح الرقم بكمه . وكان ياكوف يقول لاعضاء الفرقة : «فتشوا فى سردابه . . .» كان الفلاح يخاف ان يرسم علامة الصليب بحضور ياكوف ، فكان يشق فروته وهى عليـه ذارفـا الدموع : «لا شىء هنا ، يا الهى . . .» فيأمر ياكوف «حطموا موقده ، فقد خبأ شيئا تحت الموقد . . .»

ونظفت جهوده القريـة الى الصفر ، ونقلت منهـا حتى تقاوى لقمح . استدعى ياكوف الكسى كراسيلنيكوف الى مكتبه فى اللجنة ،

واغلق الباب الذى دقت عليه بالمسامير صورة رئيس المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية ، ووضع المسدس على الطاولة بالقرب منه ، ونظر ساخرا الى الكسى المتجهم .

– حسنا ، هل نتبادل الحديث ؟ أعندك حبوب ؟

– من اين لى الحبوب ؟ فى الخريف لم احرث ولم ابذر .

– والى اين سقت الخيول ؟

– وزعتها على الضياع ، على المعارف .

– واين اخفيت الفلوس ؟

– اية فلوس ؟

– المنهوبة .

جلس الكسى مطرق الراس ، سوى ان اصابع يده اليمنى كانت تنطوى وتنبسط دلالة على السماح والاخذ . قال :

– سيكون هذا غير لطيف . حسنا ضريبة ، انها مفهومة . . . ولكن ذلك مثل امساك الانسان من رقبته ، وتخليعه لقميصه . . . .

– سنضطر الى تحويلك الى اللجنة الاستثنائية . . .

– ولكننى لا ارفض . الواجب هو الواجب . سأجلب الفلوس .

عندما وصل الكسى الى البيت اندفع الى السرداب رأسا ، واخرج من هناك محفظات السفر وزكائب وصرر اقمشة . فى احدى المحفظات كان يخبىء الفلوس القيصرية وفلوس الدون ، وقد حشرهـا فى الجيوب تحت القميص . واعطى محفظة اخرى لماترينا مملوءة بعملة كيرينسكى ، فانها سقط متاع لا تساوى شيئا قائلا :

– خذيها الى اللجنـة ، وقولى ليست عندنا غيرها . واذا لـم يصدقوا ، وجاءوا الى هنـا ليرفعوا غطاء السرداب لا تقاومى . القى الساعات والسلاسل فى البئر . وضعى القماش فى العربـة ، وغطيها بالتبن ، وفى الليل خذى حصان الجد افاناسى ، وانقليه الى ضيعة دمينتييف . سانتظرك هناك .

– الكسى ، الى اين تنوى الذهاب ؟

– لا ادرى . لا اعود فى وقت قريب . وحين اعود ستسمعاننى كلتاكما بطريقة اخرى .

سحبت ماترينا منديلها الصوفى الى حاجبيها ، وغطت باطرافه محفظة نقود كيرينسكى ، وذهبت الى اللجنـة . اغلق الكسى الباب

بالمزلاج ، والتفت نحو كاتيا التى كانت واقفة قرب الموقد . كانت عيناه شامتتين ، ومنخراه منتفخين .

– ضعى عليك ملابس ادفا ، يا يكاترينا دميترييفنا . معطفا فرائيا وجوربين صوفيين . . . وفى الداخل ملابس دافئـــة . . ثـم اسرعى . . ليس لنا وقت نضيعه . . . .

ونظر الى كاتيا موسعا عينيه ، وبدا وكان شررا يقدح من حول حدقتيه ، واهتز طرفا شاربيه القاسيان الكتانيان فوق اسنان عارية . اجابت كاتيا :

– لن اذهب معك لاى مكان . . .

– اهذا جوابك ؟ لا يوجد جواب آخر ؟

– لن اذهب .

تقدم الكسى منها ، وابيض منخراه المنتفخان .

– لن اتركك وحدك ، فلا تاملى ذلك . انا لم اطعمك يا كلبة ليفسدك شخص آخر . . . سيدة من حلوى . . . انا لم امسسك حتى الآن ، وستانين ، ايتها البهيمة ، حين الوى يديك وقدميك . . .

وامسك كاتيا بيدين حديديتين ، وشخر – اذ ضغطت كوعها على تفاحة آدم من رقبته – وحملها بخطوتين الى السرير ، جمعت كاتيا القوة التى لا تعرف كيف واتتها ، وخلصت نفسها مرددة : «لا اريد ، لا اريد ، وحش ، وحش . . .» ووثبت ، ولكنه سقط عليها من جديد . وكان يشعر بالثقل والحر وهو فى فروتـه المحشوة بالنقود . واخذ يضرب كاتيا خبط عشواء . خبات كاتيا راسها ، وراحت تكرر بكراهية وحشيـة من خلال اسنانهـا المصكوكة «اقتلنى ، اقتلنى ، وحش ، وحش . . .»

تحرك المزلاج فى الباب . وصاحت ماترينا من الرواق «افتح ، يا الكسى ! . . .» تراجـــع عن السرير ، وامسك بوجهـــه . اخذت ماترينا تدق بقوة اشد ، ففتح الباب . قالت ماترينا وهى تدخل :

– احمق . ارحل باسرع وقت . انهم قادمون الى هنا .

نظر الكسى اليها لحظة ، وادرك ، ولاح وجهه اكثر استيعابا للامر . جمع صرر القماش والزكائب وخرج . وركب الحصان الوحيد المتبقى فى البيت ، وانصرف من الفنـاء الخلفى عبر ثغور السيـاج

الخارجى ، وهبط يعدو نحو النهير ، وعبر الى الجهة الثانية . واختفى وراء الحرش .

بعد وقت قصير اخرجت ماترينا من الصندوق تنورة وبلوزة ، والقتها على السرير ، حيث كانت كاتيا ترقد ممزقة الثياب .

– البسى ، واذهبى الى حيث تشائين . انا اخجـل من النظر اليك .

فتش ياكوف والشهود بيت الكسى من السرداب الى العلية ، الا انهم لم يجدوا الذى كان مخبئا فى العربة . وفى الليل جلبت ماترينا الحصان ، وغادرت الى الضيعة . ظلت كاتيا جالسة طوال الليل دون ان تخلع معطفها فى البيت المظلم البارد منتظرة بزوغ الفجر . وكان عليها ان تقلب الفكر جيدا بكل الامور . ستغادر ما ان يطلع الفجر . الى اين ؟ وضعت كوعيها على الطاولة وضغطت على راسها ، واخذت تنشـــج . مضت الى الجردل عند الباب ، وشربت من المغرفـــة . الى موسكو بالطبع . ولكن من بقى هناك من المعارف القدامى ؟ كلهم قد تبعثروا . . . وغفت على الطاولـــة ، وحين اخذتها رجفة قويــــة واستيقظت ، كانت الدنيا قد تنورت . لم تعد ماترينا حتى الآن . سوت كاتيا المنديل على راسها ، ونظرت فى المرآة على الحائط . يا للفظاعة ! وذهبت الى اللجنة .

قضت وقتا طويلا على المدخـــل الخلفى تنتظر ان يستيقظ الناس فى بيت القس . واخيرا خرج ياكوف يحمل جردل الماء القذر ، ودلقه على كومة ثلج وسخ ، وقال لكاتيا :

– كنت انوى استدعاءك . . . تعالى . . .

وقاد كاتيا داخل البيت ، وطلب اليها الجلوس ، وبحث فى جرار الطاولة بعض الوقت .

– سنرمى بالرصاص زوجك او لا اعرف من هو بالنسبة لك .

ردت كاتيا بسرعة :

– انه ليس زوجى . . ارجو فقط ان توفر لى الفرصة للخروج من هنا . اريد السفر الى موسكو . . . .

كرر ياكوف ساخرا :

– «اريد السفر الى موسكو» وانا اريد ان انقذك من الرمى .

ظلت كاتيا جالسة عنده حتى المساء راوية له كل شىء عنها ،

وعن علاقتها بالكسى . وكان ياكوف يخرج بين الحين والآخر مدة طويلة ، ويعود ليجلس مستلقيا ويدخن . قال :

– تقضى توجيهات مفوضية الشعب للتعليم بضرورة فتح مدرسة فى القرية . انت غير ملائمة كثيرا ، ولكن على الاقل لنجرب . . . وواجبك الثانى ان تخبرينى بكل ما يحدث فى القرية . وسنتفق فيما بعد على تفاصيل هذه المراسلة . واحذرك من العقاب الشديد اذا اخذت تثرثرين بذلك . وانصحك بان تنسى موسكو فى الوقت الحاضر .

وهكذا اضحت كاتيا معلمة دون توقع . خصص لها بيت صغير فارغ قرب المدرسة . وكان المعلم السابق العجوز قد مات فيه فى تشرين الثانى لاصابته بالتهاب الرئتين . وكان البتليوريون الذين اتخذوا المدرسة فى وقت من الاوقات مقرا لوحدة عسكرية قد استهلكوا جميع الكتب والدفاتر وحتى الخارطة الجغرافية بلف سيكائرهم باوراقها . وكانت كاتيا لا تعرف باى شىء تبدأ ، وذهبت لتستشير ياكوف . الا انه لم يعد فى القرية . فقد غادرها فجاة مثلما جاء اليها بعد ان تلقى برقية مرسلة بيد رسول خاص ، ولم يلحق ان يخبر احدا غير الجد افاناسى الذى راح الآن يتردد على لجنة فقراء الفلاحين خائفا ان يفقد نفوذه :

– خبر الرفاق بان لا يتهاونوا مع الفلاحين الموجيك . ساعود واتحقق . . . .

وهدات القرية بعد مغادرة ياكوف لها . وكان الفلاحون لدى مجيئهم الى بيت القس يجلسون قليلا عند مدخله ، ويقولون لاعضاء اللجنة :

– قمتم باشياء واشياء ، يا رفاق . وكيف تتحملون المسؤولية عنها ؟ اى ، اى . . .

وكان اعضاء اللجنة انفسهم يعرفون ماذا تعنى «اى ، اى . .» وان القرية هادئة فى الظاهر فقط . ولم يعد ياكوف وسرت شائعة عن الكسى كراسيلنيكوف تزعم انه جمع فصيلة فى القضاء وتسلل الى الاتمان غريغوريف . وسرعان ما اخذت القرية كلها تتحدث عن غريغوريف هذا ، الذى اصدر مرسوما ، وهب للقضاء على السلطة السوفييتية . وعاد الناس من جديد ينتظرون تغيرات .

وعد العاملون فى سوفييت القرية كاتيا بمساعدتها بشىء ما : اصلاح المواقد ، ووضع الزجاج . وقامت كاتيا نفسها بغسل ارض المدرسة والنوافذ ، وصفت المقاعد المدرسية المخلخلة . وكانت امرأة صافية الضمير ، وفى الامسيات كانت تبكى وحدها فى بيتها الصغير لانها كانت تخجل من خداع الاطفال . اى شىء كانت تستطيع ان تعلمهم دون كتب ودون دفاتر ؟ واى اصول الصلاح يمكن ان تلقنهم ، بينما كانت تعتبر نفسها غير صالحة كليا . . . . وجاء اليوم حين ارتفعت اصوات الصبيان والصبيات مرحة فى بكرة الصباح قرب المدرسة . واضطرت ان تجمع رباطة جاشها كلها . مشطت شعرها بنعومة ، وشدته بعقصة قوية ، وغسلت يديها جيدا . وفتحت باب المدرسة ، وابتسمت ، وقالت للصبيان والصبايا الصغار الذين رفعوا اليها انوفهم الصغيرة :

– على الرحب والسعة ، يا اطفال .

– مرحبا ، يكاترينا دميترييفنا .

صاح الاطفال باصوات صافية رنانة مرحة حتى احست بنفحة من الشباب تمر على قلبها . اجلست الاطفال على المقاعد ، وصعدت المنصة ، ورفعت سبابتها وقالت :

– يا اطفال ، ما دمنا بلا كتب ولا دفاتر ولا شىء نكتب به فساحدثكم انا ، واذا استعصى عليكم فهم شىء اسالونى . . اليوم سنبدأ برووريك وسنيوس وتروفور . . .

كانت ادوات كاتيا المنزلية ضئيلة جدا . فلم ترد ان تاخذ شيئا من بيت الكسى ، كما انه صعب عليها ان تلتقى بماترينا بوجهها النحيل الكئيب . كانت فى بيتها مكنسة من العساليج قرب العتبة ، وقدران فخاريان على الرف ، وحوض خشبى قديم للماء . وكانت سلوتها حديقة صغيرة محاطة بسياج فيها شجرتا كرز ، وشجرة تفاح وعنب الثعلب . ووراء السياج يبدأ حقل .

وعندما ازهرت شجرتا الكرز احست كاتيا وكانها فى السابعة عشرة من عمرها .

وكانت فى العادة تهيئ دروسها فى الحديقة ، وتقرأ الروايات الفرنسية من مكتبة صاحب معمل السكر ، وكثيرا ما تتذكر باريس فى السديم الازرق للاعوام الماضية . فى عام ١٩١٤ كانت تعيش فى

صاحية لباريس فى شقة فى الطابق العلوى تحت سقف منحن لها شرفة تطل على شارع هادئ ضيق ، فوق سقف بيت صغير عاش فيه بلزاك فى وقت من الاوقات . وكانت نوافذ مكتبه لا تطل على الشارع ، بل على الحدائق المتحدرة نحو السين . وفى زمانه كانت هذه منطقة ريفية . وحين كان دائنوه يظهرون من جانب الشارع كان هو يبتعد عنهم عبر الحدائق الى السين . والآن صارت تلك الحدائق ملكا لامرأة امريكية ثرية ، وفى الامسيات ، حين كانت كاتيا تخرج الى الشرفة كانت تسمع الطواويس تصيح باصوات ربيعية حادة ، فكان يبدو لكاتيا – التى جاءت الى باريس بعد انفصالها عن زوجها – فى وحشة وانعزال ان الحياة قد بلغت نهايتها .

احب الاطفال كاتيا ، وكانوا فى الدروس يصغون اليها بانتباه شديد وهى تروى قصصا من التاريخ الروسى تبدو كالحكايات . وبالطبع كانت مسائل الحساب وجدول الضرب والاملاء اكثر صعوبة بالنسبة للاطفال ، وبالنسبة لكاتيا نفسها ، ولكنهم تغلبوا على ذلك بالجهود المشتركة . وصارت معاملة اهل القرية لها افضل بكثير ، فقد عرف الجميع ان الكسى كاد يقتلها . وكانت النساء يحملن اليها الحليب والبيض والخبز . فكانت كاتيا تقتات على ما يحملنه اليها .

كانت كاتيا تصحح الدفاتر وهى جالسة تحت شجرة التفاح القديمة المغطاة بالصوفة . وكان صبى صغير ينشج منذ وقت طويل وراء السياج الواطئ الواهن ايضا .

– يا عمة كاتيا ، لن افعل ذلك مرة اخرى .

– لا ، يا ايفان غافريكوف ، انا زعلانة عليك . ولا اتكلم معك يومين .

كان ايفان غافريكوف ذو العينين الزرقاوين البريئتين كثير المشاكسة . كان يجر الفتيات من ضفائرهن فى الدروس ، وحين وبخوه على ذلك تظاهر بالاغفاء ، وهوى تحت المقعد . ومشاكساته الاخرى لا حد لها .

– لا ، لا ، يا غافريكوف . انا ارى تماما انك لن تندم على افعالك ، وانك جئت الى هنا لانه لا شىء لك تفعله .

– حق الآله ، لن افعلها مرة اخرى . . .

دخل شخص البيت من الشارع ، ونادى صوت ماترينا كاتيا .

ماذا كانت تريد ؟ عفوت كاتيا عن غافريكوف بسرعة ، ودخلت البيت . استقبلتها ماترينا بنظرة متفرسة غير طيبة .

– هل سمعت ؟ الكسى فى مكان قريب . . اسمعى ، يا كاترينا ، لن اريد ان يتكرر ما حدث من قبل ، انت لست منا . . . انه سيقتلك على اية حال . . اضحى وحشا يسفك الدماء ! وانت مذنبـــة فى كل شىء . . . قبل برهة قال شخص ان الكسى قادم على عربات . . . ارحلى ، يا كاترينا عن هنا . ساعطيك عربة ونقودا .

كان لفاديم بيتروفيتش الوقت الكافى لمختلف الافكار خلال مكوثه فى المستشفى فى خاركوف . لقد وجد نفسه فى الجانب الآخر من خط النار . وكان هذا العالم الجديد غير جذاب فى ظاهره : ردهة غير مدفأة ، والثلج الرطب يتساقط وراء النوافذ ، والطعام ردىء – حساء رمادى اللون مع سمك – واحاديث المرضى اليومية عن الطعام والتبغ البيتى وعن الحرارة وكبير الاطباء . ولا كلمة عن المستقبل غير المعروف الذى كانت روسيا تعدو نحوه ، ولا عن الاحداث التى تهزها ، والصراع الدموى الذى لم ينته والذى كان المشتركون فيه – هؤلاء المرضى والجرحى ذوو الرؤوس الحليقة والمباذل القطنية المتسخة – يقضون اوقاتهم نائمين اياما بكاملها ، او لاعبين على الاسرة بقطع الداما التى صنعوها بانفسهم ، او ان يغنى احدهم اغنية شجية بصوت خافض .

لم يجتنب الناس فاديم بيتروفيتش ولكنهم لم يحسبوه من جماعتهم . فلم يكن امامه غير ان يحادث نفسه ، فقد تراكم فى نفسه الكثير مما لم يقلب الفكر فيه ، ولم يبت الراى ، وانقطعت عنه ذكريات جمة ، مثلما تنقطع من كتاب صفحة فى اشوق موضع . لقد قبل فاديم بيتروفيتش هذا العالم الجديد دون تردد ، لان ذلك قد حدث فى وطنه . والآن كان عليه ان يفهم كل شىء ،ويتروى فى كل شىء .

ذات مرة جلب كبير الاطباء اليه جرائد موسكوفية . وقد قرأها فاديم بيتروفيتش بعينين مختلفتين كليا ، دون ان يهزأ بها بخبث مقدما ، كما كان يفعل . . . لقد انتشرت الثورة الروسية فى المجر وفى المانيا وفى ايطاليا . وكانت سطور الجرائد مفعمة بالجراة والثقة والتفاؤل . ان روسيـــا المسحوقة بالحرب ، بالصراع الداخلى ،

والمقسمة مقدما بين الدول الكبرى تاخذ بقيادة السياسة العالمية ، وتصبح قوة يعتد بها .

اخذ فاديم بيتروفيتش يفهم الطمانينة اليومية لرفقائه ذوى المباذل الرمادية ، فقد كانوا يعرفون اى قضية قد انجزت ، وانهم قد اسهموا فى العمل . . . . ان طمانينتهم دائمـــة ثقيلة اليدين والقدمين تاملية استغرقت خمسة قرون ، وما اكثر ما حدث فى تلك المدة . . . ان تاريخ الشعب الروسى والدولة الروسية عجيب وله خاصيته . والافكار الجبارة غير المتخذة اشكالها تطوف فيه من قرن الى قرن ، افكار ذات نطاق عظيم عن الحياة الحقة . وتتحقق بدايات خارقة جريئة تقلق العالم الاوربى ، وتتطلع اوربا بذعر وحنق الى هذا الغول الشرقى الضعيف والجبار ، والفقير والغنى غنى لا حد له ، المولد من بطونه المعتمة توهجات بكاملها من الافكار والنظريات على نطاق البشرية كلها .

واخيرا ان روسيا بالذات تختار طريقا جديدا لم يجربه احد من قبل ، ومنذ الخطوات الاولى يسمـــــع العالم وقع خطاها على هذا الطريق . . .

وطبيعى ان فاديم بيتروفيتش لم يكن وهو بهذه الافكار ، ليعبأ لجداول المياه القذرة وراء النوافذ تحمل فى الشارع ثلج آذار ، او للمستخدم السوفييتى النكد المتذمر ذى الحذاء الطويل المتهرئ يحمل كيس الطعام وصفيحة كيروسين وراء ظهره ليشترك فى اجتماع احدى الهيئات التى لا حصر لها . ولم يكن ليكترث بالحساء الذى يجرعه ، ولا بما فيه من سمك . فقـــد كان يضطرم بنفـــاد الصبر ليعاون بنفسه فى هذه القضية باقرب وقت .

بدأت اوكرانيا تطهر من البتليوريين . وقبل مدة قصيرة استولى الجيش الاحمر على يكاترينوسلاف . وما زال بتليورا متشبثا ببيليا تسيركوف ، الا انه اخرج من هنا اخيرا ، فعبر الحدود مع فلول وحداته الى غاليسيا . وكانت موجة واسعة من انتفاضات الانصار قد سبقت قوات الجيش الاحمر المهاجمة . وكانت لسعة نطاقهـــا تصعب على التعداد والسيطرة . كانت تندلع كالحرائق فى القرى والاقضية التى يمزقها صراع ضار بين الفلاحين ممن يملكون قطعا صغيرة من الارض

وبين الكولاك الاقوياء . وكان هؤلاء واولئك يشكلون الفصائل الخيالة والمشاة التى كانت تشتبك فى معارك دموية بكل ضراوة . وكان العملاء السريون للبتليوريين والدينيكيين والبولونيين ولمنظمات سرية اكثر غموضا يجوبون فى كل مكان متخفين ومستفزين . وكانت السلطة السوفييتية تقام فى المدن وعلى طول الخطوط الرئيسيـــة للسكك الحديدية ، وعلى جانبى هذه الخطوط كانت الحرب مستعرة على مدى انطلاق قذيفة من قطار مصفح .

واخيرا تلقى فاديم بيتروفيتش التعيين الذى انتظره طويلا – فى اركان لواء للطلبة العسكريين كان تشوغاى مفوضا له ، وخرج من المستشفى فى اواسط آذار ، وهو ما يزال يعرج ويتكئ على عصا ، وسافر الى وحدته فى كييف .

كانت عصابـــة زيلينى التى انفصلت عن الاتمان غريغوريف تقترب من كييف نفسها على مئات من عربات الرشاشات محطمـة سوفييتات القرى ومتصيدة الشيوعيين . وقد خلف زيلينى وراءه على طول الطرق التى سلكها اناسا سلخت جلودهم ، وآخرين ارغموا على الجلوس على قرم حادة الاطراف . وكان يحرق اعضاء لجان فقراء الفلاحين احياء فى الاهراء ، ويسمر اليهود بالمسامير على الابواب ، ويبقر بطونهم ، ويخيط قطة بها . وضعت خطـــة القضاء على هذه العصابـــة بمساهمة روتشين فى مقـــر مفوض الشعب للشؤون العسكرية . ولم تكن القوات المخصصة لها كثيرة . خرج مفوض الشعب للشؤون العسكرية لاوكرانيا من كييف على سفينة ليوجه العملية فى مكانها .

كان الدنيبر ما يزال ممتلئا بالمياه . دارت دواليب السفينة فى مياه صافية لا يعكرها غير دوامات دانية . ولم يستطع ضجيج الدواليب ، ولا اصوات الطلبة العسكريين ان تغطى على تغريد البلابل على الضفاف المطرزة بالخضرة المعطارة اللزجة فى بوادر الاوراق والزغب والصفرة الفاقعة . وكان سطح السفينة حارا من وهج الشمس التى نهضت فوق منبسط الفيضان . كان فاديم بيتروفيتش يقف عند الحاجز ينظر فى الماء المتلالئ .

لقد عاش فصول ربيع كثيرة ، ولكن نبيذ الحياة لم يفر هذا الفوران فى اعماقه قط . . . . وفى وقت هو اقل الاوقات ملاءمة وابعدها عن القبول . . . . كان رأسه غائما بهواجس غير صافيـــة . . . من الخير الا تبحث فى جيبك عن سيكارة ، ايها الرجل الجاد ، ولا تقطب حاجبيك ، ولا تنفض عنك المفاتن المقبلة . . . هذا هو اغبشاش الربيع ، يرتفع فوق مياه الفيضان ، فوق الجزيرات ، فوق البيوت الريفية الغريقة وقد نفذت فيه الشمس الهائلة المتدلية . وضوءها يرقد على الماء ، وعلى الاشجار وانعكاساتها الشاحبة الرجراجة ، وعلى ظهور الابقار الداخلـــة فى الماء حتى ركبهـــا ، وعلى ربوة معشوشبة صعد اليها احد الثيران ليتمعن فى اعجوبة الربيع الفريدة البكر .

من الغريب ، ومن الغريب جدا ان كاتيا لم تخطر على بال روتشين الا قليلا طيلة هذا الوقت ومنذ ان كان فى يكاترينوسلاف . وكانها رحلت مع ماضيه ، فقد كانت مرتبطة كليا بالحياة التى ينتقدها الآن بشدة . . . حين كان فكره يعود الى كاتيـــا كان يعود نفســـه الى روتشين ذاك الذى رآه مرة فى مرآة الحلاق . حينذاك لم يكن له من النفور ما يكفى لاطلاق الرصاص على الصورة والبصق عليها على الاقل . بينما فى امكانه ان يفعل ذلك الآن .

قبل ربيعين كانت عاطفته نحو كاتيا تبدو وكانها تملأ الكون كله ، كل الكون خارج جبينه المجعد ، جبين رجل مبلبل ومتكدر بشكل مميت . آنذاك كان بحاجة الى حب كاتيا ، لا سيما فى ساعة وحدته فى فندق يكاترينوسلاف ، حين كان ينظر الى مقبض الباب الذى كان من الممكن ان يشنق نفسه منه . . . . والآن : لا حاجـــة له بها ؟ وكيف ذاك ؟ فى روستوف خان كاتيا للمرة الاولى ، وفى يكاترينوسلاف للمرة الثانية ؟

تطلع الى الضفاف المارة ، واستنشـــق بكـل صدره الهواء البليل المضمخ بالعسل ، ولم يشعر بتأنيب ضمير ولا بندم . لا ، لم تحدث خيانة فى يكاترينوسلاف . . فقد صفى هناك حسابه مع الماضى . . . وكانت ماروسيا . . . ترنمت باغنية قصيرة بريئة عاطفية عن الحياة الجديدة ، عن هذا الفيضان الربيعى ، عن السعادة التى لا تسبر ولم تذق .

جأر الثور الواقف على التل المعشوشب ، وضحك الطلبة العسكريون عند مؤخرة السفينة ، وجأر واحد منهم محاكيا . اغمض روتشين عينيه رخى البال . أحقا ان الموت يأس ؟ لقـد كان موت ماروسيا وضاء . لقد كان موتها بمثابـــة هتاف راحل للباقين : احبوا الحياة ، امسكوا بها بكل عنفوان ، واجعلوا منها سعادة ! . . .

انه لم يؤجل جهوده للبحث عن كاتيا . وبناء على طلبه ارسل من مفوضية الشعب العسكريـة الى اللجان التنفيذيـة فى اقضيـة يكاترينوسلاف وخاركوف استفسار عن الكسى كراسيلنيكوف الا انه لم ترد حتى الآن معلومات عن مكان وجوده . ولم يكن فى وسع قاديم بيتروفيتش الآن ان يقوم باكثر من ذلـك . لقد كانت هذه الساعات القليلة على ظهر السفينة هى وقت الفراغ الوحيد المتاح له منذ شهر ونصف من العمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم .

تقدم منه تشوغاى ومفوض الشعب للشؤون العسكرية . كان الاخير رجلا نحيلا فى سترة محزمة من الجنفاص له وجهـه محمر من الشمس وعينان نديتان كعينى السكران ، رغم انـــه لم يشرب الخمرة قط ، ويكره السكارى حتى كاد يطلق النار على آمر اللواء ، وهو رجل طيب ، حين وجده فى بيته مع زجاجة من الفودكا . . . اشار الى الضفة العالية حيث لاح برج جرس ابيض وقال :

– هذه قريتى . . . كانت جدتى حين تسمع صفير سفينة – كانت عجوزا لا تهدأ – ترسلنى فى الحال مع منخل مملوء بالاجاص والكمثرى والجوز الى الرصيف لابيعه . . . ولكن لم اطلع تاجرا . . .

قال تشوغاى :

– اما جدتى فكانت تقية . كانت تتردد دائما على الاماكن المقدسة ، وحتى بلوغى العاشرة كانت تاخذنى معها للتسول . . .

قال مفوض الشعب دون ان يصغى :

– ثم اعطونى الى دكان حدادة لاتدرب . ومن المحتمل انه ما يزال هناك ، اسفل برج الجرس . وما زلت احب رائحـــة فحم الخشب ، والغاز المتصاعد منه . وحين نلت كفايتى من الضرب على القفا سافرت الى كييف لاشتغل فى مستودع القاطرات . . . هذا مـــا حصل . . ثم رحلت الى خاركوف ، الى مصنع ميكانيكى . . .

قال تشوغاى دون ان يصغى :

– كنت ماهرا في الغناء من انفي في فناء الكنيسة . كنت اذا خدشت في مكان ما ، او الطخ وجهي بالدم ارفع عيني ، وانشد «الصلوات» . . . ثم كان يحدث ان اتخاصم مع جدتي على كوبيك .

وكرر تشوغاي في سهوم :

– اتخاصم مع جدتي على كوبيك . . . .

ونظر الى الشاطئ الذي نتأ الآن براس دار الدنيبر حوله نحو غيضة مغمورة بالماء . وتفرست عيناه الجاحظتان . وضرب بيده على قبعته ذات الشريطين ، وسار سريعا الى جسر القبطان .

وصاح بالقبطان الذي كان عجوزا جاف العود متدلي الشاربين :

– هاي ، يا جد . ابتعد نحو المروج !

– لا يمكن ، يا رفاق ، نحن نسير في الجزء الصالح للملاحة ، بينما الماء ضحل في الميسرة .

– لا تسر في الجزء الصالح – وضرب تشوغاي على غلاف مسدسه – استدر استدارة احد ! . . .

استدارت السفينة حول الراس ، وشيئا فشيئا تكشفت على الضفة المنحدرة قرية كبيرة لها برج جرس عال وطواحين وبيوت بيضاء ، وبساتين واطئة ذات خضرة غضة .

كان مفوض الشعب يقول لروتشين :

– انظر الى ذلك البيت الصغير الذي يرى وحده هناك ، يلوح بالكاد . انه البيت الذي ولدت فيه .

صاح تشوغاي بلهجة جادة :

– هيا ، يا وباء ، ادر الدفة الى اليسار بحدة !

كان جمع كبير من العربات يقف على الشاطئ ، وزوارق كثيرة عنده . وكان الناس يتزاحمون نحوها قافزين فيها ، بينما لحق احد الزوارق ان يجذف . نزل تشوغاي السلم ، وسترته ترفرف ، وهبط الى ظهر السفينة . ازت طلقات من الشاطئ والزوارق مصوبة على السفينة في ان واحد تقريبا ، ولعلعت الرشاشات من السفينة . وتناثر الناس من الزوارق الآتية واقعين في الماء . واضطرب الجمهور الواقف على الشاطئ مندفعا الى عربات الرشاشات ، وعدا بها مثيرا الغبار ، صاعدا في الاعلى الى الشارع العريض . ودق جرس البرج دقات الانذار .

لم يستمر التراشق والعدو غير بضع دقائق . وخلا الشاطئ . صعد تشوغاي السلم وعيناه الجاحظتان تلمعان بمرح :

– انه زيليني ! تسلل الى هنا ، ابن الكلبة . يا فاديم بيتروفيتش يا لها من خطة للمحاصرة هذه ! حسنا ، يا مفوض الشعب ! لا بد من ان نقوم بانزال . . . .

واضطربت عصابة زيليني في طوق الحصار مثل قطيع من الذئاب ، وضغطت اخيرا على سدة السكة الحديد تحت نار القطار المصفح ، وابيدت في حرش كثيف للجوز اندفعت اليه عربات العصابة آملة ان تحدث ثغرة . وكان الحقل كله قد حفر مقدما حفرا متفرقة قطعت العربات الرباعية من حرش الجوز مزبدة مذعورة بالرصاص والقنابل اليدوية . ارتدت الخيول التي في المؤخرة الى العربات ، وكسرتها وقلبتها . واندفع قطاع الطرق نحو الاجمات حيث كان الموت بانتظارهم . ولم يحاول احد منهم ان يلتمس الرافة . وجدوا الاتامان زيليني تحت كومة من عساليج العام الماضي ، واخرجوه من هنا من قدميه ، ودهش الطلاب العسكريون لانهم تصوروه عملاقا يثير الذعر ، فاذا به نحيل مجذوب لا يستحق بصقة ، سوى ان عينيه الصغيرتين الناصلتين البغيضتين كانتا تنمان عن اصله الذئبوي . لووا يديه ورجليه ليحملوه الى كييف حيا .

ومع ذلك فان احدى فصائله قد اخترقت الحصار في ناحية ، واتجهت نحو الشرق . ارسل مفوض الشعب لملاحقتها فوجا مؤلفا من ثلثمائة فارس ومعهم تشوغاي وروتشين . وبدات ملاحقة طويلة حذرة . كان قطاع الطرق يغيرون خيولهم في الضياع ، بينما سار الحمر في اثرهم دون تغيير الخيول . وتبين ان قطاع الطرق يتجهون نحو قرية فلاديميرسكويه حسب ما رواه الفلاحون في قرية كان قطاع الطرق قد مروا بها قبل يوم واحد وصادروا الخيول فيها ، ونهبوا كل ما استطاعوا اخذه في عجالتهم .

وقال الفلاحون لتشوغاي وروتشين عند البئر حيث كان الفرسان يسقون خيولهم :

– اقضوا عليهم باسرع وقت ممكن ، يا رفاق . نصارحكم باننا ضجرنا من العمليات العسكرية . ونحن نعرف اتامانهم جيدا ،

وهو من قريـة فلاديميرسكويـه ويدعى اليوشكا كراسيلنيكوف . لقد كان فلاحا صالحا ، ولا جدل فى ذلك ، ولكنـه فسد ، واضحى عربيدا . . .

وهكذا وقع فاديم بيترفيتش فجأة على اثر الكسى الذى كان يلاحقه للاسبوع الثانى ، وقع على اثر كاتيا . واضطرب اضطرابا شديدا . لم يعد يفصله عن كاتيا غير مسيرة يوم واحد . فى اية حالة سيجدها ؟ معذبة متغيرة بشكل لا تعرف فيه ؟ بحيث لا يستطيع ان يفعل سوى ان يضع راسها الشائب على صدره . . . . الشائب ، الشائب . . . «حسنا ، يا كاتيا . استريحى الآن . سنعيش ، ويجب ان نعيش . . .» لا ، لا ، لا يعقل ان تكون قد اصبحت زوجة الكسى الطيعة ! والاكثر احتمالا ان يتوقف حصانه فى نهاية مسيرة اليوم على قبر كاتيا . . . وربما ذلك افضل لها . . . وتكون صورة كاتيا طاهرة غير ملوثة . . .

سار الفوج بسرعـة فى الطريق المترب . وكان فاديـم بيتروفيتش يترنح على السرج . واهتـزت صورة كاتيـا وغامت فى ذاكرته الكالحة . سيعيدهـا الى حياته مهمـا تكن الحالة التى يجدها فيها .

كانت البيوت المحترقة فى قرية فلاديميرسكويه ما تزال ترسل الدخان ، والاطفال ما يزالون يأتون لينظروا بذعر الى برك الدماء التى لم يمتصها الرماد بعـد ، والنساء مازلن فى مخبائهن فى بيوت الآخرين مرتجفات منتفخات الوجوه بالدموع حين اقتحم تشوغـاى وروتشين القرية فى تشكيلتين من طرفيها . ولكن كراسيلنيكوف لم يكن هناك . فقد نبهه احد الناس فخرج مع شقائه قبل نصف ساعة تقريبا من ظهور الحمر بعـد ان نكل باعضاء لجنة فقراء الفلاحين ، واعمل وشقائه الطعن بسيوفهم فى سبعة عشر رجلا ، وجعلوا الجد افاناسى ثامن عشرهم لمجرد اظهار الشقاوة .

كان حنق الفلاحين عليه شديدا جدا حتى ان القرية طلعت عن بكرة ابيها تقريبا ، واحاطت بالفرسان ، الذين كانت خيولهم تترنح تحتهم متعبة . وصاح الفلاحون :

– الحقوا به ، اقتلوا الكسى . فان قواه ضعيفـة ، ولا يملك عتـادا . . . لـم يذهب بعيدا ، فنحن نعرف اين ذهب اولئك الاوغـاد . . . تستطيعون ان تمسكوهـم بايديكـم دون سلاح .

سال تشوغاى :

– وهل تعطوننا خيولا مستريحة ، يا رفاق ؟

– نعطيكم . . . لاجل ذلك نعطيكم .

– كم ؟

– يمكن ان نجمع خمسين حصانـا او نحوهـا . . . اتركوا خيولكم لنا ، وسنتبـادل بعد ذلك . . . يا الهى ، انـه لا يتركنا نعيش .

وبينمـا كانوا منشغـلين بجلب الخيول ، ووضـع السروج عليها تقدم فاديم بيتروفيتش من النساء وئيد الخطو . ولما رأين ان الرجل يريد ان يسأل عن شىء اقبلن نحوه . قـال فاديـم بيتروفيتش :

– كنت اعرف كراسيلنيكوف فى الحرب الالمانية . كان له اخ متزوج ، اما هو فيبدو لى انه كان اعزب . . . فكيف هو الآن ؟ متزوج ؟

لم تكن النسوة يعرفن بعد ما يرمى اليه فقلن لهوفات :

– متزوج ، متزوج . . .

– اى متزوج هو ! انها لم تكن زوجته . . . .

– حسنا ، كان يعيش معها فقط . .

– ليس كذلك . . . ايها الرفيق العسكرى ، ساحكى لك . . . لقد كسب هذه المراة من ماخنو فى لعبة ورق ، وجلبها معه الى هنا ، واراد ان يتزوجها . . طبعا قالت له : تزوجنى ، ولكننى لم اتعود على عيشة الفلاحين . . . فقد كانت من الاعيان ، جميلة شابة . . . بينما الالمان احرقوا بيت الكسى فى الربيع الماضى . . فانشأ يبنى له بيتا . . .ثم حصلت الامور مع ياكوف . . .

تدافعت امرأة ثالثة لتقترب من فاديم بيتروفيتش ، وكانت اكثر معرفة :

– اسمع . ايها الرفيق الآمر ، لقد ضربها ضربا شديدا ،

ولكن الشيطان اللعين لم يستطع ان يقتلها . . وهى منذ شهر آذار تشتغل معلمة عندنا .

– هكذا ، اذن – قال فاديم بيتروفيتش ، وسعل – وهل هى الآن فى القرية ؟

اخذت النسوة يتبادلن النظرات . عندئذ قالت امرأة رابعة اقتربت لتوها :

– اخذها معه تحت التبن فى احدى العربات ، ولا نعرف ان كانت ميتة ام حية . . .

كان صبى صغير ينظر بعينين مفتونتين الى روتشين – الى سيفه ذى المقبض النحاسى ، والى حذائه المترب ذى المهماز ، والى الساعة الكبيرة فى معصمه ، والى المسدس المتدلى . وقد القى رأسه الى الخلف كليا لينظر الى وجهه ، وقال بصوت غليظ :

– انهن يكذبن ، يا عم . هن لا يعرفن شيئا عن العمة كاتيا . انا اعرف كل شىء .

وقالت صبية قبيحة نحيلة على شفتها قرحة كانت تقف وراءه :

– صدق به ، يا عم . هذا الصبى يعرف كل شىء .

– حسنا ، ماذا تعرف ؟

– ماترينا اخذت العمة كاتيا الى محطة القطار . لم تكن العمة كاتيا راغبة فى الذهاب ، فبكت بكاء شديدا ، وكذلك ماترينا . . . ثم قالت العمة كاتيا لى : «قل للاطفال اننى ساعود . . . » وعندما دخل الكسى القرية مع عرباته غادرت ماترينا والعمة كاتيا من طرف القرية الآخر ! وعندما صعدتا الى التل انزلتانى من العربة . . .

صاح تشوغاى :

– الى الخيول ! . . .

ولم يتح لفاديم بيتروفيتش الوقت ليسمع الحديث الى نهايته . غادرت الفصيلة القرية على خيول مستراحة وعربات رشاشات . كان فلاح قصير داكن البشرة ، من اولئك الذين اضطروا الى قضاء اليوم بطوله جالسين فى البئر غاطسين الى سررهم فى الماء والطين يخب بحصانه الى جانب تشوغاى وروتشين رافعا مرفقيه . وقد امتطى حصانه بلا سرج بالهيئة التى كان فيها حافيا ممزق

القميص مقسى كله منفوش اللحية . قاد الفصيلة فى حركة التفاف الى غابة لاشجار البلوط ، كانت الطريق الوحيدة للشقاة فى هذه الانحاء .

وصلوا قبل انقضاء النهار ، واخذوا يحيطون بالغابة تاركين مخرجا واحدا للشقاة ليقعوا فى كمين . كانت الشمس الواطئة تنفذ باشعتها من وراء الاوراق اللامعة الى جذوع الشجر المعوجة . كان الحصان الذى يمتطيه فاديم بيتروفيتش كثير الحركة ، يهز رأسه ويتوقف ويعض ركبته ، ويضرب بطنه برجله . القى فاديم بيتروفيتش المقود اخيرا ، وامسك القربينة بكلتا يديه على اهبة الاستعداد . كانت اشعة الشمس المبقعة بسحب البعوض الذهبية تشعشع الغابة وتشرطها ، فكان يصعب تبيان اى شىء الى الامام وعلى الجانبين ، حيث كان الطلبة العسكريون المترجلون يزحفون يمينا ويسارا فى صف نحيل وهم يطاون العساليج المخشخشة بحذر خلال الاجمات النامية والسرخس الطويل .

نبه الدليل الى انهم سيقعون فى مكان ما هنا على كوخ حارس الغابة ، وعلى الطريق الوحيد الذى من الممكن ان يسلكه الشقاة للنفاذ الى قلب الغابة . وفجاة ظهر للعيان سقف مغطى بالصوفة له حافة كالسرج على بعد خطوات من روتشين . توقف فاديم بيتروفيتش محدقا من تحت الاعشاب الكثيفة . وصفر صفيرا خافتا . كانت الاغصان تتكسر بخشخشة اشد وعلى مسافة اقرب تحت اقدام الطلاب العسكريين . همز الحصان من جديد ، ومر خلال الاحراش ، وشاهد الكوخ المتروك فى فرجة صغيرة من الغابة كانت تقف بالقرب منه بضع عربات محلولة منها خيولها ، وتتناثر اسمال وخرق . لقد رحل الشقاة من هنا .

امسك فاديم بيتروفيتش قربينته فى هيئة استعداد ، واخذ يدور حول الكوخ بحذر . وكان الكسى كراسيلنيكوف يتراجع امامه بحذر ايضا من ركن الى آخر ، وهو ينوى الاستيلاء على حصان هذا الفارس . تلفت روتشين ، وتوقف عند الحائط الجانبى . بينما وقف الكسى عند الحائط الامامى بنافذته المحطمة وبابه المخلوع . ولكى يقوم بكل شىء دون ان يحدث ضجة امسك بسكينه فقط بهيئة استعداد . وحينما خرج روتشين من وراء الركن ، هجم الكسى عليه

بسكينه الا ان روتشين استطاع ان يحمي نفسه بقربينتـه . وثب الكسي الى الوراء فارتطم ظهره بحائط الكوخ بشدة . وسقط السكين . نظر الى فاديم بيتروفيتش ، وكانه ينظر الى ميت يبعث حيا . وزعق زعيق الهول ، وركض منحني القامة ، هازا ذراعيه بارتباك .

— الكسي !

صاح روتشين ، وجذب المقـود وانطلق في اثره . وصل الكسي الى شجرة ، والقى ذراعيه حولها فجاة ، وضغط وجهه على جذعها . وثب روتشين من على السرج ، وراح يطلق الرصاص في تسديد مباشر تقريبا على ظهر الكسي العريض المهتز .

— كانت تعيش هنا ؟

— اها .

انحنـى روتشين ، وتخطى العتبة الى كوخ صغيـر مائل ذي نافذة صغيرة واحدة واطئـة جدا حتى ان الارقطيون في الخارج كان يغطيها تماما . راى روتشين دفاتر مصنوعة من ورق الحيطان وبعض الكتب موضوعة على منضدة صغيرة واطئة ايضا في الضوء المخضوضر قرب النافذة . وكان احد الدفاتر مفتوحا وبالقرب منه محبرة وريشة . يعني ان كاتيا لحقت فقط ان تهرب بنفسها . فرفص روتشين امام المنضدة . غطى الطفل الصغير فمه بيده خلسة واخذ يكبت ضحكة ، ويشير لروتشين بعينيه الى الموقد .

كان غراب قيظ صغير ذو عينين مستديرتين بلهاوين يجلس امام فتحة الموقد . ولعله سقط من المدخنة حيث كان عشه . ولما راى الغراب الانظـار مصوبـة نحوه قفز داخل الموقد خافقـا بجناحيه ليعين نفسه . قال الطفل :

— انها اربعة غربان قيظ هناك . وساصطادها كلها . . .

قلب فاديم بيتروفيتش الدفاتر الموضوعة على المائدة فوجد دفتر يوميات كاتيا المدرسية ، حيث كانت تسجل فيـه الدروس وبعض الحوادث المعينة . وكانت كل يومية تقريبا تنتهي بما يلي : «شاغب ايفان غافريكوف مرة اخرى . . .» او «اقطـع على نفسي عهدا بالا اكلم ايفان غافريكوف ثلاث ايـام . . .» او «مرة اخرى

سار ايفان غافريكوف على حافة السطح ليخيف البنات . انـا في ياس تام . . .»

سال روتشين :

— من ايفان غافريكوف هذا ؟

— انا .

— ولماذا تشاغب ، وتزعج يكاترينا دميتريفنا ؟

زفر ايفان غافريكوف زفرة عميقة ، واكتست عيناه الزرقاوان براءة تامة .

— يحصل . . . انـا مجتهد في الدراسة . . . انظر في دفاتر الخط للبنات : خربشة . وهذا هو دفتري . ستندهش . وانا اعرف جدول الضرب كله ، هل تريد ان تسال ؟

وقلص عينيه بكل قوته .

— اصدق بك .

جلس فاديـم بيتروفيتش على الارض وقد طوى رجليـه ، وواصل تقليب دفتر اليوميات . فلم يعثر فيه على كلمة عن كاتيا . ولكنه احس وكان شباب كاتيا الدائم ورقتها النقية الواثقة بالآخرين ينهضان من كل صفحة فيه ، وتراءت له يداها بعروقهـا الخفيفة الزرقة ، وعيناها الدافئتان الصافيتان . . .

قال ايفان غافريكوف :

— تسعة في تسعة تساوي واحدا وثمانين ، اليس صحيحا ؟

— شاطر ، شاطر . . . اسمع ، الم تقل لك الى اين سافرت ؟

— الى كييف .

— ربما تكذب ؟

— وما حاجتي الى الكذب ؟

— قد تكون لديها رسائل ودفاتر اخرى مخباة في مكان ما ، الا تعرف ؟

— كل شيء هنا . . . ساخذ هذه الى البيت الآن ، طلبت مني ان احرص علـى الدفاتر ، والا فان الفلاحين سيلفون باوراقهـا سيكائرهم .

قرا روتشين في صفحة الدفتر الاخيرة :

« . . . لا ادري لماذا انا مؤمنة بانك حية ، وسنلتقي يوما

ما . . . تصورى اننى خرجت من ليل طويـل طويـل . . . واود ان احدثك عن عالمى الصغير الذى اعيش فيه . توقظنى الطيور وراء النافذة . فاذهب الى الجدول للاستحمام . ثم فى طريق العودة اشرب الحليب عند العمة اغافيا ، صرت مدينة لها بروبل وستين كوبيكا ، ولكنها ستنتظر . ثم يتوافد الاطفال ، وندرس . ولا شىء يعيقنا ، وليست لنا اية هموم . تبين ان الانسان لا يحتاج ابدا الى ما كان يبدو لنا ضروريا ، ولم نستطع العيش بدونـه . اشعر بالخجل الشديد حين اقول اننى احس وكاننى قـد عدت الى السابعـة عشرة . وانا اعرف ، يا داشنكا ، انك تفهمين ما اريد ان اقول . . . يضايقـنى فقط بعض الاحيان الصبى العزيز على ايفان غافريكوف . . . انـه فريد فى . . . »

وانقطعت الرسالـة عند هذا الحد لنفـاد الفراغ فى الدفتر . جذب فاديـم بيتروفيتش الصبـى ايفان غافريكوف ، وحصره بين ركبتيه :

– ها ؟ماذا تريد ان اهدى لك ؟
– طلقة .
– لا توجد عندى خرطوشة فارغة . . .
– اطلق رصاصة ، لنخرج الى الفناء .

نهض فاديم بيتروفيتش من الارض ، واطبق الدفتر ، واخذ يحشره وراء قميصه .

– سآخذ هذا الدفتر ، يا ايفان .
– لا ، ستوبخنى .
– سارى العمة كاتيا قريبا ، واخبرها باننى اخذتـه . . . . لنخرج الى الفناء لاطلق . . .

١٨

كانت الشمس فى الهواء الساكن تشوى شوارع تساريتسين المقفرة ، حيث كانت اكوام القاذورات تتكدس عند مداخل البيوت بابوابها المفتوحة على مصراعيها . كان اهل المدينة مختبئين . وعلى منحدرات الفولغا فقط كانت العربات المثقلة بالممتلكات الحكومية

وارشيفات المؤسسات تندفع بضجيج . لقد كانت المدينة تعيش ساعاتها الاخيرة . وفى مشارفها كان الجيش العاشر الذى استنزف كثيرا بعد مانيتش لا يكاد يصمد لضغط جيش شمال القفقاس الحديث التشكيل بقيادة الجنرال فرانغل .

كانت محطة التلفونات ما تزال تعمل ، ولكن المدينة اضحت بلا ماء ولا كهرباء . وتوقفت المصانع . وفك كل ما يمكن ان يؤخذ منها وخلع وجمع وحمل الى رصيـف النهر . ولم يبـق فى المناطق العمالية غير الاطفال والشيوخ . فلم تكن بروليتاريا تساريتسين التى تحملت ضحايا فادحة فى الدفاع عن المدينة خلال الشهور العشرة الاخيرة تنتظر رافة من البيض . فمن كان ما يزال ذا مقدرة انخرط فى الجيش ليقـاتل والآخرون سافروا على سطوح العربات وعلى ظهور السفن وبطونها . وكان الناس يرحلون شمالا الى مكان ما . وكانت مستودعات الاخشاب على ضفة الفولغـا تحترق ، وهدير المدافع يشتد ويقترب اكثر فاكثر .

كانت كل حياة المدينـة تتركز فى محطات القطار وارصفـة النهر . وامتلأ شاطئ الفولغا بالاكياس والصناديق وقطع الآلات والمخارط ، وكان مئات الناس المتصببين عرقا يقلبون هذه الاشياء فى صياح وسباب ، ويجرونها على خشبات الصعود الى السفن . وكان آلاف الناس يقفون بانتظـار الصعود الى السفن فى صفوف كثيفة او يستلقون صامتين جياعا يحدقون خلال الغبار الساكن الى الماء المزيت الملتمع فى اشعة الشمس . وكانت الفولغا العريضة فى نهاية حزيران قد ضحلت حتى ان الجرف الرملى فى الضفة الاخرى قد اقترب الى حد لا مثيل لـه ، فكان الناس يخوضون فيه عـراة ويسبحون فيه . كما كانوا يسبحون فى هذه الضفة ايضا فى الماء الفاتر بين المبانى على الشاطئ ، ووسط النفايات العائمة ، ولكن حتى من صوب النهر لم تهب طراوة .

كانت المراكب المسلوخة القذرة ترسو على الارصفة واحدا تلو الآخر ، وكانت ترتفع منها صيحات هاذيـة . كانت سطوح المراكب غاصة بالنازحين ومقاتلـى الجيش الاحمـر الاحياء وسط الجثث ، والمصابين بالتيفوس المتوجعين المتمتمين الهاذين . كانت عشرات المراكب والمقطورات تحتك بعضهـا ببعض وهى تنتظر

التفريغ والشحن ، وتصفر صفيرا مبحوحا . وقد جاءت جميعا من الجنوب ، من استراخان وتشورني يار .
كان رجال الاسعاف الملطخون ببقع الكلس يركضون على ظهور المراكب ، ويتخطون عبر المرضى الراقدين ، ويرفعون جثث الموتى ، ويلقونها على الشاطئ ليوفروا مكانا للاحياء . كان الكلس يتناثر ، وحامض الكاربوليك يرش . وقد صدرت الاوامر بوضع الجثث في اكشاك بيع المرطبات والكفاس * . وبدات الجثث تنتفخ من الحر ، وتشققت السقائف الخشبية المقامة على عجل . ورائحة النتانة الخانقة بشكل خاص كانت تحمل الناس على مغادرة شاطئ تساريتسين . وكانت طائرات فرانغل تطير فوق المدينة كالظلال من خلال نقاب الغبار . وكانت تلقي قنابلها على النهر .
كان الناس يتسللون عبر نقاط حراسة الرصيف ، وزكائبهم تعلق بحراب الجنود الحمر ، ويهرعون الى ظهور المراكب . وكانت الصناديق والزكائب تتطاير الى هناك مقرقعة . فكان المركب يثقل حتى يصل الماء الى مقربة من حاجزه .
بين هذا الجمع كانت عربة تقف على الشاطئ بالقرب من خشبات الصعود تماما وقد استلقت فيها انيسيا وداشا . وقد جلبهما كوزما كوزميتش من الجبهة بموجب امر صارم لآمر الفوج بان تجلى المراتان لا عن طريق السكة الحديد ، بل في سفينة قطعا ، ولو كلفه ذلك حياته . قال تليغين له :
— يا رفيق نفيدوف ، انك لم تقم قط بمهمة اكثر مسؤولية . انزلهما في مكان الارساء ، واعتن بهما قدر وسعك . اسرق او اقتل ، ولكن عليك ان تطعمهما جيدا . . . ستكون مسؤولا عن حياتهما . . . .
كانت المراتان مستلقيتين في العربة على القش تغطيهما الخرق ، مثل هيكلين . وكانت انيسيا قد عادت الى وعيها ، ولكنها كانت واهنة بحيث لا تستطيع ان تفتح فمها . فكان كوزما كوزميتش يضطر الى ان يباعد بين صفي اسنانها باصبعه ليجعلها تشرب الماء الداقئ من زجاجة . وكانت داشا التي اصيبت بالتيفوس بعد انيسيا تهذي متمتمة دون انقطاع بصوت خافت غاضب .

* مشروب شعبي روسي غير كحولي . **(المترجم)** .

مرت عدة مراكب دون ان يستطيع كوزما كوزميتش ركوبها . توسل والدموع في عينيه ، ولجأ الى مختلف الحيل ، طالبا من الناس مساعدته في حمل المراتين الى ظهر المركب ، ولكنهم في ذاك الوضع الصعب لم يكلفوا انفسهم حتى الاستماع اليه . اتكأ على العربة ، وحدق بعينين ملتهبتين في ذلك السراب ، في انعكاسات الشمس المحمرة من خلال الغبار على النهر الداقئ الوغر ، والى المراكب الصافرة بنفاد صبر محملة بالجثث . وترامى من جديد هدير المحركات المتوعد ، واثارت القنابل التراب في هذه المرة على مسافة قريبة ، وغطى الغبار الشاطئ كله . القى الكثيرون انفسهم في الفولغا ، وسبحوا الى مركب مقبل صائحين : «القوا الحبال . . . » الا ان الحبال لم تلق لهم ، فظلت الرؤوس تحوم طويلا قرب المركب مثل بطيخ اسود .
والآن لم يبق الا المركب الاخير تقريبا ، وهو مقطورة صفراء واطئة ذات مراوح الدواليب المعوجة . لم تتجه نحو رصيف الرسو ، بل بالقرب منه ، الى رصيف خال من الناس . ادار كوزما كوزميتش العربة على الرمل العميق ، وكان الاول في الوصول الى الرصيف عدوا وركض عليه ملوحا بذراعيه باستماتة :
— هاي ، يا قبطان ، يا رفيق — صاح بعجوز مربد الهيئة من العهد القديم كان يقف على قنطرة القبطان — معي زوجة قائد الجبهة واخته لاجلو بهما ، والتهاون في الموضوع يعرضك للرمي ، ارسل لي اثنين من البحارة ليحملا المراتين الى المقطورة . . .
وترك وجهه المنفعل وكلماته الحاسمة مفعولها . تخطى وقاد جهم قذر عار الى النصف حاجز المقطورة ، ونزل الى خشبة الصعود . كان يرتدي بنطلونا مهلهلا :
— اين هما ؟
— لا تستطيع حملهما وحدك ، يا رفيق .
— وكيف لا . . .
تقدم الوقاد من العربة ، والقى نظرة الى المراتين الراقدتين ، واشار الى انيسيا :
— أهذه زوجة قائد الجبهة ؟

– نعم ، هي ... واذا حصل لها مكروه عوقب الجميع بالرمي ...

قال الوقاد هادئا :

–لا تحاول ان تغشني ، انها طباختنا انيسيا .

– ربما فقدت عقلك ، يا رفيق .. اية طباخة هي ! ...

– لا تصرخ بي يا مغفل .

واخرج انيسيا بسهولة من العربة ، والقاها على كتفه ، وعدل وضعها .

– ساعدني في اخذ هذه ايضا ...

حمل كلتا المراتين بين ذراعيه ، وسار الى المقطورة . انعكفت الالواح تحت ثقله حتى مست الماء .

سحب كوزما كوزميتش وراءه كيس الخبز وشحم الخنزير المقدد ، وحقيبة الادوية وهو في غاية الرضا ....

في صباح الثالث من تموز اخرج ستيبان الكسيبفيتش ، وهو معلم مدرسة ، من مطبخ السرداب الى الفناء الصغير حشايا ووسائد ومقاعد وثيرة مفروشة بقماشة خضراء ، ورزما من الكتب والمخطوطات . وحمل وهو يترنح اضمامة ملء ذراعيه من البناطيل والستر المتربة والتنورات والفساتين الصوفية ، والقى كل حمله على الارض ، وفتح فمه ماسحا سيول العرق بكمه . كان مبللا بالعرق بكليته : شعره الاصفر ولحيته ، وبنطلونه من قماش القنب ، وقميصه المتسخ ، المتلصق مع حمالة البنطلون بدفتي كتفيه المكورتين .

كانت امه المترهلة المرتدية ثوبا اسود تضرب سجادة بعصا وهي جالسة على كرسي من الخيزران واخته المشلولة ذات الجبين البارز بحيث يبدو سائر وجهها صغيرا منكمشا تستلقي متنعمة في كرسي على عجلات في ظل شجرة اقاسيا ، وكان الحر شديدا حتى ان العصافير نفسها كانت تفتح مناقيرها .

قال ستيبان الكسيبفيتش :

– ماما ، هذا كل شيء ، على ما يبدو . ولن استطيع اكثر

من ذلك ! يا الهي ، كم سادفع الآن لقاء قدح من البيرة المثلجة !

– يا ستيبان ، ليست عندنا قطرة من الماء . يتعين عليك يا عزيزي ، ان تتناول الجردل وتذهب لملئه .

– مستحيل ، يا ماما ! الا يمكن الاستغناء عن ذلك ؟ اها ! تلك هي اللعنة حقا !

ووقع ستيبان الكسيبفيتش في يأس حاد . ان جلب الماء يعني النزول الى شاطئ الفولغا ، حيث ما تزال اكوام الرماد والجثث المحروقة التي احترقت في اكشاك المرطبات والكفاس ، ويعني الدخول في النهر الى الصدر ليصل الى ماء انظف ، واغتراف جردل من الماء ، وحمله على المرتفع خلال الرمل السميك في هذا الحر الجهنمي .

– لو استخدمنا احدا من الناس لدفعت ، على ما يبدو عشرة روبلات على الجردل الواحد . ان قلبي اثمن ، حسب ما اظن ...

– افعل ما تراه صائبا ...

– نعم ، ولكنك ، يا ماما ، تفضلين ان اجهد نفسي بهذه الجرادل ....

لم تجب الام ، وتابعت ضرباتها الضعيفة على السجادة . اخذ ستيبان الكسيبفيتش يتنفس بعسر ، وهو ينظر الى وجهها الممتقع المخطط بخطوط العرق . سال خافت الصوت :

– اين الجردل ؟ اين جردلك هذا ؟

صرخ بالجملة الثانية بصوت قبيح ، حتى ان اخته المريضة قالت متضرعة وهي في مكانها تحت الاقاسيا :

– لا حاجة ، يا ستيبان .

– لا ، لازم ، لازم ! ساجلب لكما الماء ، وساجلب لكما القصريات! وحتى آخر حياتي ساعمل مثل البغل الذي يجر عربة الماء! وليذهب الى الشيطان مستقبلي ، وتدرجي في الحياة ، واطروحتي ! كل شيء قد انتهى وتحطم ! فراغ مقمل ، جثث محروقة ، مقبرة ! ... لا دينيكين ولا غيره يستطيع ان يبعث شيئا ! ...

واخذ يقرقع اصابعه المبللة بالعرق ، كما فعل ذات مرة امام داشا . وعزم ان يتخلص من جردل الماء بطريقة او باخرى . وفجأة دق جرس برج الكاتدرائية الكبير رنانا بعد صمت دام اكثر من عام .

دق ، وسرى فوق المدينـــة المهجورة صوت متهلل مهدئ لكل المخاوف . وتوقف ستيبان الكسييفيتش فى منتصف الجملة ، ورف هدوء مفاجئ على وجهه الناحل المرتعش ، بل لاح عليه قليل من البله بسبب ابتسامته . قالت الام :

– ستيبان ، على اية حال ينبغى عليك ارتداء اللباس الجيد والذهاب لحضور القداس ايضا .

– انه لا يؤمن ، ملحد يا ماما .

قالت الاخت الجالسة تحت الاقاسيا بحنق خافت .

– وليكن . على الاقـــل ليتظاهـــر ، فلا يحسبوننـــا من الحمر .

صاح ستيبان الكسييفيتش بنكد :

– ما هذا الكلام ، يا ماما ؟ ما كدنا نتحرر من مسرات البلاشفة حتى اخذت تدفعيننى الى مستنقع البرجوازية الصغيرة . . تماما ، بالضبط ! – وكشر باتجاه الاقاسيا ، حيث كانت اختـه تغمض عينيها لكيلا تسمعه . وتابع قوله : – من يعتبرنى احمر ؟ اصحابك آل شافيردوف ، وبريس . . . السوقـة ، التافهون . . . يا الهى ، ان النزول الى مستواهم يعنى الشطب على نفسك ذاتها ! لم تكن لنا حاجة اذن الى التعلم والتفكير والتمنى ! انا اكره البلاشفة ، لا لانهم حصرونى فى السرداب ، ولا لانهم اخذوا جميع الفحم من محطة اسالة الماء ، بل لانهم داسوا على حريتى الذاتية . . . انا احب التفكير كما يملى ضميرى ، عبقريتى . وانا احب قراءة الكتب التى تلهمنى . ولكن لا احب ان اقرأ كارل ماركس ، ولو كان على حق الف مرة . . . انا هو انا ! . . . وبنفس القدر تماما لن اقبّل ، يا امى ويا اختى ، يد صاحبكما دينيكين . . . لنفس الاعتبارات تماما . . .

وبعد ان قال ستيبان الكسييفيتش كل ذلك بايماءات قوية جدا فى شمس حرارتها اربعون درجة مئوية ، قام بلا ترابط كلى ايضا بسحب سترة طويلة وبنطلونا من كومة الملابس ، ونزل الى السرداب . وظهر بعد نصف ساعة فى ملابسه الكاملـة وفى قميص منشى ماسكا بيده قبعة رسمية وعصا . وبعد ذلك لم ينطق احد فى الفناء بكلمة واحدة . خرج ستيبان الكسييفيتش الى الشارع وسار فى الجانب الظليل الى ساحة الكاتدرائية .

كانت اشجار الاقاسيا الواطئة حول الكاتدرائية رمادية من الغبار ، وقد جلس تحتها بعض الاشخاص فى ثياب مهلهلة . نظر احدهم الى المعلم اثناء مروره نظرة دعابية مصعدا بصره من الاسفل ليتفرس فى عينيه .

وقال بصوت عميق واضح :

– الوجه المدهش يزهو بعدد من التغيرات السحرية .

وراء السياج كانت كوكبة من الخيالة القوزاق تقف مترجلة فى قمصان كاكية ، بينما استلقت على العشب المسفوع حظيرة من طلاب المدارس العسكرية فى بزة الاستعراض التامة ، والمعاطف على الاكتاف ، والقصعات والارفاش مقربة . . . وكان جمع من المدنيين يقف على درجات الكاتدرائية . وقع بصر ستيبان الكسييفتش على تاجر الخردوات شافيردوف المجامـل المتنمـــق فى قميص روسى مطرز ، ومعه زوجتـه وطفلاه ، وعلى بريس وهو صاحب مطبعـة صغيرة ضئيل الجسم مهمل الهندام كثير الحركة ، يهودى متنصر ، ومعه زوجته واطفاله الستـة . احنى ستيبان الكسييفيتش رأسـه لهما بلا اهتمام ، ودخل الكاتدرائية الطرية الهواء ، وجعلوه يمر دون اعاقة لسترته الرسمية بل وتنحى بعضهم ليفسح له الطريق .

على الرغم من ان اثار الاهمال ما زالت تلوح على الكاتدرائية (فى عهد البلاشفة استخدمت مستودعا للاطعمـــة) فقد كان زجاج النوافذ الضخمـة مهشما ، وبقيت على الجدران المسلوخة كتابات من مثل «٩٤ كيس بطاطس . . . المتسلم (غير مقروء)» الا ان لألاء الشموع العديدة على منصة الايقونات المذهبة ، والبخور المتصاعد الى القبة ، وترديدات الشماس المنداح صداها كزئير الوحش تحت عقود السقف ، واصوات الجوقة الطفولية الخالية من الحرارة ، كل ذلك قد ترك خليطا من الانطباعات فى نفس ستيبان الكسييفيتش ، فقد احس بالمهابة على مألوف العادة وفى نفس الوقت وبحكم العادة ايضا عانى من الشعور بالضعة ، فان ذيل المثقف البارز باستقلال ذات قد انكمش بين رجليه من تلقاء نفسه .

الى الامام ، كان الرؤساء العظام ، اصحـاب السطوة يقفون ووجوههـم الى المحراب : عشرة جنرالات قصار وطوال ، ممتلئون ونحاف ، فى قمصان عسكريـة ناصعة البياض ، وكتافيات ذهبية

وفضية عريضة ناعمة . وكان كل واحد منهم يمسك قبعته بيده اليسرى المطوية ، ويمسح بثلاث اصابع يده اليمنى على صدره مع ترديد الشماس : «لنصل للرب ! » . وفى المقدمة ، وعلى بساط مفصول وقف جنرال متوسط القامة فى قميص كاكى فضفاض ، وبنطلون طويل ذات شريط فى موضع الدرز . كان شعره نصف الاشيب الممشط الى الخلف يبدو محكوكا عند القفا . وكان يرفع يده الصغيرة الممتلئة الشديدة البياض مرات اقل بكثير من الجنرالات الآخرين ، ويرسم علامة الصليب عريضة بطيئة ، واضعا اضمامة اصبعيه وسبابته بقوة على غضون جبينه المنحدر قليلا .

وعرف ستيبان الكسييفيتش انه دينيكين . تفحصه بنهم ، دون ان يرفع عن شفتيه الدقيقتين ابتسامة التشكك اللاذع ، ولكن عن غير وعى تماما فى هذه المرة . كان احد الضباط يراقبه باهتمام ، وقد انسل مقتربا ووقف الى جانبه . كان ستيبان الكسييفيتش منغمرا باحساساته المتناقضة . وقد جذبته بشكل خاص يد دينيكين البيضاء تلك ، ومن لا يعرف يدى الجنرال ، ورخاوتهما المتباطئة بشكل خاص . والمرء مهما حاول لن يستطيع ان يجعل ليده هذه الاهمية الفريدة ، وهذه المحاولات غير المجدية تجعل يد الجنرال مضحكة ، ولا سيما حين يمدها الرئيس اليه متلطفا لتصافحها ، او حين يعطى اهمية لاصابعه الرخوة الشبيهة بالسجق ، وهو يوزع الورق على اللاعبين ، او حين يحشر الفوطة وراء ياقته . كل ذلك لا يقبل النقاش . ولكن يد دينيكين البيضاء امسكت بخناق التاريخ نفسه ، وحركتها ترسل الجيوش مندفعة الى المعركة الدامية .

وانفعل ستيبان الكسييفيتش انفعالا شديدا بهذه الافكار حتى لم يلحظ كيف انتهى القداس ، وصعد الى المنبر قسيس قصير القامة يضع نظارة ، واخذ يتكلم ، وهو ينظر الى دينيكين :

– ان الامر التاريخى لزعيمنا المحبوب القائد العام للقوات البيضاء لجنوب روسيا ، الفريق انتون ايفانوفيتش دينيكين قد طبع باحرف من نور فى قلب كل ارثدوكسى . والقائد العام يبدأ امره بالكلمات التالية : «بالنظر لان هدفى الاخير هو الاستيلاء على موسكو ، قلب روسيا ، فاننى آمر ببدء الهجوم العام فى هذا اليوم ، الثالث من تموز . . . » ايها السادة ، ان ذلك وكان السماء انشقت

فوقنا ، وصوت القديس ميخائيل يدعو عسكره الابيض الطاهر . . .

احس ستيبان الكسييفيتش بدغدغة فى داخل انفه ، وصدره يعلو ويهبط بسرعة تحت القميص المنشى المبلل ، واستولى عليه الانشراح . ورأى دينيكين يرفع كفه الى جبينه ببطء . وادرك ستيبان الكسييفيتش فجاة انه يجب ان يقبل تلك اليد . . . وبعد بضع دقائق حين كان دينيكين اول من قبل الصليب ، وسار على الممر المفروش ببساط بسيطا ذا لحية رمادية مشذبة مثل شيخ لطيف ، غمرت النشوة ستيبان الكسييفيتش فتقدم منه مندفعا . تراجع دينيكين ، وحجب بيده وجهه الذى تلوى بتقطيبة بائسة . وهرع الجنرالات لحجبه فى الحال . وامسك شخص ستيبان الكسييفيتش بمرفقيه من الخلف ، وجذبه الى الاسفل بقوة شديدة حتى انحنت ركبتاه :

– اسمعوا ، كنت اريد . . .

قلب الضابط الذى امسكه عينيه فى وجهه :

– كيف جئت الى هنا ؟

– اردت ان اقبل يده فقط . . .

– اين اذن الدخول ؟

وواصل الضابط دفع ستيبان الكسييفيتش نحو الجمهور دون ان يطلق قبضتيه عنه . وبالقرب من باب الخروج الجانبى دعا الضابط بهزة من راسه طالبين فتيين من طلبة المدرسة العسكرية يحملان بندقيتين :

– خذا هذا الى آمرية الموقع . . .

«كما ترى ، ايها العزيز المبجل ايفان ايليتش ، اننا وصلنا الى كوستروما نفسها . ولم اجازف ان انزل فى الطريق فى اى مكان ، وحتى نيشنى نوفغورد لم تبد لى مكانا مأمونا من ناحية الحوادث الطارئة الحربية . فنزلنا فى ضاحية من كوستروما ، فى بيت خشبى على الفولغا فى حديقته الغبيراء واشجار الحور . وكل شىء كما يجب . . . والبلدة صغيرة طليقة تقع على تلال مثل روما ، تجدها ساكنة ونائية وهذا ما نحتاجه فعلا .

داريا ديميتريفنا تتماثل للشفاء ، ولو ببطء ، وهى ما تزال ضعيفة جدا ، وانا احملها كالطفل الصغير من السرير واخرج بها الى الفناء . وشهيتهـا ، على ما يبدو ، مثل شهية الذئب ، رغم انهـا لا تستطيع الكلام ، ولكنها عندما تريد ان تاكل تشير بعينيها . . . ولم يبق فيها غير عينيها ، على ما اعتقد – وجهها صغير كقبضة اليد ، وغالبا ما تبكى من الضعف – بلا صوت سوى الدموع تسيل على خديها . ظلت ثلاثة اسابيع تقريبا فى حالة هذيان واغماء ، طوال رحلتنـــا على الفولغا . وكان هذيانها مضطربا موجعا ، وروحها تصارع بلا انقطاع اشباح الماضى . هناك كنز ما ، جواهر او شىء من هذا القبيل حصلت عليه بعد جريمة مزعومة ، قد لعب دورا كبيرا فى هذيانها ، مهما بدا ذلك غريبا . وكان كل الهذيان يتلخص فى ان داريا ديميتريفنا كانت تتحدث بصوتين : احدهما كان يدين ، والآخر كان يبرر ، وهو صوت نحيل مولول . وما كنت اكتب لك عن ذلك لولا اكتشاف عرضى غير اعتيادى . . .

لقد انتابنى الجزع والذعر غير مرة ، وانا اراعى بثبات الامر الذى اصدرتـه باطعام مريضتينـا جيدا ، وقد جعلت ذلك مهمتى الاساسية . ان الزمن عصيب . والناس اما يفكرون بمذاهب كبيرة ، ويحسون بمشاعر لا تقل عن الكرة الارضية رحابة ، واما يخلصون جلودهم بكلبية عارية . وكلتا الحالتين تفتقران الى الرحمة الحياتية : هناك من تستطيع ان تجذبه ، وهناك من تستطيع ان تخيفه . ولكنك غالبا ما تفشل فى تليين القلوب والتماس عشرة ارطال من الخبز بدموع الجوع وحدها .

بادلت كل التوافـه الزائدة مما اخذناها معنا بالخبز والبيض والسمك . وكم من مرة وقعت فى اغواء بيع معطف داريا ديميتريفنا السميك الذى هربت فيه من سامارا فى الخريف . ولكننى امسكت نفسى ، لا بسبب الادراك السليـــم ، وانا انظر الى الخريف ، بل لان هذا المعطف قد شهد دائما فى هذيان داريـــا ديميتريفنـــا كمتهم غير مفهوم لى . ومعنى ذلك اننى اضطررت الى اللجوء الى الحيل ، الى خداع النفوس الميالة الى التصديق ، والى السرقة المحضة . ومرة اخرى نفعت قراءة الكف . اصادف امراة ريفية على رصيف النهر تحمل كيسا فاثرثر معها وابحث عن نقطة ضعف . وهى موجودة دائما ، فان

لتجربة الحياة شان كبير . وادير الحديث حول عدو المسيح ، والناس فى الفولغا يتحدثون عنه كثيرا الآن ، ولا سيما الى الشمال من قازان . وهل تحتاج الى الشىء الكثير لتخيف امراة بلهاء ؟ لا احتاج الا لان انال ثقتها ، حتى يكون نصف كيسها لى . . .

يوم امس فقط ، فى صباح الاحد انشغلت فى توضيب ملابس داريا ديميتريفنا . يبدو اننى فى كوستروما الشخص الوحيد الذى يملك بكرة خيوط كبيرة ، وهو امر لا يستهان به ، حتى ان الناس يحجون الينا ليخيطوا زرا فى بنطلون او ليرقعوا . . . وانا آخذ على ذلك مختلف الماكولات دون خجل . كنت جالسا على مدخل البيت ، وقد نشرت معطف داريا ديميتريفنا ، وبطانته من الفانيلة المربعة كما تعرف ، على ما اظن . فيدور فى ذهنى : اخلع البطانة ، واصنع منها تنورة رائعة . فان تنورتهـــا القديمة مهلهلة كالمنخال . . . والبطانة الجديدة اصنعها من قماش اخـر . وسحرتنى هذه الفكرة فسالت انيسيا كونستنتينوفنا ، فقالت هى ايضا «ستكون تنورة جيدة ، فاخلعها . . .» فاخذت اخلع البطانة ، فاذا بالجواهر تندلع من هناك ، قيمة كبيرة ، اربعة وثلاثين حجرا . . . وهكذا فان الهذيان تحول الى حقيقـــة ! وفى نفس اليوم عرضت الجواهر على داريـــا ديميتريفنا ، وفجاة اراها تتذكر ! ظهر فى عينيها استعطاف وفزع ، وعلى شفتيها شىء تريد ان تقوله . . . لقد نسيت الكلام . . . انحنيت الى شفتيها الممتقعتين ، فتمتمت بالكلمة الاولى خلال مرضها كله «ارمها ، ارمها . . .» .

انا بدون اشارتك ، يا ايفان ايليتش ، لا اجرؤ على ان افعل شيئا . لا ادرى من اين لها هذا الكنز ولماذا يبدو كريها لها بهذا الشكل . وانا لا اعرف كيف اتصرف ؛ فانا اخاف من الاحتفاظ به فى البيت ، واعتبر رميه امرا غير معقول . حلفت لداريا ديميتريفنا باننى ركبت زورقا ، وسبحت لمنتصف الفولغا ، والقيت الجواهر فيهـا . فهدات فى الحال ، ولاح لمعان فى عينيها ، وكانها تخلصت اخيرا من شىء لزج .

اعذرنى ، يا ايفان ايليتش ، على كتابتى لك عن كل شىء بمثل هذا الاسهاب . ولكننى دائما كثير الكلام ثرثارا . اعلمنا بطريقة من الطرق عن صحتكم ، وهل نقضى الشتاء هنا ، فى كوستروما ، ام نسافر

الى موسكو ؟ وانا باق على عهدي مخلصا الى آخر العمر لك ولداريا ديميتريفنا . كوزما نيفيدوف . . .»

— جلبت البريد معي — قال سابوجكوف ، وصعد الى العربة المصنوعة من الاغصان المضفورة واتخذ مجلسه على القش الى جانب تليغين قائلا — اهنؤك ، يا ايفان .

— كل ذلك محزن ، يا سيرغي سيرغييفيتش . لو كان الامر بارادتي لبقيت آمر فوج كوتشالين . اناس جدد ، وهموم جديدة . وليس ذلك كله في ميسوري .

— لماذا تجعل من نفسك عجوزا ؟

— سينتهي ذلك . تعبان بعض الشيء . . .

راح الحصانان يعدوان على الطريق الريفية ، كان جانبا العربة المضفوران يهتزان ، والى اليسار تلوح غابة بلوط والى اليمين ، في حقل محصود كانت اكوام الحصاد المتصالبة لا تكاد تلوح في الغسق . وفي الجو رائحة قش القمح . وكانت نجوم اغسطس تطلع .

— من سيكون رئيس الاركان في لوائك ؟

— سيعينون شخصا ما .

انحرفت الطريق اقرب الى الغابة حيث كانت تهب رطوبة خفيفة ، وبدأ الحصانان يحمحمان . سأل تليغين :

— لا توجد رسالة لي ، بالطبع ؟

— اوه ، اعذرني ، يا ايفان . لك رسالة .

كان ايفان ايليتش يجلس محني الظهر متعبا غافيا ، وفجأة دفع جسمه الى الامام :

— اوه ، يا سيرغي سيرغييفيتش ! اين هي ؟

نبش سابوجكوف في حقيبته وقتا طويلا . اوقفا الحصانين ، واشعلا اعواد الثقاب فهست وانقذفت . اخذ تليغين الرسالة ، وكانت من كوزما كوزميتش ، فقلبها باصابعه . قال سابوجكوف همسا :

— سميكة ، كتابة كثيرة .

سأل تليغين همسا ايضا :

— وماذا في ذاك ؟ أهو شيء سيء ؟

وقفز من العربة ، وسار الى حافة الغابة ، واخذ يكسر المساليج بعجالة ، واشعل عود ثقاب ، ونفخ في المساليج .

— خذ حزمة من القش ، وستشتعل في الحال .

وحمل سابوجكوف اليه حزمة من قش القمح راكضا ، وابتعد عنه . واشتعلت حزمة القش على الفور . قرفص تليغين وراح يقرأ الرسالة . راقبه سابوجكوف يقرأ ، ويمسح عينيه بكمه ، ثم يعود للقراءة ثانية . القضية واضحة ، اذن . نشق سابوجكوف من انفه ، وصعد الى العربة ، واشعل سيكارة . كان العجوز الجالس على مقعد السائق يريد ان يعود الى البيت باسرع وقت فقال :

— اخشى ان تتأخر على القطار ، والطريق بعد هذا سيكون رمليا بحتا ، ثم علينا ان نعثر على مكان نخوض فيه . . . نحن نضيع الوقت . . .

لم يعد سابوجكوف ينظر الى تليغين ، حين تقدم من العربة ، ومالت العربة بثقله حين تسلق عليها ، وحط على القش . انطلق الحصانان عدوا . كان درب المجرة يمتد فوق راس سابوجكوف على مسافة ثلاثة ملايين سنة ضوئية . قرقعت العجلة الخلفية المتراخية ، الا ان العجوز السائق لم يعر لها التفاتا ، فلتتكسر اذا كتب لها ان تنكسر . فما في اليد حيلة . . .

قال تليغين بصوت مكتوم :

— ما اعظم قوة نفسها . . . صراع دائم من اجل اعادة القوى ، من اجل النقاوة ، والكمال . . . انا مندهل تماما . . .

— هل هي حية ؟

— اها ، وما تظن ؟ انها في كوستروما ، وتتماثل للشفاء . . .

التفت سيرغي سابوجكوف نحوه بقوة ، وضحك الاثنان . دفعه سابوجكوف بقبضته فدفعه تليغين ايضا . ثم قص عليـه محتوى الرسالة بالتفصيل ، تاركا قضية الجواهر فقط . انها نفس الجواهر التي كتبت لابيها عنها في الصيف الماضي ، حين كانت تصارع من اجل الحياة بصورة سافرة ومحطمة نفسها في الوقت ذاته . والظاهر ان داشا في ايام حيرتها تلك خلطت الجواهر في المعطف . ولم تذكرها مرة واحدة لايفان ايليتش . ومن الواضح انها قد نستها وليس هذا بغريب عنها . نستها ثم تذكرتها في حالة هذيانها . وقولها «ارمها ، ارمها»

جعل انفاس تليغين تحتبس . . . بالطبع هناك الكثير من الغموض يكتنف هذه القضية ، ولكنه لم يحاول قط ان يتوغل فى فهم داشا الى النهاية .

– هناك شيئا واحدا واضحا لى ، يا سيرغى سيرغييفيتش ، هو ان اكون اهلا لحب امرأة مثل داشا ، مثلا ، انه مكسب كبير في الحياة .

– نعم ، اسعدك الحظة كثيرا ، كنت اقول ذلك دائمـا . .

– آه ، كم يجب ان يرتفــع الانسان دائمـــا ، يا سيرغى سيرغييفيتش ! وقد يسقط . . وانت ايضا أمن المحتمل ان تسقط ؟

– قضيتى شىء آخر . . .

– أمن المعقول انك لا تتحرق دائما الى العثور على امراة مثل داشاى ؟

– النساء لا يلعبن مثل هذا الدور فى حياتى . . . انا انظر الى هذه الاشياء ابسط بكثير . . . دون متاعب . . . .

– كفاك حديثا معادا ! انا اعرفك . . . . سيرغى سيرغييفيتش ، حياتنا شامخة : النصر او الموت ، وكل شىء منحصر فى ذلك . ونحن مديرو امورنا ، بل ونحن نحيا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ! وفى العلاقة مع النساء يجب ان تبعد كل الصغائر . . . ويجب الحرص على الحب . . . وكن على يقظة دائما ! هل جربت ان تحـــدق فى عينين محبتين ؟ تلك اعجوبة الحياة . . .

لم يجب سيرغى سيرغييفيتش . وبالتدريج انسرحت طاقيته الى قفاه كليا . ومرة اخرى نظر الى درب المجرة . وقال :

– فى مكان ما فى ذلك الجانب هناك ثغرة فى الكون . مكان اسود بلا نجوم ، له شكل راس حصان . . . وهو فى الصورة الفوتوغرافية مخيف جدا . وسيأتى زمن نفهم فيه ببساطة تامة ووضوح ان الفضاء اللانهائى لا يثير الرعب . وكل ذرة من جسمنا هى الاخرى نظام نجمى لا يُسبر . وفى هذا وفى ذاك لانهائية . ونحن انفسنا لانهائيون ، وكل شىء فينا لانهائى . وانا وانت نقاتل فى سبيل اللانهائيــــة وضد النهائية . . . .

لاحت الى الامام ملامح مبهمة لاشجار ضخمة ، ولكنه تبين انها اجمات واطئة عند الشاطىء . وفاحت طراوة النهر . وانحدرت العربة

على المنحدر . وتهيب الحصانان ، وحمحما بصوت عال ، وخوضا فى الماء الضحل . قال العجوز :

– عسى ان لا نقع فى حفرة .

الا انهم عبروا النهر الصغير بسلامة . وعندما وصلوا الى الجانب الآخر قفز العجوز من مقعده بخفة صبى ، وركض الى جنب العربة هازا اللجام ، صائحـــا على الحصانين . انطلق الحصانان على المرتقـــى الرملى وتوقفـــا لاهثين . صعد العجوز الى مقعده . لم تبق الا مسافة قصيرة للوصول الى المحطـــة . التفت العجوز وقال :

– لن يحصل على شىء من كل هذه الامور ، فقط ان يقتل الناس عبثا . واهل قريتنا يقولون : اننا فى كل الاحوال لن نرجع الارض التى اخذناها ، ولن تجدى القوة معنا . لا يشبه الامر الآن ما كان فى عام ١٩٠٦ ، فالفلاح قوى ، ولا يهاب شيئـــا . فى قريـــة كولوكولتسيفكا – واشار بسوطه الى الظلام – القوا منشورات من الطائرة ، وقرأها الفلاحون . يعنى انه يريـــد ان يشترى الارض من جديد . وصل الى هذا الحد . لم يعد يأمل بان نهبها له بلا ثمن . . . لا باس ، سننتظر : سيرحـــل من حيث اتى . . . آه ، دينيكين ، دينيكين !

. . . .

فى الصباح وصل تليغين وسابوجكوف الى مقر قيادة الجبهة الجنوبية فى كوزلوف ، مملكة التفاح . تلك هى امنا روسيا ! بيوت صغيرة ذات سطوح كالحة ، والجيرانيوم فى النوافذ الصغيرة ، وعمود متطاير من الغبار من تحت عجلات عربة متضعضعة وهى تنط على الطريق غير المستوى المرصوف بالحجارة على جانبيها اعمدة التلغراف الموحشة التى تعلقت على اسلاكهـــا مزق الطائرات الورقيـــة ، ودكان مبنى بالآجر بظليلـــة ، وقد دقت على ابوابـــه خشبتان متصالبتان ، وفتاة حافية القدمين تعبر الطريـــق مذعورة وهى تجر اخاها الصغير المعوج الساقين ، المترنح ، وحطام مهمل لبرج جرس صغير مهدم بالقرب من مسقى عام فى ساحـــة قذرة كانت من قبل سوقا ، وهى الآن خواء . ووراء الاسيجة المتزعزعة نصف المحطمة اشجار التفاح المثقلة بالثمار المحمرة والخضراء بلون الشمع . وفوق

البساتين والسطوح يطير سرب مرح من الزرازير تظهر جميعا بطون اجنحتها .

يبدو ان الناس هنا كان من الممكن ان يعيشوا خارج الزمن الف سنة اخرى لو لم يقع هذا الحدث غير الاعتيادى ، الثورة . وعلى كل حال لا يوجد هنا ما يحزن عليه ، فان الحياة زهيدة . فقط ان الناس ناموا كثيرا .

قال سابوجكوف ، وهو يهتز الى جانب تليغين فى العربة المؤجرة :

– فقط فكر ان الثوانى وراء البحر تتحول الى نقود ، والانسان يضغط فى آلة هائلة ليكون ملائما للانتاج ، والبضائع تنهال من المعامل كما فى هذيان حمى ، ولزم الامر قتل عشرة ملايين انسان لتباع جميع البضائع فى فترة وجيزة . مدنية ! اما هنا فالطائرات الورقية تتدلى من اسلاك التلغراف . انظر الى ذلك الرجل فى النافذة هناك يحك رأسه الاشعث والنوم عالق فى عينيه . . . . ونحن من هذه البقعة ذاتها نقفز الى ما لا مثيل له ، تحقيق حلم الانسانية جمعاء . . . تلك هى امنا روسيا ! انعم عيشا ، يا ايفان . . الجو مضمخ برائحة تفاح قوية ، مثل رائحة انثى فتية . . . حبذا لو اعيش الى ذلك الوقت ! اشعر اننى سأؤلف كتابا . . .

اوصلهم الحوذى الى مقر قيادة الجبهة ، وكانت طقطقة الآلات الكاتبة تتسرب من كل نوافذ المقر .

عرف تليغين وسابوجكوف اثناء انتظارهما لدورهما فى المقابلة ، كل الانباء الحربية . وكان الوضع العام كالآتى : القوات العسكرية للقائد العام دينيكين تواصل الهجوم نحو موسكو بثلاث تشكيلات ، بعد توقف قصير . وجيش شمال القفقاس بقيادة فرانغل يتقدم على طول الفولغا قاطعا وسط روسيا عن مناطق الحبوب – ما وراء الفولغا وسيبيريا – (وكان الجيش العاشر قد استطاع فى تموز ان يفلت منه بعد ان ضحى بكاميشين) والاتمان سيدورين على رأس جيش الدون ، الذى اعاد تنظيمه بوغايفسكى اتمان الدون الجديد المشمول برعاية دينيكين يضغط باتجاه فورونيج يتقدمه فيلقان صداميان للخيالة بقيادة مامونتوف وشكورو . وجيش المتطوعين بقيادة ماى – مايفسكى الجنرال الموهوب ، وان كان سكيرا دائما ، يقوم بهجوم على جبهة عريضة منظفا اوكرانيا من القوات الحمراء وفصائل الانصار ومسلطا

فى نفس الوقت قبضته ، المتمثلة بفيلق الجنرال كوتيبوف على اوريل وتولا وموسكو .

ان نجاحات دينيكين العسكرية واضحة وتموينه جيد ، وافواجه من المتطوعين رغم تطعيمها الكثير بفصائل الفلاحين تقاتل بثقة واقتدار . الا ان الشعور السائد فى مؤخراته يزداد اضطرابا يوما بعد يوم (وهو يستهين بذلك بصورة خطرة) . فكوبان يريد الانفصال والاستقلال الكامل ، وقد اضطر دينيكين لتثبيت سيادة الدولة الكبرى هناك ، الى شنق عضوين بارزين جدا فى رادا كوبان . وفى تيريك مصادمات دامية ، وقوزاق الدون حين اعلن الزحف على موسكو صاروا يقولون : «لقد كان الدون الهادئ لنا ، وسيظل لنا ، فليستول دينيكين وحده على موسكو» ، والقضية الفلاحية فى المناطق التى يستولى عليها جيش المتطوعين تحل ببساطة عسكرية : بالعقاب بالجلد . وحكام الولايات ورؤساء الاقضية والجندرمة القيصرية يعادون الى مراكزهم والفلاحون يقطعون سبطانات بنادقهم كما كانوا يفعلون فى عهد الالمان وفى السنة الماضية ، وينتظرون الجيش الاحمر . اما ماخنو فبعد ان تحايل فقتل بنفسه منافسه الرئيسى الاتمان غريغوريف اعلن على الملأ اقامة نظام فوضوى فى كل مقاطعة يكاترينوسلاف ، وجمع زهاء خمسين الف من قطاع الطـرق ، وهدد بان يقتطـع من دينيكين روستوف وتاغانروغ والقرم ويكاترينوسلاف واوديسا . . . وظهر اتمانات خضر وهم نوع خـاص من الاتمانـات – هاربون مهووسون كانوا يهاجمون دينيكين فى كل مكان اينما وجدت غابات وتلال .

عدّل الجيش الاحمر خط الجبهة بعد النكسات القاسية للجيشين الثالث عشر والتاسع والتراجع البطولى للجيش الثانى عشر من دنيستر وبوغ . ومعنويته تتحسن ، وقدرته القتالية تزداد لسبب رئيسى هو تدفق الشيوعيين الضخم من بتروغراد وموسكو وايفانوفو والمدن الشمالية الاخرى . وكان الرجال يتوقعون امر القائد العام بالهجوم المضاد من يوم لآخر .

بعد ان ثبت تليغين تعيينـــه الجديد كآمر لواء مستقل ، وسابوجكوف كآمر فوج كوتشالين عـاد الاثنان فى نفس اليـوم ، واستغرقا الطريق كله فى مناقشة الاخبار التى عرفاها ، وقد اتفق كلاهما على ان خطة دينيكين الضخمـــة مبنية فى الفراغ ، وانه لن

يستطيع ان يعيد فى روسيا ما استطاع ان يحققه فى كوبان فى العام الماضى . ففى كوبان استطاع ان يدحر سوروكين ، اما هنا فعليه ان ينازل لينين نفسه ، والبروليتاريا الاصلية ذات التقاليد الموروثة ، ثم ان الفلاح هنا عنيد معروق من احفاد الذين طردوا نابليون بالمذراة.

. . . .

– الراية الى الامام ! ارفع الغلاف !

تقدم حامل الراية الى الامام ومعه لاتوغين وغاغين الواقفان الى جانبه للحراسة . سلـــم تليغين الفوج الى آمره الجديـــد سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف ، وكان بادى الجد مستغرق الفكر مقطب الجبين ، وحتى التورد المألوف قد زال عن وجهه الملوح . كانت فى يده ورقة خط فيها خطبة .

– يا رجال فوج كوتشالين !

قال ذلك ونظر الى المحاربين الحمر الواقفين بهيئة استعداد والسلاح فى ايديهم ، وكان يعرف كل واحد منهم ، ويعرف ايا منهم باى جرح اصيب ، واى هم يشغل باله ، لقد كانوا رجاله الاقربين :

– ايها الرفاق ، لقد قطعنا معا اكثر من الف ميل فى زمهرير الشتاء وحمارة القيظ . . وتكللتم بالمجد مرتين قرب تساريتسين . . . واذ تراجعتم لسبب لا يخصكم كبدتم العدو ثمنـــا باهظا لقاء نصر مؤقت واه . وكانت لكـــم افعال مجيدة كثيرة ، لم تذكر فى بلاغات مضخمة ، وقد ضاعت التقارير عنها فى خضم الانباء العامة . . . ولا باس فى ذلك (ونظر تليغين بطرف عينه الى الورقة الموضوعة فى راحته المطوية) احذركم من ان امامكم اعمالا اخرى كثيرة ، فان العدو لم يدحر بعد ، ولا يكفى دحره بل تجب ابادته . . . فى هذه الحرب يجب ان يحرز النصر المؤزر ، ولا يجوز غير ذلك . ان الانسان ينازل وحشا ، ويجب ان ينتصر الانسان . او لنضرب مثلا آخر : حين تطلع سنابل القمح تكون غضة رخوة ، ولكنها تشق الارض السوداء ، تشق الصخر . وفى البذرة النابتة تكمن كل قوة الحيـــاة الجديدة التى ستأتى ولا يمكن ايقافها . . . لقد خرجنا فى صباح غائم بارد الى القتال فى سبيل نهار وضاء ، بينما اعداؤنا يريدون ليلا داكنا ليل الشقاوات . وسيطلع النهار ، ولو تمزق العدو غيظا (ونظر ثانية الى الورقة مشغول البال ودعكها) اعترف لكم ، ايها الرفاق ، اننى لست

فرحا ، وسافتقدكم كثيرا . انه لشىء كبير ان نقضى سنة كاملة معا حول النيران هنا وهناك . ساغادركم مودعا رايتكم القتالية . . اود واطلب تكون دائما ان تقود فوج كوتشالين المجيد للانتصارات . . . .

وخلع ايفان ايليتش طاقيته ، وتقدم من الراية ، وامسك بطرف قماشها الناحل المثقب بالرصاص ، وقبله . ولبس قبعته ، وادى التحية العسكرية ، واغمض عينيه ، وقلصهما بقوة جعلت كل وجهه يتغضن .

. . . .

كان راس ايفان ايليتش يضج بعد التوديعات التى اقامها له سابوجكوف بالتعاون مـــع امراء الوحدات . جلس فى عربة اغصان مضفورة متأبطا كيس المتاع (الذى كان يحتوى على قطة وكلب داشا الخزفيين الى جانب الاشياء الاخرى) وتذكر بعذوبة الخطب الحارة التى قيلت حول المائدة . وبدا وكأن ليس فى الامكان ان يحب الناس بعضهم بعضا اكثر من هذا الحب . تعانقوا وتبادلوا القبل وتصافحوا بقوة . آه ، يا لهم من اناس طيبين اصفياء مخلصين ! نهض امراء الوحدات الشبان وشربوا نخب الثورة العالمية بكلمات بسيطة بل ومقتبسة ، ولكنها قيلت بثقة . وواتت احد امراء الكتائب ، وهو رجل متواضع هادى ، رغبة مفاجئة فى ان يعتلى المائدة ، فصعد عليها ، ورقص رقصة قوزاقية عارمة بين عظام البط المقضومة وقشور البطيخ . وضحك ايفان ايليتش بكل قوته ، اذ تذكر ذلك .

توقفت العربة عند مشارف القرية ، وتقدم ثلاثة هم لاتوغين وغاغين وزادويفيتر ، وحيوه ، وقال لاتوغين :

– اعتمدنا انك لن تنسانا ، ومع ذلك فقد نسيتنا .

واكد غاغين :

– نعم ، لقد انتظرناك .

– انتظروا ، انتظروا ، يا رفاق ، عم تتحدثون ؟

وضع لاتوغين قدمه على عجلة العربة وقال :

– انتظرناك . عشنا سنة واحدة سوية ، ووهب بعضنا بعضا حياته . . . حسنا ، اذن وداعا اذا كان سيان لديك .

وكان صوته حانقا مرتجفا .

– انتظر ، انتظر .

ونزل تليغين من العربة . قال زادوريفيتر :
– ماذا نفعل هنا مع المشاة ؟ انهم صنف آخر ! هل سنعفر اقدامنا بالغبار الى الابد ؟
وقال غاغين وقد لمعت عيناه :
– نحن من رجال المدفعية البحرية ، فهل تجد مثلنا ؟
قال لاتوغين :
– عندما كنا فى نيشنى كنا اثنى عشر ، فبقينا ثلاثة ، وانت الرابع . . . فاذا بك تجلس فى عربة ، ومع السلامة . اما نحن فلسنا بشرا ، نحن ذوى المعاطف الرمادية ، نحن من سواد الناس . . . كنا معك ثم مضينا . . . ولكن ما الفائدة من الكلام معك وانت سكران ؟
قال زادوريفيتر :
– عندك الآن لواء ، يا ايفان ايليتش ، وستكون تحت قيادتك مدفعية ثقيلة .
صاح لاتوغين :
– لتذهب ومدفعيتك الى جهنم . يمكن ان انظف المرحاض اذا اقتضت الضرورة ! ولكن يعز عليّ ان افقد انسانا ! وثقت بك ، يا ايفان ايليتش ، واحببتك . . . وانت تعرف ماذا يعنى ان تحب انسانا ؟ فاذا انا بالنسبة لك غريبا . حسنا ، لننه الحديث . . . ستقضى البقية فى الطريق . . .
– يا رفاق ! – وحى خمار البارحة زايل ايفان ايليتش من هذه الاحاديث – كنتم متسرعين فى ادانتى . هذا ما نويته بالضبط : ان اسجلكم جميعا فى مدفعيتى حال وصولى الى اللواء .
تالق زادوريفيتر وقال :
– شكرا على هذا .
اما لاتوغين فقد ضرب الارض بحذائه المهلهل غيظا :
– انه يكذب ! لقد لفق هذا الآن – ثم قال بلهجة اخف ، وان هدد تليغين باصبع معوجة – النية وحدها لا تكفى ، يا رفيق ، لا تستطيع ان تذهب بها بعيدا . ولو اشكر على ذلك ايضا .
ضحك تليغين ، وضربه على ظهره :
– يا لحدة طبعك ! كما انك لست شخصا منصفا . . .

– ليذهب الانصاف الى الجحيم . فانا لا انوى ان اخدع الناس . ومن الممكن التسامح معك لسبب واحد ، لانك بسيط . ولهذا السبب تحبك النساء . حسنا ، لا تزعل ، واصعد الى العربة – ثم امسكه من كوعه بقوة ، وقال – اتعرف كيف يلقى الانسان نفسه على سيف العدو من اجل رفيقه ؟ الم يحدث ذاك ؟ – وادار عينيه الوضاءتين المتسعتين الباردتين والمشوبتين عاطفة فى وجه ايفان ايليتش وعينيه – الم تكذب ؟ ها ؟ الم تكذب ؟
قطب ايفان ايليتش ، وهز رأسه قائلا :
– حسنا ، كذبت . وانتم فعلتم خيرا حين ذكرتمونى . اشرتم على بمخرج . . .
– الآن ، تقول الشيء الصحيح . . .
دندن غاغين :
– اتركه . . . لا تتشبث به . . . عدت لتكون ملك الطبيعة .
ودعهم ايفان ايليتش دون ان يقول كلمة اخرى ، وصعد الى العربة ، وظل وقتا طويلا فى الطريق يبتسم مع نفسه ، ويهز راسه .
كانت المسافة الى مقر اللواء المنفصل يمكن ان تستغرق فى الطائرة ساعة واحدة ، وعلى الحصان اكثر من اربع وعشرين ساعة بقليل . ولكن ايفان ايليتش سافر بالسكة الحديد اربعة ايام متنقلا من قطار الى آخر ضجرا الى حد الغيبوبة فى المحطات القذرة الخالية من الطعام ، وبالطبع لم يجد عربة الصالون المنفصلة التى وعدوه بها وعدا قاطعا ، واضطر ان يقطع المرحلة الاخيرة من الطريق فى عربة مواش مملوءة الى النصف بطباشير لا احد يعرف لاى غرض يرسل فى مثل هذا الوقت . وفضلا عن ذلك وجد على احد الرفوف مسافرا له وجه سمين كالجرة يرتدى نظارة انفية . وكان طوال الوقت يردد مع نفسه مقاطع من اوبريت اوفينباخ : «لحم خنزير مقدد من تولوز ، من تولوز . . . سيكون مالحا بلا نبيذ . . .» وحين بدا الظلام يعتكر اخذ ينشغل باكياسه ، ناقلا اشياء من هذا الكيس الى ذاك ، مخرجا اشياء ليشمها ويحشرها ثانية .
كان ايفان ايليتش تعبا الى حد الاعياء وجائعا فاخذ يتشمم مميزا بين روائح مختلف المأكولات . وحين بدا هذا الوضيع يدق بيضة

مسلوقة ناخرا من انفه ويقشرها وياكلها لم يصطبر ايفان ايليتش فقال :

– اسمع ، يا مواطن ، بعد قليل سيقف القطار ، فما عليك الا ان تنزل فى الحال مع اكياسك هذه .

اوقف هذا تحريك فمه فى الظلام على الفور ، ولم يبد حركة . وبعد قليل شم ايفان ايليتش رائحة سجق قوية قرب انفه ، ابعد ايفان ايليتش اليد الممدودة غير المرئية بحركة حانقة .

قال هذا الرجل بصوت ناعم عالى النبرة :

– لم تفهمنى جيدا ، ايها الرفيق العسكرى . لم ارد الا ان تنال شيئا من الشراب والطعام . آه ! – وتاوه ، واحس تليغين بانفه ثانية ان السجق يمد اليه – اليوم ليس عندنا غير المبادئ ولا شىء غير المبادئ . ولكن ما علاقة المبادئ بسجق اوكرانيا ؟ مع الثوم وشحم الخنزير . وعندى خمرة . جرعـــة واحدة لكل واحد منـا – وسكت منتظرا ، ولزم تليغين الصمت – لعلك تحسبنى مضاربا او مشتغلا فى السوق السوداء ؟ ارجو المعذرة ! انا فنان . ربما لست بمستوى كاتشالوف ولا يوريف ولا مامونت دالسكى رحم الله روحه السوداء . كان ممثلا تراجيديا عظيما ! فتصور نفسه ، البهيمة ، زعيم الفوضوية العالمية ، وراق له ان ينهب بيوتات موسكو . وفى القمار كان من الصعب ان يكسب المرء فى اللعب معه . . . لقبى العائلى باشكين-رازدورسكى لقب لـه صيت فى الاقاليم . واسمى يبرز فى عناوين ضخمـــــة . . . – وانتظر ، لعـــل تليغين يهتف : «آ ! باشكين-رازدورسكى ، بالطبع ، فرصة سعيدة . .» ولكن تليغين ظل صامتا . – مثلت موسمين فى موسكو ، فى مسرح ارميتاج ومسرح كورش . . . واخذ فلاديمير ايفانوفيتش نيميروفيتش-دانتشنكو يحوم حولى . فاقول لـه «لا ، دعنى ، يا فلاديمير ايفانوفيتش امثـل حتى ارتوى ، ثـم خذنى . . .» وفى عام ١٩١٨ افتتحنا الموسم بـ«موت دانتون» فى مسرح كورش ، ومثلت انا دور دانتون ، اسد مزمجر ، شخصية بارزة ، شفتان بارزتان ، ثور ، وحش ، عبقرى ، جشع ، حساس . . . ياله من تمثيل ! نجاح رائع ! بينما لا يوجد وقود ، والظلام يسود موسكو ، ولا بيع فى شباك التذاكر . فتشتتت الفرقة . وكنا خمسة تحولنا الى الاقاليـم لنمثل «موت دانتون» كيفمـا اتفق . فى موسكـو منعنـا

لوناتشارسكى مفوض الشعب للتعليم من التمثيل ، فاخذنا حريتنا فى الاقاليم . وفى الفصل الاخير حملنا المقصلة على خشبة المسرح ، ففصلت راسى عن جسدى . . . والتذاكر تباع بسرعة ! ولا احسبك تصدق حين تسمع الجمهور يهتف : «اقطع راسه مرة اخرى . . .» ومثلنـا فى خاركوف وكييف وكان الحمر مـا يزالون هناك ، ثم فى اومان ، فى سقيفة الحريق . وبعد ذلك فى نيقولايف ، وخيرسون ، ويكاترينوسلاف . وقادنا الشيطان الى روستوف على الدون . ومثلنا ، وكان النجاح هائلا . حتى ان احد الضباط اخذ يرمى من مقصورته على روبسبير . . . وفى اليوم التالى استدعانى عمدة المدينة ، وضربنى على وجهى حسب الطريقة القديمة قائلا : «ادع الله ليبارك القائد العام دينيكين ، لـو كان الامر بيدى لشنقتـــك . . اخرج من روستوف حالا . . .» نعم ، حال الفن صعب الآن . . . نتنقل من اقليـم ناء الى آخر كالغجر . . . . وديكورنا قد اضحى مزقا ، ومن العيب ان تضعه على مسرح . . . وفى كوزلوف لم يسمحوا لنا فى شحن المقصلـــــة باعتبارها شيئا لا تعرف الغاية من استعماله . . . . تفضلوا ! ليقطع راسى بفاس ! هل لديك علبة كبريت ؟ فى امكانى ان اريك : راسى موضوع فى كيس . صنعه خازن ادوات التمثيل فى مسرح «مالى» فى موسكو . انه عبقرى . . . ثم تاتى الرقابة . تاخذ النص اليها فيظل الرفيق يقرأ ويقرأ . . . وتشرح له ان هذه حقيقة تاريخية . . . فيعود لتقليب الصفحات . . . «اين الاثبات على انها حقيقة تاريخية ؟» فتقدم له عرضا للوناتشارسكى يبدى فيه اعجابه . . . فيقرؤه ايضا ويقول «الا تستطيـــع ان تبتكر شيئـــا امرح من هذا ؟» وهكذا يخدش اعصابك . . . انا لا اعرف ماذا سيحصل لنا الآن . . . نحن ذاهبون للتمثيل فى مدينة «س» ، فى قيادة اللواء المنفصل .

سال تليغين بصورة غير متوقعة له :

– واين فرقتك ؟

– فى العربة المجاورة مع الديكور . وروبسبير فى القاطرة ، وهو الممثل تينسكى . لا بد انك قد سمعت به طبعا . احسن روبسبير فى الجمهورية . . . . اطمئن على ذلك . انه يحصل على الكحول من تحت الارض . عبقرى ! يركب القاطرة حالا فنسافر باطمئنان . . ما رايك ، ايها الرفيق العسكرى ، الا ناكل قليلا ؟ . . . لا ترفض .

– الآن ، لا ارفض .

– ساكون ممتنا جدا – ونبش باشكين-رازدورسكى فى الاكياس هاسا ومدمدما : «اين حشرته . . .» ووقعت فى يد تليغين بيضة وقطعة سجق وبقسماطة وتابع باشكين-رازدورسكى قوله – حين ننتهى من التمثيل فى مدينة «س»، سنسافر الى موسكو . . . شكرا . . . كفانا تجوالا ! فى ممر نيغلينى ، وفى فناء الدار رقم ٥ ، اقام احد الارمن محلا لتناول الاطعمة الخفيفة . انه عبقرى ! تجد النقانق واللحم المقلى مع البطاطس ، وكل ما تشاء . ورجال الميلشيا يفتشون كل يوم . ما السبب ؟ لان جميع المترددين عليه تفوح منهم رائحة الكحول . ويفتشون ، ولا يستطيعون ان يجدوا كحولا ، ولن يجدوا . . . انه يحتفظ بصفيحة فى العلية فى الطابق الرابع مربوطة فى انبوب الماء الفارغ . فينزل الكحول الى الاسفل ، الى محل الطعام حيث توجد حنفية ومغسلة اعتيادية . ولك ان تفتح الحنفية ، وتصب لك قدحا من الكحول ، وتكون مرتاحا .

قال تليغين وهو يمضغ السجق بتلذذ شاعرا بعذوبة من جرعة الكحول :

– سأحاول ان ارتب كل وسائل الراحة . استريحوا وتمرنوا ، ولا تستعجلوا ، وقدموا لنا عرضا جيدا . ستكونون ضيوفى فى مدينة «س» ، انا آمر اللواء . . . .

فتعجب باشكين-رازدورسكى :

– آووو ! اذن فهذا انت . . . وانا طوال الوقت انظر اليك ، واقول هذا هو حتفى ! كم ارعبتنى ! اتكلم واتكلم ولا افهم لماذا لم اُرم من القطار . . . يا عزيزى ، سنمثل لكم ، سنمثل من كل القلب ، كفنانين حقيقيين .

. . . .

نزل تليغين من العربة يحمل كيس متاعه . كان مصباح كيروسين مهشم يضىء بالكاد بضعة اشخاص عسكريين على الرصيف .

– مرحبا ، يا رفاق – حيا ايفان ايليتش وتقدم منهم – اتنتظرون آمر اللواء ؟ هذا انا ، تليغين . اعذرونى على هيئتى هذه . . .

وصافحهم ونظر بدهشة الى احدهم ، وهو رجل اشيب قصير القامة جاف العود صارم ذو قيافة جيدة . . . وحينما ساروا عبر

المحطة الى ساحة مظلمة حدجه مرة اخرى من وراء كتفه بنظرة من طرف عينه ، ولكنه لم يستطع ان يتبين وجهه . اجلسوا ايفان ايليتش فى عربة، فسارت به وقتا طويلا فى حقل دامس تفوح منه رائحة القاذورات. وتوقفت العربة عند بيت طويل كالسقيفة له سطح عال . وقد اعدت فيه لايفان ايليتش غرفة فارغة حديثة الطلاء . وقد وضعت على افريز النافذة شمعة مضاءة وصحن طعام غطى بصحن آخر . القى كيس المتاع على الارض ، وخلع قميصه العسكرى ، وتمطى ، وجلس على سرير ضيق مفروش بفراش نظيف ، واخذ يخلع حذاءه الملطخ بالطباشير .

دق الباب دقة خفيفة . وفكر ايفان ايليتش بانزعاج : «كان يجب ان اطفىء الشمعة فى الحال . انهم سيأتون ، وتبدأ الاحاديث . والساعة قد تجاوزت الرابعة الآن ، اللعنة . . .» ثم اجاب :

– نعم ، ادخل . . .

ودخل بسرعة ذلك الرجل العسكرى القصير القامة الاشيب ، واغلق الباب من دونه ، وبحركة قصيرة رفع كفه المستقيمة الى صدغه مؤديا التحية العسكرية .

وقف تليغين على ساق الحذاء الطويل الذى كان قد خلعه الى النصف ، وتفرس فى هذا **الشبيه** . . . وقال :

– اعذرنى ، يا رفيق . حصل بعض الحرج على الرصيف ، ولكننى قررت ان اوجل التعارف والقضية كلها الى الغد . . . اذا كنت غير مخطىء ، فانت رئيس اركانى ؟

اجاب العسكرى باقتضاب ، وهو ما يزال واقفا عند الباب :

– بالضبط . . .

– اعذرنى ، ما اسمك ؟

– روتشين ، فاديم بيتروفيتش .

اخذ تليغين يجول ببصره فيما حوله فى عجز من امره . وفتح فمه وابتلع عدة جرعات من الهواء .

– اها . . . يعنى . . . – واختلج وجهه ، فتحول الى الهمس :

– فاديم ؟

– نعم .

– افهم . . افهم . . . غريب جدا . . . انت من الحمر . . . انت رئيس اركانى . . رحمتك يا رب !

قال روتشين بنفس الصلابة والجفاف :

– ايفان ، لقد عزمت ان اتحدث اليك الآن ، لكى لا تكون فى موضع محرج غدا .

– اما . . تتحدث . . .

لبس ايفان ايليتش بسرعة حذاءه المخلوع الى النصف ، ورفع قميصه من الارض واخذ يلبسه . انزل فاديم بيتروفيتش جبينه ، وتابع حركاته ، وكأنه يراقبه بلا اى نفاد صبر ، ولا قلق .

– اخشى ، يا فاديم ، ان احدنا لا يفهم الآخر بعض الشيء .

– سنتفاهم . . . .

– انت رجل ذكى . . . نعم ، نعم . . . لقد احببتك بحرارة ، يا فاديم . . . انا اتذكر لقاءنا قبل اكثر من عام فى محطة روستوف . . . لقد اظهرت شهامة كبيرة . . . لقد كان لك دائما قلب حار . . . آه ، يا الهى ، يا الهى . . .

وشد حزامه ، ولوى ازراره ، وفتش فى جيبه اما من فرط ذهوله ، واما ليؤجل قليلا حتمية حديث ثقيل . . .

– يبدو انك تعتبر اننا قد تبادلنا الاماكن ، وان علىّ ، بدورى ، ان ابدى عاطفة كبيرة . . . ان مثل هذه العاطفة موجودة لدى نحوك ، عاطفة كبيرة جدا . . كنا مرتبطين مع بعض اكثر من اى انسانين آخرين . . . ولكن ، فاديم ، ماذا تفعل هنا ؟ ولماذا انت هنا ؟ حدثنى . . .

– لاجل هذا جئت ، يا ايفان . . .

– جيد جدا ربما تظن اننى قادر على ان اخفى شيئا . . . انت رجل ذكى ، فلنتفق : اننى لا استطيع ان افعل لك شيئا . . . نحن هنا مختلفان جذريا . . .

وتجهم تليغين ، وصرف بصره عن روتشين . اما هذا فقد سمع وابتسم .

– وراءك شيء ما . . . وذلك مفهوم . . . والاشاعة حول موتك داخلة فى هذه الخطة على ما يبدو . . . حدثنى . . . ولكن احذرك من اننى ساعتقلك . . . آه ، كيف يحصل هذا . . .

وهز تليغين يده علامة يأس منه ، ومن نفسه ومن حياته كلها التى اضحت الآن محطمة . تقدم فاديم بيتروفيتش منه بحركة سريعة ، وعانقه ، وقبله من شفتيه بقوة :

– انت رجل طيب ، يا ايفان . . . نفس بسيطة . . . وانا سعيد بان اراك بهذه الصورة . . . احبك ، لنجلس – وجذب تليغين الى السرير ، وكان ما يزال فى عناده – لا تتصلب . انا لست من الاستخبارات ، ولست عميلا مدسوسا . . فاطمئن . انا فى الجيش الاحمر منذ كانون الاول .

لم يكن ايفان ايليتش قد تخلص تماما من عزمه الذى هز كيانه حتى النخاع ، ولم يزل بين الشك واليقين ، فنظر فى وجه روتشين الداكن الملوح ، القاسى والرقيق معا ، ونظر فى عينيه السوداوين الذكيتين الجافتين . وجلس الاثنان على السرير ويداهما ما تزالان متشابكتين . واخذ فاديم بيتروفيتش يقص كل ما قاده الى هذا الجانب ، الى بيته ، الى وطنه .

وكان تليغين قد قاطعه فى بداية القصة :

– واين كاتيا ؟ هل هى حية وفى عافية ، واين هى الآن ؟

– آمل ان تكون كاتيا الآن فى موسكو . . . تفاوتنا مرة اخرى . وصلت الى كييف فى وقت متاخر ، قبيل الاجلاء . . ولكن وجدت اثرها . . .

– وهل هى تعرف انك حى ، وانك معنا ؟

– لا . . . وهذا الذى يخرجنى عن اطوارى . . .

١٩

مضى شهران .

ولم يكن من الممكن ايقاف هجوم جيوش الجنرال دينيكين . وكان كولتشاك حاكم روسيا الاعلى يضغط على الاورال بآخر جهد مستميت . وفى منطقة البلطيق انثالت النوائب على الجيش الاحمر السابع الذى تقهقر عبر الوحول اللزجة امام الجنرال يودنيتش فاقدا بسكوف ولوغا وكاتشينا ، فاصدر هذا الجنرال امره فى قواته بـ«اقتحام بتروغراد . . .» .

وقطعت الجمهورية السوفييتية كليا عن مناطق الحبوب والوقود . وكانت المواصلات لا تكاد تكفى لنقل القوات والذخيرة . كانت سماء تشرين الاول تبكى على الارض الروسية ، وعلى المدن الجائعة المشلولة ، حيث كانت الحياة تخمد فى انتظار شتاء اكثر بعدا عن التفاؤل ، وعلى مداخن المصانع الخامدة والورش المهجورة ، التى تركها عمالها الى مختلف الجبهات ، وعلى مقابر القاطرات والعربات المحطمة ، وعلى السكون العريق للقرى ذات السقوف القشية ، حيث لم يبق الا القليل من الفلاحين ، وحيث عادت المسارج ، كما كانت فى زمن الاجداد ، وعاد النول اليدوى يدمدم فى بعض البيوت .

فى ذلك الفصل الردىء الطقس اخترق الجنرال مامونتوف جبهة الجيش الاحمر للمرة الثانية وتوغل بفيلقه القوزاقى فى غارة عميقة محطما المؤخرة قاطعا جميع المواصلات .

كان تليغين وروتشين والمفوض تشيسنوكوف (وهو رجل جديد ارسل قبل فترة وجيزة الى اللواء ليحل محل مفوضه الذى اصيب بالتيفوس) منكبين على خارطة مقطعة لصقت باللعاب . كان تشيسنوكوف عاملا من موسكو انهكت صحته الاشغال الشاقة فى العهد القيصرى ، وانحله الجوع ، وشاب قبل اوان الشيب . راح يمسد جبهته الصلعاء ، وكانه يحس بالم فوق حاجبيه ، ويقرأ للمرة العاشرة امر القائد العام عن العمليات .

كان تليغين يمص غليونه . وكان فى المدة الاخيرة قد ترك لف السيكائر ، وتعلق بالغليون الذى اهداه له لاتوغين وكان هذا قد حصل عليه من ضابط ابيض اثناء الاستطلاع . واصبح الغليون تسرية ووسيلة للتهدئة فى اللحظات الصعبة – وما اكثرها فى الايام الاخيرة – وكان اذا لم ينظفه مدة طويلة يصفر صفيرا مريحا كصفير السماور الموضوع على المائدة فى امسية باردة .

اتضح لفاديم بيتروفيتش من النظرة الاولى كل ما ينطوى عليه الامر من هستيريا يائسة فكان ينتظر ان ينهى المفوض تاملاته فى كتابة هيئة الاركان هذه متكئا على الجدار المصنوع من كتل الخشب ، وكانت عيناه تلمعان بخبث من تحت جفنيه نصف المطبقين .

كانوا فى بيت الضيعة الذى اتخذ مقرا لهيئة اركان اللواء على بعد حوالى عشرة فراسخ من الجبهة . ولم يبق فى كلا الفوجين اللذين تسلمهما تليغين فى آب ، اى قبل شهرين ، غير ما يقل عن ثلثمائة مقاتل ، اما الذين يرسلون للتعزيزات فقد كان من الصعب ان يسموا مقاتلين . فقد كانت القيادة العامة تشكلهم على عجل ، وبالدرجة الاولى من الهاربين من الجندية ، ملتقطة «الخضر» من المدن والقرى ، التى كانوا يأوون الآن اليها خوفا من امطار الخريف . وكانوا يحشرون دون اعداد ولا تمرين فى سرايا التعزيزات ، ويرسلون الى الجبهة ، حيث كان عليهم ان ينفذوا مهمات حربية لا تتحقق بدقة الا فى حركة القلم الاحمر على خارطة العمليات فى مكتب القائد العام الهادىء المهيب .

– انا لا افهم – قال تشيسنوكوف ونظر الى ظهر الورقة ، رغم انه لم يُكتب عليها شىء – انا لا افهم الفكرة العامة . . .

اجاب روتشين :

– وليس هناك شىء لتفهمه . انه امر اكاديمى للجبهة . يبدو ان القائد العام اكل فى فطوره بيضتين وشرب كوبا من الكاكاو ، ودخن سيكارة جيدة ، وتقدم من الخارطة . وكان رئيس اركانه ينتظر ان يزول فى احد الايام هذا الكابوس اللعين فى غمضة عين ، كما فى الحلم ، فاخرج باصبعيه على الخارطة علم الاشارة الاحمر الذى يعلم فوجنا الـ١٢٣ – وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلف من الفين وسبعمائة محارب – وغرزه بحركة رشيقة الى بعد مائة فرسخ الى الجنوب «وبهذه الطريقة ، وبعد ان نحتل قرية درموفكا ، سنهدد جناح العدو . . .» ثم اخذ العلم الذى يعلم فوجنا الـ٣٩ – وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلف من الفين ومائة محارب – ونقله الى بعد خمسة وتسعين فرسخا الى الجنوب الشرقى «وبهذه الطريقة سيقوم الفوج التاسع والثلاثون بهجوم امامى ، وهكذا . . .» عندئذ قلص القائد العام عينيه من خلال الدخان لينظر الى الخارطة ، ووافق ، لان رئيس الاركان ، على اية حال ، قد قضى الليل مترويا فى كل شىء ، وان الخطوط والسهام قد خطت بدقة بالحبر الاحمر والازرق ، ولان النتيجة واحدة – مهما يكن موضع اعلام الاشارات – وهى انعاش الحركة فى الجبهة . . . وهذا هو المطلوب . . .

قاطعه تشيسنوكوف وهو يهز راسه الكبير الاصلع :

– اسمع ، ليس هذا نقدا ، يا اخ ، بل حنقا . . .

– نعم ، حنق . . . ولماذا عليّ ان اصمت اذا كان هذا ما افكر فيه . وهذا ما يفكر فيه تليغين ايضا ، وما يفكر فيه مقاتلونا ، ويتحدثون عنه . . .

زفر تليغين زفرة قوية ، دون ان يرفع الغليون من فمه . وتصاعدت فى نفس المفوض مرارة الشك والحيرة ، كل ما حاول ان يكبته فى نفسه . انه لم يتخلف عن الحياة خلال عشرة اعوام من الاشغال الشاقة فى العهد القيصرى ، بل ان اشياء كثيرة معقدة قد ظهرت فيها ، دوامات اينما يممت وجهك . . . وكان قلبه الذى طهرته سنوات العذاب يجد صعوبة فى تقبل التشكك فى الذين يقاتلون فى صف الثورة . فكان يحب مثل هؤلاء الناس فى الحال ، ولكنه كان يكتشف غير مرة ان بعضهم كان يضمر الشر . وقد احب روتشين ، لانه كان حادا مستقيما ولا يهاب شيئا ، حتى ولو وضعت بندقية بين عينيه . سال المفوض :

– وماذا يمكن ان يقول المقاتلون ؟ عن قريب سنوزع عليهم الستر المبطنة والاحذية اللبادية . فتدور احاديث اخرى . من الذى يهذر ؟ الهاربون ؟ ان المطر ينفذ الى عظامهم ، وبطونهم خالية ، فلهذا تصطك اسنانهم . . .

سال روتشين :

– متى سنوزع الستر المبطنة والاحذية اللبادية ؟

– مفوضية التموين وعدتنى وعدا قويا . . . وقد رايت امر الصرف . . . وعدونى بالف وخمسمائة بطة ، ونصف عربة من شحم الخنزير المقدد . . .

– الم يعدوا بطيور محمصة من الجنة ؟

دمدم المفوض مع نفسه ، ولم يجب عن ذلك . وبالفعل لم يستطع ان يجلب للواء غير وعود واوراق . وكان قد سافر الى سيربوخوف ، وتشاتم فى التلفون ، وقضى ليالى مؤرقة ذارعا حجرته من زاوية الى اخرى ، كعادته القديمة فى السجن . . . لقد حدث شىء غير مفهوم ، فاينما دفعه فكره الثورى السليم وجد فى طريقه عقبة مبهمة تشربك كل شىء فيها واختلط .

سال المفوض :

– ماذا يقولون ، على اية حال ؟

نقر روتشين ورقة الامر باصبعه محتدا :

– الامر يقول : ان تحتل قرية ميتروفانوفكا وضيعة دالنى بسريتين ، ويحتفظ بهما . لقد احتللنا ذات مرة قرية ميتروفانوفكا وضيعة دالنى بناء على امر القائد العام . وخرجنا منهما طائرين كالطلقة . وسيتكرر هذا بحذافيره بعد غد ، حين ننفذ ما كتب هنا .

– ولماذا ؟

– لانه . . . لان من المستحيل الاحتفاظ فى هذا الموقع ، ولا ينبغى ان نقدم على ذلك .

قال تليغين هازا غليونه : صحيح .

– هَبْ اننا اقدمنا على ذلك ، وخسرنا مائة مقاتل فى هذه العملية ، ونفذنا فى جبهة البيض دون ان يكون لنا اتصال بقواتنا . عند ذاك سيطبقون علينا من اليسار واليمين ، فنخرج سراعا من هذا الكيس ، وفضلا عن ذلك سنضطر الى ان نعبر النهر ثلاث مرات حيث سنتعرض للرمى عند العبور ، ثم هناك الارض المنبسطة حيث سيهاجمنا الخيالة ، والمستنقع حيث سيغطس نصف العربات .

– ولكن هذه القرية وتلك الضيعة ضروريتان لنا فى الخطة الاستراتيجية العامة .

– لا . . . انظر الى الخارطة . . . وهذا ما يقوله المقاتلون : لا توجد فكرة ولا هدف ولا خطة فى كل عملياتنا خلال الشهرين الماضيين . . . نحن نراوح فى مكاننا دون اى توقع مأمول ، ونكيل ضربات لا معنى لها ، ونتكبد خسائر فى الرجال ، ونخسر الايمان فى النصر . . . سترى : اليوم ليلا سيغادر بضع عشرات من الرجال الجبهة من تلقاء انفسهم . . وبعد شهر سيجلبونهم الينا ثانية . . . انا اتساءل : ما الذى حدث ، وماذا يحدث ؟ شلل !

قال تليغين بعد ان حشرج فى غليونه :

– اليوم ابلغونى فى كوكبتنا للخيالة – وانا لا ادرى من اين يعرفون ؟ – ان مامونتوف ، على حد زعمهم ، قد عبر الدون ثانية ، وهو يتوغل فى مؤخراتنا .

اختطف روتشين الامر ، ومرر عليه بصره ، ثم القاه ، واتكأ على الحائط ثانية .

— محتمل جدا . . وهذا الامر خال حتى من التلميح الى ذلك . . .

ودخل المكلف بالحراسة وهو رجل كهل قصير القامة ملتح يحمل كيس عتاد قذرا :

— ايها الرفيق آمر اللواء ، يطلبونك على التلفون شخصيا .

نظر تليغين الى المفوض مندهشا ، والقى معطفه على كتفيه بعجالة ، وخرج . قال المفوض ، وهو يمسح جبينه مرة اخرى :

— اذا صدق الانسان بك ، يا روتشين ، فقد كل ايمانه . فما الذى يحصل ؟ هل هناك خيانة بيننا ؟

— انا لا افترض شيئا ، ولا اؤكد . ولكننى اعرف ان من المستحيل الاستمرار فى القتال بهذه الطريقة .

— والامر العسكرى يجب ان ينفذ ؟

— نعم ، يجب . . . وسأنفذه غدا . . .

فكر المفوض لحظة ، ثم ضحك باقتضاب :

— لعلك تبحث عن الموت ؟

— ان هذا لا يتعلق فى المسألة كليا ، وابعد من ان يمسك . . . وانا ، فضلا عن ذلك ، لا ابحث عن الموت . . . وحتى لو جئت الينا منذ فترة لا بأس بها لعرفت ، على اية حال ، ان الفوج لا يريد ان ينفذ هذا الامر . . . ولكن يجب ان ينفذه . . . ان حياة الجيش هى فى تنفيذ الامر الصادر اليه . فاذا انتفى ذلك كان مآله الى التحلل والفوضى والموت . . . سأقرأ الامر بنفسى ، واقود الفوج الى الهجوم . . . فاعتبر هذه العملية تجربة للضبط . . . ولننه الحديث بذلك . . .

عاد تليغين ، وجلس دون ان يخرج يديه من جيبى معطفه . وكانت عيناه مستديرتين .

— ايها الرفيقان ، رئيس المجلس العسكرى الاعلى يطوف فى الجبهة . وبعد ساعة سيكون عندنا . . .

ومرت ساعة واخرى . ونزل المطر رذاذا . وكانت كوكبة الخيالة فى كامل نصابها ووحدة الموقع تصطفان فى المرعى وراء بيت

الضيعة . وكانت قطرات المطر تلتمع على اعراف الخيول المتدلية ، وخصلها الممشطة جيدا ، وعلى معاطف الفرسان الناصلة اللون . وكانت الخيول تدوس الوحل بسنابكها فتزداد شبها بالجيف المستخرجة من الماء ، فقد كانت ضلوعها بادية ، واكفالها ناتئة ، واشفارها متدلية . وكان ايمرمان ، آمر الكوكبة ، وهو ملازم سابق فى الخيالة القيصرية ، ذو وجه مدور ، وانف مرفوع كأنف الصبى ، ينظر الى تليغين فى يأس . فضيحة ! وعلاوة على ذلك ظهر من حيث لا يدرى جرو قذر طويل القوائم وقبع امام الكوكبة يراقب مستغرقا بفضول رخى البال .

هش ايمرمان عليه هازا ذراعه ، الا ان الجرو وتر اذنيه فقط ، ومال برأسه الى جانب . وفى تلك اللحظة استدار الفارس المكلف بالاشارة ، والواقف على مرتفع غير بعيد بحصانه ولكزه بعجالة ، ويرقل فى عدو سريع نحو تليغين ناثرا الوحل .

لاحت مقدمة سيارة ضخمة لامعة يحف بهما مصباحان متباعدان صاعدة المرتفع فى زاوية قائمة تقريبا ، ثم ظهرت السيارة مكشوفة طويلة رمادية فاتحة .

اخذت الخيول ترفع اقدامها من هديرها الشديد وتهز رؤوسها . اصدر ايمرمان امره : «استعداد !» وتوقفت السيارة وهى تكاد تسحق الجرو الذى قفز جانبا ، كقطعة من القطن ، وقبع ثانية . تقدم تليغين ، رافعا سيفه بالتحية مختارا حسبما اتفق احد الثلاثة العسكريين الجالسين فى السيارة ، وكانوا جميعا يضعون مماطير صهباء فوق معاطفهم . نهض الجالس الى جانب السائق واضعا يديه على الزجاجة الامامية ، واستمع الى التقرير دون ان ينظر الى تليغين .

ثم استدار نحو الكوكبة بحركة حادة . نهض العسكريان الجالسان فى المقعد الخلفى — احدهما شاحب بلون الورق مبتل اللحية ، والثانى ممتلئ منتفخ ضارى الهيئة — واديا التحية العسكرية . واخذ الرجل يتحدث بصوت نابح دافعا رأسه الى الاعلى حتى لاح منخراه اسودين ، ورقصت نظارته الانفية المبللة على قصبة انفه :

— ايها المقاتلون ، باسم سلطة العمال والفلاحين آمركم بان تشحذوا سيوفكم اشد ، وتركزوا حرابكم بصلابة اعظم . من منكم لا

يريد ان يروى حصانه من مصب الدون الهادئ؟ الجبان وحده لا يريد ذلك . . . لماذا ما تزالون هنا ، وليس هناك ؟ ان الجمهورية تتوقع منكم مآثر بطولية خارقة . فالى الامام ! ادحروا العدو ، وانثروا رماده فى سهبنا الام . . .

وظل يتحدث باندفاع اشد على هذا المنوال . وانتهى من خطابه ، واجال بصره فى الكوكبة ، وهتف «هورا !» رافعا فوق راسه قبضته المطويـة . فردد المقاتلون هتافه باصوات متنافرة . فقد اقلقهـم خطابـه . وكانه رجل نازل عليهـم من القمر . فوجئوا بان ينعتوا بالجبناء ، ولم يكونوا يتوقعون ذلك .

دعا تليغين بهزة من راسه :

– لست راضيا عن وضع مقاتليك . انهم رعاع على خيول ! ولست راضيـا عن حالـة خيولك ، انهـا كدشـان لجر العربات ! اتبعنى . . . .

وانهبد على المقعد قرب السائق . وانطلقت السيارة الضخمة من مكانها نحو الضيعة .

وتبعها تليغين على فرسه ، متصورا فى عجالة ان الامر ربمـا يضمر احتمالا قويا برميه . . .

توقفت السيارة عند مقر قيادة الميدان . ووصل تليغين وراءها وفى اثره تشيسنوكوف ينط على سرج حصانه فى غير اقتدار . وكان على مقدمة البيت جندى الخفارة على التلفون ، وقد ادى التحية مرتجف اليد والفزع مرتسم على وجهه . وتوسل بعينيه الى تليغين يطلب اذنا بالحديث . وتكلم متلجلجا من الجهد ليلتزم بالرسميات ، وابلغه ان مقر اللواء قد تلفن يستدعيه قبل دقيقة (وكانت جميع اقسام اللواء وممتلكاته وخزانته وارشيفه فى قرية غايفوروني على بعد حوالى اربعين فرسخا الى الشمال) . واستطاعوا ان يبلغوه بان دورية من البيض من رجال مامونتوف فى اغلب الظن – قد اغارت على القريـة ، وان الاتصال التلفونى قد انقطع اثر ذلك .

زحف العسكرى الممتلئ الجسم على ركبته ثقيل الحركة – كان رئيس اركان القائد العام – وانحنى على المقعد الامامى ، واخذ يهمس لرئيس المجلس العسكرى الاعلى . فهز هذا راسه ، وقال لتليغين عبر كتفه :

– ستتسلم تعليماتى ببريد الميدان .

ظل تليغين وتشيسنوكوف ينظران طويلا بصمت وذهول الى الطريق الاسود الذى انطلقت فيه السيارة الشبيهة بالغول وذابت كالشبح فى عتمة المطر .

اشتغلت داشا فى قسم تحسين الارض التابع للجنة التنفيذية كمساعدة ثانية لرئيس «مكتب المشاريع». كانت فى بعض الاحيان تقوم برسم البقع بالالوان المائية على خارطة ولاية كوستروما فى الاماكن التى يفترض ان تجفف مستنقعاتها للحصول على الفحم النباتى وخام المستنقعات بكميات لا تنفد . وفى احيان اخرى كانت تستنسخ القوائم التى يعدها المهندس غريبوسولوف ليجعل اللجنة التنفيذية فى حالة دائمة من التاثر العصبى بضخامة مشاريعه العقيمة تماما فى واقـع الحال ، لان القسم لم يكن يحوى غير صندوق الاصباغ وبعض الفرش وكمية غير كبيرة من ورق وتمان ، فلا ارفاش ، ولا عربات ، ولا خيول ولا مضخات ماصة ، ولا نقود ، ولا ايد عاملة .

وحصلت داشا على جراية – هى ربع رطل من الخبز المخلوط بالقش ، واحيانا بعض اوراق الغار او حب الفلفل . وكانت انيسيا تشتغل مراسلة فى اللجنة التنفيذية ، وكانت تحصل على جراية اكبر لخدماتهـا القتاليـة . فالى جانب ثمن رطل من الخبز والفلفل كانت تتلقى سمكة ونصف من السمك المجفف ، واحيانا سمكة رنجة صغيرة بلون الصدأ .

وكانت انيسيا الى جانب عملها الاصلى تعمل فى حلقة التمثيل للهواة ، وتتردد لسماع المحاضرات المبسطـة فى كليـة الآداب والتاريخ التى اجليت من قازان الى كوستروما . وكانت انيسيا تنظر بترفع بالغ الى واجبها المباشر – وهو الجلوس فى مقعد متداع عالى المتكأ عند باب نائب رئيس اللجنة التنفيذية – فكانت اما ان تطوق راسها لتصم اذنيها باصبعيها ، وتنحنى نحو ركبتيها وتقرأ تراجيدات شكسبير ، وحين كانت تستدعى ، كانت تجيب بسهـوم : «الآن ، الآن . .» بل وترد بحدة على الطلبات المتكررة فى أن تنقل هذا الظرف او ذاك الى احدى الغرف العديدة المزدحمة بالمناضد ، والمكتظـة

بالناس الذين شغلوا انفسهم بعمل من الاعمال ، واما ان تتغيب عن مكانها . وذات مرة كانت احدى المشتغلات ، وهى امرأة ذات وجه مصفر ، لفتت نظرها بهذا الخصوص . فنظرت انيسيا اليها نظرة سوداء قائلة «لا ترفعى صوتك علىّ ، يا رفيقة ، فانا لم اخف حتى من سيوف القوزاق . . .» حتى ان هذه المستخدمة المثقفة التى عملت كثيرا من قبل فى قضية تحرير المرأة وجدت من الافضل الا تتورط مع هذه العاملة الفلاحة السليطة . . .

كانت داشا تعود الى البيت بعد الساعة الخامسة بينما كانت انيسيا لا تعود احيانا الا فى ساعة متأخرة من الليل . وكانتا تعيشان فى بيت خشبى مطل على الفولغا . وكان كوزما كوزميتش يطعم داشا وانيسيا الى حد الشبع ملتزما بامر ايفان ايليتش تماما ، ويتابع ، خلافا لضميره ، القيام باعمال غير صافية فى الحصول على الماكولات والحطب ، رغم ان ذلك كان يشق عليه فى بعض الاحيان : فقد كان كبر السن يؤثر فيه ، والطقس الخريفى يميل به من اللغب واللغط الى التاملات الفلسفية الهادئة عند الموقد المشتعل ، والمطر يضج ضجيجا خفيفا فوق السطح .

وحين يزرورق الغبش الصباحى فى النافذة كانت داشا وانيسيا تحتسيان فى العادة الشاى المصنوع من الجزر مع شىء من الادام ، وتخرجان الى العمل . وكان كوزما كوزميتش يغسل الاوانى ، ويسكب جردل الماء القذر ، ويكنس بالمكنسة كلتا الغرفتين ، ثم يبدأ على مهل وبزفرات فى الغالب فى تقليب الفكر والتخمين ممن يمكن ان يقتنص اليوم بيضتين وقطعة من شحم الخنزير ، زجاجة من الحليب ، نصف قبعة من البطاطس . . . وكان كوزما كوزميتش لا يستجدى ، لا سمح الله ! بل كان يقوم فقط بتبادل الافكار الفلسفية والخلقية بالماكولات تبادلا لا غبار عليه . وخلال هذين الشهرين عرفه كل اهالى كوستروما تقريبا ، بل طاف اكثر من مرة فى القرى القريبة من المدينة .

وكان وهو يفكر يقوم فى العادة برتق وخياطة شىء ما فى النور المتزايد عند النافذة . فالحياة قوة جبارة . وحتى فى زمن التحولات التاريخية العميقة والمحن الصعبة يخرج الناس من ارحام امهاتهم ورؤوسهم فى المقدمة ، وبصراخ حانق يطالبون لهم موضعا فى هذه الدنيا سواء اكان يلائم هذا آباءهم وامهاتهم ام لا . ويتحابب الناس

دون اعتبار الى انهم يملكون من وسائل الدعم الخارجية اقل نسبيا مما لدى الطاووس على سبيل المثال حين ينشر ذيله الترف ، وهو يرقص على مرج الربيع . ان الناس ينشدون السلوى ، ومستعدون الى ان يقدموا نصف رغيفهم الى من يسكب طمانينة غير متوقعة فى نفوسهم التى يمزقها الشك : «ماذا سيحل بنا ؟ هل سنأكل العشب ، ونغطى عوراتنا باوراق الكرنب ؟» وآخرون يكونون ممتنين لو وجدوا مستمعا فهيما يمكن ان يكشفوا امامه كل ما يفور فى اعماقهم من غيظ دون ان يخافوا اللجنة الاستثنائية فى الولاية .

وكان كوزما كوزميتش يخرج للطواف فى البيوت . وكان يمسح قدميه فى الاروقة المظلمة ، ويدخل المطبخ . وفى بعض الاحيان تصرخ ربة البيت عليه فى غضب :

– جاء الطفيلى مرة اخرى ! لا يوجد شىء اليوم ، لا شىء . . . .

– جئت اسأل عن ماريا سافيشنا – كان كوزما كوزميتش يرد بذلك هازا وجهه الاحمر بالتحية مقلصا شفتيه – اهى فى حالة سيئة ؟

– سيئة .

– ليس الموت بحد ذاته رهيبا ، يا انا ايفانوفنا . بل ما يرهق ارواحنا هو شعورنا باننا عشنا حياة عقيمة . ومن هنا يحتاج الانسان الى السلوان . ضعى يدك على جبهتها الباردة وقولى : كانت حياتك شحيحة ، يا ماريا سافيشنا ، فلا تتأسفى عليها . ولكنك كنت تكدحين مثل اصغر نملة وحملت قشتك بلغب وبلا مسرة . والاعمال لا تذهب عبثا ابدا ، وكل شىء يتجمع ، ويزداد بيت الانسان سعة وعلوا ، ويكون لقشتك شىء تسنده . لقد ربيت اولادا واحفادا ، وها هو مساء حياتك قد حان . فاغمضى عينيك ، وارقدى مطمئنة . ولا تأسى على شىء ، فانت لم تكونى ملومة فى شقائك . . .

وثرثر كوزما كوزميتش وهو يجلس على مقعد عند الباب . وكانت المرأة تكسر شظايا الخشب فاذا بها تلقى الفأس فجأة ، وتزفر عدة مرات متتالية ، ويتبلل خداها بالدموع . . . .

– يسعى الانسان ليعيش . . . واذا فطس لا احد يقول له كلمة شكر . . .

– لان حياتنا ما زال فيها ظلم ... بينما يجب ان يقام لكل انسان نُصُبٌ جزاء على افعاله ... وسيكون ذلك في المستقبل ، يا آنا ايفانوفنا ، في المستقبل ستكون الحياة طيبة ...

– ذلك في العالم الآخر ؟

– لا ، في هذا ...

– انت وحدك الابله الطيب ...

– هذه مهنتي ، يا آنا ايفانوفنا ، ولكنني لست طبيبا ... انا محب للاستطلاع . والانسان لا يحتاج الى شفقة . الانسان يحب حين يجد اهتماما من الناس بـه . حسنا ، يعني يمكن ان ازور ماريـا سافيشنا ؟

– اذهب ...

وكان كوزمـا كوزميتش لا يخرج من مثل هذا البيت خـالي الوفاض . وفي المساء كان ينشر ويكسر الخشبة التي يكون قد اخذها من احد البيوت ، ويشعـل الموقد في النصف النسائي من البيت ، وينفخ الرماد من السماور الفائر ، ويضعه على الطاولة ، ويقص على داشا وانيسيا عن روحاته . فيقـول وهو ينفخ في صحـن الشاي :

– ظهر لي منافس . صار عجوز يطوف على البيوت حافي القدمين لا يضع على جسده غير قميص من قماش الاكياس ، وقد نشر لحيته عن قصد ، وانفه المهيب بشكل غير اعتيادي يملأ وجهه . وهو يدعى الاب انفل . وقد اختلق هذا المحتال حكاية بسيطة . فهو يلج البيت ، ويجلس على الارض ويبدأ بالترنح وتشمير الذراعين ، ويولول : «هذا جزاؤك ، يا انفل . وانت لم تصدق ، تفو ، تفو ... رأيت بعينيك ، ولمست بيديك . تفو ، تفو ، تفو ...» والمستمعون اليه يفغرون افواههم ، فيمثل برهة اخرى ويقول : قبل ايـام ، في ليلة الجمعة وضعت امرأة زوجها في الجيش الاحمر مولودا ممتلئا له اسنان . وقد غسلوه وقمطوه ، ووضعوه على يدي امه . فتخرج الام ثديها ، وتقدمه له ، فلا يأخذه ، بل ينظر اليها نظرة ذات معنى ويقول : «ماما ، ماما ، ها انا قد جئت ! ...» – رشف كوزما كوزميتش من صحنه بصوت عال وضحك – سياخذ انفل زبائني مني . انه غيور ! اليوم التقينا في احد البيوت فاشار باصبعيه على صدغه اشارة ساخرة وقال :

هل جئت يا كوزما لتاخذ فضلاتي ؟ اذا اخذت تتعقبني فستعرف طعم عصاي ...

قالت داشا بحدة :

– اترك كل هذه الحماقات ، يا كوزما كوزميتش ، والتحق في الخدمة السوفييتية ، لا باس ، لا باس ، سندبر امرنا على الجراية وحدها ... والا فقد بدأ الناس يتحدثون عنك حديثا غير جميل ، وهذا يزعجني كثيرا ...

ووافقت انيسيا من احلامها المرفرفة كعادتها دائما وقالت :

– اليوم تحدثت مع شخص ، انـه خنزير – ولونت تعابير وجهها ونغمات صوتهـا – كنت جالسـة اقرا بالطبع ، فياتي رجل يشتغل عندنا في قسم التمرين المدني ، مهدم رخو معوج الفم .

«اود كثيرا ان اتعرف بعمك .»

«اي عم ؟»

«الذي تعيشين معه ... بحاجة الى ان استمع الى نصيحة روحية منه ...»

«انه لا يقدم اية نصائح ...»

«ولكنني سمعت العكس . الكثيرون ياتون اليه ويجدون عنـه تسرية ...»

«يا رفيق ، لا وقت لي لسمـاع سخافاتـك . ها انت تراني مشغولة ...»

فيسر في اذني مع لعابه :

«الم تسمعي بالطفل الذي يتكلم ؟ ..»

«اذهب الى الشيطان ...»

«لا حاجة الى الذهاب بعيدا ، نحن منذ زمان مـع الشيطان .. وذلك الطفل اليس المسيح الدجال ؟»

قالت داشا : – شيء مزعج جدا جدا .

– نعم ، وحشة – قال كوزما كوزميتش ذلك ، وصب لنفسه قدحا آخر من الماء الفائر وهو ساهـم – وحشـة تزرع الرنين في الآذان . ومـع ذلك فان الروسي مولـع بالاستقصاء ، وهو الى ذلك سريـع التأثر . وله راس نفيس . وكل ما يحتاج اليـه هو المعرفة والطريق الصحيح للخروج من هذه الشربكة البيزنطيـة . منذ زمن

طويل تراودنى الرغبة ، يا صاحبتى العزيزتين النفيستين ولكن دون ان اعقد العزم ، تراودنى الرغبة فى ان اقترح عليكما الانتقال الى موسكو .

– الى موسكو ؟

تساءلت انيسيا واتسعت عيناها الزرقاوان .

– الى النور ، الى الافكار ، اقرب الى القضايا العظيمة . واقطع لكما عهدا بان اكف عن شيطنتى . . . فانا نفسى قد قرفت منهـا منذ زمان . . . مـا ان رايت صورتى – الاب انغل – حتى اصابنى الغم ، وتملكنى كليا . . .

قالت داشا :

– الى موسكو ، الى موسكو ! عندنا هناك مكان نلجأ اليه ، فقد بقيت لكاتيا شقة تعيش فيها ماريا كوندراتيفنا . . . ربما لم يبق منها شىء الآن ؟ آه ، يا كوزما كوزميتش ، ايها العزيز ، دعنا لا نماطل فى الامر . . . فنحن هنا نعيش على ما يقع فى اليد ، ونبيع اعز الاشياء لدينا . . . وانت اصبحت هنا انسانا اخر اسوأ . . . اسمع ، فى موسكو ، سندخل انيسيا مدرسة المسرح فى الحال . . .

لم تقل انيسيا شيئا فى الرد على ذلك ، سوى انهـا احمرت ، واسبلت جفنيها .

– كوزما كوزميتش ، اذهب غدا لتعرف هل هناك سفن ذاهبة الى ياروسلافل ؟ . . .

واستولى الانفعال على داشا ، فصمتت وتنهدت . قوس كوزما كوزميتش ظهره ، وضغط براحتيه على بطنه ، وفكر فى ان من المحتمل الا تكون فى موسكو مجازفة تذكر بخصوص اطعام المراتين ، وعند الضرورة القصوى فان لديهم جواهر داشا الغالية المخفية سرا . . . . ثم ان فى الامكان ان يأخذوا معهم من كوستروما زهاء بودين من طحين الجودار . . . ثم كيف افلت من لسانه موضوع السفر هذا ! ولكن الى الاحسن ، بالطبع . . . واخذ يؤلف فى ذهنه رسالة توضيحية لايفان ايليتش الذى تلقى منه قبل فترة بطاقة بريدية قصيرة يعلن فيهـا انه حى ومعافى مع الحب والقبل .

اتكات انيسيا بمرفقها على المنضدة ، وحدقت فى الضوء الواهن لقنديل الصفيح ، وتراءى لها ذلك السلم (الشبيـه بسلم اللجنـة التنفيذية) الذى ستنزل فيه عارية الكتفين ساحبـة ذيل فستانهـا

الحريرى وتفرك يديها الملطختين بالدم ، ثـم الصندوق الطويـل المصنوع من خشب الصنوبر – التابوت – الذى ستنهض منه وترى روميو ، وترى قارورة السم . . . .

وهكذا ظل الثلاثة جالسين طويلا قرب السماور الهاسس . وكان الليل يرشق زجاج النافذة الصغيرة بدفقات حادة من المطر . ولكن لم يكن تعنيهم رداءة الطقس ، ولا تعاسة الماوى ، ولا كل الحرمانات العابرة ، فقد كانت قلوبهم تخفق بحرارة وثقة على عتبة الحياة ، وكأنهم وُهِبوا شبابا دائما . . . .

كان ايفان ايليتش يعتبر نفسه رجلا موزونا . فانـه لم يفقد صوابه مهما يكن من شىء . ولكن الذى حدث هو انه فتح زر قراب مسدسه باصابع لم تطاوعه كثيرا وبدون تفكير ، وكأنما اصيب بعمى فجائى ، وسحب مسدسه ، وصوبه على رأسه ، وداس على الزناد . ولكن رصاصة لم تطلق ، لان احد الاشخاص كان قد افرغ الرصاص من مسدسه لغرض من الاغراض .

التفت اليه روتشين والمفوض تشيسنوكوف واخذا يعنفانه بشدة ناعتين اياه بالغر الساذج ، وبالمثقف ، وبخرقة لا تصلح حتى لمسح عجيزة حصان عجوز . وقد فعلا ذلك فى حقل ، حيث ترجلوا من خيولهم عند تل دريس اسود من المطر . وعلى مسافة غير بعيدة كانت تقف كوكبة الخيالة ووحدة المقر على صهوات الخيول . وكان ذلك كل ما تبقى من لواء تليغين .

فقد نفذ فيلق مامونتوف الى مؤخرته بجبهة عريضة وقطع كل اتصالاته ، وحطم وسائل الاتصال ودمر مستودعات التموين والذخيرة فى قرية غايفورونى وفى يوم واحد تحولت مؤخرة اللواء كلها الى فوضى انعدم فيها كل اتصال باية نقطة قيادية ، فتراجع الرجال فى وحدات مشتتة وفرادى واختبأوا ، وراحوا يهيمون على وجوههم .

ان كلا الفوجين للمشاة وجد نفسه فى المصيدة قبل ان يفيق على نفسه . فقد هاجمهما رجال مامونتوف من الخيالة من المؤخرة ، والخيالة القوزاق المترجلون من المقدمة . وترك المقاتلون الحمر الجبهة ، وتشتتوا شذر مذر .

واتضحت حجوم الكارثة شيئا فشيئا ، وبالتدريج . سار تليغين ومعه كوكبة الخيالة ووحدة المقر فى البحث عن لوائه . كان ما يزال يأمل فى ان يجمع بعض الفلول ، فقد زال الذعر ، وكان مامونتوف بعيدا ، الا انه سرعان ما اتضح ان من المستحيل ان يجمع اناسا من تحت السماء الرصاصية ، وبين اكداس الدريس المنتفخة ، والحقول التى يتعذر فيهـــا السير ، والمنخفضات والاجمات حيث يخيـــم الضباب . . . فقد ذهب رجال للبحث عن احدى وحدات الجبهة للانضمام اليها ، وراح بعضهم يجوبون الضياع يسالون اهلها من تحت النوافذ اذنا فى ان يدخلوا ليدفئوا انفسهم بينما اهتبل آخرون الفرصة فولوا هاربين بعيدا عن هذه الاماكن الى مواطنهم وزوجاتهم ومواقد بيوتهم .

عثر تليغين وروتشين والمفوض تشيسنوكوف مصادفة على رجلين من الفوج التاسع والثلاثين منهكين الى حد الاعياء ، حتى لم يبق لهما الا ان يجلسا وراء تل دريس ، وقد رويا للثلاثة قصة بائسة جدا . .

قال احدهما :

– عبثا تجوالكم فى الحقل ، فانكم لن تعثروا على احد . كان هناك فوج وزال .

وبقى الآخر جالسا وظهره الى كومة الدريس وكشر عن اسنانه :

– باعونا ، وهذا كل ما فى الامر . . . اتظنون اننا لا نفهم فى الاوامر العسكرية ؟ نحن نفهم كل شىء . . باعونا . . . اللعنة على القيادة ! اعطونا انعلة من الكارتون لاحذيتنا ! – وحرك اصابعـــه البارزة من حذائه وقال : – انتهينا من القتال . . . النهاية . . . آمين !

وعند كومة الدريس هذه انهار تليغين . طافت فى ذهنه مقدمة السيارة المربعة بمصباحيها المتباعدين . اين فرصة التبرير امام هؤلاء ! لقد ضيع كل شىء بسماحته الكسول ، وتركه يفلت من بين يديه ، ويزيغ . . .

قال لروتشين وتشيسنوكوف :

– كفاكما صياحا على . حسنـــا ، ضعفت ، جبنت ، وانـــا الملوم . . . وغضن وجهه بصورة مقرفة ، واخذ يضع مسدسه فى قرابه – كنت محظوظا طوال حياتى ، وكنت انتظر دائما الانهيار فى يوم ما . . حسنا ، دعوا المحكمة العسكرية الثورية تصدر حكمها . . .

– اذهب الى الشيطان ! ليس الامر يخصك الآن ! – صاح روتشين به وقد اختلجت عضلة خده – الى اين تقود الكوكبة ؟ الى الشرق او الى الغرب ؟ ما هى خططك ؟ ما هى المهمة الآنية ؟ فكر !

– اعطنى الخارطة . . . .

تناول تليغين الخارطة من يدى روتشين فى غضب ، وتمتم ، وهو ينظر اليها ، شاتما نفسه بشتى العبارات الفاحشة . وتراقصت امام عينيه اسماء المدن والقرى والضياع . ولكنه تغلب على ذلك ايضا فى آخر الامر . وبعد نقاش تقرر السير شرقا فى محاولة للاتصال بوحدات الجيش الثامن .

وقضوا بقية النهار يسيرون عدوا كلما كان ذلك ممكنا . وحين ادلهم الليل حتى لم يعودوا يرون آذان خيولهم ارسلوا رجال الاستطلاع للبحث عن قرية روجدستفينسكويه التى اختفت غير بعيد فى الظلام الدامس . وتوقفوا دون ان يترجلوا عن خيولهم وانتظروا طويلا . قرب فاديم بيتروفيتش حصانه من حصان تليغين ، ومس ركبته بركبته وتساءل :

– حسنا . ربما يمكن ان توضح الآن ؟ هل يمكن ان اتحدث اليك ؟

– ممكن .

– لماذا قمت بذاك المشهد المسرحى ؟

– اى مشهد مسرحى ، يا فاديم ؟

– مع المسدس الفارغ . . .

– ربما فقدت عقلك ! . . – وانحنى ايفان ايليتش على سرجه نحوه ، ولكنـــه لم يتبين فى الظلام غير كتلـــة غامضة ذات عينين سوداوين – فاديم ، اذن لم تكن انت الذى افرغ الطلقات ؟

– لست انا الذى افرغ الطلقات من مسدسك . . . بدأت افكر فى انك اكثر مكرا مما تبدو . . .

– انا لا افهم . . . جبنت . . . لا علاقة للمكر هنا . . . لو كنت فى مكانك لما ذكرت ذلك . . .

– لا تراوغ ، لا تراوغ . . .

كانا يتحدثان بخفوت . وكان روتشين يرتجف بكل كيانه مثل كلب صيد فى طوق .

– ان رجال الكوكبة جميعا رأوا ذلك المشهد المقزز عند كومة الدريس . . . أتعرف ماذا يقولون ؟ يقولون انك مثلت كوميديا . . . تريد ان تنقذ حياتك عند المحاكمة العسكرية . . .

– لا افهم ماذا تعنى فى كلامك !

– لا ، يجب ان تصغى الىّ ! – وبدا الحصان تحت روتشين يضطرب ايضا – يجب ان ترد على بكل اخلاص . . . ففى مثل هذه الايـــام يعرف معدن الانسان . . . هل تحملت المحنة ؟ اتدرك ان لطخة قد علقت بك ؟ . . . وانت لا تملك الحق فى ان تلطخ نفسك . . .

وثب حصانه ، وضرب وجه تليغين بذيله بقوة . عندئذ قال ايفان ايليتش بصوت مبحوح يكبته تشنج فى حلقومه :

– ابتعد عنى ، والا طعنتك ! . . .

وفى تلك اللحظة قال المفوض تشيسنوكوف فى الظلمة :

– كفاكما ثرثرة ، ايها الرجلان . انا الذى افرغت الطلقات .

لم يرد روتشين ولا تليغين بشىء عن ذلك . كانا يتنفسان تنفسا ثقيلا احدهما من المساءة الشديدة والثانى من امتلاء النفس بالبغضاء ، وكلاهما لا يرى الآخر . ومن الظلام تردد اصوات قصيرة كالطلقات :

«قف ، قف !» «من انتم ؟» «اتركنى» «من اين انتم ؟» «نحن رجالنا ، وانتم من اى جانب ؟ اللعنة عليكم» .

كان ذلك اصطدام دورية باخرى . دار الخيالة بعضهم حول بعض خائفين فى هذه الظلمة الحالكة ان يجردوا اسلحتهم ، وغير راغبين فى نفس الوقت من ان ينفصلوا لما تملكهـــــم من الحماس الحانق ، فتصايحوا وتشاتموا ، حتى احس الطرفان من قوة التعابير ان كليهما من الحمر .

«لماذا تمسك لجام فرسى ؟»

«من اى وحدة ؟»

«لا شان لك فى هذا ، يا ابن . . . نحن وحدة فرسان كبيرة» .

«اين وحدتكم ؟»

«تعال معنا . . .»

وتعبت كلتا الدوريتين اخيرا ، وسارتا بهدوء الى الكوكبة . وتبين ان قرية روجدستفينسكويـــه على مســافـــة غير بعيدة ، وراء

غابة ونهر صغير . وحين سئل احد رجال الدورية الاخرى عن الوحدة الموجودة فى القرية اجاب بغير كثير من الادب :

– ستصلون ، وتعرفون . . .

كان سميون ميخائيلوفيتش بوديونى واثنان من قواد فرقه يجلسون وراء طاولة فى احد الاكواخ يشربون الشاى من سماور كبير . وحين راى سميون بوديونى الرجال الثلاثـــــة – تليغين وروتشين وتشيسنوكوف – يدخلون قال بلهجة مرحة :

– وصلت تعزيزاتنا . اهلا وسهلا . اجلسوا واشربوا الشاى معنا .

اقتربوا من الطاولة ،وتصافحوا مع بوديونى الذى كان ينظر نظرة مبطنة الى آمر اللواء الهائم واركان حربه (وكان مطلعا على كل شىء) وتصافحوا مع قائد الفرقة الرابعة ، وهو رجل قصير القامة له شاربان مهيبان يمكن ان يصلا الى ما وراء اذنيه بسهولة – ومع قائد الفرقة السادسة الذى مد لكل واحد منهم يدا كبيرة ، وضغط بها على ايديهم بقوة وكانه يلوى حذوة فرس ، وقد انطبعت على وجهه الفتى المورد طمأنينة عميقة .

سأل سميون بوديونى عمــــا اذا كان قد هيئ لوحدتهـــم مبيت جيد ، وهل لديهـــم شكاوى او طلبات . رد روتشين بانهم قد نزلوا فى احسن مـــــا استطاعوا ان يوفروه ، وانـــه لا شكاوى لديهم .

– خير على خير ، اذن – اجاب بوديونى الذى كان يعرف جيدا ان القرية التى نزل فيها فيلقه لقضاء راحة قصيرة فى الليل لا توفر موضع راحة حتى لذبابة – ولماذا انتم واقفون ؟ اسحبوا المصطبة واجلسوا . انا اتذكرك جيدا يا رفيق تليغين . ان رجالك استقبلوا قوزاق الدون بحمام حار ، آنذاك . . . – واجال بصره فى الجالسين حول المائدة مقلصا عينيه فى رضى شديد ، وهز قائد الفرقة السادسة رأسه مؤكدا ان القوزاق بالفعل قد استقبلوا بحمام حار ، بينما هز قائد الفرقة الرابعة وجهه الكالميكى بفخر وجفاف ، وتابع بوديونى

قوله – اذن فى هذه المرة عبث بكم مامونتوف بعض الشىء . . . ماذا جلبتم معكم ، جماعة المقر او وحدة قتالية ؟

قال تليغين :

– وحدة قتالية ، كوكبة معززة .

– وما هى حالة خيولكم ؟

– فى حالة ممتازة – اجاب روتشين بسرعة – قوائمها الامامية بحذوات .

قال بوديونى مندهشا :

– تصوروا ، حتى القوائم الامامية بحذوات . اظن لا حاجة لكم فى الذهاب للبحث عن الجيش الثامن ، فقد لا يكون فى مكانه الآن . . .

قال تليغين :

– يجب ان ارفع تقريرا لقائد الجيش .

– قدم التقرير لى . . . ماذا تقولان ، يا قائدى الفرقتين ، فى ان نضم آمر اللواء وكوكبته المعززة ؟

هزّ كلا القائدين رأسيهما موافقين . تناول بوديونى قبصة تبغ من علبة صفيح ، واخذ يلف سيكارة ، وكرر قائلا :

– لا حاجة لكم فى الذهاب بعيدا . انضموا الينا . لقد جلسنا ذات مرة نفكر انا وقائدا الفرقتين وقررنا بعد التفكير بان خيولنا اخذت تسمن ، ومقاتلينا يضجرون ، فلنذهب شمالا للبحث عن مامونتوف . وهكذا نجرى ، هو يبتعد عنا ، ونحن نلاحقه . . .

كان سميون بوديونى يمزح ، بينمـــا كانت الامور شديدة الخطورة . فبعد ان عرف بوديونى ان فيلق مامونتوف قد خرق جبهة الحمر جازف برأسه وخالف الامر الشخصى لرئيس المجلس العسكرى الاعلى فى الاستمرار بلا هوادة فى تنفيذ الخطة العسكرية التى – ان لم تكن تنطوى على خيانة ، فان غباءها وفشلها المحقق قد تبديا الآن بوضوح ، وانطلق بمبادرته الخاصة لملاحقـة مامونتوف . وكان بوديونى وقائدا فرقتيه يتصورون جيدا لانفسهم صريف الاقلام القوى على الورق فى مكتب القائد العام ، والمخاطر الفواحة برائحة الموت تلك التى تنتظرهم فى نهاية الخط المباشر . ولكن انقاذ موسكو كان

اغلى لديهم من رؤوسهـم . ولم يروا انقاذ موسكو الا فى ملاحقـة مامونتوف فورا ، وفى دحر فيلق الخيالة الذى هو افضل فيلق لدى البيض . وكانوا لا يشكون فى ان هذا الفيلق لن يصمد لضربات سبعة آلاف مقاتل بالسيف فى فيلق بوديونى ، وانه سيصرع لا محالة فى مكان ما فى الحقول العريضة بين تسمنا والدون . وكان عملا باسلا ان يلتحق بمامونتوف الذى كان قد اخذ من قطاع الطرق عادة تبديل الخيول المنهكة المصابة فى القرى والضياع .

كانت افواج مامونتوف من قوزاق الدون – وهى افواج جريئة اسكرتها الانتصارات – تضم عددا اكبر بكثير . ولكن مامونتوف كان لا يسعى الى الالتقاء ببوديونى ، فقد كان يخاف هذا الخصم المحنك الذى يلاحقه . اذ لم تكن القوة التى تتصدى له خيالة من الانصار بل ارهب قوة لا يعرف الا الله مغبة الالتقاء بها فى ارض مكشوفة . انها خيالة روسية نظامية . كان بوديونى يزحف باقل سرعة ، ولكن بذكاء اشد . فتارة كان يختار طريقا اقصر او اكثر ملاءمة ، وتارة كان يحصر مامونتوف فى اماكن كان من الصعب الحصول فيها على علف للخيول او على خيول مستراحة . .

واستمرت هذه المطاردة ، هذه اللعبة الخطرة لقوتين جبارتين من الخيالة تسير من يوم الى يوم . وكانت الادخنة والحرائق فى ضباب الخريف تشير الى الطريق الذى يسلكه مامونتوف . وكان مامونتوف يهاجم الوحدات الحمراء فى المؤخرة ، وينسحب سريعا فى ناحية . واخيرا راوغه بوديونى ولحق به . ففى صباح باكر ، وحالما لاحت معالـم الصفصاف القديمة سوداء على خلفية حدائق الخضروات وثب سميون بوديونى ومعه كوكبة الفرسان الى قريـة بائسة كـان مامونتوف يقضى ليلته فيها .

الا ان عربة من ثلاثة خيول صهباء خرجت فى الحال من بوابة بيت فى الطرف الآخر من القرية وراحت تبتعد . كان مامونتوف فى هذه العربـة المكشوفـة يتلفت على مقعده حاسر الراس محلول المعطف ، وقد اطلق عدة رصاصات على فارس فى المقدمـة ذى شاربين وعباءة قوزاقيـة سوداء كان يلاحقه ، فقد عرف انـه بوديونى ، ولكن القربينة تراقصت فى يديه . وطوردت العربة ، الا ان خيول الدون الصهباء حملتها بعيدا كالريح .

كانت الصرخات الوحشية وصلصلة السلاح والطلقات المنفردة ما تزال تتردد فى افنية البيوت . لقد كان حرس مامونتوف الشخصى من القوزاق يقاتل باستماتة . طاف رجال بوديونى فى القرية ، واخذوا يخرجون من المخابئ والزوايا الى الشارع اناسا ركبهم الذعر ، منهم من خرج فى لباسه الداخلى فقط ، ومنهم من خرج فى حذائه لا غير . وتبين انهم موسيقيون . احاطوا بهم ، واخذوا يضحكون منهم . تقدم سميون بوديونى ، ولما عرف جلية الامر طلب ان تجلب لهم آلاتهم الموسيقية .

ولما رأى الموسيقيون ان البلاشفة لا يقتلونهم بالسيوف ، بل يضحكون منهم فقط ، تراكضوا وارتدوا ملابسهم بنشاط ، وجلبوا آلاتهم الهوائية – هيلوكونات ضخمة ، وابواقـــا وترومبيطات – وكانت جميع الابواق من الفضة الخالصة . واندهش رجال بوديونى ، وتمطقوا . انها لغنيمة عظيمة !

قال سميون بوديونى :

– على الاقل حصلنا على شعرة من جلد خنزير . . . أتعرفون عزف «النشيد الاممى» ؟

كان الموسيقيون يعرفون عزف كل ما يشتهى المرء ، فقد كان بينهم طلاب من كونسرفاتور موسكو ، وقد قضوا عاما ونصف عام فى البحث عن مورد رزق ، وخبز ابيض منتقلين من مدينة الى اخرى ، هاربين من اعمال الاباحة والاستجوابات وقتال الشوارع حتى وصلوا الى روستوف فجندوا . بل ان قائدهم – وهو رجل ذو انف اسفنجى ومشبع بالكحول – اعلن انه ثورى اصيل قديم . نظروا الى انفه المورد المزرق وصدقوا بانه لن يلحق بهم اذى .

وتملص مامونتوف مرة اخرى من النزال . وخرج فيلقه بمناورة سريعة من التماس . واستمرت الملاحقـــة .ولكن مقصده اضحى واضحا ، وهو الخروج من خلال جبهة الحمر الى جماعته . وكان بوديونى يخشى ذلك اكثر من اى شيء آخر . ذلك لان حملته كلها ستكون بلا جدوى ، وعند ذاك لن يقتصر الامر على تحمل المسؤولية امام القائد العام ، بل اسوأ من ذلك ، امام رئيس المجلس العسكرى الاعلى .

كما شاء سوء الحظ الا يفلح فى اقامة اى اتصال ويعرف ما يدور فى العالم حوله فى تلك الايام . . .واخيرا وصلوا الى السكة الحديد .

هرع بوديونى على حصانه الى محطة القطار ومعه رئيس اركانـــه والمفوض ، وقعد الى جهاز الارسال . وتلقى عن طريق التلفون اخبارا جعلته يرسل فى طلب قائدى الفرقتين وامراء الوحدات الكبار للوصول الى المحطة على الفور .

واجتمعوا فى مشرب المحطة ، حيث كانوا يرون من خلال النوافذ الكبيرة المحطمة تقدم كوكبات الخيالة ، وعبورها سدة القطار . والى الخلف منها يمتد غروب موحش ملاصق للارض تحت ثقل السحب . صعدت صفوف الفرسان – والاشارات على رماحها – على المنحدر ، وبدت مقدودة من حديد ، شديدة البأس على خيول قوية . ذهل تليغين من التعبير المرتسم على وجـه فاديم بيتروفيتش روتشين ، الذى كان ينظر فى النافذة – فى انعكاس الغروب . فقد كان وجها ترتسم عليه الانفة والجمود وكانما فى حالة انفعال قوى .

– يجب ان نعرف اى شيء هى . . . – قـال بصوت كامد ، وتقدم تليغين ليسمع بشكل اوضح – لقد نسينا . . . ليس هناك عقاب يساوى مثل هذه الخيانة . . . قبّل الارض على غفرانها لك . . .

كان فاديم روتشين يتحدث على هذا النحو لاول مرة بعد الشجار عند كومة الدريس . وكان تليغين يدرك انه يتعذب ، وانه يصمت لا عن انفة ، بل عن يأس لانه لم يكن فى وسعه ان يطلب غفرانا من تليغين بكلمات عادية من مثل «اعذرنى ، يا ايفان . . .» والآن ، وفى حالة التوتر الطويلة والتعب وصل الى لحظة الاحساس الطافح بوطنه المضاع والمنسى والمكسوب من جديد ، وكان ذلك فى نفس الوقت دعاءه الى الصفح عنه . . . .

سعل ايفان تليغين ، واراد ايضا ان يقول شيئا طيبا لروتشين شاطبا على شجارهما الاحمق ، وكانه لم يكن . . . . وفى تلك اللحظة خرج بوديونى من قسم التلفون . واحاطوا به فقال :

– ايها الرفاق ، هناك اخبار كبيرة الشأن . . . ولنبدأ بالاخبار المنغصـــة . ان كوتيبوف استولى على اوريل . ودورياتـــه قد بلغت مسافة قريبـــة من تولا . وهو فى هذا الهجوم دق اسفينا عريضا فى جبهتنـــا . وتراجع الجيشان الثامن والعاشر الى الشرق ، والتاســـع والثالث عشر الى الغرب . . . وكان ذلك فى الاسبوع الماضى – وصمت بوديونى والتمعت عيناه بالق مرح – ومنذ ذلك الحين تغير الوضع

تغيرا كبيرا ، يا رفاق . . . اولا يمكنني ان افرحكم بان القيادة العليا كلها قد استبدلت . ولم يعد رئيس المجلس العسكرى الاعلى يتصرف فى الجبهة الجنوبية . . . واسترجعت قواتنا اوريل . . . ومزقت افواج كورنيلوف وماركوف ودرزدوف الممجدة شرّ تمزيق ما بين اوريل وكرومى . . . ان ما انتظرناه طويلا قد بدأ . . . والتفاصيل غير معروفة حتى الآن . . ولكن مجموعة صدامية خاصة تعمل بنجاح ضد كوتيبوف . . .

وتوقف سميون بوديونى ثانية مديرا فى يديه قصاصة من شريط التلفون اللاسلكى ، وتحرك شارباه ، والقى نظرة ضارية على امراء الوحدات الملتفين حوله .

– ان عمليات فيلقنا لم تجر وفق امر القائد العام ، ولكن خلافا له . . . فقد امرنا بالتحرك جنوبا الى سهوب سالسكيه ، الى مانيتش ، حيث كاد الجيش العاشر ان يتحطم . وصعدنا الى الشمال . وبدلا من ان نكون على الجانب الايسر من الدون كنا على جانبه الايمن . وبدلا من ان نبتعد عن خيالة الدون ، تشبثنا فى ذيلها . وهذا غير صحيح ، ولا يجدى شيئا ! . . . اما بالنسبة لتفكيرنا البسيط ، فان لنا عقولا فلاحية قوزاقية ، ولا يجدر ان يكون لنا تفكيرنا الخاص ، وبالمقابل فان فى اركان القائد العام عقولا متعلمة ، متنورة . . . والذى حدث اننا سرنا واوامر القائد العام سارت وراءنا وانا لم اتسلمها ، ولم اقرأها : فانت اذا بدات تقرؤها فان السيف سيسقط من يدك فى اغلب الظن . . . ومع ذلك ، فسواء اردت ام لم ارد فان الامر قد لحق بى . . . والامر خال من الكلمات المطولة – وبسط شريط التلفون حتى لا يلتف حول نفسه ، وقرأ – «الى قائد فيلق الخيالة بوديونى . . . تشير معلومات الاستطلاع الاخيرة الى تحرك خيالة العدو من منطقة فورونيج الى الشمال . آمر قائد فيلق الخيالة بوديونى بتحطيم خيالة العدو . . .» وهكذا كل شىء باختصار ووضوح . يعنى ان عقولنا قد اصابت بتفكيرها . . .والامر موقع من قبل رئيس المجلس العسكرى الثورى للجبهة الجنوبية ستالين ، فى مقر القيادة العامة فى سيربوخوف .

عادت كاتيا الى موسكو ، الى نفس زقاق ستاروكونيوشننى قرب شارع اربات ، حيث يقع البيت ذو الطابق العلوى (الذى انتقل اليه

25*

نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف فى بداية الحرب مع داشا قادما من بطرسبورغ والذى عادت كاتيا اليه من باريس) ونزلت فى تلك الحجرة التى شهدت جزع حياتها اليائس فى ذلك اليوم الكئيب ، يوم دفن نيقولاى ايفانوفيتش . آنذاك استلقت على الفراش ، وتغطت بمعطفها الفرائى ، وتمنت ان تغادر الحياة . وتنهدت وانسلت من تحت معطفها ، وسارت الى غرفة الطعام لتجلب شيئا من الماء ، وتشرب المورفين ، وفى ضوء الغبش رات فجاة حياتها الثانية : كان فاديم بيتروفيتش روتشين يجلس فى انتظارها . . .

والآن انتهت هذه الدورة الثانية من حياتها ، مترعة بالجهد والحب والعذاب . وخلفت وراءها طريقا طويلا جدا من الخسائر التى لا ترد . وقد احست كاتيا بذلك احساسا حادا حين خرجت فى اواسط تموز من محطة كييف تحمل صرتها . . . رات اطفالا صغارا يسبحون فى نهر موسكو الناضب واصواتهم تتردد فى السكون مجلجلة موحشة ، ورجلا عجوزا يجلس على العشب الذابل عند الشاطئ ومعه عود لصيد السمك . ولما خرجت الى شارع سادوفيا حيث اختفت الاسيجة المشبكة التى كانت تحيط بالممشى الاوسط المشجر كله ادهشها السكون المخيم ، فلا صوت غير حفيف اشجار الزيزفون الهائلة مغطية الفيلات الصغيرة المقفرة بظلها الاخضر المهيب . وفى شارع اربات الذى كان يزخر بالناس لم تجد تراما ولا عربات اجرة ، بل وجدت بعض السابلة يمرون عبر سكة الترام الصدئة مطرقى الرؤوس . سارت كاتيا حتى زقاق ستاروكونيوشننى ، وانعطفت فيه حتى رات بيتها ، فارتخت رجلاها . وقفت طويلا على الرصيف المقابل . كان هذا البيت يتراءى لها فى ذكرياتها بيتا جميلا ذا لون ذهبى واعمدة بيضاء مسطحة ، ونوافذ نظيفة تنسدل عليها الستائر . . . وخلفها كانت تعيش ظلال كاتيا وفاديم روتشين وداشا . . . أمن المعقول ان يختفى كل ما كان دون ان يترك اثرا ؟ أحقا ان الحياة تولى كالحلم فى راس على وسادة ، وبعد ان تخادع خداعا عقيما تتلاشى بعد زفرة الاستيقاظ ؟ لا ، لا ، فى تلك الايام الخوالى تجمد اثنان : كاتيا فى مكان ما فى غمرة المسرة غير المتوقعة حينما القت قارورة المورفين على البساط وتدلت فاقدة القوى على ذراعى فاديم بيتروفيتش روتشين المتصلبتين والثانى هو الذى كان يهمس لها بكلمات الحب وكانما قد اسود من الانفعال . لا ، لم يكن

ذلك حلما ، ولم يختف . انه ما يزال هناك وراء النوافذ السوداء وهناك ايضا ليلتهما المؤرقة الاولى ، فى القبل الصامتة العميقة كالعذاب ، وفى الكلمات المتكررة والمتجددة ابدا والمعبرة عن الدهشة من ان تكون هذه المعجزة الوحيدة على الارض ، المعجزة التى شابكت بمثل هذه القوة يدين سمراوين قويتين ويدين بيضاوين رقيقتين هما اكثر الاشياء رقة واكثرها رجولة . . .

كان البيت يقف معوجا بادى البؤس مسلوخ الجدران ، وليس فيه اعمدة بيضاء . اختلقتها كاتيا اختلاقا . كانت النافذتان الاخيرتان من الطابق الاول قد غطيتا من الداخل باوراق الجرائد . اما النوافذ الاخرى فقد تلطخت بلطخات من الوحل اليابس مما يدل على خلوها من الساكنين . . . وكان زجاج الطابق العلوى حيث كان مخدع داشا ، قد هشم كليا .

عبرت كاتيا الشارع ، ودقت الباب الخارجى الذى تعمقت فى طلائه البنى خطوط طويلة . دقت كاتيا طويلا حتى تنبهت الى ان ثقبا مغلفا بالغبار كان فى موضع المقبض . عندئذ تذكرت ان الوصول الى الباب الخلفى يقتضى الانعطاف فى شارع جانبى . كان باب الحديقة مفتوحا ، وقد سارت منه عبر فناء صغير نما فيها العشب فى ممشى مطموس المعالم . اذن ، فالمنزل لم يكن خاليا ، على اية حال .

دقت كاتيا باب المطبخ . وبعد قليل فتح الباب رجل صغير القامة شاحب بلون الورق اشقر الشعر يرتدى نظارة له رأس كبير اشعث :

– صحت باعلى صوتى ان الباب غير مغلق . ماذا تريدين ؟

– اعذرنى ، اردت ان اسأل : أما تزال ماريا كوندراتيفنا العجوز تعيش هنا ؟

– نعم ، هنا – رد بصوت تناقش فيه المسائل الحسابيـــة – ولكنها توفيت .

– توفيت ! متى ؟

– منذ زمن غير بعيد . لا اتذكر بالضبط .

– ماذا سأفعل الآن ، اذن ؟ – قالت كاتيا حائرة – وهل شقتى مشغولة ؟

– انا لا اعرف ، سواء أكانت شقتك ام لا ، فانها مشغولة . . .

واراد ان يغلق الباب ، الا انه رأى عينى المرأة الجميلـــة مغرورقتين بالدمع فتريث .

– انه لامر مزعج . . . انا قادمة من محطة القطار رأسا ، فاين سأذهب الآن ؟ غبت عن موسكو عامين ، وقـــد عـــدت الى بيتى ، فاذا . . . .

– عدت الى بيتك ؟ – اعاد السؤال بدهشة – الى موسكو ؟. . .

– نعم . قضيت الوقت كله فى الجنوب ، ثم فى اوكرانيا . . .

– عجيب ، انت مجنونة ؟

– كلا . . . ولماذا ؟ هل العودة الى البيت امر غير معقول ؟

اختلج احد طرفى شفتيه الرقيقتين فى وجهه الناحل الشاحب كلون الورق ، وتغضن خده الرخو :

– الا تعرفين ان الناس يموتون جوعا فى موسكو ؟

– سمعت ان الطعام عسير . . . ولكننى لا احتاج الى الكثير منه . . . ثم ان ذلك شىء مؤقت . حين تشتد الضائقة يجب ان يكون الانسان فى بيته .

– من انت ، على اية حال ؟

– انا المعلمة يكاترينا روتشينا . . . انتظر ، سأريك . . .

واخذت كاتيا تفك عقدة كيس الجنفاص باسنانها . واخرجت شهادة مفوضية الشعب للتعليم .

– عملت فى مدرسة روسية للاطفال الصغار فى كييف حتى الجلاء . . . ثم طلب مفوض الشعب منى الا ابقى مع البيض مهما كلف الامر . . انا نفسى ما كنت اريد ان ابقى . . . واعطانى هذه الرسالة لمفوض الشعب لوناتشارسكى . . . ولكنها مسدودة بالختم . . .

قرأ الرجل الشهادة ، وقرأ العنوان على ظرف الرسالة . وكانت كل حركاته متباطئة .

– فى الحق ان غرفة العجوز غير مشغولة . فاذا كنت تودين ان تسكنى هنا بالذات . . . فانتقلى اليها . . . ولكن كل شىء هنا متآكل ومتحطم . . . فى موسكو يمكنك ان تنزلى فى اى فيلا فارغة . . .

وتنحى ، وترك كاتيا تدخل المطبخ شبه المظلم الذى تكدس فيه اثاث محطم . واشار الى مفتاح غرفة العجوز المتدلى من مسمار فى الممر الملطخ بالسخام ، وانصرف بخطوات بطيئة الى غرفته (التى

كانت من قبل مكتب نيقولاى ايفانوفيتش) . فتحت كاتيا بصعوبة باب غرفة محبوسة الهواء لها نافذتان تلطخت من الخارج بلطخات جافة . كانت هذه غرفة نومها ، وسريرها ما يزال فى موضعه ، وكان صندوق الادوية المحفور الذى تناولت منه المورفين آنذاك ما زال معلقا على الحائط وعلى صفاقتيه صورتان باهتتان من الفولكلور الروسى . وكانت المرحومة ماريا كوندراتيفنا قد جلبت الى الغرفة احسن ما فى الشقة من اشياء – ارائك وكراسى ورفوفيات مكدسة بعضها فوق بعض ومضعضعة ومغطاة بنسيج العنكبوت والغبار .

واستولى اليأس على كاتيا . فقد كان عليها ان تبدأ العيش ، ان تبدأ الدورة الثالثة من حياتها فى هذه الغرفة المكتومة الهواء المكدسة بالاثاث الزائد عن الحاجة ، فى موسكو الهائلة الخاوية الجائعة المتلظية بشمس تموز . جلست على الحشية العارية ، وبكت بصمت . كانت متعبة جدا وجائعة . وبدت المصاعب المقبلة والتعقيدات اقوى من ان تتحملها قواها الهزيلة . وتذكرت كوخها الصغير المتداعى الحبيب المعبود بالقرب من المدرسة ، والحديقة الصغيرة ، والحقل ذا التلال الممتد وراء السياج . . . المكنسة عند عتبة الباب ، وبرميل الماء فى الرواق ، والضوء المخضوضر المتسرب عبر اوراق الشجر الى النافذة الصغيرة والساقط على دفاتر الاطفال . . . والاطفال المرحين الطلقاء ، وطفلها المفضل ايفان غافريكوف . .

لماذا لم يكن من الممكن ان تبقى هناك مدى العمر ؟

نزلت كاتيا من السرير لتجلب لها شيئا من الماء لتبلل الخبز الجاف الذى جلبته من كييف . ولكنها لم تجد حتى قدحا تبدأ الحياة معه ! مسحت كاتيا عينيها وقد تملكها الغضب ، وذهبت الى الرجل الشاحب .

دقت بابه دقا خفيفا ، وقالت بصوت ناعم :

– اعذرنى ، ارجوك . ما زلت اضايقك . . .

سار ببطء ، وفتح الباب ، وتفرس فى كاتيا وكانما صعب عليه ان يفهم .

– اعذرنى ، ارجوك . . هل لديك قدح ؟ اريد ان اشرب ماء

– اسمى ماسلوف ، الرفيق ماسلوف ، اى قدح تريدين ؟

– قدحا زائدا . . .

– حسنا . . .

وذهب الى اعماق الحجرة تاركا الباب مفتوحا ، فرأت كاتيا كتبا كثيرة على رفوف تنوء بها مصنوعة من الخشب غير المسحوج ، وكتبا مفتوحة ومخطوطات على منضدة كتابة ، وسريرا حديديا بالسا تناثرت الكتب عليه ايضا ، ووساخة على الارض ، وجرائد مصفرة تغطى النوافذ . وعاد ماسلوف نحو كاتيا بنفس البطء ، واعطاها قدحا قذرا .

– يمكنك ان تاخذيه كليا . . .

فى المطبخ وصلت كاتيا بجهد الى حوض الغسيل الذى تكدست فيه الفضلات ولكن الماء كان جاريا فيه . غسلت القدح ، وشربت الماء بتلذذ ، وعادت الى غرفتها . ارادت كاتيا ان تفتح النافذتين ، وان تغتسل قليلا قبل ان تأكل خبزها . ولكنها وجدت من الصعب فتح الصفاقات الملتصقة . انشغلت كاتيا طويلا . ونبشت ، ودقت على المفاصل برجل مخلوعة من كرسى ، وزفرت عالية . وجاء ماسلوف على الضجة ، ووقف بعض الوقت ينظر الى كاتيا بدهشة صامتة :

– لم تريدين ان تفتحى النافذتين ؟

– من الممكن ان يختنق المرء هنا .

– أتظنين ان هواء الشارع سيكون احسن ؟ غبار وسخام . والعفونة تتصاعد من كل افنية البيوت . . .انا لا انصحك بذلك – استمعت كاتيا لذلك وهى واقفة على افريز النافذة ، واطبقت شفتيها ، وعادت تدق برجل الكرسى من جديد – لنفرض انك ستفتحينالنافذتين ، ولكن سيتعين عليك ان تسديهما فى الليل من جديد . . . فلا ضرورة لتضييع الجهد . . .

واستجاب المفصل اخيرا . وثبت كاتيا من افريز النافذة ، وفتحت النافذة ، واطلت براسها وتنفست هواء الشارع بنهم .

قال ماسلوف باستغراق :

– نعم ، نعم . لم تحل مشكلة المدينة بعد ، – واهتزت ركبتاه فجأة ، وانطوتا ، فتلفت ليجد مكانا يجلس فيه . واتكأ على عضادة الباب ، ودس اصابعه الكبيرة وراء الحبل الذى يحزم رخوا قميصه الجنفاصى المتسخ وقال – ذاب الثلج ، وانتشر الوحل وبقيت القاذورات وجثث الكلاب والقطط الميتة ، وحتى فطائس الخيول فى

الشوارع والافنية ... جرفت الامطار بعضها ، ولكن هذا ليس حلا للمشكلة ...

قاطعته كاتيا :

– قل لى ، هل الحمام يعمل عندكم ؟

– لا علم لى به ... فى احد الاوقات كان يعيش هنا سمكرى ... وكان فى ايام الاحاد ينشغل فى المطبخ والحمام بمبادرة تلقائية منه ، ولكنه رحل الى الجبهة ...

قالت كاتيا بحزم :

– من الافضل ان تنصرف . سانظف الغرفة بعض الشىء ، واغتسل واجىء الى غرفتك ... قبل كل شىء احتاج الى ان اعرف بعض العناوين ... فانا لا اعرف شيئا فى موسكو . . ايمكنك ان تساعدنى؟

– نعم ، نعم . اليوم يوم احد ، وساظل طوال اليوم فى البيت ...

وسحب جسمه من عضادة الباب ببطء ، وانصرف . ادارت كاتيا مفتاح خلفه . لقد كان من المهم ان تحتد ، عندئذ ستشتد حمية العمل . خلعت بلوزتها وتنورتها خوفا من ان تلوثهما ، وبدأت حملتها ضد الغبار . كانت الخرق متوفرة فى مختلف الصناديق بكمية وافية . نبشت كاتيا ورأت بياضات سريرها مع العلامات التى وضعتها عليها . ثم وجدت قمصانها وسراويلها الداخلية ، وبعض الازواج من الجوارب المرفوءة . ان ماريا كوندراتيفنا امرأة طيبة ، فقط احتفظت حتى بالاشياء القيمة هذه ! . . وبشكل عام كانت العجوز المتوفاة نهّابة وجشعة ... ولكن لا بأس ... لتسترح عظامها فى التراب ...

. . . .

فى ذلك المساء اطلع ماسلوف كاتيا على مخطوطاته ، بل وقرأ شيئا منها . كانت بحثا تاريخيا عن الاشتراكيين ـ الطوباويين الكلاسيكيين . قال لكاتيا الجالسة على سريره غير المرتب :

– ايبدو لك غريبا ان من الممكن ان يُدرس الطوباويون فى مثل هذا الوقت ؟ الطوباوية فى عهد الدكتاتورية البروليتارية ! اين اذن المنطق الداخلى ؟ اعترفى بانك مستغربة ؟

هزت كاتيا رأسها مؤكدة استغرابها ، وكانت لا تكاد تفتح عينيها .

– ومع ذلك ففى الامر منطق ... انا اتوقف بالتفصيل على محاولات بعض الاشخاص وجماعات صغيرة فى منتصف القرن التاسع عشر فى تطبيق الافكار الطوباوية . وهذه صفحة من اطرف صفحات تاريخ الحركة الاشتراكية ...

واستدار عن كاتيا ليحجب عنها ابتسامة ساخرة كشفت عن اسنانه الصغيرة .

– ولكننى مضطر الى الكتابة فى ايام الآحاد فقط . فانا مثقل بالعمل فى لجنة المنطقة الحزبية ، ونحن قليلون اذ لم يبق فى موسكو غير عدد ضئيل من الحزبيين ... وانا لم اعف من التعبئة للجبهة الا بسبب صحتى الضعيفة للغاية ... انا منهك جسمانيا ومعنويا ...

وعلى رغم من اعتلال صحته وضموره الظاهرى التام فقد كان على قدر كاف من النشاط . فى اليوم التالى اصطحب كاتيا الى مفوضية الشعب للتعليم ، وعرفها بالرفاق الضروريين لها ، وساعدها فى التسجيل والحصول على بطاقات التموين .

ولولاه لضاعت كاتيا تماما فى المفوضية الضخمة باقسامها المتعددة ومكاتبها ورؤساء الاقسام لا سيما وان روح القلق والنفور من الروتين كانت تدفع المستخدمين مرة فى الاسبوع على الاقل من مكان الى مكان ، ومن طابق الى طابق مع مكاتبهم ودواليبهم وارشيفاتهم ، بل وتغير النظام الداخلى للتبعية والارتباط والمسؤولية .

حصلت كاتيا فى الحال على وظيفة معلمة فى مدرسة ابتدائية فى منطقة بريسنا . وفى المكتب الآخر سجلوها فى عمل اجتماعى مجانى فى الدورات المسائية لمحو الامية . وفى المكتب الثالث امسك بها رجل نحيل للغاية ذو بشرة زيتونية وعينين هائلتين محمومتين ، وقادها عبر الممرات والسلالم الى قسم الدعاية للفن . واضافوا لها هناك محاضرات خارجية فى المصانع . وقال لها الرجل ذو البشرة الزيتونية :

– سنحدد مضمون المحاضرات فيما بعد . ستقدم لك الادبيات المناسبة والخطة . ولا حاجة الى الفزع . فانت امرأة مثقفة ، وهذا يكفى . مأساتنا اننا لا نملك غير عدد ضئيل جدا من المثقفين ، فان نصف المثقفين يقومون باعمال التخريب . وسيندمون على ذلك كثيرا .

والآخرون ابتلعتهم الجبهة . ان مجيئك ترك انطباعا طيبا جدا لدى الجميع . . .

واخيرا ، وفى احدى الممرات التقى بكاتيا رجل مكتنز شديد الحركة كليا ذو شفتين غليظتين يرتدى بلوزة من قماش الشيت مخضرة عن الابطين .

– هل انت ممثلة ؟ اشاروا لى عليك الآن – تكلم بعجالة ، ودون ان يلقى بالا الى جواب كاتيا بانها معلمة طوق كتفيها بذراعه ، وقادها عبر الممر قائلا – ساضمك الى فريق ترفيـــــه متنقـــل . متسافرون الى الجبهة فى عربة خاصة ، ولدى خروجكم من موسكو ستحصلون على كمية غير محددة من الخبز والسكر واحسن الزبدة . . . البرنامج ، اها ! بقوامك هذا يمكنك ان تغنى وترقصى ، وسيصفق لك مقاتلو الجيش الاحمر . . . ارسلت الى الجبهـــــة البروفيسور تشيبوتيكين ، وهو فى الستين من العمر ، وهو كيمياوى او فلكى . وهل اعرف ؟ الآن يسمونه «ملك فريق الترفيه» وهو يغنى المثانى من بيرانجيه . . . يمكنك الا تشكرينى ، انا مجرد متحمس . . . .

– اسمع ! – صاحت كاتيا ، وقد تحررت من تحت ذراعه – عندى مدرســـــة ومحاضرات ومحو اميــــــة . . . لا تتحمـــــــل قواى الجسدية . . . .

– ما يعنى قواك الجسدية ؟ وهل تتحمل قواى الجسديـــــة ؟ شاليابين ايضا لا تتحمل قواه الجسدية . ومع ذلك فقد حصلت له على صندوق من زجاجات الكونياك ، وهو الآن يسأل بنفسه ان يرسل الى الجبهة . حسنا ، فكرى فى الامر . . . ساجدك . . .

سارت كاتيا الى البيت مثقلة بالمسؤولية . كانت الريح الحارة تعصف فى الشوارع الخالية فتدير دوامات من الغبار والاوراق على الرصيف المرصوف بالحجارة . انعطفت الى بولفار تفيرسكويه . واخذت تحسب لتجد هل سيكفيهـــا الوقت اذا نامت ست ساعات ؟ . . يعنى ستبقى ثمانى عشرة ساعة . . . قليلة ! ساعات الدروس فى المدرسة ، وتصحيح الدفاتر ، وتحضير الدروس ليوم الغد . . . ولمحو الامية ساعتان على اقل تقدير . . . يا الهى ، والسير ذهابا وايابا ؟ والقاء المحاضرات والذهاب الى هناك وطريـــــق العودة ؟ ثم يجب الاعداد للمحاضرات . . . ثمانى عشرة ساعة لا تكفى !

جلست كاتيا فى البولفار ، وخيل اليها انها تجلس فى نفس المكان الذى التقت فيه – هى وداشا – ببيسونوف عام ١٩١٦ ، وقد سار معفرا بالغبار كليا لا يكاد يجرجر قدميه . يا للبلاهة ! ان امرأتين لا تصلحان لشىء ولم تكونا تعرفان ماذا تفعلان بالوقت الفائض ، مرّتا بمأساة مجهولة الهوية حين حياهما بيسونوف – وكأنه خارج من احد قصائد بلوك : «ما اصعب على الميت ان يتحرك بين الاحياء متظاهرا بالحياة وجيشان العاطفة !» – ومر بهما ببطء ، فشيعتاه بنظريهما ، وبدا لهما بائسا بشكل خاص بنطلونه شبه العسكرى الذى لاح وكأنه سيسقط عنه . . . .

يجب ان تنام اربع ساعات ، وتأخذ كفايتها من النوم فى ايام الآحاد . ثم سيكون عليها ان تقف فى طوابير الطعام ! اغمضت كاتيا عينيها ، واتت . . . حركت الريح خصلات الشعر على رقبتها النحيلة ، وضجت الاوراق بقوة على شجرة الزيزفون العتيقة فوق رأس كاتيا . . . وعلى هذا الضجيج كفت كاتيا اخيرا من تعذيب نفسها بمشكلة كيف لها ان توفر اكثر من اربع وعشرين ساعة فى اليوم الواحد . لا بأس ، ستدبر امرها على نحو ما ! . . . ودارت افكارها حول هذا التغير الغريب الذى حدث فيها ، والذى ما انفك يمدها بالدهشة والفرح . حالما قالت : «لا . .» وهى تنظر فى وجه الكسى المغتاظ واضعة علباءها على جدار الموقد بدأ يشيع فيها توقع هادئ واثق لسعادة جديدة فى حياتها . وقد احست بقليل من هذه السعادة فى الربيع : فى كل مساء قبل ان تنام كانت تتذكر اليوم المنقضى فلا تجد فيه شيئا مظلما مقبضا للنفس . واعجبت كاتيا بنفسها . وها هى الآن تتوهم الفزع واليأس بشكل مبالغ فيه ، وكأن من المستحيل ان تنهض بالاعباء الاجتماعية . . . المسألة تختلف تماما : ان القطيطة البائسة الملتقطة تنقلب بين عشية وضحاها الى مخلوق مهم ، بل وصار الناس – على مـــا يبدو – محتاجين الى كاتيـــا ، وكـــان الرفيق المسؤول ذو الوجه الزيتونى والعينين الجميلتين جدا يتحدث معهـــا باحترام كبير . . . وكان عليها ان تكون على مستوى المسؤولية فى هذا كله ، فسيكون فظيعا لو قالوا فى مفوضية الشعب للتعليم : «ونحن وضعنا املنا فيها . . .» ان الامر فى موسكو يختلف كليا عن الجلوس فى عربة

تسير وراء عربة الكسى مهتزة فى السهب وهى تقضم قشة وتفكر : «ما الذى يجديه لك جمالك ، ايتها الاسيرة ؟»

طلب ماسلوف من كاتيا ان تقدم تقريرا مفصلا . وعندما نقلت له الحديث مع الرفيق ذى الوجه الزيتونى تجمع خد ماسلوف الايمن فى غضون مركزة لابتسامة ساخرة معوجة . واشاح وجهه عن كاتيا قائلا :

— نعم ، نعم . مأساة المثقفين هى نصف المصيبة . . . هناك ما هو اكثر مأساوية منها .

. . . .

افتتحت كاتيا المدرسة فى اول آب . وجاءت بهدوء صبايا صغيرات حافيات لهن ضفائر شدت بخرق او قطع من الخيوط السميكة ، وصبية حليقو الرؤوس كليا فى قمصان ممزقة ، وجلسوا على المقاعد بهدوء ايضا . وكانت وجوه الكثيرين شفافة تبدو شائخة من النحول .

قضت كاتيا اليوم الاول كله فى التعرف على الاطفال ، والجلوس معهم على المقاعد ، والاستفسار منهم ودعوتهم الى مبادلة الاحاديث . وكانت لها تجربتها غير الكبيرة فى اثارة اهتمام الاطفال فى اقصر وقت ممكن . كانت تتناول كتابا وتفتحه وتقول : «هذا كتاب . صفحات بيضاء وحروف سوداء ، وسطور رمادية . مهما تمعنتم النظر فيه لن تجدوا شيئا آخر . ولكن اذا تعلمتم القراءة والكتابة ثم عرفتم التاريخ والجغرافية والحساب ، واشياء كثيرة اخرى فان الحياة تدب فى هذا الكتاب فجأة . . .» .

وتذكرت كيف كان الفضول يلتمع فى عيون الصبايا والصبيان فى مدرسة قرية فلاديميروسكويه . وكانت تتحدث بانجذاب شديد عن «القيصر سلطان» :

«ها انت قد بدأت بالتعليم ا ب ت ، ثم كتابة الحروف على اللوحة ، ثم اخذت تتهجى الكلمات ثم القراءة بصوت عال بالتاكيد كلمة وراء كلمة من البداية حتى النهاية . . . وفجأة ، وفى احد الايام السعيدة تاخذ السطور بالاختفاء امام عينيك ، فترى بدلا منها بحرا ازرق وموجة زاحفة على الساحل ، وتسمع حتى تكسر الموج على الساحل ، حينذاك يخرج من زبد البحر اربعون عملاقا

فى دروع حديدية وخوذا مرحين مبللين ومعهم رجل ملتح هو تشيرنومور . . .»

وكانت تشعر وهى تتحدث هنا ، فى حى بريسنا ، ان كلماتها تبدو وكانها لا تقع فى آذان الاطفال بل تذبل بوحشة فى الصف ، حيث نصف مربعات النوافذ قد ركمت بخشب الابلكاش ، والطبقة الخارجية للجدران قد تساقطت حتى لاح الآجر . وكانت الصبايا بايديهن النحيلة جدا بحيث يمكن امرارها باسطوانة من فوطة الطعام ، والصبيان بغضونهم الصغيرة وكدماتهم يصغون بهدوء فلا ترى فى عيونهم غير التسامح . . . فقد كان الجميع يفكرون فى شيء آخر .

فى فترة الاستراحة الكبيرة كان الاطفال يخرجون الى الفناء ، ولكن بضع فتيات فقط كن يحجلن على رجل واحدة ملقيات الحجارة ، وصبيين فقط يديران شجارا شكسا . اما الغالبية فكانت تجلس فى ظل السياج حيث نما الارقطيون ، وتظل جالسة هناك ولا احد منهم قد جلب معه طعاما . فقد كانوا جميعا ابناء وبنات عمال يعيشون فى ذلك الحى ، والكثيرون من آبائهم قد خرجوا الى الجبهة . القى احد الاطفال يديه على الارض ، وحدق فى السحابة المخيمة على بريسنا كالدخان .

جلست كاتيا على مقربة وسالت بلهجة جادة :

— انت ميتيا بتروف . أليس كذلك ؟

— اها .

— اين يعمل بابا ؟

— بابا فى الحرب منذ زمان .

— وماما ؟

— ماما فى البيت ، مريضة .

— وهل يكتب بابا من الجبهة ؟

— لا .

— ولماذا لا يكتب ؟

— لا شيء يكتب عنه . . . الاخبار المفرحة قليلة . . . عندما رحل قال لماما : سأقتل عشرة جنرالات جزاء على مرضك من جراء الكد . انه جريء للغاية .

— ماذا تريد ان تكون حين تكبر ؟

— لا ادرى . . . ماما تقول اننا لن نعيش هذا الشتاء . .

. . . .

كانت جحافل البيض تزحف على موسكو ، وكان الخريف يزحف بسرعة اكبر . وتالقت بعض الايام الذهبية الكئيبة فى بواكير الخريف، ثم هبت ريح عنيد من الشمال تسوق السحاب بقطعان حالكة .

ولم يكن فى المدرسة ما يدفأ به . ذهبت كاتيا لزيارة ذى الوجه الزيتونى فى مفوضية الشعب للتعليم لتشتكى له . فاكتفى بان هز رأسه دون ان يصرف بصره عن وجه كاتيا الحلو . «افهم ، يا يكاترينا ديميتريفنا ، قلقك واقدر حرارتك ، ولكن نقص الوقود سيكون فظيعا فى هذا الشتاء . وعدوا مفوضية الشعب للتعليم بتقديم الحطب . ولكن الحطب فى ولايـــة فولوغدا ويجب نقلـه من هناك بالعربات . . . وعلى العموم تكلمى فى الموضوع واضغطى حيثما يمكنك ذلك . . .»

وكان الاطفال ياتون الى المدرسة مزرقين مبللين فى معاطف خفيفة ، او فى ستر امهاتهـم التى لا تصلح الا لتعليقهـا فى الحدائق لتخويف الطيور حتى ان كاتيا قررت اخيرا اللجوء الى طريقة النهب الصريحة ، وعينت يوم عمل تطوعى لتحطيم الاسيجة . وفى مساء داكن وتحت ضجيج الريح العاصفة قام حارس المدرسة – وهو عجوز اصم ذو رجل خشبية ، وكاتيا ، والاطفال (الذين جاؤوا جميعا تقريبا) بتحطيم الاسيجة ، وحملوها جميعا الى رواق المدرسة . ونشر العجوز الخشب ، وفى الصباح كانت غرفة الصف دافئة رطبة ، وخرج البخار من الجدران الرطبة ، وجلس الاطفال بشوشين ، فحدثتهم كاتيا من منصتها عن الطاقة الشمسية (وكانت هى نفسها لم تعرف بذلك الا يوم امس من الكتاب المفيد «قوى الطبيعة») .

– كل ما ترونـه ، يا اطفال : هذه المنصة ، وتلك المقاعد والنار فى الموقد ، وانتم انفسكم ، من الطاقة الشمسية . . امتلاكها هى مهمـة الانسانيـة . . . ولهذا الغرض يجب ان يتعلـم الانسان ويتعلـم ، ويناضل ويناضل . . . والآن لنتحول الى درس اللغـــة الروسية . . . ان اللغـة الروسية هى ايضا طاقة شمسية ، ولهذا يجب امتلاكها جيدا . . .

وكان الاطفال فى فترات الاستراحـــة يروون لكاتيـا مختلف الاخبار . فقد كانوا يعرفون ما كان يجرى فى حى بريسنا فى موسكو ، وحتى عند اللوردات وراء الحدود . واستنبطت كاتيا الشىء الكثير من هذه الحكايات . وهكذا عرفت قبل ان تعرف من الصحف عن الثغرة التى احدثها البيض عند اوريل التى اخذ الجرحى يصلون منها . وذهبت صبيتان الى عائلة ميكولين لغرض تقصى الاخبار حيث سمعتا ان ستيبان ميكولين الخراط قد عاد من توه الى بيته وقد ثقب الرصاص جسده . رفع المسكين جسده على السرير قليـلا – وكان الاطبـاء قد الزموه الزاما قاطعا بالاستلقاء على السرير – وسمعته الصبيتان بآذانهمـا يصرخ فى حضور زوجته وامه بصوت موحش :

– عندنا خيانة فى الجبهة ، خيانة ! اعطيانى ورقـا وحبرا لاكتب لفلاديمير ايليتش لينين ! ان افضل البروليتاريين يشخبون دما ، وتغطيهم الارض الرطبـــة ، ولكنهم لا يريدون ان يسلموا موسكو للجنرال الابيض . . . لسنـا الملومين فى سقوط اوريل ، بل الخيانة .

وحين سمع ميتيا بتروف بحكاية الصبيتين امتقع لونه فصار بلون الحائط المجصص ، واتسعت عيناه معذبتين حتى ان كاتيا جلست الى جانبه على مقعده ، وضمت راسه الى صدرها ، الا انـه حرر نفسـه صامتا ، فلم يعد مكترثا بالتسرية والمداعبة .

هطل المطر غزيرا لعدة ايام ، وبدت بريسنا غاطسة الى الركبة بوحل سائل بلون كامد . وكان الاطفال يأتون مذهولين تمامـا من الاشاعات المريعة التى كانت تنتشر فى المدينة كالطاعون . وكان من الصعب حمل الاطفال على تركيز اذهانهـم على الدروس . لم تحضّر الفتاة الصهباء كلافديا الجمع والطرح فانفجرت باكية بمرارة فى منتصف درس الحساب . دقت كاتيا منصتها بالقلم :

– كلافديا ، اضبطى نفسك حالا .

– لا اقـدر . يـــا ع . . . . م . . . . ة . . كا . . . . ت . . يا . . .

– ماذا حصل ؟

اجابت الفتاة بصوت فيه حشرجة :

– تقول ماما : على اية حال لا جدوى لك من تعلم الحساب ، يا كلافديا . . .

– ما هذه البلاهة ! امك لم تقل ذلك قط .

– لا ، انهـــا قالت : لا فرق فى الامر . خرجت من الوحـــل

وستعودين الى الوحل . . . الضباط سيدوسوننا جميعا بخيولهم . . .

عند هبوط الظلام ذهبت كاتيا الى دورة محو الامية منسلة فى درب الصق ما يكون بالاسيجة لكيلا تبلل قدميها قدر الامكان ، وتوقفت بياس عند مفترق طريق غير عارفة كيف تعبر الشارع . فى ذلك المساء لم تات اية امرأة من بين النساء العشر التى كانت تعلمهن فى شقة العامل تشيسنوكوف الذى ارسل الى الجبهة قبل فترة قصيرة ليكون مفوضا . قالت لها زوجته التى تزوجته قبل ستة اشهر ، وهى الآن حبلى ونحيفة للغاية تنتشر البقع الصفر على وجهها كله :

– توقفى عن المجىء الينا وانتظرى قليلا . مالنا ولهذا الامر الآن ! . . . ثم ان ذلك سيكون افضل لك .

واطلعت كاتيا على رسالة صغيرة لزوجها من الجبهة : «لوبا ، هينى امرك اذا استولوا على تولا ، فاننا لن نتخلى عن موسكو الا عبر آخر جثة . . . اكتب لك على عجل مع شخص ذاهب الى موسكو . . . ربما ياتى اليك ضابط هو الرفيق روتشين ، كونى على ثقة بـه . سيخبرك بكل شىء – ولطيف لو يسمعه رفاقنا . . . وليساعدوه اذا احتاج الى شىء . انـا رغـم كل شىء حى ومعافى ، وقد تعلمت ركوب الخيل ، وذلك ما لم يخطر على بالى قط .»

– نحن فى انتظار الرفيق روتشين هذا . ولا ادرى لماذا لا ياتى – قالت زوجة تشيسنوكوف وهى تنظر الى النافذة المبللة – عندئذ تعـالى واستمعى . . سأرسل صبيـة لتستدعيك . . . من روتشين هذا ، لعله زوجك ؟

اجابت كاتيا :

– لا ، زوجى قتل منذ زمان .

ولدى عودتها الى بيتها اشعلت النار فى الموقد الحديدى الصغير بمدخنته المتصلة بفتحة فى نافذة التهوية – كان يسمى «النحلة» لان هذه المواقد المسماة بهذا الاسم كانت كالنحل تئز حين تشعل بقطامات الخشب – وقد صنعـه عمال بريسنا ، ونصبوه بانفسهـم فى حجرة كاتيا ، مفترضين ان معلمتهم ستكون اكثر مقدرة على العمل اذا نامت فى غرفة فيها شىء من الدفء . خلعت كاتيا حذاءها المبلل وجوربهـا وتنورتها الملطخة بالوحل ، وغسلت قدميها فى ماء شديد البرودة ، ولبست ملابس جافة ، وصبت الماء فى السخان ووضعته على «النحلة»

واخرجت من جيب معطفها قطعة من الخبز الرمادى الخشن وقطعتها الى قطع صغيرة ووضعتها على فوطة نظيفة الى جانب كوب الشاى وملعقة فضية . وقامت بكل ذلك وهى فى ذهول . وحين انصفق باب المطبخ وترددت فى الدهليز خطوات ماسلوف الشاحطة البطيئة بشكل لا يحتمل ، سارت كاتيا ودقت باب غرفته .

– اها ! احتراماتى ، يا يكاترينا ديميتريفنا . تفضلى اجلسى . طقس شرير . . . بينما اراك تزدادين ملاحة . . نعم . . .

ولسبب ما كان مغتاظا فى ذلك المساء بشكل غير مالوف وحين سالته كاتيا : ما الذى يحدث ولماذا هذا الفزع فى كل مكان ؟ لم يشح بوجهه عنها ، ورسم على شفتيه الرقيقتين ابتسامة من اكثر ابتساماته الهازئة سخرية :

– يهمك ان تعرفى الاخبار الحزبية ام شيئا آخر ؟ الجبهة ؟ رجالنا يُضربون . وماذا يمكننى ان اقول لك بعد ؟ يُضربون ! اما فى موسكو فهناك مزاج تفاؤلى بشوش ، كما هو دائما . . . تعبئة عامة للشيوعيين ضد دينيكين . . . وفى بتروغراد تفتيشات عامة فى الاحياء البرجوازية . واتخذ قرار باغلاق جميع المعامل والمصانع بسبب نقص الوقود . . . ثم الخبر الاخير المشجع كليا : اعلن عن اعادة تسجيل البطاقات الحزبية ، اى التطهير الشامل . . . وبهذه الطريقـة نحسب اننا سننتصر على دينيكين ويودينيتش ، وكولتشاك . . .

وجرجر قدميه فى الغرفة التى تناثرت فيها اعقاب السيكائر ، وقد تدلى شريطا سرواله الداخلى المحلولان على رسغيه من تحت بنطلونه المبلل القذر . . . كان اثناء سيره يطقطق بسلاميات اصابعه طقطقة موهنة بسبب رخاوته . وكرر بصوت هازئ :

– وبهذه الطريقة نحسب اننا سننتصر . طبيعى ان هذا كله غير مفهوم لك . . . ولا غرابة فى ان يكون غير مفهوم لك . . . والاغرب من ذلك بكثير ان يكون غير مفهوم لى ايضا . . . انا لا افهم شيئا بعد الآن . . . الاشتراكية تقام على قاعدة من الحضارة المادية . . . الاشتراكية اعلى شكل لانتاجية العمل . . نعم . ومن الضرورى وجود طبقة عاملة عالية التطور كثيرة العدد ؟ وكيف لا ! لقد قرأنا كارل ماركس ، قرأناه بتمعن . . . لا باس ، سننشغل انفسنـا باعادة التسجيل . . ما تزال لنا فضلة من قوة . . .

وهكذا لم تعرف كاتيا منه شيئا ذا جدوى . وفى مفوضية الشعب للتعليم ، حيث ذهبت فى اليوم التالى لتتلقى التعليمات كان هناك تيار من الهواء البارد فى الممر الرئيسى ، وذلك شىء لم يحدث من قبل قط (فلعل نافذة تحطمت او فتحت عن عمد) ومع ذلك فقد كان المستخدمون يجتمعون فى كل مكان فى جماعات متهامسة . ولم تجد كاتيا طائلا من تنقلها من غرفة الى اخرى ، الا ان مستخدمة واحدة فقط ابلغتها ، وهى تخفى انفها فى ياقتها المحكوكة من فرو الظربان :

– لعلك ما زلت نائمة ، يا مواطنة ، فلا تعرفين ان من المحتمل ان نجلو الى فولوغدا .

ثم حدث تغير حاد بنفس الفجأة . فى الصباح ، وحالما تنورت الدنيا ، هرعت كاتيا الى المدرسة . وفى شارع سادوفيا اضطرت الى التوقف والانتظار . مرت فصائل مسلحة من العمال على الوحل المتحجر محطمة البرك المتجمدة تحت اشجار الزيزفون الضخمة الجرداء والريح تعول فيها كما تعول فى الشتاء . ومرت وراءهم عربات ثم طوابير اخرى متكاثفة الصفوف تسير ببطء ، وكأنها تحت تعويذة من السحر . وهنا وهناك كانت اصوات خشنة ناشزة تنشد «النشيد الاممى» . وكانت قطع القماش الحمراء التى يحملونها قد كتب عليها بعجالة وبحروف معوجة : «الجميع الى النضال ضد عصابات دينيكين البيضاء !» ، «عاشت الثورة البروليتارية فى جميع العالم !» ، «الموت للبرجوازية العالمية !» . وظلت الطوابير تتابع طالعة من ظلمة صباح غائم . حدقت كاتيا فى تلك الوجوه غير الحليقة النحيلة المرهقة الداكنة ، وبدا وكأنما انطبع على عيونهم وشفاهم المطبقة تماما تعبير واحد عن عذاب مقهور وتصميم وارادة لا تغلب . . .

وفى المدرسة ما لبث الاطفال حتى قصوا الاخبار لكاتيا : بالامس كان لينين فى المصنع الميكانيكى فى بريسنا ، وبدأ اسبوع الحزب .

على مسافة غير بعيدة عن فورونيج انضم فيلق كوبان تحت قيادة شكورو الى فيلق مامونتوف . فاضحى لمامونتوف ست فرق خيالة مقابل فرقتين لدى بوديونى . توقف مامونتوف واخذ ينتظر بوديونى . كان مامونتوف حذرا . خصص جزءا من القوات لتعزيز

الدفاع عن فورونيج واعاد تنظيم الفيلقين وشكل منهما ثلاثة طوابير واختار موقع المعركة الذى ستطوق فيه خيالة الحمر وتباد – وكان حقلا شاسعا ينتهى بسدة خط حديد يسير عليه قطار مصفح كالسلحفاة الفولاذية ذات مدافع من ست بوصات .

كان بوديونى جريئا وشديد الاحتراس فى الوقت ذاته . وقد تلقى معلومات مفصلة عن جميع استعدادات الجنرال مامونتوف ومناوراته . . . . كانت احدى الفتيات الصغيرات تخفى تحت منديل راسها تحت الضفيرة مذكرة بخط مخربش او احدى العجائز المسكينات تحمل كيسا لقطع الفضلات تعبران نقاط حراسة البيض – وما اقل من تغويه فتاة فقيرة او عجوز يعافها اى قوزاقى باشمئزاز – وتتصلان برجال بوديونى للاستطلاع وتقدمان لهم المعلومات .

توقف بوديونى بين الغابة والمستنقعات دون ان يتقدم الى الحقل العريض الذى عين لهلاكه . وامر بان تطعم الخيول حتى الشبع ، وان تفحص حذواتها فحصا جيدا (كانت الحذوات مدقوقة فى قوائم الخيول الامامية فقط) . وامر بان تستكمل عدة الذخيرة وان تستبدل عصيدة الدخن التى ضجر المقاتلون منها ، وان يقدم لهم اللحم المملح المغنوم مع الفول ، والحليب المعلب المحلى والبسكويت المسكر من مختلف الانواع ، والتبغ العبق لينعموا حول النيران . وكل ذلك قد اخذ من «الترسانة المتنقلة» وهو الاسم الذى اطلق على طوابير عربات البيض الثرية . وكانت فى تلك الآونة تخرج ليلا ونهارا من فورونيج الى مامونتوف . وكان سميون بوديونى حريصا بشكل خاص على الاستيلاء على البنادق اليابانية الجديدة لتستبدل بها ، حسب الامكان ، البنادق القديمة التى استهلكت فى المعارك ، وعلى ادوات الكتابة ايضا .

وبالاحتماء بالغابة والمستنقعات كان من الممكن ان يأخذ المقاتلون قسطا وافيا من النوم قبل العملية الخطيرة . ولكن هذه العملية – الاشتباك بالسلاح الابيض مع ست فرق من فرق الدون – بدت للمقاتلين خطيرة جدا حتى ان القليل منهم اخلد للسكينة . فنظفوا خيولهم تنظيفا لامعا جدا ، لا تنظيفا عابرا واصلحوا السروج ، وشحذوا السيوف . ولم تسمع فى الوحدات اغان ولا اكورديونات ، وجرت

احاديث عميقة المعانى . وحين تقع ابصارهم على المفوض يلوحون له قائلين «تعال هنا ، يا شيوعى . . قل لنا ايها الرفيق العزيز . . اذا قضينا على مامونتوف فهل نستولى على فورونيج ، فان لهم هناك ثروة لا تخطر على بال . . .» وكان المفوض يرد بان سميون بوديونى لم يصدر امرا حتى الآن بخصوص فورونيج . وعند ذاك كانت المناقشات تبدأ : هل تستطيع الخيالة الاستيلاء على منطقة محصنة؟ فكان بعضهم يقول : ممكن بالحماس الشديد ، والبعض الآخر يؤكد ان ذلك مخالف لكل احتمال .

كانت كوكبة تليغين المكلفة بواجب الحراسة تتخذ مواقعها عند حافة مستنقع . والى الجنوب حقل كانت تلوح فيه دوريات البيض بين الآونة والاخرى . وكان معروفا ان احد طوابير مامونتوف الثلاثة يتجمع فى تلك الناحية . وفى المساء كانت السحب تعكس وميضا خافتا لنيرانهم .

فى هذه الكوكبة ايضا كانت تدور احاديث كثيرة حول المعركة المقبلة التى حشدت لها من الخيالة هذه الحشود الجبارة الضخمة على نحو لا مثيل له . وقد ذكر فارس قديم يدعى غوربوشين ان معركة واحدة مثل هذه قد وقعت فى عام ١٩١٤ قرب برودى ، اذ هاجمت فرقة خيالة نمساوية مؤلفة من اربعة افواج فرقة خيالة خفيفة روسية هجوما محنقا ولكن النمساويين بعد هذه المعركة سحبوا كل خيالتهم الى المؤخرة . . . قال الفارس القديم : قد هاجموا من الاعلى ، من تل يريدون ان يحصروا جماعتنا فى واد . الا ان رجالنا خرجوا للقائهم من الوادى الى التل، وعلى كل جناح اربع كوكبات من الخيالة القوزاق من حملة الرماح ، والاولانيون فى الوسط حاملين الرماح والفرسان الاختيريون (الهوسار) بقبعاتهم ذات الاشرطة الصفراء والحواشى الصفر لبزاتهم — وقد كانوا فرسانا جسورين ! ثم يدرك رجالنا ان النمساويين لن يستطيعوا ان ينعطفوا بخيولهم من التل بتلك السرعة . وحين بدأوا يقتربون منا ، بوغتوا بموجة من العرامة من جانبنا لم يكونوا يتوقعونها فحاولوا ايقاف خيولهم ، ولكن الوقت قد فات ! وهاجمهم رجالنا بالرماح من الاسفل مما يسهل الامر . نزرق نمساويا برمح ونتركه ، ثم ننطلق مخترقين صفوفهم ، ونتحول ونطعن بالسيف ، ليس على الكتفين — فقد كانوا يضعون صفائح فولاذية تحت

كتافياتهم — بل فى خط مائل على جذوعهم . . . وهكذا خلفت الافواج الاربعة مطروحة فى التل مطعونة مغروزة بالرماح فى الارض . شىء فظيع !

كان لاتوغين يتضايق حين يتحدث شخص بحضوره بشكل جذاب ، فقاطع المحارب القديم هذا :

— اها ، كان ، وما اكثر ما كان . انها مجرد صدفة . . . ولكن حدثنا كيف استولى ثلاثة من رجالنا الحمر على كتيبة المانية . . . لا تعرف ؟ اها ! كان يجب عليك ان تعرف . . .

— هيا ، حدثنا ، يا لاتوغين .

ترددت اصوات بذلك . فركع على ركبتيه قرب النار ، ولِصقَ جمراتها التى اضاءت وجهه الناحل الذى لم يبق فيه غير العروق بعد ثلاثة اسابيع من التقلب على السرج . وكان تليغين منذ البداية قد سجله فى كتيبة المقر مع غاغين وزادويفيتر ، وخلال شهرين امتلأت خدودهم بعض الشىء ، وهم الآن فرسان فى الكوكبة .

— كان معنا فى الجيش العاشر رجل يدعى لونكا شور لا تكاد تجد مثيلا له فى الطعن حتى ولو احسنت التفتيش — بدأ لاتوغين حديثه ، وقد وضع يديه على مقبض سيفه الذى انغرست نهايته فى الارض — فى الخريف الماضى ، وقبل ان يخرج من لوائه الاوكرانى ، طلع فى دورية استطلاعية مع رفيقين له . وبينما هم سائرون ودون ان يخطر لهم على بال اصطدموا بالالمان ، وبكتيبة كاملة منهم لا اكثر ولا اقل . انزوى الالمان فى مكان قصى يطبخون لهم حساء . . .

قال احد المستمعين :

— ما هذا الكذب ! الالمانى يطبخ حساء فى مكان قصى . .

القى لاتوغين نظرة ثقيلة على هذا الرجل :

— هل اشرح لك لماذا كانوا يطبخون الحساء ؟ . . حسنا . . كان الالمان فى طريقهم الى وطنهم ، فقد قامت ثورة هناك . . . وفى اوكرانيا هبت جميع القرى فى تلك الانحاء ونصبت الرشاشات فى كل مكان ، وقطعوا الطرق ، فجاع الالمان . . . هل فهمت الآن ؟ وقبل ان يستطيع الالمان ان يتهيأوا للقتال ، اخرج لونكا من حقيبته قطعة نظيفة من لفافة الساق ، وغرزها بالسيف ، وسار نحوهم بجرأة قائلا «استسلموا . انتم محاصرون بقوة كبيرة من الفرسان ، ونحن لا ننوى

حتى تلويث سيوفنا بالدم ، بل ندوس عليكم بخيولنا . . .» وكان بينهم مترجم ترجم لهم هذه الكلمات . رد آمر الكتيبة ، وهو المانى ركين برتبة ضابط صف ، رد على لونكا : «اشك فى صحة كلماتك . . .» فقال له لونكا : «انت محق فى شكك . امتط حصانك ولنذهب الى مقر الاركان ، وهناك سنقترح عليك شروطا معتبرة . . .» تشاور الالمان فيما بينهم بشكل جدى ، وقال الآمر «لا باس ، سنخرج ثلاثة مقابلك ، وفى حالة اكتشاف تحايل منك ، سنقتلك فى الطريق . .» قال لونكا له «تفضل ، لن يكون هناك اى تحايل . انت تتعامل مع مقاتلى الثورة . . .» وخرجوا ، ووصلوا الى مقر الاركان . وتبدأ المفاوضات مع الالمان . ويطالبون بالسماح لهم بالمرور على السكة الحديد ، وباعطائهم خمسة وعشرين بودا من الدخن . ويطالب رجالنا بان يسلم الالمان اسلحتهم ومدفعين . ويعاند الالمان ، ويعاند رجالنا . ولونكا يحضر طوال الوقت ويقول : «ايها الرفيق آمر اللواء، انهم جياع ، ولهذا السبب يصعب الاتفاق معهم . . دعنى احرضهم . اطلب لهم شيئا من لحم الخنزير الجيد وخبز القمح» اما عن الخمرة فان الشيطان لم يذكرها بشكل رسمى ، فقد كان مدير الميرة صديقه الحميم ، فاقتطع منه ربع جردل . وجلس مع الالمان فى احد الاكواخ ، وقطع شحم الخنزير والخبز ، وصبّ الكحول فى قدح ، وبدأ يتحدث عن هذا وذاك : كيف ان الناس عندنا فى اوكرانيا يأكلون ويشربون بشكل جيد ، ثم ان الشعب بشكل عام يميل الى التعاطف . ومدح الالمان ايضا لانهم اطاحوا بغليوم . وعلى الرغم من ان حديثهم كان يجرى بلا مترجم فى هذه المرة فان الالمان فهموا كل شيء . ربت لونكا على ظهورهم بقبضته بطريقة ودية ، وامسك آذانهم ، وقبلهم . وبعد قليل لم يبق وراء المائدة غير اثنين : هو وآمرهم ضابط الصف . لونكا يبذل كل جهده ، والالمانى يكتفى بالضحك وهز الاصبع . . . وجاء رسول من مقر الاركان ليعرف كيف يجرى الامر ؟ ويجيب لونكا «بشكل سيئ . الآمر لا يستجيب للتحريض . نحتاج الى ربع جردل آخر . . .» وحين فرغا من الربع الثانى لم يبق وراء المائدة غير لونكا وحده . وقضى الالمان ليلتهم هناك . وفى الصباح ابقى ضابط الصف رفيقيه رهينتين – على اية حال لم يكونا قادرين على امتطاء فرسيهما بعد تلك السكرة – وخرج مع لونكا . وفى المساء قاد الكتيبة كلها –

زهاء اربعمائة رجل – والعلم الاحمر فى المقدمة . . . بهذا الشكل اعجبه تحريض لونكا . . .

وعندما انتهى لاتوغين من قصته – وهى اروع بكثير من قصة غوربوشين – قصة المعركة عند برودى – اخذ المقاتلون يضحكون ضحكا شديدا ، فمنهم من صهل وابدى كل اسنانه ، ومنهم من مسح دموعه ، ومنهم من تأوه فقط هازا ذراعه . وتقدم روتشين من النار ، وانحنى نحو لاتوغين وقال :

– ابحث عن غاغين وزادويفيتر ، وتعال معهما الى الخيمة .

. . . .

فى الضباب الصباحى الابيض المنطبق على الحقل كله انطلق خمسة فرسان : كان روتشين على فرس كميت مقصوص العرف وعلى مسافة ذراع امامه كان دونديتش الصيربى الصغير الجسم آمر احدى كتائب بوديونى يمتطى جوادا اسحم . كان دونديتش خلال طريق حياته الصلب قد وجد وطنه الثانى ، واغرم بروسيا الشاسعة الاطراف وثورتها المترامية الحدود بكل حماسة رجل بسيط النفس محب للحياة شديد الجراة . كان دونديتش وروتشين يرتديان معطفى ضباط فاتحى اللون بكتافيات ذهبية . والى الخلف منهما لاتوغين وغاغين وزادويفيتر يرقلون على افراسهم فى قبعات مائلة بشدة وستر من فراء الاغنام ، وعلى اكتافهم كتافيات برتبة رقيب .

لقد اعطيت لهم مهمة النفاذ الى فورونيج ، ومعاينة مواقع المدفعية ومقدار قوات الخيالة والمشاة ، ومن بعد ذلك تسليم الجنرال شكورو قائد الدفاع ظرفا مختوما فيه رسالة من بوديونى .

كان دونديتش يحب الحياة ، ويحب الدخول معها فى لعبة خطرة . اما فى ايام تشرين الاول المنشطة هذه حيث كانت العضلات تتوتر من تلقاء نفسها تحت القميص العسكرى من مجرد استنشاق الهواء المنعش المملوء بمختلف الروائح الزكية فى الضباب الصباحى فقد كان يجد البقاء بلا عمل شيئا لا يحتمل ابدا . وقد تبرع بنفسه ان يسلم شكورو الظرف المختوم . راح يبحث عن روتشين حتى وجده وقال له :

– فاديم بيتروفيتش ، انت رجل ملائم كليا لمغامرة صغيرة . فانت تعرف عادات الضباط ومختلف تسلكاتهم . لعلك توافق على الذهاب معى الى فورونيج ؟ ان ذلك يستغرق يوما واحدا . وسيكون

ذلك مسيرة طيبة على ظهور الخيل . وقد وعدنا بوديونى بفرسين لنا هما بيتوشوك وافرورا . . .

وكان من المضحك ان يخير بين ان يوافق او لا يوافق . الا ان فاديم بيتروفيتش تضايق فقط من تذكيره بتسلكات الضباط . ولكنه فى واقع الامر اضطر ان يقضى المساء كله بتعليم رفاقه كيف ينبغى على ذوى الرتب الواطئة ان يقفوا بهيئة استعداد ، ويؤدوا التحية العسكرية ويردوا ، وما هو المظهر الخارجى لضباط جيش المتطوعين ، وكيف ان رجال درزدوف بمسحة التهكم البادية على وجوههم يحبون لبس النظارات الانفية تكريما لرئيسهم الراحل ، وان رجال كورنيلوف يتميزون فى العادة بنظرات كابية ، وعلى وجوههم خيبة امل مشمئزة ، وان رجال ماركوف يتباهون بمعاطف قذرة ولغة فاحشة .

واتفق على انهم اذا اوقفوا وسئلوا فانهم سيرددون : «نحن نحمل ظرفا سريا الى فورونيج من آمر الفوج الاحتياطى التطوعى الذى وصل الى منطقة كاستورنايا من الجنوب» . فان ذلك جواب مبهم ومقنع .

وبعد زهاء ثلاث ساعات من السير الحثيث ، لاحت فورونيج فى الضوء الشاحب الذى كان يفلت لفترة قصيرة من تحت سحب رصاصية ، فبدت القباب وابراج الحريق والسطوح الضاربـــة الى الحمرة . لم تعترضهم دورية واحدة خلال الطريق كله . فقد كان رجال الدورية ينظرون فى منظاراتهم الى الفرسان الخمسة الذين يخبون بافراسهم باتجاه المدينة ، ويواصلون طريقهم بدون عجل . وقد حصل التأخير الاول عند الجسر . فقد كان هذا الجسر الخشبى غير المتين موضوعا تحت الحراسة يسير عليه رجال مهيبون يرتدون طاقيات بلا ظليلات ، ومعاطف بيضاء من فراء الاغنام كتلك التى ترتديها النساء فى اوكرانيا ، وجميعهم قد ارسلوا لحاهم لسبب مـا . وفى الجانب الآخر وقفت جماعة من طلاب المدارس العسكريـــة قرب خنادق رأس الجسر تدخن .

اوقف دونديتش فرسه ، وقفز منه ، واخذ يشد احزمته . وقال بصوت خفيض :

– ليس من المستحسن تماما ابراز الهويات المزيفة . ثم ان النهر ممتلئ بالمياه . وخوضه فى موقع ما ، والتبلل حتى الرقبة امر ينطوى على عاقبة اسوأ . سنضطر الى عبور الجسر على خيولنا .

قال لاتوغين بلهجة كئيبة :

– حسنا . سنتخلص منهم بالشتائم .

وهنا قال زادويفيتر وهو يكاد يختنق بضحكته :

– اوى ، يا رفاق . أُصاب بالعمـى اذا لم يكن الذين على الجسر قسسا ، اصحاب اللحى . . .

– الى الامام سر ، واظهر المرح .

قال دونديتش ، وقفز الى سرجه كالقط . ضج ذوو اللحى على الجسر باصوات متنافرة : «قف ، قف» . اتجه دونديتش نحوهم ممسكا العنان بقوة لاكزا بيتوشوك بمهمازيه . الا انهم رفعوا اصواتهم بصياح شديد ملوحين بالبنادق حتى ان فرسه اخذ يتراجع على رجليه الخلفيتين ضاربا بذيله فى غيظ . اضطر دونديتش الى التوقف . ارتفعـــت بعض الايدى لتمسك باللجام . فصرخ لاتوغين دافعـا بحصانه :

– جننتم ! تمسكون بلجام سيادته ! من انتم على اية حال ؟ ارونى الوثائق !

– سكوت ! اوقف حصانك ! – قال دونديتش له بهدوء وعبر كتفه ، ثم انحنى على سرجه نحو ذوى اللحى وقد ابتسم عن اسنان بيض من تحت شاربيه البارزين :

– هل تطلبون ترخيصا لعبور الجسر ؟ ليس لدى . . . انا المقدم دونديتش ، ومعى حراسى . . هل يكفيكم هذا ؟ شكرا لكم . . .

واطلق بيتوشوك الى الامام ضاحكا حتى ان الحصان حمحم وشب على رجليـــه الخلفيتين مبديا بطنـــه الرمادى المخملى ، وقفز مارا بذوى اللحـــى ، وهم لا يكادون يجدون الوقت لان يتنحوا . الا ان دونديتش شد على العنان فى الحال ، وتحول الى السير الوئيد . وعلى الشاطئ الآخر بـــدأ فزع . القـــى الطلاب العسكريـــون سيكائرهم وتراكضوا نحو الخنادق الطينية واذيال معاطفهم الطويلة حتى الارض تتشابك بين ارجلهم ، ومن هناك وجهوا فوهتى رشاشتين نحو الفرسان . وصاح آمر استحكام الجسر – وهو ضابط طويل له وجه رخو مشورب – ماطا الكلمات ببطء بصوت وقح مألوف جعل روتشين يطبق اسنانه باشمئزاز :

— هاى ، يا من على الجسر ، ترجلوا واعدوا الوثائق . . . ساعد الى اثنين ، وافتح النار . . .
فتح دونديتش فمه باتجاه روتشين :
— لا مفر من المهاجمة . . .
وامتدت يده الى سيفه . فاوقفه روتشين بحركة سريعة .
— تبلوف — نادى روتشين على الضابط الطويل — اترك الرشاشتين . . هذا انا ، فاديم روتشين . . .
وترجل عن حصانه على مهل ، وقاده من مقوده ، وسار عبر الجسر وحده . كان هذا الضابط هو نفس الشخص المسمى فاسكا تبلوف السكير المتباهي الاحمق — الذى كان فى فوج روتشين فى الماضى — والذى حذره روتشين ذات مرة عن جد من انه سيحطم وجهة على تغرصه وبذاءته . نظر تبلوف بارتياب الى روتشين وهو يقترب ، معيدا مسدسه الى قرابه ببطء .
— لم تعرفنى . . . ربما من فرط السكر ؟ مرحبا ، يا فتى — ومد روتشين له يده دون ان يخلع القفاز — ماذا تفعل هنا ؟ اراك قد جمعت لنفسك جماعة من ذوى الكروش واللحى ، يا للحماقة ! لقد حان الوقت لان تكون آمر فوج . . . أ'نزلت رتبتك مرة اخرى ؟ على السكر ، بالطبع ؟
— اوه ، يا للشيطان ! — قال تبلوف صافرا بالحروف بسبب الثغرة السوداء التى لاحت تحت شاربيه بدلا من الاسنان الامامية — فاديم روتشين ! . . — واختلج الكيسان الصغيران الاحمران تحت عينيه — يا للسماء التى انزلتك . . . اعتبرناك هاربا . . .
— شكرا ! . . .
وحدق روتشين فى عينى تبلوف تحديقة صلبة حارة (شعر تبلوف بالحرج من هذه النظرة ، فراى من الافضل الا يستمر فى الحديث عن الهروب) وقال روتشين :
— ان لكم رايا جيدا جدا عنى . . . كنت طوال الوقت فى اوديسا عند غريشين-المازوف . . . وانا الآن رئيس اركان الفوج الاحتياطى الحادى والخمسين . ربما تريد ان ترى وثائقى حقا ؟ — سأل روتشين متحديا واستدار ولوح مناديا — دونديتش ، تعال . . تستطيع ان تبقى على فرسك . .

نخر تبلوف فى غضب لا غير ، وكان دائما يتوجس من روتشين :
— كف عن التحذلق . . . اراك قد اتخذت طريقة خاصة فى التحدث معى ، يا روتشين . . . الى اين انت ذاهب ؟
— الى الجنرال شكورو . . جلبنا لكم فوجا ليعاونكم . يقولون انكم خائفون من بوديونى كثيرا . . .
— عندنا فوضى . . . جندنا جميع المدنيين ، والجنرالات المتقاعدين ، والموظفين البهائم . . . وحتى القساوسة البسوهم البزات العسكرية ، وارسلوهم لى .
اخرج روتشين علبة السيكائر ، وكانت فيها سيكائر اجنبية أ'ستولى عليها يوم امس من طابور مقر القيادة . دخن تبلوف ونفث الدخان الزكى الرائحة على شاربيه . وقال متعجبا :
— هذه السيكائر الاجنبية الحقيقية ! من اين هى ؟ اما نحن فيقدمون لنا التبغ البيتى . . . وهو يسبب حرقة جهنمية . اعطينى ارجوك سيكارتين على الاقل للاحتياط . . .
— كيف تعيش ، يا فاسكا ؟
— اعيش عيشة الخنازير . بلا نقود . . ضجرت من كل شىء — والقى من تحت حاجبيه نظرة جانبية الى دونديتش الذى قفز من حصانه ، والى الفرسان الجهمين الثلاثة وراءه . وقال — اذا كنتم تظنون يا سادة ، انكم ستقضون وقتا ممتعا فى فورونيج فانتم على خطا . . . الاوغاد الحمر اتوا على كل شىء . ما من حانة واحدة ، ولا ماخور واحد . لا مكان للراحة مطلقا . . .
قال روتشين :
— لاعرفكما : المقدم دونديتش . . .
— الكابتن تبلوف .
وتبادلا التحية العسكرية . غص دونديتش بضحكة وجهه الاسمر وعيناه تتقلبان بسرعة ، وقال :
— مع الاسف ، مع الاسف . بينما كنا نحلم فى الواقع بان نقضى وقتا ممتعا . . . عندنا ما يكفى من النقود . . .
— طبعا توجد فتيات فى الشقق الخاصة ، ويمكن الحصول على الفودكا الممتازة ، والشمبانيا مخفية عند المضاربين . . ثمن الزجاجة خمسمائة روبل ! فظاعة ! — وتراءى الحنق فى عينيه

المتورمتين اللتين تسحان دمعا باستمرار – السلطة العسكرية تعامل هؤلاء المضاربين معاملتهـا للقديسين . . . منقذو الوطن ! . . . فى تامبوف صادف ان شربنا كثيرا . وكانت قائمة الحساب فظيعة ، وليس لنا ما ندفعه ، فضربت صاحب المحل فى وجهه وانصرفت . . فانزلوا رتبتى . . . وهكذا ، يـــا فاديـم ، يسود شعور الكبت فى وحداتنا . اننا ، على اية حال ، نضحى بحياتنا . . والشباب يزول . . . وماذا ينتظرنا فى المستقبل ؟ موسكو المهدمة ؟ افلاس . . . من حسن حظك انك انهيت الجامعة . يمكنك ان تخلع البزة العسكرية المقملة وتلقى محاضرات ايا كانت . . . اما انا فسامضى فى هذا العمل الرتيب المضجر . . وفضلا عن ذلك لن يسمحوا لنا بالاحتفـــاظ بجيش حقيقى . . .

قال دونديتش :

– انت بحاجة الى تغيير الجو ، يا كابتن . لنذهب الى المدينة . ليس لنا من عمل سوى ان نسلم الظرف للقائد ، وبعد ذلك نمرح طوال الليل . . . انا مسؤول عن الشمبانيا . . .

– اوه ، اللعنة ! – قال تبلوف ذلك وحك ما وراء اذنه – لا يليق ان اترك موقعى بدون سبب معقول . . .

قال روتشين :

– سلم القيادة الى الاقدم فى الحظيرة . . . وقل لآمر الموقع انك اشتبهت بان نكون رجال استطلاع حمرا متخفين . . . فى اسوأ الحالات سينعتونك بالمغفل . . .

فتح تبلوف فمه الخالى من الاسنان ، وقهقه وقال وهو يمسح عينيه :

– هذه فكرة ! بل وحتى اردت ان اعتقلكم . . .

– عين الصواب . . .

– يا ضابط الصف الاقدم غفوزديف ! – صاح تبلوف بصوت مرح رنان ، واستدار نحو الخندق ، حيث عاد الطلاب العسكريون يتجرون حول الرشاشة . وعندما تقدم ضابط الصف الاقدم – وهو غلام فى نحو الثامنة عشرة ذو عينين زرقاوين وقحتين – وادى التحية بخفة رافعا كوعه بموازاة كتفه ، سلمه تبلوف القيادة ، وامر بتهيئة فرس .

فى الطريق الى المدينة روى تبلوف ، وهو يتقلب على سرجه من نفاد الصبر ، كل المعلومات المطلوبة : ما هى الوحدات العسكرية الموجودة فى فوروونيج ، وكم يوجد فيها من مدفعية ، واين مواقعها . . .

– فزع حيوانى ، ولا شىء غير ذلك . . . اريد ان اخبركم بان كوتيبوف اصيب بالفشل بالقرب من اوريل ، حتى ان رجالنا اصيبوا بهزة فظيعة . . . ان ذلك لم يحدث من قبل قط . . . انت تذكر الحملة الجليدية ، يا فاديم ! ليس عندنا الآن غير تعبير واحد يتكرر : «فقدنا العزيمة . . .» نعم ، نعم ، ان شيئا قد فقد – الحماس السابق . . ثم ان الفلاحين هنا انقلبوا اوغادا . ينظرون كالذئاب . . . ان الجنرال كوتيبوف على حق تماما . يقولون انه رد على القائد العام بحدة : «يمكن الاستيلاء على موسكو بشرط ان يقدم للسكان الاصلاح الزراعى والمشنقة . . .» بحيث لا يبقى عمود تلغراف واحد فارغا . . . ان يجرى الشنق كما حدث ايام بوغاتشيف ليشمل قرى بكاملها . . . كل ذلك على اية حال ، قصة مضجرة . . . اعطونى احد العناوين : اختان خدومتان للغايـــــة تعزفان على القيثار وتغنيـــــان الاغانى الرومانسية . . تخلبان اللب ، يا فتى ! دعونـــا نذهب اليهمـــا راسا . . .

والظاهر ان تبلوف كان معروفا جدا ، فان بعض الدوريات التى التقت بهم اكتفت باداء التحية حتى دون ان تلقى نظرة جانبية على دونديتش وروتشين . وفى الشارع الرئيسى انعطفوا الى مدخل حديدى لاحد الفنادق . نزل تبلوف من فرسه ، ومد رجليه ، وقال بشىء من الخجل :

– لا احب ان اؤذى العين اكثر من اللازم . من الافضل ان انتظركما هنا . . . القيادة العامـــــة فى الطابق الثانى . . فقط ان تستعجلوا ، يا سادة . . – ثم توجه بكلامه الى القوزاقى الكوبانى المجدور الوجه ذى الشاربين القصيرين الواقف عند المدخل وقال بحدة – دعهما يدخلان ، يا ابله . . .

ارتقـــى دونديتش وروتشين سلمـــا من الحديد . كـــان قد كتب على ظرف رسالة بوديونى «الى اللواء شكورو . شخصى وسرى . . .» وكان قد تقرر ان يسلم الظرف عن طريق المرافق . كان ديوان الاوراق يحتل قاعة المطعم ذات النوافذ مفقودة الطلاء . دخل

دونديتش وروتشين القاعة ، وفى نفس اللحظة ومن الباب الاخر دخل شخصان : احدهما طويل ضخم فى وجهه الجميل الخشن الملامح سبلتان غزيرتان ، وكان يسير على عكازة نفخت ابط معطفه الرمادى الفاتح ، معطف الجنرالات . وقد عرف روتشين انه الجنرال مامونتوف . اما الثانى الذى كان يرتدى سترة جركسية بنية فقد كان له وجه ملتهب عالى الوجنتين شقى الملامح فتحتا منخريه واسعتان ، وانفه مرتفع . لقد كان ذلك الجنرال شكورو . دخلا وتوقفا عند منضدة كان يجلس اليها ضابط اركان صغير فى بنطلون لركوب الخيل عريض كجناحى خفاش ، يملى شيئا على فتاة شقراء حلوة القسمات كانت تشمر يديها عاليا وتطبع على الآلة الكاتبة .

اشار روتشين لدونديتش على شكورو سائلا «ما العمل الآن ؟» وفى تلك اللحظة التفت مامونتوف فوقع بصره على ضابطين غير معروفين له ، فامر بصوت عالى النبرة :

– تقدما ، ايها السيدان . . .

اتخذ روتشين هيئة الاستعداد عند الباب ، وتقدم دونديتش من شكورو :

– لدى رسالة لاسلمها الى فخامتكم .

كان شكورو يقف وظهره الى دونديتش تقريبا ، ولم يلتفت ، واكتفى بان حرك رقبته القوية الحمراء التى انغرزت فيها ياقته المطرزة، ورفع شفته العليا كالذئب ، وسال دون ان ينظر الى وجه محدثه :

– من اين الرسالة ؟

– من آمر الفوج الاحتياطى الحادى والخمسين الذى وصل الى الشاطئ الايمن للدون انتظارا لاوامركم . . .

– من اين هذا الفوج الحادى والخمسون ؟ – واستدار شكورو ، الا انه ظل على جفائه ، وتناول الرسالة ، وادارها فى يده وقال : من الآمر ؟

احس فاديم روتشين الذى كان واقفا عند الباب ببرودة غير مريحة ، وانزل يده فى جيب معطفه الى مقبض مسدسه . لقد تحولت الامور الى درجة عالية من الحماقة والتخلخل واللاجدوى . . الآن سينطق دونديتش باسم سخيف . . . يا للاسف ! كان من الممكن ان ينقلوا لبوديونى معلومات قيمة .

– يقود الفوج الحادى والخمسين الكونت شامبرتن – رد دونديتش بذلك على الفور ، وجابه بنظرة مرحة نظرة شكورو الجانبية الناعسة العابسة : هل تسمح لى بالانصراف ، يا صاحب الفخامة ؟

– انتظر ، انتظر ، يا مقدم – قال مامونتوف واخذ يستدير نحوه على عكازته بحركة غير متقنة – يبدو لى انه اسم مالوف – وفجأة لوى الالم وجهه الجميل اللحيم ، فان حركته غير المتقنة جعلت الجبيرة تحتك بساقه التى حطمتها رصاصة فى الاسبوع الماضى ، حين كان يهرب من بوديونى على عربته . وتمتم : – اوه ، اللعنة ، اللعنة . يمكنك ان تنصرف ، يا مقدم . . .

ادى دونديتش التحية العسكرية ، وقام بنصف استدارة متقنة ، واتجه نحو الباب . ورأى روتشين شكورو يتحدث الى مامونتوف الذى ما يزال متلوى الوجه من الالم ، ويفض ببطء الظرف الذى يحتوى على رسالة سميون بوديونى التى كان روتشين ودونديتش على علم بمحتواها : «٢٤ تشرين الاول ، فى الساعة السادسة صباحا ساكون فى فورونيج . آمرك ، يا جنرال شكورو بان تصف جميع القوات المعادية للثورة فى الساحة ، عند السوق ، حيث شنقت العمال . وآمرك بان تقود الاستعراض بنفسك . . .»

هبطا السلم الحديدى . قابلهما طلاب عسكريون يحملون البنادق ويسيرون فى خط واحد . وبدا لروتشين ان دونديتش الصغير الذى يسير امامه مرفوع الراس مصلصلا بمهمازيه يسير على مهل شديد للغاية . وتلك شجاعة فارغة حمقاء لا ضرورة لها ! . . .

فى الطابق الثانى فى الاعلى ترددت صيحة حادة مبحوحة . خرج دونديتش وروتشين الى مدخل الفندق ، ومن الرصيف اندفع تبلوف نحوهما . كان وجهه الرخو بشاربيه المتدليين يتعطش الى الشمبانيا ، والاغانى الرومانسية ، والفتيات . . .

– الحمد لله ، يا سادة . . . لنذهب . . .

دس قدما واحدة فى الركاب وحجل على القدم الاخرى قرب الحصان الحرن . كان روتشين على سرجه . اخرج دونديتش علبة السيكائر ، واشعل سيكارة – كانت اصابعه السمراء الجافة

ترتجف قليلا – والقى عود الثقاب المشتعل ، وتناول المقود من لاتوغين وقال بصوت حاد :

– اول زقاق الى اليسار انطلق عدوا !

كان الزقاق الاول لا يبعد غير مسافة عشرة بيوت . كان لاتوغين وغاغين وزادويفيتر اول من استدار اليه ضاربين بلاط الشارع بسنابك خيولهم . زعق تبلوف وهو يشد عنان فرسه ويلتفت :

– يا سادة ، يا سادة . . . الزقاق التالى ، الى اليمين . . .

الا ان حصانه انطلق به مع الجميع الى اليسار . التفت روتشين عند الزاوية ، وهو يستدير ، ورأى طلابا عسكريين يخرجون راكضين من مدخل الفندق ، ويتلفتون عجالى ساحبين ترابيس اسلحتهم .

– روتشين ، ما هذه اللعنة ؟

صاح تبلوف وهو يكاد يبكى منتقلا الى العدو مع الجميع . التصق دونديتش بحصانه اثناء العدو وانحنى ، وقبض على مشط يده بقوة ، وقطع حبل مسدسه ، وسحب المسدس من غلافه .

وصاح كاشفا عن اسنانه :

– انا مدين لك بشمبانيا !

الآن كان هو وروتشين والمقاتلون الثلاثة ينطلقون فى الزقاق الملتوى بكل سرعة خيولهم مارين بالبيوت الصغيرة والاسيجة واشجار الزيزفون المعمرة التى كانت اغصانها العارية تحتك بقبعاتهم . وترددت طلقات الى الخلف . عبروا حقلا دون ان يخففوا من سرعتهم ، وبالقرب من الجسر تحولوا الى الخبب الخفيف ، ثم الى السير عند خنادق اول الجسر . نادى دونديتش مربتا على عنق الفرس المتصاعد منها البخار :

– يا ضابط الصف الاقدم غفوزديف ! – وعندما اقترب هذا يخفى سيكارته فى ردنه اضاف – طلب الكابتن تبلوف منى ان انقل لك انه سيعود بعد نصف ساعة . سنعود نحن الى هنا فى صباح الرابع والعشرين ، فلا تخفنا بالرشاشات . . .

– سمعا ، يا حضرة المقدم . . .

وعندما صار الجسر بعيدا خلفهم ، وقد هبط المساء ،

اعطوا فترة استراحة لخيولهم المزبدة التى بدأت تتعثر . عند ذاك قال دونديتش لروتشين :

– انا محرج جدا امامك وامام الرفاق . . . كثيرا ما لعنت نفسى على اظهار الفتوة . الخطر يسكر ، والعقل يحتد . وانا العاشق نفسى انسى الغاية والمسؤولية . وبعد ذلك احس بالندم . . . لو ان الرفاق الآن نزلوا من خيولهم ، وسحبونى من رجلى ، وضربونى لما احسست بالتكدر ، بل ولشعرت بالتنفيس . .

دفع روتشين راسه الى الخلف وقهقه عاليا . فقد كان هو الآخر يحتاج الى تنفيس التوتر الطويل الذى ارهقه تماما .

– هذا صحيح ، يا دونديتش ، تستحق ان تضرب بشكل جيد ، لا سيما على السيكارة فى المدخل . . .

. . . .

ونجح دهاء بوديونى . فبعد ان قرأ مامونتوف وشكورو رسالته التى سلمت الى ايديهما شخصيا بمثل تلك الوقاحة المنقطعة النظير استولى عليهما غيظ لا يوصف . فان كتابة مثل هذه الرسالة وتعيين اليوم والساعة لاحتلال فورونيج يحتاجان الى ثقة . ومعنى ذلك ان بوديونى كان يملك مثل هذه الثقة . وفقد الجنرالان الاحساس بالتوازن .

كانت خطة بوديونى فى دحر الخيالة البيض مبنية على ان تقوم كل قواته المتركزة بشن هجوم مضاد مباشر ضد الطوابير الثلاثة لفرقتى الدون وكوبان الساعيتين لتطويقه . ابطأ الاعداء بالهجوم واقتصروا على اعمال الاستطلاع . والآن اضحى بوديونى واثقا انهم سيهجمون عليه دون ان يحفلوا بالعواقب .

فى ليلة الثامن عشر من تشرين الاول اشار رجال الاستطلاع الى بدء تحرك للعدو . وحانت ساعة المعركة الدموية . قال سميون بوديونى وهو منكب مع قائدى فرقتيه على الخارطة فى ضوء شمعة : «حظا سعيدا» واصدر امره الى الفرقتين والافواج والكوكبات:

«الى الخيول ! »

ورنت تلفونات الميدان سواء فى كوخ مظلم او فى حقل ، فى خندق مغطى بالاغصان والتبن او تحت كومة دريس . وسمع رجال الاتصال من السماعات ما كان الجميع ينتظرونه من ساعة الى اخرى .

هرع المراسلون الى صهوات خيولهم ، وانطلقوا فى الظلام وهم يضعون اقدامهم على المهاميز اثناء العدو . كان المقاتلون نائمين بثيابهم فى تلك الليلة الحالكة كالقبر ، الساكنة الريح فاستيقظوا على الصياح الممدود : «الى الخيول ! » ووثبوا على اقدامهم نافضين النوم عنهم ، واندفعوا الى مرابط الخيل ، واسرجوا خيولهم على عجل ، واوثقوا السيور بقوة جعلت الخيول تترنح .

تجمعت الكوكبات فى الحقل ، ومن صيحات امراء الوحدات المترامية فى الجبهة ، وجدت مكانها فى الظلام . انتظمت فى صفوف ، وانتظرت طويلا ملقية بابصارها الى الناحية التى يوشك الفجر ان يطلع منها . كانت الخيول ما تزال تتنفس بثقل من اثر النوم . وكانت برودة رطبة تنفذ من خلال الستر المبطنة وفروات الاغنام ومعاطف الجنود الخفيفة . وصمت الرجال ، وكفوا عن التدخين .

وها هى الطلقة الاولى تصدر مبربرة من بعيد . وترددت اصوات المفوضين : «ايها الرفاق ، امرنا سميون ميخائيلوفيتش بوديونى بتحطيم العدو . ان مأجورى البرجوازية يسعون الى شق طريقهم الى موسكو – الموت لهم ! كللوا سلاح الثورة بالمجد» .

لم ينور الفجر الحقل بسبب جثوم الضباب . انطلق سيل ثمانية افواج بوديونية على امتداد فراسخ فى كركبة ثقيلة وصفوف متلاصقة . وفى الضباب الكثيف لم يكن المحارب يرى غير رفيقه الى اليسار ورفيقه الى اليمين ، وعجائز الخيول امامه تنط فى الضباب الحليبى المتخلخل .

كان العدو على مسافة قريبة تتناقص . وصارت طلقاته تسمع مترددة بلا نظام . واخذ المقاتلون وهم يحثون خيولهم بلهفة يتلعون رقابهم ساعين الى ان يروه . ثم سرت فى السيل كله صيحة راحت تتردد اعلى واكثر خنقا وضراوة . فان الصفوف الامامية قد رأته . . . .

اخذت تطلع من الضباب اشباح فرسان ينعطفون على خيولهم . لم يصطبر قوزاق الدون ، فاندفعوا للقائهم بنفس السيل العارم . . . . الا انه يبدو ان الشيطان حملهم بهذا البعد عن قراهم الاصلية ليطاعنوا هؤلاء الشياطين الحمر . سمعوا هدير الحقل كله وارتجافه فادركوا اية قوة رهيبة توشك ان تعصف بالخيول والرجال وتخلط وتلف ،

وتتعالى اكوام الاجساد المدماة . . . وليت ذلك لسبب وجيه ! ركن القوزاق الى خيول الدون الوثابة الخفيفة الحركة فاخذوا يرتدون ويجولون . . . وقليلون منهم فقط ، المستميتون للغاية ، السكارى من الجراة خرقوا سيل البوديونيين طاعنين بالسيوف فى تهور وخبط عشواء . . .

ولم تنقذهم خيول الدون الوثابة . والذين استداروا اصطدموا بالذين ما زالوا يندفعون الى الامام . . . اوقع بعضهم بعضا . . . راح رجال بوديونى يطعنون ويدوسون ويطاردون . . . بدأت صيحات وحشية . . . فى الضباب لم يرى غير فارس منكب على عرف فرس ، وآخر يلاحقه منحنيا على السرج لتوجيه ضربة بسيفه . . . . صهلت الخيول المهتاجة قاضمة باسنانها . . .

الآن استدارت جميع افواج القوزاق لتولى الادبار . الا ان عربات الرشاشات التى انغرزت عميقا فى جناحها قطعت الطريق عليها ، ودفعتها بنيرانها الى ناحية ، حيث اخترقت كوكبات جديدة من خيالة بوديونى كتلها المختلطة المرتبكة وهى تسعى الى الفرار .

استمرت مطاردة فرقتى مامونتوف حتى طلوع النهار . وتناثرت فى الحقل آلاف الجثث فى الستر القوزاقية الزرقاء ، وفى السراويل المزينة بالاشرطة الحمراء عند خطوط الدرز ، وانطلقت الخيول المذعورة بلا فرسانها .

فى وقت الغداء تجمع رجال بوديونى كمعسكر هائل فى حقل منبسط متجمهرين حول مطابخ ميدان جيدة من النحاس الصافى انتزعوها من العدو . وتصاعد البخار من قدور عصيدة الدخن المعتادة المطعمة بقطع من شحم الخنزير ، وقد اضيفت ، هذه المرة ، المكرونة والرز والفول واللحم المملح واشياء اخرى من هذا القبيل خلطها الطباخون لتحسين نكهتها .

وبعد ان شبع المقاتلون تماما دخنوا وتفاخروا فيما بينهم بما غنموا فى القتال من سيف فرسان من الفضة او قربينة يابانية ، او جواد من خيول الدون اصهب محجّل وذى غرة .

ولم يهدأ الهياج الذى خلفته المعركة ، وما كان له ان يهدأ ! عزفت الاكورديونات فى كل مكان . وترددت اصوات تناغمها اخرى «انتشرت السحب تحجب السماء ، وجثم الضباب على وجه

الحقل . . . » وعلى انغام البلالايكا دق الراقصون الارض بكعوبهم وسط الصفير مشمرين اذرعهم كما يشمر البجع جناحيه ، مقرفصين وضاربين الارض ضربات متتابعة .

ولكن الابواق تصدح من جديد داعية الى القتال ، الى العمل الصعب ! من بعيد مر بوديونى على فرسه فى عباءته القوزاقية وقبعة من فراء الاستراخان الفضى ، ومعه قائدا فرقتيه كلاهما . وبدأ الافواج تصطف من جديد ، وتوغلت فى صفوفها ثمانى رايات حمر رفرافة .

. . . .

ان الاندحار الذريع للطابور الاول اجبر البيض على التخلى عن تطويق بوديونى ، واحبطت خطتهم الاولى ، وسارع بوديونى بالاستفادة من الارتباك . ففى تلك الليلة عند الفجر هاجم رجال بوديونى الطابور الثانى من رجال مامونتوف ، ولم يتحمل الضربة هذا الطابور ايضا وتراجع الى سدة السكة الحديد تحت حماية القطار المصفح . خرج القطار من فورونيج ثقيلا مقرقعا عبر الجسور . كان الضباط المدفعيون تحت الابراج الفولاذية وقرب مدافعه من عيار ٦ بوصات ورشاشاته يمعنون النظر فى الضباب الآخذ بالتحول ببطء . وبين الحين والآخر كان يظهر على السدة رجل من رجال الاتصال يلوح بعلم صغير ، فيتوقف القطار دقيقة ليتلقى المعلومات . وهكذا اضحى معروفا الوضع الحرج للطابور الثانى الذى رده رجال بوديونى الى سدة السكة الحديد .

زاد القطار المصفح فى سرعته . وظلت الصافرة المبحوحة فى قاطرته تزعق بلا انقطاع لتنبئ رجال مامونتوف بمعونة عاجلة .

لمح المدفعيون الذين كانوا يعاينون من خصاص الابراج شبحا غير واضح فى الضباب . وقد انطلق على السدة للقاء القطار المصفح . اوقف القطار حركته ، وعاد يتحرك الى الوراء . واطلقت المدافع قذائفها على الشبح المتنامى بسرعة . ولكن الوقت كان قد فات . فان قاطرة بضائع كبيرة اطلقت باقصى سرعتها خالية من الناس ارتطمت بالعربة الفولاذية الامامية للقطار المصفح . وكانت القاطرة كلها قد عبئت بالديناميت من امام ومن الجانبين . ودوى انفجار . وفى الحال تفجرت القذائف فى العربة المصفحة من التماس . ووقفت

العربة المصفحة على طرفها فى دوامة من التراب والرمل والنار والدخان والبخار ، وتدحرجت مسحوقة ساحبة على منحدر السكة السلحفاة الفولاذية الضخمة برمتها .

وهرب الطابور الثانى من رجال مامونتوف الى فورونيج . وبدأ الطابور الثالث يتراجع الى هناك ايضا – بدون قتال الا انه اجبر على خوض المعركة فى اليوم الرابع من هذه المذبحة التى لا سابق لها ، وحطم كليا ، وتناثرت جثث القوزاق المطعونة على مسافة فراسخ من الحقول والتلال .

وتراجعت الى وراء النهر جميع فرق الدون وكوبان مدحورة متكبدة فى بعض افواجها ما يصل الى النصف من عدد رجالها . وفى الصباح الباكر من الرابع والعشرين تحركت قوات بوديونى الرئيسية الى هناك ، حيث وجدت الجسر الخشبى الذى كان محروسا من قبل القساوسة والطلاب العسكريين بقيادة تبلوف متروكا لم يلحقوا ان ينسفوه . كانت بعض البطاريات تطلق النيران من ناحية المدينة رافعة اعمدة من الوحل والماء . . وصل بوديونى الى الجسر ، ورأى الجسر واهى البناء . استدعى الموسيقيين ذوى الابواق الفضية ، وامرهم بان يعبروا الجسر الى الجانب الآخر من النهر ، وان يعزفوا هناك امرح الالحان واكثرها اثارة من موسيقى المارش والرقصات . كان طلاب الكونسرفاتور بالهيئة التى اخذوا فيها آنذاك – فى معاطف قصيرة ذات تطريزات صفراء وحمراء على الاكتاف – وقد تراكضوا عبر الجسر ، وما كادوا يعبرونه حتى اصابته قنبلة فانهار . وفى وسط هدير الانفجارات اخذ الموسيقيون شبه الاحياء من الفزع ينفخون فى ابواقهم الفضية ويصدحون . . . .

وسُلم كل مقاتل خيال قذيفة مدفع ليحملها فى يده ، وصاح امراء الوحدات والمفوضون «الى الامام ! » وقذفوا بانفسهم قبل وحداتهم فى الماء القارس البرودة الفائر المتطاير من القذائف المنفجرة . وفى وسط النهر انزلق الرجال عن سروج خيولهم وسبحوا وقد وضع كل فارس يدا على عرف فرسه ، ورفع القذيفة على الاخرى . وقفزت خيول المدافع الى النهر الغاضب ساحبة المدافع على قاع النهر . وعبر رجال بوديونى النهر واخذوا يهاجمون فورونيج بحرارة غضابا مبللين وعلى خيول مبللة . الا ان فرق مامونتوف وشكورو هنا

ايضا لم تتقبل المعركة ، وابتعدت بسرعة الى ما وراء الدون باتجاه كاستورنايا .

. . . .

كان دحر احسن خيالة البيض والاستيلاء على فورونيج احد العمليات الاولية لخطة عسكرية ضخمة وضعتها القيادة الجديدة للجبهة الجنوبية .

وقد تلقى قواد الجيوش والفيالق والفرق والالوية وامراء الافواج نسخا من هذه الخطة مطبوعة على ورق مزرق وموقعة بتوقيع ستالين . وصفت فيها – بالتفصيل ، وبشكل مفهوم لكل مقاتل احمر وممكن التنفيذ فعليا – عمليات جميع وحدات الجبهة الجنوبية ابتداء من منطقة اوريل وكرومى ، (التى كان يتراجع عنها تحت ضربات التشكيلة الخاصة بقيادة سيرغى اوردجونيكيدزه فرسان دينيكين المسحوقون تحت قيادة الجنرال كوتيبوف الذى اقسم بان يكون اول من ينفذ الى موسكو) ومن عمليات منطقة فورونيج وكاستورنايا (حيث اعطيت لفيلق بوديونى مهمة شطر جبهة البيض عند نقطة التقاء جيش الدون بجيش المتطوعين) وانتهاء باحتلال روستوف-على-الدون التى كان الطريق اليها يمتد عبر الثغرة التى احدثت خلال منطقة دونباس المنجمية البروليتارية .

وخلافا لتوقعات الجميع سواء اولئك الذين كانوا جالسين فى الفنادق المنتنة على حقائبهم فى اهبة السفر واثقين من ان الفرنسيين سيجلبون الى موسكو فى عيد العام الجديد الشمبانيا والمحار وحتى بنفسج بارما ، او اولئك الذين كانوا يقضون الساعات فى غرفة استقبال حاكم اوربا فى باريس ، وهم الآن مرفوعو الرؤوس ، وروسيا الدستورية فى ايديهم تقريبا ، حتى انهم لم يضبطوا انفسهم فدخلوا فى مكتب كليمانصو حيث يشتعل موقد ، وحيث جلس الدكتاتور الضئيل المكور الكتفين وحاجباه الاشيبان متدليان على مشروع سكون كالقبر يعم العالم ، ونهض الفرنسى ليقدم اصابعه المعقدة للروسى الذى كان يضغط عليها من شدة الفرح ، بل وخلافا لما توقع انتون ايفانوفيتش دينيكين نفسه الذى هجر منذ زمان لعبة «الفينت» فى ايام الجمع ، والذى بالرغم من ضعفه الذى يشترك فيه مع الجميع اخذ يؤمن بان له رسالة سامية – قام

البلاشفة الذين كانوا فى آخر رمق بشىء لا يتصوره العقل ، ونظموا هجوما مضادا جبارا رغم تفشى التيفوس والمجاعة الحادة للغاية والدمار الاقتصادى الكلى ، حتى تصدعت كل السياسة العالمية لخنق وتقطيع اوصال روسيا الحمراء ، تلك البلاد المترامية الاطراف التى كانت تمثل – اذا اردت الحق – لغزا لعقول اوربا الغربية .

وكانت لغزا ينابيع الهام الشعب الروسى . كما ان افكار السعادة للجميع والنظام الاجتماعى العادل – تلك الافكار التى ظُن انها قد انقبرت الى الابد تحت تلال جثث الحرب العالمية – قد انتشرت وكان عاصفة نشرت بذور سدرة الجنة فى روسيا المعدمة المخربة ، حيث ما يزال الريفيون الاميون يقص بعضهم لبعض حكايات اسطورية عن ايفان الابله ، وعن الساحرة بابا ياغا ، وعن الابسطة الطائرة ، والشيوخ العميان – رجالا ونساء – ينشدون اشعار الملاحم المطولة عن معارك الجبابرة ومآدبهم وحفلات زفافهم .

وربت هذه الافكار فى شعوب روسيا مرونة وصلابة النصل الفولاذى . ان الفلاحين الذين ما يزالون يحكون الحكايات ، وعمال المعامل نصف المتهدمة التى همدت مداخنها منذ زمان ، من خلال تغلبهم على المجاعة والتيفوس والخراب الاقتصادى التام يدحرون ويطاردون جيش دينيكين ، وهو جيش من الدرجة الاولى ، وقد اوقفوا عند مشارف بيتروغراد جيش يودنيتش الصدامى ودفعوه الى استونيا ، وحطموا وشتتوا فى ثلوج سيبيريا جيش كولتشاك الكبير العدد ، وقبضوا على حاكم عموم روسيا هذا ، واعدموه رميا بالرصاص ، وهم الآن يدحرون ويطاردون اليابانيين فى الشرق الاقصى . انهم ، الملهمون بافكار لينين – بالافكار فقط لان فى روسيا لا شىء يؤكل ولا شىء يلبس – يؤمنون بانهم اقوى من جميع من فى العالم ، وانهم سيبنون على خرائب دولتهم المعدمة ، وفى اقرب وقت مجتمعا شيوعيا عادلا .

٢٠

خيل الى كاتيا ان معدتها الآن ، لا تزيد على الارجح عن حجم محفظة صغيرة لحفظ قطع النقود المعدنية . ليس فيها ما يكفى الا

لما يزيد قليلا عن خمسين غراما من الخبز ، ولقطعة من سمك الفوبلا المسلوق ، ولبضع ملاعق من الحساء . وكانت المصيبة التى تجابهها هى فى التنورات التى اضحت فضفاضة عليها وليس لها ما تخيطها به ، ولا الوقت الذى يسمح لها بذلك . وبمقابل ذلك اضحت عينا كاتيا اوسع بكثير مما كانتا فى الخريف الماضى ، حيث كانت ماترينا تطعمها الفطائر الدسمة عن قصد .

كانت الصبايا فى المدرسة يقلن لها احيانـــا ، وهن يلوين افواههن الجائعة :

«يا عمة كاتيا ، ما احلاك . . . »

وكان ذلك يبعث السرور فى نفس كاتيا ، لان كل الحياة كانت فى المستقبل . والتذكار الوحيد عن الماضى – خاتم زمردى بومضته الخضراء الساطعة – قد ضاع وهى ما تزال فى قرية فلاديميرسكويه . اما الاشباح المحبوبة التى كانت تسكن هذا البيت المتداعى فى زقاق ستاروكونيوشنى ، فلم تعد تخطر فى ذاكرتها بينما كانت تتصور المستقبل الذى تتجـه نحوه كل الآمال ، كل افكار الناس المعذبين بالجوع وشدة القرس والخراب والحرب طريقا عريضا لامعا كزجاجة فى الشمس ، وسط المروج الخضراء والبحيرات المضببة المحاطة بكتل الاشجار الناعمة – طريقا يؤدى الى معالم مدينة خفيفة الزرقة معقدة فاخرة رائعة يجد الجميع ضالتهم من السعادة .

ذات مرة تحدثت كاتيا عن ذلك فى الدرس . واصغى الاطفال وقد اخلدوا للهدوء . والصبايا العاطفيات اعجبن بشكل خاص بان الطريق الى المستقبل يتلوى عبر المروج الخضر ، حيث من الممكن ان يطاردن الفراشات ، ويجمعن باقات من الزهور الصغيرة ، على شكل نجيمات . ووجد الاولاد الحكاية غير مرضية . فان كاتيا لم تقل شيئا عن القطارات المنطلقة فى كل مكان خلال هذه المروج ، مارة بمؤشرات الاتجاه ، وعبر الجسور المشبكة والانفاق ، ولم تذكر المداخن الضخمة التى يتصاعد منها الدخان ممراحا . واتفق الجميع على ان مدينـة المستقبل زرقاء بالطبع ، لهـا بيوت عالية تناطح السحب ، وترامويات شديدة السرعـــة ، ومراجيـح فى جميـع البولفارات ، واكشاك تبيـع الفطائـر والسجق . سألت كاتيا : «والدندرمـــه ؟» . الا انـــه تبين ان الاطفـــال لـــم يتذوقـــوا

الدوندرمه قط ، او ربما تذوقوها عندما كانوا صغارا ونسوهـا .

وكان على كاتيـا ان تحرص كثيرا على قوتهـا . قبل فترة قصيرة حملت جردلا مملوءا الى الفناء واحست فجأة بانها لا تستطيع ان تمضى بـه ، فوضعته على الارض ، واتكأت على الحائط مغالبة الغشاوة التى غطت على بصرها . ومن حسن الحظ ان المحاضرات عن الفن ظلت مؤجلة . فقد اقفرت موسكو تماما ، وكان من الممكن ان يسير المرء من اربات الى شارع ستراستنايـا دون ان يلتقـى بعابر سبيل . ومع ذلك فقد كانت «الازفستيا» تنشر فى كل يوم انباء انتصارات عسكرية . وتدفقت الجيوش الحمراء الى الدونباس فى سيل عريض عبر ثغره فى الجبهة عند كاستورنايـا ، واندلعت انتفاضات الفلاحين فى مؤخرة البيض . والآن لاحت للنظر نهايـــة للحرب والنكبات .

فى المساء ، والساعة تقترب من الثامنة ، كانت كاتيا جالسة فى حجرتها ، دون ان تشعل الفتيل . فقد كان الموقد «النحلة» يلقى ضوءا كافيا من خلال بابه نصف المفتوح . جلست كاتيا على مقعد واطئ ، والقت قطع الحطب بحذر ، فاشتعلت بضوء ساطع ، وفرقعت فرقعة لطيفة لانها كانت من نفس الطاقـة الشمسيـة التى تحدثت كاتيا عنها فى المدرسة .

كانت كاتيا تقرأ «الجريمة والعقاب» . يا الهى ، الى اى حد كانت تلك الحياة بلا مخرج ! وضعت كاتيـا يدها على الكتـاب ، وحدقت فى النار . ما ارهب الليلة التى قضاها سفيدريغايلوف فى الحانة الخشبية ، فى الجادة الكبيرة ! لقد كان نفس المطعم التى جلست فيه كاتيا مرة واحدة فى حياتها مع بيسونوف ، ولربما فى نفس الحجرة التى كـــان سفيدريغايلوف يزجى فيهـــا الوقت ساعـــة بعد ساعـة وقد عرف انـه غير قـادر على قهر الرعب والنفور من الحياة .

ان هذه اللعنة قد حطمت واحرقت وبددت . والآن يستطيع المرء ان يجلس هذه الجلسـة ويقرأ بهدوء عن الماضى ، ويكـوم الحطب فى الموقد ، ويؤمن بالمستقبل .

ترددت فى الممر خطوات غير متوازنة ، ومن الارجح انهم عادوا مرة اخرى الى ماسلـوف للتشاور . فى المدة الاخيرة اخـذ الناس

يترددون عليه باستمرار فى غبش المساء ، وكانت اصواتهم الغاضبة تسمع حتى فى غرفة كاتيا . ومهما كانت الساعة التى ينتهى فيها الاجتماع كان ماسلوف يوصل الناس الى المطبخ ، ويدق باب كاتيا بحذر :

«أمعقول انك آويت الى الفراش ؟ عيب ، عيب ان ينام المرء مبكرا . . . وانت امرأة عصرية . . . اى ،اى ، اى . . . »

وكان يدير مقبض الباب بالحاح ، وكانت كاتيا ترتجف من الغيظ . فقد كان ماسلوف عنودا ومعتدا بنفسه بشكل فظيع ، ويستطيع ان يبقى وراء الباب حتى الصباح .

«يكاترينا ديميتريفنا اريد فقط ان اجلس بهدوء قرب موقدك . . . اعصابى توترت . . اسمحى لى بطريقة رفاقية . . . »

وكان من المخف الاستمرار فى الصمت ، وفى آخر الامر تفتح كاتيا الباب . فيجلس امام الموقد ويأخذ بوضع قطع الخشب – وكانت كل قطعة منها اغلى من الذهب – وكان يضحك بغموض ويمد كفيه الضيقتين فوق حديد الموقد الحامى ، ويشرع فى الحديث عن موضوع قوة الجنس الرهيبة كالفضاء . . . والاستجابة لهذه القوة جمال ! وسائر الاشياء بيوريتانية عفنة . وفضلا عن ذلك فان كاتيا جميلة ووحيدة و «متحررة من الايواء» على حد تعبيره . وكان واثقا ثقة لا تتزعزع من انها ستسمح له ان لم يكن اليوم فغدا بان ينسل تحت لحافها .

واليوم ، وقد قرات كاتيا دستويفسكى كانت الاصوات فى غرفة ماسلوف تترامى الى سمعها موحشة . فقد كانت تتردد هناك هتافات عنيفة ، ثم تسقط بين الحين والآخر اشياء تبدو وكأن كتبا تقذف على الارض . واليوم لا بد انه سيأتى لتهدئة نفسه .

سمعت خربشة على الباب ، وانسل صوت خفيف عبر ثقب الباب : «يا عمة كاتيا ، هل انت فى البيت ؟» انها صبية ، كلافديا فى حذاء لبادى ضخم ربط بحبل .

– ارسلتنى زوجة تشيسنوكوف لاستدعائك . عندها روتشين من الجبهة .

– وهل الجو بارد فى الخارج ؟

– قطاعة ، يا عمة كاتيا ، ريح شديدة تجعل العين تزغلل ، ليت الثلج يتساقط ، ولكن لا ثلج . . . شتاء جنونى ، ولكن غرفتك دافئة ،يا عمة كاتيا . . .

كانت كاتيا غير راغبة فى الخروج الى البرد وجرجرة نفسها الى بيت زوجة تشيسنوكوف فى بريسنا ، وكان الشىء الاكثر ارهاقا انها ستضطر الى حديث حتمى فى الليل . ارتدت معطفها ، والقت لفاحا دافئا على راسها فوقه . وخرجت مع كلافديا الى الشارع بحذر لكيلا يتنبه ماسلوف . اندفعت الريح الليلية نحوهما من الزقاق المظلم بقوة جعلت كاتيا تغطى الفتاة الصغيرة باطراف منديلها . وكان الغبار يلذع الوجه ، والسطوح الحديدية تقرقع . كانت الريح تعول وتصفر وكان كاتيا وكلافديا آخر مخلوقين على الارض ، فقد مات كل شىء ، ولن تخرج الشمس بعد لتطل على العالم .

بالقرب من نافذة شاحبة الضوء فى بيت خشبى صغير ادارت كاتيا ظهرها للريح لتلتقط انفاسها . ومن خلال شق بين ستارتين لم توصلا بعضهما ببعض بشكل محكم رأت كاتيا حجرة مكتظة بالاثاث ، ومدخنة سوداء متصلة فى موقد بشكل ملتوى ، وفى وسط الحجرة ضوء «نحلة» وقد جلس بعض الاشخاص فى مقاعد وثيرة . وكان الجميع قد اسندوا رؤوسهم على اكفهم ، وراحوا يصغون الى شاب واقف امامهم يقرأ شيئا فى كراسة وقد رفع بشمم انفه المتجه الى الاعلى . وكان يرتدى معطفا مهلهلا مفتوحا على صدره العارى وحذاء لباديا ملفوفا بحبل رفيع ، كحذاء كلافديا . ومن حركة يديه والطريقة البطولية التى يهز بها شعره الكثيف غير الممشط عرفت كاتيا انه يلقى اشعارا . واحست كاتيا بدفء فى قلبها ، وابتسمت وادارت وجهها للريح ، وهرعت الى اربات دون ان تدع كلافديا تخرج من تحت منديلها .

كان بيت زوجة تشيسنوكوف حافلا بالناس – جميع زوجات العمال الذين خرجوا الى الجبهة ، وبعض الشيوخ يجلسون مجلس الصدارة عند طاولة ، حيث كان القادم يتحدث عن الشؤون العسكرية . اخذت النساء يسالنه والبعض يقاطع بعضا : هل سيخف وضع الخبز عن قريب ؟ هل يمكن توقع وصول الوقود

الى موسكو فى عيد الميلاد ؟ وهل توزع الاحذية اللبادية والمعاطف الفرائية فى وحدات الجيش ؟ وذكرت اسماء ازواج واخوان ليعرفن هل هم احياء معافون ، وكان هذا العسكرى كان قادرا على ان يعرف بالاسماء جميع العمال المقاتلين بالالوف فى جميع الجبهات .

لم تستطع كاتيا ان تشق طريقها فى الحجرة فوقفت عند الباب . وقفت على اطراف اصابعها ووقع بصرها خطفا على القادم يسجل شيئا فى ورقة صغيرة ، وقد انزل رأسه الملفوف بضمادة . وسأل :

– أهذه كل الاسئلة ، يا رفاق ؟

وسرت رجفة فى جسد كاتيا ، وكان هذا الصوت الواطئ القاطع النبرة قد نفذ فيها ممزقا قلبها . واستدارت فى الحال لتنصرف . لم يغب عن ذاكرتها شىء ، على ما يبدو . . . ان رنين الصوت الشبيه بذلك الرنين الحبيب الذى صمت الى الابد اثار فى نفسها اسى قديما ، الما قديما غيرمدعو وعديم النفع . . . وبهذا الشكل تعود فى الحلم الى ذاكرة انسان وحيد ذكرى ماضيه البعيد ، فيرى بيتا صغيرا فى غابة لم يقع عليه عيناه قط ، منارا بضوء باهت ، وبالقرب من البيت امه المتوفاة تجلس وتبتسم كما فى الطفولة البعيدة ، فيود ان يمد لها ذراعيه ، ويدعوها من الحلم الى الحياة ، ولكنه لا يستطيع ان يمسها ، وتظل هى صامتة تبتسم ، عندئذ يدرك ان ذلك مجرد حلم ، فتتحدر دموع نابعة من الاعماق على صدر النائم .

ولعل وجه كاتيا كان بهذا الشكل ، بحيث ان احدى النساء عند الباب قالت :

– يا مواطنات ، افسحن الطريق للمعلمة لتتقدم ، ضيقتن عليها تماما . . .

وفسحن الطريق لكاتيا لتتقدم الى الامام . فدخلت ورفع الرجل الجالس الى الطاولة راسه المضمد فرأت وجهه الصارم . وقبل ان يضىء الفرح ويوسع عينيه الداكنتين ترنحت ، واخذ الدوار يطوف براسها ، والوعى يتخلى عنها شيئا فشيئا ، وطنين الاصوات المتصاعد يبتعد ، والضوء يعتم ، كما حدث لها

حين كانت تحمل الجردل فى الرواق . . ابتسمت كاتيا فى احساس بالذنب ، وتتابعت انفاسها ، وشحبت ، واخذت تتهاوى . .

– كاتيا ! – صاح هذا الرجل شاقا طريقه بين الاشخاص – كاتيا !

امسكتها عدة ايد ، ولم تدعها تسقط على الارض . ووضع فاديم روتشين بين كفيه وجهها المنكس الحبيب الفاتن حيث الفم هامد نصف مفتوح ، والمقلتان مختفيتان وراء الجفنين .

– هذه زوجتى ، يا رفاق ، هذه زوجتى .

كرر روتشين محركا شفتيه المرتجفتين .

سارا والريح تهب على ظهريهما . كان فاديم روتشين يضغط كاتيا عليه من كتفيها الواهنتين . وكانت كاتيا تبكى طوال الطريق ، وتتوقف وتقبل روتشين . اخذ يحكى لها لماذا اعتبره الجميع ميتا ، بينما كان طوال عام يبحث عنها فى كل روسيا . الا ان ذلك كان حديثا مشربكا طويلا ولا حاجة له الآن على الاطلاق . وكانت كاتيا تقول احيانا «قف ، سرنا فى غير طريقنا . . .» ويستديران ، ويجوبان شوارع جانبية مظلمة خالية ، حيث كانت ديك الرياح الصدئة تصرف على المداخن ، وتقرقع صفائح الحديد نصف المخلوعة على السطوح ، وتحرك شجرة زيزفون عتيقة بعويل يمزق القلب اغصانها السود من وراء سياج مهدم . . .

فى زقاق ستاروكونيوشنى قالت كاتيا:

– هذا بيتنا ، هل تتذكره ؟ ولكن كنت تدخل من الباب الامامى فقط . انا اعيش فى نفس الغرفة ، يا فاديم .

عبرا الفناء ركضا . كان باب المطبخ مغلقا .

– آه ، غير لطيف . . . سنضطر الى دق الباب . . . اطرق باقصى ما تستطيع . . .

ضحكت كاتيا ، ثم بكت قليلا ، وقبلت فاديم وعادت تضحك من جديد . دق فاديم الباب بشدة بكلتا قبضتيه .

– من هناك ؟ من هناك ؟

سأل ماسلوف منفعلا وراء الباب .

– افتح ، انا كاتيا .

فتح ماسلوف الباب ، وكان القنديل الصفائحي يرتعش فى يده بغطائه الزجاجي . وحين راى عسكريا وراء كاتيا تراجع خطوات ، وقد انكمش خداه فى غضون طولية ، وتقلصت عيناه ببغضاء .

– شكرا .

قالت كاتيا ، وهرعت الى حجرتها دون ان تطلق يد فاديم . ودخلا الحجرة ، حيث ما تزال بقية من دفء . سألت كاتيا هامسة :

– هل معك اعواد ثقاب ؟

وكان شديد الانفعال ، حتى انه اجاب بهمس ايضا :

– معى . . .

واشعلت الضوء ، وهو قبس صغير فى علبة كان يكفيهما تماما لان يحدق احدهما فى الآخر طوال الليل . فكت لفاحها دون ان تصرف بصرها عن فاديم . وكان قد شاب تماما ، بل كانت فى حاجبيه بعض الشعرات البيض . وظهرت الرجولة على وجهه ، واكتسى مسحة غير مالوفة لها من الصرامة والسكينة . وقد سحرها ذلـك . فقد كان اكثر شبابا ورجولـة ووسامـة من ذلك الذى كانت تتذكره فى روستوف . رات الضمادة ، ففتحت فمها ، وتنهدت قائلة :

– هل انت جريح ؟

– خدش . . . ولكن بسببه حصلت على اجازة اسبوعين فى موسكو . . . كنت اعرف انك هنـا . . . ولكن هل كان يمكن ان اجدك ؟ (ابتسمت ابتسامـة فرح ذات معنى ضمنى وقد رفعت طرفى فمها) كدت ان الحق بك وانت فى القريـة . . . لقد طاردت كراسيلنيكوف . . (اختلج حنك كاتيا ، وهزت رأسهـا بغضب) كاتيا ، لقد قتلته . . . (اسبلت جفنيها واحنت رأسها) كاتيا ، كنت قد بدات ان اروى لك الملابسات التى جعلتك تتلقين نبا موتى . . . فى الحقيقـة اننى قد مت . . . (اخذت كاتيا تنظر اليـه بفزع ، وامتلات عيناها الواسعتان بالدموع مرة اخرى) . كنت مسافرا فى عربة قطار فى الليـل ، وقد فقدت كل ما اعيش من اجلـه ، وكنت مخطئـا فى الشىء الرئيسى ، وكان واضحـا لى اننى سا'قتل او انتحر . . . . اعذرينى ، يا كاتيـا ، ذلـك شىء مرهق وقاس ، ولكننى اريد ان ارويه . . . كنت افكر فيك ، لم يكن ذلك حبا ، اذ لم

يبق فى نفسى ما احب به ، ولكنه تفكير مجهد فيك ، كما يفكر المرء فى شىء لا يمكن تمزيقه ، وتركه ونسيانه ، لا يمكن ان يُخان . وهذا هو الشىء الوحيد الذى يربطنى . . كانت تلك الليلة فى عربة القطار تحطيما لكل شىء فىّ . . . والآن ، حين اتعرف فى الطرف الآخر من بندقيتى على وجوه مالوفة ، ادرك اى نفس سوداء محطمة ساصيب برصاصتى . . . .

وضعت كاتيا ذراعيها على كتفيه ، وضغطت خدها على قلبه وهو يدق دقات قوية متتابعة . ظلا واقفين وسط الغرفـة ، هو فى معطفـه غير المزرر ، وهى فى معطفهـا الفرائى . كانت تعرف انـه سيحدث الآن عن الشىء الاهم . . . الرجل العزيز الرائع . . . انه يريد ان يبرر نفسـه امامها لتحب فيه ذلك الشىء الجديد النزيـه الصارم المشبوب العاطفـة . . . عندما خرج فى روستـوف عن اطواره ، وهجرها كانت تعرف انـه سيتعذب عذابا قاسيا ، ويفهم كل شىء . . . استمعت وهى تضغط نفسها عليـه ، الى كلماته المبهمة المتقطعة ، وكانـه يخطط على عجل هيروغليفية عذاباته الجسيمة . . . ولكن كاتيا كانت تفهم كل شىء بدون كلمات . . . .

– كاتيا ، المهمة جبارة فوق كل مقياس . . . لم نحلم قط باننا سننفذها . . . انت تذكرين – فقد تحدثنا عن ذلك كثيرا – كم بدا لنـا مرهقـا وبلا معنى دوران التاريـخ ، وانهيار الحضارات العظيمة ، والافكار التى تحولت الى محاكاة تهكمية بائسة لها . . . تحت القميص المنشى لسترة السهرة نفس الصدر المشعر للانسان البدائى . . . كذب ! ان الغشاوة تمزقت عن العين . . . كل حياتنا الماضية جريمة وكذب ! روسيـا خلقت الانسان . . . والانسان طالب بحق الانسان فى ان يكون انسانا . . . ان ذلك ليس حلما . انـه فكرة ، وهى على رؤوس حرابنا وقابلـة للتحقيق . . . والضوء الباهر اضـاء الاقبيـة نصف المهدمة لجميع العصور الماضيـة . . . كل شىء قائـم على اساس ، كل شىء طبيعى . . . والهدف قد وجد . . . ويعرفه كل مقاتل احمر . . . كاتيا أتفهميننى الآن قليلا ؟ بودى لو اعبر لك عن كل ما فى نفسى . . . يا فرحى ، يا قلبى ، يا معشوقتى ، يا نجمتى . . .

وفجأة عصرها بين ذراعيـه بقوة حتى طقطقت كل عظامهـا ،

فزادت من انضغاطها على موضع القلب من صدره ، ولا غير . دُق الباب ، وصوت ماسلوف :

— يكاترينا ديميترييفنا ، هل تسمحين للحظة واحدة . . .

— ولما لم يرد عليه احد ، اخذ يدير مقبض الباب على عادته — المسالة انك تعرفين حالة الطوارئ في المدينة . وفي غرفتك رجل بعد الساعة العاشرة . . . ولما كنت مسؤولا . . .

— انتظرى ، ساتحدث معه .

قال روتشين وهو ينزل ذراعى كاتيا عن كتفيه .

— فاديم ، لا تخرج عن اطوارك ، ساتكلم معه بنفسى . . . اتوسل اليك ، ارجوك . . .

وخرجت وراء الباب في الحال ، واغلقته وراءها . كان ماسلوف يقف مبتسما ابتسامته الساخرة وهو ما يزال يمسك بالقنديل .

— لا يمكن ان تدخل في غرفتى ، يا رفيق ماسلوف .

قالت بلهجة صلبة لم تتحدث بها معه قط . اخذ ماسلوف يتراجع عن الباب مشيرا اليها بان تتبعه متفرسا فيها بهستيرية . سالت ، وهى تسير وراءه :

— ماذا ؟ ما تريد ؟ انا لا افهم . . .

— اريد ان انبهك ، يا يكاترينا ديميترييفنا ، بان لا تلقى اهمية لكارثتى . . . لا وجود لها . . . لقد ابلغوك ، بالطبع . . . في المنطقة كلها استبشار واحتفال بالنصر . . . ما زال الوقت مبكرا للاحتفال والاستبشار . . .

اجابت كاتيا غاضبة :

— انا لا افهم شيئا . باختصار ارجو الا تدق بابى . . .

— لا تكذبى ! انت تفهمين كل شىء . . . آه ، كم جربتك ! اسمعى ، اولا : استمرى في الحديث معى كما وكان البطاقة الحزبية لم ياخذوها منى . . . سيكون ذلك اكثر تبصرا . . . (واصدرت حنجرته غرغرة ، رغم انه كان يتكلم بخفوت وخمول) . لم يتغير شىء يكاترينا ديميترييفنا ! . . . ثانيا : ان ضيفك الليلى يجب ان يخرج في الحال . . . تريدين ان تسالى : لماذا اصر على ذلك ؟ هذا هو جوابى . . . (ووضع يده في الجيب الصدرى لسترته الملطخة المقطعة الازرار واخرج مسدسا مسطحا ، وامسكه في

راحته ، لتراه كاتيا) وبعد ذلك ، سنستمر في علاقاتنا السابقة . . . .

تملكت كاتيا رجفة شديدة ، حتى انها لم تستطع غير ان ترمش رمشا بطيئا . دفع روتشين الباب ، وخرج :

— ماذا تريد من زوجتى ؟

تغضن وجه ماسلوف حتى اذنيه ، وقرفص ليضع القنديل على الارض ، والمسدس يدور في يده .

— اى ، اترك هذا — قال روتشين وهو يتقدم منه ، وانتزع المسدس من يده ، ووضعه في جيب معطفه — غدا ساسلمه الى اللجنة الاستثنائية في المنطقة ، ويمكنك ان تتسلمه هناك . واذا اقتربت من بابنا مرة اخرى سالوى رقبتك . . .

وعادا الى الغرفة . طقطقت كاتيا باصابعها صامتة . خلع روتشين معطفها عنها .

— كل شىء مفهوم ، يا كاتيا . وهو لن يحشرنفسه هنا بعد الآن . اغلب الظن اننى سمعت عن ماسلوف هذا وانا في الجبهة . انه من اولئك الذين يفسدون الجيش . . .

وخلع معطفه ، وحط بالقرب من كاتيا الجالسة على مقعد ذاهلة ، ووضع راسه على ركبتيها . اخذت يداها تمران على شعره وخديه ورقبته . وكلاهما قد نسى فورا حادثة ماسلوف الحمقاء . جلسا صامتين . واخذ يعتمل في نفسيهما قلق جديد وشديد وغريب الى الابد وبكر — في نفسه فرح اشتهائها ، وفي نفسها فرح الاحساس بفرحه . . .

— اقوى بمليون مرة ، يا كاتيا .

— وانا ايضا . . . رغم اننى دائما ، دائما ، يا فاديم . . .

— أتشعرين بالبرد ؟

— لا ، لا . . . مجرد اننى احبك جدا . . .

جلس الى جانبها في المقعد العريض القديم وقبل عينيها وفمها وطرفى شفتيها . وقبلها من صدرها ، وتذكرت كاتيا ان في ثديها الايسر شامة الولادة التى كان معجبا بها لسبب ما . فكت ازرار بلوزتها الصوفية ليقبل الشامة .

برد الموقد «النحلـــة» بالفعل ، وصارت الغرفـــة باردة . قرفص فاديم عند الموقد ، وهو يلقى بنظراتـــه الى كاتيا طوال الوقت ، ويبتسم عن اسنان منظومة ، ونفخ فى الجمر واضعا كتل الخشب المقطوعة من قوائم وظهور المقاعد من الخشب الاحمر . وعاد الدفء من جديد . واحمرت كاتيا وهى تخلع ملابسهـــا ، وضحك فاديم ، واحتوى وجهها براحتيه ، وقبله .

ظلت الريح تعول فى المدخنة طوال الليل ، وتخفق فى صفائح الحديد . نهضت كاتيا عدة مرات كالربة التى احبها كيوبيد وعدلت فتيلة المصباح ، وهى لا تصرف بصرها عن وجه فاديم النائـــم . كانت ممتلئة بالسعادة وعارفة انه ممتلئ سعـــادة ايضا ، ولهذا السبب كان وجهه على هذه السكينة والرصانة .

— كاتيا ، كاتيا ! — صاحت داشا وهى تندفع فى المطبخ — كاتيا ، حبيبتى كاتيا !

وتردد فى الممر وقع حذائها اللبادى المتجمد . واندفعت نحو كاتيا ، وطوقتها ، وقبلتهـــا ، وابتعدت عنها ، ونظرت مشبوبـــة العاطفـــة ، وعادت تحتضنها وتمسد لها . كانت تفوح منها رائحـــة ثلج وفراء اغنام وخبز اسود . وكانت ترتدى سترة من فراء الاغنام، منديلا ريفيا ، وقد تدلت صرة وراء ظهرها .

— كاتيا ، حمامتى ، عزيزتى ، شقيقتى . . . كم اشتقت لك وحلمت بك . . . لا ، تصورى فقط اننا اضطررنا ان نمشى على الاقدام من محطة يارسلافسكى . ان موسكو كالقرية : هدوء وغربان زرع وثلج ، ودروب علمتهـــا الاقدام فى الشوارع . . . مسافـــة بعيدة ، ورجلاى تكادان تنطويان . . . اما كوزما كوزميتش فيحمل بودين من الطحين . . . وصلنـــا الى ستاروكونيوشنـــى . . . ولم استطع ان اجد البيت ! قطعنا هذا الزقاق بطوله ثلاث مرات . . . ويقول كوزما كوزميتش ليس هو الزقاق المقصود . . . وتملكنى الغيظ ، فقد نسيت البيت ! . . . وفجاة . . . لا ، تصورى فقط ! من الركن خرج رجل فى لباس عسكرى . تقدمت منه : «من فضلك ، يا رفيق . . . » اما هو فقـــد تفرس فىّ بملء عينيـــه . . . فتحت فمى

دهشـــة ، وجلست على الثلج . . . فاديم ! واتصور ان عقلى قد غاب عنى ، الموتى صاروا يمشون فى شوارع موسكو الخلفية . . . واغرب هو فى الضحك ، وقبلنى . . . ولم استطع ان انهض . . . كاتيا يا حسنائى ، يا شقيقتى الذكيـــة . . . نحن بحاجـــة الى عشر ليال لكى تروى الواحدة للاخرى ما لديها من اخبار . . . يا ربى ، انا اعرف هذه الغرفة . . . والسرير وصندوق الادوية . . . حدثنى فاديم عن ايفان . بعد ايام سيتوجه قطار اسعاف الى وحدتهم وقد قررت ان اسافر عليه كممرضـــة ، وستصحبنى انيسيـــا وكوزما كوزميتش . . لن نتركه وحده هنا ، فيتعفرت . . . كاتيا ، نريد اولا ان ناكل . . ضعى السخّان . . . ثم نغتســـل . . . قضينـــا اسبوعا فى عربة بضائع قادمين من يارسلافل . . . يجب ان نخلع ملابسنا كلها ونغليهـــا . سنبقـــى الآن فى المطبـــخ ولا ندخل الى غرفتك . . . تعالى اعرفك بصديقىّ . . انسانان رائعان ، يا كاتيا ! وانا مدينة لهما بحياتى وبكل شىء . . . سنسخن الموقد بانفسنا ، ونغلى الماء . . هناك عدد كبير من مختلف الاثاث . . . كاتيا ، أمن المعقول انك لم تشيبى قط ؟ يا الهـــى ، تبدين اصغر سنـــا منى بعشر سنين . . . انا واثقة من ان اليوم الذى سيجتمع فيه شملنا قريب ، قريب جدا . . . .

فى موسكو كان الشوفان يوزع ببطاقات التموين . ان عاصمة الجمهورية لم تمر قط بوقت عصيب يشابه شتاء عام ١٩٢٠ . فان هجوم الجيوش الحمراء قد ابتلع كل القوى الحية . ونفدت بسرعة احتياطات القمـــح والفحم المستولى عليهـــا من البيض . . وكانت الولايات الغنية التى مر بها القوزاق وجيش المتطوعين قد خربت . فكانت فصائل التموين العمالية لا تجد فيها غير فوائض هزيلة من القمح .

فى الذكرى السنوية للحملة الجليدية هرب جيش المتطوعين الى نوفوروسيسك ناثرا فى وحول كوبان المتعذرة الاجتياز العربات المهملة المحملة بالامتعة ، والمدافع الغاطسة فى الوحل ، وجيف الخيول . انتهى كل شىء . وهاجر انتون ايفانوفيتش دينيكين على

ظهر بائة الغام فرنسية وقد تفشى الشيب فى شعره واحدودب ظهره ، ليكتب مذكراته فى الهجرة . وعبرت الفلول الهزيلة لافواج المتطوعين على سفن النقل الى القرم . وادرك قوزاق الدون وكوبان اخيرا انهم قد خدعوا بقسوة ، ودفع القوزاق ثمن عنادهم بقبورهم المجهولة المنتشرة من فورونيج الى نوفوروسيسك .

كان الشتاء ما يزال فى موسكو . وزوابع آذار ترمى المدينة بالثلوج . وقد استنفدت المواقد جميع الاسيجة والاثاث الزائد . وتوقفت المعامل والمصانع . وكان المستخدمون فى الدوائر يجلسون الى مكاتبهم فى معاطفهم وينفخون بانفاسهم على اصابعهم المنتفخة لكى يستطيعوا ان يحتفظوا بالاقلام بايديهم بطريقة من الطرق ، فقد تجمد الحبر فى المحابر تماما فى انتظار الايام الدافئة . وكان الناس يمشون ببطء ، وهم يحملون على الدوام حقائبهم الظهرية . وقليلون منهم كانوا قادرين على السير من بيوتهم الى اماكن عملهم دون ان يتوقفوا ليستريحوا فى كومة ثلج او يتكئوا على مداخل البيوت اتقاء من الريح . وكانت المجاعة رهيبة وكان الناس يحلمون فى نومهم بخنوص مسلوق موضوع فى صحن ، وقد وضعت فى فمه قطعة بقدونس ، وفى الحلم كانوا يمضغون باسنان فارغة لحم الخنزير المقدد الدسم والبيض المسلوق . الا ان افكار الجميع كانت متاججة ، فقد دمر غول العداء للثورة العنيد الدموى الخانق ، والحياة تاخذ خطا صاعدا ، ولم تبق الا شهور قليلة من الحرمان والعذاب ، وسياتى قمح جديد ، وتشتغل الجيوش الحمراء المسرحة بالعمل السلمى ، بترميم جميع الاشياء المخربة وبناء ذلك الشيء الجديد الذى ستنسى فيه جميع العذابات ، كل مرارة المساءات الماضية . . . .

تحققت رغبة داشا . فقد اجتمع شملهم من جديد . حصل ايفان ايليتش وروتشين على اجازة قصيرة فسافرا الى موسكو فى قطار الاسعاف الذى تعمل فيه داشا ، ووصلوا اليها فى صباح غائم من آذار . حين كانت السحب الرمادية تتلبد فوق المدينة ، والثلج

ينحدر من السطوح ، وتتساقط دلايات الجمد الضخمة ، والهواء الثقيل فواح ومنذر بالقلق .

استقبلتهم كاتيا فى محطة القطار . كان روتشين اول من رآها من بسطة العربة ، فقفز والقطار لم يتوقف بعد . ركضت كاتيا نحوه متالقة بالفرح – فى عينيها وابتسامتها – خلال دخان القطار المتلوى بين الاعمدة الحديدية . فبدت له اعذب مما بدت له فى لقائهما فى كانون الاول . وكانت كل حياة حبهما فى هذه اللقاءات القصيرة . انزويا فورا فى ناحية تحت الساعة . الا ان داشا الغيور جرت زوجها تليغين اليهما . وكانت تريد ان تسمع شقيقتها تبدو اعجابها بايفان ايليتش بصوت عال :

– كاتيا ، انظرى اليه . . . أتلاحظين كيف تغير ؟ فى بطرسبورغ كان فى وجهه عدم اكتمال . . . كما كانت عيناه ايضا مختلفتين . . . ارجو المعذرة ، يا ايفان . . . ولكن عندما كنا فى السفينة التى اقلتنا الى سامارا كانت لك عينان زرقاوان فاتحتان ، بل بمسحة من الحماقة حتى ان ذلك اقلقنى . . . اما الآن فهما بلون الفولاذ . . .

كان ايفان تليغين يقف امام كاتيا ، وقد زفر بتشنج من امتلائه بالاحاسيس . وبدا لكاتيا ايضا جذابا جدا اليفا هادئا ومتزنا.

– واليك صورته كاملة ، يا كاتيا . . . اثناء المسيرات – بل تصورى – حتى حين كان يطارد مامونتوف على ظهر حصانه كان يحمل معه فى عدل سرجه – احزرى ماذا ؟ – دميتين خزفيتين لقطة ولكلب كان قد اهداهما لى فى يوم زفافنا الثانى فى تساريتسين . . . لاننى قد اعجبت بهما كثيرا . . .

هرع كوزما كوزميتش نحو كاتيا ، وقد قفز من العربة لدقيقة . وظل يهز يدها بكلتا يديه وقتا طويلا والتمع وجهه الاحمر الحليق تماما سرورا ووفاء . وكان يبدو فى مريوله الابيض ممتلئا حتى ان الناس النحاف المارين به على الرصيف نظروا اليه بعداء.

– احببتك ، يكاترينا ديميتريفنا خلال ايام قصيرة قدر محبتى لداريا ديميتريفنا . . . انا اقول دائما ليس فى العالم نساء اروع من الروسيات . نقيات فى مشاعرهن ومتفانيات ، ويعشقن الحب وشجاعات حين تقتضى الشجاعة . . . انا فى خدمتك دائما ، يكاترينا ديميتريفنا . . . . ما ان انتهى من شؤونى حتى اهرع

اليك عند الغداء لاجلب لك اشياء جلبتها من روستوف . . . الفصل ربيع عندنا في روستوف . . . ومع ذلك فان الشمال احلى على القلب . . . حسنا ، اعذريني . . .

واقبلت انيسيا في مريول ايضا . كانت خيبة الامل تبدو على وجهها بعينيه الواسعتين . فقد كانت تريد ان تبقى في موسكو في هذه السفرة ، الا ان كبير الاطباء – بطريقة غير سوفييتية على الاطلاق – وحتى دونما رغبة في الاصغاء قال : «اى مدارس مسرحية هذه ! عن قريب ستحدث معارك كبيرة مجددا ، وتخلف الجرحى . لا اسمح لك ! »

– لا باس ، سانتظر حتى الخريف – قالت لداشا ومسحت انفها بطرف منديلها – الاعوام تمر ، وانا افقدها ، وهذا هو المؤسف . . . لاتوغين هنا ، وقد جاء لاستقبالى ، عفريت ايضا . . . جاء مندوبا الى المؤتمر . اصبح فخورا وجديا . . . وهو يقول انه لليوم الثالث يهرع الى محطة القطار ليستقبل قطارنا للاسعاف . . . ذهب ليقنع كبير الاطباء ليسمح لى باجازة ليوم واحد . . . داريا ديميتريفنا ، حدثنى عن اغريبينا ، انها في ساراتوف ، وقد وضعت مولودا لا اعرف ان كان ولدا او بنتا ومرضت مدة طويلة . . . وعادت الى الفوج مع وليدها . . مسكينة ، لها خلق صعب ، لا تحب الا مرة واحدة . . .

خرجوا من محطة القطار ومشوا خلال موسكو كلها على الاقدام الى زقاق ستاروكونيوشننى ، فقد اعدت هناك غرفة لداشا وتليغين ، وهى نفس غرفة ماسلوف . وقد انقضى شهران وهو غائب ، في بداية الامر حمل كتبه ، ثم اختفى هو الآخر . . . ساروا ببطء بسبب كاتيا . اراد فاديم روتشين ان يضعها على يديه ، ويحملها تحت هذه السحب الربيعية الشعثاء المخيمة على موسكو . وتاخر تليغين وداشا عنهما لكيلا يضايقاهما . قالت داشا :

–انا اخشى على كاتيا . موسكو وهذه المدرسة ستقضيان عليها . وهى لا تاكل شيئا . . . خلال ثلاثة اشهر صارت نحيلة جدا . . . يجب ان ناخذها معنا في القطار . . . سيكون في امكانى ان اطعمها . . . اما هنا فهى لا تاكل شيئا ، وهذا غير معقول .

قال تليغين بخفوت وبدلالة :

– نعم ، ثم ان فاديم يتعذب بدونها ايضا . . .

ولحق بهما لاتوغين وانيسيا بعد قليل . وكانت انيسيا قد خلعت مريولها ، وقد توردت وجنتاها . سلم لاتوغين الجهم الجدى بطريقة متحفظة ، واخرج من ردن معطفه اربع تذاكر للضيوف الى مسرح البلشوى ، في اعلى طابق . وقال وهو يوزع التذاكر :

– نعم ، في الجبهة اسهل مما عندكم في موسكو . كان علىّ ان اخوض معركة كبيرة من اجل هذه التوافه . . . ومن حسن الحظ ان الملاحظ كان من بحارتنا على الطراد «افرورا» . . . ولهذا يجب الا تتاخروا . اليوم اجتماع مهم . حسنا ، يا انيسيا ، لنذهب . . .

كانت مئات المصابيح الكهربائية لا تكاد تضىء بضوئها المحمر الداكن صالة مسرح البلشوى بطوابقه الخمسة حيث ارتفع الضباب المتخلف من انفاس الحاضرين . وكانت الصالة باردة ، وكانها قبو . وعلى المسرح الواسع الذى سدت مؤخرته باقواس من الجنفاص جلس اعضاء الرئاسة حول منضدة قائمة في الجانب ، وقريبة من اضواء مقدمة المسرح الشاحبة . اتجهت رؤوس الجالسين جميعهم الى نهاية المسرح حيث علقت على كلاليب الديكور في اعلى المسرح خارطة روسيا الاوربية وقد تغطت ببقع ودوائر من مختلف الالوان تكاد تملأ كل سطحها . وامام الخارطة وقف رجل صغير الجسم في معطف فرانى حاسر الراس . وكان شعره المتدلى من جبينه الواسع يلقى ظلا على الخارطة وكان يمسك في يده عصا بليارد طويلة ، يشير بطرفها من حين لآخر ، وهو يحرك حاجبيه الكثيفين الى هذه البقعة الملونة او تلك فكانت تضاء في الحال بضوء ساطع حتى ان ذهب الطوابق الكامد في الصالة ياخذ بالتلالؤ ، وتبدو للعيان الوجوه النحيلة المجهدة بعيونها المتسعة باهتمام .

وتكلم بصوت عالى النبرة في السكون المتوتر :

–عندنا في روسيا الاوربية وحدها من الخث المجفف بالهواء ما يقدر بعشرات التريليونات من البودات . ونحن نملك من احتياطياته ما يكفى لقرون . والخث وقود محلى . ومن فدان واحد من مستنقع الخث يمكن ان نحصل من الطاقة على ما يزيد خمسا وعشرين مرة على ما نحصل عليه من فدان واحد من الغابة . ويحتل الخث المرتبة الاولى تليه القوة المائية والفحم ، وكلها تحل المشكلة

التى تجابهنا ، مشكلة البناء الثورى . لان الثورة التى انتصرت فى ميدان القتال فقط ولم تنتقـل الى التحقيق الفعلى لافكارها ، ستخمد مثل عصفة ريح . لقـد اشار فلاديمـير ايليتش لينين الجالس بيننا ، والذى الهمنى تقريرى لهذا اليوم قد اشار الى الخط العام للثورة الخلاقة : الشيوعية هى السلطة السوفييتية زائدا الكهربة . . .

– اين لينين ؟

سالت كاتيـا ، وهى تطل من علو الطابق الخامس . كان روتشين يمسك بيدها النحيلة طوال الوقت ، فاجاب بهمس ايضا:

– انه هناك ، صاحب المعطف الاسود . انظرى ، انه يكتب بسرعة ، ها قد رفع راسه ، ويلقى قصاصة ورق عبر الطاولة . . . انـه هو . . . امـا الشخص النحيـل ذو الشاربين الاسودين عند الحافة فهو ستالين ، الرجل الذى هزم دينيكين . . .

وكان الخطيب يقول :

– فى الاماكن التى تكمن فيها ميليارات البودات من الخث فى صمت روسيـا المزمـن ، وفى الاماكن التى تهبط عليهـا الشلالات او يسوق نهار جبار مياهه سنبنى المحطات الكهربائية ، وهى الفنارات الحقيقية للعمل الجماعى . لقد تحررت روسيا الى الابد من نير المستثمرين ومهمتنـا ان نضيئهـا بوهج لا يخبو من النار الكهربائية . ان لعنة العمل الماضية يجب ان تصبح سعادة العمل .

ورفع عصاه واشار الى مراكز الطاقة المقبلة ، ومررها على الخارطـة راسمـا الدوائـر التى كانت تومـئ الى مواقـع الحضارة الجديدة المقبلـة ، وتالقت البقـع كالنجوم فى اغبشاش المسرح الواسع . لقد كلفت اضاءة الخارطة بهذه الاضاءة ولهذه اللحظات القصار تجميع كل طاقة المحطة الكهربائية فى موسكو ، وحتى فى الكريملين فكت جميع المصابيح فى مكاتب مفوضى الشعب ما عدا واحدا بقوة ١٦ شمعة .

فى القاعة كان الناس الذين كانوا يحملون فى جيوب معاطفهم العسكرية وسترهم المثقبة بالرصاص حفنـة من الشوفان وزعت عليهم اليوم بدلا من الخبز يستمعون مبهورى الانفاس الى آفاق الثورة العظيمـة والقابلـة للتحقيق بالفعـل على الرغـم من ذلك ، فالثورة تدخل الآن فى طريق الخلق .

كان تليغين يقول لداشا خافت الصوت :

– تقرير مفيد . انـا اعرف المهندس كرجيجانوفسكى هذا بشكل جيد . سننهى الحرب واعود الى المصنع ، فانا ايضا عندى افكارى . . . لدى رغبة شديدة فى العمل ، يا داشنكا . . . اذا كانوا يضعون مثل هذه القاعدة الكهربائية ، فسيكون فى الامكان القيام بكل شىء . فما اعظم ثرواتنا ! واذا قمنـا بعمل حقيقـى فى هذه البلاد الجبارة ، فاننا سنتفوق على امريكا ! نحن اكثر غنى . . . سنذهب سوية الى الاورال . . .

قالت داشا له :

– وسنعيش فى بيت من جذوع الشجر نظيف تماما ، فيـه قطرات من صمغ الصنوبر ، ونوافذ واسعـة . . . وفى صباحات الشتاء سنشعل الموقد . . .

وهمس روتشين فى اذن كاتيا :

– أتدركين اى معنى ستتخذ جهودنا كلها والدم الذى ارقناه ، وجميع عذاباتنا الصامتة غير المعروفة . . . سنحول العالم بجهودنا الى مكان للخير . . وكل الذين فى هذه القاعة مستعدون للتضحيـة بحياتهم من اجل ذلك . . . ليس هذا مجرد خيال انهم يستطيعون ان يروك الندوب والبقع الزرق التى خلفهـا الرصاص ... وهذا فى وطنى ، هذه روسيا . . .

– لقد استقر العزم ! – كان الرجل عند الخارطة يقول متكئا على العصا وكانه يتكئ على رمح – اننا نقاتل وراء المتاريس من اجل حقنا وحق العالـم فى ان نقضى مرة والى الابد علـى استثمار الانسان للانسان .

٢٢ حزيران ١٩٤١